محمد يوسف مقلد

شعراء موريتانيا

القدماء والمحدثون

مكتبة الوحدة العربية
الدار البيضاء

Date.
....
....
J. & K. UNIVERSITY LIBRAR
This book should be returned on or before the la
An overdue charges of 6 nP. will be levied for each
kept beyond that day.

0 : 28

شعراء موريتانيا

Date........................

Call No.........

Account No.........

J. & K. UNIVERSITY LIBRARY

This book should be returned on or before the last stamped above. An overdue charges of 6 nP. will be levied for each day. The book is kept beyond that day.

محمد يوسف مقلد

شعراء موريتانيا

القدماء والمحدثون

عرض عام لتاريخهم وآثارهم ونصوص من شعرهم
شغل أدبية إفريقية مغمورة وبعث تراثي يُعرف لأوّل مرة في المشرق

الأدب تراث انساني لا يفرق
بين الجنس واللون والدين
« مقدمة الكتاب »

إنّا بنو حسنٍ ، دلّت فصاحتُنا   أنّا إلى العربِ الأقحاحِ ننتسبُ
إنْ لم تقمْ بيّناتٌ أنّنا عربٌ   ففي « اللسانِ » بيانٌ أنّنا عربُ .
أنظرْ إلى ما لنا من كلِّ قافيةٍ   لما تُذمُّ شذورُ الزبرجِ القُشُبُ !

محمد فال ولد عينين الموريتاني

منشورات
مكتبة الوحدة العربية
الدار البيضاء

عنوان المؤلف :
ص . ب ١٠٨٥
بيروت ـ لبنان

KASHMIR UNIVERSITY
Iqbal Library
Acc. No 311764
Dated 27-5-91

الطبعة الاولى
بيروت ، كانون الثاني (يناير) ١٩٦٢

خطوط موريتانية مصورة

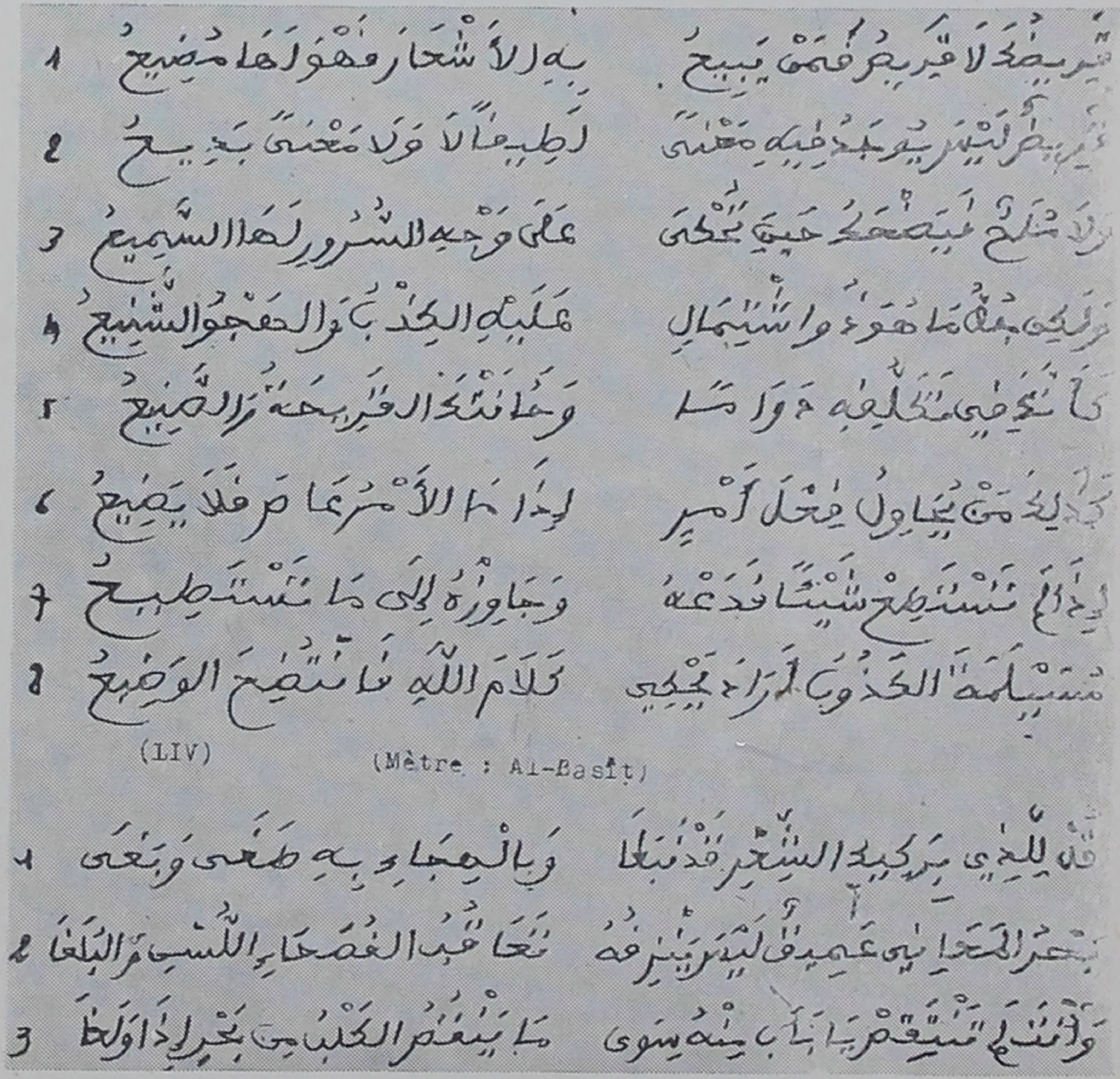

صورة الصفحة ١٠٧ من مخطوط الاستاذ محمد باباه الموريتاني وهي تمثل إحدى قصائد ابو بكر بن ابـي بكر الفاضلي اول الشعراء المحدثين (راجع القصيدة بين قصائد الشاعر في الكتاب) .

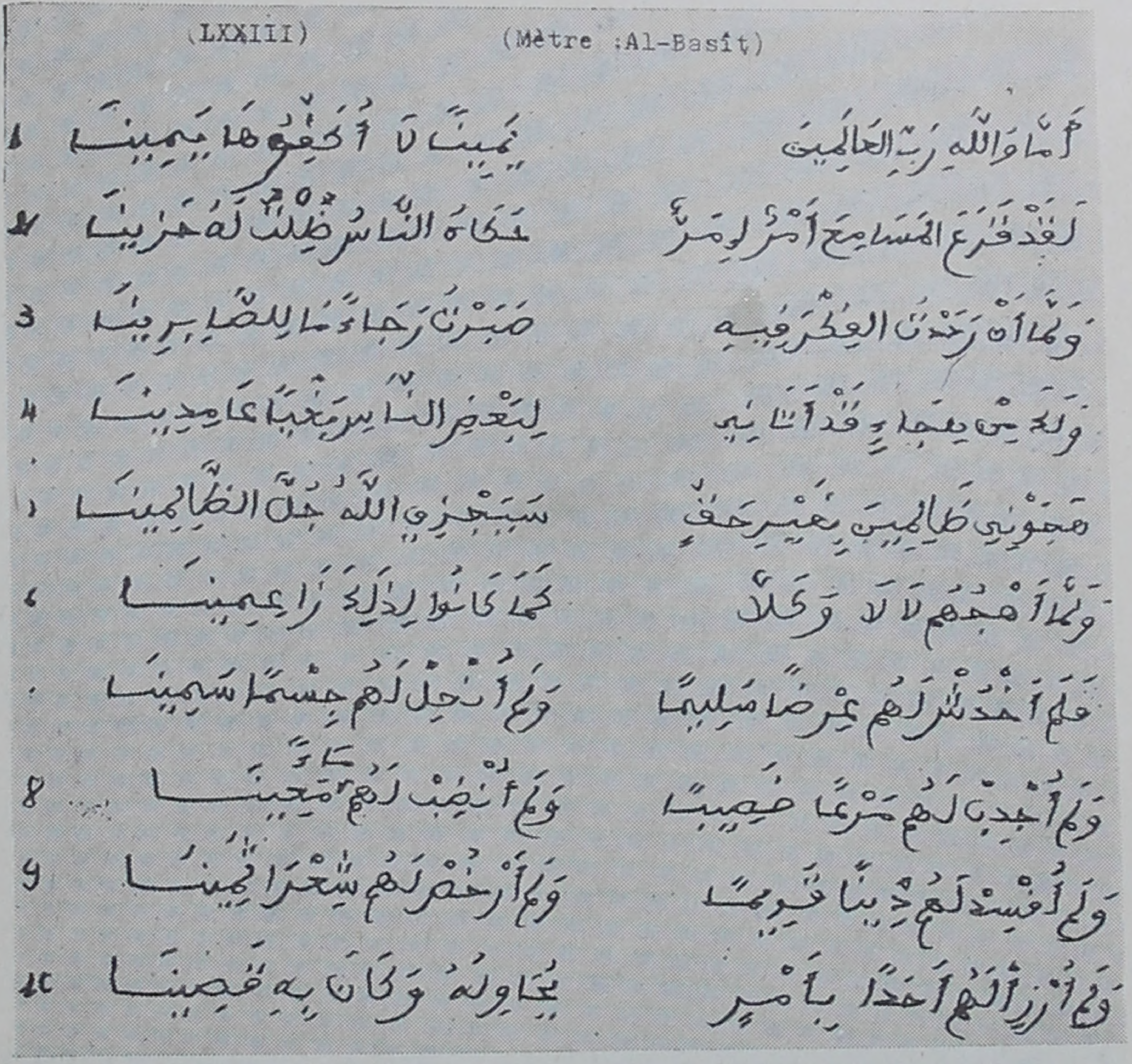
(LXXIII) (Mètre :Al-Basît)

أما والله رب العالمين ... يمينٌ لا أكفّرها يمينا 1
لقد قرع المسامع أمرُ لومٍ ... حكاه الناس ظلّك له حزينا (?) 2
ولمّا أن رجعت العكر فيه (?) ... صبرت رجاء ما للصابرينا 3
ولكن يعجلٍ قد أتاني (?) ... ليبغض الناس مختبًا عامدينا (?) 4
فحوني ظالمين بغير حقٍّ ... سيجزي الله جلّ الظالمينا 5
ولما أفحمهم لا لا وكلا ... كما كانوا لذلك زاعمينا 6
فلم أخدش لهم عِرضًا سليمًا ... ولم أنحل لهم جسمًا سمينا 7
ولم أجدب لهم مرعًى خصيبًا ... ولم أنضب لهم معينا (?) 8
ولم أفسد لهم دينًا قويمًا ... ولم أرخص لهم شعرًا ثمينا 9
ولم أزر لهم أحدًا بأمرٍ ... يحاوله وكان به قمينا 10

صورة الصفحة ١٢٣ من المخطوط الآنف الذكر ، وهي تمثل احدى قصائد الشاعر نفسه ايضاً . (راجع آخر قصائد الشاعر في الكتاب) .

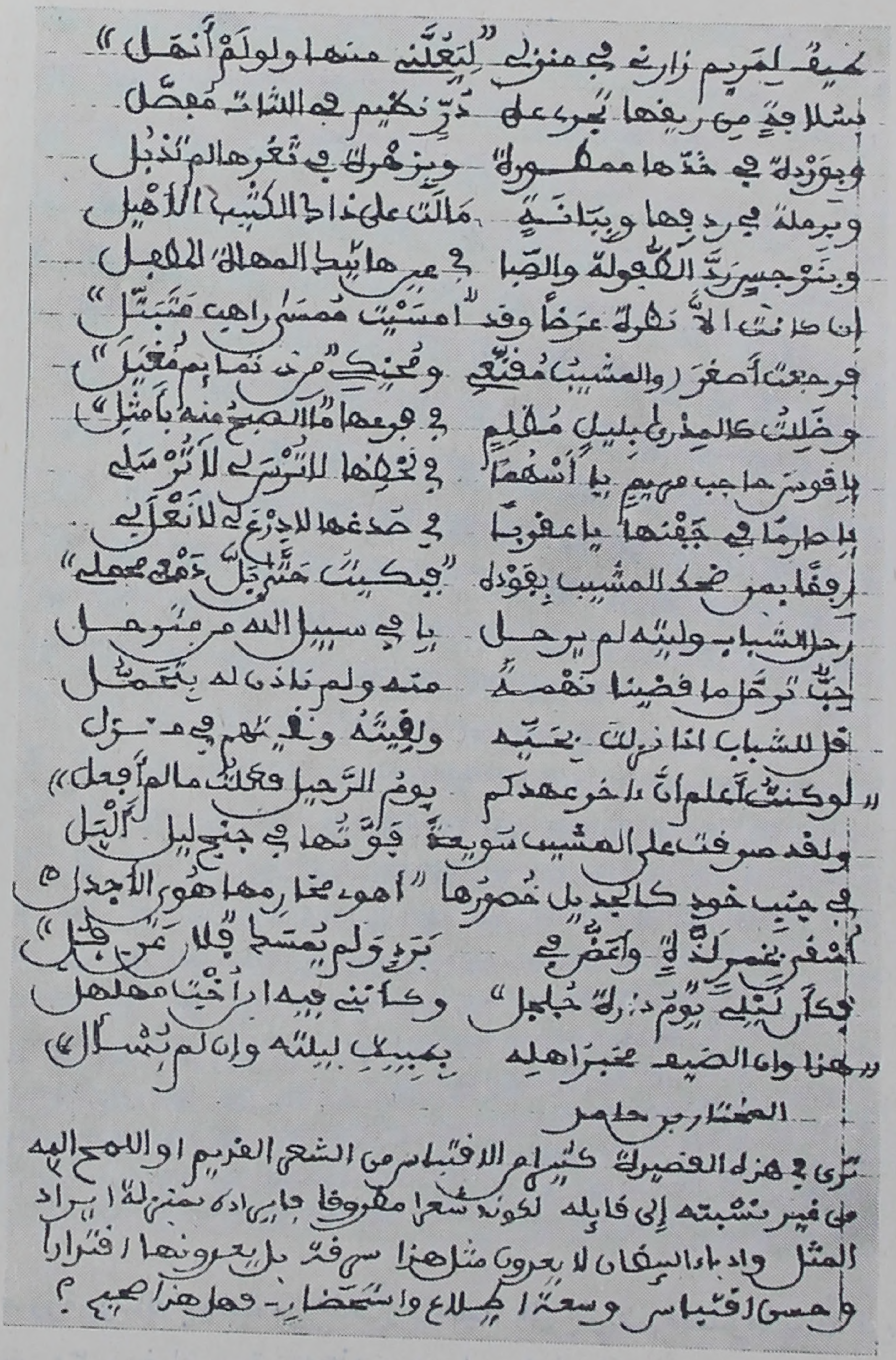

لهفي لمريم زارني في منزلي "ليتعلني منها ولو لم أنهل"
بسلافة من ريقها تجري على در نظيم في الثنايا مفصل
وبوردة في خدها مقطورة وبزهرة في ثغرها لم تذبل
وبرملة في ردفها وبنانة مالت على ذاك الكثيب الأهيل
وبتوجيه رد الكهولة والصبا في عمرها بيد المهال الماهل
إن كان تلك الآن تهوله عرضا وقد أمسيت فيمن راهب متبتل
فرجعت أصغر والمشيب مقنعي وضحكت "من نمائم مقبل"
وظللت كالمذري بليل مظلم في فرعها "ما الصبح منه بأمثل"
يا قوس حاجب مريم يا أسهما في لحظها للقوس لا أنت ملي
يا طرما في جفنها يا عقربا في صدغها لا أدر لي لا تغلي
وقفا بمن ضحك المشيب بفوده "فبكيت حتى بل دمعي محملي"
رحل الشباب وليته لم يرحل يا في سبيل الله من مترحل
جب ترحل ما قضينا نهمة منه ولم نأذن له بتحمل
قل للشباب إذا ذهلت بحبه ولقيته ونفوسهم في منزل
"لو كنت أعلم أن آخر عهدكم يوم الرحيل فعلت ما لم أفعل"
ولقد صرفت على المشيب سويعة فوتها في جنح ليل أليل
في جنب خود كالجديل خصورها "أهوى مخارمها هوى الأجدل"
أشفي بمغرلة لي واعض في برد ولم يمسسها قبلي من قبل
فكأن ليلي "يوم دارة جلجل" وكأنني فيها أخا مهلهل
"هذا وإن الضيف مخبر أهله بمبيت ليلته وإن لم يسأل"

المختار بن حامد

ترى في هذه القصيدة كثيرا من الاقتباس من الشعر القديم أو التلميح إليه من غير نسبته إلى قائله لكونه شعرا معروفا جارت العادة بتضمينه لإيراد المثل وأدباء البيضان لا يعدون مثل هذا سرقة بل يعدونها اقتدارا وحسن اقتباس وسعة اطلاع واستحضار - فهل هذا صحيح ؟

لامية المختار الحامد بخطه (راجعها بين قصائده في الكتاب (رقم ٢ من الشعراء المحدثين) .

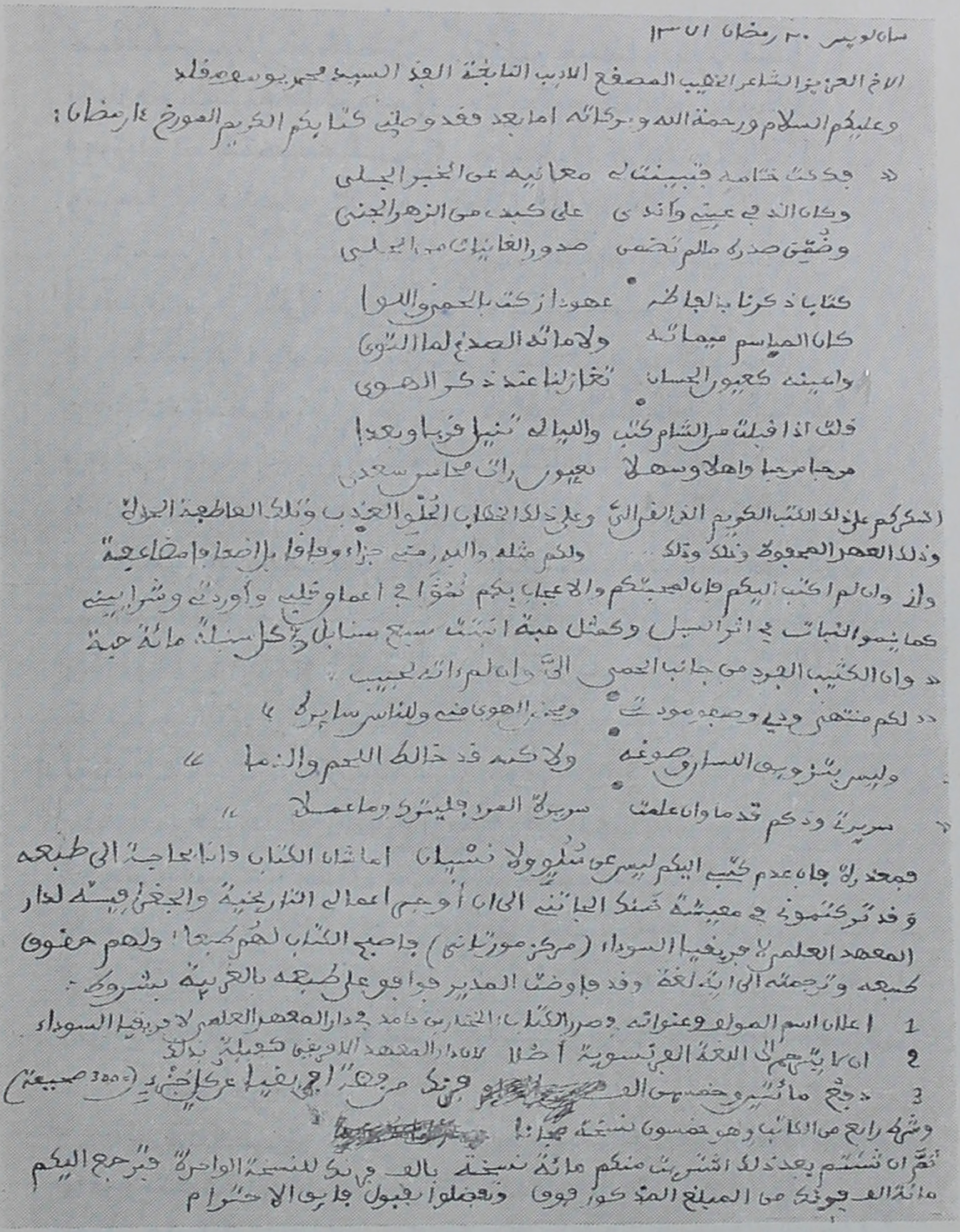
سان لويس ٣٠ رمضان ١٣٧١

الاخ العزيز الشاعر النجيب المصقع الاديب النابغة الفذ السيد محمد يوسف مقلد

وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته اما بعد فقد وصلني كتابكم الكريم المورخ ١٤ رمضان :

« فجدد كتابه فتبينت له معانيه عن الخبر الجلي
وكان الذي في عيني واندى على كبدي من الزهر الجني
وضيق صدره مالم تضق صدور الغانيات من الحلي

كتاب ذكرنا بالجاحظ عهودا زكت بالحمد واللوا(?)
كان المباسم مبانيه ولاماته الصدغ لما التوى
واسينه كعيون الحسان تغازلنا عند ذكر الهوى

فلك اذا اقبلت من الشام كتب والبيان تنيل قربا وبعدا
مرحبا مرحبا واهلا وسهلا بعيون رأت محاسن سعدى

اشكركم على ذلك الكتاب الكريم الذي الفرائد وعلى ذلك الخطاب الحلو العذب وتلك العاطفة الجياشة
وذلك الشعر المحبوك وتلك وذلك ولكم مثله والبر مني جزاء ووفاقا بل اضعافا مضاعفة
واني وان لم اكتب اليكم فان لمحبتكم والاعجاب بكم تموجا في اعماق قلبي واوردتي وشراييني
كما ينمو النبات في اثر الوبل وكمثل حبة انبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة
« وان الكئيب الجود من جانب الحمى الي وان لم اته لحبيب »
« لكم منتهى ودي وصفو مودتي ومن الهوى فيه وللناس سائره »
« وليس بتزويق اللسان وصوغه ولكنه قد خالط اللحم والدما »
« سريرة ودكم تدوما وان علمت سريرة الود في اليسر والعسر(?) »

فمعذرة ان جاء عدم كتبي اليكم ليس عن سلو ولا نسيان اما شأن الكتاب وانا محتاج الى طبعه
وقد تركتموني في معيشة ضنك الجأتني الى ان اوجه اعمالي التاريخية والجغرافية لدار
المعهد العلمي لافريقيا السوداء (مركز موريتانيا) فاصبح الكتاب لهم طبعا ولهم حقوق
طبعه وترجمته الى اي لغة وقد فاوضت المدير فوافق على طبعه بالعربية بشروط :

1 اعلان اسم المؤلف وعنوانه وصدر الكتاب المختار بن حامد في دار المعهد العلمي لافريقيا السوداء
2 ان يترجم الى اللغة الفرنسوية ايضا لان دار المعهد الافريقي كفيلة بذلك
3 دفع ما نشر وخصص الف [illegible] ويكون من مركز افريقيا [illegible] (3000 صيغة)

وشطر رابع من الكتاب وهو خمسون نسخة مجانا
ثم ان نشتم بعد ذلك الشتر منكم مائة نسخة بالف فرنك للنسخة الواحدة فيرجع اليكم
مائة الف فرنك من المبلغ المذكور فوق وتفضلوا بقبول فائق الاحترام

صورة رسالة جوابية من المختار الحامد الى المؤلف مصدرها سان لويس بتاريخ ٣٠ رمضان سنة ١٣٧١ هـ (راجعها في الكتاب في حقل الشاعر). وكنت قد كتبت له رسالتي من دمشق ، وجاءني الجواب وانا ما ازال هناك ، وفي مطلع الرسالة — الشعر — إشارة إلى ذلك .

خطوط (المستشرقين) منهم ..

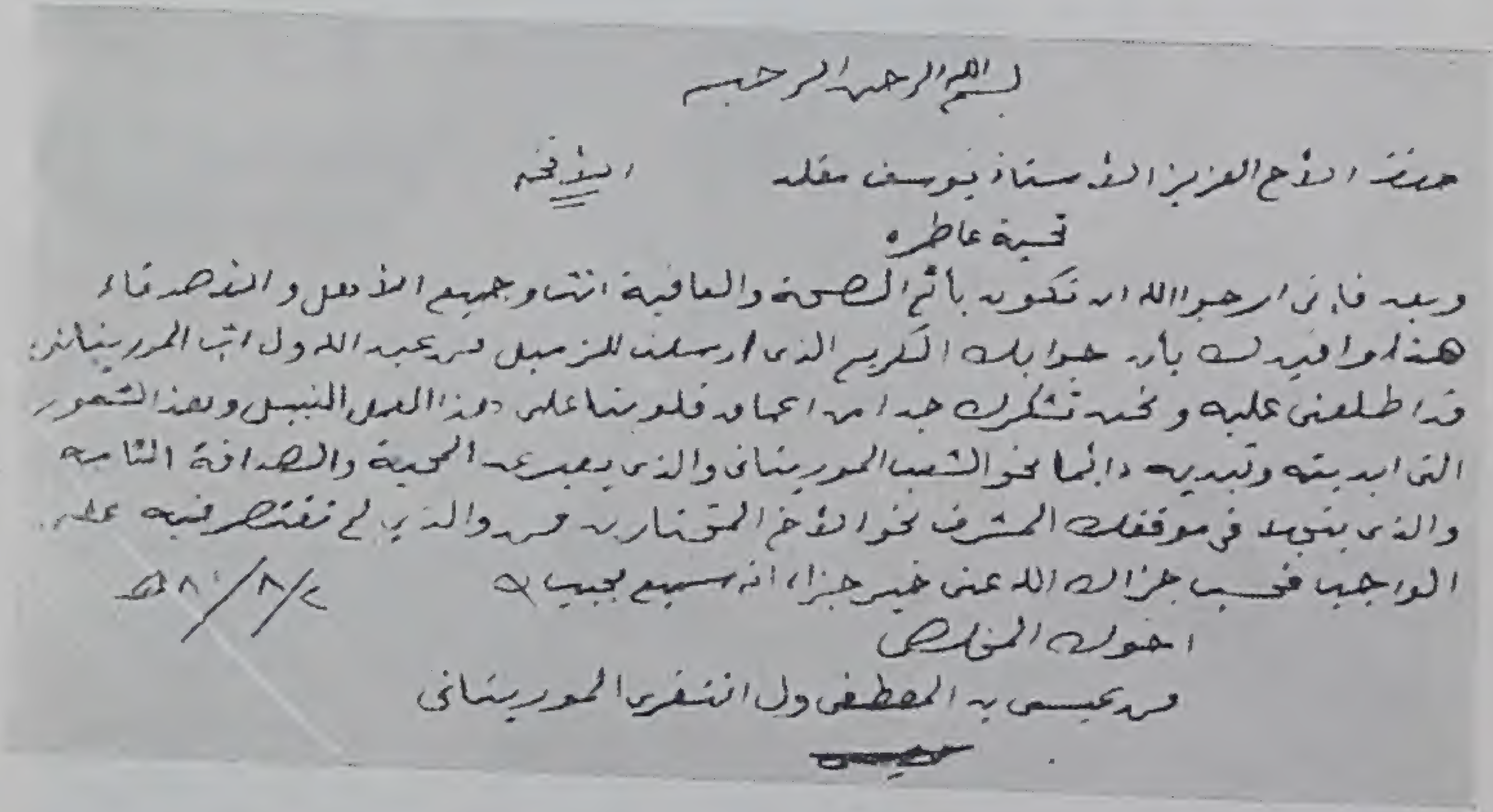

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة الأخ العزيز الأستاذ يوسف مقلد [illegible]

تحية عاطرة

وبعد فإني أرجو الله أن تكونوا بأتم الصحة والعافية أنتم وجميع الأهل والأصدقاء
هذا وإني أقدم لك بأن جوابك الكريم الذي أرسلته للزميل محمد عبد الله ولد اب الموريتاني
قد أطلعني عليه وإني أشكرك جداً من أعماق قلوبنا على هذا العمل النبيل وهذا الشعور
التي أبديته وتبديه دائماً نحو الشعب الموريتاني والذي ينبع عن المحبة والصداقة الثابتة
والذي يتجسد في موقفك المشرف نحو الأخ المختار بن حمد والذي لم تقتصر فيه على
الواجب فحسب جزاك الله عني خير جزاء إنه سميع مجيب ٢/٣/٨١هـ

أخوك المخلص

محمد عيسى بن المصطفى ولد الشفري الموريتاني

صورة رسالة شكر وامتنان إلى المؤلف من السيد محمد عيسى بن المصطفى ولـ الشفري الموريتاني المقيم في المملكة السعودية .

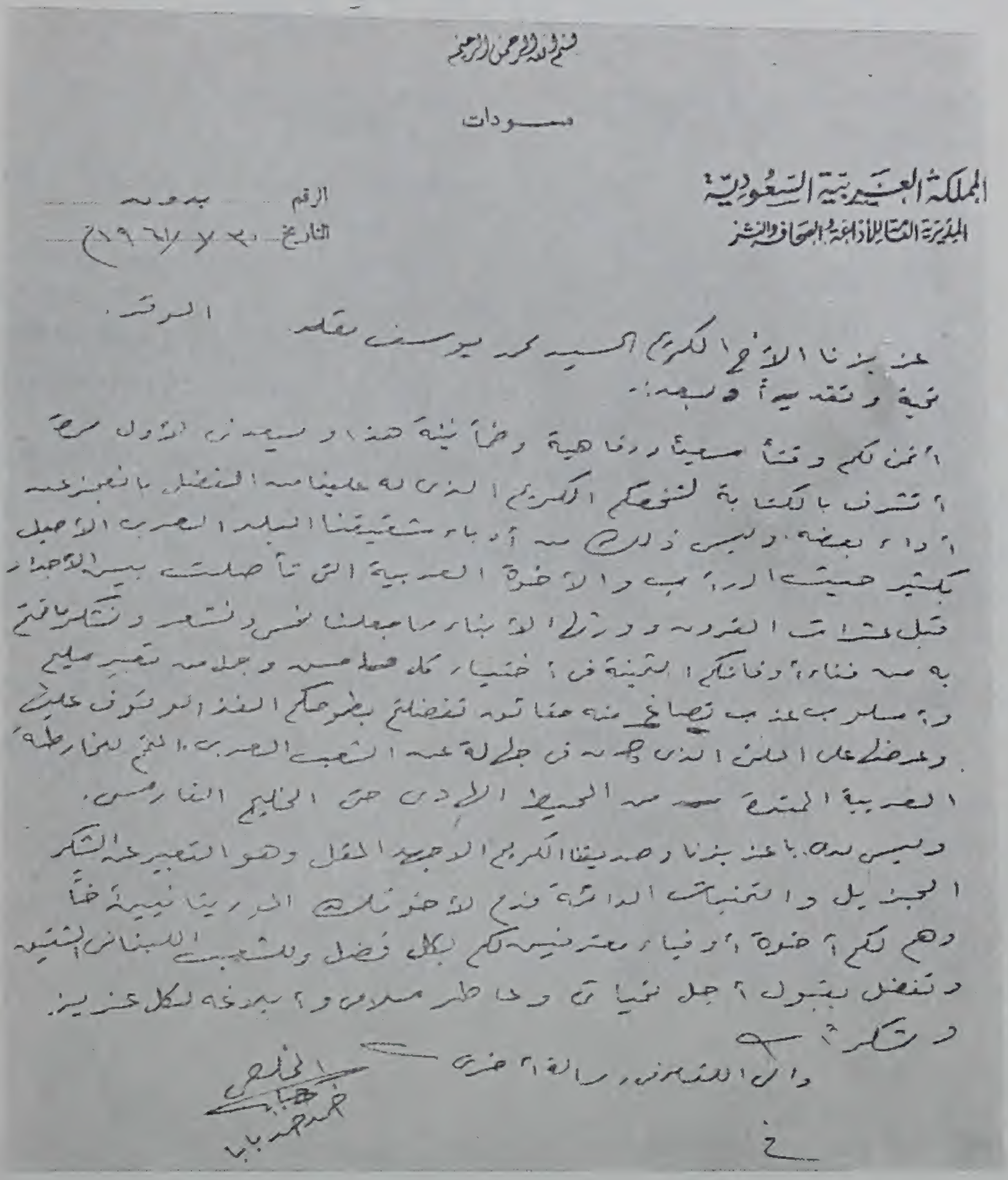

بسم الله الرحمن الرحيم

مسودات

المملكة العربية السعودية
المديرية العامة للإذاعة والصحافة والنشر

الرقم ......
التاريخ ٢٠/٧/١٩٦٦م

حضرة الأخ الكريم السيد محمد يوسف مقلد المحترم.
تحية وتقديراً وبعد:
أتمنى لكم وقتاً سعيداً ورفاهية وطمأنينة هذا وسعيد في الأول مرة
أتشرف بالكتابة لشخصكم الكريم الذي له علينا من الفضل بالتعريف
أدباء بعضهم، وليس ذلك من أدباء شنقيطنا البلد العربي الأصيل
[illegible] حيث الأدب والأخوة العربية التي تأصلت بين الأجداد
قبل نشأت الحدود [illegible] ما جعلنا نحس ونشعر [illegible]
به من فخار، وفاتكم التهنئة في اختيار كل فصل منه وجملة تعبير سليم
وأسلوب عذب تستساغ منه معانيه تفضلتم بطرحكم الفذ الذي تشرفون عليه
وعرضتم على الملأ الذي جهله في جملة عن الشعب العربي الذي للمنطقة
العربية الممتدة من المحيط الأطلسي حتى الخليج الفارسي.
وليس لدي يا حضرة صديقنا الكريم الوحيد القلم وهو التعبير عن الشكر
الجزيل والتمنيات الدائمة فدم للأخوة العربية الموريتانية خاصة
ودم لكم أخوة أوفياء معترفين لكم بكل فضل وللشعب اللبناني الشقيق
وتفضل بقبول أجل تحياتي وعاطر سلامي وأسمى [illegible] لكل عزيز.
وشكراً

المخلص
أحمد بابا

رسالة شكر اخرى إلى المؤلف من السيد احمد احمد بابا الموريتاني الموظف في مديرية الاذاعة السعودية .

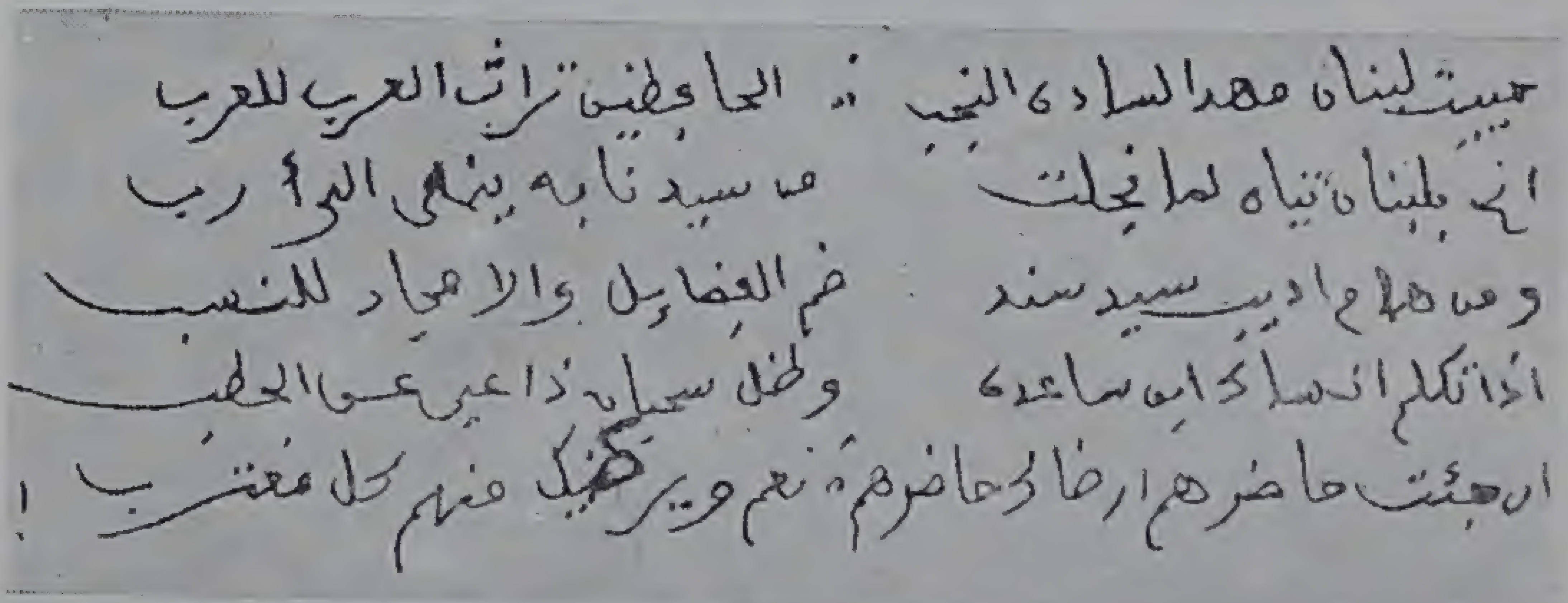

حييت لبنان مهد السادة النجب ... الحافظين تراث العرب للعرب
اني بلبنان تياه لما نجلت ... من سيد نابه ينمى الى ارب
ومن همام اديب سيد سند ... ضم الفضائل والامجاد للنسب
اذا تكلم انساك ابن ساعدة ... وظل سحبان ذا عي عن الخطب
ان جئت حاضرهم ارضاك حاضرهم ... نعم ويرضيك منهم كل مغترب !

صورة الابيات التي أهداها إلى المؤلف الشاعر خطري ولد خطري الموريتاني المقيم في المملكة السعودية (وصورته) وهذا هو نص الابيات:

حييت لبنان مهد السادة النجبِ ... الحافظين تراث العرب للعرب
اني بلبنان تيّـاه" لما نجـلت ... من سيد نابه يُنمى الى أرب
ومن همام اديب سيد سند ... ضم الفضائل والامجاد للنسب
اذا تكلم انساك أبن ساعدة ... وظل سحبان ذا عيٍ عن الخطب
ان جئت حاضرهم ارضاك حاضرهم ... نعم ، ويرضيك منهم كل مغترب !

• رسالة البلاد المقدسة بقلم ولدابه الموريتاني •

حضرة المكرم المدير عبدالوهاب بن الشيكر بعد اداء واجب التحية اخبركم انى تعبت من تعريف بلادنا لدى جرائد الشرق وليست لدى معلومات جديدة سوى ما انقله من مجلة العلوم اللبنانية التي يكتب فيها كاتبنا صاحب الفضل الاول السيد محمد يوسف مقلد وكان لكتابته فضل كبير من عدة مواضع ... وتسطالبنى جريدة اليمامة والندوة، و جميع البلاد السعودية عن الكتابة عن موريتانيا .

وقد قدم علي خطر بن الشيخ محمد المجتبي ورءى عندى «١٥» عددا من مجلة العلوم اللبنانية ورءي كتابة بن مقلد فيها فجادت قريحته بالابيات .. »

اري لبنان بالعين الرحيمه • ونفسى فى مودتها حميمه
اذا ما رمت انقدها ودادى • اجدني عاجزا نقدا وقيمه
ولاكنى امنناها بندب • نشا فى اصل عزتها القديمه
ترعرع فى المكارم والمعالى • الى ان جاز قمتها العظيمه
فنال مفاخرا جلت منالا • بأعمال لفكرته السليمه
فقلدنا المقلد طوق فخر • واولانا عنايته العميمه
ينادي الكون يرشده الينا • بارشاد رويته حكيمه
فاصبح جهلنا فى كل قطر • بفضل جهوده صفة ذميمه
فشكرا [illegible]ي واي شكر • وحيى الله طلعته الوسيمه

قصاصة من جريدة « موريتانيا » وتتضمن رسالة البلاد المقدسة (السعودية) بقلم ولدّ أب الموريتاني وابياتاً للشاعر خطري بن محمد المجتبى في الثناء على لبنان والمؤلف .

العلامة الشيخ احمد ولد عبد العزيز من علماء شنقيط المعروفين أمام باب في ساحة منزله . وفي بيت هذا العالم عدد ضخم من المخطوطات العربية النادرة العظيمة الأهمية .

العلامة الشيخ ولد احمد (حامل المسبحة إلى اليمين) من كبار علماء شنقيط ،مع اثنين من تلاميذه وامامهم بعض المخطوطات العربيـــة النفيسة . ولدى هذا العالم الكثير منها .

العلامة الشيخ مصطفى الخطيب في « وادان » ذو اللحيـــة المدورة والجبهة المتموجة ، يستمع إلى أشعار القاها بصوته عل شريط مسجل ، ومعه احد الزملاء (من مشايخ تلك البلاد) .

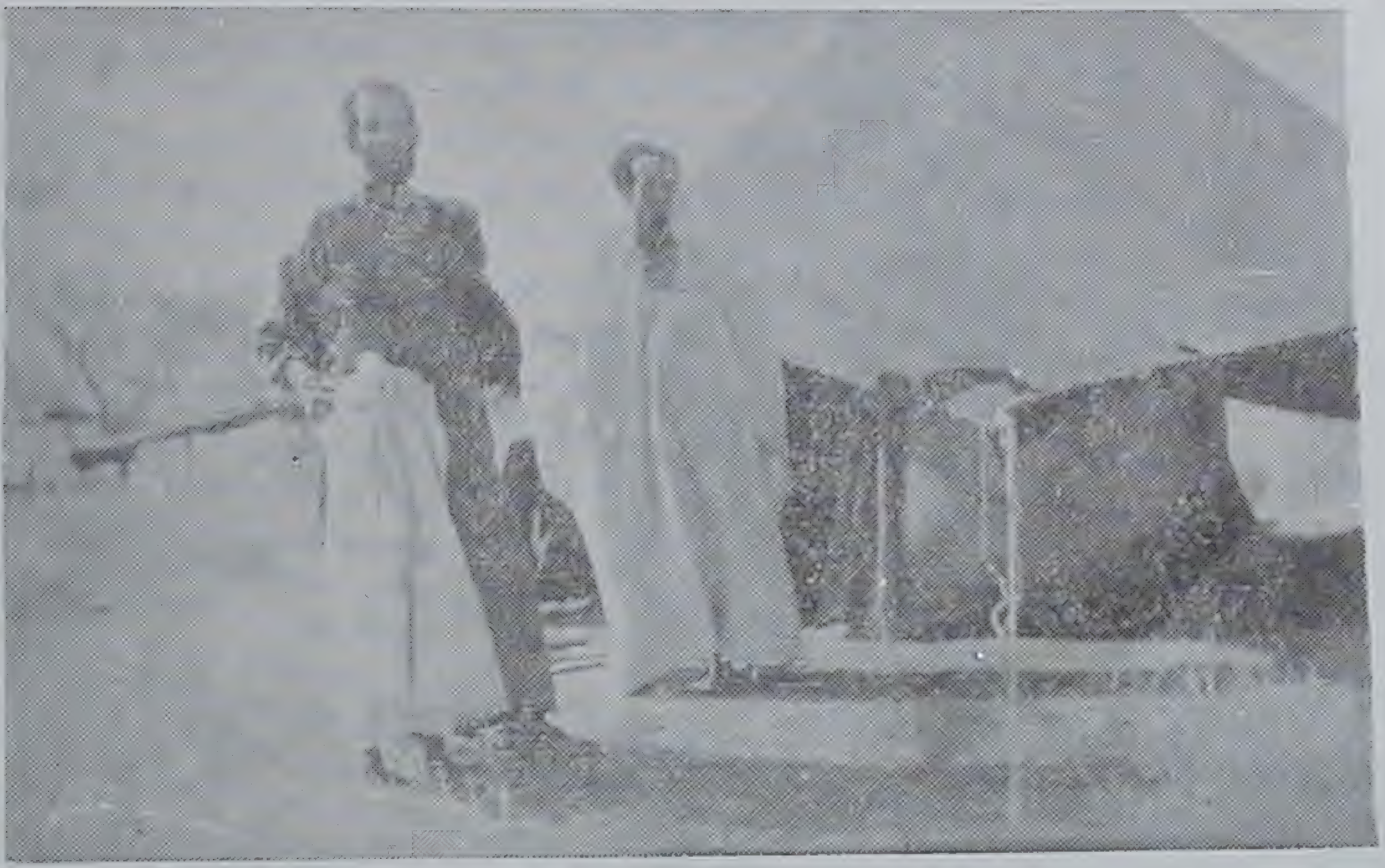

احد هذين الموريتانيين الواقفين (امام خيمة وبَرّية) في البادية هو العلامة المختار الحامد (الثاني إلى شمال الصورة وامامه ابنه الاصغر) وإلى جنبه (في يمين الصورة) احمد ولد مويليد (موظف في المعهد الأفريقي الفرنسي) الذي كان وسيط بيع مخطوط الحامد التاريخي إلى المعهد (انظر الاشارة إلى ذلك في رسالة الحامد السابقة الى المؤلف) .

شابان (طالبان) ملثمان — وليسا « من الملثمين » مكبّان على مطالعة تفسير القرآن بانصراف روحي بالغ كما ترى !

المؤلف (إلى يمين الصورة) وبجانبه الاستاذ محمد باباه صاحب مجموعة نصوص شعر ابي بكر بن ابي بكر الفاضلي التي اعتمدناها في نقل شعر هذا الشاعر الكبير (راجع خبر الشاعر في الكتاب) .

والاستاذ باباه، هو اول جامعي موريتاني يأتي إلى لبنان ليكمل تحصيله العالي — التخصص بالادب — في الجامعة اللبنانية ، وهذه لمحة موجزة عن الطالب المذكور :

ولد في اكجوجت (بلاد النحاس في الشمال) سنة ١٩٣٥ ، وتلقى علومه الثانوية في الليسيه بسان لويس (ندَرْ). ثم تلقى تحصيله العالي (الجامعي) في الجامعة الفرنسية بدكار . وبعدها سافر الى السوربون بباريس ، وهناك وضع اطروحته بالفرنسية عن الشاعر ابي بكر المذكور . وقال لي السيد باباه انه قضى اربعة اشهر يتنقل على ظهر الجمل في بوادي موريتانيا بحثاً عن قصائد الشاعر ورواة شعره !

وفي اواخر عام ١٩٦٠ حضر الى لبنان وانتسب الى الجامعة اللبنانية حيث اكمل تحصيله العالي، وزار في هذه الاثناء الاردن ودمشق، وعاد الى بلاده في شهر تموز سنة ١٩٦١

المؤلف (الى اليمين) والشاعر الموريتاني خطري بن محمد القلاوي . وقد اخذت لهما هذه الصورة في مطار بيروت اثناء سفـــر خطري الى بلاده قادماً من المملكة السعودية في ١٠ كانون الثاني ١٩٦١ .

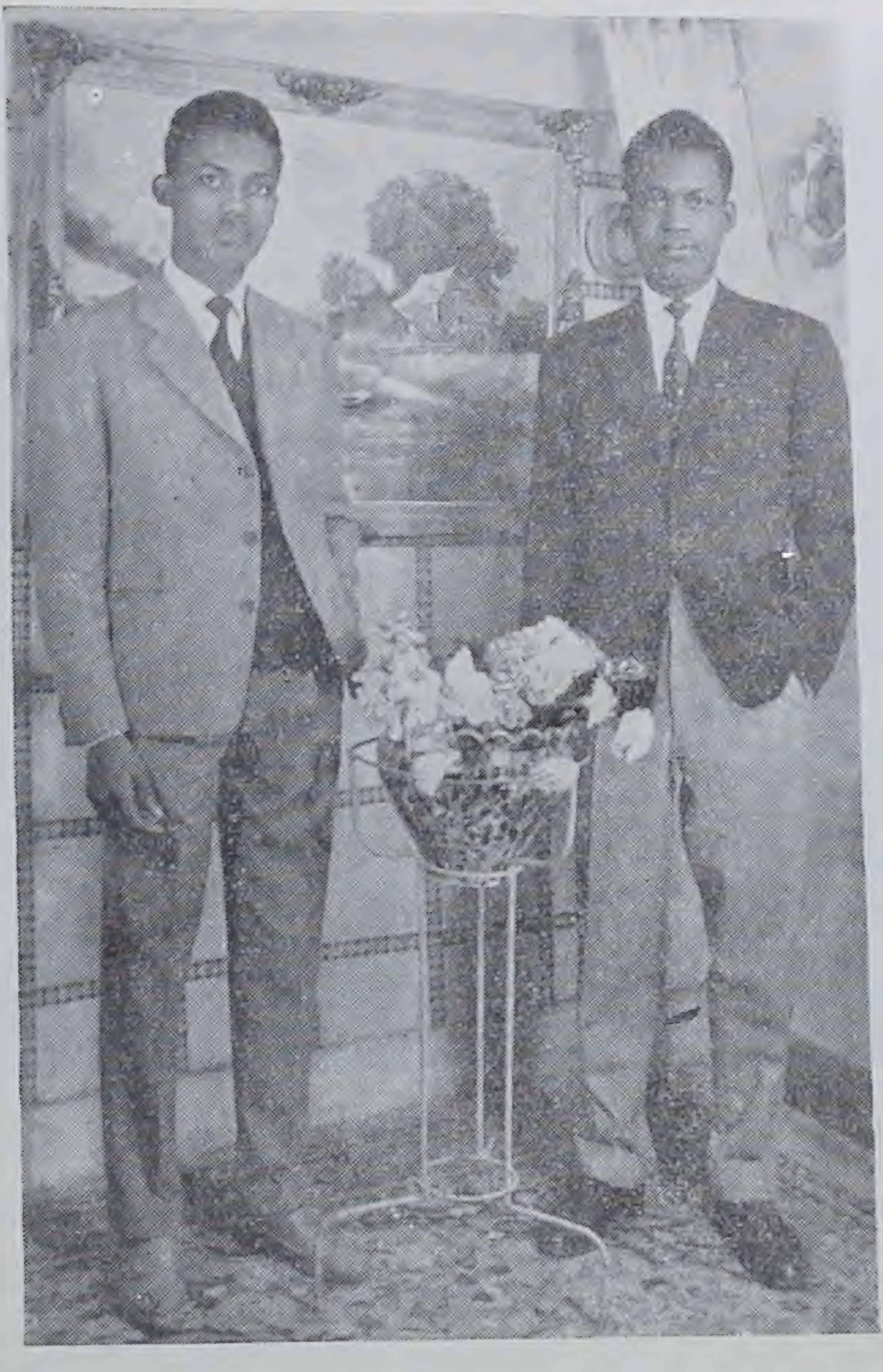

طالبان (جامعيان) موريتانيان في جامعة الأزهر . الأول (من اليمين) السيد مودي بوبو ، والثاني (من الشمال) السيد ابو بكر الحاج بري . والشابان من الموريتانيين الملونين (السود) وليسا من البيضان (البيض) . وينتميان إلى قبيلة الفلا في الجنوب . والملحوظ ان الموريتانيين الملونين والحراطنه على جانب عظيم من الذكاء والألمعية !

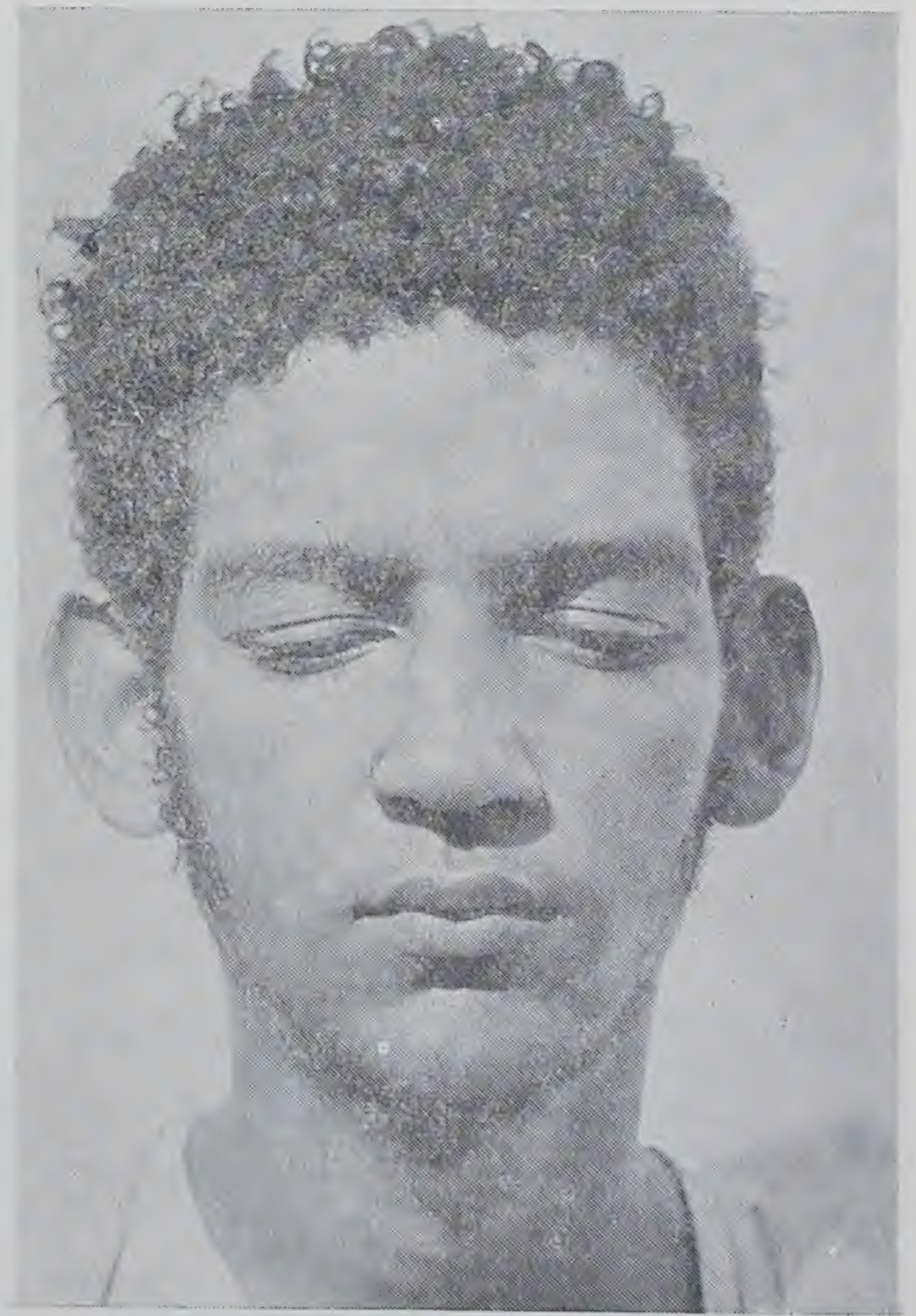

هذا الرأس الكبير .. هو رأس الاستاذ محمد يحيى الحامد ، ابن المختار الحامد المؤرخ والأديب المشهور . ومحمد يحيى من الذين تولوا قبل اليوم رئاسة تحرير جريدة «موريتانيا» من عهد قريب وقد ارسل الينا هذه الصورة والده المحترم .

هذه الصورة الصحراوية الشعرية الرائعة ، هي صورة معبد في « آدرار » — بأعلى الصورة — يؤمه احد البيضان المؤمنين مجتازاً اليه « بحراً » من الرمال الناعمة اللينة المتموّجة التي تغوص فيها الرِّجل من ليونتها .. لاحظ تجاعيد صفحة الرمال تذروها الرياح كتجاعيد صفحة البحيرة إبان الإعصار. !ولشد ما يمثل هذا المشهد صحراء موريتانية الهائلة

ليست كل ارض موريتانيا صحراوية إستوائية. ففيها ايضاً ارض صخرية جبلية كهذه الارض التي تراها في الصورة. وتبدو فيها قافلة صغيرة مؤلفة من ثلاثة جمال ينحّيها صاحباها من طريق السيارة لتمر .. الامر الذي سيظل مفروغاً منه الى الابد ، هو ان الجمل سيظل «سفينة الصحراء» ولن يختفي من الوجود هناك برغم توفر الطائرات والسيارات ومختلف وسائل النقل الحديثة والمستقبلة ..!

وجه موريتانيا الحديث

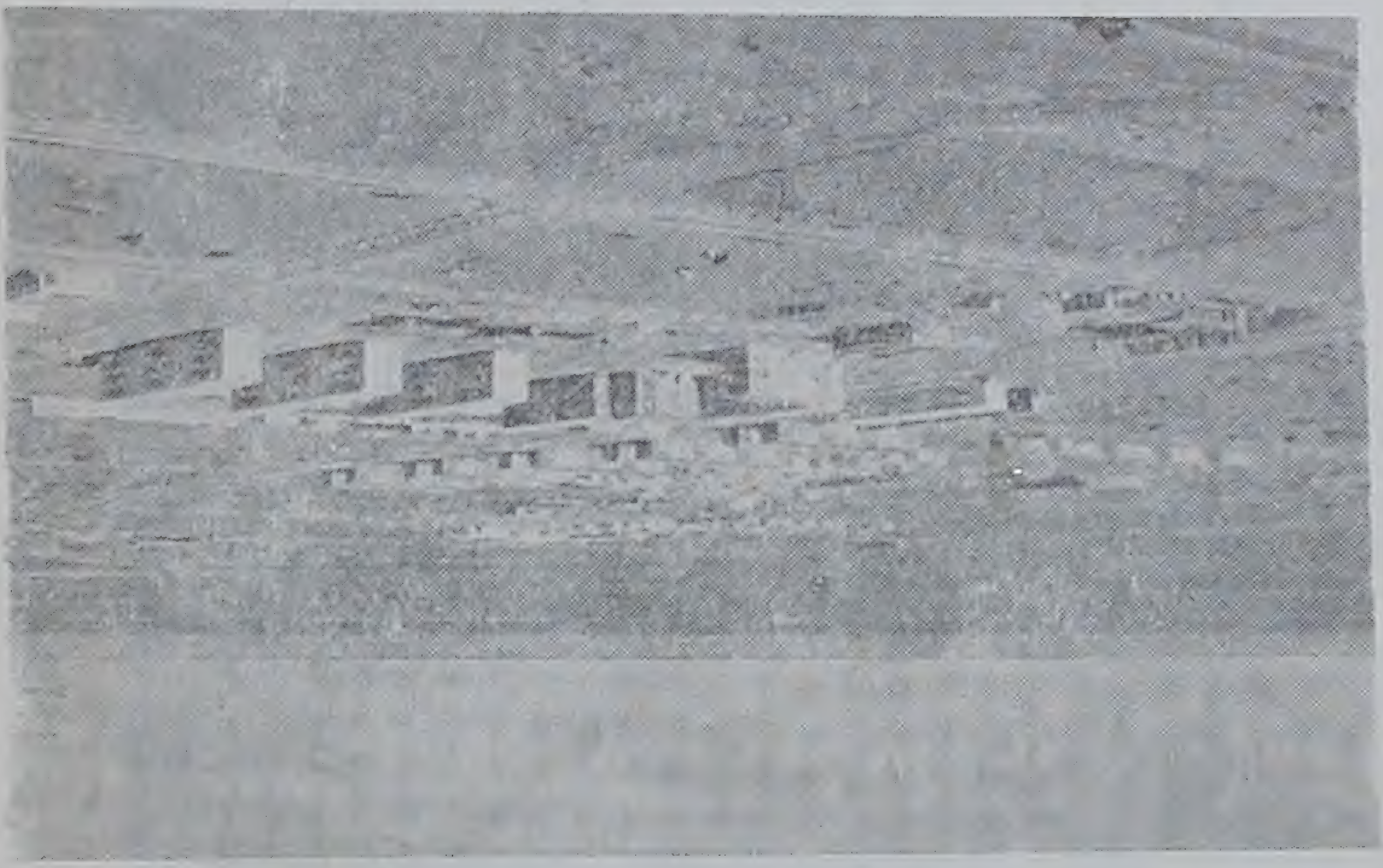

صورة جوية لعاصمة موريتانيا الجديـدة : « نواكشوط » ويلاحظ انها ما زالت في دور الانشاء والتخطيط . وقد اصبح اليـوم موضع التقسيمات الأرضية الظاهرة في الصورة انشاءات وبنايات ضخمة عديدة. ونلفت الأنظار الى ان هـذه الصورة اخذت في اواخر سنة ١٩٥٩ ، وان التطور العمراني المضطرد في العاصمة من يومها الى اليوم اصبح في مستوى الخيال !

خريطة مفصلة للبلاد الموريتانية

يظهر في هذه الخريطة موقع « شنقيط » العاصمة الروحية القديمة للبلاد (اشير اليها بسهم) كما يظهر موقع « نواكشوط » العاصمة السياسية الحالية على شاطىء الأطلسي .

الإهـــداء

إلى المواهب العبقرية الإفريقية ، المتفتحة على مواهب الشرق والغرب الروحية .

إلى حفظة كتاب الله وسنة نبيه من بيض وملونين في غرب إفريقيا وشمالها ،

أهدي هذا الكتاب ...

محمد يوسف مقلد

إقْـرأْ !

إقـــرأْ ، فإنِّي ضامِنٌ لَذَّةً   « مجموعةً » من أَدَبِ الباديَهْ ؛
هذي قُطُوفٌ ، ذُلِّلَتْ بعْدَما   ظلَّتْ زماناً لم تَكُنْ دانِيَهْ
بَعَثْتُها للنَّاس مِن مَرقَــدٍ   لم يَكُ،غيرَ الصَّدرِ والواعيه!
وَهْجٌ من الصَّحْراء جَمُّ اللَّظى   مُستَعِرٌ ، كالمِرْجَلِ الغالِيَه !
يَلْفَـحُ ، من حِينٍ الى آخَرٍ   جَوانِحي .. وهي لَهُ ظَامِيَه!
بَلوتُ فيـــه أَدباً نابغـــاً   خِصْبَ الجنى،والنِّعَمِ الضَّافِيهْ
كَجَوِّ صَحراه التي أَنْجَبَتْ   وريحِها ، أَنفاسُه الحاميه !

* * *

كَمْ نِعَـــمٍ للضَّاد مَسبوغةٍ   على الوجوهِ السُّمْرِ في الباديَهْ
قرائِحُ ، رُمْتُ ينابيعَهـــا   فـلم أَجِدْها كلَّها صافيَهْ
بَعْضُ سواقيهـا وانهارِهـــا   منذ جَرَتْ، ظَلَّتْ على ماهيَهْ

وَخشيَةً من ظَمَاءٍ قاتِـلٍ   في بُعْدِ نَبْعِي، حيثُ أَوطانِيَهْ
مَلأتُ من أمواهِهَا «قِرْبَةً»   إنْ لم تَطُلْ بي غُرْبَتي، كافِيَهْ!

* * *

للضَّاد، في أفريقيا رايَـةٌ   خَفَّاقَةٌ، رفَّافَـةٌ عاليَهْ!
يَرْفَعُها العُرْبُ، بنو عمنا ال ـــ   بيضانُ، أهلُ الهِمَّةِ السامِيَهْ
هم ناشروهـا، هم أساتيذُهـا   هم حِصْنُها، هُمْ دِرْعُها الواقيه!
تَرْجَمْتُ حُبّي كُتُبـاً عنهمُ   تحمِلُ من لُبْنانَ أشواقِيَهْ!
إنَّ الذَّكا، كل الذَّكا، كائِنٌ   تالله، بَينَ «النهر والساقيه»*!
عروبَـةٌ، تَرْقُبُها وحـدةٌ   كبرى، بتلك الاربع النائيهْ
حبيبَةٌ، يعتَزُّ في حبِّهَـا   سكانُ تلك الأرض والناحِيَهْ
أقْطارُ هاتيك الشعوبِ التي   تَنْهَدُ للحرِّيَـةِ الغالِيَـهْ
يَجْمَعُهَـا الإِسْلامُ في مَكَّةٍ   من غرب افريقيا الى آسيَه!

م. ي. مقلد

---

* هذا نهر السنغال. والساقية هي: الساقية الحمراء، وبينهما تقع موريتانيا جغرافيا.

المقدمة

« موريتانيا أصبحت بعد اليوم كتاباً .. وأيما بلد في العالم ، محال ان يصير بلداً الا اذا صار كتاباً »من مقدمة كتاب « موريتانيا الحديثة » للمؤلف سنة ١٩٦٠ .

.. وها قد صارت موريتانيا اليوم كتابين : كتاباً في السياسة وكتاباً في الأدب ..

ها قد حان الوقت لتقديم بلاد المرابطين الأشاوس إلى الملأ العربي في المشرق على صورة اخرى ، غير الصورة التي قدمتها بها في الكتاب السياسي .

صورة أروع وأخلد ، وأكسب للمجد الذي اليه يطمحون * ..

ها أنا اليوم أُقدم موريتانيا (شنقيط) والشعب الموريتاني (الشناقطة) بصورة أدبية خالصة صافية ، لا تشوبها شائبة ولا تعكرها مغبة عاقبة.. ان الادب كان ولا يزال ، في ماضي البشريـــة وحاضرها عنصر بناء عظيم الخير في اسعاد الانسانية التي طالما أشقتها السياسة في القديم والحديث شقاء ما بعده من شقاء !

* المجد اول شعارات الجمهورية الموريتانية الثلاثة : « المجد ، والأخوة ، والعدل » .

اني في الحقيقة لا أنسجم مع نفسي وروحي ، ولا أشعر بسعادة لا حدّ لها ، إلا حين أتعاطى الأدب وحده .. واني اذ أجدني اخاطبه كشخص معنوي ، ايسعدني كذلك أن يكون لسان حالي — معه — في مخاطبته ، كلسان حال ذاك الذي قال لحبيبته :

فليت الذي بيني وبينكِ ، عامرٌ   وبيني وبين العالمين ، خراب !

ارض الشعر !

نعم .. أنا ممن لا يأسف ان يخرب — ولا شيء أفزع عليه — كل ما بيني وبين السياسة ، ويبقى عامراً كل ما بيني وبين الادب .. وها هي فرصة العمر تسنح ، وموعد البناء يحين ، فلنضع اولاً حجارة الاساس ، ولنقل لمن لا يعلمون في المشرق :

للضاد ، في افريقيا رايةٌ   خفاقة ، رفافة عاليه !
يرفعها العُرب (بنوعمنا الـ   بيضان) ، أهل الهمة الساميه
هم ناشروها ، هم اساتيذها   هم حصنها ، هم درعها الواقيه !

ها ان عاماً تاريخياً جديداً من عمري يطل * حاملاً عملاً جديداً ، أملاً فريداً ، عسى ان يكون هذه المرة فألاً سعيداً ..!

شخصك في معنى الذات شخصان : انت وما تبدع ، وعمرك في منطق الزمان عمران : أيامك وما تُبقي ، ولله در الإمام العظيم ** ما اعظم قبسات فكره : « قيمة كل امرىءٍ ما يحسنه » ..

ان موريتانيا لم تعرف في بلاد المشرق كبلد عربي يتكلم اهلها اللغة

---

* اشارة الى أن صدور هذا الكتاب كان في مطلع عام ١٩٦٢ وهو بالنسبة لي عام تاريخي .

** الامام علي . والكلمة من كلماته اللامعة المشهورة .

العربية الا من نحو ثلاث سنوات ، حين اصبحت قضية « دولية » على منبر الأمم المتحدة ، وفي صحف العالم . لقد قالوا ان موريتانيا ارض الحديد والنحاس والكذا والكذا من خيرات الأرض التي « تفتح » شهيات الطامعين .. بيد أن أحداً في الشرق والغرب لم يقل إنها ارض الادب والشعر .. وان احداً منا نحن العرب لم « يكتشف » انها ارض الأدب العربي العريق ، والـتراث العربي الدفين الذي نحاول اليوم في هذا الكتـاب الفريد ان نبينه للناس ، وان نكشف لهم خصائصه ومزاياه الأنسانية الرائعة بين الآداب العربية التي عرفها تاريخنا المجيد ...

غانمون وغارمون..

اما هناك ، في كتاب « موريتانيا الحديثة » ، فقد قدمتها صورة سياسية ، كان لغيري غُنْمها وعليّ غُرْمهـا .. صورة ذات ملامح عديدة ، بشرية وتاريخية ومصيرية ، نغّصت عليّ هناءة العيش، ونفّرت عني قلوب الأخوان الذين عرفتهم وأحببتهم ، بمن فيهم الذين خدمتهم والذين اغضبتهم عـلى السواء .. كل ذلك في سبيل ما اردت ابرازه مخلصاً عن الشخصية الموريتانية، والحقيقة الموريتانية التي شقيت بسببها ردحاً طويلاً من الزمن !

فاذا كان ذلك الكتـاب — كبر الله حظه ! — قد ارضى اخواناً وأسخط اخواناً ، وما ذلك اردت؛ فأنه قد ادى الغاية الجوهرية الأساسية التي وضع من اجلها ، وهي تعريف العالم على بلد عربي قصيّ، كان حتى الأمس القريب غارقاً في العدَمية والمجهول، وحسبي بذلك غبطـة وسعادة روحيـة تعزيني عن (حسن التقدير) الذي لقيته من اولئك وهؤلاء ..!

وليس عجيباً أن يرى الأحلام المزعجة من اختار النوم بين القبور

الموحشة .. والسياسة ما كانت ولا مرة في يوم من الايام أهلاً للنتائج السارّة .. بل على العكس ، لطالما كانت مقبرة الاخلاص والمخلصين ..! وما اخترت ، ولكن القدر هو الذي اختار لي .. « وما رميتَ اذ رميتَ ولكن الله رمى » ! لكأني بـي ابرر — وهو من حقي — من حيث أعلم وأدري وما كنتُ، إثارةَ الغبار الذي اثير في وجهي من جراء وقوفي على المفترق : بين المطامع والأهواء ! ولكني حيث ما كنت « مغربياً » في شعوري الوحدوي آنذاك، كنت كذلك «موريتانياً» — وما زلت — في شعوري الاستقلالي وسعَ القلب والوجدان في جميع وجهات النظر الاخرى ..

موقف سياسي ، بين وطنين عربيين شقيقين ، وجدتني في وقت من الاوقات مضطراً الى وقوفه (فظنَّ خيراً ولا تسأل عن الخبر) ..!

الى الرباط ونواكشوط :

ولكن النهر يظل سائراً نحو البحر ، سواء انكسر دولاب المطحنة ام لم ينكسر .. تلك طبيعة قلمي العربي الحر فيما يكتب عن المغرب او عن موريتانيا : يظل دائماً سائراً نحو الحب الصافي والود الصادق ، مهما يكن الرأي السائد في الرباط أو النهج القائم في نواكشوط .

ذلك ان « السياسات » العارضة المتجهمة — وخاصة بين الاخوان — كالسحب المتجهمة لن تلبث وان طالت بعض الوقت ان تزول .. أما الاوطان والمشاعر القومية والدينية فهي التي تبقى .!

لقد سلخت شطراً كبيراً من عمري ، من خبرة عمري ، جاعلاً موريتانيا موضوعاً لي حين لم تكن « موضوعاً » لأحد في المغرب او في المشرق .. وكنت دائماً وما زلت ، جاعلاً نصب عيني « بلاداً » لا أشخاصاً ،باحثاً عن امجادها ومفاخرها،باعثاً قيمها الأدبية والانسانية ، دون النظر الى ما قد اصيب من التفاتة تقدير او لا اصيب .. فأنا

عربي يبحث لبني قومه بحث المؤمن عن المفاخر دون ان يتاجر ! في حين ان اناساً آخرين جاءوا مؤخراً و « اهتموا » بموريتانيا من بعدي .. ولكن « اهتمامهم » كان اهتماماً « صحفياً » وصولياً ، لُحْمته الشانتاج – بحسب الاحوال .. – وعنوان غايته : « مأربة لا حفاوة » .. اهتماماً كان وما يزال عند هؤلاء سائـــراً نحو رضا « الاشخاص » وأهداف الاشخاص ، ولا علاقة له بشيء اسمه الاخلاص ...

وشتان بين فئتين : أحرار وتجار ، وبين مزاجين ، مزاج سَمْتُه الحب والصدق وايثار الأفضل للأخوان ، ومزاج سَمْتُه الوصوليـــة وارضاء السلطان في كل زمان ومكان ... شتان بين من يصدرون صحفاً أو كتباً لأغراض «الدعاية» الآنية يرضى عنها الحكام المعنيون والدائرون في فلكهم ، وبين من يصدرون كتباً باقية يرضى عنها اولو الألباب والمثقفون .. « أما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » !

وأنا ، شهد الله ، لا في المجال السياسي ، ولا في المجال الأدبي توخيت « الدعاية » أو الانتهازية او الصفقات .. الا أن عملي أولاً وثانياً ، هو بطبيعته دعاية .. ولكنها « دعاية » مشرّفة ، لأنها تستهدف قطراً عربياً بكامل أحواله وقيمه البشرية والتاريخية ، وابراز عبقريته وخصائصه العقلية الممتازة ، وهذا عمل المؤمنين من أصحاب الرسالات لا عمـــل الوصوليين .. ولمثل هذا فليعمل العاملون .

اذا اشتبكت دموع في خدود   تبين من بكي ممن تباكى !

اما وقد « اشتبكت الدموع » وكثر الغيارى على (خدمة) مصالح البلدين الأفريقيين العربيين وسياستهما ، أما وقد بات الأمـــر كذلك ، فسيكون حكم الزمن هو الحكم الفصل بين الخدمات الصحيحة والخدمات الزائفة .. ولا خوف حينئذ على المخلصين ولا هم يحزنون .!

وبعد ، فيا ايهـا الأخوان الموريتانيون الذين عرفتموني شخصياً ، والذين ليس عندهم عني سوى « فكرة » .. تختلف حسناً وسوءاً باختلاف الأمزجة والأخلاق ، وباختلاف الرأي الذي « لا يفسد للود قضية بين الأودّاء الأصفياء ..

يا ايها الأخوان ، لا تضلّوا سواء الفكرة والتقدير .. فوالله ما اوتيتم من « العلم » عن صاحبكم الا قليلاً ..

ان هذا الكتاب — الثـاني عنكم — ليهدى الى التي هي احسن من السياسة واجدى .. لقد « دنى فتدلى » ، فكان منكم ومن جميع العرب في المغرب والمشرق — من المحيط الى الخليج — على « قاب قوسين او ادنى » ..

بحق اقول لكم : ان نشر شعركم وآدابكم ونتاج عقولكم وقلوبكم — من قدماء ومحدثين — هو افضل « دعاية» لكم ولبلادكم من كل ما تخرجون وتصنعون لو كنتم تعلمون !

انكم اتعلمون علم اليقين اني غير « مأجور » منكم ولا من غيركم.. وانما هو الحب ، وانما هو الأخلاص ، وانما هو الايمان بالعرب وآداب العرب : « يملي عليّ واكتب » ..

انا هو (سفيركم) الأدبي في المشرق .. قبل ان تفكروا بأنشاء السفارات ..

انا هو (سفيركم الدائم) في بيروت بلا سفارة .. وبيروت معناها الشرق كله ، والغرب كله ، وأشياء عديدة عظيمة أخرى .. كذلك هو لبنان البلد العربي الصغير الكبير !

والله تعالى اسأل ان يهديكم ، ويهدي كل بلد عربي الى مـا فيه خيره من صداقات وعلاقات ، وان يجنبكم سوء الأختيار .. فلا تنخدعوا

بالقشور عن اللباب .. !

(قِربة) موريتانية ...

السياسة ؟

أفّ لها .. !

لقد افسدت علي هواء الصحراء العربية الموريتانية الطيب الذي منذ سبعة عشر عاماً قلت فيه :

وَهَجٌ من الصحراء، جَمّ اللظى ... مستعرٌ كالمرجل الغاليه
يلفح ، من حينٍ الى آخر ... جوانحي ، وهي له ظاميه
بلوت منه ادباً نابغاً ... خصب الجنى ، والنعم الضافيه
كجوّ صحراه التي أنجبت ... وريحها ، انفاسه الحاميه !
كم نعمٍ للضّاد مسبوغةٍ ... على الوجوه السُّمرِ في الباديه
قرائحٌ ، رُمت « ينابيعها » ... فلم اجدها كلها صافيه
اما مجاريها واقناؤها ... منذ جرت ، ظلت على ماهيه ..
وخشية من ظمأ قاتلٍ ... في بُعد نبعي ، حيث اوطانيه
ملأت من امواهها « قربة » ... ان لم تطل بي غربتي كافيه !

غير ان الغربة طالت .. ودعت الحاجة – الظمأ الى الأدب يومئذٍ – الى اكثر من « قربة » واحدة لأطفاء الحريق الرائع .. ! فملأت عدة قِرَب واتيت بها الى لبنان لاسقي منها من يحب.. وطبيعي ان لا يكون المذاق واحداً .. فمياه كل بلد يختلف مذاقها عن مياه البلد الآخر الا ان مياه صحراء موريتانيا لا تختلف بشيء البتة عن مياه الصحراء العربية.. وحتى بلاد ما بين النهرين – ولبنان معها – ستجد ان « اكسير » الماء واحد وان اختلف المذاق بعض الأختلاف .. واني لأطمئن – بصورة

خاصة – اللبناني الحضري المعتاد على مياه نهر الكلب العذبة ونبع مغارة جعيتا ، انه سيكون في مأمن من (الرشح) ومن كل عارض صحي طارىء من جراء (تغيير الشراب) اذا هو شرب من (قربتي) الموريتانية ...

صحيح ان مياهها غير « مكررة » بطريقة فنية عصرية .. وان فيها بعض ذريرات من رمال الصحراء .. الا أنها خالية الغش، مطهّرة من الجراثيم الضارة . اكثر من ذلك: فإنها شراب « مهضّم » وفاتح للشهية جداً .. مضمون الفوائد مأمون العواقب الصحية .. اللهم الا اذا كان الشارب من المعتادين على « الأشربة الأجنبية » المستوردة من غير البلاد العربية .. فأنه حينئذ لن يستعذب شرابي هذا « الموريتاني » الذي اقدمه له البتة ..!

تعريف

هنا اشعر ان علي واجب التعريف – والكتاب كله تعريف – التعريف الأدبي الأجتماعي العاجل المقتضب بموريتانيا والموريتانيين الى الذين ستعيق مفاهيمهم (ربما) بعض الامور العاطفية وغيرها ممن قد لا يستعذبون هذا الشعر ولا هذا الكتاب أصلاً .. أو ربما انهم – من جهة ثانية – ليس عندهم أية فكرة عن آداب القوم المعنيين ،الى هؤلاء أقول :

كان للموريتانيين قسط وافر في الأدب العربي ، نال منه خاصتهم وعامتهم ، واستهواهم الشعر الجاهلي والمخضرم (الجاهلي – الاسلامي) منه على الأخص ، فحفظوه ورووه وحذوا حذوه ، فأيد فيهم ملكة البلاغة الى حد كبير .

وكان عرب موريتانيا في باديتهم على حال من العيش تعنف كثيراً، وتلين قليلاً ، فما أشد اضطرابهم بين العنف الكثير،وبين اللين القليل .

وكانت صُبابات الصحراء من الرزق موزعة توزيعاً قاسياً ، فرضته القوة ولم تفرضه الرحمة ، فما يعتم الناظر ان يرى هنالك أغنياء قليلين وفقراء كثيرين . وما كانت ثمة من شرعة أو قوة تأخذ من الغني لتعطي الفقير ، فكان الفقير على العموم والشاعر على الخصوص ، يعيش في مرارة وهول الى الحد الذي يقول فيه ما قال الشنفرى :

أديم مطال الجوع حتى أميته ... واضرب عنه الذكر صفحاً فأذهل !

او كما يقول :

قليل ادّخار الزاد ، الا تعلة ... فقد نشز الشرسوف والتصق المعى !

شكوك وحقائق

بعد هذا التعريف الموجز ، قد يسأل سائل ، وما أكثر ما سئلت حين كنت أكتب عن موريتانيا في صحف سوريا ولبنان* منذ بضعة أعوام :

هل صحيح أن عند اولئك البدو المتأخرين شعراء وادباء ، وانهم يتكلمون اللغة العربية الفصحى ؟!...

وكنت اجيب المتسائلين والمتعجبين الشُّكّك بايراد النصوص تلو النصوص .. واكتفى بشاهد واحد على مقدار ما كان يساور الاذهان عندنا من شك بحقيقة عرب افريقيا (البيضان) ،وجهل لعامة حياتهم . فقد كتبت مجلة « الجندي » السورية الدمشقية في عددها رقم ٢٨٧ الصادر بتاريخ ٢٧ كانون الاول سنة ١٩٥٦ ، كتبت الكلمة التالية

* مجلة « العرفان » الصيداوية سنة ١٩٥٢ ومجلة «الجندي» الدمشقية سنة ١٩٥٦ ومجلة «العلوم» البيروتية سنة ١٩٥٩ — ١٩٦٠ .

مقدمة لاحدى مقالاتي الموريتانية فيها :

« كلنا نعرف ان شمال افريقيا بلاد عربية ، لسانها لغة الضاد ، غير ان قلة منهم الذين يعرفون شيئاً عن افريقية الغربية الغارقة بين الادغال والبحيرات الاستوائية، حيث هناك ايضاً يعيش أقوام يتكلمون اللغة العربية ، ويعيشون حياة ذات تقاليد عربية أصيلة ..! وفي العددين السابقين تحدث الكاتب عن منشأ تلك الأقوام وعن القبائل التي تتألف منها ، وتقسيماتها الجغرافية والسياسية وبعض الميزات التي يتمتعون بها .. وفي هذا العدد يستأنف الكاتب محمد يوسف مقلد الذي عاش في تلك البلاد النائية ردحاً من الزمن حديثه الممتع : »

* * *

ويظهر ان عرب موريتانيا كانوا معرّضين دائماً في فترات تاريخية متفاوتة البعد والقرب لحملات من الشك بعروبتهم من قبل بعض المشارقة والمغاربة ، بسبب وقوع بلادهم في قلب افريقيا الوسطى (الغربية) وعلى تخوم جمهوريتي مالي والسنغال ، حيث تختلط البلاد ببعضها ارضاً وبشراً بلا تحفظ .. وهم لذلك كانوا معنيين دواماً باحلال اليقين محل الشك في نفوس من يحسبونهم غير عرب .. وكان لونهم الأبيض (لون اليمني والحجازي) ولسانهم العربي المبين ، في مستهل حجج الاثبات على صدق عروبتهم وسلامة ارومتهم على مر العصور ، وفي ذلك قال شاعرهم* :

إنّا بنو حسنٍ ، دلّت فصاحتنا   أنّا الى العرب الاقحاح ننتسب

* هو محمد فال ولد العينين (من داب لحسن) والابيات من قصيدة طويلة اوردنا بعضها في فصل الشعراء المحدثين من الكتاب .

ان لم تقم (بينات) اننا عرب ففي « اللسان » بيان اننا عرب ..
انظر الى ما لنا من كل قافية لها تُدَمُّ شذورُ الزبرجِ القشب !

والتفت الى هذا المعنى احد شعرائهم المحدثين * وزاد عليه انهم ينتمون الى بني حمير ومضر ، فقال :

يا قائلاً طاعناً في « اننا عرب » قد كذبتك لنا لُسنٌ وألوان
وسْمُ العروبة باد في شمائلنا وفي اوائلنا عز وايمان
آساد حمير والأبطال من مُضرٍ حمر السيوف ، فما ذلوا ولا هانوا

واذكر من ايامي عندهم اني تعمدت في احدى المرات في سان لويس[1] ممازحة احدهم ومداعبته فاستفززته بقولي: « انكم لستم عرباً كما تدعون» .. فانتفض بأباء وشمم ، وقال : [2]

لنا العربية الفصحى ، وإنّا أحق العالمين بها اضطلاعا
عن الكتب اقتبستوها انتفاعا بما فيها ، ونرضعها رضاعا !

هذه الغضبة المضرية لها مشابه ونظائر عديدة في حياة العرب الخلّص في موريتانيا .. ولا عجب فقد كان الأدب وحده طيلة القرون المديدة ــ منذ الفتح الأسلامي حتى اليوم ــ القائم المبين بتقديم عناصر الأثبات على قومية الموريتانيين ولغتهم . فلما ولد الكيان السياسي للبلاد سنة ١٩٥٨

* هو محمد بن احمد (معاصر) كان مدرس اللغة العربية في بلدة كيفا الموريتانية من سنوات قليلة .

١ ــ هي مدينة سنغالية جميلة معروفة على شاطئ الأطلنطي . كانت قبل انشاء العاصمة نواكشوط مركزاً للادارة الموريتانية من قبل فرنسا قبل الاستقلال ، وسان لويس يصب فيها نهر السنغال الفاصل بين موريتانيا وجمهورية السنغال جغرافياً ، وقد اقمت بها مدة عامين خلال الحرب العالمية الثانية .

٢ ــ ينسب هذان البيتان إلى الشاعر (ول ابنو) المشهور والله اعلم .

ووضع المختار بن داداه اول دستور للجمهورية الأسلامية الموريتانية ، نصت المادة الثالثة منه على ان اللغة الوطنية في موريتانيا هي العربية » ، وعندما عدل الدستور للمرة الثانية سنة ١٩٦١ اعيد تأكيد هذه المادة فيه.

وهكذا جاءت الدولة الحديثة وكأنها استئناف جديد لدولة المرابطين في القرن الخامس ، وكان اول اعمالها الدستورية « الاعتراف » بعمل التاريخ المتفاعل اعترافاً طوعياً وقلبياً محموداً .. وبذلك تأكد عندنا مستقبل موريتانيا « القومي » تأكيداً مطمئناً .. فحق علينا الجهر بالثناء العاطر على المتولين زمام التوجيه الوطني هناك !

مستقبل الكتاب العربي في افريقيا

ان مستقبلاً كبيراً قريباً ينتظر الكتاب العربي في افريقيا السوداء وخاصة الكتاب الأدبي ، بواسطة موريتانيا والموريتانيين . ان ملايين الافريقيين السود متعطشون لتثقيف السنتهم وعقولهم بلغة القرآن .. ذلك ان افريقيا اليوم لم تعد كأفريقيا الأمس .

فأمس كانت مجاهل افريقيا السوداء كلها مرتعاً خصباً لصفات التأخر والرجعية ، وكان الرجل الأسود عنوان الهزيمة والجهل والخنوع ، اما اليوم فأفريقيا لم تعد كما شاءها المستعمرون ، لقد اصبحت اكثر بقاع الأرض قابلية للتطور الحضاري والتقدم ، والرجل الاسود لم يعد «عبداً» بل انساناً على الرغم من كل القوى التي تجمعت لمحاربته وقهره .

سكان افريقيا ٢٣٢ مليون نسمة منها ثمانون بالمئة من حفظة كتاب الله واتباع سنة نبيه . ولا ننسى ان ١٨٢ مليوناً من هؤلاء كانوا في الماضي يسكنون في مناطق شبه صحراوية وفي الأدغال . واما اليوم فان ثلثي هذا العدد الكبير اصبح يعيش في بلدان متحضرة لها وزنها الدولي واعتبارها .

ان مساحة نيجيريا - مثلاً - تعادل مساحة ولاية تكساس في الولايات المتحدة ، ويبلغ عدد سكانها ثمانية وثلاثين مليون نسمة وهم مجموع مئتين وخمسين قبيلة . والمهم ان هذه القبائل تتكلم اربعمئة لغة اقليمية ولهجة ، وهي من هنا تشبه الهند . وهذه البلاد - نيجيريا - اليوم حاجتها الى الكتاب العربي وتيسير الثقافة العربية الأسلامية هي في طليعة احتياجاتها القومية الأساسية . وموريتانيا مؤهلة بحكم الجوار المتاخم لعدة بلدان اقليمية الى ان تكون « معلمة » الأجيال الأفريقية الحديثة لثقافة القرآن المجيد ، وكتاب مثل كتاب « شعراء موريتانيا » مؤهل لأن يكون له رواج غير محدود في افريقيا السوداء وخاصة في دكار ، العاصمة الثقافية الأولى لأفريقيا الغربية كلها ، وحيث يكثر بين الافارقة السود عدد المثقفين بالثقافة العربية . ان التطور العقلي السريع النابه المنتشر في القارة السوداء يبشر بوحدة اهداف ثقافية بين اقطار افريقيا الاسلامية المتجاورة بحيث تصبح لغة القرآن هي اللغة الوطنية الثانية في تلك الاصقاع . بالاضافة الى كونها لغة التدريس في المعاهد والجامعات ، والتنبه الفكري الى ذلك لم يعد املاً فحسب ، بل واقعاً ملموساً * .

شمس الروح

ان ارشيف العقول والقلوب الخيرة النابضة بالحب الأنساني والفن

---

* في السنغال ، بدأ تدريس اللغة العربية يعمل به بصفة رسمية في المدارس الابتدائية منذ شهر ايلول سنة ١٩٦١ ، فقد أصدرت وزارة التربية والتعليم قراراً يحمل رقم (٦٢٩٢) جاء فيه : « إن اللغة العربية تدرس في خمس فصول داخل الجمهورية السنغالية كلها ، مقسمة كما يلي : دكار ، تياس ، دجرجبل ، سان لويس ، كولخ ، ولكل من هذه المدن فصل وتكون الدروس كل يوم خميس من الساعة ٨ إلى الساعة ١٢ » . ولا يفوتنا القول ان هذه المدن السنغالية هي من أهم المدن الأفريقية اطلاقاً وأحفلها بالمكتبات والمخطوطات العربية وأشدها تأثيراً في نشر الكتاب العربي بعد موريتانيا .

والشعر ، ان هذا « الأرشيف » العظيم يزداد ، عند جميع الأمم على مر العصور بالتحف الجديدة والروائع الخالدة . وعلى فم الحياة البشرية ابتسامة شوق وسعادة ، مفعمة بالتفاؤل والأمل .

لقد اتّبعت آثار الانسان من بابـل الى باريس ، ومن نينوي الى نيويورك ، ومن يثرب إلى بوتليميت ، ورأيت آثار أقدامـه وقيوده مطبوعة على الرمال بجانب آثار روحه على القرطاس ! وسمعت الأودية والغابات تردد صدى نواح الأجيال والقرون على غروب شمس الروح !

فيا ايتها الشمس الغاربة، عودي وانشري ضياءك على ظلام هذا العالم المادي ، واذ ذاك يكون من واجبنا نحن الأدباء والشعراء ، ان نمجّد القرن العشرين بصفته قرن التغييرات الجذرية في مصائر البشر ! !

الأدب والدولة

ان ايمان الدولة بأن تنمية الذهن الخلاق جزء من التنمية الاقتصادية، ايمانٌ مهتدٍ لاحسن حالات الهداية ؛ ذلك ان عقول الكتاب والشعراء والفنانين ، هي في الحقيقة مناجم ذهبية . وقد كان كثير من ذوي العقول الذهبية يهرشون رؤوسهم لأن الحياة بمطالبها المادية واحتياجاتها اليومية المتكررة تربط ايديهم الى مشاغل اخرى ليسوا لها، فينصرفون عن مجالاتهم التي فيها يبدعون ، الى المجالات التي فيها يفشلون ، فيضيع عندئذ على الأمة مصدر ثروتها العقلية .

بعض الناس الدهمـاء يقولون ان التفرغ (تنبلة) .. كأن الادب والفن نوع من التسكّع على قارعة الحياة .. ولكن الأدب والفن جهد بشري ، مثل الصناعة والتجارة والتعدين .. واستصـلاح بعض العقول والنفوس الموهوبة ، لا يقل عن استصلاح وادٍ زراعي جديد مهمَل ..

واذا كانت التنمية الاقتصادية هي استغلال مصادر الثروة المعطلة ،

واكتشاف منابع جديدة للثروة،فأن التفرغ الأدبي هو استغلال المواهب الموجودة واكتشاف منابع جديدة كهذه المنابع الموريتانية الافريقية يجب ان تستغل .

والادب ليس عملاً يمارسه الأديب في غير أوقات العمل الرسمية ، ولكنه اسلوب في الحياة ، وجهد يضنيه ويستهلك نبض حياته ونور مآقيه !

اذن،صار ينبغي ان نطرد من مجتمعنا بعض المفاهيم السقيمة كما يطرد الزوان ، ليبقى القمح الصافي .. وان نستغل هذه الثروة المعطّلة في موريتانيا شر تعطيل !

صار يجب ان نشن حملة « تطهيرية » على المفاهيم الخبيثة التي تفتك في الصحة العقلية العامة ، كما نشن حملة طبية على الأمراض الخطرة السارية ليبقى للامة هَدْيُها الصحيح !

في العصر الحديث ، عصرنا ، لم يعد الادب والفن على هامش الحياة ، بل أصبح في صميمها .. انه كل يوم وكل ليل في خدمة عواطفهم وعقولهم وأذواقهم — في الإذاعة — من حيث يشعرون او لا يشعرون ..!

إن الأدب تراث انساني لا يفرق بين الجنس واللون والدين .

ان امة بلا فن وبلا ادب ، هي امة بلا زهو ، بلا لسان ، بلا رأس ترفعه بين الأمم !

تذكروا ايها الناس،ان الآداب والفنون هي حجر الأساس في استجابة وجدان الأمة الى الحق والخير والجمال ..

تذكروا ان اكرم خلال الانسانية هي تلك الصفات الروحية التي يرتفع فيها الانسان بعض لحظات منعشة سامية فوق مطالب المادة المرهقة !

تذكروا ، ان مصادر سعادتكم الروحية ، هي الفنون والآداب ، فلولاهما لكانت الحياة جحيماً لا يطاق !

ولولا خلال سنّها الشعر، ما درى   بُناة المعالي، كيف تُبنى المكارم !

الشعر والحياة

في بعض المجتمعات الشرقية الناهضة ، وحتى في بعض المجتمعات الغربية الراقية ، يسود الرأي بأن الشعر مهما كان في الماضي ، فانه اليوم ليس موضوع اهتمام رئيسي لجيل مضطرب حائر . الحقيقة هي خلاف ذلك تماماً .

الشعر وجميع الفنون الجمالية الاخرى ، هي ظاهرة نشاط روحي الى جانب النشاط العقلي تمتاز عنه بأنها « غذاؤه » الذي به يحيا ويعيش ، ويستلهم القدرة على الابداع العلمي والمادي ، فاذا أمكن الاستغناء عن الحياة نفسها ،أمكن الاستغناء عن الجمال — الأدب على وجه التخصيص !

علاقة الشعر بالحياة هي العلاقة التي وصفها ارسطو بأنها وسيلة للمعرفة من نوع ما ، فهي عنده وسيلة لكشف التآلف الذي تملكه الحياة في عالمه ،وفي وسعها ان تحمل الحقيقة لا الحقيقة الفردية والمحلية فحسب ، بل العامة والعاملة ، حيّةً الى انقلب عن طريق الحماس العاطفي .

الشعر يبقى ، الى ان يثبت الماديون دعواهم ، الاداةَ الوحيدة التي يستطيع الانسان الشاعر بواسطتها، كفرد، ككائن كادح وحيد واثق ومضطر الى الوثوق بما يجابهه هو بنفسه ، ان يدرك اختباره فيعرف نفسه ! الدين، للذين لهم دين ، قد يكشف الاسباب فيما وراء الاسباب، وعلم الاخلاق والفلسفة قد تفرضان عمومياتهما . الا ان الأدب وحده يستطيع السماح للانسان كأنسان بالدخول مباشرة الى اختبار الحياة الفردية الحي ، في ارومة القيم المثلى .

ان صلب الأزمة الروحية القائمة عندنا ، انما هي مشكلة الكائن الأنساني — الأديب — في عالم يزداد تَقَولُباً ، ففي زمن كهذا ،

تطغى فيه القيم المادية على القيم الروحية ، تزداد خطورة الشعر الحقيقية بحكم الضرورة ، وهي تزداد عند اولئك الذين يؤمنون ويأملون ببقاء مجتمع قائم على اسس جمالية ، لا تكون الحياة الا بها حياة !

وليس ما هو جوهري لبقاء مجتمع كهذا ، سوى الإدراك الدائم لصحة تلك العلاقة الشخصية الجمالية المباشرة مع الحياة ومع الأختبار . هذه العلاقة التي عليها تتوقف سعادة الأنسان بصفته مكوناً من عنصرين : مادة وروح .

وليس على الذين يمارسون فن الشعر في زمن كزمننا ، حلّ معضلات عصرهم بقصائدهم ، بل عليهم ممارسة فنهم لأجل اغراض فنهم ومستلزماته الاساسية التي هي الجمال ، مدركين انه بواسطة فنهم لامَسَت الحياة قلوب الناس في الماضي ، وهي فاعلة ذلك في المستقبل !

هذا الكتاب

وبعد ، ففي ختام ما عرضت في هذه المقدمة من عموميات القول والذكر ، في السياسة والأدب من الناحية الموضوعية والشخصية ، احب ان احدث القارىء عن بعض ما يتصل بهذا الكتاب « شعراء موريتانيا » من قريب وبعيد ، حديث الحائك الذي اخرج للناس « ثوباً » جديداً ليعرضه بين الاثواب الكثيرة في السوق ..

ان رواد السوق لا يملكون من امر الثوب المعروض الا رؤيته جملة لا تفصيلاً ، فهو امامهم قطعة تامة شكلاً ولوناً وقياساً ، ومن هنا ، من هذه المرئيات المتّحدة يوجهون اليه اعجابهم او انتقادهم . وهم سواء اكانوا مصيبين او مخطئين ، واقعون حتماً في تقديرات حدسية ليست صواباً كلها ولا خطأ كلها .. ولا ننسَ ان العمل الأدبي غير العمل العلمي في مقاييس ضبط الخطأ والصواب . لذلك ، فأني عامد

الى تسهيل مهمة الناقدين الراغبين في معرفـة « التفاصيل » عن الثوب المعروض ، ومحدثهم عن « خيطه » ، لُحمته ، سُداه ، الخ ، ليكونوا على بينة من امره كله .. وبذلك يمدح من يمدح عن معرفة ، وينقد من ينقد عن يقين ، فلا تجنّي ولا تحيّز ، والفـائدة في النهاية عائدة على الحقيقة ، على القارىء ، على العقل المستنير ..

● ان هذا الكتاب « شعراء موريتانيا » ، هو من الناحية الموضوعية « شقيق » كتاب : « موريتانيا الحديثـة » او الجزء « الثاني » من الموضوع اذا شئت .. فالقارىء الذي يهمه ان يعرف موريتانيا والموريتانيين معرفة تامة ، لا بد له من الاطلاع على الكتابين معاً ، والا ظل علمه عن البلاد واهلها ناقصاً .. ونصيحتي الأخوية الى الذين « حرّموا » قراءة الكتاب الاول في موريتانيا ان يُيَسّروها لمن ارادها اليوم ، فالحرية لا تخيف غير الضعفاء ، وعهدي بهم شجعان .. الأفكار والخواطر السياسية تبطل من تلقاء نفسها اذا لم تؤيدها الوقائع ، سواء أكره اصحابها ام رضوا .. إنها لم تكن عزيزة عليهم ، اثيرة لديهم الا لاعتقادهم حين سجلوها ونشروها انها رغبات مؤيّدة من الأمة . ان فقـدان الحرية الفكرية في العالم العربي ، امر قائم لا يحتاج الى دليل ولا الى تعليل ولا الى تضاليل .. ولا تدفعه حجج واهية او مظاهر كاذبة ! بل ان الفكر لا يزال في العالم مضطهداً مستعبداً بالرغم من قوانين وقرارات اتخذتها عدة منظمات دولية * مجتمعة ومنفردة . والفكر عنـدنا بصورة

---

* منها مؤتمر الكتاب والفنانين والعلماء في برلين سنة ١٩٥٠ ، وهو مؤتمر تحرر من سلطان كل حكومة ، أو نزعة سياسية . كان همه الأول الدفاع عن حرية الفكر والنقد في كل زمان ومكان ، وهذه بعض المواد التي تبناها :

١ – اننا نعتبر كحقيقة صريحة ان حرية الفكر هي حق مقدس من حقوق الانسان .

٢ – حرية الفكر هي قبل كل شيء ، حرية كل انسان في تكوين رأي ، والتعبير عنه ، حتى في الحالات التي لا يكون فيها هذا الرأي ملائماً لرأي الحكومات . فالانسان الذي لا يملك ان يقول « لا »=

خاصة اكثر اضطهاداً واستعباداً لأنه عرضة لموانع عديدة واغلال كثيرة وتقاليد ضيقة تمنعه ان يبين عن نفسه ، وان يطرق الاشياء طرقاً مجرداً. والحقيقة لا تعطيك وجهها الا حين تسقط عنها كل قناع .. وما اكثر الاقنعة التي تحجب بها الحقيقة عندنا !

● كان هذا الكتاب امنيّتي الاولى في الظهور قبل أخيه الأول ، ذلك اني تأثرت اول ما تأثرت عندما كنت في موريتانيا — السنغال ، بالناحية الأدبية ، فجمعت من شعر القوم ما صار مادة لكتاب أسميته في بادىء الأمر « مسارح الاذهان في ما جادت به قرائح البيضان » .. غير ان الظروف الخاصة الراغمة يسّرت لي صدور الكتاب الاول وبقي هذا الكتاب في سريرة الزمن مجرد أوراق محفوظة سجلت فيها الى جانب القصائد بعض الخواطر العاجلة ، ولما عدت الى لبنان في ربيع سنة ١٩٥٠ شرعت أبني منها المقالات الادبية عن شعراء موريتانيا في عـدد من صحف بيروت ودمشق . ولما حل صيف ١٩٦١ قدم من جملة من قدم للاصطياف في لبنان المغترب الشاب النابه السيد احمد عيسى صاحب مكتبة الوحدة العربية في الدار البيضاء ، فشجعني على إتمام الكتاب وتقديمه للمطبعة قبل حلول العام الجديد (١٩٦٢) وحينئذ جرى اقتراح اسم آخر له ، فكان اسمه الحالي « شعراء موريتانيا القدماء والمحدثون » . والسيد احمد عيسى ناشر جديد منطلق العقل ، منفتح القلب على بذل التضحيات في سبيل نشر الكتاب العربي في كل قطر ومصر ، ديناميكي الهمة والطموح ،

= هو انسان عبد .

٣ — إن من طبيعة الحرية احترام اختلاف الآراء . على ان مبدأ التسامح لا يقتضي منطقياً احترام التعصب .

٤ — ليس من حق أي مذهب سياسي أو اقتصادي أن يحتكر لنفسه معنى الحرية ، ولكن الحرية ان يترك للفرد حق مناقشة المذاهب والحكم عليها .

هذه هي المواد الاصلية في ذلك المؤتمر ولكنها تبقى مواد يسعد بها الورق دون البشر ... لأن حرب الاهواء والمذاهب لا تزال أقوى من سلام الفكر !!

وافر الأخلاص والاهتمام في بعث كل تراث او اثر عربي ، وخاصة كل ما هو مغربي – موريتاني . وها هو يقوم نحو هذا الكتاب –بالاضافة الى طائفة كبيرة من المؤلفات المغربية– بتضحية مادية جديدة كان يجب ان تقوم بها حكومة .. فله شكر الادب والعرب !

● ان هذا الكتاب ليس « دراسة ادبية » عن الشعر الموريتاني بالمعنى الكامل ، وان كان متصفاً بها في بعض الفصول ، ولكنه – وهكذا أردته – مادة غزيرة لكل من يهتم او سوف يهتم بدراسة هذا الشعر الافريقي . ولا هو كتاب « مدرسي » توخيت به منهجاً مقرراً من « قبل وزارة المعارف » ، وانما هو كتاب « مطالعة ادبية » للشعر الموريتاني والبيئة الموريتانية ، وما يتصل بهما من مزايا وصفات وخصائص فنية ممتعة . ولا هو كتاب تحليل وتعليل ، وان كنت لم اهمل هاتين الناحيتين من العناية في أماكن شتى . ذلك ان العمل التحليلي – الدراسي – يتطلب كتاباً برأسه ،ويستلزم مجهوداً بحجم هذا المجهود او أكثر ، ووقتاً بقدر وقته أو أكبر ، ارجو أن يتوفرا لي في مقبلات الايام اذا كانت مشجعة .. لهذا ، اعلن في غير ما تحفظ اني حرصت في عملي هنا على أمرين :

١ – جمع كل ما وسعني جمعه من قديم وحديث .

٢ – تجنبت عامداً الاقتصار على الجيد المختار من شعر كل شاعر ، لئلا تأتي الصورة الحقيقية لهذا الادب البادي ناقصة او مزورة لدى من يريد ان يدرسها بكل حالاتها النفسية والاجتماعية العذبة والمعكّرة .. لا سيما وانه من المفيد والضروري اطلاع القارىء « الغريب » الذي لا يعلم شيئاً عن هذا الأدب على جوانب الضعف والقوة فيه ليصبح وقد علم كل شيء ...

وهنا احب ان انبه القارىء – الموريتاني وسواه – اني بالرغم من حرصي على تجنب الاختيار الجيد، كذلك تجاوزت عن السخيف الضعيف

الى كل ما هو أرقى واجود نسبياً ، وأغنى بالصور الشعرية الذاتية والبيئية . كما احب ان القي في روع القارىء العربي في المشرق – بصورة خاصة – حقيقة أدبية مذهلة هي ان هذه « المجموعة » الضخمة من الشعر الموريتاني على غناها وغزارتها تعتبر « غيضاً من فيض » ..!!

● أما مصادري – للشعر القديم – فكانت في معظم الاحوال صدور الوعاة والرواة الموريتانيين أنفسهم الذين اتصلت بهم في أرضهم (وما آفة الاشعار الا رواتها ..) . ثم علمت بعد البحث والتتبع ان مصادرهم كلها كانت من مصدر واحد هو كتاب « الوسيط » .. ولما قابلت بين الروايات ،وجدت ان بعضها – وهو كثير – قد رُوي لي على نحو خاطىء او محرّف ،فرجعت الى المصدر الاول – «الوسيط» – واعتبرته المصدر الوحيد المسؤول عن صحة الرواية الشعرية وخطأها . ذلك انه هو الكتاب الوحيد المبين المطبوع منذ نصف قرن ، الذي حفظ لموريتانيا قدراً لا بأس به من شعرها القديم حتى اليوم على نحو ما رواه علامتها الاول « الأمين » رحمه الله !

● واليوم .. أستطيع ان أقول بكل فخر واعتزاز ، ان كل اهمية أدبية قديمة كانت « للوسيط » وغيره قد انتهت بصدور كتابي هذا الذي « جمع فأوعى » من كل قديم وحديث ، مما سيجعله باذن الله عملاً طليعياً في نظر أساتذة الأدب والشعر ، الى أن يأتي – بعدي – من ينسج على منواله ،ويؤلف في موضوعه ويفوقه كمّاً ونوعاً وشمولاً .. اذ لا أحَب عندي ولا أشرح لصدري والله، من ان يكثر عدد المهتمّين بهذا القطر العربي الموريتاني العزيز !

فصول الكتاب

لقد اردت ان تكون الفصول الخمسة الأولى – قبل فصول النصوص–

فصولاً تثقفية تاريخية عصرية في روحها وتسلسلها وطريقة تقديمها للقارىء الافريقي الناشيء عقلاً وروحاً في « مدارس » فكرية قديمة بعضها رجعي موغل في الرجعية .. فهو – باستثناء المثقف ثقافة عصرية – صاحب مفاهيم خاصة في الادب والدين والتاريخ ..

وكان التسلسل التاريخي والادبي في نظري يقضي بأن نبدأ اولاً في « مدار التاريخ » من شنقيط الى بوتايميت ، الى الرواد المسلمين بين المشرق والمغرب ، والتلاقي الروحي الذي حصل بين علماء وشعراء هاتين القارتين الاسلاميتين ، وما نجم عنه من خير وبركة ..

ثم الانتقال الى الاداة التي كانت صراط هذا التلاقي المستقيم ، وهي اللغة العربية – الفصل الثاني – التي كانت لغة الفتح الثقافي والديني والسياسي ، حاشاها ان تكون لغة الفتح « العسكري » ! وما كان من شأنها كلغة عبقرية اكتسحت ارجاء آسيا وافريقيا واوروبا .. وحفظت لنا بها مئات المخطوطات القيمة في موريتانيا والسنغال ، مما هو موضع اعتزازنا دائماً !

ومن هذا المجد اللغوي ، ننتقل الى مجد آخر : مجد الصياغة الفكرية « في مدار الشعر » – الفصل الثالث – حيث نقدم تعريفاً للشعر ومفاهيمه العصرية والقديمة ، مع ملاحظات حول عنصر المعاني في الأدب الموريتاني والشعر الملحمي ، والشعر العربي بصورة عامة في موريتانيا والجزائر والأندلس الخ .. مما له صفة « البحث الادبي » .

ثم نمضي من هذا المنطلق الى الكلام – في الفصل الرابع – عن « هجرة الادب العربي الى : اسبانيا ، المغرب ، موريتانيا » ، فيطلع ابن المشرق والمغرب على المساهمة الرائعة التي كانت لهذا الادب الراقي في تكوين اوليات الروابط والوشائج التاريخية ، وما تركت الموشحات والقصائد الأندلسية – مروراً بسينية ابن الابّار الخالدة – من آثار طيبة في نفوس الافارقة والمشارقة ، وكيف آلت « هجرة » الادب العربي

الى موريتانيا ..

وهنا ، تحين فرصة الكلام عن المجتمع الموريتاني – الفصل الخامس – وخاصة مجتمع الشاي والشعر سيد الحياة اليومية في تلك البلاد .. فنتحدث عن « انعكاسات المجتمع القبلي الجاهلي على البيئة الموريتانية » بما فيها المجتمع الطبقي – العائلي – وينتهي مطاف هذا الفصل بمقارنة جزئيـة بين الشعر اللبناني والشعر الموريتاني ..

وعندئذ نخلص الى الدخول في صميم النصوص الشعرية الموريتانيـة – الفصلان السادس والسابع – فنروي لحوالي ستين شاعراً من القدماء والمحدثين قصائد ومقطوعات من شتى البحور والموضوعات التي تصور البيئة الافريقية الموريتانية أصدق تصوير !

ثم نأتي الى الفصل الثامن – فصل الختام – فنتحدث عن « المفردة العربية بين الحسانية والفصحى » ، ونضرب على ذلك الامثال في عدة صفحات من « الامثال الحسانية » المشروحـة ، ويكون مسك الختام « في دنيا المرأة » .. المرأة الموريتانية طبعاً ، ونعم الختام هو ..

* * *

تلك هي « حكاية » هذا الكتاب موجزة جملة وتفصيـلاً ، أو بالاحرى حكاية « الثوب الجديد » المعروض بين الاثواب الكثيرة في السوق ، كما يعلمها الحائك نفسه .. ذكرتها تسهيلاً لمهمة الناقد (او القارىء) المستعجل .. ليقول خيراً أو يقول شراً ..

ولكن هل تغني قراءة (المقدمات) عن قراءة الكتب عـلى هذا الاساس ..؟ لا أعتقد .. اذ لو اغنت لانتهت جميع الجهود البشرية الى العدم ، ولتساوى على صعيد القيمة أبرع الأذهان وأفشلهـا ، وأضخم الجهود وايسرها اعوذ بالله ..!

المال ، يقول ابسن : « يمنحنا مظاهر الاشياء دون جوهرها : انه

يمنحنا الطعام لا الشهية ، والدواء لا الصحة ، والمعارف لا الاصدقاء ، والخدم لا المخلصين ، والمرح لا السعادة » .

كذلك (مقدمات) الكتب : انها تمنحنا اخبار الكتاب لا روحه ، وتعطينا مظهره لا مخبره ، وترينا ملامحه لا حقيقته .. لذلك لم يكن بدأ لك من قراءة الكتاب اذا وقع موضوعه في نفسك موقع القبول دون الاقتصار على مقدمته .. فأحرِ بك ايها القارىء المحترم ان لا تكتفي بمظاهر الأشياء دون جوهرها .

أقصى اماني — كمؤلف — ان تجد في كتابي « جوهراً » ترضى عنه، فتبذل في سبيله وقتك ومالك ، فيتحقق لي بذلك سعادة روحية يشهد الله اني ما عملت وما شقيت الا لها ! أو لا ، فحسبي ان شعراء موريتانيا كانوا لي ولقومي في يوم من الأيام « مادة عمل » والهام ، ورسل محبة وسلام ، وعنوان تحية اخوية متبادلة ، دائمة الأتصال بين هذا الشاطيء اللبناني ، شاطيء المتوسط في بيروت ، وبين ذلك الشاطيء الموريتاني ، شاطيء الاطلنطي في نواكشوط !

بيروت كانون الثاني (يناير) ١٩٦٢

محمد يوسف مقلد

الفصل الاول

في مدار التاريخ :
من شنقيط إلى بوتليميت إلى الرواد المسلمين بين المشرق والمغرب

Call No.......... *Date*............ ....

Account No..........

J. & K. UNIVERSITY LIBRARY

This book should be returned on or before the last stamped above. An overdue charges of 6 nP. will be levied for each day. The book is kept beyond that day.

عُلماء وشُعراء موريتانيا في المشرق

قبل الدخول في صلب الموضوع نحب ان نستعجل ابداء ملاحظة حديثة ، هي ان اسم « موريتانيا » بدأ يحل في العصر الحديث محل الاسم التاريخي الاسلامي للبلاد المعروفة في القديم بأسم « شنقيط » ، واستتبع ذلك القول « موريتانيون » بدلاً من قولنا « شناقطة » ..

ونحن مع اعترافنا، او بالاحرى خضوعنا لمقتضيات الظروف والتطور في هذه المسألة، ما نزال عند رأينا الذي أعلناه في مقدمة كتابنا « موريتانيا الحديثة » وهو وجوب المحافظة على التسمية القديمة للبلاد مع وجود التسمية الجديدة ، لانها ، أي القديمة ، « الاسم العربي الوضع ، الاسلامي الروح .. » ولاننا نخشى ان يؤدي « استبدال » الاسم الى استبدال الشخصية التاريخية كلها حتى يؤول بها الامر مع الزمن ــ لا قدر الله ــ الى واقع غير واقعها ، وحقيقة غير حقيقتها .

لا بد ان هناك من يقول انه لا موجب لهذا التخوف ، وبالتالي ان الملاحظة عند هؤلاء اللامبالين قد تكون سطحية لا يؤبه لها ، او انها ملاحظة شكلية لاجوهرية .. الى هؤلاء أقول انني ممن لا احب عندهم من البقاء على « ضلالهم » القديم !

والآن نعود ، فنستأنف الكلام في الموضوع :

على الرغم من بعد موريتانيا جغرافياً عن المشرق ، فقد ظل علماؤها على اتصال به جيلاً بعد جيل ، يدلفون الى الديار المقدسة لاداء فريضة الحج ، ومنهم من كانوا يبقون بعد ذلك في البلاد الشرقية* .

وكانوا أينما حلوا ونزلوا مصابيح علم وأدب من وراء الغاية الدينية . ومن هذا الرهط الشيخ محمد محمود الشنقيطي الذي وصفه تلميذ الاستاذ الامام – بعده – السيد محمد رشيد رضا، بأنه « العلامة المحدث الذي انتهت اليه رئاسة علوم اللغة والحديث في هذه الديار لا سيما علم الرواية للحديث الشريف ولأشعار العرب المخضرمين » .

وقد ارتبط الشنقيطي وهو في مصر بصداقة وثيقة ، صداقة العلماء الأجلاء ، مع الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، وقد كان الشنقيطي من أعلم الملمين بأسرار اللغة ، والوقوف على المخطوطات ، وكان مرجعاً في تقرير الاحكام اللغوية . وقيل ان عبد الحميد الخليفة وقد سمع بفضله وطول باعه وسعة احاطته ، كلفه بأن يذهب الى اسبانيا باحثاً عن المخطوطات العربية فذهب وقام بالمهمة خير قيام .

وهناك ثلاثة من الفحول كانوا في باب العناية بالمخطوطات والوقوف على مظان وجودها ومعرفة موضوعاتها ممن لا مثيل لهم : اولهم الشنقيطي الذي نحن بصدده ، وثانيهما الشيخ طاهر الجزائري ، وهو رأس الدعوة الى الاصلاح الاسلامي ونافخ فكرة اليقظة العربية في شباب العرب وصديق المصلح مدحت باشا ، وهو جامع كتب المكتبة الكبيرة او مكتبة الملك الظاهر في دمشق التابعة للمجمع العلمي وجامع معظم الكتب التي في

---

* لا يزال هذا الواقع قائماً حتى اليوم ، فالعربية السعودية يقطنها الآن ما لا يقل عن ثلاثة آلاف من الموريتانيين – الشناقطة – وبعضهم اكتسبوا الجنسية المحلية وتولوا وظائف مختلفة في الدولة، وبعضهم آثر الرجوع إلى وطنه الأهلي بعد قيام « الجمهورية الاسلامية الموريتانية » ليساهم في مناصرتها وتقويتها عن قرب . ولنا بين هؤلاء الشناقطة كثير من الاخوان نخص بالذكر منهم ول اب الشنقيطي ، وبن محمد محمود رئيس عامة أهل سيدي محمود ، وخطري بن خطري الأديب والشاعر المعروف ، وغيرهم .

المكتبة الخالــدة في بيت المقدس وكانت وفاته ١٩١٩ . وثالثهم الشيخ خليل الخالدي المقدسي ، وقد زار الأندلس مرتين وكان اوعى رجال عصره في علم المخطوطات العربية والأسلامية وتوفى في مصر خلال الحرب العالمية الثانية .

واما الشنقيطي فقــد توفى في مصر سنة ١٩٠٥ . قبيل وفاة الشيخ محمد عبده بقليل ، ومن اجلّ اعماله في القاهرة تصحيحه كتاب الأغاني لأبي الفرج الاصفهاني ، التصحيح الذي اعتمدته دار الكتب المصرية في اخراج هذا الكتاب وطبعه الطبعة الفريدة في الاناقة .

وبوقتها ثلاثة تقاربت ايام وفياتهم في مصر وكلهم علم في رأسه نار : احمد المنشاوي المحسن الكبير ، ومحمود سامي البارودي باعث دولة الشعر الحديث من مهاجعه والمورد الذي ايقظ شوقي فاستفاق ابو علي عــلى نغماته ، والشنقيطي اصمعي عصره !

ومما يروى عنه انه حضر تشييع جنازة صديقه الحميم ، البارودي ، وكان في التسعين او اكثر ، فعجز عن متابعة السير مع الموكب ، فنقل الى بيته وتوفى في اليوم التالي ، وكان له مأتم عظيم ، ومات وهو لا يملك شيئاً يذكر ، وقام بنفقة تجهيزه ودفنه صديقــه الاستاذ الامام ، وأوصى بكتبه وجعلها وقفاً .

ومن الغريب انه رغم اجتيازه التسعين ، كما يقول صديقه السيــد رشيد رضا صاحب « المنار » فأنه لما توفى كانت امرأته حاملاً فوضعت غلاماً بعد وفاته وسمي بأسم ابيه !

وقد ذكر العلامة السيد رشيد رضا في « المنار » حادثة بليغة المغزى في اخلاق العلماء صفوتها ان بعض العلماء الضيقي الصدر اخذوا ينتقدون « رسالة التوحيد » للاستاذ الامام ويؤمنون ان فيها نزعة اعتزاليــة ، مبعوثة هنا وهناك ، وعدوا هذا شبهات ، ولما كانت الامور التي من هذا النوع انما تنجلي بالمباحثة والنقاش وايراد الحجج ، بوعي واطمئنان ،

فقد ذهب الشنقيطي الى بيت صديقه الأستاذ الامام ، وقرأا الرسالة معاً في يومين ، وتذاكرا في نقاطها ، حتى زال الاشكال واعترف الشنقيطي للمؤلف بالاصابة وقول الحق ، كما ان الاستاذ الامام سلم بما رآه من القول الراجح من مناظره ونظيره وصديقه، ولكن ليس هناك شبهات كما وسوس اولئك العلماء .

ولما انعقد مجلس الدرس في الرواق العباسي بالازهر ، وملقي الدرس الاستاذ الامام ، حضر الرواق والمجلس الشيخ الشنقيطي ، فاذا بالاستاذ الامام يبسط للطلاب رأي الشنقيطي ويثني على فضله ، واذا بالشيخ الشنقيطي يقف ويلقي كلاماً في الموضوع ، زاده جلاء ونصوعاً ، ثم القى قصيدة عامرة نوه فيها بمزايا الاستاذ الامام وعلو قدره .

ومن العلماء الشناقطة الشيخ امين الشنقيطي ، عالم عامل مصلح مجدد، توفي في بلدة الزبير التابعة للبصرة سنة ١٩٣٢ .

وهناك الشيخ محمد الخضر الشنقيطي ، كان في الحجاز وجاء مع الملك عبدالله الى الاردن سنة ١٩٢١ وتولى الوزارة ، وكان قاضي القضاة من قبل وتوفي في الاردن . وفي الاردن اليوم الشيخ محمد امين الشنقيطي، كان وزيراً للتربية عام ١٩٦١ وقاضي القضاة .

وللشنقيطي أحمد ابن الامين في مصر كتاب « الدرر اللوامع » في علم العربية ، و « الوسيط في ادباء شنقيط » وهذا الكتاب يعرفنا بأهل الفضل وأوعية الادب في شنقيط حتى آخر القرن الماضي وقد أتينا على ذكره مفصلاً في الفصل السادس من هذا الكتاب .

حركة الهجرة الموريتانية الجديدة الى المشرق

قدمنا القول إن الصلات الروحية بين المشرق وأقصى المغرب العربي، وخاصة موريتانيا ، لم تنقطع منذ الفتح الاسلامي حتى اليوم . وقلت

انه منذ بدأ الركب الشنقيطي يعمل بلا انقطاع على تغذية هذه الصلات بين (شنقيط) والبلاد المقدسة ، نجعلها « فريضة أخوية » مشرقية ، الى جانب كونها فريضة دينية سنوية — أجل منذ ذاك الحين أخذ (الشناقطة) يجعلون من زيارتهم للبلاد المقدسة طابع الاستيطان .

فلما تغير وضع الحجاز السياسي في مطلع القرن الحالي ، وأصبحت البلاد تعرف باسم « المملكة العربية السعودية » بدأت حركة الهجرة اليها من موريتانيا تتسع رويداً رويداً ، وازدادت هذه الحركة نمواً عندما تطورت وسائل السفر ، وانتقلت من الجمل الى السيارة ، ثم الى الطيارة .. واذا ببيروت التي لم تكن ايام الاسفار البرية والبحرية القديمة محطة للافريقيين البيض والملونين الا نادراً — اذا ببيروت هذه تصبح في العصر الحديث « محطة رئيسية » لا بد منها للذاهبين والعائدين من والى افريقيا — السعودية وغيرها من بلاد الشرق .. وكان من شأن هذه الصلات « السماوية » ان ازددنا تعرفاً الى اولئك الاخوان الأفارقة وازددنا رغبة في التشبث بهم غادين ورائحين ...

كانت أوسع هجرة موريتانية الى السعودية في الربع الاخير من القرن الحالي ، حين بدأت المملكة تشعر انها بحاجة الى الافادة من وجود (جالية) عربية افريقية كالشناقطة ، وخصوصاً وان معظم أفرادها أهل ثقافة اسلامية ولغة وأدب ، ففسحت لهم مجال العمل في دوائرها ، والتحصيل في معاهدها ؛ كذلك سهلت للراغبين منهم الحصول على الجنسية المحلية ، اذ اصطفتهم على غيرهم من الرعايا العرب لأكثر من سبب .. ولعل في رأس الاسباب انها وجدتهم عنصر خير وسلام واسلام ، وان « مطامحهم » مأمونة العواقب .. أضف الى ذلك شدة تمسكهم بدينهم وعروبتهم تمسكاً لا يضاهيهم به أصح الناس ديناً وعروبة في المشرق .

غير ان حركة الهجرة هذه الى السعودية توقفت بعد قيام « الجمهورية الاسلامية الموريتانية » في أواخر عام ١٩٦٠ ، اذ انعكست حركة الهجرة

الى حركة « عودة جماعية » تقريباً ، وخصوصاً في أوساط المثقفين منهم ، وذلك للافادة من خبرتهم في مرحلة التكوين « الدولي » لشخصية البلاد .

ويحضرنا من الاسماء الموريتانية ، أسماء شخصيات دينية وعلمية وادارية كثيرة ما تزال الى اليوم مقيمة في السعودية ، نذكر منها على سبيل المثال : الشيخ محمد الامين الشنقيطي ، مفتي ومدرس بالحرم النبوي الشريف . محمد بن محمد سالم ، مدرس بمدرسة الفلاح . محمد عبدالله بن العلامة الشيخ محمد الخضير ، مراقب على الصحف ومحام . محمد محمود بن سيدي محمد ، كاتب عدل بالمستعجلة . احمد بن أحمد نايب ،مأمور بعرفات . محمد زين الأبيري، مدرس بالمدرسة العسكرية . الطالب بن بره ، معاون جراح بمستشفى الملك سعود (وكذلك محمد الامين بن حم" ختار) . بابا عبد الحي ، بواب بالحرم النبوي الخ ...

أما عدد الطلاب الموريتانيين بالمدارس والمعاهد السعودية الآن فلا يسعنا حصره ، ويكفي القول بأنه عدد كبير . ولا شك عندنا بأن اتساع حركة التنقل والاتصال بين المشارقة والأفارقة ستزداد مع الايام نمواً ونشاطاً وخاصة بين لبنان وموريتانيا ..

الشعر الحساني واللهجة الحسانية

في مقدمة ابن خلدون وفي مواضع متفرقة من تاريخه مقطعات باللغة الدارجة التي كان يتكلمها البدو الآتون من المشرق كهلال وسليم ومعقل. وقد لا نبعد عن الصواب اذا اعتبرنا هذه المقطعات كأقدم انموذج للشعر الحساني ابقاه لنا الماضي اذ ليس ذوو حسان الا فرعاً من معقل ، غير ان الشعر الحساني اخذ في العصور التالية يبتعد شيئاً فشيئاً عن شكل الشعر الهلالي ، فالمقطعات المذكورة دلالة واضحة على ان الهلاليين لم

يتمسكوا فقط بمواضيع الشعر العربي القديم في فنونه من غزل ومدح وفخر وهجاء، بل حافظوا كذلك ايضاً على اوزانه وبحوره ووحدة قافيته، ولا يرى القارىء لهـذه المقطعات ان هناك اي تغيير طرأ على الشعر العربي القـديم ، اللهم الا ما كان من فقدان الإعراب ، اما الشعر الحساني الذي نرى ، فلم يفقـد الإعراب فقط ، بل زاد على ذلك فأحدث اوزاناً جديدة وطرح وحدة القافية وبحور الشعر بالفصحى لعلل سنبينها حين نعرض لمواضيعه واوزانه .

وتمر قرون – من اواسط القرن الثامن الهجري حتى القرن الحادي عشر – زحفت خلالها العشائر المعقلية الى الصحراء الغربية ولم نسمع فيها شيئاً عن شعرهم بل شيئاً من تاريخهم البتة ، وكل ما يمكن ان نتخيله هو ان لهجاتهم استمرت تتطور حتى وصلت الى شكلهـا الحالي شأن كل حي . ومعقول ان عناصر هذا التطور متعـددة ، وان من العسير ادراك اكبرها اثراً ، غير انه ليس من الخطل استناداً الى مقارنة اللغـات – ان نحسب حساباً للهجات الأقوام الذين جاورهم الحسانيون واحتكوا بهم طوال زحفهم، فلا بد ان يكون هناك تأثير للغات هؤلاء الاقوام تأثيراً نراه بيناً في الحسانية التي تستعمل اليوم ، ففيها مفردات عديدة اقتبستها من اللهجات الصنهاجية « الزناقية والتارقيـة والشلحية » نعم ذكر الرحالة الأسباني مار هول الذي زار موريتانيا في اوائل القرن الحادي عشر الهجري انتشار تذوق الشعر والقدرة على نظمه بين عرب الصحراء .

ومنذ القرن الحـادي عشر الهجري اخذت معلوماتنا التاريخية عن موريتانيا تتحسن بعض الشيء، فقد كان من تردد التجار الأوروبيين على شواطئها ان تركوا لنا بعض الرحلات، وكان من توزع العشائر واستقرارها حتى اليوم في اوطان لم تتبدل ، ان حدث ما يشبه نظاماً ثابتاً ساعد على تدوين بعض التاريخ في شكل حوليات في كبرى الواحات كوالاته

وتيشيت ، وكذلك دونت نتف تاريخية في القبلة وآدرار ، شاهد هذا القرن الحادي عشر سلسلة احداث كان من اثرها اندماج عشائر حسان في المجتمع الصنهاجي السابق لاستيطان الصحراء الغربية،وقد اتت هذه العشائر بلغتها العربية التي كان مكتوباً لها ان تصبح بعد اجيال لغة البلاد الوطنية الدائمة !

شنقيط وأخواتها في لمحة تاريخية

تقع مدينة شنقيط في أقصى المغرب معتبرين موريتانيا هي « المغرب الاقصى » ومراكش المغرب الادنى . ونحن نبدأ في التحدث عنها – عن شنقيط – قبل غيرها مع انها ليست أقدم المدن الاسلامية عهداً في الصحراء الغربية وذلك لانها كانت ذات أثر كبير في نشر تعاليم الاسلام وامتداد الفتوح في افريقيا . كما أنجبت نخبة صالحة من رجال الفكر وعلماء الفقه واللغة والأدب . كما ينظر اليها المسلمون في تلك الديار باجلال واحترام .

والطريق اليها تذهب صاعدة بين الوديان والكثبان الرملية ، حتى اذا دنا المسافر منها رآها قابعة فوق هضبة عالية تشرف على السهول الفسيحة. وتحيط بها مزارع النخيل . ويلاحظ – من بعيد – العمارات الجديدة المنفصلة عن المدينة الاصلية بسهل البطحاء . فاذا بلغها ، وجد شوارعها ضيقة جداً ، وبيوتها مبنية من الحجارة والطين ذات أبواب منخفضة ، وعديمة النوافذ في أغلب الاحيان ، ولها مزاليج قديمة الطراز . فاذا دخل أحدها (وكلها على ذات الشاكلة) شاهد أمامه ساحة فسيحة فيها مصطبة مرتفعة لجلوس الزائرين ، ومداخل متعددة تؤدي الى حجرات الدار الكثيرة ، ويقدم الشاي للزائرين ، وهناك تنشد الاشعار . واذا

كان صاحب الدار غنياً ابتنى طبقة ثانية ذات سطح مستو ، تفرش بالسجاجيد والوسائد . واذا كان صاحب الدار من طبقة العلماء ، جمع مخطوطاته في صندوق أو في خزانة مصنوعة من أغصان النخيل .

وواحات النخيل تقع على جانبي البطحاء ، وفيها الآبار التي تسقي جمال القوافل التجارية التي تمر بشنقيط ،وهذه الواحات عظيمة الاتساع ، يكثر فيها السكان خلال موسم القطاف في شهر آب (اغسطس) من كل سنة . ويجري ري هذه المزارع اما على طريقة الساقية — او كما يسمونه في مصر « الشادوف » ، وفي لبنان — جبل عامل — النادوف او الشاقول ،ويطلق عليه في تلك الاماكن « اشيلال » واما بالمضخات . وهناك قنوات عديدة تروي بمياهها حقولاً صغيرة تزرع بالدخن والذرة. وسكان هذه الواحات من العمال المستخدمين الذين ينتمون الى اصل زنجي ويقطنون في أكواخ من الخوص يطلق عليها اسم « تيكيت » مثل ابناء القبائل الرحل الذين يأتون الى شنقيط في موسم قطف البلح .

ويظهر ان هؤلاء يختلفون في كثير من النواحي عن سكان المدينة ، وبينهم عدد كبير من العلماء المثقفين او المشتغلين في التجارة مثل اسلافهم الاقدمين .

والى جانب قلعة « كلوديل » التي بناها الفرنسيون عام ١٩١٩ ، نجد المقبرة القديمة القائمة فوق هضبة عالية تظللها بضع شجيرات صحراوية وهناك نعثر على اسماء مهمة منقوشة بخطوط اثرية على شواهد كثير من القبور ، خطتها ايدي ادباء شنقيط .

ومدينة شنقيط الاصلية بنيت في واحة (أبيّر) الصغيرة الواقعة على بعد ثلاثة اميال الى الشرق ، حيث لا تجد شيئاً تاريخياً مهماً . ويتراوح انشاؤها بين القرنين الثامن والعاشر بعد الميلاد . وقبيلة « ايدوعل » التي لا تزال تسكن المدينة الحالية ،جاءت الى « آبير » ما بين القرنين العاشر والثاني عشر . وباني المدينة هو « محمد غل » .

وتقول الاساطير ان مكانها الاول — وكان مجرد كثبان رملة عارية — سكنته جماعة بافور الوثنية الزنجيـة الاصل . واقام في تلك المنطقة ثلاثة رجال ، عني احدهم بتربية الماشية ، واهتم الثاني بالزراعة ، بينما تولى الثالث مهمة القضاء ..! ولم تكن هناك وقتئذ مزارع نخيل .

وجاء بعد ذلك ابو بكر بن عمر المرابطي واقصى جماعة « بافور » عن « آبير » وأسكن مكانهم عمـالاً حراطين (بيض من أصل أسود والعكس) فـأخذوا في زرع النخيل ، وبدأت المدينة تنمو ، فبنيت المنازل والمساجد ، وخصص قسم من الارض ليكون مقبرة . وحدث ان قتل رجلٌ من بني « ايدو عل » يدعى يحيى واحداً من بني عمومته وكان القاتل محبوباً عند الجميع ، فلم يشأ أبناء القبيلة ان يُطبّق عليـه القصاص الشرعي (وهو القتل) فغادر « آبير » واتجه الى شنقيط التي كانت وقتئذ دسكرة صغيرة ، ووجه رجلاً اسمه « محمد غل » هو جد قبيلة ما تزال مقيمة هناك ومعروفة اسمها « الاغلال » ، وزعم له ان اصله من قريش ، وكان تقياً ورعاً . فسأله يحيى ان يسمح له بالاقامة معه ، فقال له محمد : عليك ان تأتي كل يوم جمعة تلتمس الغفران من الله تعالى ! وفي يوم الجمعة الاول جاء رجلان من « ايدوعل » لكل منهما حرفـة ولم يمض غير قليل حتى قرر هـذا العدد الضئيل بناء بلدة .

واستغرق هذا العمل زهاء أربعين سنة . وتدل المخطوطات المحفوظة على ان شنقيط الاولى بنيت في وقت يقارب عام ١١٢٣ بعد الميلاد ، وان شنقيط الثانية بنيت بعد ذلك في عام ١٢٦٢ . وأتى على الأثر عدد كبير من قبيلة « ايدوعل » من « آبير » ليقطنوا البلدة الجديدة ، وجاء كذلك جماعة من قبيلة « سماسدة » . وما لبثت البلدة الاصلية ان اسدل عليها ستار النسيان .

وأصبحت شنقيط بعد ذلك مركزاً عظيماً للتثقيف ، وتم بناء أحد

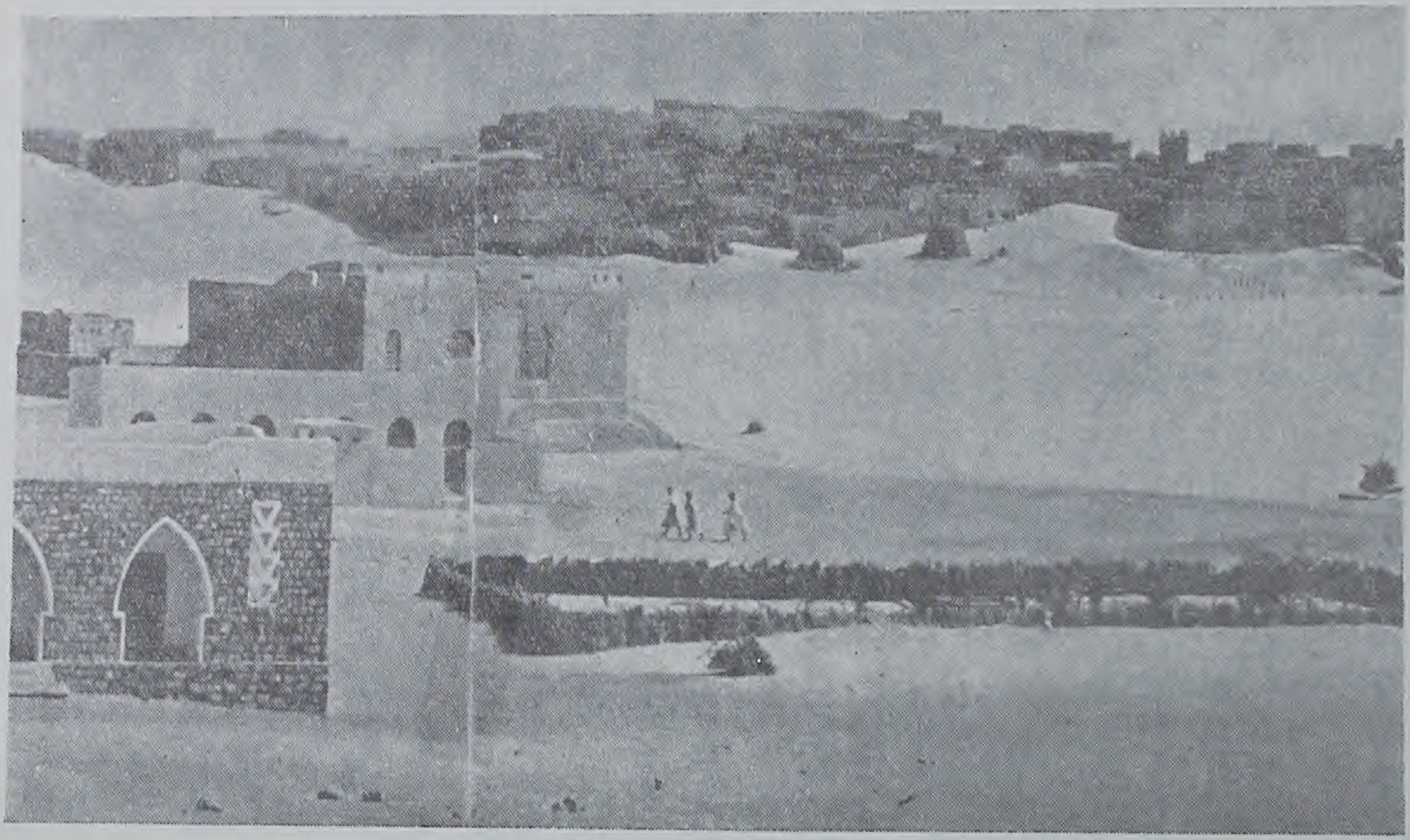

منظر جزئي لمدينة شنقيط التاريخية كما هي اليوم « قابعة على هضبة عالية تشرف على السهول الفسيحة وتحيط بها مزارع النخيل » .

مئذنة شنقيط المبنية على شكل برج مربع
الزوايا . ويشاهد في أسفلها المدخل
الصغير المؤدي للجامع .

•

عشر مسجداً فيها ، لا يزال أقدمها عهداً قائماً . وحوالي القرن السابع عشر حدث اضطراب عنيف ، وسفكت دماء كثيرة في المدينة مما أدى الى رحيل عدد كبير من قبيلة « ايدوعل » الى بلدة « تجكجة » . ومن الغريب ان الرحالة العرب لم يذكروا شنقيط أبداً . ولم نجد لها ذكراً في رحلة ابن بطوطة او مؤلفات ابن خلدون أو أي واحد آخر منهم ، حتى ان ليوافريقانوس لم يشر اليها رغم انه ذكر « وادان »

و « تيشيت » ! وكان « ف . فرنانديس » البورتغالي ، أول اوروبي تحدث عنها اثناء رحلته بين عامي ١٥٠٦ و ١٥٠٧ . وخلال تلك الفترة كانت « وادان » أهم بلدة في مقاطعة ادرار . وصلت اليها اول حملة عسكرية من المغرب حوالي عام ١٧٣٠ . وفي أوائل القرن التاسع عشر صارت شنقيط بسبب تدهور حالة « وادان » أهم بلدة في تلك المقاطعة، بدليل المخطوطات التي سجلت في ذلك العهد ، وعثر عليها مؤخراً .

مدينة آطار

أما مدينة « آطار » التي صارت الآن أهم مراكز المقاطعة ، فقد بناها السماسدة في القرن التاسع عشر فقط دون ان يكون لها أثر في الميدان الثقافي او شأن في التاريخ الاسلامي ، رغم ان المحراب القائم في مسجدها الأكبر بني على حجر جلب من مكة المكرمة !

وعلى مقربة من « آطار » والى الشمال الغربي منها ، نجد اطلال بلدة « آزكي » القديمة ، حيث بنى الزعيم المرابطي « يانو بن عمير » قاعدة لقواته العسكرية في الايام الاولى لتوغل المرابطين في افريقيا السوداء من جهة ، وفي المغرب واسبانيا من جهة اخرى . وهناك تأسست قرية من اكواخ الخوص (تيكيت) يعتمد سكانها كلياً لكسب معاشهم على موسم قطف البلح . وتقع هذه الاكواخ ضمن اطلال اسوار قلعة المرابطين او لصقها تماماً .

ذكرها البكري فقال : « ... فأمر عبدالله بن ياسين الامير يحيى ابن عمر ان يتحصن بجبل لمتونة ، وهو جبل منيع كثير الماء والكلأ يبلغ في طوله مسير ستة ايام ، وفي عرضه مسير يوم . وهناك حصن يسمى « آزكي » حوله نحو عشرين الف نخلة كان بناه يانو بن عمير » .

وذكرها الادريسي ، فقال : « ... اما مدينة ازكي فانها من بلاد

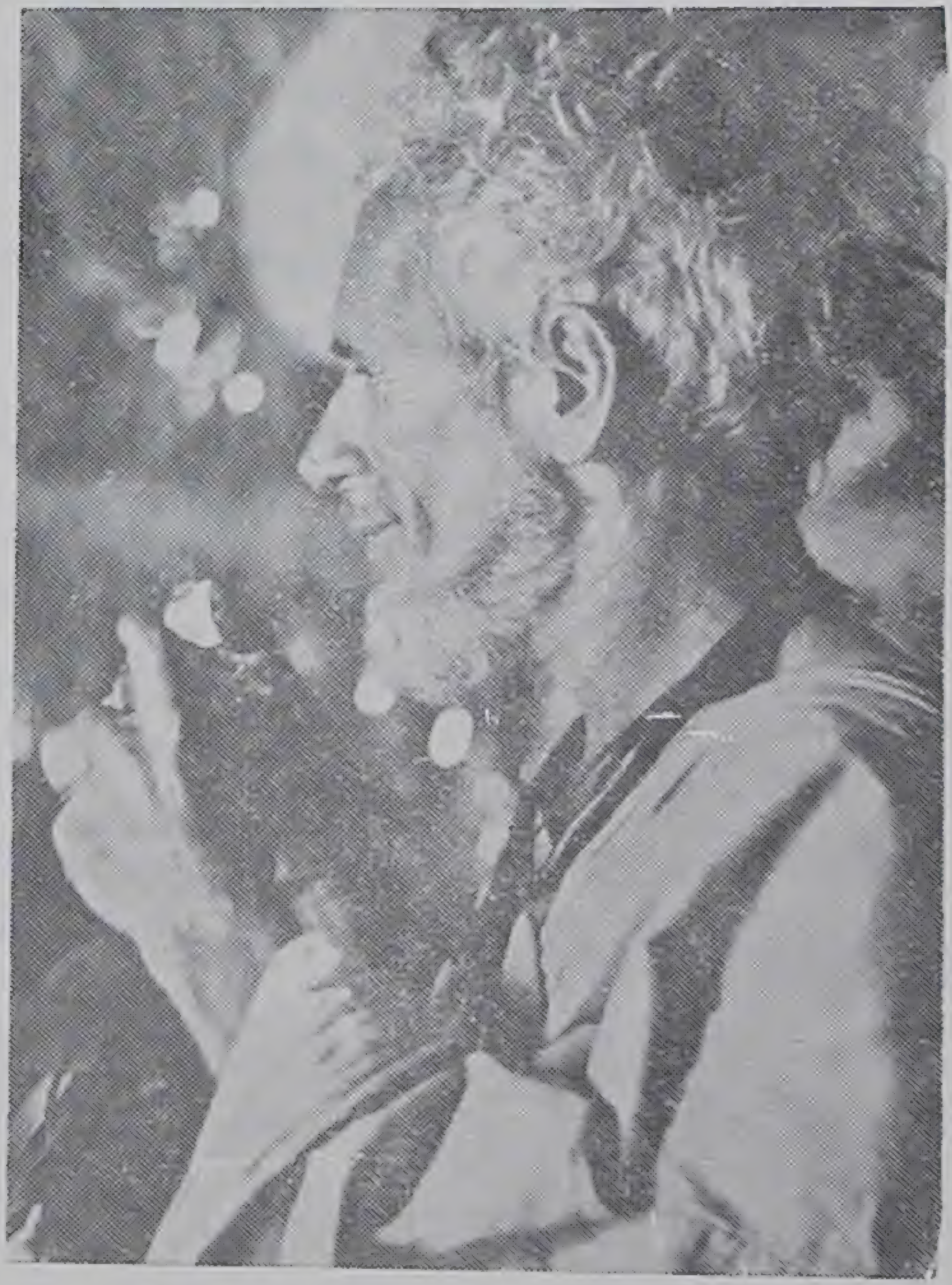

صاحب هذا الشَّعر المنفوش والتأملات النافذة هو احد علماء مدينة آطار . وهو في الــوقت ذاتــه القيم على بيت الضيافة التابع لمعهد دراسات الطبائــع والتقاليد الأفريقية .

●

مسوفة ولمطة. وهي اول مراقي الصحراء . ومنها إلى سجلماسة ١٣ مرحلة. ومنها الى نول ٧ مراحل . وهذه المدينة ليست بكبيرة ، لكنها متحضرة واهلها يلبسون مقندرات ثياب الصوف ، ويسمونها بلغتهم « القداور » .

وتسمى المدينة بالبربرية ازكي ، وبالجناوية « قوقدم » .

ويبرز اسم الامام الحضرمي في طليعة الاسماء الاسلامية المتصلة بتاريخ هذه المدينة . وقبره لا يزال موجوداً على مقربة منها . وقد جاء من المغرب بصحبة ابي بكر بن عمر ، وكان زاهداً متقشفاً . وروت الاساطير انه كان يعيش مع ذكور النعام ، وساهم في هجوم المرابطين على آزكي التي كانت في حوزة قبيلة بافور المعروفة وقتئذ باسم مدينة الكلاب .. لان سكانها اعتادوا ان يطلقوها لتصد عنهم كل من يهاجمهم! فلما خرجت هذه الكلاب الضارية لمقاومة غزوة المرابطين امرها الامام الحضرمي بالعودة الى اربابها ، فامتثلت ، وهكذا سقطت المدينة ! وقتل هذا الامام بسهم راشه رجل اعمى ، وظل قبره مجهولاً حتى تراءى في المنام لرجل يدعى الامام المجذوب ، ومن ذلك الوقت اتخذه الناس مزاراً يأتون اليه كل يوم اربعاء قبيل الغروب فيصلون وينحرون الذبائح ويوزعون لحومها على الفقراء والمشرفين على القبر ..

بلدة وادان

وبلدة وادان الواقعة على حدود الصحراء الرملية الى الشمال الغربي من شنقيط ، تحيط بها واحات من مزارع النخيل . وتشبه كل الشبه البلدان المجاورة لها مع اختلاف كبير في طريقة البناء ، لأنها اقيمت فوق صخرة عالية تهيمن على واديين مهمين . وتبدو من بعيد حالكة اللون . ونصفها مهجور . وقد فقدت قيمتها بسبب الاحتراب القبلي الذي حوّل عنها طرق القوافل ، بين المغرب والسودان، عبر الصحراء، من بدء القرن المنصرم . وآبارها في الوادي أسفل البلدة، وكذلك حقول الذرة والشعير . ولهذا السبب امتدت أسوار الدفاع حتى شملت عين قصبة للحصول على مياه الشرب من عين واحدة فيما لو ضرب عليها الحصار.

ومسجدها القديم أطلال عافية ، ويحتمل انه بني في القرن الثاني عشر الميلادي وهجر حوالي عام ١٤٥٠ ، عندما بني الجامع الجديد على طراز موريتاني أصيل . والمباني الاصلية في وادان اليوم مجموعة انقاض لمنازل وأسوار . والى الشمال مجموعة أنقاض اخرى تسمى القصر الحالي او « تفتل » قائمة فوق صخرة . وتعرف أحياناً باسم « حفرة وادان » . وتقول مصادر تاريخية ان وادان بنيت لصق قرية تفتل .

ومنازل وادان مبنية غالباً بالحجارة على طراز موريتاني . وفي طريق « العلماء الأربعون » يوجد بيت الولي عبدالله بن طوير الجنة وقبره . وطرقاتها ضيقة وأبوابها منخفضة ذات مزاليج خشبية مثل شنقيط . وميزتها الوحيدة ان الباحث يعثر على بقايا لغة أزير التي كانت منتشرة بين السكان قبل ذيوع العربية على الألسنة ! وتأسست البلدة حوالي سنة ١١٤٠ ميلادية ، وكانت هناك قبل ذلك ثلاث قرى : تغريبات (او ترغيبات) ، وتفتل ، وتن لب ، استعرت الحرب بينها طويلاً الى ان جاء ثلاثة حجاج من مكة الى ادرار وبدأوا ببناء وادان وأسكنوا فيها أهل القرى الثلاث الذين نجوا من الحرب ، وهم الذين كانوا ينطقون بلغة ، أو لهجة « أزير » وازدهرت البلدة كثيراً حتى قال أحد التجار المتجولين انها اشتملت على ١١١٥ منزلاً ، كل منها تسكنه عائلتان . وفي القرن السابع عشر نشب قتال بين جماعة « ايدو الحاج » وجماعة « كنت » فانتصرت الاخيرة وسيطرت على البلدة ، وجميع سكانها اليوم من المسلمين .

ولم يذكر الرحالة العرب وادان أيضاً ، وذكر اسمها لأول مرة في القرن الخامس عشر بوثائق بورتغالية وايطالية بأنها "مركز نقطة مواصلات مهمة عبر الصحراء ، وبالأخص لتجارة الذهب . وأرسل المغرب حملتين عسكريتين الاولى عام ١٥٤٣ – ١٥٤٤ والثانية عام ١٥٨٤ وغايتهما احتلال « وادان » و « تمبتكو » . وبعد ذلك ذكر اسمها عدة مرات ،

ثم ارسلت اليها حملات اخرى في أعوام ١٦٦٥ و ١٦٧٨ و ١٧٣٠ ، ثم خسرت مركزها الممتاز في أوائل القرن التاسع عشر .

مدن اسلامية اثرية

وفي موريتانيا عدة مدن اسلامية أثرية ، منهـــا « اودغست » في الجنوب الشرقي من البلاد ، وهي الآن اطلال . وكانت احدى قلاع بربر لمتونة ، وصارت عاصمة لهم في القرن التاسع ، وفقدت قيمتهـــا قبل توسع قبائل الجنوب . وغانة ، ويعرف موقعهـــا اليوم باسم كمب صالح » وتيشيت التي يرجع تاريخ انشائها الى زمن بنـــاء شنقيط . ولكن أهم هذه المدن وأشهرها كمركز تجاري وثقافي هي مدينة « ولاتة » الواقعة في الجنوب الشرقي من البلاد . وقد وصفها ابن بطوطة باسهاب ، اذ أقام فيها نحو خمسين يوماً واستضافه أهلهـــا وأكرموه ، فسجل في رحلته قوله : « هي بلدة شديدة الحر ، وفيها يسير نخيلات يزرعون في ظلالها البطيخ ، ويستخرجون ماءهم من جوف الأرض ، ولحم الضان كثير بها . وثياب أهلها مصنوعة من أقمشة مصرية ، وأكثر السكان من « مسوفة » ، ولنسائها الجمال الفائق وهن أعظـــم شأنـــاً من الرجال . وشأن هؤلاء القوم عجيب وأمرهم غريب . فأما رجالهم فلا غيرة لديهم ولا ينتسب احدهم الى ابيه بل الى خاله ، ولا يرث الرجل الا ابنـــاء اخته دون بنيه » .ودهش ابن بطوطة لهذه الحالة رغم ان القوم «مسلمون محافظون على الصلوات وتعلم الفقه وحفظ القرآن . ونساؤهم لا يحتجبن مع مواظبتهن على الصلوات » .

والنساء في تلك الانحاء مـــا زلن يتمتعن بحرية واسعة ، كما يحفظن القرآن الكريم ، وكثيراً من الشعر العربي ، ولكن « ولاته » تفقـــد مركزها يوماً بعد يوم ، مثل بقية بلدان الصحراء ، كما ينقص عـــدد

بقايا قلعة « أزوغي » التي بناها العرب في القرن الحادي عشر قرب واحة مغروسة بأشجار النخيل .

●

المثقفين فيها باستمرار .

وفي سنة ١٨٨٤ جاء الى الساقية الحمراء رجل اسمه ماء العينين [1] ، وهو ابن الشيخ محمد فاضل ، واستقر في تلك المنطقة المنعزلة ، وأصلح الارض للزراعـــة ، وغرس كثيراً من اشجار النخيل ، وقطع دابر اللصوص ، وشجع قوافل التجارة على المرور هناك الى السودان وشنقيط ، واختار بلدة « سمارة » مقراً له . والجدير بالذكر ان هذه البلدة اخذت تزدهر وصارت مركزاً تشع منه انوار الثقافة الاسلامية ، مضاهية بذلك مدينة بوتليميت ..

---

١ – راجع سيرته مع الشعراء القدماء رقم ٢٣ من هذا الكتاب .

قوافل الصحراء من عهد ابن بطوطة إلى اليوم

كان الرحالة المغربي ، ابن بطوطة ، خير من وصف طرق القوافل التجارية في صحارى افريقيا الغربية التي تمتد من المحيط الاطلسي الى السودان ونهر النيجر . ولم يحدث غير تبدل طفيف على تلك الطرق من القرون الوسطى الى اليوم . فابن بطوطة ، اذن ، يرسم لنا صورة دقيقة واضحة المعالم عنها ، ويبزّ من من تبعه من الرحالة والمكتشفين فهو يعزم ، بعد رحلته الطويلة في آسيا واسبانيا على اختراق الصحراء ، ويتأهب لذلك كي يرى المسلمين في ارجائها ويدرس احوالهم . فتجارة الملح والذهب والجلود كانت من اسباب نهضة غانة وظهور دولة المرابطين. فالقوافل كانت تخرج من شواطيء الاطلسي الى مناجم الملح في « كدية الجل » ، ثم تتجه نحو الجنوب الشرقي الى « وادان » و « ولاتة » و « تمبكتو » . وتمر ببلدة « تاودني » المشهورة بجلود حيواناتها ، الى سجلماسة . وهناك طريق اخرى تسير في اتجاه الجنوب الغربي من «اروان» الى « سانساندينغ » على نهر « النيجر » . يضاف الى ذلك عدة طرق اخرى تتنقل من بئر الى بئر ، ومن واحة الى واحة . وبعض هذه الآبار عرفها العرب من زمن يعود الى عهد الحكم الأموي .

والملح هو الثروة الكبرى في تلك الصحراء . ولنقرأ الآن ما كتبه

ابن بطوطة عنها عندما وصل الى « تعازي » و « تاودني » .

« وصلنا الى تغازي ، بعد خمسة وعشرين يوماً من مغادرتنا سجلماسة. ومن عجائبها ان بناء بيوتهــا ومسجدها من حجارة الملح ، وسقفها من جلــود الجمال ! ولا شجر بها ، انما هي رمل فيه معدن الملح يحفر عليه في الارض فيوجد منه الواح ضخام متراكبة كأنها قد نحتت ووضعت تحت الارض ، يحمل الجمل منها لوحين ولا يسكنها الا عبيد «مسوفة» الذين يحفرون الملح ، فيحملونه منها ، ويباع حمله بـ « ايوالاتن » — ولاتة — بثمانية مثاقيل الى عشرة ، وبمدينة « مالي » بعشرين مثقالاً الى ثلاثين ، وربما انتهى الى اربعين . وبالملح يتصارف اهل تلك البلاد ، يقطعونه قطعاً ويتبايعون به . وقرية « تغازي » على حقارتهــا يتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من التبر » !

وفي ايام ابن بطوطة كانت القوافل اذا وصلت الى منطقة « ازواد » الصحراوية ، الواقعة في شمال تمبكتو ، تختار « كشافاً من زنوج مسوفة ليسبقها قبل رحيلها الى « ولاتة » يحمل رسائل من المسافرين الى أقاربهم أو معارفهم يطلبون فيها استئجار مساكن لاقامتهم . وكان اولئك الاقارب أو المعارف يقطعون غالباً مسافة أربعة ايام في انتظار القافلة على الطريق ، يحملون الماء والزاد معهم .

قوافل شنقيط الى مكة

وهل هناك ثروة اخرى في تلك الارجاء غير الملح ؟ نعم . ففي الارض الصحراوية أماكن غنية بالمراعي لتربية الجمال والخراف تكــثر فيها الجماعات التي ترحل من مرعى الى آخر ، وتؤجر حيواناتها لنقل بضائع التجار . وهذه العادة ما تزال جارية الى اليوم ، وسبق ان كانت القافلة التي تغادر شنقيط الى مكة المكرمة تتألف من ٢٢ الف جمــل

حاملة الملح ، منها ٢٠ الفاً يملكها اناس من شنقيط ، و ١٢ الفاً يملكها اناس من « تيشيت » . وكان الملح الذي تحمله يباع في بلدة « زار » . وسافر « رينيه كاييه » الى شمال تمبكتو مع قافلة مؤلفة من ٦٠٠ رجل . وشاهد الرحالة المغربي « ماج » اثناء سفره الى « تكانت » عام ١٨٥٩ ، مخيمات يتألف كل منها من ١٠٠ خيمة مجتمعة . ورأى بعينيه كيف يستطيع المسافرون تقويض خيامهم ووضعها فوق ظهور الجمال وقطع مسافة خمسة فراسخ مع ماشيتهم في أقل من سبع ساعات . وكثيراً ما شوهدت في منطقة « براكنة » معسكرات نصبت على شكل حدوة الحصان، طولها أكثر من ميل ونصف الميل ، مؤلفة من خمس مجموعات متصلة من الخيام ، يبلغ مجموعها ٢٤٥٩ خيمة ، يقيم فيها ١٣ الف شخص . ومن أشهر موارد الملح في الصحراء ، « تيرس » و « اجيل » . ويبلغ طول المناجم هناك ٢٠ ميلاً ، وعرضها تسعة أميال ، ويستغلها أبناء قبيلة « كنت » .

انواع البضائع

واشتهر عرب الصحراء الغربية بمهارتهم في تنظيم القوافل وبراعتهم في التجارة ما بين الشمال والجنوب (موريتانيا والمغرب) . وكانوا يحملون في رحلاتهم العاج وريش النعام والذهب من السودان وما جاوره من المناطق . وقال رينيه كاييه ان الذهب الذي حملته القافلة التي سافر معها الى المغرب ، كان مرسلاً من جماعة في تمبكتو الى عملاء لهم في « تافللت » . وكان الذهب موضوعاً في قطع من القماش كتبت عليها اسماء اصحابه ومقدار وزنه الذي يقدرونه بموازين دقيقة .

والصمغ العربي من البضائع التي يتاجر بها . وهو يجمع ما بين يناير (كانون الثاني) ويونيو (حزيران) وينقل على ظهور الجمال

والحمير والبقر إلى وادي السنغـال – النهر – . وحتى اواخر الحرب العالمية الثانية اثناء وجودي هناك كان معظم شراته من التجار اللبنانيين، يشترونه بالمفرق ، ويبيعونه بالجملة للشركات الأوروبية (الفرنسية وغيرها) التي لها فروع في كل انحاء افريقيا .

وكان الملح ينقل من مناجم « اجيل » التي تبعد عن شنقيط مسافة تقطع في خمسة او ستة ايام . والعمال الذين يستغلونها يدفعون ثمناً زهيداً لمالكيها من قبيلـة « كنت » بالنسبة الى الفوائد التي يجنونها . ويأتي الـذين يشترون الملح من قبيلة « رقيبة » ومن بلدة « حوض » وبلدة « تيشيت » و « تكانت » وبعضهم يفضل نقلـه من شنقيط ، بينما يرحل غيرهم الى منطقة المناجم ذاتها لهذا الغرض . فاذا وصلوا به الى السودان ، دفعوا ديونهم من الثمن واشتروا بالبـاقي عبيداً او اشياء اخرى ، وباعوا اولئك العبيـد في « ترارزة » او احتفظوا ببعضهم لخدمتهم الخاصة . وتختلف مدة هذه الرحلة الى السودان ، فاحياناً تبلغ شهراً او اكثر بالسير العربي . ومن جملة البضـائع التي يشترونها من السودان ثياب تدعى « انصاف » وبطانيـات تدعى « اردية » وقطن يصنعون منه الكلل للوقاية من البعوض « الموستيكير » ، والدخن والفول السوداني .

واشتهرت « ترارزة » بأنها المركز الممتاز لجمع الصمغ . وفي موسمه يخرج ابناء القبـائل مع عبيدهم الى الاماكن التي يكثر فيها فينصبون خيامهم ويرسلون العبيد لالتقاطه .

واذا حل المساء أوقدوا النيران وقدروا ثمن ما جمعـه العبيد أو الاسرى ، فاذا وجدوه قليلاً أنذروا المقصر أو جلدوه بالسياط عقاباً له ! ولما بدأ الفرنسيون في احتلال الصحراء الغربية صار الصمغ يباع لهم مقابل الاقمشة والدخن والسكر والعسل .

طريق موريتانيا – السنغال

ومن طرق القوافل المهمة جداً في الصحراء الغربية، تلك التي توصل الى نهر الكنغال عبر مقاطعة « ادرار » على طول الحدود الواقعة بين المغرب وريو دي اورو ، وهـي طريق يمكن اجتياز بعض أجزائها بسيارات « لاند روفر » . أما الاجـزاء الاخرى فتتألف من كثبان رملية تنقلها الرياح ، فتجعل مرور السيارات منها أمراً صعباً جـداً . وهي تخترق منطقة مناجم فلز الحديد الكبرى الموجودة في موريتانيا . ولهذه الطريق قيمتها المرموقة منذ القرن الحادي عشر عندما زحف منها المرابطون الى جبل المغرب . بل هي أعرق تاريخاً من ذلك العهد ، ولا يجوز الانتقاص من الدور الذي استخدمت فيه للنقل عبر الصحراء حتى قبل التوسع البورتغالي في القرن الخامس عشر ، اذ اكتشف هناك ما لا يقل عن ٦٨ رسمـاً للعربات منقوشة في الصخور ، في خمسة وعشرين مكاناً مختلفاً،وتصل هذه الطريق ما بين « آطار » و« اجيل » و « بئرام غرين » و « تندوف » الى جنوب بلاد المغرب . وكانت هناك طريق تتفرع منها . ولكن لدينا أسباباً كثيرة تحملنا عـلى الاعتقاد بأن تلك الطريق الممعنة في القدم التي تخترق مناطق هي في عداد أقل الأماكن في العالم كله مطراً ، هي طريق « لمتونة » التي سلكها الغزاة ما بـين المغرب و « ادرار » الموريتانية . فالى أي عهد يرجع استخدامها ؟

عهد الخيول والجمال في افريقيا

من المستبعد أن يكون ذلك العهد قبل القرن السادس عشر قبل الميلاد، لأن الهكسوس أدخلوا الخيول الى افريقيا حوالي سنة ١٥٨٠ قبل الميلاد، ولا بد من مرور بعض الوقت عـلى شيوع استعمالها ووصولها الى

تلك المناطق الصحراوية النائية . وفي الاغلب ان العربات التي تجرهـا الخيول استمر استخدامها زمناً طويلاً ، في حين استخدمت الجمال للنقل في شمال افريقية قبل ان تصل الى الصحراء . بمعنى ان العربات ظلت تستخدم حتى القرن الثـالث او الرابع الميلادي ، قبل ان تجتاز الجمال الصحراء اثناء زحف القوات العربيـة الى شمال افريقيا بقيادة عقبة بن نافع سنة ٦٦٦ ميلادية ، واثناء الحملة على السودان الغربي عام ٧٣٤ الميلادي . وهذا يدل على انه كان للبربر حضارة بدائية نشروها بـين الزنوج الذين اتصلوا بهم . ويقول احد المؤرخين، ان البربر عرفوا الطريق حتى نهر النيجر واحتلوا معظم المناطق التي يسكنها عرب الصحراء الآن باستثناء « تكانت » و « الحوض » . واغلب الظن ان مظاهر الثقافـة التي بقيت آثارها حتى اليوم تعود الى مهاجرين وصلوا الى تلك الاصقاع من مصر والشرق الادنى ، ينتمون الى قبائل عربية . والفرق الرئيسي بين هذه الطريق ، والطريق التي سلكتها العربات، ان الاولى تخترق أرضاً قاحلة لا ماء فيهـا ولا عشب ، بينما اتجهت الثانية نحو الوديان العميقة والآبار .

الجمل باق !.

وسترى الصحراء ، في عصرنا الحالي ، أسطولاً من سيارات الشحن الكبيرة أو قطارات جديدة تنقل فلز الحديد الى بورت ايتين . فالظروف والاحوال تتغير . لكن شدة الحاجة الى الملح في طقس قاس وحرارة لاهبة ستبقي طبعاً على بعض الحياة هناك . وبلدة « روسو »[١] الواقعة على نهر السنغال ، هي مركز نقل الملح الى جمهورية السنغال والى مالي،

١ – هي احدى البلاد الموريتانية التي جئتها كثيراً وعرفتها جيداً لأنها كانت واقعة في طريق اسفاري إلى بودور حيث كان مقري .

وهي منفذ انتاج مناجم « ترارزة » . ويلمع ملح تمبكتو بطريق التبحير . ويباع بعد اخراجه من المناجم فوراً للتجار العرب ، فينقلونه فوق ظهور الجمال الى النهر ويبيعونه الى تجار يتولون توزيعه على مراكز معينة بقوارب نهرية . ويبلغ وزن ما ينقل بهذه القوارب سنوياً ما بين ١٠٠٠ و١٥٠٠ طن على شكل الواح . وحول هذا النهر مراكز تجارية مزدهرة للملح والصمغ معاً .

وحتى النصف الاول من القرن الماضي ، ظلت القوافل تتبع طريق « تغازي — تمبكتو » . وهي الطريق التي سلكها ابن بطوطة . وتحرس طريق تغازي قبيلة « البرابشة » العربية التي اثرت من توزيع الذهب والملح في داخل البلاد . وظلت البلاد الواقعة في منتصف نهر النيجر حتى القرن السادس عشر تعتمد كلياً على الملح الذي يصل اليها من تغازي . وفي سنة ١٥٨٥ أقصى العرب قبيلة سونكي عن تلك البلدة ، فأخذت تعمل في استغلال منـاجم « تاودني » التي أصبحت فيما بعد مورد الملح الرئيسي لمنتصف النيجر .

ستدخل المدينة الحديثة الصحراء الغربية في المستقبل القريب حتماً . فتشق الطرق للسيارات ، وتمد الخطوط الحديديـة ، وتستغل المناجم بالآلات . ولكن يستحيل ان يختفي الجمل من مسرح الحياة مهما تطورت وسائل المواصلات !

بوتليميت مركز الثقافة الإسلامية في إفريقيا الغربية

مثلما كان لبعض المدن الاسلامية أدوار مهمة في تاريخ البلاد التي تنتمي اليها هذه المدن ، في الأعصر الماضية والحديثة ، كذلك يمكننا القول عن بعض المدن الموريتانية . وكما ان في كل بلد اسلامي وغربي مدينة أو أكثر ، تحمل اسم نهضته العلمية والروحية منذ أجيال حتى اليوم ، كذلك الحال في موريتانيا ، البلد النائي الذي يهمنا في المشرق الاطلاع على جميع قيَمه واقداره ومجالاته في الحياة الانسانية النامية المتطورة .

كلنا يقدر عظمة الادوار التي لعبتها القاهرة والاسكندرية ودمشق بالنسبة للجمهورية العربية المتحدة (مصر وسوريا قبل الانفصال) وبغداد والنجف بالنسبة للعراق ، وفاس والرباط وتطوان ومراكش وتونس والقيروان بالنسبة لبلاد المغرب العربي الكبير ، أجل ، كلنا يعرف ويقدر عظمة الادوار البنّاءة المهمة التي لعبتها هذه المدن في تاريخ بلادها وبلاد العالم الاسلامي كله . فلا غرابة أن نجد الشيء نفسه في موريتانيا التي بدأت تأخذ مكانها بين البلاد الراقية ، وتنشر رسالتها العلمية والانسانية ، في العالم .

لقد كانت مدينة « شنقيط » في الماضي مركز الاشعاع الفكري والروحي في موريتانيا كما قدمنا ، ولقد عرف المشرق الشيء الكثير عن

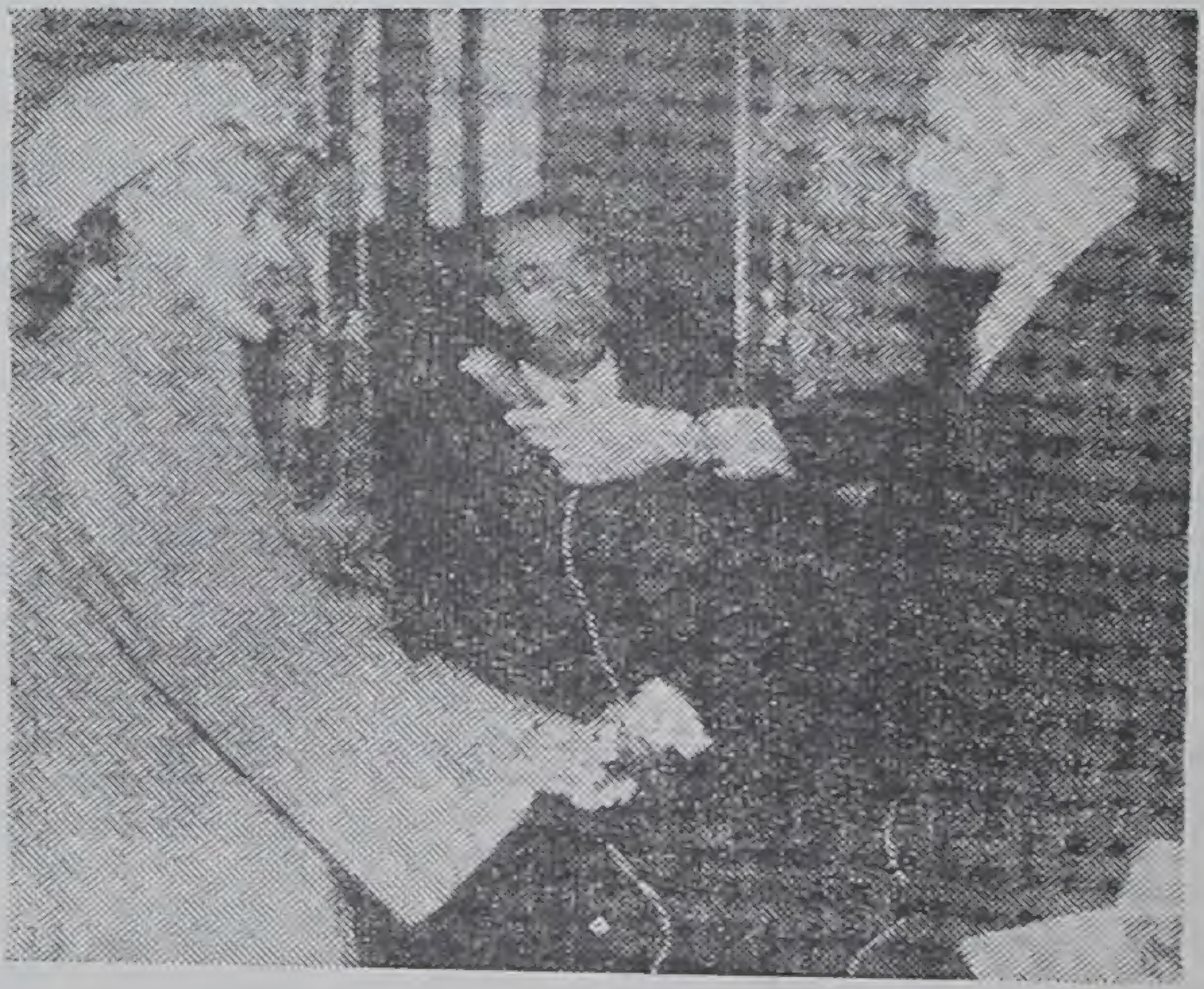

منذ الفتح الإسلامي حتى اليوم ، لم ينقطع وجود العلماء الأعلام الشناقطة (الموريتانيين) في المشرق ، كمهاجرين او مواطنين ... وفي هـذه الصورة شاهد جديد على ذلك :
الرئيس الحبيب بورقيبة يستقبل (في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٦١) العلامة سماحـة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي « الأردني الجنسية » وبينهما السيد الطيب السحباني أمين الخارجية التونسية. وقد كان العلامة الشنقيطي وزيراً سابقاً في الأردن ، وهو الآن عضو مجلس الأعيان .

•

هذه المدينة بمفضل العلماء والأدباء الشناقطة الذين أموا بلاد العالم الاسلامي في أواخر القرن الماضي وتركوا من الوشائج الروحية والآثار العاميـة

والادبية ما يزال حياً في الاذهان حتى اليوم .

غير ان مدينة موريتانية جديدة برزت في العصر الحديث كمركز رئيسي للثقافة الاسلامية والعربية هي بوتليميت ، مدينة صفوة كبيرة من علماء وادباء تلك البلاد . « فالمعهد الاسلامي » اليوم في تلك المدينة هو بالنسبة لافريقيا السوداء بمثابة جامع الزيتونة بالنسبة للمغرب ، او جامعة الازهر بالنسبة للعالم الاسلامي من حيث نوع (الوظيفة) التي يؤديها والرسالة التي ينشرها مع حفظ الفارق من حيث الرصيد المادي والتاريخي بينه وبين الزيتونة والأزهر .

فالمعهد الاسلامي في بوتليميت على حداثة شأنه ووسائله المادية والفنية المحدودة يضم عدداً غير قايل من طلاب الاقطار الافريقية : مالي ، السنغال ، نيجيريا وغيرها . وبالتأكيد ان امكانية انطلاق هذا المعهد ستزداد في السنوات القليلة القادمة ازدياداً كبيراً بعد ان نالت تلك الاقطار استقلالها السياسي ، وزال من حياتها – تقريباً – ما كان يحد ، حتى لا نقول يمنع ، من طموحها وتوقها الى التزود بالثقافة العربية .. ونرجو ان لا يكون بعيداً ذلك اليوم الذي تصبح فيه بوتليميت منارة العالم الافريقي والمعهد « جامعة » الشعوب السوداء الظامئة الى مناهل الثقافة الاسلامية العربية ..

بعد هذه الصورة النثرية الاجمالية الموجزة عن بوتليميت التي انتقلت اليها حركة الرسالة العلمية ، نقدم « صورة شعرية » عنها لاحد علمائها وأدبائها المعروفين ، الا وهوالمختار الحامد الذي قال – من قصيدة طويلة – يصفها ويشيد بمنزلتها التي وصلت اليها :

يا دار بوتليميت المرتجى افتخري وابْأَيْ ، ففيك مجال المدح يتسع
فانت مهوى ، كلا وجهيك مرتبَع ومفزع ، اذ يعم الروع والفزع
الدين في وجهك الشرقي منتجع والشمل في وجهك الغربي مجتمع

للسيف والضيف، والجار الجنيب بها أهلٌ ، وللظـامئين الري والشبع
فيك المساجد والعُبّاد تعمرهـا والكتب، ما نسخ الحُذّاق، او طبعوا
فيك الولاة الرضى، فالعدل منتصبٌ والعيش في رونقٍ، والخوف منقمع
والعـلم مرتفع ، والجهل منسفل والخـير متصل ، والشر منقطع

هـذه الصورة التي صورها المختار الحدمد لمدينة بوتليميت واجاد التصوير، تساوي « وزارة دعاية » بكاملها .. فقد صورها بخيال حضاري لا اثر فيه للبداوة : انها مدينة حضارية آخذة من محاسن الشرق والغرب احسن ما عندهما .. وانها مركز اشعاع فكري وديني لكل قاصد وراغب، وانها بالاضافة الى ذلك كله رائعة في بحبوحة من الحكم والعيش الرخي.. وليس – شهد الله – اجلب لسرورنا واشرح لصدورنا من ان يكون الامر في موريتانيا كما وصفه المختار الحامد .. ولا يكثر على الله وعلى همة الجيل الجديد الناهض شيء !

لمحة عن المعهد الاسلامي * :

المعهد الاسلامي في بوتليميت ، أسسته جمعية ترقي الثقافة الاسلامية التي يرئسها الشيخ عبدالله بن الشيخ سيـدي رئيس عامة اولاد ابيير . ويحرص المعهد على تدريس علوم الشريعة التي بها « قوام الدين واللغة والثقافة » كما يهتم ايضاً بأن يمنح طلبته جميع الفرص التي يحتاج اليهـا العصريون بالنسبة الى تطور الفكر البشري ، وهذه الصفة برهـان دامغ على ان القائمين على المعهد غير رجعيين وغير متزمتين كما هو المفروض في بيئة كموريتانيا ما تزال تعيش بقديمها الى حد بعيد ، كما انها تنفي

* المعلومات الواردة في هذه اللمحة مقتبسة من بيان مطبوع صدر عن ادارة المعهد (كراس) بالعربية والفرنسية سنة ١٩٥٩ .

عن المعهد صفة الجمود التي طالما تعرضت لها المعاهد الدينيـــة من قبل ومن بعد !

ويشدد المعهد على الناحية التربوية في طلبتــه تشديداً لا هوادة فيه . فالتهذيب الديني والاخــلاقي امر من أوائل الأمور المفروضة في الطالب اياً كانت بلاده وجنسيته .

وللمعهد برامج للاشتغال بالاعمال اليدوية والرياضة البدنية لتأمين الوسائل الكفيلة بتنمية الطــاقة الصحية ، فلا تكون الدراسة متوقفة على تشغيل الذهن وترك الجسم فريسة للكسل وقلة الحركة كما كانت الحال في العهود القديمة ..

وللمعهد ايضــاً نشاط بارز خلال ازمنة التدريس بتنظيم المحاضرات الاسبوعيـة التي يستدعى لهــا محاضرون أكفاء من انحاء القطر الموريتاني وخارجه .

وكذلك تنظر ادارة المعهد بعين التقدير والاعتبار الى ظروف الطلاب المتفوقين من الفقراء ، فتمنحهم العون المادي لمتابعة تفوقهم في الحقل المختص .

نظام المعهد الداخلي

* المعهد مفتوح لجميع المسلمين اينما كانت أنسابهم وطرقهم .
* يمنع الخوض والمشاتمة في الطرق الدينية في محال المعهد .
* يمنع على الاساتذة الميل على طريقة عن اخرى . وعليهم ان يلقوا بصفة عامة دروسهم بسماحة ودون طموح .
* تمنع المناقشة في امور السياسة في المعهد .

ازمنة التدريس

* مدة التدريس العادية عشر سنين .
* السنتان الأوليان تسميان بالابتدائيتين وقد قررتا للتلاميذ الذين لا يمكنهم ان يتابعوا دروس السنين الثانوية وينتهي التدريس الابتدائي بالحصول على الاجازة الاولى .
* والسنوات الخمس التالية تسمى بالسنوات الثانوية وينتهي التدريس الثانوي بالحصول على الاجازة الثانية .
* والسنوات الثلاث الاخيرة تسمى بسنوات التدريس العالي بالحصول على الاجازة العليا .

شؤون المعهد المالية

* معاش التلاميذ ومسكنهم وملبسهم على نفقة المعهد .
* تعين لجنة النظام في كل عام قيمة نفقة التلميذ في السنة وطعامه في كل يوم .
* تقرر حسابات مالية المعهد وتنشر في كل سنة .
* يأمر المدير باخراج المصروفات ويمكنه ان يوكل نظير المالية على هذا الشأن .
* المصروفات لا تتعدى حاجات المعهد .
* تتألف مداخيل المعهد من العطايا والاعانات التي يجدها من قبل الجمعية والحكومة وغيرهما .

نوع المدرسين

* يعمل في المعهد مدرسون للنحو والادب واللغة ، ومدرسون للفقه

والتوحيد ، ومدرسون للحديث والقرآن ، ومدرسون للمتمات (المنطق والاصول) ، ومدرسون للتاريخ والجغرافية ، ومدرسون للعلوم العصرية.

* كيفية تسميتهم : يشترط على كل من أراد أن يكون مدرساً في المعهد أن يكون مشتهراً بالعلم والثقافة وان يكون متخصصاً في الفن الذي يطلب ان يسمى مدرساً له ، ومن الممكن ان تجري مباريات لهذه المناصب .

* يعمل المعهد مع مقرئين في السنوات الاول من التدريس الثانوي .
* كيفية تسميتهم : ينظم المدير مباريات لتعيين المقرئين .
* يعمل المعهد مع معلمين في السنوات الابتدائية .
* يعين المدير المعلمين بلا شرط .

برامج التدريس

في السنة الاولى :

القرآن : سور من حزب « سبّح »

الحديث : عشرة أحاديث تختار لقصرها وسهولتها . وتدمج دراسة القراءة والكتابة في تدريس القرآن والحديث .

النحو : الاسم والفعل والحرف ، اسناد الافعال الثلاثية الى ضمائر الرفع .

العبادات : أركان الدين الخمسة، تعليم كيفية الوضوء والتيمم .

في السنة الثانية :

القرآن : اتمام حزب « سبح » .

الحديث : خمسة عشر حديثاً تختار لقصرها وسهولتها .

اللغة : تعليم تراكيب الجمل .

العبادات : كيفية الصلاة .

السيرة : احاديث تقص على التلاميذ .

في السنة الثالثة :

القرآن : ثلاثة احزاب .

الحديث : الاربعون النووية .

التوحيد : اقسام الدين .

النحو : الاجرومية .

العبادات : الاخضري .

اللغة : رسالات من جواهر الادب .

السيرة : قرة الابصار للمطي .

السنة الرابعة :

القرآن : ثلاثة احزاب .

الحديث : متن الشمائل .

التوحيد : ام البراهين والباب الاول من رسالة ابن ابي زيد .

اللغة : رسالة ابن زيدون .

النحو : ربع الالفية الاول .

السيرة : غزوات البدوي .

التاريخ : ظهور الاسلام ، لمحة في تاريخ فرنسا [1] وافريقيا .

الجغرافية : الاصطلاحات الجغرافية ولمحة في جغرافية فرنسا وافريقيا.

الفقه : طهارة خليل .

في السنة الخامسة :

القرآن : سبعة أحزاب .

---

[1] تدريس تاريخ فرنسا وجغرافيتها في معهد ديني افريقي كالمعهد الاسلامي ، هو عمل قهري لا طوعي فيما نعتقد .. ولا نعلم إذا كانت الحال في موريتانيا أصبحت اليوم تسمح بالغاء هذه المادة من البرامج ...

الحديث : الثلث الاول من بلوغ المرام .
الفقه : صلوات خليل .
اللغة : احد الشعراء الستة .
السيرة : نظم عدنان للبدوي .
التوحيد : ثلث اضاءة المقرى .
التاريخ : الامويون والعباسيون .
الجغرافية : العالم على سبيل الاجمال .
العلوم العصرية : الانسان .
النحو : الربع الثاني من ألفية ابن مالك .
في السنة السادسة :
القرآن : سبعة احزاب .
الحديث : الثلث الثاني من بلوغ المرام .
اللغة : اثنان من الشعراء الستة .
الفقه : زكاة خليل وحجه .
النحو : الربع الثالث من الالفية .
السيرة : نظم البدوي في قحطان .
الجغرافية : افريقية والدول العربية .
التوحيد : الثلث الثاني من اضاءة المقري .
التاريخ : تاريخ المغرب والأندلس .
الحساب : الجمع والطرح والتجنيح والقسم .
السنة السابعة :
القرآن : ثمانية احزاب .
الحديث : الثلث الثالث من بلوغ المرام .
الفقه : انكحة خليل .
النحو : الربع الاخير من الفية ابن مالك .

اللغة : ثلاثة من الشعراء الستة .

التاريخ : الحضارات . الصين . مصر . اليونان . الرومان . العرب . الاوروبيون .

الجغرافية : بلاد العرب والاتحاد الفرنسي .

الاصول : ورقات امام الحرمين .

الصرف : لامية الافعال لابن مالك .

الحساب : الكسور والمشكلات الحسابية .

في السنة الثامنة (عالي) :

يبتدىء الطلبة في هذا التدريس في التخصص في واحد من هذه الاقسام: قسم القرآن ، قسم الحديث ، قسم الفقه ، وقسم اللغة والنحو .

يدرس حتماً في كل قسم :

الفقه : بيع خليل .

القرآن : عشرة أحزاب .

الحديث : نصف موطأ مالك .

اصول الفقه : نصف الكوكب الساطع .

المنطق : السلم .

التاريخ : تاريخ العصر الحاضر .

الجغرافية : العالم الاقتصادي والبشري والدول الكبرى .

يدرس المتخصصون :

الفقه : ابن عاصم ، مراجعة خليل ، الديباج ، المذهب .

القرآن : مطالعة ، الجلالين ، الاتقان ، تاريخ المفسرين .

الحديث : مطالعة البخاري ، مسلم ، تاريخ المحدثين .

النحو واللغة : مقامات الحريري ، مراجعة ابن مالك ، تاريخ النحاة واللغويين .

السنة التاسعة :

يدرس حتماً في كل قسم :

القرآن : عشرة أحزاب .

الفقه : بقية خليل ما عدا التركة .

الحديث : النصف الآخر من الموطأ .

اصول الفقه : بقية الكوكب الساطع ، المصلحون العصريون .

المنطق : الطيبية .

التاريخ : تاريخ العصر الحاضر .

الجغرافية : الدول الكبرى .

يدرس المتخصصون :

الفقه : مطالعة المدونة ، مطالعة ، الحطاب ، الديباج ، المذهب .

القرآن : مطالعة الاتقان ، مطالعة تفسير الطبري ، تاريخ المفسرين.

الحديث : مطالعة سنن ابي داوود والترمذي ، الفية السيوطي في المصطلح ، تاريخ المفسرين .

النحو واللغة : ديوان غيلان (ذي الرمة) ، تاريخ اللغويين والنحاة.

السنة العاشرة يدرس حتماً في كل قسم :

القرآن : اتمامه .

الفقه : تركة خليل .

الحديث : جامع الاصول في احاديث الرسول .

التاريخ : الحركات السياسية والاقتصادية والفكرية في العصر الحاضر.

يدرس المتخصصون :

الفقه : تاريخ الفقهاء ، الرسالــة ، المنتقى للباجي ، بحث خاص بمسألة فقهية .

القرآن : الاتقان ، بحث يتعلق بمسألة في القرآن .

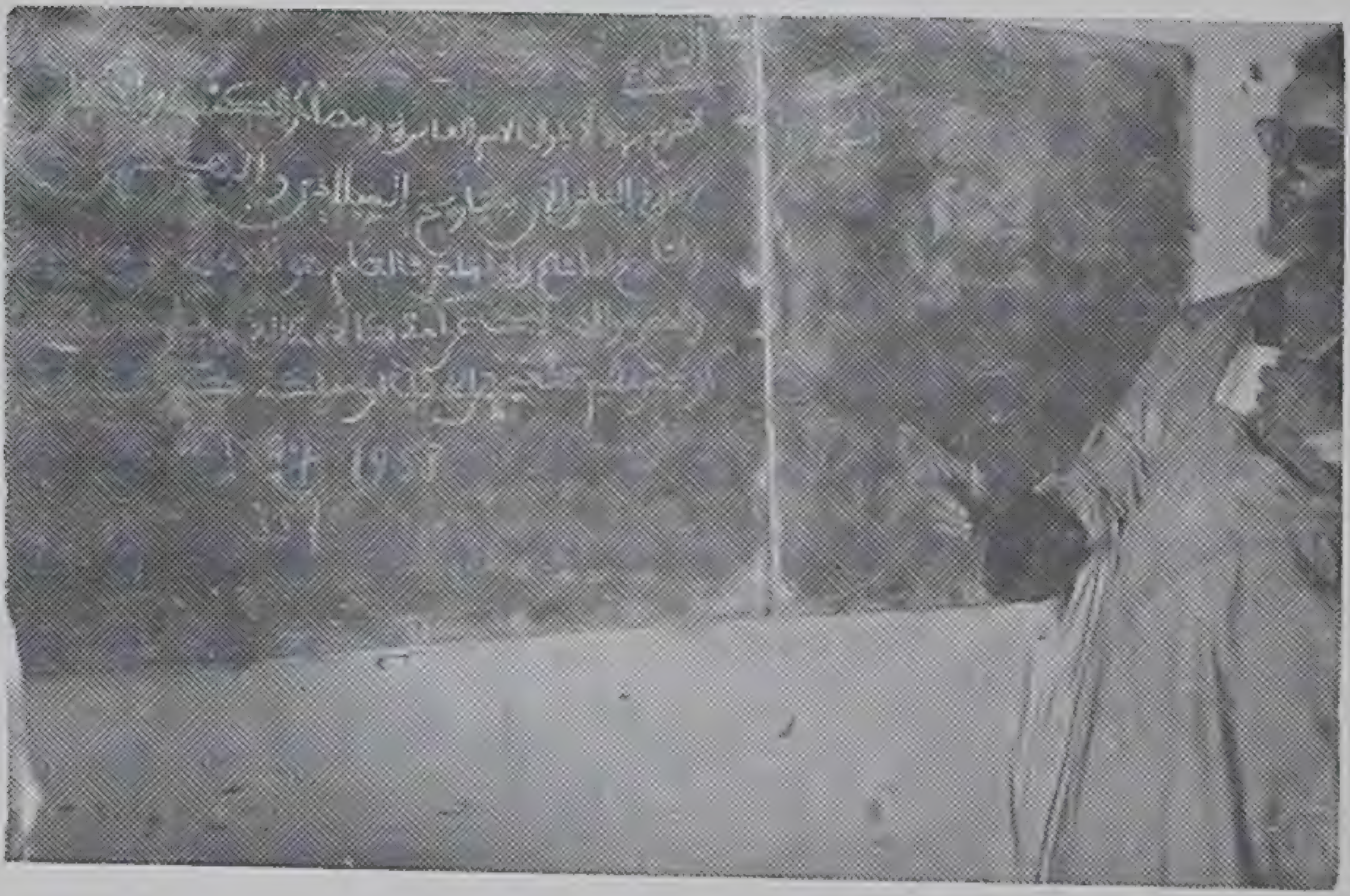

المختار الحامد (واقفاً) لالقاء درس التاريخ على
اللوح الاسود لتلاميذه في معهد بوتليميت .

●

الحديث : تاريخ المحدثين ، الفية السيوطي ، بحث خـاص يتعلق بمسألة في الحديث .

النحو واللغة : تاريــخ اللغويين والنحاة ، المعلقات ، بحث خاص يتعلق بمسألة في النحو واللغة .

اسئلة الامتحانات وساعاتها :

مادة السؤال :
النبي المصطفى : مدتها ساعة تضرب قيمتها في واحد .
سؤال في الغزوات او في انساب العرب .
اللغة مدتها ساعة : تضرب قيمتها في واحد .
شرح ابيات من شعر احد الشعراء الستة .
الانشاء مدته ثلاث ساعات : تضرب قيمته في ثلاث .

تنبيـــه :

يتعلق موضوع الانشاء بمسألة في الادب العربي. قيمة كل سؤال من صفر الى عشرين : ويؤذن في التقدم للاسئلة الشفهية لكل مترشح حصل على مائة وعشر نقاط فأكثر ، سوى من حصل على صفر في واحد من الاسئلة .

الأسئلة الشفهية :

القراءة : تضرب قيمتها في ثلاث .

يكون موضوع القراءة في الحديث : وتتلوها أسئلة في اللغة والنحو والمصطلح .

سؤال في تاريخ الادب وفي البيان : تضرب قيمته في اثنين .

سؤال في الفقه : تضرب قيمته في ثلاث .

سؤال في التاريخ : تضرب قيمته في اثنين .

خامساً : سؤال في العلوم العصرية تضرب قيمته في اثنين .

تنبيه

سؤال في الجغرافية .

قيمة كل سؤال من صفر الى عشرين ، وينجح كل مترشح حصل على عدد يبلغ أو يجاوز نصف المطلوب من النقط .

* * *

يتضح من بنود هذا البيان الاداري الصادر عن المعهد صفتان : صفة شرقية عربية ، وصفة افريقية اسلاميـــة . والموريتانيون حريصون كل

الحرص على استبقاء هاتين الصفتين في حياتهم الثقافية والاقليمية . كما يبدو لنا كذلك اصالة الاهداف « العربية » التي لا تنفصم عن الاهداف الدينية عند القوم .. اما الطابع « الفرنسي » الموجود في حياتهم فهو طابع طارىء اقتضته ظروف الاستعمار الفرنسي ، وذلك مصير حتمي لكل بلاد تمر بظروف استعمارية . والشيء الرائع في حياة الموريتانيين ان التأثير الفرنسي – الثقافي – ظل تأثيراً محدوداً لم يستطع رغم كل المحاولات ان يضعف فيهم الروح العربية الاسلامية .. فبرهنوا بذلك عن « مناعة » قوية يستحقون من اجلها أعظم الاعجاب والاحترام !

عُروبة البربر وطابعها القوميّ والأدبيّ في موريتانيا

بالنظر لاختلاط العرق الموريتاني العربي بالعرق البربري المغربي وعلاقة ذلك بتاريخ الادب واللغة في موريتانيا ، رأينا ان نقدم هذا الموجز التاريخي :

لكلمة « بربر » ثلاثة معان :

١ — معنى تاريخي ، وهو اسم علم لجيل من الناس سكنوا صحراء المغرب — في البرية — واشتق اسمهم منها . وكانت لهم حياة جاهلية خالصة ، ولما وصل الفتح الاسلامي الى أفريقيا أسلموا واستعربوا كما سيرد . .

٢ — ومعنى قاموسي وهو (البربرة) أي صوت صاخب ، وكلام سوقي وغضب .. ومن ذلك جاء القول المشهور (بربر) اذا تكلم كلاماً كثيراً غير مفهوم..ويقال (بربر الأسد) اذا زأر بأصوات غير مفهومة .

٣ — ومعنى اخلاقي وحشي ، وهو القسوة والشدة وغلبة الاخلاق الوحشية على النزعة الانسانية ، ولذلك ، وصف كل عمل همجي وحشي بأنه « بربري » .

هذا من ناحية المعاني ، أما من الناحية التاريخية ، فقد كان البربر

اولى سيرة طويلة اتصلت اتصالاً وثيقاً بالاسلام والعروبة الى حد كبير، نكتفي بذكر نبذة موجزة عنهم ، تعطي المستقصي طرفاً من اخبارهم، وتكون في ذهنه صورة واضحة مصغرة عنهم :

بسقوط الخلافة الأندلسية وقيام دولة بني حمود ٢٩٩ – ٤٢٢ هـ : ١٠٠٩ – ١٠٣١ م قويت شوكة البربر الذين كانوا من أشد أولياء الدولة العامرية وكانوا من حيث العدد والعصبية قوة يعتد بها . وكان البربر عماد الجيش العامري ، وكان عددهم قد تضاعف في أواخر ايام المنصور وبنيه ، وتوافد كثير من زعمائهم الى شبه الجزيرة .

وعندما تولى محمد بن هشام الملقب بالمهدي الخلافة في ١٧ جمادى الآخرة سنة ٢٩٩ هـ فبراير سنة ١٠٠٩ م بدأ يخص البربر بالبغض والزراية ، لأنهم كانوا عضد المنصور وسند نظامه الحديدي ، وكان أهل قرطبة ينساقون مع المهدي في هذه العاطفة ضد البربر وينظرون اليهم شزراً . ولم يفرق المهدي بين أصاغرهم وزعمائهم في الاهانة والاضطهاد ، حتى ان كبيرهم زعيم قبيلة صنهاجة ، زاوي بن زيري ابن مناد ، عند مقدمه الى القصر مع جماعة من رجاله رُد عن الباب بفظاظة ، واهين . فانصرف هو وجماعته وقلوبهم تضطرم سخطاً .

ولما قام هشام بن سليمان بن الناصر بالسعي لخلع المهدي ، انضم اليه جماعة من الناقمين على محمد بن هشام وفي طليعتهم البربر .. وما لبثوا ان أوقعوا به وبجيشه هزيمة منكرة في وقعة قرب جبل قنتج او قنتش ، وذلك في يوم ١١ ربيع الأول سنة ٤٠٠ هـ .

ولما رأى المهدي هزيمة جنده ، اسقط في يده وحاول ان ينقذ نفسه بحيلة سخيفة ، يدفع بها دعوى سليمان . فأظهر الخليفة هشاماً المؤيد (وكان قد اخفاه يوم اغار اليه وخلعه وزعم انه مات) واجلسه في مكان بارز في شرفة القصر ، ثم بعث الى البربر يخبرهم ان الخليفة هشام ما زال على قيد الحياة ، وانه هو الامام الشرعي ، وليس المهدي

- أي هو - سوى نائبه وصاحبه .. ولكن البربر سخروا من هـذه الحيلة وأبدوا تمسكهم بولاية سليمان .. فلم يرَ المهدي امامه سوى الفرار والنجاة بحياته فغادر القصر سراً ، واخترق قرطبة متنكراً ولحق بطليطلة.

ودخل زاوي بن زيري زعيم البربر القصر ، ودخل سليمان في اثره يوم الأثنين في ١٥ ربيع الأول سنة ٤٠٠ وبايعه الناس بالخلافة وتلقب بـ « المستعين بالله » ، واستقبله الشعب القرطبي الطيب القلب بحماسة شأنه مع كل متغلب وظافر ..

***

ولما قضي على دولة الادارسة بالمغرب الأقصى ايام حكم المستنصر ، ثم بعد ذلك ايام المنصور بن ابي عامر ، واصبح المغرب ولاية اندلسية تخضع لحكومة قرطبة ، تفرق كثير من زعمائه في مختلف الجهات ولاذوا بالاختفاء ، بعيـداً عن بطش السلطة الجديدة وأخذوا يرقبون الفرص لاستعادة سلطانهم . وهـاجر عدد كبير منهم الى الأندلس من البربر والمغاربة ، وانضووا تحت لواء الدولة العامرية في اواخر عهدها .

ولما انهارت الدولة العامرية ، وعم الاضطراب والفوضى في قرطبة، ظهر البربر طرفاً بارزاً في اطراف المعركة .

وكان بين الزعماء المغاربة ، الذين قادوا جموع البربر في معركة قرطبة المظفرة رجلان من عقب الادارسة هما علي والقاسم ابنا حمود بن ميمون بن حمود . ونحن نعرف ان الادارسة يرجعون نسبتهم الى الحسن ابن على بن ابى طالب . واذاً ، فقدكان علي والقاسم وفقاً لهذا القول علويين من سلالة آل البيت .

بيد انه بالرغم من هذه النسبة العلوية ، وهذه الارومة العربية العريقة التي ينتحلها بنو حمود ، فانهم اذا تركنا مسألة النسبة والسلالة جانباً ، كانوا ينتمون في الواقع من حيث العصبية والمصير الى البربر ، وكان

الطابع البربري غالباً عليهم ، حتى انهم لم يكونوا يتكلمون العربية ، وانما كانوا يتكلمون اللهجة البربرية .

وقد رأينا ان سليمان المستعين ، حينما استرد الخلافة عقب انتصار البربر على قرطبة خص علياً والقاسم بولاية الثغور المغربية ، فندب علياً لحكم « سبتة » . وندب القاسم لحكم الجزيرة الخضراء وطنجة ، وذلك في اوائل سنة ٤٠٤ هـ (١٠١٣ م) .

انهارت اسبانيا المسلمة في النصف الاول من القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) عقب انهيار دعائم الخلافة الأموية والدولة العامرية ، إلى معترك مروع من التمزيق والفوضى ، واستحالت الأندلس بعد ان كانت كتلة موحدة تمتد من ضفاف دويره شمالاً ، الى مضيق جبل طارق جنوباً ، ومن شاطيء البحر الأبيض المتوسط عند طركونة شرقاً ، حتى شاطيء المحيط الأطلنطي غرباً ، الى اشلاء ممزقة ورقاع متناثرة ، وولايات ومدن متباعدة متخاصمة يسيطر على كل منها حاكم سابق استطاع ان يحافظ على سلطته المحلية خلال الأنهيار

وسيطر البربر من جانبهم على اراضي المثلث الاسباني الجنوبي ، وما كان بيد الدولة الحمودية .

وهكذا قامت على انقاض الدولة الأندلسية الكبرى دول عديدة هي دول « الطوائف » في اواخر الربع الأول من القرن الخامس ، حتى الفتح المرابطي زهاء نصف قرن وهي التي كانت بتنابذها وتفرقها ومنافستها تمهد لسقوط الأندلس النهائي .

وقد كان من رحمة القدر ، ان اسبانيا النصرانية كانت في نفس الوقت ، تعاني انقسام الكلمة وتعصف بها ريح الخلاف والتفرقة ، فلم تتح لها فرصة للوثوب على الاندلس الممزقة حتى كان الوقت الذي بلغ فيه تنابذ الطوائف ذروته ، واشتد ساعد اسبانيا النصرانية كرة اخرى ، واستطاعت ان تضرب ضربتها القوية بانتزاع طليطلة ، اول قاعدة

اسلامية كبيرة (١٠٨٥ م) وعندئذ تطورت الحوادث بسرعة واتجهت الأندلس الجريح في توجّسها وانزعاجها ، الى اخوانها المسلمين فيما وراء البحر بعدوة المغرب تستدعيهم لنصرتها .

وكان ان تـدفقت الجيوش المرابطة من المغرب الموريتاني على شبه الجزيرة الاسبانية وكان ان انقذت دولة الاسلام في الاندلس .. وفي سنة ٥٠٠ هـ = ١١٠٦م توفي الفاتح المرابطي يوسف بن تاشفين بعد أن دانت له الأندلس ، واصبحت ولاية للمرابطين . وانتقلت إمارة المسلمين بعده إلى ولده علي ، فجعل مقره بمراكش * وترك في الأندلس أخاه تميماً نائباً عنه .

ولم تنعم الاندلس في دولة علي ، فان تعصبه الشديد للدين، واستمساكه بمذهب مالك استمساكاً مغلقاً ، وكره غيره من المذاهب، جعله آلة بيد الفقهاء ، فساد التعصب والارهاب وكثرت الوشايات وخُنقت حرية التفكير . وفي ايامه ظهر المهدي محمد بن تومرت في جبال المصامدة بالمغرب ، فكان ظهوره وبالاً على دولة المرابطين ، وسبباً لقيام دولة الموحدين .

البربر وموريتانيا

بعد ان تحقيق علمي وتاريخي ثبت إن البربر يشكلون عنصراً « اصلياً » من عناصر التكوّن العرقي والتحدر الاصولي لعرب الموريتانيا، وبالاضافة الى عناصر تكونهم الأخرى المتصلة بعرب المعقل وصنهاجة .

فهذا الجيل من الآدميين — البربر — هم سكان المغرب القديم ، ملأوا البسائط والجبال من تلوله وأريافه وضواحيه وأمصاره ، يتخذون

* مراكش : لفظة بربرية معناها : إمش مسرعاً ، سمي بها الموضع الذي بنيت فيه لأنه كان مأوى للصوص، فاذا التقى به المسافرون قال بعضهم لبعض : إمش مسرعاً، تخلصاً من غوائل المكان .

البيوت من الحجارة احياناً ، ومن الطين والخوص والشجر والشعر والوبر احياناً اخرى .

ويظعن أهل العز منهم والغلبة لانتجاع المراعي فيما قرب من الرحلة، لا يجاوزون فيها الريف الى الصحراء والقفر الأملس ، ومكاسبهم: الشاء والبقر ، والخيل في الغالب للركوب والنتاج ، تماماً كعرب الموريتانيا حالياً .. وهذه المكاسب هي طابع العرب المعاشي منذ أقدم الأزمان ، وهو طابع حياتي يلازمهم في ظروف وحالات معينة ، يتطور رويداً رويداً كلما تدرجوا نحو الحضارة والمدنية ..

فجميع الشعوب البدائية - من عرب وعجم - هذا هو شأنها : حياة تعتمد على النجعة والزراعة وتربية الدواجن والسائمة الى ان يقدر لها تصنيع حياتها ، وحينئذ تدخل في طور التمدن الحديث . وصف ابن خلدون البربر بأنهم كانوا « اهل انتجاع واظعان في نتاج الابل وظلال الرماح وقطع السابلة .. » وذكر ان لباسهم وأثاثهم أكثره من الصوف .. يشتملون (يتزنرون) بالأكسية المعلمة « المنقطة والمخططة) ويفرغون عليها البرانس الكحل ؛ ورؤوسهم في الغالب حاسرة .. وهذا الوصف ينطبق على بيضان الموريتانيا تماماً .

اقوال في نسبهم

يقال ان افريقش بن صيفي من ملوك التبابعة لما غزا المغرب وافريقيا، وقتل الملك جرجيس ، وبنى المدن والأمصار (وباسمه زعموا سميت افريقيا - افريقش) لما رأى هذا الجيل من الأعاجم ، وسمع رطانتهم ووعى اختلافها وتنوعها تعجب من ذلك وقال : « ما أكثر بربرتكم » فسموا بالبربر ..

وقال الكلبي : ان كتامة وصنهاجة ليستا من قبائل البربر ، وانما

هما من شعوب اليمانية ، تركهما افريقش بن صيفي بأفريقيا مع من نزل بها من الحامية .

وقال بعض نسابة العرب ، ان البربر يمنيون ، وقال المسعودي انهم من غسان ، تفرقوا في الارض بعد سيل العرم .. وقيل : تخلفهم أبرهة ذو المنار بالمغرب . وقيل من لخم وجذام، كانت منازلهم بفلسطين وأخرجهم منها بعض ملوك فارس ، فلما وصلوا الى مصر منعهم ملوك مصر النزول فعبروا النيل وانتشروا في البلاد ..

وذكر الطبري : « ان البربر قبائل كثيرة وشعوب جمة وهي : هوارة وزناتة وضريسة ورفجومة وكتامة ويزدران وصنهاجة واركلان وكنعان » الخ ..

وذكر آخرون ، ومنهم الطبري ايضاً : ان البربر اخلاط من كنعان والعماليق ، فلما قتل جالوت (احد ملوك بابل) تفرقوا في البلاد . وغزا أفريقش – الذي سميت أفريقيا باسمه – المغرب ، ونقلهم من سواحل الشام وأسكنهم أفريقيا وسماهم بربراً ..

وورد انه لما استأجرهم لفتح أفريقيا ، أنشد بعضهم من شعره :

بربرت كنعان لما سقتها من أراضي الضنك للعيش الخصيب

وقال هانىء بن بكون الضريسي : ان البربر فرقتان وهما البرانس والبُتر من ولد بربر بن قيس بن عيلان .

ولبربر بن قيس هذا حكاية أوردها الطبري ، فقال : خرج بربر ابن قيس ينشد ضالة بأحياء البربر فهوى جارية وتزوجها فولدت له ، وقيل انه خرج فاراً من أخيه عمرو بن قيس ، وفي ذلك تقول تماضر اخته :

لتبكي كل باكية أخاها كما أبكي على بَرٍّ بن قيس
تحمّل عن عشيرته فأضحى ودون لقائه انضاء عيس !

ومما ينسب اليها هذه الأبيات الثلاثة الرائعة التي تنم عن عروبتها الاصيلة :

وشطت « ببر » داره عن بلادنا وطوح بَرٌّ نفسه حيث يمّما
وازرت ببرٍّ لُكْنَة أعجمية وما كان بر في الحجاز بأعجما
كأنا وبرٌّ ، لم نقف بجيادنا بنجدٍ ، ولم نقسم نهابا ومغنما !

وأنشد بعض علماء البربر لعبيدة بن قيس العقيلي :

ألا ايها الساعي لفرقة بيننا توقف هداك الله سبل الاطائب
فاقسم انا والبرابر اخوة نمانا وهم جدٌّ كريم المناصب
ابونا أبوهم ، قيس عيلان في الذرى وفي حرمة يسقي غليل المحارب
فنحن وهم ركن منيع واخوة على رغم أعداء لئام المغاقب
وقيس بن بر عصبة مضرية وفي الفرع من احسابها والذوائب
وقيسٌ قوام الدين في كل بلدة وخير معدٍّ عند حفظ المناسب

ووردت أبيات ليزيد بن خالد يمدح البربر :

أيها السائل عنا أصلنا قيس عيلان بنو العز الاول
نحن مَن نحن ، بنو برٍّ القوى عرف المجد ، وفي المجد دخل
ولنا الفخر بقيس انه جدنا الأكبر فكّاك الكبل
حسبك البربر قوماً ، انهم ملكوا الأرض بأطرف الاسل
وببيض تضرب الهام بها هام من كان عن الحق نكل !

كان دين البربر المجوسية،شأن الأعاجم كلها في المشرق والمغرب ، ثم أسلموا واستعربوا بعد الفتح . وكان البربر لا يملكون لغة مكتوبة يستطيعون التخاطب بها ، فوجدوا في اللغة العربيــة ضالتهم المنشودة فقبلوها ، وقبلوا معها كتابها الكريم* .

وفي ما تقدم شواهد قاطعة على أن البربر عرب في اعرافهم القديمة قبل الفتح ، وكل ما هنالك ان العروبة بعده تأصلت بهم تأصلاً طيباً ، وانطبعوا بها انطباعاً حسناً .

* كتاب « موريتانيا الحديثة » للمؤلف ص ٥٦ – ٥٨ .

أدب الرواد المسلمين بين المشرق والمغرب

فن من فنون الأدب العربي لم تذهب الايام بجدّته ، ولا يزال تراثه رغم كر الزمن يحتفظ بقيمته الفنية فضلاً عن قيمته التاريخية ، ذلك هو فن السياحة والمشاهدة. ففي الادب الغربي ، القديم والحديث ، تتبوأ كتب السياحة والمشاهدة مكانة رفيعة ، سواء اكانت لمكتشف يرود مجاهل القارات ثم يسجل اكتشافاته ، او لكاتب يجوب البلاد بقصد الدرس والمشاهدة ويدون ملاحظاته ومشاعره .

وقد كانت كتب السياحة قبل قرنين او ثلاثة تعتبر دائماً بالنسبة للمجتمعات التي كتبت لها كتب استكشاف تلقي اضواء جديدة على احوال المجتمعات التي كتبت عنها ، فلما تقدمت المواصلات وتقاربت الشعوب ، وكثر تعارفها ، وتوثقت بينها الصلات العلمية والأدبية لم يبق للسائح المتجول ما يكتشفه من احوال الشعوب المتمدّينة او التي تأخذ بقسط من الحضارة الا ما يمليه عليه الدرس الخاص لأحوال هذه الشعوب ، وأصبحت كتب الاستكشاف وقفاً على رواد المجاهل والعلماء الذين يجوبون معهم مجاهل البحار او اليابسة ليكشفوا جديداً من الآثار او الأنواع . وكتب الفريق الأول يغلب عليها الطابع الادبي ، واما كتب الرواد الفنيين فيغلب عليها الطابع العلمي . وقد عرف الادب العربي فن السياحة

والمشاهدة في عصر مبكر جداً ، فمنذ القرن الثالث نرى الجغرافيين العرب ، يطوفون ارجاء العالم المعروف يومئذ ،للوقوف على احوال البلدان والأقاليم المختلفة وخواصها ويدونون مشاهداتهم في كتب لا زالت حجة عصرها .

ومن اعظم هؤلاء الجغرافيين الرحّل ، اليعقوبي الذي طاف العالم الاسلامي من السند الى الأندلس وتجول في جميع بلاد فارس والجزيرة ومصر والمغرب والاندلس في النصف الاخير من القرن الثالث الهجري ، ووضع كتابه الجامع « البلدان » ، والمسعودي المؤرخ والجغرافي الذي طاف انحاء العالم الاسلامي شرقاً حتى الهند والصين وجزائر الهند الشرقية ، واخترق المحيط الهندي حتى شواطيء افريقية الشرقية وجزيرة مدغشقر ، وشهّر عجائب هذه الآفاق ودونها في كتبه ولا سيما مروج الذهب والتنبه والاشراف ، وذلك في اوائل القرن الرابع الهجري . بيد اننا لا نريد ان نتحدث هنا عن هؤلاء العلماء الجغرافيين ، وانما نتحدث بالاخص عن طائفة من الرحّل والمكتشفين المسلمين الذين تصور آثارهم احوال البلاد والمجتمعات التي شهدوها ، وتعتبر من الوجهة الفنية آثاراً وصفية اجتماعية قبل ان تعتبر آثاراً جغرافية ، ولدينا في الواقع ثبتٌ حافل من اولئك الرواد المشغوفين بالسياحة ودراسة الامم ، ولدينا كثير من آثارهم التي ما زالت تعتبر رغم قدمها نماذج حسنة لهذا النوع من الأدب المفيد الشائق معاً ، وما نذكره منهم ومن آثارهم في هذا الفصل ، نذكره على سبيل التمثيل لا على سبيل الحصر ، وانما نلاحظ ان الذين عرفوا منهم وعرفت آثارهم هم اقلية صغيرة بالنسبة الى اولئك الذين لم تصل الينا آثارهم ،او التي انتهت آثارهم الينا ولكنها ما زالت مخطوطات منسية في ظلمات المكاتب العامة والخاصة .

ابو القاسم البغدادي

ومن أقدم اولئك الرواد الوصفيين الذين انتهت آثارهم الينا ابو

القاسم محمد بن حوقل البغدادي، الذي أنفق نحواً من ثلاثين عاماً في الطواف بالأمم الاسلامية من بغداد الى الأندلس، يدرس أحوالها وخواصها وأحوال شعوبها ومجتمعاتها، وذلك في النصف الاول من القرن الرابع الهجري (القرن العاشر الميلادي) . وقد دوّن ابن حوقل رحلته ومشاهداته في كتاب أسماه « المسالك والممالك » ، وهو أثر يجمع بين الناحية الجغرافية والناحية الوصفية . بيد انه يعني بالمشاهدات الوصفية عناية خاصة ، وفيه يدوّن ابن حوقل خلال أخبار رحلته أحوال الأمم التي مر بهـا وما شاهده فيها من المناظر والمعاهد والآثار والخواص التي تستحق الذكر . وقد مر ابن حوقل اثناء رحلته بمصر ، في أواخر الدولة الاخشيدية ، وخصص لمشاهداته فيها فصلاً طويلاً يصف فيـه (مصر الفسطاط) ومعاهدها والنيل ومجراه ، وكثيراً من أحوال المجتمع المصري يومئذ[1] واسلوبه يجمع بين الطابعين العلمي والأدبي .

ولدينا في القرن السادس رحالتان شهيران أحدهما يجوب العالم المعروف يومئذ من المشرق الى المغرب ، والآخر يجوبه من المغرب الى المشرق ، والأول هو ابو الحسن على بن ابي بكر المعروف بالسائح الهروي ، نسبة الى هراة بلد اسرته . وقد ولع ابو الحسن بالأسفار منذ حداثته ، وخرج من الموصل مسقط رأسه يجوب أنحاء العالم لغير قصد سوى التفرج والاستكشاف ، وذلك نحو سنة ٥٦٨ هـ (١١٧٣ م) ، وأنفق زهاء ربع قرن في رحلته، فطاف أرجاء الشام وفلسطين ومصر وقبرص وغرب الاناضول وزار قسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية ، واخترق البحـر الأبيض وتجول في جزائره حتى صقلية ، ولم يترك على قول ابن خلكان « براً ولا بحراً ولا سهلاً ولا جبلاً من الأماكن الـتي يمكن قصدها ورؤيتها إلا رآه ، ولم يصل إلى موضع إلا كتب خطه في حائطه » !

---

١ راجع هذا الفصل في كتاب « المسالك والممالك » (وهو ضمن المكتبة الجغرافية التي أصدرها المستشرق دي جويه) .

واشتهر ذلك في الآفاق كلها ، وهو الوحيد الذي تلقبه الرواية الاسلامية « بالسائح » وأسره الفرنج والقرصان مراراً ، وضاعت كتبه ومذكراته كما يخبرنا بذلك في كتابه الذي انتهى الينا ، وهو سفر صغير عنوانه « الاشارات الى معرفة الزيارات »[1] وفيه يقص باختصار سيَر رحلته وما شاهده من الأماكن والمعاهد دون وصف ولا اسهاب .

وفي أواخر القرن السادس استقر أبو الحسن في حلب بعد طوال التجوال ، ونال حظوة لدى أميرها وتوفي سنة ٩١١ هـ (١٢١٤ م) ودفن بتربة أعدها لنفسه ، وكتب عليها حسب وصيته ، ومن انشائه تلك الكلمات المؤثرة : « هذه تربة العبد الغريب الوحيد على بن أبي بكر الهروي ، عاش غريباً ، ومات وحيداً ، لا صديقاً يرثيه ، ولا حليلاً يبكيه ، ولا اهل يزورونه ، ولا اخوان يقصدونه ، ولا ولد يطلبه ، ولا زوجته تندبه ، آنس الله وحدته ، ورحم غربته ! » .

واما الثاني فهو ابن الحسين محمد بن احمد بن جبير الاندلسي رحل من الاندلس شرقاً الى افريقية ومصر والشام والحجاز . وكان رحّالة بطبيعته قويّ الملاحظة والوصف . رحل من غرناطة الى المشرق ثلاث مرات ، الاولى سنة ٥٧٨ هـ والثانية سنة ٥٨٥ والثالثة في اواخر القرن السادس ، وقطع البحر الابيض مراراً وطاف بمعظم جزائره وثغوره الجنوبية والشرقية ، وتجول في بلاد مصر والشام والحجاز وقاسى في اثناء تجواله كثيراً من الشدائد وأشرف مراراً على الهلاك في البحر ، واستقر اخيراً بالاسكندرية وتوفي بها سنة ٦١٤ هـ (١٢١٧ م) ودون اخبار رحلاته في سفر كبير ممتع يسميه « تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الاسفار » وفيه يدون مشاهداته في الامم والبلاد التي زارها ، بقص حوادث اسفاره مفصلة بالتواريخ في نوع من « المذكرات » ، وهو اثر شائق الاسلوب والوصف يعتبر نموذجاً بديعاً لادب الرواد .

---

١ – ومنه نسخة خطية في دار الكتب رقم (٣ م جغرافيا) .

ونستطيع ان نذكر من الرواد المسلمين في هـــذا العصر ايضاً عبد اللطيف البغدادي الطبيب العلامة الذي وفد على مصر في اواخر القرن السادس الهجري ، وطاف بعد ذلك فلسطين والشام وبلاد الروم الاناضول يدرس احوالها ومجتمعاتها . وقـــد دون عبد االطيف مشاهداته في مصر في كتاب كبير لم يصل الينا، ولكن وصلت الينا منه عدة فصول اختارها عبد اللطيف وسماها كتاب الافادة والاعتبار » وهي فصول قوية بديعة عن احوال مصر وخواصها الطبيعية والاجتماعية ، يغلب عليها الاسلوب العلمي الذي يمتاز به مؤلفها .

ابن بطوطة :

على ان اعظم الرواد المسلمين على الاطلاق هو ابو عبدالله محمد بن عبدالله الطنجي الشهير بابن بطوطة . ولم يكن ابن بطوطة رحالة عظيماً فقط يجوب انحاء العالم المعروف يومئذ ، بل كان ايضاً مكتشفاً عظيماً يقصد الى مجاهل البر والبحر . وكتابه « تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار » وهو المعروف برحلة ابن بطوطة ، أجمل وأنفس أثر عربي في هذا النوع من الادب . وقد خرج ابن بطوطة من طنجة مسقط رأسه في سنة ٧٢٥ هـ (١٣٢٥ م) يجوب اقطار العالم،واخترق بلاد المغرب ومصر والشام وبلاد العرب وبلاد الروم وقسطنطينية،وفارس وخراسان وتركستان والهند وسيلان والصين وجزائر الهند الشرقية واخترق في عودته قلب افريقية من السودان الى بلاد النيجر مروراً بموريتانيـــا ، ووقف على كثير من مجاهل بعض الاقطار والامم التي لم تكن معروفـــة يومئذ تمام المعرفة ، ووصل الى اعالي نهر النيجر والى تمبكتو وسكوتو قبل ان يصل اليها الرواد الاوربيون ويكتشفها الرحالة الانجليزي منجو بارك بعـــد ذلك بنحو ثلاثة قرون . وسلخ في رحلاته نحو ربع قرن

وترك لنا عن اسفاره واكتشافاته ومشاهداته ذلك الاثر الذي يعتبر بحق من ابدع آثار السياحة والاكتشاف .

وقد لبث ادب الرواد متصلاً في العربية حتى العصر الحديث ، فنجد المقرى مؤرخ الاندلس — مثلاً — يصف لنا في فاتحة « نفح الطيب » رحلته البحرية من المغرب الى المشرق في اسلوب رائع ، ونجد العلامة الصوفي عبد الغني النابلسي يجوب بلاد الشام ومصر والحجاز ، وذلك سنة ١١٠٥ ﻫ (١٩٦٤ م) ويترك لنا عن اسفاره ومشاهداته أثراً نفيساً هو كتاب « الحقيقة والمجاز » الذي تحتفظ دار الكتب المصرية بنسخة خطية منه .

* * *

ومما تقدم ، نرى ان ادب السياحة قد بدا في البلاد العربية في عصر مبكر ، واستمر على كر العصور . وكثيراً ما قيل ان تراث الادب العربي اضحى قديماً لا يساير العصر ، وان فنونه قد عفت ، وانه ليس في تعداد فنونه ومناحيه كالادب الغربي . ولكنا نستطيع ان نقول هنا على الاقل ، ان الادب العربي قد سبق الادب الغربي في فن السياحة والمشاهدة بعصور طويلة ، وهذا مترتب بالطبع على ان الرواد المسلمين كانوا أسبق من الرواد الغربيين الى التجوال في انحاء العالم المعروف يومئذ والى ارتياد كثير من الانحاء المجهولة . والواقع ان أول رحالة غربي كبير ارتاد انحاء المشرق وآسيا هو الرحالة الايطالي مركو بولو ، وكانت رحلته الى المشرق في أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر ، هذا بينما يرجع نشاط الرواد المسلمين الى القرنين الثاني والثالث من الهجرة (القرنين الثامن والتاسع من الميلاد) . وأقدم أثر غربي قيم في السياحة هو أثر مركو بولو الذي يصف فيه أحوال الاقطار الاسيوية ولا سيما الشرق الاقصى . وقد كان أول اثر استطاع

الغرب ان يقف فيه على عظمة الشرق وبذخه وبهائه وروعة حضارته . ولكن الامم الاسلامية كانت تعرف اقصى الامم الشرقيـــة ومعظم الامم الغربية على ايدي جغرافييها وروادها قبل ذلك بقرون .

التجاني الرحالة التونسي

ومن الرواد المسلمين الذين لمع اسمهم في هذا المضمار ، ابو محمـــد عبدالله بن محمد بن احمد التجاني التونسي .

ففي أواسط القرن الثالث عشر للميلاد ، وفي سنة ١٢٣٦ عـــلى التحقيق ، أقام الحفصيون دولتهم في تونس وغرب الجزائر ، وكان أبو زكريا هو مؤسس هذه الدولة . وقد دامت دولة الحفصيين الى أواخر القرن الخامس عشر للميلاد ، الا ان ايامها لم تكن كلها هينة لينة . فقد تنازعت الدولة الاهواء ، وتضاربت فيهـــا المصالح ، وتقسمتها الحروب الاهلية في غير فترة من تاريخها ، وجاءت اولى هاته الخصومات في أواخر القرن الثالث عشر الى أوائل القرن الرابع عشر (١٢٧٧ — ١٣١٨) . وهي الفترة التي تعنينا بشكل خاص ، اذ فيها كان صاحبنا ابو محمد عبدالله بن محمد بن أحمد التجاني في فترة نضجه وازدهاره .

نشأة التجاني

فقد ولد عبدالله بين سنـــتي ٦٧٠ و ٦٧٥ هـ (١٢٧٢ — ١٢٧٦ للميلاد) في مدينة تونس ، عاصمة الحفصيين ودار ملكهم . والظاهر ان اسرته هبطت المدينة مع جيش الموحدين في أواسط القرن السادس للهجرة . وقد كان أبوه وجده وأبناء عمومته من أهل العـــلم والادب والفقه . واذن فقد نشأ أبو محمد في بيت عرف للعلم قيمته ، ونشأ في

أكتاف ابيه الذي كان أحد شيوخه . وكانت للاسرة مكتبـــة حافلة بأنواع العلوم من الفقه الى الادب الى الشعر الى التاريخ وما الى ذلك ، فضلاً عن ان تونس نفسها كانت موئل العلم والادب . فقد قال العبدري الرحالة الذي زارها في ايام صاحبنا عبدالله عن تونس « ولو لم ادخل تونس لقلت ان المغرب خلا كله من العلم ! ولكن الله أراد لي ان ارى هذه المدينة التي يجد المرء فيها علماء لكل فرع من فروع المعرفـــة . وطلابها ، مثل اساتذتها ، يبذلون الوقت والجهد في سبيل الدرس » .

واذن فقد اتيح لعبدالله التجاني كل ما يحتاجه المرء للنبوغ من ظروف واحوال وفرص وهمة عالية وجهد لا يفتر ، ورغبة في العـــلم وصبر واناة كانت خليقة بأن تبوئه المركز اللائق بسليل الادباء والعلماء . وادرك ابو عصيدة ، احد سلاطين بني حفص في مستهل القـــرن الثامن ذلك فاستلحق التجاني ببلاطه . وكان على ادارة الدولة يومها شيـخ الموحدين الامير ابو يحيى بن اللحياني ، فاختص التجاني بعنايتـــه واختاره كاتباً خاصاً . ثم اراد ابن اللحياني ان يتفقد شؤون الدولة ، ولعله كان يريد الحج ، وان لم يفصح عن ذلك مقدماً فأخذ عبدالله معه وجعله المشرف على رسائله .

التجاني مع ابن اللحياني

خرج ابن اللحياني من تونس في جمعه الكبير وبرفقته عبدالله المذكور في اواسط جمادى الاول سنة ٧٠٦ هـ (اواخر ١٣٠٦ م) وبعد ان وصل الجمع الى طرابلس ، واقاموا فيها مدة ، استمر ابن اللحياني في اتجاهه شرقاً لاداء فريضة الحج وعاد التجاني الى تونس فوصلها في صفر سنة ٧٠٨ اي انه غاب عن بلده سنتين وثمانية اشهر ويزيد .

هذه المدة التي قضاها التجانـــي في صحبة ابن اللحياني في رحلته

كانت خيراً وبركة على الادب والتاريخ . فقد كان التجاني يقيد اخبارها ويدوّن آثارها ويسجل مشاهداته ويعبر عن انطباعاته بلغة انيقة وديباجة مشرقة واسلوب جلي وبيان طلي . وهو فضلاً عن ذلك يهتم بالتاريخ ،فاذا حدثنا عن المهدية استعرض تاريخها وتاريخ العبيديين فيها . وكان مغرماً بتراجم اهل الادب والذلك فهو يتقصى اخبارهم وينبش من آثارهم ويدوّن أشعارهم . بل ان الرجل فعل أكثر من ذلك فقد دوّن في « تقييده » ، كما سمّى أخبار رحلته ، ما كان يرد عليه من الرسائل ، المنظوم منها والمنثور ، وما يرد عليها به من نثر او شعر ، ولذلك فقد كان هذا التقييد ترجمة وتاريخاً ورحلة وأدباً وانساباً للقبائل. انه سحر حلال !

أما طريق الرحلة فقد كانت على ما يلي : خرج الجمع من تونس الحاضرة إلى سوسة ، ثم اتخذ القوم طريقاً داخلية حملتهم الى الجم ثم إلى صفاقس فقابس . ومن هذه زارت الجماعة توزر ،وعادت إلى قابس فتجفت ،حيث عرجت على جزيرة جربة ورجعت إلى الداخل الى غمراسن ، فزوارة فصبرة ، فطرابلس فمصراته . وكانت طريق العودة أقرب الى الساحل بحيث لم يعرج التجاني على أي من الأماكن الداخلية .

رسائل للتدوين

قلنا أن التجاني كان يدوّن ما يرد اليه من الرسائل وما يبعث به رداً أو بدءاً . ولعل القارىء الكريم يقبل منا مثلاً واحداً من هذه المساجلات والمخاطبات . فقد روى التجاني انه اثناء اقامته بتوزر وصلت اليه رسالة من ابن شبرين ، بعضها شعر وبعضها نثر . وقد أورد نص الرسالة في « تقييده » ولكن بعد ان عرف قارئه بأبن شبرين . قال : « وفي اثناء اقامتنا بتوزر وصلت إليّ قصيدة من الفقيه الأجلّ

الاديب ابي بكر محمد بن احمد بن شبرين الجذامي السبتي من مستقره غرناطة . وهذا الرجل من أعظم من رأيت تحقيقاً ، وأحسنه في النظم والنثر طريقاً . وقد كنت اجتمعت به بتونس . ووصل الينا في الخامس لذي القعدة من عام ثلاث وسبعمائة ، وكان في نيته التوجه إلى الحج فلم يقض له ذلك . فأقام بتونس مدة ثم ارتحل عنها عائداً الى وطنه سبتة .. فاتفق بعد وصوله إلى بلاده من اخذ البلد ما اتفق وطرق اهله من التشتيت بسبب ذلك ما طرق، فكان ممن انتقل إلى غرناطة » .

ثم هو يروي القصيدة ومنها :

يا نسمةً سحبت فضول ذيولها	ما بين ورد بالعذيب ونرجس
والورق قد صدحت على افنانها	والارض قد لبست ثياب السندس
حيِّي رحال تحيتي في معهد	بين الجوانح منه عهد ما نُسي
والحي من تيجان، فاشرح عندهم	فرط اشتياقي نحو ذاك المجلس

وكان مما جاء في قصيدة التجاني جواباً على ذلك قوله وفيه تعزية عما حل به وبأهله وببلده :

أمر من الله لا مرد له	لم يبق كهلاً منهم ولا يفعا
وخدعة تم أمرها فمضت	وكم سديد الآراء قد خدعا !
هاك سلامي على البعاد ابا	بكر ، فقلبي اليك قد نزعا
وثق بود أدين فيك به	ملتزماً منه كل ما شرعا
ان حال خل عن المودة او	اجاب داعي السلوّ حين دعا
فاعلم بأني، والصدق من شيمي	ممن رأى حفظ عهده ورعا
وانني ما قطعت ذكرك بل	ما زلت للشكر فيك منقطعا

ولما كان عبدالله التجاني في قابس وصلت اليه كتب من أبيه وقد

صـُدّر احداها بالابيات التالية التي تدل على صلة الود بين الابن والأب :

حمّـلْتمُ القلب اذ جد الرحيل بكم من الصبابة ما لا تحمل الأبلُ
فلو سلكتم سبيل الحزم ما عجزت اذ ذاك مني على دفع النوى الحِيَل
لكن عراني ذهولٌ يوم بينــكم كما يكابد مَن احبــابه رحلوا
فالله يجمع منـا الشمل عن عجل فالخير أجمل ما في نيله العجل

مذكرات في اوصاف البلدان ..

مــذكرات التجاني ، كما يحب المؤلف ان يسمى رحلته ، هي أدب وتاريخ وجغرافية ووصف للمجتمع الذي رآه وخالطه . وقد صيغت ، كما قلنا من قبل بأسلوب جميل وعبارة أنيقة ، بحيث انك تحس كأن الاشياء التي يتحدث عنها « تتقولب » امامك .. ولعله من المؤسف ان التجاني لم يخلف لنا وصفاً لتونس، ولكن من الطبيعي ان يقيد الرحالة ما يمر به خارج منطقة عيشه وسكنه .

وقــد نال صفاقس وصف لطيف اذ قال عنها : « ووصلنا الى صفاقس ظهراً ، فرأيت مدينة حاضرة ذات سورين ، يمشي الراكب بينهما ويضرب البحر في الخــارج منهما . وكانت بها قبل غابة زيتون ملاصقة لسورها فأفسدها العربان فليس بخارجها الآن قائمة . وفواكهها مجلوبة اليها من قابس . وماؤها شراب لا يساغ وانما يعتمدون في شربهم على ما يدّخرونه من مياه الأمطار . ويصطاد بها من السمك انواع تفوت الأحصاء ؛ وببحرها يوجد صوف البحر الذي يعمل منه الثياب الرفيعة الملوكية . وربما وجد في بحرها صدف يشتمل على لؤلؤ صغير الحب . ومرساها مرسى حسن ميت الماء ، والماء يمدد به ويجزر عنه كل يوم، فاذا جزر استوت السفن على الحماة ، واذا مُدّ عامت » .

اما قابس فتنال من قلمه صورة لطيفة إذ يقول :

« واصبحنا يوم الاثنين مرتحلين ، فأشرفنا على غابة قابس، ووصلنا اليها ضحى فرأينا بلداً قد استوفى المحاسن واستغرقها . واذكر بمنظره الأنضر ، وورقه الاخضر ، جنة الخلد واستبرقها ، وقد أحدقت غابته به من جميع جهاته ، وبهذه الغابة من الجواسق ، والنخل المتناسق ، ما يستوقف الطرف ، ويتوفى الحسن والظرف ،ويحقق ما قيل ان قابس جنة الدنيا ، وانها دمشق الصغرى ، وهي مدينة بحرية صحراوية ، فان الصحراء متصلة بها ، والبحر على ثلاثة أميال منها » .

ولعل جزيرة جربة لم يصفها احد من رجال العصور الوسطى وأوائل العصور الحديثة ، بمثل الدقة التي وصفها بها التجاني . قال :

« وجزيرة جربة من أعظم الجزائر خطراً وأشهرها في سالف الزمن عمارة وذكراً ، وطولها من المغرب الى المشرق ستون ميلاً .. واما عرضها فمختلف ، فعرض الرأس الغربي منها عشرون ميلاً ، وهو الطرف الواسع ، ومن هذا الموضع الى جزيرة قرقنة في البحر ستون ميلاً . وعرض الرأس الشرقي منها خمسة عشر ميلاً ، وهو اضيق مكان بها وهي ارض كريمة المزارع ،عذبة المشارع ،واكثر شجرها النخيل والزيتون والعنب والتين . وبها اصناف كثيرة من سائر الفواكه . الا ان هذه هي اكثر ثمرها وعليها مدار غلاتها ، وغيرها من كرائم الارضين لا يقاربها على الجملة في ثمارها أو يساويها . وتفاحها لا يوجد في جميع بقاع الأرض له نظير . لما يوجد به من صفاء وجفاف وطيب مذاق ، وعطارة استنشاق ، ورائحته توجد من المسافة المديدة ،والأميال العديدة ، وكان من شجره بهذه الجزيرة قبل هذا كثير ، ثم قل الآن بسبب ان النصارى يتحفون به ملوكهم وكبارهم دون تعويض لاربابه عنه ، فرأى اهل الجزيرة ان غيره من الشجر اعود بالفائدة عليهم

فقطعوا اكثره * ! واختصت هذه الجزيرة أيضاً دون غيرها من البلاد بحسن الاصواف المحمودة الاوصاف التي ليس بأفريقيـــة لما ينسج من اثوابها نظير . وذلك معلوم من امرها شهير ، وأكثر مساكن اهلهـــا اخصاص من النخيل ، يجعل كل واحد منهم في ارضه واحداً او اثنين او اكثر من ذلك ، ثم يسكنه بعياله. وليس بها بناء قائم الا دور قليلة».

وقد ذكرنا من قبل ان التجاني أوغل مع ابن اللحياني في داخـــل القطر التونسي . ونكتفي بنقل مـــا جاء في رحلته عن توزر ، يقول الرحالة :

توزر هي قاعدة البلاد الجريدية ، وليس في بلاد الجريد غابة اكبر منها ولا اكثر مياهاً . وأصل مياهها من عيون تنبع من الرمل وتجتمع خارج البلد في وادٍ متسع تتشعب منه جداول كثيرة ، وتتفرع عن كل جدول منها مذانب « الجداول الضيقة » يقسمونها بينهم على املاك لهم مقررة مقاسم من المياه معروفة . ولهم على قسمها امناء من ذوي الصلاح فيهم يقسمونها على الساعات من النهار والليل بحساب لهم في ذلك معروف ، وأمر مقرر مألوف . وعلى ذلك الماء ارجاء كثيرة منصوبة . ومن العجب ان هذا الوادي يحتمل ما يحتمل من غنـــاء أو غيره ، فاذا انتهى الى المقسم افترق هنالك اجزاء بالسوية على عدد المسارب ، فمضى كل قسم منها الى مسرب منها ، وهذا مما شاهدته فيها عياناً . وكثير من أهلها انما يسكنون بغابتها . ولا مناسبة بين مباني الغابة ومباني داخل البلد ، فان مباني الغابة أضخم وأحسن . وبداخل البلد جامعان للخطبة وحمـــام واحـــد . ومتفرجهم بموضع يعرفونه بباب المنشر ، وهو من أحسن المتفرجات لأن مجتمع الماء هنالك ومنه يتفرع كما تقـــدم . ويجتمع به القصارون فينشرون هنالك من الثياب الملونة والأمتعة الموشاة ما يعمه على كبره ، فيخيل للناظر انه روض تفتحت ازهاره وأطردت انهاره. وليس

* لشد ما تنطبق هذه الاوصاف على تفاح لبنان الآن ما خلا قطعه ، والتفاح خير مـــا يهدى للملوك ..

بتوزر احسن من هذا الموضع . وهو خارج عن غابتها ، والغابة ملاصقة لسور المدينة فهي بذلك تمت حصانتها » .

قضى التجاني سنة ونصف السنة في طرابلس الغرب . فأتيح له بذلك الفرصة للتعرف إلى المدينة واهلها وعلمائها ومباهجها . ولذلك فهو يتحدث عنها بشيء كثير من الحرارة والحب . وها نحن اولاً نسمح لأنفسنا بأن ننقل عنها أكثر مما نقلنا عن غيرها . فالمهم بالنسبة للقارىء هو ان يتعرف إلى الاماكن ويتذوقها تذوق الرحّالة نفسه .

وصل التجاني طرابلس فقال يصف اثر ذلك في نفسه :

« ولما توجهنا إلى طرابلس ، وأشرفنا عليها كاد بياضها من شعاع الشمس ينعش الابصار ،فعرف صدق تسميتهم لها بالمدينة البيضاء .. وخرج جميع اهلها مظهرين الاستبشار رافعين اصواتهم بالدعاء ، وتخلى والي البلد اذ ذاك عن موضع سكناه ، وهو قصبة البلد فنزلنا بها . ورأيت آثار الضخامة بادية على هذه القصبة ، غير ان الخراب قد تمكن منها وقد باع الولاة أكثرها . فما حولها من الدور التي تكتنفها الآن انما استخرجت منها . ولها رحبتان متسعتان . وفي الخارج منها المسجد المعروف في القديم بمسجد العشرة ، لأن عشرة من اشياخ البلد كانوا يجتمعون فيه للمشورة فيدبرون امر البلد،وذلك قبل تملك الموحدين لها ، فلما تملكوها ارتفع ذلك الرسم ، وزال عن المسجد ذلك الاسم » .

ودخل الحمام وجال في الشوارع واطل على البحر فقال في ذلك :

« ودخلت حمام البلد وهو المجاور للقصبة فرأيت حماماً صغير المساحة ، الا انه قد بلغ من الحسن غايته ، وتجاوز من الظرف نهايته ، وكان هذا الحمام من منافع القصبة فبيع من جملة ما بيع منها ، وهو الآن محبس على بعض المساجد . وبالبلد حمامان آخران غيره إلا انهما في الحسن دونه . ورأيت شوارعها فلم ار أكثر منها نظافة ولا احسن اتساعاً واستقامة ، وذلك ان اكثرها تخترق المدينة طولاً وعرضاً من اولها إلى

آخرها على هيئة شطرنجية ... ورأيت بسورها من الاعتناء ، واحتفال البناء ، ما لم اره لمدينة سواها،وسبب ذلك ان لأهلها حظاً من مجباها ، يصرفونه في رم سورها ، وما تحتاج اليه من مهم امورها ، فهم لا يزالون ابداً يجددون البناء فيه يتداركون تلاشيه بتلافيه » .

« وبخارج باب البحر منها منظر من انزه المناظـر ، مشرف على الساحل حيث مرسى المدينة ، وهو مرسى حسن متسع تقرب المراكب فيه من البر ، وتصطف هناك اصطفاف الجياد في أواريها .. »

وصفه مدارس طرابلس وعلمائها

وتعرف التجاني إلى مدارس طرابلس وعلمائها وشاركهم في مجالسهم ونتج عن ذلك ان وضع كتابين هما « تقييد على صحيـح مسلم » و « تقييد على المسند الصحيح البخاري » . وها نحن اولاً نقدم إلى القارىء الكريم وصفه لأحدى المدارس وحديثـه عن واحد من العلماء الأعلام .

« وبداخل البلد مدارس كثيرة واحسنها المدرسة المستنصرية التي كان بناؤها على يد الفقيه ابن محمد عبد الحميد بن ابي البركات بن ابي الدنيا رحمه الله تعالى،وذلك فيما بين سنة خمس وخمسين الى سنة ثمان وخمسين ، وهذه المدرسة من احسن المدارس وضعاً واظرفها صنعاً » .

اما العالم الذي يتحدث عنه فهو الامام الحافظ يقول :

« والقائم برسم العلم في هذه البلدة في وقتنا هذا شيخنا الامام الحافظ ابو فارس عبد العزيز بن عبد العظيم بن عبد السلام بن عبد العزيز بن عبدالله بن عبد العزيز بن عبيد ، وهو رجل ليس من عمرو ولا زيد، فاهيك من رجل ! قد نال من المعارف ما اشتهى ، وحاز فيما حاز من العلوم الاصولية والفرعية الغاية والمنتهى ! حضرت درسه بمسجد مجاور

لداره فرأيت رجلاً متضلعاً من العلم ذاكراً بالمذهب ذكراً لا يجاريه فيه احد، ولا تكاد مسألة من مسائله تشذ عنه ، حسن العبارة مشاركاً في علوم جمة . وله اعتناء بحفظ كلام القرويين في المذهب من تعليل او تفسير او تفريق او تخريج . واعتماده في الاصول الدينية والفقهية على كلام الامام ابي المعالي ، وكلام الشيخ ابي حامد الغزالي ، وهو سبائي النسبة من ولد سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، واخبرني ان مولده بطرابلس عام تسع وثلاثين وستمائة ، واكثر استفادته على ما اخبرني على الفقيه القاضي ابي موسى عمران بن موسى بن معمر الطرابلسي رحمه الله تعالى ، وليس له رحلة عن بلده إلا إلى الحج ، حج عام ثلاثة وسبعمائة .

« ولما حضرت درسه وتحققت مكانته المكينة في العلم احببت القراءة عليه مدة اقامتنا هنالك . وطلب مخدومنا ان يكون ذلك بمحضر منه فلم يكن بد من استدعاء الشيخ لموضع سكنانا، فعقدنا مجلسنا لذلك بالقصبة . وطلب الحضور بذلك المجلس جماعة من اعيان الطلبة بالبلد فأذن لهم ، ورأينا ان يكون المقروء حديث خير الانام ، الذي هو الاصل لجميع الاحكام ، فابتدأت القراءة بلفظي لصحيح مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري رحمه الله تعالى في غرة شعبان من العام المذكور قراءة تفقه فيه ، وتدقيق للبحث في الفاظه الكريمة ومعانيه . وقد كنت ابتدأت تقييد ما نتجته فيه بيننا المناظرة ، وافادته المحاضرة ، مما جاء كالاكمال لكتاب « الاكمال » . ثم بعد ذلك في الشهر نفسه ابتدأت قراءة دولة من كتاب المسند الصحيح للامام الحافظ ابي عبدالله محمد بن اسماعيل الجعفي البخاري رحمه الله ، وامتد في قراءتهما مدى ، قرأ فيه منهما ما ما هو نور وهدى ، إلى ان دعا بنا داعي البين فأعجلت النقلة عن تمام الكتابين » .

على انه مما يؤسف له ان ادب السياحة في البلاد العربية قد انحط في

العصر الاخير كما انحط كثير من فنونها ، واصبح نوعاً من المشاهدات الطائرة تكتب بأسلوب صحفي ركيك ، ولا تعرف الابداع الا نادراً، اي حين يكون الصحفي كاتباً ككامل مـروه وجورج نقاش وغسان تويني[1] وامثالهم،وقلما يُعنى السائح الرائد الآن بغير المشاهدات السطحية كوصف الشوارع والفنادق والملاهي والانطباعات الخاصة .. اما الدراسات العلمية والاقتصادية والاجتماعية فقلـما نجد من يعنى بها على كثرة من يسافرون كل يوم من المشرق والمغرب إلى اقاصي الدنيا . !

١ – صحافيون لبنانيون معروفون :الأول صاحب جريدة «الحياة»،والثاني صاحب جريدة « الأوريان » الفرنسية ، والثالث صاحب جريدة « النهار ».وهذه الصحف الثلاث من ارقى صحف المشرق وأوسعها انتشاراً .

Call No..........

Account No..........

Date............ ....

J. & K. UNIVERSITY LIBRARY

This book should be returned on or before the last stamped above. An overdue charges of 6 nP. will be levied for each day. The book is kept beyond that day.

الفصل الثاني

في مدار اللغة وعبقريتها وانتشارها في آسيا وإفريقيا وأوروبا

Call No...........

Account No...........

Date............ ....

J. & K. UNIVERSITY LIBRARY

This book should be returned on or before the last stamped above. An overdue charges of 6 nP. will be levied for each day. The book is kept beyond that day.

عَبْقَرِيَّة اللغة العربيَّة

« لا يكفي تجهيز الدولة بالنظم السياسية والادارية واقرار المساواة بين جميع المواطنين لانماء الشعور الوطني . فينبغي خاصة ان يشعر الشعب بوحدته الثقافية . هذا ما دفع الحكومة إلى بذل كل عنايتها في انماء تعليم مشبع بثقافة البلاد الأصلية ، ومنسجم مع حاجات دولة حديثة ليكون بمثابة بوتقة تصهر فيها روح الوطن .

مختار ولد داداه

بعد ان انتشر القرآن الكريم في البلاد التي فتحت ، نظرنا فاذا الأمور تتغير حقاً ، واذا التاريخ يأخذ طريقاً جديدة لم نعرفها من قبل ، واذا هذه اللغات التي قاومت اللغة اليونانية والسلطان اليوناني ، وقاومت اللغة اللاتينية وسلطان الرومان لا تثبت للغة العربية ، لا لأن السلطان العربي فرض على الناس ان يجهلوا لغتهم ، وان يتخذوا اللغة العربية لغة لهم ، بل لان هذه اللغة العربية تمتاز بشيء من قوة الطبيعة ، وتمتاز بشيء من السحر الخاص الذي ينفذ الى القلوب ويسيطر على العقول ، ويستأثر بملكات الناس . وكذلك لم يأتِ القرن الثاني ولم ينقضِ القرن

الثالث حتى كانت اللغة العربية هي لغة الشعوب في كثير جداً من اقطار الارض : في العراق ، والشام ، ومصر ، وشمالي افريقيا وغربها ، بما فيها موريتانيا وفي اسبانيا ايضاً . وكانت كذلك لغة الحديث والانتاج الادبي في هذه البلاد القوية التي قاومت اليونان اشد المقاومة، ولم يستطع الرومان ان يقهروها وهي في بلاد الفرس . أصبحت اللغة العربية لغة حديث ولغة علم وأدب وثقافة في البلاد الفارسية ، ووصلت في تلك الأوقات الى بلاد الهند أيضاً والى جزر المحيط كذلك .

ثم ننظر فاذا هذه اللغة العربية لم تستطع ان تكتفي بالانتشار ، وبأن تصبح لغة هامة للثقافة والسياسة والادب والحديث ، ولكنها استأثرت بهذه الشعوب ، او بأكثر هذه الشعوب استئثاراً تاماً . واذا باللغات التي ظلت حية مقاومة لليونان والرومان والفرس من قبل اولئك وهؤلاء . اذا بهذه اللغات تتضاءل شيئاً فشيئاً ويضيق سلطانها قليلاً حتى تنحصر بالاديرة وفي بعض المحافل الخاصة ، ثم تصبح لغات قديمة ميتة يدرسها العلماء اصحاب البحث التاريخي واصحاب البحث اللغوي ، ولكن الشعوب تنساها نسياناً تاماً . فالشعب المصري مثلاً ، لا يتحدث اللغة القبطية ، والشعب السوري لا يتحدث اللغة الآرامية ، والعراق لا يتحدث تلك اللغة التي كان العرب القدماء يسمونها لغة النبطية ، والتي كانت بقايا من لغة بابل واشور ، والشعب الموريتاني كذلك لا يتحدث اللغة الشلحية او البربرية . كل هذه اللغات اصبحت لغات قديمة ميتة يختص بها العلماء وحدهم ، والشعوب تجهلها جهلاً تاماً ، ثم لم تكتف اللغة العربية بذلك وانما اثبتت انها لغة لا تكتفي بأن تتسلط وتقهر ، ولكنها لغة طامحة حريصة على ان تسيغ وتهضم كل ما تستطيع ان تلقاه امامها من انواع البحث والعلم والحضارة على اختلاف انواعها. فكل ما كتبه اليونان وأكثر ما كتبه الرومان ، وكل ما كانت الشعوب الافريقية والاسيوية التي عرفها العرب ، كل هذه الحضارات ، وكل هذه الثقافات اساغتها

اللغة العربية وحولتها الى ثقافة واحدة وحضارة واحدة هي الثقافة العربية، والحضارة العربية ، واستطاع شاعر كأبي تمام ان يقول :

بالشام اهلي ، وبغداد الهوى، وأنا بالرقتين ، وفي الفسطاط اخواني
وما اظن النوى ترضى بما صنعت حتى تبلغني اقصى خراسان !

هذا الوطن العظيم التي اتسعت رقعتـه من اقصى الشرق إلى اقصى الغرب ؛ هذا الوطن العظيم تكونت له حضارة واحدة،لها لغة واحدة ، ولها ادب واحد ، وثقافة واحدة ، وعلوم واحدة بفضل اللغة العربية وبفضل الاسلام !

الامبراطورية التي انشأها الاسكندر ملكت من الارض مثل ما ملكه الاسلام ، او اقل منه كثيراً،لأنها لم تتجاوز شمال مصر، والامبراطورية الرومانية ملكت من الارض مثل ما ملكه المسلمون ، ولكن اليونان لم يستطيعوا ان يؤثروا بلغتهم وادبهم وثقافتهم في الشعوب كما اثر العرب، والرومان لم يستطيعوا ان يفعلوا شيئاً من ذلك بل لم تستطع لغتهم اللاتينية ان تستقر في الشرق بحال من الاحوال . والدولة الاسلامية خلفت هذه الامبراطورية : خلفت الامبراطورية التي انشأها الاسكندر وخلفت الامبراطورية التي انشأها الرومان،ولكنها لم تكن دولة سياسية واقتصادية وسلطان وحسب،وانما كانت امبراطورية قلوب وعقول واخلاق ودين . وهذا كله بفضل هذه اللغة التي استطاعت ان تتغلغل في اعماق الشعوب. استطاعت ان تمحو ما امامها من اللغات ، وان تقوم هي مقامها ، وان تصبح هي اللغة الاصلية في كل هذه الشعوب .

والشيء المحقق ان سلطان العربي لم يصنع شيئاً ليفرض هذه اللغة ، بل نحن نعرف اكثر من هذا ، نعرف ان كثيراً من قضاة المسلمين في مصر كانوا يتعلمون اللغة القبطيـة ليستطيعوا ان يسمعوا الخصوم من الاقباط ، وليستطيعوا ان يقضوا بينهم عن علم بما يقولون ، وعن علم

بما يختصمون فيه ..

هذا هو الذي فعله المسلمون حين استقروا في اقطــار الارض التي فتحها الله عليهم ، وبرغم كل هذا ، وبرغم كل هذه الاشياء التي ورثتها الشعوب وتوارثتها شعوبها اجيالاً . وبرغم هذا التسامح العظيم الذي امتاز به العرب في حكمهم في جميع الاقطار التي استطاعوا ان يحكموها ، وبرغم هذا كله استطاعت اللغة العربية ان تتجاوز جيلها الذي كان يتكلمها وهو الجيل العربي . وان تصبح لغة هذه الاجيال الكثيرة من الناس على مر العصور وتطاول القرون .

اكثر من هذا : ان هذه اللغة العربية عندما تجاوزت الشرق، وتجاوزت البلاد التي كانت تتكلم لغة من جنسها كانت تتكلم اللغات وبينها وبين اللغات السامية شيء من جوار . هذه اللغة العربية عندما تجاوزت الشرق واستقرت في غرب اوروبا ، في اسبانيا ، لم تصنع شيئاً لتفرض نفسها عـلى المقهورين ، وإنما تنافس المغلوبون في تعلمهـا وفي اتقانها ، وفي مشاركة اهلها فيها ومشاركتهم في انتاج ادبهم . وكتب بعض القسس في تلك الاوقات[1] (القرن الثالث للهجرة) كتب بعض القسس بأسف وبحزن ويصور قلبه الذي كانت الحسرة تذيبه لأن الشباب المسيحي يهجر اللغة اللاتينية هجراً خطيراً ، ويسرع إلى تعلم اللغة العربية ولا يكتب شيئاً في اللغة اللاتينية التي هي لغة المسيحية ، مع انه محتفظ بمسيحيته ، ولم ينس هذا القسيس الذي كتب هذا النص إلا شيئاً واحداً ، هو انه هو نفسه حين كان يكتب باللغة اللاتينية كان متأثراً باللغة العربية ، ومتأثراً باللغة العربية الممتازة التي كان العــرب يرونها اروع ما يمكن للناس ان ينتجوه . فاللغة اللاتينية لا تعرف القافية في شعر ولا في نثر . وقسيسنا هذا كان يكتب لغته اللاتينية في هذا النص الذي اشرت اليه

١ – هذه الاشارة كانت من عمل الذاكرة عندما كتبنا هذا الفصل . ثم ما عتمنا ان عثرنا على نص الرسالة المشار اليها فاوردناها في الفصل الرابع تحت عنوان « والفضل ما شهدت به .. ! »

الآن . كان يكتبها في سجع لاتيني لم تعرفه اللغة اللاتينية الا منذ عرفت اللغة العربية ووصل سجعها اليها . اكثر من هـذا : ان الذين تعلموا لغتنا من الامم المختلفة زاحمـوا العرب أنفسهم على ادبهم وزحموهم في كثير من المواقف ، فالشعراء الذين ملأوا الدنيا شعراً في القرن الثاني للهجرة كان فحولهم من غير العرب : بشار كان فارسياً ، ابو نواس كان فرسياً ، ابو العتاهية فارسي ، مسلم بن الوليد كان فارسياً ، كل هؤلاء الفحول كانوا من الفرس . ابو تمام يختلف الناس فيه ، وكانوا يرون ان اباه كان رجلاً يبيع الخمرة في دمشق، وكان ابن الرومي رومياً اسمه ينبيء عن أصله ، كان أبوه رومياً وكانت أمه فارسية ، فهؤلاء الناس الذين امتازوا في لغتنا حتى قهروا شعراءنا ، وحتى استأثروا من دون العرب أنفسهم بالتفوق بالشعر لم يكونوا عرباً ، والعلم الذي انتج في اللغة العربية لم ينتجه العرب أنفسهم . وانما شاركهم فيه علماء من أجناس كثـيرة أخرى ، ويكفي ان نذكر ابن سينا ، وان نذكر الفارابي . وان نذكر اختلاف الناس في هذه الايام بابن سينا، يرونـه في تركيا تركياً ، ويراه الفرس فارسياً . وانا شخصياً لا يعنيني مطلقاً ان يكون فارسياً أو تركياً لأنه عربي ، سواء رضي الترك أو الفرس أو لم يرضوا ، وهو عربي لأنه كتب للأنسانية تراثه في اللغة ، كتبه الأساسيـة كتبت في اللغة العربية ، طبه وفلسفته وتلخيصه وشرحـه لارسطاطاليس وشرحه لفلسفة ارسطاطاليس ، كل هذا كتب باللغـة العربية ، فليكن أصله فارسياً أو تركياً .. هذا لا يعنيني مطلقاً ، وانما الذي يعنيني ما تركه يحصى في التراث العربي ، لا التراث الفارسي أو التراث التركي ، ان كان للترك تراث !

ما تمتاز به الثقافة العربية والأدب العربي ، ان هذه الثقافة وهـذا الأدب كما نعرفها الآن . وكما تعدهما الآن من التراث العربي الذي لا يقبل شكاً ولا جدلاً ، وليس كله من انتاج العرب ولكنه انتاج أجناس

وأمم مختلفة اتقنت اللغة العربية ، وشاركت فيها وتفوقت أحياناً على العرب أنفسهم ، فهي حضارة انسانية قبل كل شيء ، ثقافتنا انسانية قبل كل شيء ، هي عربية لأنها كتبت باللغة العربية ،وهي انسانية لأنها حفظت التراث الأنساني القديم . ونقلته الى انسانية كانت تجهله وأتاحت لهذه الأنسانية في أوروبا ان تتحضر وأن تتثقف وأن تعيش الى الآن متحضرة متثقفة منتجة في الحضارة والثقافة ، متفوقة حتى على العرب أنفسهم تفوقاً كثيراً . وبرغم هذا كله فهذا الغرب الأوروبي والأميركي مدين بثقافته للأمة العربية أولاً وللأمة اليونانية بعد ذلك .

أكثر من هذا : هذه اللغة العربية حاولت أن تفرض نفسها لا بسلطان السياسة – كما قلت – بل بسلطان الانسانية ،فأتيح لها النجح ، ولم تجد إلا وطناً واحداً هو وطن الفرس الذي حاول مقاومتها ونجح في هذه المقاومة بعد ثلاثة قرون او أكثر من ثلاثة قرون ، ولكن اثناء هذه القرون الثلاثة الاولى كان يتخذ العربية لغة حديث ولغة أدب وانتاج علم ، فلما اتيح له النجح فيما بعد ، وأصبحت اللغة الفارسية الحديثة لغة الحديث اليومي ، ولغة التعامل في ذلك الوطن . لم يستطع الفرس ان يخلصوا من تأثير اللغة العربية ، ولن يخلصوا منه إلى آخر الدهر ، وذلك لسببين بسيطين : لأن علومهم ظلت تكتب باللغة العربية إلى عصور متأخرة جداً ، إلى القرن التاسع للهجرة ، ظل الفرس إذا أرادوا أن يكتبوا في العلم كتبوا في اللغة العربية ، ولأن الشعر الفارسي الذي هو مكتوب باللغة الفارسية إنما يقاس ويوزن على أوزان الشعر العربي ، فالشعر الفارسي أوزانه كلها هي نفس الأوزان العربية ، أخذوها عن العرب ، والشاهنامة التي هي صورة لمجد الفرس القدماء والتي هي آية من آيات الأدب القصصي الفارسي كلها – على طولها – تجري على وزن بحر عربي من بحور الشعر العربي وهو البحر المتقارب .

كل هذا ان دل على شيء إنما يدل على أن أدبنا العربي في عصوره

الاولى قد كان عالمياً بأوسع معاني هذه الكلمة وأقواها ، كان عالمياً لأنه شمل العالم المتحضر كله في ذلك الوقت ، وكان عالميـاً لأنه فرض نفسه على امم لم تكن تعرفه وكانت لها لغاتها وآدابها فنسيت لغاتها وآدابها وشغفت باللغة العربية وآدابها ، وكان عالمياً بنوع خاص لأنه حمل امماً كثيرة على ان تشترك في تهيئة هذه الحضارة الانسانية التي تعيش الانسانية عليها الآن ، فمن الحمق ومن التعصب الممقوت ان ينكر أحد ان العلم الذي ترجمه العرب عن الأمم القديمة وأضافوا اليه ما أضافوا هو بعينه الذي نقل إلى اوروبا اثناء القرون الوسطى وأتاح لأوروبا الغربية ان تنهض نهضتها الاولى ، وأتاح لها ان تتحضر شيئاً فشيئاً ، حتى كان فتـح القسطنطينية فاتصلت اوروبا بالعلوم اليونانية والثقافـة اليونانية اتصالاً مباشراً بها بفضل العرب ، واتصالاً غير مباشر ، حتى بعد اتصال الامم الاوربية بالحضارات القديمة اتصالاً مباشراً لا تزال إلى الآن متأثرة بهذه الحضارة العربية ومتأثرة بكثير جداً من العلم العربي القديم ، ولا سيما في علوم الرياضة وفي بعض فنون الجغرافيا .

محاولة الكيد للفصحى !

في ضجيج الصراع القائم بين دعاة الفصحى ودعاة اللغات « الشعبية » في بعض البلاد العربية ، تضيع حقيقة كبيرة ودقيقة معاً ، هي ان هذا الصراع قديم قدم اللغة نفسها :

ففي العصر الجاهلي ، كان السراة يقومون برحلاتهم التجارية فيجدون فرصاً للاختلاط والتعارف والمعرفة . وفي هذه الرحـلات شاهدوا أجواء أكثر حضارة واصطدموا بحيوات جديـدة ولم يجدوا في كلمات البادية ادوات كافية للتعبير عن هذه المعارف .

وسرت إلى اللغة الفاظ جديدة اعجمية ، واضطرت الجماهـير إلى احتضان هذه التعبيرات حين زحفت إلى الصحراء سلع جديدة وذكريات

جديدة .

وبتكوين الحواجز التي يحيا بها الذين مارسوا هذه التجارب ، بجانب البادية التي يعيش الناس بها حياة بدائية ضيقة ، ظهر الخلاف جلياً بين قدرات هؤلاء واولئك في التعبير ، وبدأت الفاظ الحواضر تجد طلاوة الحضارات المتاخمة ورقة العمل التجاري المحتاج إلى براعة العارض في اجتذاب العميل .

فأن كانت الألفاظ الأعجمية قد سرت في رفق وهوادة الى اللغة الفصحى في العصر الجاهلي فأنها زحفت اليها في عنف في عهد الفتوح الاسلامية ، ففي البلاد التي كانت تركع تحت سنابك الخيول العربية المطهمة ، وسيوف الاسلام ، كانت اللغة العربية تطغي باستمرار على اللغات المحلية .

ولكن هذه اللغات كانت تترك في اللغة الغازية ما تتركه المعركة في ثياب المنتصر مع تمزيق وتشكيل وتلوين ..

وبالاختلاط بنظم جديدة وحضارات جديدة وقوانين جديدة في البلاد المحكومة المهزومة أثبتت الفصحى ان لها معدة قوية تستطيع ان تهضم هذه الحضارات والثقافات .

ودعاة اللغة الشعبية يسلطون الضوء على اللغة اللاتينية التي كانت سائدة في انكلترا وفرنسا وايطاليا ، وكيف عاشت اللغات الشعبية على جثة الشهيدة : « اللاتينية » ، وان ما حدث في اوروبا في تجربة اللاتينية « يجب » في رأيهم ان يحدث مثله في بلادنا !

ولكن ما يصدق هناك لا يصدق هنا . ليس لأن الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا ، كما رأى « كبلنج » وردد له الاستاذ « العقاد » .. بل لاختلاف الظروف التاريخية والاجتماعية التي لازمت كلاً منهما .

ففي العصور الوسطى كانت اللاتينية تعيش في أحضان الكنيسة وتحت حمايتها ، بل كانت سلاحاً للكنيسة في تدعيم سلطتها الزمنية . وكانت

صعوبة الاتصال ، وعدم تقدم وسائل النشر يساعدان على تقوقع هذه اللغة ، فلم يكن شاذاً ان تتداعى تحت ضربات أعداء الكنيسة الذين كانوا يقفون مع التاريخ ... لقد كان سهلاً ان تختنق اللاتينية وهي مختبئة في زاوية من زوايا كنيسة !.. ان الجماهير هي « الاوكسجين » للغات ، وحتماً ستختنق اللغة إذا لم تتنفس بين جماهيرها !

اما اللغة العربية فلم تسر بين الناس ، ولم تتغلغل إلى نفوسهم وقلوبهم على شكل «مسجد» ، ولم يحتضنها « المشايخ » ورجال الدين وحدهم ، بل ان الفترة التي عاشتها بعد بدء التطور الصناعي وعصر النهضة ، جعلت لها شرايين كثيرة تنتشر من خلالها الى الناس من خلال المطبعة فالصحافة ، وفي المدارس الالزامية و « الكتاتيب » في القرى ، كانت اللغة تعيش على نطاق أوسع ثم في اناشيد و « اذكار » اهل الطرق الصوفية ومراسيمهم ، لقد كان التاريخ في صالح اللغة العربية ، فلا عجب ان تضمر الكلمات المتعملقة ، وتموت الكلمات المتخمة التي لا تلاحق ركب الجماهير .

ان الذي نعرفه ونؤكده ان مأتى هذا الكيد الكبير للفصحى ، والحقد اللئيم عليها ، وبالتالي محاولة « استبدالها » لفظاً وكتابة ورسماً بالحرف اللاتيني .. هذا الكيد للفصحى وهذا الحقد اللئيم عليها مأتاه ، انها اداة « وحدة » لسان مبين بين العرب في مختلف اقطارهم وديارهم حين تعز الوحدة السياسية . مهما اختلفت لهجاتهم المحلية ، وانها أفعل اداة ثقافية لابقاء الشعور العربي وحدة متماسكة في مختلف الاقطار والأمصار .. وانه لا سبيل الى تفكيك هذا الشعور إلا بعد كسر ذلك الطوق المنيع الذي هو الفصحى .. وما كيد الكافرين الا في تباب !

إن حدود الوطن العربي الكبير ليست ارضاً ولا بحاراً ، وانما هي هذه اللغة العبقرية التي جعلت من موريتانيا « مركز انطلاق » لها إلى غرب افريقيا وشمالها حتى في أزمنة العبودية والعسر ، فكيف في الأزمنة الحديثة التي هي أزمنة الحرية واليسر ؟

ولسوف يعلم الذين يمارون في أمرها مراءً خبيثاً أي مستقبل عظيم ينتظرها ، وأي فلك هم فيه يسبحون !

الفصحى .. واللهجات الاقليمية

الامم والشعوب المعروف تاريخها ، ذوات الحضارات والوحدات السياسية والقومية ، ما تمت وحدتها بالقرابة الدموية ، بل بالقرابة الصناعية من وحدة الاقليم ، والعادات ، والتاريخ ، والمصالح المشتركة . وأهم من هذا كله والعامل فيه وحدة اللغة .

هذا كان في الأمس الغابر البعيد ، وهو كائن الى اليوم . فليس في الامم أمة يجمعها الدم الواحد ، وانما هي جماعات جمعتها اللغة الواحدة .

فالاميركان ، ان هم الا مجموعة من شعوب الارض . والافرنسيون خليط من الغاليين والجرمان وغيرهما . والانكليز أنفسهم ،على اعتدادهم بنسبهم ، لا يخرجون عن ان يكونوا مزيجاً من شعوب كثيرة ، وان تكون لغتهم تجمع بين السكسونية واللاتينية . وماوكهم دمهم سكسوني وجرماني الى اليوم ، وسيكون سكسونياً وجرمانياً ويونانياً غداً . ونحن العرب على عنجهيتنا الجاهلية، وابائنا السابق ان نصهر الى غير عربي، وامتناع العرب ان يدينوا الهجين ولو انه سليمان بن عبد الملك : « نحن العرب فينا ايضاً العرب المستعربة وهم قوم تعلموا العربية واتخذوها لغة فصيرتهم عرباً » . وقديماً قال افصح من نطق بالضاد :[1] « ليست العربية لاحدكم بأب ولا أم . وانما هو اللسان . من تكلم العربية فهو عربي » .

واذا كان في الامم أمة خرجت عن هذا ، فلأسباب اقليمية او

---

١ – من قول النبي (ص) : أنا افصح من نطق بالضاد . بيد اني من قريش ، واسترضعت في بني سعد ، والمعلوم ان قريشاً أفصح العرب ، وكذلك بنو سعد.

تاريخية ليس هنا موضع تفصيلها .

***

عرف العرب قيمة اللغة ومكانتها ، فحرصوا على لغتهم ، وبالغوا في صيانتها — وتهذيبها ، حتى كان الغريب عنهم ، اذا هـو انتسب اليهم ، ودخل فيهم فاستعرب ، جرى على سننهم فسهر لياليه يتلمس العربية في مظانها مستفرغاً جهده ، مستنفداً وكده حتى يخرج وكأنه واحد من آحادهم : لغة وأدباً ، وبلاغة وفصاحة في شعره ونثره ،وفي اماليه وتآليفه . ذلك هو واقع الحال عند الموريتانيين والمغاربة في غرب افريقيا وشمالها .

بل هم جعلوا من أسواقهم التجارية . أسواقاً أدبيـــة ، كانت من أسباب نقاء اللغة وصفائها ، وتقريب مصطلحاتها وتهذيب ألفاظها . الى ان نزل كتاب الله ، فألقى اليه العرب بمقادهم والعربية بمقاليدهـــا . فكان دستورهم الاعظم ، يؤخذ عنه ويرجع اليه .

فلما ان انتشر العرب بالفتح ،وامتد سلطانهم إلى الشرق والغرب : في آسيا وافريقيا واوروبا ،وطال بهم الزمن ،ووقع لهم الاختلاط بمجاوريهم ، وكثر بينهما الازواج والاصهار ، وتعددت المعاملات من تجارية وزراعية وصناعية بينهم وبين جيرانهم ، كان من نتيجة ذلك وطبيعته ان تفسد اللغة ، وان يكون للعامة لغة سوقية لم تقف عندهم ، فتعدتهم مع الزمن إلى الخاصة .

يقول أبو عبيدة في الرقاشيين :

(وكان أبوهم خطيباً . وكذلك جدهم . وكانوا خطباء الأكاسرة . فلما سبوا وولد لهم الاولاد في بلاد الاسلام ، وفي جزيرة العرب نزعهم ذلك العرق ، فقاموا في أهل هذه اللغة مقامهم في أهل تلك اللغة . فيهم شعر وخطب . وما زالوا كذلك حتى اصهر الغرباء اليهم ، ففسد ذلك

العرق ودخله الخـَوَر) .

وزاد الامر بلاء واللغة فساداً ، ضعف الدولة العربية ، ثم صيرورة الحكم إلى غير العرب . فكان من الملوك والأمراء من لا يعرفون من العربية كثيراً ولا قليلاً . فرغب الناس عن العربية وعلومها لكساد سوقها ، وعاد اللغوي والأديب لا يجد في العلم رزقه ، بعد ان كان الأدب واللغة سبباً من اسباب المكاسب والجاه والمناصب .

وكان الخطأ واللحن في الصدر الاول وما بعده ، نقيصة وضلالاً . قال صلى الله عليه وسلم لنفر لحن صاحبهم : (ارشدوا أخاكم فقد ضلّ) ! وقال المازني : سهرت عند المأمون فأجرى ذكر النساء فقال : (إذا تزوج الرجل امرأة لدينها وجمالها كان فيها سداد « بالفتح » من عوز) فقال المازني فقلت : نعم يا امير المؤمنين عن رسول الله : (إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيها سداد « بالكسر » من عوز) .

قال : وكان المأمون متكئاً فاستوى جالساً وقال : كيف قلت (سداد « بالكسر ») ؟ قلت نعم لأن السداد هنا لحن . قال أو تلحنني ؟قلت : انما لحن هشيم — وكان لحاناً — فتبع أمير المؤمنين لفظه .

وكتب رجل للصاحب بن عباد يطلب اليه عملاً . وختم كتابه بقوله : فأذا رأى أشغاله (يريد نفسه) في بعض أشغاله (يريد اشغال الصاحب) فعل انشاء الله . وكأنه أراد من هذا التجانس بين اشغاله وأشغال اظهار بيانه تقرباً من الصاحب وهو هو بأدبه وفضله .

غير ان الأمر وقع خلاف ما أراد ، إذ وقّع له الصاحب : من يقول اشغالي لا يصلح لأشغالي !

ويروى عن سيف الدولة بن حمدان : انه ما قال لقائم : اجلس . إلى كثير من أمثال ذلك مما يروى عن الخلفاء والأمراء والوزراء من المبالغة في سلامة اللغة ، والرغبة في تخير الراجح السليم من الألفاظ ،

ونبذ المرجوح السقيم ، والابتعاد عن معرة الخطأ واللحن .

وتراخى الأمر حتى ما كان نقيصة وضلالاً ، صار فضيلة وجمالاً . ولزم الخطأ المأمور والامير والصغير والكبير . فقد أمر أحد الوزراء ببناء يوضع عليه اسم الامير . فكتب الوكيل (أمر ببناء هذا المكان ابو فلان) وكأن الوزير كان يرى ان (ابي) اجلّ قدراً وأرفع شأناً للتعبير . فلام الوكيل ان استعمل (ابو) بدلاً من (ابي) فاعتذر له الوكيل بأن الاعراب اقتضى الرفع .. فـ (ابو) هنا فاعل . فغضب الوزير ، وقال: (ومتى رأيت الأمير فاعلاً يحمل الطين والحجارة) ..؟

يقول ابن حزم :

(ان اللغة يسقط أكثرها وتبطل بسقوط دولة اهلها، ودخول غيرهم عليهم في أماكنهم ، أو بنقلهم من ديارهم واختلاطهم بغيرهم . فأنما يفيد لغة الامة وعلومها واخبارها قوة دولتها ونشاط أهلها . وأما من تلفت دولته ، وغلب عليهم عدوهم واستقلوا بالخوف والحاجة والذل ، وخدمة أعدائهم، فضمون منهم موت الخاطر . ولربما كان ذلك لشتات لغتهم ، ونسيان انسابهم وبيود علومهم . هذا موجود بالمشاهدة، ومعلوم بالعقل ضرورة) .

فتلف الدول العربية ، واختلاط العرب بغيرهم ، وغلبة العجم عليهم أفسد العربية . ولولا كتاب الله لذهب بها جملة !

هذا الفساد جعل من اللغة العربية الواحدة لغتين اثنتين : لغة فصحى، ولغة عامية ، وهي مشكلة لغوية وقومية ليس عند غيرنا من الامم مثلها .

نعم قد يكون عند بعض الاقوام الفاظ وتعابير تستعملها العامة ، وأحياناً بعض الخاصة ، في احاديثها الخاصة وفي بعض شؤونها البيتية اليومية تختلف عن لغة الكتابة وقد لا تدخل فيها . ولكنها ألفاظ وتعابير محدودة لا تبلغ ان تكون لغة مستقلة ، كما يكاد يكون الحال عندنا . وليس من شك انها مشكلة من أعقد المشاكل ان يكون للأمة الواحدة

لغتان أصليتان .

هذه المشكلة فتحت علينا باباً للبحث في اختيار احدى هاتين اللغتين ، واعتمادها اعتماداً عاماً شاملاً للكتابة والخطاب .

ولعل المستشرقين كانوا أول من فتح هـذا الباب ، وعالج هـذا الموضوع . وكان أكثرهم أو كلهم ينزعون الى اللغة العامية . وقد يكون الدكتور (فولارس) الالماني من السابقين أو كان السابق الذي تناول هذا البحث . فألف كتاباً بالالمانية جمع فيه — على زعمه — قواعد اللغة العامية المصرية . كان ذلك لسبعين سنـة مضت . ثم تابعته طائفة من اخوانهم المستشرقين منهم — في رأيهم — عن رغبة في توحيد اللغة العربية وتسهيلها ومنهم — عن سوء نية — خدمة للاستعمار بتمزيق وحدة الامة العربية اللغوية ، تمكيناً لتمزيق وحدتها السياسية والقومية .

ولم ينحصر هذا البحث في المستشرقين . فعالجته جماعـة من العرب كانوا لساناً واحداً في جانب اللغة الفصحى وتأييدها . الا نفراً قليـلاً جداً ذهبت به شعوبيته وعداؤه للعرب وللعربية الى الانتصار للعامية .

والذين انتصروا للعامية ولا سيما من المستشرقين ، كتبوا عنها والفوا لها ، بلغاتهم لا بها ، عجزاً منهم ان يؤدوا اغراضهم بها ، لاستحالة القراءة والكتابة بالعامية الا بالجهد والمشقة ..

والمقارنة بين اللغتين : الفصحى والعامية مقارنة مع الفارق ، لا تحتاج الى دليل إلا اذا احتاج النهار الى دليل .. فصلاح اللغة الفصحى شامل لكل غرض من اغراض الحياة ، وللتعبير عـن كل جليل ودقيق من المعاني الجليلة الشريفة الرفيعة ، الى الحاجات العادية السوقية الوضيعة .

انها لغة العلم الجامعي والثقافة العالية والادب الاكاديمي عنـد العلماء والمثقفين والادباء ، كما انها « جامعة » الشمل الفكري الموحّد عنـد العرب في مختلف اقطارهم وديارهم ما في ذلك شك .

هذا على حين ان اللغة العامية عاجزة عن تأدية معنى يخرج عن المعاني

الساذجة العادية المتعارفة . لذلك كان صوت القائلين باللغة العامية ينقطع بين حين وحين ، ويخرج ضعيفاً خافتاً ثم تذهب به الريح . وتبقى هذه اللغة الفصحى مرفوعة الرأس ثابتة البنيان ! والفصحى التي لم تؤثر فيها صروف الزمان ولا تحكم الاعاجم لا تقوى عليها محاولات استعمارية هزيلة وحجج واهية . ولا سيما بعد ان زادت قدمها رسوخاً بانتشار العلم والصحافة والاذاعة ، وبقيام دولة عربية لها مجالسها النيابية وقوانينها وبلاغاتها ومنشوراتها ؛ ولكنها لا تصلح لها الا اللغة العربية الصحيحة الفصيحة. نعم . ان الفارق لعظيم بين اللغتين من حيث الصلاح والقابلية، بما يجعل المفاضلة بينهما مضيعة للوقت ! غير انه بحث اريد ، فلا بد لنا من ان نلم به على عجل متسائلين :

اذا شئنا ان نعدل عن الفصحى الى العامية ، انجعل هذه العامية عامة لجميع الاقطار العربية ، ام نجعل لكل قطر لغته ؟

فاذا كانت الاولى ، وأردنا ان نوحد هذه اللغات العامية فنجعلها لغة واحدة ، افيقدر هؤلاء الهازلون مبلغ الصعوبة التي تواجه هذا العمل العسير بل المستحيل ؟ أليس رفع العامية الى مستوى الفصحى أيسر وأهون سبيلاً ؟

فأي قطر ينزل عن عاميته لعامية في قطر آخر لم يألفها ولم يفهمها؟ ان مثل اللغة العامية في قطر ، بالنسبة إلى اللغات العامية في الأقطار الاخرى ، مثل الطفل في لغته ، يسمع الكلمة من أبويه فيعيدها محرفة.. فأذا هو كبر كان بين ان يمضي على لغته المحرفة ، او يعدل إلى لغة بيئته . ولما كان يصعب عليه ان يفهم الآخرين لغته ، وان يتفاهم واياهم بها ، كان مستحيلاً عليه ان يفرض عليهم لغته ، كان لا بد له من ان يستعمل لغة قومه وبيئته .

هذا مثلنا مع اللغة العامية . لا نملك ان نفرض عامية قطر على عامية قطر آخر ولا سبيل إلى التفاهم بها ، فعلينا ان نستعمل الغلة الفصحى :

اللغة التي يرضى عنها جميع العرب ، ويفهمونها في جميع اقطارهم . وفي نصوص هذا الكتاب – الموريتانية – ما يقطع باليقين على صحة ما نقول وبطلان ما يقول الكائدون !

ثم ما عسى ان نفعل بهذا التراث التليد الجليل الضخم الجبار الذي نعيش فيه وفيه منذ الفي سنة وتزيد ، أنطرحه كله غير مأسوف عليه وهو مفخرتنا الخالدة ، ومأثرتنا المعجبة ، وتاريخنا الصادق الناطق ، مملوء الصفحات بالعلم الثاقب والأدب الرائع البديع ، من شعر ونثر ؟ أفنترك هذا كله من اجل لغة عامية سقيمة ، ركيكة لا تاريخ لها ولا آداب فيها ؟

وشيء نعيده : وهو ان هذه اللغة العامية لا تصلح للكتابة، وإذا هي كتبت صعبت قراءتها وعز على المجموع فهمها . وعلى العكس ، ما يكتب باللغة الفصيحة تفهمه حتى العامة التي لم تؤت نصيباً من العلم ، ولا حظاً من الدراسة . تفهمه كما تفهم ما تنشره الجرائد ، وتذيعه الاذاعات ، وما يلقى من خطب ، وما يصدر من منشورات ، وهي لغة عامة لكل قطر يفهمها فهماً صحيحاً مستقيماً .

وهذا كتاب الله ، على قدمه ، وعلى علو اسلوبه ، ومحكم سبكه ، قلّ ما يخفى من الفاظه ومعانيه حتى على الطبقة العامية . فكيف يعدل عن الصحيح الراجح الذي يُفهم ، إلى السقيم المرجوح الذي لا يفهم ، فنبدل ما هو خير بما هو ادنى ؟

ان تعميم اللغة الفصحى ليس بالامر الصعب ، ولا هو بالامر يعوزه الامكان على قدر ما تعوزه الارادة . ولا بد لنا قبل البحث بالوسائل الممكنة لتعميم العربية الصحيحة من ان نمهد لكلامنا بهذه الكلمة : ليست مسافة الخلف بين اللغة الفصحى واللغة العامية بالمسافة التي بعدت شقتها، بحيث لا يمكن الجمع بينهما ورجع وحدتهما . فقد ندر ان تستعمل العامة كلمة عامية – إذا استثنينا الالفاظ الأجنبية الدخيلة – الا ولهذه الكلمة

أصل في اللغة الفصحى . أبعدها عن أصلها هذا ، خطأ في لفظها ، أو تصحيف أو تحريف في بنيتها . تقديم حرف على حرف أو بتأخيره عنه ، أو بنقل حرف إلى حرف آخر مخرجه أو لفظه قريب منه ، أو بزيادة حرف الزيادة في المعنى الاصلي ، أو بنحت كلمة من كلمات .

أما التحريف بالتقديم والتأخير وبالتبديل والتغيير، فالخطب فيه سهل . ترد الكلمة إلى أصلها والزيادة الخطأ لغير معنى تحذف . وتقر الزيادة بمعنى جديد يتصل بالمعنى الاصلي . وهي الطريقة التي جرى عليها العرب الأولون .

وتقر الالفاظ العربية الفصيحة التي تستعملها العامة مجازاً أو استعارة أو يحصل اشتقاق فيما لا بد منه من معنى جديد .

وكذلك اللفظ فيه لغتان : بناء أو ضبطاً ، اختارت العامة منهما اللفظة المرجوحة لخفتها في السمع والاستعمال .

أما الألفاظ الأجنبية ، فالمجامع اللغوية كفيلة بأن توجد لها مترادفاتها العربية ، وهو أمر ميسور في جملته حتى فيما يظن انه من أحدث المسميات التي اقتضتها المدنية الحاضرة .

لعل هذا مجمل الخلاف بين الفصحى والعامية من حيث اللفظ المفرد. أما من حيث الخطأ في تركيب الجمل فأن أمراً كانتشار العلم يصلحه :

وكلمة أخيرة هي أن اللغة تحتاج إلى مرجع يرجع اليه في ضبطها وتوحيد مصطلحاتها .

وقد كان هذا المرجع عندنا من قبل أهل البادية وأبناء قريش — قبل ان خالطوا وخولطوا ففسدت لغتهم . ثم كان القرآن ولا يزال .

والسلطة اللغوية اليوم عند الامم في يدي مجامعهم اللغوية . فلا بد لنا من ان نجري على ما جروا عليه . غير ان المجامع عندنا تعددت وليس بينها ارتباط وثيق يساعد على وحدة العمل فوحدة اللغة . ودواء هذا وعلاجه في ان كون اكبر المجامع العلمية، الرأس الجامع لهذه المجامع ،

يكون المرجع والضابط غير ملون بلون اقليمي ولا مصطبغ بصبغة موضعية. ويكون الرئيس ونائب الرئيس في المجامع العلمية الاخرى عضوين طبيعيين في المجمع الآخر بنص قانوني غير محتاج الى ترشيح وانتخاب . هذا عدا عمن يجوز ان ينتخب انتخاباً الى المجمع الاعلى من مجامع الاقطار العربية الاخرى .

تتبادل المجامع اللغوية الآراء في اختيار الالفاظ وفي اقرارها ، وذلك بأن يبعث كل مجمع برأيه ومقترحاته الى المجمع الآخر . وهذا يعيدها اليه مقرونة بدراسته وملاحظته . فاذا اجتمع هذا كله عقد له المجلس الاعلى جلسة عامة للمذاكرة الاخيرة فما وقع عليه الاجماع او الاتفاق ، عُدّ في الكلمات والمصطلحات المعجمية . ويكون الآخذ بها صواباً ، والخروج عنها خطأ . ولا يقولن قائل إنها طريقة طويلة ، فأطول منها ان تبقى الامور على حالتها الحاضرة . وفي المجامع اللغوية الغربية من الالفاظ ما يبقي عشرات السنين قبل ان يبت فيه برفض أو قبول !

الإسلام فتح ثقافيّ وسياسيّ

الاسلام في الهند

انتشر الاسلام في آسيا ، كما انتشر في أفريقيا . فلقد قدر للاسلام ان يفد إلى الهند بوصفه قوة دينيـــة وسياسية في آن معاً ، وان يخلق قضايا ومشكلات جديدة ، ولكن من الخير ان نتذكر انه لم يحدث تغيراً كبيراً في مسرح الحياة الهندية الا بعد فترة طويلة . لقد انقضت ستمئة سنة تقريباً قبل ان يصل الى قلب الهند ، وحين تقدم لمصاحبـــة الفتح السياسي كان قد تغير كثيراً ، وكان حملة لوائه غير حملة لوائه السابقين. ان العرب الذين استطاعوا في سورة رائعة من الحماسة وفي طاقة ديناميكية ، ان ينتشروا في الارض وأن يفتحوا البلاد من اسبانيا الى حدود منغوليا حاملين اليها ثقافة مشرقة زاهية — اقول ان العرب لم يفدوا الى الهنـــد كفاتحين مغتصبين ، بل حملة رسالة انسانية جديدة يبتغون نشرها .. لقد وقفوا عند حدود الهند الشمالية الغربية وظلوا هناك .

ان بعض التواريخ قد تقرب هذه الوقائع الى اذهاننا ؛ فنحن نستطيع ان نعتبر ان الاسلام بدأ مع الهجرة ، اي مغادرة النبي محمد لبلده مكة ، الى المدينة ، عام ٦٢٢ للميلاد . وتوفي محمد بعد عشر سنوات . واتفق

بعض الوقت في توطيد دعائم الاسلام في شبه الجزيرة العربية، ثم حدثت هذه السلسلة المذهلة من الاحداث التي حملت العرب ، وفي يدهم لواء الاسلام ، عبر آسيا الوسطى في الشرق ، وعبر كامل الشمال الافريقي الى اسبانيا وفرنسا في الغرب . وفي القرن السابع الميلادي وأوائل القرن الثامن كانوا قد بسطوا سلطانهم على العراق ، وايران ، وآسيا الوسطى. وفي عام ٧١٢ بلغوا واحتلوا السند ، في شمالي غربي الهند ، ووقفوا عند ذلك الحد . ان صحراء ضخمة لتفصل هذه المنطقـة عن اجزاء الهند الأكثر خصباً ، وفي الغرب عبر العرب المضيق القائم ما بين افريقيا وأوروبا (الذي عرف منـذ ذلك الحين بمضيق جبل طارق) ودخلوا اسبانيا في عام ٧١١ . لقد احتلوا اسبانيا بكاملها وعبروا جبال البرانس (البيرينيه) إلى فرنسا . وفي عام ٧٣٢ هزمهم شارل مارتل عند « تور » في فرنسا ووضع حداً لتقدمهم .

هذه الانتصارات التي أحرزها شعب كان موطنه الاول صحارى شبه الجزيرة العربية ، شعب لم يكن قد لعب من قبـل دوراً مرموقاً في التاريخ ، هي في الواقع انتصارات رائعة إلى أبعد حدود الروعة ! . ولا ريب في انهم استمدوا طاقتهم الهائلة من شخصية رسولهم الديناميكية والثورية ومن رسالته المنادية بالاخاء الانساني . ومع ذلك فأن من الخطأ القول ان الحضارة العربية انبثقت فجأة من العدم ، وتكونت بعد ظهور الاسلام . لقد نزع العلماء المسلمون دائماً إلى التقليل من أهميـة ماضي العرب قبل الاسلام ، وإلى ان يطلقوا على ذلك العهد اسم الجاهلية ، أي العصر المظلم، عصر الجهل والخرافة . في حين ان الحضارة العربية ، مثل غيرها من الحضارات ، كان لها ماض طويل ، مرتبط ارتباطاً وثيقاً بتطور العرق السامي: (الفينيقيين والكريتيين والكلدانيين والعبرانيين). وإنما نشأت الحضارة العربية ، قبل الاسم ، في اليمن خاصة . ولقد كانت العربية لغة راقية في عهد الرسول ، وكانت تشوبها بعض الكلمات

الفارسية بل بعض الكلمات الهندية ، وكالفينيقيين ، انطلق العـرب في عرض البحر سعياً وراء التجارة . لقد كان ثمة مستعمرة عربية في جنوبي الصين ، قرب كانتون ، في عهد ما قبل الاسلام .

وايا ما كان ، فقـد نفخ نبي الاسلام الحيوية في نفوس أفراد أمته ، وملأهم بالايمان والحماسة . لقد اعتبروا انفسهم حملة لواء رسالة جديدة ، فبعث ذلك فيهم الحماسة والثقة بالنفس اللتين تفعمان في بعض الاحيان شعباً بكامله وتغيران وجـه التاريخ . ولا ريب ان نجاح العرب كان راجعاً ، أيضاً ، الى تفسخ الدول الاخرى في آسيا الغربية ، والدول الوسطى في شمال افريقيا . فقد كانت بلدان شمال افريقيا ممزقة بالخلافات الناشبة بين الفرق المسيحية المتنازعة . وكانت المسيحية المعروفة هناك في ذلك الوقت ضيقة وغير متسامحة ، وكانت المغايرة بين هذا وبين تسامح العرب المسلمين برسالتهم القائلة بالاخاء البشري ، أمراً ملحوظاً . وكان هذا هو السبب الذي حدا بشعوب برمتها ، شعوب ملت المنازعات المسيحية ، الى الانتقال الى صفهم .

مؤثراتنا على الهند ..

ان الثقافة التي حملها العرب الى بلدان قصية كانت هي نفسها دائمة التغير والتطور ، لقد حملت طابعاً قوياً من افكار الاسلام الجديـدة ، ومع ذلك فمن غير الصواب ان ندعوها حضارة اسلامية . فيوم كانت عاصمة العرب دمشق تخلوا سريعـاً عن عادات عيشهم البسيطة وطوروا عادات وثقافة اكثر تعقداً وترفاً . وتلك الفترة يمكن ان ندعوها فترة « الحضارة العربية — السورية » . لقد وفدت المؤثرات البيزنطية على العرب ، ولكنهم ما ان انتقلوا إلى بغداد حتى تأثروا أعظم ما يكون التأثير بتقاليد ايران القديمة ، فطوروا هناك « الحضارة العربية — الفارسية »

التي هيمنت على جميع المناطق الواسعة التي حكموها . وهذا الاتصال المستمر أدى الى تعريف الهنود بالدين الجديد ، الاسلام . ولقد أقبلت جماعات المسلمين الى الهند فبشرت بالدين الجديد ولقيت ترحيباً وبنت المساجد ، ولم يعترض احد على ذلك ، لا الحكومة ولا الشعب ، ولم تنشأ هناك أية منازعات دينية . فقد كان من تقاليد الهند القديمة ان تتسامح مع جميع الاديان ومختلف ضروب العبادة . وهكذا أقبل الاسلام الى الهند ، بوصفه ديناً ، قبل بضعة قرون من مجيئه اليها كقوة سياسية .

وكانت عاصمة الامبراطورية العربية في ظل الخلفاء الامويين في دمشق حيث ازدهرت مدنية رائعة . ولكن ما هي الا فترة حتى نقل الخلفاء العباسيون (عام ٧٥٠ تقريباً) العاصمة الى بغداد ، وعقبت ذلك منازعات داخلية ، وانفصلت اسبانيا عن الامبراطورية المركزية ، ولكنها ظلت دهراً طويلاً دولة عربية مستقلة ، وشيئاً بعد شيء ضعفت امبراطورية بغداد أيضاً وانقسمت الى دول عدة ، وأقبل السلاجقة الاتراك من آسيا الوسطى وأصبحوا هم سادة بغداد ، على الرغم من انهم ابقوا الخلفاء العوبة في ايديهم ، وقد ظهر السلطان محمود الغزنوي ، وهو تركي ، في افغانستان ، وكان محارباً عظيماً وقائداً لامعاً ، ولقد تجاهل الخلافة. ومع ذلك فقد ظلت بغداد هي المركز الثقافي للعالم العربي ، وحتى اسبانيا الاسلامية كانت تتطلع اليها التماساً للتوجيه . كانت اوروبا متخلفة آنذاك في الثقافة والعلم والفن وكانت اسبانيا العربية ، وعلى الخصوص قرطبة ، هي التي أبقت مشعل العلم والفنون متقداً طوال عصور اوروبا المظلمة ، ولقد اخترق ضياؤه الظلمات الاوروبية الداجية ..

وبدأت الحروب الصليبية عام ١٠٩٥ واستمرت أكثر من قرن ونصف . وهذه الحروب لم تمثل مجرد صراع بين دينين اثنين ، بين الصليب والهلال . يقول البروفوسور ج . م . تريفيليان ، المؤرخ

البارز : « ان الحروب الصليبية كانت هي المظهر العسكري والديني لتوق طاقات اوروبا المتجددة إلى الاندفاع نحو الشرق . والواقع ان الغنيمة التي عادت بها اوروبا من الحروب الصليبية لم تكن تحرير القبر المقدس تحريراً دائماً أو تحقيق وحدة النصرانية ، تحقيقاً كونياً **Potenial** ، هذه الوحدة التي كانت قصة الحروب الصليبية نفياً طويلاً لها . لقد رجعت من الشرق حاملة ، بدلاً من ذلك ، الفنون الرفيعة ، والصناعات اليدوية ، والترف ، والعلم ، والفضول الفكري ، يعني كل ما كان خليقاً ببطرس الناسك ان يزدريه أكثر ما يكون الازدراد ! » * .

وقبل انقضاء الحروب الصليبية كان شيء إعصاري طوفاني قد حدث في قلب آسيا : كان جنكيزخان قد بدأ زحفه المخرب نحو الغرب . لقد ولد في منغوليا ، عام ١١٥٥ ، واستهل هذا الزحف الكبير ، الذي حول آسيا الوسطى الى ركام من الانقاض المحترقة ، عام ١٢١٩ . انه لم يكن حدثاً او شاباً آنذاك . لقد حول مدن بخارى ، وسمرقند ، وهراة ، وبلخ ، وكل منها مدينة كبيرة يزيد عدد سكانها على مائة الف نسمة ، أقول لقد حولها الى رماد ! وواصل جنكيزخان زحفه حتى كييف في روسيا ، ثم رجع . ولقد نجت بغداد منه لأنها لم تكن واقعة في طريقه . ومات جنكيزخان عام ١٢٢٧ في الثانية والسبعين من عمره. وتابع خلفاؤه اندفاعهم الى اوروبا ، وفي عام ١٢٥٨ استولى هولاكو على بغداد وسحق عاصمة العلم والفن تلك ، حيث كانت قد اجتمعت طوال خمسمئة سنة ، كنوز من جميع أقطار العالم . وكانت هذه صدمة عنيفة للحضارة العربية — الفارسية في آسيا ، على الرغم من انها عمرت

---

* كتاب « من السجن إلى الرئاسة » لجواهر لال نهرو . ترجمة وطبع دار العلم للملايين — بيروت

في ظل المغول . لقد استمرت بصورة خاصة في أجزاء من شمالي افريقيا وبخاصة في اسبانيا . وفرت حشود من العلماء ، مع كتبهم ، من بغداد الى القاهرة واسبانيا ، فحدثت هناك نهضة في الادب والعلم . ولكن اسبانيا نفسها كانت في سبيلها الى الضياع من أيدي العرب ، وكانت قرطبة قد سقطت عام ١٢٣٦ . أما مملكة غرناطة فاستمرت قرنين آخرين ونصف القرن مركزاً زاهراً من مراكز الثقافة العربية . وفي عام ١٤٩٢ استولى فرديناند وايزابيلا على غرناطة نفسها ، وانتهت السيطرة العربية على اسبانيا . ومنذ ذلك الحين أصبحت القاهرة هي مركز الثقافة العربية الرئيسي ، على الرغم من انها خضعت للسيطرة التركية . كان الاتراك العثمانيون قد استولوا على القسطنطينية عام ١٤٥٣ ، مطلقين من هناك تلك القوى التي أنجبت النهضة الاوروبية .

عصر الازدهار الفكري والاتصال بالهند

بعد ان فتح العرب أجزاء واسعة من آسيا وافريقيا ، وجزءاً صغيراً من اوروبا ، وجهوا تفكيرهم الى الفتوح في ميادين اخرى . لقد أصبحوا تواقين الى فهم هذا العالم وطرائقه . والواقع ان الفضول الفكري ، والمغامرات في حقل التأمل العقلاني ، وروح الاستطلاع العلمي التي تكشف عنها العرب في القرنين الثامن والتاسع ، كل ذلك مدهش مذهل . وهكذا وجدنا الرحالة العرب — وهم من أعظم الرحالة في التاريخ — يتجهون الى مختلف البلدان القصية لكي يكتشفوا ماذا كانت الشعوب الاخرى تعمل وتفكر ، ولكي يدرسوا ويفهموا فلسفاتها وعلومها وأساليب عيشها ، ثم ليطوروا تفكيرهم الخاص .. وجيء بالعلماء وبالكتب مما وراء البحار الى بغداد ، وانشأ الخليفة المنصور (منتصف القرن الثامن)

دائرة للبحث والتعريب، حيث تمت ترجمة كثير من الكتب عن اليونانية، والسريانية ، ولغة المجوس ، واللاتينية ، والسنسكريتيـة . وقصدت الأديرة القديمة في سوريا ، وآسيا الصغرى ، والشرق التماساً للمخطوطات وبحثاً عنها . وكانت المدارس الاسكندرانية القديمة قد اوصدت نزولاً عند رغبة الأساقفة المسيحيين ، وكان علماؤها قد اخرجوا من ديارهم ، فلجأ كثير من هؤلاء الى فارس وغيرها . ولقد وجدوا الآن ترحيبـاً وملاذاً آمناً في بغداد ، فحملوا معهم اليها الفلسفة الاغريقية ، والعـلم الاغريقي ، والرياضيات الاغريقيـة ـ افلاطون وارسطو وبطليموس واقليدوس ـ وكان ثمة علماء نساطرة ويهود ، وأطباء هنود ، وكان ثمة فلاسفة ورياضيون . واستمر ذلك كله وتطور خلال عهد هارون الرشيد والمأمون ، فأصبحت بغداد أعظم مركز فكري في العالم المتمدن .

لقد تمت مع الهند اتصالات كثيرة خلال هذه الفترة ، ولقد تعلم العرب كثيراً من الرياضيات الهندية ، وعلم الفلك والطب الهنديين . ومع ذلك فيبدو ان المبادرة في جميع هذه الانصالات كانت تنطلق من جانب العرب ، وعلى الرغم من ان العرب تعلموا كثيراً من الهند ، فأن الهنود لم يتعلموا كثيراً من العرب .. لقد ظل الهنود منعزلين ، مغلفين بضروب كبريائهم وغرورهم ، ملتزمين أصدافهم جهد الطاقة . وقد كان هذا أمراً يدعو الى أعظم الأسف ، لأن اختمار بغداد الفكري وحركة النهضة العربية كان خليقاً بهما ان يحركا العقل الهندي ويستثيراه ..!

وكان لأسرة برمك القوية فضل كبير في تشجيع دراسة العلم الهندي في بغداد . ولعل هذه الاسرة كانت بوذية بادىء الامـر ثم اعتنقت الاسلام . وخلال مرض اصيب به هارون الرشيد استدعى لمعالجته من الهند طبيب يدعى « ماناك » . وأقبل ماناك على بغداد واستقر فيها ، وعين رئيساً لمستشفى ضخم هناك . ويشير الكتاب العرب الى ستة أطباء هنود آخرين عاشوا ، الى جانب ماناك ، في بغداد . وفي علم الفلك

أضاف العرب اضافات جديدة لم تكن معروفة عند الهنود وعلماء الاسكندرية معاً ، وبرز عندهم اسمان ساطعان : الخوارزمي ، وهو رياضي وعالم فلك من أهل القرن التاسع ، والشاعر العالم بالفلك عمر الخيام من أهل القرن الثاني عشر . وفي الطب لمع نجم الاطباء والجراحين العرب في آسيا واوروبا . وأعظمهم شهرة هو ابن سينا الذي دعي أمير الأطباء . وقد توفي عام ١٠٣٧ . ومن كبار المفكرين والفلاسفة العرب ابو نصر الفارابي .

وفي بغداد ، نشأ صراع فكري عنيف بين الايمان والعقل ، وامتد منها الى جميع ارجاء العالم العربي حتى وصل الى اسبانيا . لقد نوقشت طبيعة الله ، ونص على انه لا يمكن ان تكون له أي من الصفات التي تضفى عليه عادة . ذلك ان تلك الصفات كانت بشرية .. ولقد ذهبوا إلى حد الزعم بأن قولك ان الله « خيّر او عادل » لا يقل وثنية عن قولك « ان له لحية » ..!

وبعد أن دب الضعف الى خلافة بغداد ، وتعاظم النفوذ التركي ضعفت النزعة العقلية ، واضمحلت روح البحث والاستطلاع . بيد انها استمرت في اسبانيا الاسلامية ، ولقد ذهب واحد من أشهر الفلاسفة العرب في اسبانيا الى حدود اللادين .. ذلك هو الفيلسوف ابن رشد الذي عاش في القرن الثاني عشر . ولقد لاقى ابن رشد اضطهاداً كثيراً من أجل آرائه الفلسفية . ولقد دافع عن المرأة دفاعاً حاراً وطالب بأن تتاح لها الفرصة لكي تلعب دوراً في النشاط العام مؤكداً انها قادرة على النجاح في هذا الحقل ، ولقد اقترح ايضاً ان يصفى المصابون بأمراض عضالة بوصفهم عبئاً على المجتمع .. وكانت اسبانيا آنذاك تتقدم مراكز العلم الاوروبية الاخرى بمراحل ، وكان علماء قرطبة العرب واليهود موضع التقدير العظيم في باريس وغيرها . وواضح ان العرب لم يكونوا يحترمون الاوروبيين كثيراً . فقد وصف كاتب عربي يدعى سعيد ، من ابناء

طليطلة ، الاوروبيين العائشين شمالي جبال البرانس على هـذا النحو : « انهم اصحاب مزاج بارد ، وهم لا يبلغون مبلغ النضج أبداً .. ان لهم اجساداً ضخمة وبشرة بيضاء ، ولكنهم خِلوٌ من البديهة الحاضرة، والذكاء الثاقب ..! » .

«عالمية» أدبنا العربي

هناك مشكلات اثيرت وما زالت تثار حول هـذا الأدب العربي القديم الذي نقول بأنـه ادب عالمي بأوسع معاني هذه الكلمـة . يقول بعض الاوروبيين ان الادب العربي ساذج تنقصه اشياء كثيرة مما تمتاز به الآداب الغربية ، ونصدقهم نحن أو يصدقهم منـا كثير في هذا القول . فيقولون ان الادب العربي خلا مثلاً من الادب التمثيلي وليس في الادب العربي القديم تمثيل وهذا صحيح لا شك فيه ، ولكننا نعرف ان الادب اللاتيني مثلاً لم يكن فيه تمثيل قبل ان يعرف التمثيل اليوناني ، فنقل الى اللغة اللاتينية وقلده الرومان وأنشأوا تمثيلهم ، واللغات الاوروبية الحديثة لم تعرف التمثيل الا عندمـا اتصلت بالتمثيل اليوناني فنقلته وزادت عليه . الأمة العربية لم تعرف التمثيل لسبب بسيط هو انها لم تكن امة يونانية ، ثم لم تكن لها هذه العبادات وهذه الديانات الوثنية القديمة التي للأمة اليونانية ، والتي كانت تقتضيها انواعاً من العبادة منها العبـادة بالتمثيل . والأمة العربية لم تترجم التمثيل اليوناني لسبب بسيط هو ان التمثيل اليوناني بالوقت الذي كانت الامة العربية تترجم فيه كان مقبوراً في الأديرة وفي الكنائس وفي الكتب . وكان محرماً ان يُمثل ، ومحرماً ان يقرأ لأن الديانة المسيحية كانت تحرمه تحريماً قاطعاً

وتراه من آثار الوثنية ، والأمة العربية لم تعرف الالياذة والاوذيسة لسبب بسيط ، لأن الالياذة والاوذيسة لم تكونا معروفتين ولم تكونا منشورتين بل كانتا معدودتين من اعمال الوثنية ، فكانت المسيحية تحرمها ولم يكن النظر فيهما مباحاً لأحد من الناس .

الأدب القصصي ليس في اللغة العربيـــة كما يقال ، هذا أيضاً من الاخطاء الكثيرة الشائعة ، والذين يقرأون شعرنا القديم ، ويقرأون اخبار الحروب وايام الناس وايام العرب ، ويقرأون النقائض بين جرير والفرزدق والأخطل ، يعرفون ان الادب العربي لم يخل مطلقاً من قصص الابطال والحروب وما الى ذلك من الاشياء التي تصورها الالياذة ، ويصورهـــا الادب القصصي اليوناني .

خطأ آخر يقال : وهو ان ادبنا العربي ليس كالأدب الاوروبي الحديث ، لا يشبه الادب الفرنسي والانكليزي ، وليس فيه مثل هذه الأشياء الكثيرة التي توجد في هذه الآداب الحديثة ، فهذا بالقياس الى أدبنا القديم هـــو الظلم كل الظلم . لأن القديم عاش في عصور مضت عليهـــا قرون طوال وليس من المعقول ان تكلف أدباً قديماً ان يكون مجارياً ومشبهاً ومطابقاً لمقتضيات العصر الحديث الذي نعيش فيه لأننا لا نملك ان نقدم دورة الزمن عن ميقاتها . ادبنـــا القديم اذن أدب عالمي بأوسع معاني هذه الكلمة .

قلت ان الادب العالمي الأول في العصور القديمة كان في اليونان ويليه الادب العربي ، ثم يأتي بعده الأدب الروماني . يقال ان ادبنا العالمي القديم تأثر بكل هذه الآداب . وهذا صحيح لا شك فيه ، لأن اخص ما تمتاز به الادب العربي واخص ما تمتاز به اللغة العالمية هو انها تأخذ كما تعطي ، ويجب ان تكون بعرف الثقافات الأجنبية مفتوحة على مصاريعها لكل لغة تريد ان تكون لغة قوية عالمية بهذا المعنى الذي قدمته . فاللغـــة العربية قد اخذت ثقافـــة اليونان وحكمة الفرس والهند ، وأخذت في

المغرب ثقافة اليونان ، هذا كله حق وهو دليل على قوتها ، ودليل على استعدادها للبقاء ، ودليل على استعدادها لأن تكون لغة حضارة انسانية عالمية . اما أدبنا الحديث ، فهل هو عالمي بالمعنى الذي قدمته الآن ؟ أم هو أدب محلي !

من احمق الحمق ان يقال ان ادبنا العربي الحديث ادب محلي وليس ادباً عالميــاً ، اولاً لأنه أدب ينتجه ويفهمه ويتذوقه مقدار ضخم من أجيال الناس من الخليج العربي الى المحيط الاطلسي ، واذا كان هذا القسم الضخم من العالم متفقــاً في ذوقه وفي عقله وفي شعوره ، يتكلم لغة واحــدة ، ويكتب لغة واحدة ويفهم ادباً مهماً تختلف طبيعته او أشكاله ، فهو أدب عربي يتذوقه كل انسان في هذا الجزء من الارض ويتأثر به كل انسان؛ هذا الادب لا يمكن ان يكون أدباً محلياً . فقــد يكون أدباً محلياً لو ان ما ينتج منه في بلاد المشرق لا يستطيع اهل موريتانيا والمغرب ان يقرأوه وان يترجموه . فأما وما يكتب في بلاد المشرق نستطيع قراءته في جميع اقطار الارض العربية ،أما وان مثل هذا الكتاب يصدر في لبنان ، وبقلم لبناني ليقرأه الملايين من الافارقة الموريتانيين والمغاربة وغيرهم .. أما والأمر كذلك،فلا يمكن ان يُشك في ان ادبنا العربي الحديث هو أدب عالمي وبالمعنى الآن !

اعتقد ان ادبنا العربي الحديث قد اخذ ايضاً يصبح أدباً عالمياً بهذا المعنى ، وأخذ الاوروبيون والاميركيون يهتمون له ، ويحتفلون به ويكلفون أنفسهم جهوداً لا بأس بها في قراءته ، وفي ترجمته الى لغاتهم وكان الروسيون أسبق من الاوروبيين الى هــذا ، فهم اول من حاول ان يترجم مــا كتبه العرب في هذا القرن ثم تبعتهم أمم اخرى فترجمت بعض الآثار العربية الى لغات مختلفة : الى الانكليزية والفرنسية والالمانية والاسبانية وبرغم هذا فهناك أشياء تحول بين أدبنا الحديث وبــين هذه العالمية التي يطمع فيها كثير من الناس .

أدبنا أخطر جداً مما نعلم ومما نقدر ، ويكفي أن تطوفوا في اقطار

اوروبا وامير كا لتروا كتباً عربية لا تخطر لأحد منكم في بال تدرس في الجامعات الاوروبية ، يقرأها طلابها باللغة العربية ويكتبون عنها لأساتذتهم ويعلقون عليها ويتحدثون بها ، ويسعون بعد ذلك الى هذه البلاد العربية ليلقوا أصحابها وكتابها ويتحدثوا اليهم ، ثم يعودون وقد عرفوا عنهم ما استطاعوا ان يعرفوا . ما الذي اريد اذا كانت آثارنا الآن التي ينتجها شبابنا الآن تدرس في الجامعات وتعرض موضوعات للامتحانات العليا في بعض الجامعات الفرنسية ؟ أليس هذا دليلاً على ان أدبنا قد اخذ يتجاوز الحدود العربية الى بلاد اخرى غير هذه البلاد العربية ، والى بلاد كنا الى وقت قريب نرى انها بلاد القوة والبأس والسلطان ؟ ان ادبنا قد أخذ يترجم الى اللغات الاجنبية وأخذ يدرس بنصوصه في الجامعات الأجنبية على اختلافها في اوروبا وفي امير كا .

ان بعض نصوص هذا الكتاب نفسها المنقولة من الوسيط قد ترجمت الى أكثر من لغة . كما ان تاريخ المختار الحامد الموريتاني الذي ابتاعه المعهد العلمي الفرنسي في سان لويس من مؤلفه ، قد ترجم منه الى الفرنسية فصول عديدة حتى الآن .

وكان آخر برهان جديد على « عالمية » أدبنا ، مؤتمر الادب العربي المعاصر الذي انعقد في روما بين السادس عشر والواحد والعشرين من شهر تشرين الاول (اكتوبر) تحت اشراف معهد الشرق الايطالي ، ومجلة « تمبو برزنتي » الايطالية ، والمنظمة العالمية لحرية الثقافة التي تصدر نشرة « أضواء » المعروفة . فقد قدم عدد من المشتركين في المؤتمر — اوروبيون وعرب — تقارير مكتوبة تناولت مشاكل الأدب العربي المعاصر وقضاياه الرئيسية وعرضت وجهات نظر مختلفة ، ثم طرحت كلها للنقاش وابداء الرأي والنقد .

فقد عولجت مشكلة الأدب العربي ازاء الثقافة العالمية وازاء العالم الحديث ، ونوقشت المشكلة القائمة بين الأديب العربي والتراث القديم ،

واثيرت مسألة اللغة العربية من ضمن اطار الازدواجية اللغوية التي يعيشها العرب في جميع أقطارهم،والتي تتحدى الكاتب العربي المعاصر وتدعوه لاتخاذ موقف من وسيلة التعبير واختيار الجمهور الذي يكتب له . ولم يفت الادباء ان يتصدوا لمشكلة الكتابة العربية ، وقضية تيسير الصرف والنحو ، واسقاط الاعراب الى غيرها من القضايا اللغوية التي عمدوا الى اثارتها علها تلقي بعض الضوء على مسألة الفصحى والعامية ومضاعفاتهما الاجتماعية التي تمت الى دور الادب في المجتمع وقرب تناوله من جميع أفراده على السواء الخ ..

وهكذا يمضي الادب العربي الى الامام في احراز المكانة العالميـة الحديثة . ولكنه يجد برغم هذا كله مقاومة خطيرة من الغرب ، وهذا ما يجب ان نلتفت اليه ، وان نتأهب للدفاع عن أنفسنا أمام هذه المقاومة التي تأتي من ان الغرب لا يزال الى الآن ينظر الى الامة العربية على انها امة خضعت لسلطانه ، ولا يزال يطمع في ان يخضعهـا لسلطانه السياسي أو سلطانه العقلي أو سلطانه الاقتصادي ، ثم لا يزال ينظر اليها على انها امة من هذه الأمم التي يسمونها من الأمم المتخلفة ، فهي اذن محتاجة الى معونة من الغرب ، معونة عقلية واقتصادية وسياسية ..

المخطوطات العربية بين موريتانيا والسنغال

ساهمت موريتانيا وبعض مناطق السودان الغربي بقسط غير ضئيل في الآداب العربية الرفيعة، وأضافت الى كنوزها ما لا يزال حتى الآن مجهولاً أو دفيناً . ومتى ذكرنا النهضة الأدبية في تلك الأصقاع خطر ببالنا على الفور اسم مدينة « شنقيط » التي اشتهرت بما انجبت من الفقهاء والأدباء والمؤرخين مثل شهرتها كمركز لتجارة الملح والذهب في الصحراء القصوى. وقد ساعدها هذا المركز التجاري كما ساعد بلدتي « وادان » و «ولاتة» على ان تصبحا مقراً للثقافة العربية والأسلامية عن طريق العلماء التجار والعلماء الذين زاروا المغرب والمشرق وقطعوا المسافات الشاسعة لأداء فريضة الحج ، لأنهم حملوا معهم المخطوطات النادرة . وبالتدريج تأسست مكتبات غنية بأنفس المؤلفات لدى العائلات الكبيرة في البلدان المشار اليها سابقاً، حيث فصلت الصحارى بينها وبين العمران ، وجعلت الإقبال على التعلم من الضرورات المحتومة لتباعد المسافات ووجود الوقت الكافي لدى الراغبين في التبحر ، وانعدام المغريات التي تصرفهم عن هذه الغاية. ولهذه الاسباب مجتمعة اخذ الناس في نسخ المخطوطات المجلوبة من المشرق والمغرب من دواوين شعراء وكتب تصوف ، وفقه وتفسير وفلسفة وما شاكل ذلك .

ومن أجل ذلك كانت الزوايا ومساكن العائلات الكبيرة من أفضل الاماكن لاكتشاف المخطوطات النادرة ودراستها ، رغم وجود الصعوبات القائمة في وجه الوصول الى هــذه الغاية ، فكل عالم ضنين بما يملكه منها ، ولا يحب أن تنتقل النصوص من اسرته الى الآخرين وهو على حق اذا فعل ذلك . ويحتــاج الراغب في دراسة تلك المخطوطات الى مجهود كبير ليزيل شكوك الرجل او الاسرة التي تمتلكها حتى يسمح له بمراجعتها . الكن هذا لا ينطبق على مدرسة « بوتليميت » الواقعــة في جنوب موريتانيا حيث يلتقي الاساتذة والطلاب من المسلمين المقيمين في جميع اقطار غربي افريقيــا لدراسة الفقه والآداب والاشعار والتاريخ باللغة العربية . ولا بد قبل أخذ هذه المخطوطات ، من بعض الالتزامات كشرب عدة أقداح من الشاي الممزوج بالنعناع واكل حبات من التمر.. ومن سوء الحظ ان الطقس وحشرة الارضة الهدامة والحروب القبليــة المتواصلة الحقت اضراراً عظيمة بالكراريس والكتب ! ان الهيئة المعنية بتحسين المكتبات وصيانتها — ولها فرع في موريتانيا — ستتـولى اجراء فحص دقيق لها وتسجيل محتوياتها .

ومع ان مدينة شنقيط تعيش اليوم وهي في الرمق الأخير من شدة وطأة الرمال الحمراء العاتية عليهـا من الشرق ، فهـي لا تزال تحتفظ بالبقية الباقية من المكتبات التاريخية . وقد حشرت فيها الكتب المطبوعة وأكثر من الفي مخطوط من المؤلفات القيمة ضمن صناديق خشبية وحقائب جلدية (التاسفرات) كدست فيها كما يكدس التمر في الأكياس ..

ولا يزال كبير علماء شنقيط الشيخ منا القاضي يلازم مسجد شنقيط الكبير الذي ارتفعت فيه اكوام الرمال الى منتصف جدرانه .!

والى جانب شنقيط تقوم مدينة بوتليميت اختها،وولية عهدها اليوم ،

وكذلك مدينة تيشيت الصحراوية المعروفة بـآثارها التاريخية التي نافست تومبوكتو . وهي مركز اشعاع للعالم العربـي والمعرفة في قلب الصحراء، يرتادها الطلاب الأفارقة من قلب أفريقيا ، يسيرون اليها على أقدامهم مسافة شهر أو شهرين وهم يسوقون امامهم النياق الحلوب او البقر ، كل حسب طاقة أهله ، ليستعين بحليبها على ظروفه العلمية طوال مدة التحصيل .

مخطوطات نفيسة في دكار !

وفي دكار جالية مغربية كبيرة يسمونها « أهل بيضان » لديها عدد من المخطوطات العربية يحتفظ بها المعهد الفرنسي لأفريقيا السوداء . ويبلغ عددها اربعة آلاف مجلد كتبت في السودان الغربي والصحراء القصوى، وأقدمها يرجع عهده الى ما بين اعوام ١٧٢٧ و ١٧١٥ للميلاد . ولكن معظم المجموعة يرجع الى القرنين التاسع عشر والعشرين ، وتختلف في القيمة والموضوع ، ومعظمها غير تام . ومنها تاريخ مهم لبلدة « ولاتة » التي زارها ابن بطوطة ، ألفه محمد المصطفى بن عمر ، وأتمه ابنه ، مبتدئاً من سنة ٩٥٨ الى سنة ١٣٢٩ ، واضيف اليه ملحق يشرح ذلك التاريـخ من ١٣٢٩ الى ١٩١١ . وهناك مؤلفات مجهولة المؤلفين ، منها كتاب « تذكرة النسيان » يرجع عهدها الى أواخر القرن الثامن عشر . وهناك ايضاً نسخة من كتاب « تزيين الورقة » الذي ألفه عبدالله بن فودي من « سكتو » سنة ١٨١٣ ،والنسخة الموجودة كتبت عام ١٨٥٥ ، وهي مصدر غني لحروب سكتو .

وتتولى مطبعة جامعة أبادان بنيجيريا اصدارها مع ترجمة وتعليقات باللغة الانكليزية . ويجد فيها طلاب تاريـخ «فوتا تورو» و « فوتا جلو » وشخصيات من المغاربة وقبيلة « فولاتي » ، وتأثيرها في الصحـراء

القصوى فوائد لا تحصر .

وكان من الطبيعي ان توضع هذه المجموعة في مدينة دكار لأنها عاصمة السنغال . ولكن هناك مجموعات كبيرة في مالي وتمبكتو وغيرهما تحتاج الى من يكتشفها ويطبعها . أما ما يتعلق بموريتانيا فمن البديهي ان تكون شنقيط أحد المراكز الرئيسية للمخطوطات ، مع الاشارة الى ان بوتليميت أصبحت تنازع شنقيط المركز الرئيسي في مجالات العلم والثقافة .

ثلاث مجموعات من المخطوطات

ويمكن تقسيم هذه المخطوطات الى ثلاث مجموعات . الاولى الخاصة بموريتانيا وهي ذات أصل محلي . والثانية مجلوبة من القاهرة وبلدان الشرق . والثالثة المجلوبة من فاس وتونس . ويوجد كثير من مؤلفات علماء شنقيط و « وادان » و « تيشيت » و « آطار » و « ترارزة » و « تكانت » في عدد من المزارات والأضرحة .

وهناك خمسون كتاباً ألفها « ماء العينين » الزعيم الديني المجاهد من أبناء موريتانيا ، طبعت في مدينة فاس . ونجد كذلك نسختين قديمتين من القرآن الكريم احداهما مزينة بماء الذهب، وعدة مكتبات عائلية ضمت اليها مجموعة المؤلفات التي نسخها الحجاج في مكة المكرمة او المدينة او دمشق أو المغرب .

وشهدت موريتانيا نهضة ادبية في القرن الثامن الهجري ، فوضعت كتباً في الطب المحلي وفي التاريخ وجمعت دواوين شعرية ، وكتاب « الوسيط في تراجم ادباء شنقيط » الذي الفه احمد الامين الشنقيطي ، يدلنا بوضوح على كثرة عددهم وتنوع اختصاصهم ، وقد ترجم قسم من هذا الكتاب الى اللغة الفرنسية، كما ترجم غيره من الكتب والكراريس، ونشر بعضها في مجلة « العالم الاسلامي » ، واستفدنا نحن بالكثير من

نصوصه الشعرية وأخبار شعرائه في هذا الكتاب .

وقد حافظت القبائل الرُّحَّل على التراثين الادبي والديني القديمين . واقبال البدو المتنقلين على التعلم عظيم ، ولهم صبر عجيب على نسخ الكتب الفريدة ، لا ينقطع الصغير منهم ، حتى وهو يرعى الغنم أو الجمال عن مطالعة دروسه وحفظها ، اذ يأخذ معه لوحاً من الخشب ليعيد كتابة تلك الدروس ، او يقرأ ما معه من كتب وكراريس . فاذا عاد الصغار من اعمالهم اليومية الشاقة انتظموا في حلقة حول الاستاذ الذي يفقههم في الدين ويعلمهم اللغة العربية الفصحى ، ويلقي عليهم دروساً في الشعر والتاريخ .

فمن غريب ما رأيت وسمعت ، ان التقيت مرة في بودور بشيخ من مشايخهم يعدو وراءه صبي لا يتجاوز العاشرة من العمر يحمل على رأسه الواحاً مكتوباً على صفحاتها آيات من القرآن ، وأردت مداعبته ، فقلت ما هذه الالواح التي يحملها هذا الطفل ويكاد ينوء بحملها ؟ قال ان فيها آيات من الذكر الحكيم ، وتلا قوله تعالى : « واخذ الالواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون » !

وهناك سبب وجيه يجعل البيضاني يعتمد على حافظته اعتماداً قوياً حتى يصبح وليس له مصدر رواية سوى ذهنه .. السبب هو في الغالب عدم وجود المطابع وندرة القرطاس قديماً في البادية .

وهكذا ، فان الحفظ والاستظهار والنسخ عن الرواة والحفَظة هي كل ما يملكون من وسائل النشر والاذاعة .. حالهم في ذلك ، حال اسلافهم العرب في الجاهلية وصدر الاسلام .

ان « النسخ » عندهم حتى اليوم حرفة من الحرف الشائعة التي يرتزقون منها ، وبعضهم ينقطع لها انقطاعاً تاماً فلا يخلطها بعمل آخر .

فالناسخ الجميل الخط هو هناك بمثابة (آلة كاتبة) .. تجد عدته بضعة اقلام من القصب (الغزار) مختلفات البَرْي .. لكتابة كل أجناس

الحروف من رفيعة ومتوسطة وغليظة .. ولا يستعملون سوى لونين من الحبر ، هما الاسود والاحمر ، اما الاحمر ، فلكتابـــة الكلمات والسطور التي يريدون ابرازها والتنبيه اليها . اي انهـــا مكان الحرف الأسود في المطبعة .

واكثر ما ينسخون ، القرآن ، والفية ابن مالك ، وبعض كتب الفقه والنحو والبيان ، فهذه كتب كثيرة الرواج لأنها بمثابة (الكتب المدرسية المقررة) لا بد منها لكل من يطلب العلم .

أثر الكتاب في حياة العرب الروحية

افتتح العرب العالم الخارجي المهم بالكتب والمكتبات ، وعني بها المسلمون عناية تفوق التصور . وكان فقد مكتبة الاسكندرية التي أسسها بطليموس ، أكبر الكوارث الثقافية طراً ، وموضع ألمهم وتحسرهم ، حتى جاء أحد مؤرخي القرن الرابع الهجري ، وزعم ان عُمَراً بن العاص هو الذي أحرقها ، مع انه براء من ذلك كل البراءة ، فقد كانت الكتب موضوعة في بنائين متباعدين من المدينة ، دمر أكبرها بطريق الصدفة عندما احرق يوليوس قيصر الاسطول المصري ، ودمر القسم الثاني الذي اضيفت اليه كتب كثيرة هدية من مارك انطوني الى كليوبترا أحد أتباع ثيودوسيوس سنة ٣٨٩ ميلادية ، ومزق قسم من السكان ما فيها من كتب لأنها — في نظرهم — تدعو الى الكفر ..

ولذلك كان توجيه هذه التهمة الى الفاتحين العرب ظلماً فادحاً للحقيقة . فالعرب لم يكتفوا — في بدء التاريخ الاسلامي — بالحفاظ على الكتب القديمة ، بل راحوا يجمعونها ويترجمونها ويتدارسونها ويؤلفون كتباً جديدة . وقبل ذلك التاريخ لاحظ عمر بن الخطاب ، كثرة عدد الضحايا الذين استشهدوا في معارك الفتوح ، وخشي ان يجهل المسلمون مع توالي السنين تعاليم دينهم وسيرة نبيهم ، فقرر عام ١٧ للهجرة ،

ان ينتدب أناساً من ذوي العلم الى كل منطقة احتلها العـــرب ، ليلقوا دروساً عليهم تحفظهم القرآن الكريم ، وتفقههم في الدين ، وتذكرهم بالسيرة في كل يوم جمعة . ولهـــذا أصبحت المساجد ، وخاصة في موريتانيا والمغرب ، مراكز للتثقيف والتعليم الديني ، وموضعاً تحفظ فيه كتب الفقه والشريعة . وحلقات المستمعين في كل بلدة اسلامية ، كانت واسعة جداً ، ومتعددة الغايات . فمن فقـــه وتفسير ، كحلقات مالك والشافعي ، الى حلقات الكسائي وسيبويه وابي عبيدة في اللغة والتاريخ في البصرة والكوفة . وقال الخطيب البغدادي انه شاهد في عصره ، في الجوامع ، حلقات تستمع الى دروس في الطب .

المساجد دور تثقيف وتعليم

وما تزال المساجد من عهد الخلفاء الراشدين والامويين والعباسيين الى ايامنا الحاضرة ، مراكز للتعليم والتثقيف . وكل زائر يصل الى بلدة او مدينة يتوقع ان يستمع الى درس مفيد في أحد جوامعها . ولقد عاش كثير من العلماء — في افريقيا والمشرق — إما في المساجد وإما حولها ، ليكونوا قريبين من مكتباتها .

وحدّث ناصري خسرو ، وهو يصف ما شاهده في رحلاته (سنة ٤٣٩ هـ ١٠٤٧ م) عن خمسة آلاف رجل يزورون يومياً جامع عمرو في الفسطاط لقراءة ما فيه من كتب ولسماع المحاضرات . واستمرت الزيادة في عدد الكتب على التوالي بفضل هبات المتعلمين ووقفها عـــلى « أهل العلم » من المسلمين . وبقيت هذه المكتبات الموقوفة سالمة تقريباً عدة عصور ، وبلغ عدد الذين يترددون عليها للمطالعة يومياً رقمـــاً ضخماً . واحتوت مكتبات المساجد على كل المؤلفات في الدين والحديث والسيرة النبوية ، وتاريخ حياة الصحابة وغيرهم . كـــما احتوت على

مؤلفات في اللغة والنحو ، لأن معرفة اللغة العربية أمر ضروري لفهم القرآن الكريم . ثم جاء الأئمة الأربعة : مالك والشافعي وابو حنيفة ، ثم أحمد بن حنبل ، فوضعوا مؤلفات في الفقه والتشريع ، او جمع مريدوهم دروسهم ،وجعلوها على شكل كتب حفظت ايضاً في المساجد .

ولعل هذه العلاقة الوطيدة بين المساجد والكتب هي التي جعلت سكان العالم الإسلامي ينظرون إلى الكتب باحترام واجلال . فالكتاب ، في نظر العربي ، عالم كامل مستقل ، يحافظ عليه ويصونه من التلف ، ويعتز بملكيته ، حتى قال المتنبي :

أعز مكان في الدنى سرج سابح   وخير جليس في الأنام كتاب

ونصح الوزير المهلبي أبناءه قائلاً : اذ وقفتم تتطلعون إلى حوانيت السوق ، فلا تتطلعوا إلا إلى حيث تباع الأسلحة والكتب !

وكان عدد العرب الذين يعرفون القراءة والكتابة عند شروق الإسلام محدوداً جداً ، ولكن بعد جيلين اثنين انتشر العلم بينهم بسرعة فائقة ، وصاروا يقبلون على الكتب يشترونها أو ينسخونها ويجلدونها . وانتج هذا التهافت ظهور « الخطاطين » مثل ابن مقلة وابن البواب ، وأخذ كثير من العلماء والأدباء يدرسون هذا الفن الجديد حتى اتقنوه واشتهروا به كالجوهري مؤلف قاموس « الصحاح » . وظهر بين هذه الطبقة من عمد إلى ادخال الرسم في الكتب وعلى جلودها ، فبدأوا أولاً برسم الأشجار والازهار ، ثم المخلوقات الحية . وقد توارثت الأجيال الإسلامية الافريقية في موريتانيا وغيرها هذه الرغبة العلمية (النسخ والرسم) ، فأقبلوا إقبالاً شديداً على نسخ كل كتاب تقع عليه ايديهم ، وخاصة اذا كان كتاب أدب أو دين أو لغة أو اي نوع من أنواع المعرفة التي يرتضيها الدين . إن صناعة « النسخ » ما تزال حتى يومنا هذا صناعة رائجة عند الافريقيين عموماً والموريتانيين خصوصاً بسبب ندرة

وسائل الطباعة الحديثة كالآلة الكاتبة والمطبعة . وهنا لا بد من الإشارة إلى أن صناعة « نسخ الكتب » هي صناعة « عربية » في الغالب الأعم، أي ان عمل النساخ يكاد يكون محصوراً بنسخ كل ما هو باللغة العربية وليس بسواها . ذلك ان إدخال المطبعة العربية إلى افريقيا هو حتى اليوم في زمن الحكم الوطني أمر نادر اذا لم أقل معدوم ، فكيف في زمن الحكم الأجنبي الذي كان يرى السماح بدخول الحرف العربي كالسماح بدخول الدب الى الزرع ..؟

دور الكتاب في حياة العرب

وقام تمجيد الكتب بدور مهم في حياة العرب الروحية والثقافية . والواقع ان الرغبة في العلم والمؤلفات وسهولة الوصول اليها في المجتمع العربي لم يكن لها مثيل أبداً الا في ايامنا هذه . واذا كانت مكتبات المساجد قد رفعت من قيمة الكتب ، وصار إمكان الدخول فيها مباحاً لكل راغب في المطالعة؛الا انها لم تُعنَ بميادين جديدة اقتحمها العرب بعد توطد دعائم مدنيتهم . ونعني بذلك ميادين العلوم التي قبسوها وأضافوا اليها الكثير ، أو وضعوا اسسها ، كالفلسفة والمنطق،والحساب والفلك والكيمياء والطب وغيرها . فتولت القصور الملكية ، ومنازل الوزراء والكبراء سدّ هذه الثغرة ، اذ تأسست فيها مكتبات عامرة بالمؤلفات الخاصة بالعلوم،انتشرت في جميع انحاء الامبراطورية الاسلامية، من أقصاها الى أقصاها . ولا شك في ان الامويين بدأوا ذلك التأسيس، فلما نجحت الثورة العباسية صدرت الاوامر بتدمير ما انشأوا – خلاف المساجد – وادى هذا النجاح الى توسع اقتصادي عظيم،صاحبه اكتشاف الورق ، ولم يبلغ شأوهم في ذلك غير الفاطميين – بالقاهرة – بعدهم بزمن طويل .

نهضة الفاطميين

واهتمت الدولة الفاطمية بعد استقرارها في مصر بنشر دعوتها الشيعية مع الأدب والثقافة . فأنشأ الخليفة العزيز الذي حكم ما بين ٣٦٥–٣٨٦هـ، مكتبة ألحقها بالجامع الأزهر شملت أكثر من أربعين غرفة خاصة بالكتب. واحتوت فيما احتوت على عشرين نسخة من تاريخ الطبري، على احداها توقيع المؤلف ، وثلاثين نسخة من « كتاب العين » ، ومئة مخطوطة من كتاب « الجمهرة » لابن دريد ، و ١٨ الف مجلدة تعنى بالعلوم القديمة .

وأنشأ الحاكم أيضاً مكتبة ثانية أسماها « دار العلم » ،فنمت بسرعة ، حتى أصبحت واحدة من أعظم مجموعات الكتب في تاريخ المكتبات . وفي سنة ٤٣٥ هـ ، اهتم بها الوزير ابو القاسم علي بن أحمد ، اهتماماً خاصاً ، فوضع لها الفهارس ، وأصلح الأغلفة المهترئة . وقال عالم فلكي زارها انه وجد فيها ٦٥٠٠ كتاب ورسالة في علم الفلك والهندسة والفلسفة فقط . ولكن جميع هذه المجموعات – باستثناء الكتب الموجودة داخل القصور – ضاعت وتبددت عام ٤٦١ هـ اثناء الثورة التي حدثت بسبب عدم فيضان النيل ، وانتشار المجاعة في البلاد . واخذ الجنود بعضها لقاء رواتبهم المتأخرة .. وروى المقريزي عن لسان شاهد عيان انه رأى خمسة وعشرين جملاً محملة كتباً أخذها أحد الدائنين .. وانتزعت الأغلفة الجلدية الجميلة لتصنع منها أحذية للجنود ..! واستعملت أوراقها لايقاد النار ، والقي قسم منها في النهر ، ورمي قسم آخر في الصحراء ، فطمرتها الرمال بسرعة ، فكانت تلالاً !!

مصير المكتبات الاسلامية الكبرى

ويختلف مصير المكتبات الاسلامية الكبرى القديمة باختلاف طرق

تدميرها فقط . فالخليفة المستنصر امر بتدمير المكتبة الملكية وبيت الحكمة، فسعى الذين جاؤوا بعده كثيراً لتجديدها وتعويض خسائرها . وروى مؤلف تاريخ حياة صلاح الدين (ونسخة الكتاب الأصلية مفقودة) ان مكتبته كانت ملحقة بالمستشفى القديم ، يزورها السلطان بانتظام ، ويقدم له المؤلفون كتبهم لتحظى بموافقته عليها .

ووصف المقريزي مكتبة ملكية جديدة وكيف كانت تنظم وتوضع فوق الرفوف حسب موضوعاتها . وكان فيها قيّم ومساعدان وناسخان . ولما احتل صلاح الدين مصر ، كان عدد الكتب الذي قيل ان مكتبة القاهرة احتوت عليها بين ١٢٠ الفاً حسب رواية ، و ٢٦٠ الفاً حسب رواية اخرى . ولما انتهى حكم الفاطميين انتهت مكتبتهم ، اذ فرق صلاح الدين المكتبة الملكية وكل واحدة غيرها احتوت على كتب الشيعة. وحصل احد العلماء على ١٠٠ الف مجلدة وبيع الباقي للجمهور بالمزاد العلني خلال مدة عشر سنوات بأسعار رخيصة جداً .

وتستطيع كل عاصمة أو مدينة كبرى في الامبراطورية الاسلامية ان تفاخر بمكتبتها العامة التي ابيح لأي انسان دخولها ومطالعة ما يريد من الكتب النفيسة التي تبحث في التاريخ والادب والعلوم والفلسفة الى غير ذلك ، ونسخ الكتاب الذي يحب اقتناءه . وأسس الحاكم المنتصر (٣٤٩– ٣٦٥ ﻫ) أكبر مكتبة عرفت في القرون الوسطى ، بمدينة قرطبة عاصمة الاندلس ، احتوت على ٤٠٠ الف مجلدة . وانشئت مكتبات في جميع مدن شمال افريقيا ، من ليبيا الى اقاصي المغرب . وأسست المكتبات كذلك في القسم الشرقي من الامبراطورية ، في الري وشيراز وغزنه ونيسابور وغيرها . ووصف المقدسي المكتبة الكبيرة التي نظمها عضد الدولة بن بويه (٣٦٧ – ٣٧٢) وكيف جمع فيها نسخ كل الكتب التي الفت من قبل .

والى جانب هذه المكتبات العامة الواسعة اقيمت مكتبات خاصة تبحث

في فروع معينة للعلوم . فاذا كان صاحبها مهتماً بعلم الفلك جمع المؤلفات التي تبحث في هذا العلم . وقس على ذلك المعنيين بالطب أو الهندسة أو الكيمياء او التاريخ او الشعر . وأحياناً يكون صاحبها راغباً في أكثر من فرع واحد ، مثل علي بن يحيى المنجم (توفي سنة ٢٧٥ هـ) الذي أسس مكتبة في بيت كبير له بضواحي بغداد اطلق عليها اسم « خزانة الحكمة » ، حوت أنفس المخطوطات في شتى العلوم ، وشاعت شهرتها حتى كان الناس يقصدونها من كل فج عميق ، فيجدون المأوى والغذاء مجاناً ، اذ وقف علي بن يحيى قسماً من ماله لاطعام القادمين وايوائهم . ومما يذكر ان العالم الفلكي ابا معشر قدم من خراسان ينوي اداء فريضة الحج . ومر ببغداد ، وزار المكتبة ، فأعجب بها اعجاباً شديداً أنساه الحج . وكان في بغداد ، عندما غزاها المغول ست وثلاثون من هذه المكتبات الخاصة العامرة . ولم يكن في القاهرة مثلها ، الا انها اشتهرت بمكتباتها العامة ، كدار العلم ومكتبات المساجد، وكانت هذه من الضخامة بحيث لم يعد هناك ضرورة لانشاء مكتبات خاصة . وقد بقي العلامة عبد الرحمن بن خلدون ، المؤرخ العظيم ، في القاهرة لأنه اعجب بكثرة الكتب المعروضة لاطلاع الراغبين في الاستفادة من تراث العلماء .

انشاء مكتبات في المدارس

وأدى تقدم المدارس وتوسعها ، في المدن والبلدان الاسلامية الكبرى ، الى انشاء مكتبات في كل منها ، كما تفعل الكليات والجامعات اليوم . مثل المدرسة النظامية التي أسسها نظام الملك الوزير ارسلان السلجوقي في بغداد سنة ٤٥٧ هـ والمستنصرية التي اسسها المستنصر العباسي في بغداد ايضاً سنة ٦٣١ ، والعزيزية في غزنة ، والظاهرية في دمشق (وهذه ما تزال باقية) . وبالاجمال ، فأن هذه المدارس لا تعد ولا تحصى .

وتحدث القلقشندي مؤلف كتاب صبح الأعشى (توفي عام ٨١٢ هـ) عن المكتبات فذكر كيف كان الخلفاء والملوك القدماء يهتمون اهتماماً عظيماً بها . وقال ان اكبرها ثلاث : الاولى مكتبة الخلفاء في بغداد التي بقيت حتى غزو التاتار للعراق ، وقتل زعيمهم هولاكو الخليفة المستعصم ، فاختفت المكتبة وضاعت محتوياتها ، والثانية مكتبة الخلفاء الفاطميين في القاهرة . وبقيت الى حين وفاة آخر اولئك الخلفاء . والثالثة مكتبة الخلفاء الامويين في الاندلس . وهذه بقيت سليمة الى ان تجزأت الدولة الاسلامية وحلت بدلها دول عديدة وضاعت الكتب ، واكتفى الملوك بمكتبات المدارس .

ورغم ضياع معظم الكتب العربية ، فأن الباحث تأخذه الدهشة عندما يرى الالوف المؤلفة التي ما تزال موجودة في المكتبات الحديثة . فالمجلدات التي ضاعت من مكتبة الخلفاء العباسيين ، ظهر بعضها في المدرسة المستنصرية ، ونقل بعضها الآخر الى استانبول . ومجلدات الفاطميين في القاهرة لم تفقد كلها ، فقد نقل قسم منها الى المدرسة الفاضلية ، رغم ان كثيراً منها باعه الطلاب ليشتروا بثمنه قوتاً . ودار الكتب الاهلية في القاهرة اليوم اغنى مكتبات العالم في المخطوطات القديمة . ونقل قسم كبير من مكتبات الأندلس الى عواصم شمال افريقيا وغربها . وتدعي اسبانيا اليوم ان لديها مجموعة ضخمة من المؤلفات العربية . ونجد كذلك مؤلفات عربية في الهند والباكستان ، اذ نقلها اليها الفاتحون العرب ، وبالاخص السلطان محمود الغزنوي . وسلم كثير من مكتبات المساجد والبلدان من احداث الزمان والفضل الأكبر في ذلك الى انها « وقف » اسلامي مثل مكتبة حلب وغيرها . ولا نعرف الا القليل عن المجموعات الموجودة في مكة المكرمة والمدينة المنورة ومدن اليمن .

عناية الاوروبيين بالكتب العربية

وبدأ اهتمام الاوروبيين بالعالم الشرقي يزداد منذ القرن السادس عشر ،

واخذوا يحرصون على الحصول على المعلومات الموجودة في كتبه، ولذلك راحوا يجمعونها ويدرسونها ، ومن أوائل تلك المجموعات ما نراه في مونيخ وباريس والفاتيكان . واستولى فيليب الثالث ملك اسبانيا على ثلاثة آلاف مخطوطة كانت في سفينة مغربية . بل ان لويس التاسع ملك فرنسا الذي قاد حملة صليبية فاشلة على مصر، كان اول من وضع نواة المجموعة الشرقية في المكتبة الاهلية في باريس .

وجرت عادة التجار والدبلوماسيين الغربيين في الشرق ان يعودوا الى بلادهم ومعهم مجموعات من الكتب يهدونها الى المكتبات الكبيرة . ومن هؤلاء رجل اسمه ريتش كان متضلعاً بالعربية والفارسية وغيرهما من اللغات الشرقية مما جعله خبيراً بالتاريخ الاسلامي ، جمع عدداً كبيراً من المؤلفات المهمة عند اقامته في الشرق الأوسط ، ولما مات وهو في الرابعة والثلاثين أهدت ارملته تلك المجموعة الى المتحف البريطاني . وتوالت الهبات بعد ذلك .

وفي اول القرن السابع عشر كان ادوارد بكوك في حلب ، فعرف الفوائد التي يجنيها طلاب اللغة العربية الانكليز ، من مطالعة النسخ الاصلية للمؤلفات فاشترى الكثير منها واهداها الى المكتبة « البودلية » في جامعة اكسفورد . وكل المكتبات الاوروبية تحتوي على نفائس لا تحصى من المؤلفات العربية والاسلامية وتحرص عليها كل الحرص .

دعوة الى صيانة التراث

نرى لزاماً علينا في اعقاب هذه الجولة التاريخية الممتعة على المكتبات الاسلامية القديمة، ان نوجه دعوة حارة الى الحكومات والهيئات والمؤسسات الثقافية ، والأفراد ، في العالم الاسلامي كله ، كي يعنوا بصيانة تراث المؤلفين السابقين ، فهو ثروة قومية وانسانية معاً . ففي مكتبات المساجد

– في افريقيا والمشرق – وفي بيوت العائلات ، مخطوطات نفيسة يخشى عليها من التلف والضياع . وحبذا لو جمعت هذه المخطوطات ، وجلدت وصورت ، واعيد طبعها ، او حفظت في أماكن امينة لا يتطرق اليها عدو الورق الأكبر : العث !

فهل تقوم الحكومات المعنية على تنفيذ هذا الاقتراح ؟؟ وهل يتعاون مالكو الكتب المخطوطة معها ؟

اننا نرجو ، وننتظر تحقيق الأمل .

قصيدة ابن خلدون (اللامية)
الى الملك الظاهر

منذ الفتح الإسلامي والصلات الروحية مستمرة لا تنقطع بين افريقيا وآسيا ، صحيح ان الدين كان من اهم تلك الصلات وأقواها . غير اننا لا نستطيع ان ننكر ما كان للأدب على هـذه الصلات من اياد . بل يمكننا القول بتأكيد لا مرية فيه ان الادب كان كالدين ان لم نقل اكثر ، عاملاً مهماً من عوامل استمرار تلك الصلات وتقويتها .

وان دَور الشناقطة — الموريتانيين — والمغاربة من ادباء وشعراء من تكوين الروابط الأخوية بين انحاء العالم الاسلامي في الشرق والغرب ، دور شديد التألق والاشراق في صفحات التاريخ ..

ونحب ان نضيف بهذه المناسبة الى شعر هذا الكتاب الموريتاني كشاهد على ما نقول شعراً آخر ، افريقي الجنسية عربـي الروح شرقي الهوى..

وفي يقيني ان قصيدة العلامة ابن خلدون (اللامية) الى الملك الظاهر في مصر ، ماسة كبيرة شديدة البريق ، تفوق بقيمتها الادبية قيمـة الهدايا المادية الثمينة التي تهاداها فيما بينهم ملوك المغرب والمشرق !

وقبل ان نقدم نص الرائعة الشعرية المشار اليها ، نقدم خلاصة لدواعيها وأسباب نظمها :

لما ولي ابن خلدون القضاء مرة ثانية سنة ٨٠١ هجرية في مصر والشام ،نقم عليه الملك الظاهر أحوالاً من معاصاته فيما يريد من الاحكام في القضاء ، ووغر صدره على ابن خلدون ، وعزله من الولاية (الوكالة) على الخانقاه (مزرعة بيبرس في القاهرة ولاه الظاهر تصريف شؤونها عندما كان مقيماً في الفيوم) فتوسل المؤرخ الكبير للعودة الى قلب السلطان بصديقه علاء الدين الطنبغا بن عبدالله الجوباني اليلبغاوي الامير في الشام ، توسل اليه بالقصيدة الجميلة التالية ، وهنا المفاجأة الكبرى لنا .. ذلك اننا عرفنا ابن خلدون مؤرخاً كبيراً وفيلسوفاً كبيراً ، ولكن قل منا من عرفه شاعراً عظيماً ..!

وبعد ، فهذه هي القصيدة تقدم نفسها لمن يعرفون سحر المعاني والبيان ، ويعرفون مزايا الشعر الجميل :

سيدي ، والظنونُ فيك جميله ... واياديك بالاماني كفيله
لا تحل عن جميل رأيك اني ... مالي اليوم غير رأيك حيله
واصطنعني كما اصطنعت بأسدا ... ءِ يدٍ من شفاعة او وسيله
لا تُضعني ،فلستُ منك مُضيعاً ... ذمةَ الحبِ ، والايادي الجميلة
واجرني فالخطب عضَّ بنابيه ... وأجرى الى حِماي خيوله
ولو اني دعا بنصريَ داعٍ ... كنت لي خير معشر وفضيله
أنّه امرى الى الذي جعل الله ... امور الدنيا له مكفوله
واراه في ملكه الآية الكبرى ... فـولاّه ثم كان مُديله
اشهدته عناية الله في التمحيص ... أن كان عونه ومُنيله
العزيزُ السلطانُ ، والملك الظاهرُ ، فخر الدنيا ، وعز القبيله!
ومجيرُ الاسلام من كل خطب ... كاد زلزال بأسه ان يُزيله

ومُديل العدو بالطعنة النجلا ء ، تفرى ماذيّه ونُصوله ¹
وشكور لانعم الله يُفني في رضاه غدوّه وأصيله
وتلطف في وصف حالي وشكوى خلّتي ² يا صفيّه وخليله
قل له، والمقال يكرم من مثلك في محفل العُلا ان يقوله

* * *

يا خوند ³ الملوك، يا معدل الد هر ، اذا عدّل الزمان فصوله
لا تقصّر في جبر كسري، فما زلت أرجّيك للأيادي الطويله
أنا جارٌ لكم منعتم حماه ونهجتم الى المعالي سبيله
وغريب انستموه على الوحشة والحزن بالرضى والسهوله
وجمعتم من شمله، فقضى الله فراقا، وما قضى مأموله
غاله الدهر في البنين وفي الاهـ لِ ، وما كان ظنه ان يغوله ⁴
ورمته النوى ⁵ قعيداً قد اجتا حت عليه فروعه وأصوله !
فجذبتم بضبعه ⁶ ، وأنلتم كل ما شاءت العلا ان تُنيله
ورفعتم من قدره قبل أن يشكو اليكم عياءه وخموله !
وفرضتم له حقيقة وُدٍّ حاش لله ان ترى مستحيله
همةٌ ، ما عرفتُها لسواكم وانا من خبرت دهري وجيله !
والعدا نمّقوا احاديث إفكٍ كلها في طرائق معلولة !
روّجوا في شأني غرائب زورٍ نصبوها لامرهم أُحبولة

---

١ – الطعنة النجلاء : الواسعة العريضة . وتفرى : تشق . والماذي (بالمعجمه) : كل سلاح من الحديد . والنصول جمع نصل ، وهو حديدة السهم .
٢ – الخلة (بالفتح) : الحاجة ، والفقر .
٣ – الخوند : أستاذ الملوك . والكلمة فارسية الأصل .
٤ – يشير إلى غرق أهله في المركب الذي أقلهم من المغرب عند قدومه إلى مصر !
٥ – النوى : الوجه الذي ينويه المسافر من قرب أو بعد . وهي مؤنثه لا غير .
٦ – الضبع : العضد .

ورموا بالذي ارادوا من البهتان ظناً بأنهـا مقبوله ..
زعموا انني اتيت من الاقوا ل ، ما لا يُظنَّ بي ان اقوله
كيف لي اغمط الحقوق وانّي شكر نعماكم علي الجزيله ؟
كيف لي انكر الايادي التي تع رفها الشمس ، والظلال الظليلة ؟
ان يكن ذا ، فقد برئت من الله تعالى ، وخنت جهراً رسوله !
طوقونا امر الكتـاب ، فكانت لقداح الظنون فينا مجيلة [1]
لا ورب الكتاب أنزله الله على قلب من وعى تنزيله
ما رضينا بذاك فعلاً ، ولا جئناه طوعاً ، ولا اقتفينـا دليله
انما سامنا الكتـاب ظلوم لا يرجّى دفاعـه بالحيله
سخط ناجز ، وحلم بطيء وسلاح للوخز فينا ، صقيلة !
ودعوني ، ولست من منصب الحكم ، ولا ساحباً لديهم ذيوله ..
غير اني وشى بذكري واشٍ يتقصّى اوتاره ودخوله [2]
فكتبنا معولين على حلمك ، تمحو الآصار عنا ، الثقيلة
ما اشرنا به لزيد ولا عمروٍ ، ولا عينوا لنـا تفصيله
انما يذكرون « عمّن وفيمن » مبهمات .. احكامها منقولة !
ويظنون ان ذاك على ما اضمروا من شناعة او رذيلة
وهو ظن عن الصواب بعيد وظلام لم يحسنوا تأويله ..!
وجناب السلطـان نزهـه الله عن العاب [3] بالهدى والفضيلة
وأجل الملوك قدراً صفوح يرتجي ذنب دهره ليقيله
فاقبلوا العذر ، اننا اليوم نرجو بحياة السلطـان منكم قبوله
واعينوا على الزمان غريباً يشتكي جدب عيشه ومحوله
جاركم ضيفكم نزيل حماكم لا يضيع الكريم يوماً نزيله

---

١ – يشير إلى الفتوى السالفة الذكر عن المقريزي وابن الفرات .

٢ – وتار جمع وتر ، بمعنى الذحل . والذحل : العداوة ، والجمع ذحول .

٣ – العاب : العيب .

جددوا عنده رسوم رضاكم   فرسوم الكرام غير مُحيلة
داركوه برحمة ، فلقد أمـ   ـست عقود اصطباره محلولة
وانحلوه جبراً ، فليس يرجّي   غـير إحسانكم لهذي النحيلة

***

يا حميد الآثار في الدهر يا   الطّنبُغايا ، روض العلا ومقيله
كيف بالخانقاه ينقل عني   لا لذنب او جنحة منقولة
بل تقلدتها شَغوراً بمرسوم   شريف ، وخلعة مسدولة ..
ولقد كنت آملاً لسواها   وسواها بوعده ان ينيله
وتوثقت للزمان عليها   بعقود ما خلتها محلولة !
ابلغن قصتي ، فمثلك من يقصد فعل الحسنى بمن ينتمي له ...
واغنموا من مثوبتي ودعائي   قُربة عند ربكم مقبولة !
واصحب العز ظافراً بالاماني   واترك العصبة العدا مفلولة
واعتمِلْ في سعادة الملك الظا   هر ان تمحوَ الأذى ، وتزيله
وتعيد الدنيا لأحسن شمل   حين تضحي بسعده مشموله
واطلب النصر من سعادته يصحبك دأباً في الظعن والحيلولة
وارتقب ما يحله بالأعادي   في جمادى ، او زد عليه قليله
وخذوه فألاً بحسن قبول   صدق الله في الزمان مقوله
فلقد كان يحسن الفال عند الا — مصطفى دائماً ، ويرضى جميله

تقاليد المهاداة بين ملوك المغرب والملك الظاهر

كثيراً ما يتعاهد الملوك المتجاورون بعضهم بعضاً بالاتحاف بطرف

اوطانهم للمواصلة والاعانة متى دعا اليها داع. وقد ذكر ابن خلدون فيما ذكر من اخبار الملوك ان صلاح الدين ، ابن ايوب هادى يعقوب المنصور ملك المغرب من بني عبد المؤمن ، واستجاش به بأسطوله في قطع مدد الفرنج عن سواحل الشام حين كان معنياً بارجاعهم عنها ، وبعث في ذلك رسوله عبد الكريم بن منقذ [1] من امراء شيزر [2] فأكرم المنصور رسوله وقعد عن اجابته في الاسطول لما كان في الكتاب اليه [3] من العدول عن تخطيطه بأمير المؤمنين ، فوجدها غُصّة في صدره منعته من اجابته الى سؤاله ، وكان المانع لصلاح الدين من ذلك كاتبه الفاضل عبد الرحيم البيساني بما كان يشاوره في اموره ، وكان مقيماً لدعوة الخليفة العباسي بمصر ، فرأى الفاضل ان الخلافة لا تنعقد لأثنين في الملة كما هو المشهور وان اعتمد اهل المغرب سوى ذلك لما يرون ان الخلافة ليست لقباً فقط ، وانما هي لصاحب العصبية القائم عليها بالشدة والحماية ، والخلاف في ذلك معروف بين اهل الحق . فلما انقرضت دولة الموحدين وجاءت دولة بني مرين من بعدهم ، وصار كبراؤهم ورؤساؤهم يتعاهدون قضاء فرضهم لهذه البلاد الشرقية ، فتعاهدهم ملوكها بالاحسان اليهم ، وتسهيل طريقهم ، فحسن في مكارم الاخلاق انتحال البر

---

١ – هكذا اسماه ابن خلدون هنا ، وفي « المقدمة » ، وفي « وفيات ابن خلكان » (٢–٤٣٣) ، والروضتين لأبي شامة ١ – ١٧٣ ، والاستقصا ١–١٧٤ ، ان اسمه عبد الرحمن . وهو شمس الدين ابو الحرث (وكناه في الروضتين ابا الحزم) ، عبد الرحمن بن نجم الدلة ابي عبد الله محمد بن مرشد ، المتوفي سنة ٦٠٠ بالقاهرة ، والمولود بشيزر سنة ٥٢٣ .

٢ – قرية قرب المعرة بينها وبين حماه ، فتحت سنة ١٧ هجرية ، ومنها الأمراء من بني منقذ ، وأول من ملكها منهم من يد الروم علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني ، وذلك في سنة ٤٧٤ ، ياقوت ٥–٢٣٤ ، وفيات ١–٤٦٤ ، تاريخ ابي الفداء ٢–٣٥٢ (سنة ٥٠٢) . وانظر اخبار بني منقذ فيتاريخ ابي الفداء أيضاً ٣–٣٢ وما بعدها .

٣ – جاء في الروضتين (٢–١٧٠–١٧٥) نص الرسالة التي كتبها القاضي الفاضل إلىالمنصور الموحدي ، ونص رسالة أخرى مضمونها تكليف الأمير ابن منقذ هذا بالسفارة إلى الموحدين .

والمواصلة بالاتحاف والاستطراف والمكافأة في ذلك بالهمم الملوكية، فسنت لذلك طرائق واخبار مشهورة ، من حقها ان تذكر ، وكان يوسف ابن يعقوب بن عبد الحق ثالث ملوك بني مرين اهدى لصاحب مصر عام سبعمائة وهو يومئذ الناصر بن محمد بن قلاون هدية ضخمة، اصحبها كريمة من كرائم داره احتفل فيها ما شاء من انواع الطرف، واصناف الذخائر ، وخصوصاً الخيل والبغال .

قال ابن خلدون :

« اخبرني الفقيه ابو اسحق الحسناوي ، كاتب الموحدين بتونس ، انه عاين تلك الهدية عند مرورها بتونس ، قال : وعددت من صنف البغال الفارهة فيها اربعمائة ، وسكت عما سوى ذلك . وكان مع هذه الهدية من فقهاء المغرب ، ابو الحسن التنسي كبير اهل الفتيا بتلمسان . ثم كافأ الناصر عن هذه الهدية بأعلى منها وأحفل [1] مع اميرين من امراء دولته ، ادركا يوسف بن يعقوب وهو يحاصر تلمسان ، فبعثهما الى مراكش للنزاهة في محاسنها ، وأدركه الموت في مغيبهما ، ورجعا من مراكش ، فجهزهما حافده ابو ثابت المالك بعده ، وشيعهما الى مصر ، فاعترضتهما قبائل حصين ونهبوهما ودخلا بجاية ، ثم مضيا الى تونس ، ووصلا من هنالك الى مصر .

« ولما ملك السلطان ابو الحسن تلمسان ، اقترحت عليه جارية أبيه ابي سعيد ، وكانت لها عليه تربية ، فأرادت الحج في ايامه وبغنايته ، فأذن لها في ذلك ، وبعث في خدمتها وليّه عريف بن يحيى من امراء سويد ، وجماعة من امرائه وبطانته ، واستصحبوا هدية منه للملك الناصر احتفل فيها ما شاء . وانتقى من الخيل العتاق ، والمطايا الفره ، وقماش

---

١ – جاء في الاستقصا : ٢–٤١ : « ... وأما الملك الناصر ، فأنه كافأ السلطان يوسف على هديته بأن جمع من طرف بلاد المشرق ما يستغرب جنسه وشكله ، من الثياب والحيوانات ، ونحو ذلك، مثل الفيل والزرافة ونحوهما وأوفد به مع عظماء دولته سنة ٧٠٥ » .

الحرير والكتان ، والصوف ومدبوغ الجلود الناعمة ، والاواني المتخذة من النحاس والفخار المخصوص كل مصرٍ من المغرب بأصناف من صنائعها ، متشابهة الاشكال والانواع ، حتى لقد زعموا انه كان فيها مكيلة من اللآلىء ، والفصوص ، وكان ذلك وقر خمس مائة بعير !! وكانت عتاق الخيل فيها خمس مائة فرس بالسروج الذهبية المرصّعة بالجواهر ، واللجم المذهبة ، والسيوف المحلاة بالذهب واللآلىء . وكانت قيمة المركب الاول منها عشرة آلاف دينار ! وتدرجت على الولاء الى آخر الخمس مائة ، فكانت قيمته مائة دينار .

«تحدث الناس بهذه الهدية دهراً وعرضت بين يدي الملك الناصر ، فأشار الى خاسكيته بانتهابها فنُهبت بين يديه ، وبولغ في كرامة اولئك الضيوف ، في انزالهم وقراهم وأزوادهم الى الحجاز ، والى بلادهم ، وبقي شأن الهدية حديثاً يتجاراه الناس في مجالسهم واسمارهم ، وكان ذلك عام ثمانية وثلاثين وسبعمائة ، ولما فصل[1] ارسال ملك المغرب ، وقد قضوا فرضهم ، بعث الملك الناصر معهم هدية كفاء هديتهم وكانت اصنافها حمل القماش من ثياب الحرير والقماش المصنوعة بالاسكندرية تحمل كل عام إلى دار السلطان ، قيمة ذلك الحمل خمسون الف دينار ، وخيمة من خيام السلطان المصنوعة بالشام على مثال القصور ، تشتمل على بيوت للمراقد ، وأواوين للجلوس والطبخ ، وأبراج للاشراف على الطرقات ، وابراج احدها لجلوس السلطان للعرض ، وفيها تمثال مسجد بمحرابه ، وعمده ومأذنته ، حوائطها كلها من خرق الكتان الموصولة بحبُك الخياطة ،

---

١ – فصل من البلد : خرج عنه . وقد استعمل ابن خلدون «اوسال » جمع رسول في اماكن متفرقة من كتاب العبر .

٢ – في الاستقصا : ٢–٤٢ « ... ولما انتهوا إلى بلاد بني حسن في سنة ٧٠٧ اعترضتهم الأعراب بالقفر فانتهبوهم وخلصوا إلى مصر بجريعة الذقن ، فلم يعاودوا بعدها سفراً ، ولا لفتوا اليه وجهاً وطالما اوفد عليهم ملوك المغرب بعدها من رجال دولتهم من يؤبه له ، ويهادونهم ويكافئون ، ولا يزيدون في ذلك كله على الخطاب شيئاً » .

مفصلة على الاشكال التي يقترحها المتخذون لها !

« وكان فيها خيمة اخرى مستديرة الشكل ، عـالية السمك مخروطة الرأس ، رحبة الفناء ، تظل خمس مائة فارس أو أكثر ، وعشرة من عتاق الخيل بالمراكب الذهبية الصقيلة ، ولجمها كذلك. ومرت هذه الهدية بتونس ، ومعها الخدام القائمون بنصب الابنية ، فعرضوها على السلطان بتونس . وعاينت يومئذ اصناف تلك الهدية وتوجهوا بهـا سلطانهم ، وبقي التعجب منها دهراً على الالسنة . وكان ملوك تونس من الموحدين يتعاهدون ملوك مصر بالهدية في الاوقات .

ويمضي ابن خلدون في وصف هذه الظواهر الملوكية في المهاداة بين المغرب والمشرق فيقول :

« ولما وصلت الى مصر ، واتصلت بالملك الظاهر ، وغمرني بنعمه وكرامته ، كاتبت السلطان ، بتونس يومئذ ، وأخبرته بما عند الملك الظاهر من التشوف الى جياد الخيل ، وخصوصاً من المغرب ، لما فيها، من تحمل الشدة والصبر على المتاعب ، وكان يقول لي مثل ذلك ، وان خيل مصر قصرت بها الراحة والتنعم ، عن الصبر على التعب،فحضضت السلطان بتونس على اتحاف الملك الظاهر بما ينتقيه من الجياد الرائعة ، فبعث له خمسة انتقاها من مراكبه وحملها في البحر في السفـين الواصل بأهلي وولدي ، فغرقت بمرسى الاسكندرية ، ونفقت تلك الجياد ، مع ما ضاع في ذلك السفين ، وكل شيء بقدر .

« ثم وصل الينا عام ثلاثة وتسعين شيخ الأعراب : المعقل بالمغرب، يوسف بن علي بن غانم كبير اولاد حسين ناجيا من سخط السلطان ابـي العباس احمد بن ابـي سـالم ، من ملوك بني مرين بفاس يروم قضاء فرضه ، ويتوسل بذلك لرضى سلطانه ، فوجد السلطان غائباً بالشام في فتنة منطاش ، فعرضته لصاحب المحمل ، فلما عاد من قضاء فرضه ، وكان السلطان قد عاد من الشام ، فوصلته به ، وحضر بين يديه ،

وشكا بثه ، فكتب الظاهر فيه شفاعة لسلطان وطنه بالمغرب، وحماه مع هدية اليه من قماش وطيب وقِسِي ، وأوصاه بانتقاء الخيل له من قطر المغرب ، وانصرف ، فقبل سلطانه فيه شفاعة الظاهر ، وأعاده إلى منزلته . وانتقى الخيول الرائعة لمهاداة الملك الظاهر وأحسن في انتقاء اصناف الهدية فعاجلته المنية دون ذلك ، وولي ابنه ابو فارس ، وبقي أياماً ثم هلك وولي أخوه ابو عامر ، فاستكمل الهدية وبعثها صحبة يوسف ابن علي الوارد الأول .

«وكان السلطان الملك الظاهر، لما ابطأ عليه وصول الخيل من المغرب، أراد ان يبعث من امرائه من ينتقي له ما يشاء بالشراء فعين لذلك مملوكاً من مماليكه منسوباً الى تربية الخليلي ، اسمه قطلوبغا [1] وبعث عني فحضرت بين يديه ، وشاورني في ذلك فوافقته ، وسألني كيف يكون طريقه، فأشرت بالكتاب في ذلك الى سلطان تونس من الموحدين [2]، وسلطان تلمسان من بني عبد الواد وسلطان فاس والمغرب من بني مرين. وحمله لكل واحد منهم هدية خفيفة من القماش والطيب والقسي وانصرف عام تسعة وتسعين الى المغرب ، وشيعه كل واحد من ملوكه الى مأمنه ، وبالغ في اكرامه بما يتعين. ووصل الى فاس، فوجد الهدية قد استكملت، ويوسف بن علي على المسير بها عن سلطانه أبي عامر من ولد السلطان ابي العباس المخاطب أولاً . وأظلهم عيد الأضحى بفاس ، وخرجوا متوجهين الى مصر ، وقد افاض السلطان من احسانه وعطائه ، على الرسول قطاوبغا ومن في جملته بما أقر عيونهم ، وأطلق بالشكر السنتهم، وملأ بالثناء ضمائرهم ، ومروا بتلمسان ، وبها يومئذ ابو زيان ابن

١ – هو قطلوبغا بن عبد الله المتوفى سنة ٨٢١. تولى نيابة الاسكندرية والحجابة أيام الظاهر، ونيابة الاسكندرية أيام المؤيد . قال في المنهل : وأظنه من مماليك جاركس الخليلي امير اخور ، والله اعلم .

٢ – هو ابو العباس احمد بن محمد بن ابي بكر بن ابي حفص الموحدي .

السلطان ابي حمو من آل يَغْمَرَاسَن بن زيّان ، فبعث معهم هدية اخرى من الجياد بمراكبها ، وكان يحوك الشعر ، فامتدح الملك الظاهر بقصيدة بعثها مع هديته ، يقول منها :

لمن الركائب سيرهن ذميل[1] ... والصبر — الا بعدهن — جميل
يا ايها الحادي رويدك[2] انها ... ظعن[3] يميل القلب حيث تميل
رفقاً بمن حملته فوق ظهورها ... فالحسن فوق ظهورها محمول
لله آية انجم شفافة ... تنجاب عنها للظلام سدول
شهب بآفاق الصدور طلوعها ... ولها بأستار الجدول افول
في الهودج المزرور منها غادة ... تزغ الدجى بجبينها فيحول !
فكأنها قمر على غصن على ... متني كثيب ، والكثيب مهيل !

«ثم مروا بعدها بتونس فبعث سلطان تونس ابوفارس عبد العزيز بن العباس من ملوك الموحدين هدية ثالثة انتقى لها جياد الخيل ، وعزز بها هدية السلطانين وراءه ، مع رسوله من كبار الموحدين أبي عبدالله بن تافراكين ، ووصلت الهدايا الثلاث الى الملك الظاهر في آخر السنة ، وعرضت بين يدي السلطان ، وانتهب الخاسكية ما كان فيها من الأقمشة والسيوف والبسط ومراكب الخيل ، وحمل كثيراً منهم على كثير من تلك الجياد وارتبط الباقيات .

وكانت هدية صاحب المغرب تشتمل على خمسة وثلاثين من عتاق الخيل بالسروج واللجم الذهبية والسيوف المحلاة ، وخمسة وثلاثين حملاً من أقمشة الحرير والكتان والصوف والجلد ، منتقاة من أحسن هذه الأصناف .

---

١ — الذميل : ضرب من سير الأبل فوق التزيد .

٢ — رويدك : اسم فعل بمعنى امهل .

٣ — جمع ظعينة ، وهي المرأة تكون في الهودج ، والهودج نفسه .

«وهدية صاحب تلمسان تشتمل على ثلاثين من الجياد بمراكبها المموهة واحمال من الأقمشة . وهدية صاحب تونس تشتمل على ثلاثين من الجياد مُغشَّاةً ببراقع الثياب من غير مراكب، وكلها أنيق في صنعه مستطرف في نوعه ، وجلس السلطان يوم عرضها جلوساً فخماً في ايوانه ، وحضر الرسل وأدوا ما يجب عن ملوكهم . وعاملهم السلطان بالـبر والقبول . وانصرفوا الى منازلهم للجرايات الواسعة ، والأحوال الضخمة ثم حضر وقت خروج الحاج فاستأذنوا في الحج مـع محمل السلطان ، فأذن لهم وأرغد ازودتهم ، وقضوا حجهم ، ورجعوا الى حضرة السلطان ومعهود مبرته . ثم انصرفوا الى مواطنهم ، وشيعهم من بر السلطان واحسانه ما ملأ حقائبهم ، وأسنى ذخيرتهم »

مُشكِلَة الخطِّ العربيِّ بينَ قاعِدتين

أجد اليوم مناسبة لطرح مسألة مهمة جداً على بساط البحث ألا وهي ضرورة « توحيد » الخط العربي بين مختلف الاقطار العربية ، وخاصة بين المشرق والمغرب ..

لقد فكرت فوراً وأنا أكتب هذه الفقرة في تجنب كلمة « توحيد » لئلا تسبب لي ادانة سياسية وتسبب للكتاب « موجباً » لمنعه من دخول بعض الاقطار العربية التي ترى في كلمة توحيد ووحدة بعبعاً مخيفاً .. ولكن لا سبيل الى احلال كلمة اخرى مكان كلمة « توحيد ».. ولعل شفيعها هنا عند من يتضايقون منها بعض المضايقة ، انها في هذا الكتاب بالذات كلمة ثقافية خالصة ، ولا تمت الى السياسة بصلة ..!

اني أعتقد اننا في الخط العربي – عنيت « القاعدة » – أمام مشكلة ثقافية سهلة الحل على الحكومات اذا توفرت النيات الطيبة ، وتوفرت العزائم ، واعتقد انها متوفرة .

ان قاعدة البيضان في الخط هي قاعدة مغربية ككل الاقطار الافريقية الأطلنطية : (مراكش وتونس والجزائر) . وهي ، ان القاعدة تشكل هناك « وحدة » خالصة للتفاهم خالية من كل صعوبة او تعقيد .. وكذلك الحال بين الاقطار المشرقية المتوسطية (لبنان وسوريا والعربية المتحدة

والعراق والسعودية) أي ان لهذه الاقطار ، « قاعدتها » المشرقيـة في الخط ايضاً ،فلا يشكل على اللبناني مثلاً ان يقرأ خط المصري والسوري والكويتي وسواهم من بقية البلاد المشرقية . في حين انه يشكل علينا ان نقرأ – إلا نادراً – الخط الموريتاني – المغربـي ، وبالمقابـل ، يشكل عليهم قراءة خطنا ، إلا ما ندر ..

تلك هي « مشكلة التفاهم » التي تعوق الى حد بعيد الصلات الفكرية بين المشرق العربي وعرب أفريقيا الغربية والشمالية بواسطة الرسائل .

ولكن حل هذه المشكلة ليس صعباً ابداً اذا تبنتهـا الحكومات او الجامعة العربية كما قدمنا . وحلها يتم بواسطة « تدريس » قاعـدة الخط المغربـي في المشرق،وتدريس قاعدة الخط المشرقي في المغرب .. وحينئذ تتم أعظم « أداة » للروابط والصلات بين الناطقين بالضاد مهما بعدت المسافات بين أقطارهم !

غير اني اميل تفضيل القاعدة المشرقية على المغربية ، واعتمادها وحدها في توحيد الخط العربي لأسباب هي محض فنية،ولا أثر فيها للعاطفة .. وأعزز رأيي ببادرة تاريخية رواها ابن خلدون وهو كما يعلم الجميـع مغربـي صميم [1] .. وخلاصة الحكاية انه لما نزل ابن خلدون بالينبُع في طريقه الى الحج سنة ٧٨٩ هـ التقى بالفقيه الأديب ابي اسحاق ابراهيم الساحلي المعروف جده بالطويجن ، ومعه رسالة حنين وتشوق من صديقه الوزير ابي عبدالله بن زمرك ، تنطوي على قصيدة طويلة وكلمة نثرية بليغة الى الملك الظاهر .

وهنا يقول ابن خلدون: « وقد استأذنته – يعني ناقل الرسالة – أن أنسخ القصيدة بالخط المشرقي لتسهل قراءتها عليهم » الخ .. وفي هذه الرواية دليل قاطع على أمرين : استحسان الخط المشرقي عـلى المغربـي في عدة شواهد من التاريخ وصعوبة الاتصالات الفكرية عن طريق الخط

---

١ – رحلة ابن خلدون غرباً وشرقاً ص ٢٩٤ ، طبع دار الكتاب اللبناني ببيروت .

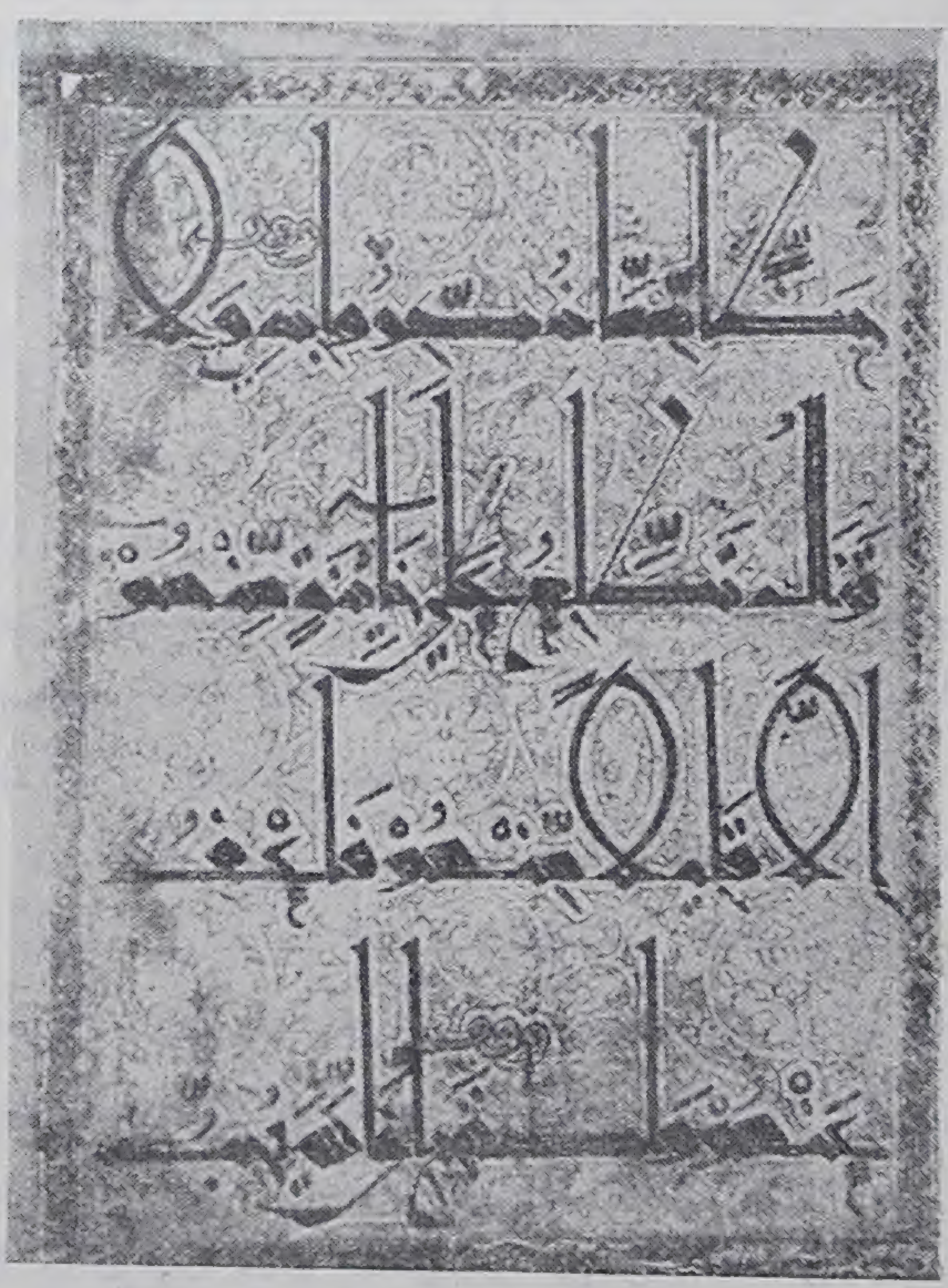

ورقة مصحف ، وهي تمثل نموذجاً من زخارفهم بالخط الكـوفي في القرن السادس الهجري بشكل أوراق وغصون نباتية . والجدير بالذكر ان الخط الكوفي المشجـّر هو أكثر الخطوط شيوعاً في البلاد الاسلامية وخاصة في المغرب وموريتانيا .

●

المغربي : وهي صعوبة تعود الى تعقد القـاعدة الخطية – المشجرة – فيه ، والتي كانت وما تزال عائقاً مزعجاً عن سرعة التلاقي والتفاهم.. ولا ريب ان ابن خلدون كان يؤمن في قرارة نفسه ان الخط المشرقي أجمل بلا مراء وأوضح . ولذلك كان هو يجيده ويكتب به، مثلما يكتب اليوم كثير من الموريتانيين الناشئين في السعودية وغيرها من البلاد المشرقية، الخط المشرقي بتجويد تام . وليس عبثاً تفضيل ابن خلدون نسخ القصيدة بقاعدته « لتسهيل قراءتها » ..

وهناك في « تاريخ ابن خلدون » أيضاً رواية مماثلة تدل على استحسان الخط المشرقي وتفضيله ، فقد ذكر امـام المؤرخين العرب ان سلطان تونس اصطفى كاتباً حاذقاً لديه هو ابن العباس الغساني لما كان يحسن الخط المشرقي ، كان آثر عنده من الخط المغربي [1] ..

لدي خبر سار قل – من يعلمه – يتعلق بمسألة الخط العربي . وهو ان وجود المهاجرين العرب وخصوصاً اللبنانيين المنتشرين بالألوف في الاقطار الافريقية ، ساهم مساهمة عملية فعالة في « تبادل الخطوط » وتعلم قاعدتها عندنا وعند عرب افريقيا . ان خطنا المشرقي – قاعدتنا – بدأنا نجـد من يقرأه في موريتانيا ومراكش بلا صعوبة ، وكانوا في السابق لا يستطيعون ان « يفكوا » من رسائلنا حرفاً .. كما اننـا نحن بدأنا – بفضل الهجرة والاختلاط – نقرأ خطوطهم بأقل جهد .

وثمة شيء آخر هام ، غير الهجرة والمخالطة الاقليمية ، ساهم في لغة التفاهم الخطي هو : سيرورة الكتاب العربي المطبـوع في بيروت والقاهرة والشام في بلادهم .. ففي دكار أصبح يوجد عدة مكتبـات عربية فيها أحدث الكتب والصحف التي تصدر في بيروت والقاهرة .. كما ان الكتاب العربي المشرقي يتغلغل في افريقيا أيضاً بواسطة الفئات

---

١ – ابن خلدون ج ٣ م ٦ ص ٦٥٣ طبع بيروت .

المثقفة من المهاجرين اللبنانيين . وهكذا ، بهاتين الوسيلتين يتداول البيضان كتبنا ومؤلفاتنا الحديثة والقديمة ، بيسر وسهولة . ولا ريب ان نواكشوط وهي الآن في مستهل نهضة جبارة ، ستولي هذه المسألة كل ما تستحقه من عناية وتقدير .

Date.......... ....

Call No..........

Account No..........

J. & K. UNIVERSITY LIBRARY

This book should be returned on or before the last stamped above. An overdue charges of 6 nP. will be levied for each day. The book is kept beyond that day.

الفصل الثالث

في مدار الشعر

Call No..........

Date..........................

Account No..........

J. & K. UNIVERSITY LIBRARY

This book should be returned on or before the last stamped above. An overdue charges of 6 nP. will be levied for each day. The book is kept beyond that day.

تَعرِيفُ الشِّعْر

ليس من السهل وضع تعريف للشعر ، وسنحاول تعريفه تعريفاً يتفق والاستعمال الشائع .

لا شك ان أول ميزة للشعر يعرفها الناس،ما له من أوزان وقواف، وقد طغت فكرة الشكل هذه على كثير من الذين عرفوه ، فقالوا في الادب العربي انه الكلام الموزن المقفى ، وقال بعض الأفرنج : أي كلام موزون يسمى شعراً سواء كان جيداً او رديئاً ، ولكن هذا وذاك من غير شك تعريف قاصر لا يتناول إلا الشكل ولذلك قال ابن خلدون: «انه لا يصلح إلا عند العروضيين ولا يصلح عند البلاغيين» . وعلى هذا التعريف كل العلوم المنظومة،وكل قول منظوم ولو كان سخيفاً شعر ، وعرفه هو بقوله : ان الكلام البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروى المستقبل كل بيت منه بغرضه ومقصده عما قبله الجاري على أساليب مخصوصة ، وعيب هذا التعريف انه لم يلتفت الى أكبر مزية الشعر ، وأحد أركانه ، وهو اثارة الشعور، وعني بالشكل فقط من بنائه على الاستعارة والاوصاف وكان خيراً منه ان يقول : انه المبني على الخيال المثير للعاطفة ، واستقلال كل بيت منه في غرضه ومقصده ليس من العناصر الأساسية فيه التي يصح ان

تدخل في التعريف . وقد أكثر الأفرنج من تعريفه فبعضهم ضيقه جداً حتى لا يشمل الشعر كله ، وبعضهم وسعه حتى شمل الشعر المنثور ، فقال مثلاً « رسكن » انه هو ابراز العواطف النبيلة بطريق الخيال . وهو تعريف يصح ان يكون للفن كله لا للشعر وحده . ويقول في موضع آخر « وردسووث » : الشعر هو الحق ينقله الشعور حياً الى القلب ... الخ .

وبعض الشعر يخاطب العقل لا المشاعر، كبعض شعر المتنبي والمعري ، وكل شعر الحكم وما يسميه العرب باب الأدب ، ولكن أكثر الشعر لا نسميه شعراً ما لم يحرك شعورنا ويولد فينا كثيراً من الانفعال كالذي تولده الأغاني ، وتكون المنزلة الاولى فيه للشعور لا العقل ، اما ما يخاطب العقل كالذي ذكرنا فهو شعر في المنزلة الثانية أو الثالثة ، ولهذا قال ابن خلدون : ان الكثير ممن لقيناهم من شيوخنا في هذه الصناعات الأدبية يرون ان نظم المتنبي والمعري ليس من الشعر في شيء ، لأنهما لم يجريا على أساليب العرب ، والحق ان ليس السبب انهما لم يجريا على هذه الأساليب ، ولكنهما سلكا مسلك نظم الحكم العقلية البعيدة عن إثارة الشعور .

فالشرطان اللذان يجب توافرهما في الشعر هما الوزن والقافية والاتصال بالشعور . فاذا وجدت نوعاً من الأدب يجمعهما كان شعراً ، أما اذا وجد الشرط الأول دون الثاني فنظم لا شعر ، واذا وجد الثاني دون الأول فنثر شعري ، وهو الذي كان يكون شعراً لولا انه فقد الوزن، وهذان الشرطان يخرجان أنواعاً كبيرة مما اعتاد الناس ان يسموه شعراً وليس بشعر ، كألفية ابن مالك والمتون المنظومة ، وهذه كثيرة في الشعر الموريتاني .

وأجود الشعر عادة ما نجده مذبذباً غير متسلسل ، مفككاً حماسياً مندفعاً ، وأيضاً ان الشعر كالنثر لا يستطيع ان يكون طلسماً معقداً

او ان تكون لغته مدعاة للتهويش الفكري .

ولكن يباح في الشعر بعض الغموض والاكتفاء بالايماء والرضا عن الرموز ولا يباح للناثر الا ان يكون واضح الدلاة سهل العبارة بيّن الاشارة . ومن اجل ذلك اختلف المفسرون للشعر اختلافاً كبيراً ، وذهب كل الى معنى كالذي نجده في شروح شعر المتنبي وشعر ابي تمام،فهم يختلفون في شرح المعنى المقصود اختلافاً كبيراً على حين انك لا تجد هذه الخلافات في النثر .

والشعر يثير المشاعر بما فيه من خصائص . فأولاً بأوزانه وقوافيه ، ولذلك كان المعنى الواحد اذا قيل مرة شعراً ومرة نثراً كان في الشعر اكبر اثراً، بل ترى ان الشعر اذا حل الى نثر لم يكن له ذلك الأثر الكبير ، ولم يكن لهذا الاختلاف من سبب الا ما في الشعر من موسيقى. وثانياً ما للشعر من لغة خاصة غير لغة النثر ، ولسنا نعني بلغة الشعر الكلمات العويصة ، او انواع البديع او نحو ذلك ، فهذا كله لا يرفع من قيمة الشعر ، وقد يكون الشعر جيداً وكلماته في منتهى السهولة ، وهو كذلك خلو من انواع البديع كأكثر اشعار البهاء زهير ، انما الذي نريده ان للشاعر ملكة لا يمكننا ان نوضحها تمام الوضوح ، بها يستطيع ان يتخير من الفاظ اللغة ما يرى انها ابعث على اثارة المشاعر، وكذلك يضعها في قوالب خاصة يتخيرها من القوالب العديدة والتراكيب اللغوية المختلفة .

وقد نقد سيف الدولة الحمداني ابا الطيب المتنبي في قوله :

وقفت، وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائم!
تمر بك الابطال كلمى هزيمة ووجهك وضاح ، وثغرك باسم!

وقال له : المنطق يقضي ان يكون نظم البيتين هكذا .

وقفت، وما في الموت شك لواقف ووجهك وضـــاح وثغرك باسم
تمر باك الابطال كلمى هزيمـــة كأنك في جفن الردى وهو نائم

فاعتذر المتنبي بأن صناعة الشعر تقتضي هذا كما قال امروء القيس :

كأنيَ لم اركب جواداً للذة ولم اتبطّن كاعباً ذات خلخال
ولم اسبق الزّق الرويّ ،ولم أقل لخيلي كرّي كرةً بعد إجفال

وان الثوب لا يعرفه البزاز معرفة الحائك ، لأن البزاز يعرف جملته، والحائك يعرف تفصيله ..

والذي يجعل الشاعر شاعراً هو تلك القدرة على التصوير،فقد يكون عندنا شعور فياض كالذي عند الشاعر ، ولكن ليس عندنا من المقدرة على التصوير ما عند الشاعر ، ومن ثم كان من المستحيل ترجمة شعر من لغة الى شعر في لغة اخرى كما قدمنا ، اذ الترجمة تذهب بما للشاعر من قدرة فنية وطريقة اداء ، وهــذه الطريقة شخصية محضة ، تختفي عند ترجمة الشعر ، والذي يمكن ترجمته فقط هو المعنى الــذي حواه الشعر وما فيه من تصوير وخيال ، وما يحتويه من عواطف عامــة ، ويعد المترجم أميناً اذا هو استطاع ان ينقل ذلك كله . اما طريقــة الاداء فلا يمكن ترجمتها . نعم ان بعض الشعراء يقرأ القطعة من الشعر ويكون له قدرة فنية فيصوغ هو شعراً مستمداً من وحي ما قرأ ، وقد يجري مع الأول في واد واحد ويكون له نفس العذوبة والجمال .

وقد ادرك هذا المعنى عبد القاهر الجرجاني اذ قال : ان هناك الفاظاً لا يحسن وضعهـــا في الشعر ، واذا اتت فيه كانت سمجة مثل كلمة (أيضاً) فأنها لم تأتِ في شعر الا سمج ونحو ذلك الا قول الشاعر :

غير اني بالجوى أعرفها وهي (أيضاً) بالجوى تعرفني

فان أيضاً هنا عذبة لطيفة ، وكما قال ابن خلدون : ان كلمة (ما الفرق) أشبه بلغة الفقهاء منها بلغة الشعراء ، كقول القائل :

لم ادر حين وقفت بالأطلال ما الفرق بين جديدها والبالي

وهكذا ..

ان الشعر يخاطب العواطف مباشرة ، وذلك لما عند الشاعر من قوة الهـام لا تكتسب بتعلم ، وللشاعر نوع غامض من لطف النظر ، او الإلهام ، او اللقانة ، او ما شئت فسمه ، ولهذا كان اليونان يسمون الشاعر خالقاً ، وكان للعبريين كلمة واحدة تدل على الشاعر والنبي معاً، ولعل هذا هو الذي جعل شعراء العرب يعتقدون ان لكل شاعر شيطاناً ينفث فيه الشعر : ويقول احدهم :

« شيطانه انثى وشيطاني ذكر » ولأمر ما ، خلط العرب بين النبي والشاعر فسموا النبي شاعراً أحياناً وكاهناً احياناً ، ويقول القرآن الكريم: « وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون » .

وللشاعر نظر باطن للحياة ، ولهذا قال ورد سوورث عن الشعر «انه روح المعرفة وحياتها ، ونقد الحياة » . والحق اننا نقرأ في شعر الشاعر معنى الحياة وشرحها . ذلك لأن الحياة محكومة بالمشاعر والبواعث على عملنا وليست خاضعة لعقولنا وحدها ، ولا للحقائق المجردة ، وانمـا تصطبغ بمشاعرنا ، وليست تخضع للمنطق وحده انما تخضع كذلك للعواطف ، والشعر هو الذي يعبر عن هذه العواطف ، او العواطف ممزوجة بالعقل.

وخير دليل على ان الشعر هو معنى الحياة ، ان شعـر كل عصر مرآة له . وقديماً قالوا « الشعر ديوان العرب » والحق انه ديوان تسجل فيه حياتها ، أعني تسجل أفكارها ومشاعرها ، فالشاعر يعطيك صورة

روحانية أكثر مما يعطيها التاريخ ، والشعراء عادة في مقدمة قومهم ، أو في جبهتهم ، وقد يسبقونهم قليلاً ، وهم عادة ايذان الفلسفة ، وارهاص لها ، فهم يحدثوننا حديثاً فيه شيء من الابهام عن حقائق الحياة ، فكان هوميروس ارهاصاً لسقراط وافلاطون وارسطو ، وكان شعراء الجاهلية ارهاصاً للنبوة .

حتى لقد حكي ان النبي صلى الله عليه وسلم لما سمع قول لبيد :

* الا كل شيء ما خلا الله باطل *

قال : ان هذا من كلام النبوة !

وهذه الارهاصات عادة تسبق طور الشرع والتدليل والتحايل الذي يقوم به الفيلسوف ، كالفرد يشعر بالشيء قبل ان يفكر فيه تفكيراً دقيقاً ، فنحن نشعر ونلهم قبل ان نخضع للمنطق .

شعر الطبيعة

ونعني به الشعر الذي موضوعه عالم الطبيعة ، وما اكثر هذا النوع في الشعر الموريتاني فالطبيعة صالحة كل الصلاحية لأن تكون موضوعاً للشعر . وبعض الشعراء قد بنوا شهرتهم على تفنن في شعر الطبيعة كالصنوبري ، وبعض شعر البحتري ، وبعض شعراء الأندلس .

وشعراء الطبيعة يختلفون اختلافاً كبيراً في طريقة التناول ، فالطبيعة يمكن ان تُتَناول بالطريقة الواقعية فتوصف المناظر كما هي في الحياة — أو بالطريقة المثالية الكمالية وهي تقتضي تكميل ما في الطبيعة بواسطة الخيال — والطريقة الفلسفية وهي طريقة الذين يتفكرون في الطبيعة ويجعلونها ميداناً لتأملاتهم ويبينون أهميتها الباطنية ، ويعرضونها كتعبير

عن النقل او الروح أو كحجاب ظاهري تلوح من خلاله حقائق غير منظورة كقصيدة ابن سينا في النفس :

هبطت اليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع

وكقصيدة ابن الشبل البغدادي :

بربك ايها الفلك المدار أقصدٌ ذا المسير ، أم اضطرار !

والشاعر في تناوله للطبيعة ليس ملزماً بنوع شعري واحد، قد يتناولها في الشعر القصصي أو الشعر التمثيلي وقد يتناولها في الشعر الغنائي ، فأن الطبيعة حين تجتذب انتباه الشاعر تثير فيه روحاً من التقدير يتحول الى حب ، ولذلك يتناولها في شعر غنائي لأنه هو الذي يعبر عن الحب .

والشاعر الغنائي عادة شاعر تلميح وايماء بطبيعة صنعتـــه ، ولذلك يعيش شاعر الطبيعة في عالم من الايماء والتلميح،وللطبيعة خاصة غريبة ، فهي تخاطب في لغة من الرموز والاستعارات والايماءات ، وما يتعلمه منها الشاعر بنقله الى الآخرين بنفس اللغة ، فهي لغة لا تكون وافية صريحة ولا كاملة مفصلة .

ومما يؤسف له ان شعراء الطبيعة في الأدب العربـي عنوا بالاستعارات والتشبيهات أكثر مما عنوا بروح الطبيعة ، والطريقة المثلى في شعر الطبيعة ان يُشَرِّبها الشاعر ثم يبرزها الى الناس كما شُرِّبها او ان يفنى فيها فيغني لها وبها ، فخرج شعرهم فيها اشبه ما يكون بالألعاب البهلوانية ، فمن النوع الجيد مثلاً وصف ابـي تمام للربيع :

دنيا ! معاش للورى ، حتى اذا جاء الربيع ، فأنما هي منظر !

ومن النوع البهلواني :

فأمطرت لؤلؤاً من نرجس وسقت ورداً ، وعضت على العنّاب بالبرد

وشعر الطبيعة ، اما ان يهمل الانسان اهمالاً تاماً ويتكلم في مناظر الطبيعة ذاتها ، واما ان يتناول الطبيعة كمسرح للامور الانسانية، فالاول هو شعر الطبيعة الخالص ، والثاني هو شعر الطبيعة المركب ، والشاعر الطبيعي الخالص اما ان يتناول الطبيعة تناولاً موضوعياً او تناولاً ذاتياً . وفي التناول الموضوعي يجب ان يخفي الشاعر نفسه تماماً ، ويدع الطبيعة تتكلم عن نفسها ، فهي تتكلم عن نفسها وتخاطب الشاعر . ولذلك يجب ان يكون الأسلوب مزيجاً من العرض الصادق والوصف الصحيح ، فاذا تناول الطبيعة تناولاً ذاتياً فأنه ينظر الى مناظرها من صخور وسحب وازهار وطيور ، كما لو كانت تكون عالماً خاصاً . وهنا لا يلزم ان يخفي الشاعر شخصه، بل يصح ان يجعل هذه المخلوقات تابعة لأحواله ، مواسية له في آلامه كالذي قالوا في شجو الحمام ، فأذا كان الشاعر مثالياً ، فأنه يعرضها في ضوء وجو ليس لهما حقيقة في الخارج بل هما مستمدان من ذاته ، فأذا كان فيلسوفاً يمدها بلغة فلسفية رمزية لحقيقة خلقها ، أما الشاعر الذي يتناول الطبيعة تناولاً ذاتياً ، فأنه يتحول بسهولة الى الشعر الذي تناولها كمسرح للانسانية ، فتكون الطبيعة خاضعة للانسان وتابعة له ، وتكون مصدراً للتصوير والمقارنة والتشبيه ، ولذلك يكون محيطه أضيق من شعر الطبيعة الخالص .

فمثلاً قول الشاعر :

وليلة من الليالي الغرّ قابلت فيها بدرها ببدري
لم تكُ غير شفق وفجر حتى تقضت وهي بكر الدهر !

فهذا شعر في الطبيعة في وصف الليل ، وهو شعر ذاتي عبر فيه الشاعر عن شعوره ، وهو صادق التعبير .

وقول ابن المعتز :

يا ربّ ليل سَحَرٌ كله ... مفتضَح البدر ، عليل النسيم
تلتقط الأنفاس برد الندى ... به فتهديه لحرّ الهموم
لَبِسْتُ فيه بالتذاذ الهوى ... ولذة الراح ثيابَ النعيم !

شعر في قصر الليل أيضاً ، ولكنه متكلف قد تصنع فيه انواع البديع كمقابلة « برد الندى بحر الهموم » ، وعنى بالتشبيهات اكثر مما عنى بشعوره بالليل ، وكذلك يفعل شعراء موريتانيا في كثير من الأحوال .

ويقول الشاعر في وصف الخيل :

وننكر يوم الروع الوان خيلنا ... من الطعن حتى نحسب الجون شقرا
فليس بمعروف لنا ان نردّها ... صِحاحاً ، ولا مستنكر أن تُعَقَّرا

وصف يدل على الصدق والتجربة الذاتية الحقة .

وقول آخر في وصف الفرس : « حسن القد ، اصيل الخد ، يسبق الطرف ويستغرق الوصف » .

يقرؤه القارىء فيشعر بأنه عنى بالوصف وسبك اللفظ اكثر مما عنى بشعوره .

وكذلك قول رجل لبعض النخاسين اشترِ لي فرساً جيد القميص ، حسن الفصوص وثيق القصب ، نقي العصب ، يشير بأذنيه ، ويندس[1] برجليه كأنه موج في لجة أو سيل في حدور ، ان عطف جار ، وان ارسل طار ، وان كلف المسير أمعن وسار ، وان حُبس صفَن ، وان استوقف فطِن ... فهذا لعب بالالفاظ ، اكثر منه صدقاً في التعبير .

١ – أي يضرب .

والانسانية واسعة غير محدودة ومتنوعة الجوانب الى حـد ان الشعر كله يصح ان يكون شعراً انسانياً اذا استثنينا شعر الطبيعـة الخالص . وهذا الشعر الانساني امـا ان يكون مقدراً لعظمة الانسان مقراً بجلاله وسمو شأنه، واما ان يكون شعراً هجائياً ينظر للانسان بالازدراء والانقاص كشعر اللزوميات ، فالنوع الأول يجب ان يكون اسلوبه مليئاً بالتقديس والاجلال وان يكون خالياً من اليأس والهجاء ، ويجب ان يكون معبراً عن الصدق والحق ، ملزماً لها خالياً من الصنعة البلاغية والتزويق الزائد، بعيداً عن التكلف والغموض .

واما نظرة الشاعر الهجائي فمختلفة تماماً فهو يذم ، ولا يكتفي الشاعر بذلك بل ينشد مثلاً عليا يصفها ويفضلها على ما يهجوه .

وعاطفة الهجـاء اما ان تكون بغضاً او عدم رضا او احتقاراً ، فالهجاء الذي يقصر على عدم الرضى لا يرتفع الى مستوى شعري عال الا بصعوبة .. لأن عدم الرضا سهل بسيط ، وقد يقود عدم الرضا الى الاحتقار وهو المصدر الاساسي للهجاء . ويوجد الاحتقار حين يشعر الشاعر بسموه على المهجو وارتفاعه عنه واذ ذاك ينتج الهجاء . وقـد يكون احتقار الشاعر للمهجو ممزوجاً بالرثاء لحاله وعطفه عليه ، وهذا الشعور ينتج السخرية ، فاذا خلا الشاعر من هذا العطف وكان احساسه بسموه الشخصي عظيماً ،فأن هجاءه سيكون شديداً واحتقاره يكون بالغاً، فلا تكفي اذن الفكاهة بل لا بد من اللذع القاسي كالذي كان بـين جرير والفرزدق . والشعر الهجائي ناتج عن البغض ينشـأ عن الشعور بالكراهية للأفراد ، وهم غالباً المعاصرون ، وبغضه لهم اما ان يكون ناشئاً عن عدم رضاه عن اخلاقهم او احتقاراً لقدرهم .

والشعر الأنساني اما ان يكون واقعياً او مثالياً . فالواقعي هو محاولة

عرض الشخصيات والحوادث للرجال والنساء كما هي بالضبط بلا تحسين او تبديل . والمثالي محاولة عرض هذه الاشياء بعد التحسين والتقبيح ، ومحاولة الواقعي لا تكون ناجحة الا الى حد محدود ، فأنه لا يستطيع ان يحرر نفسه ويخلص للعمل الفني من تنظيم الاشياء تنظيماً كمالياً . والشاعر الواقعي يرى ان الانسان كما هو في الحياة الواقعية كاف لأن يكون موضوعاً للشعر بل هو مجرد مادة ، فأنه يدخل عليها التحسين والتغيير والتبديل ، وهو يفعل ذلك اما بالمبالغة او التغيير او بالاشعاع ، فالمبالغة ان يجعل الشاعر الحسن أحسن ، والقبيح أقبح ، ويجعل الجميل أجمل . واذا وصف صعوبة بالغ في فضل الناس في التغلب عليها .. واما التغيير فنعني بـه تغيير الشاعر للنماذج التي ينظم فيها شعره حتى تصبح ملائمة لفكره — ونعني بالاشعاع ان يشع عـلى الاشياء ضوءاً وسحراً وجاذبية من نفسه ليست لها في الواقع . والمحيط التعبيري للشاعر المثالي أوسع من المحيط الذي للشاعر الواقعي ، فهو يتمتع بحرية الخلق فيخلق الشخصيات ويخلق الذوق ويكون اسلوبه تبعاً لذلك حراً واسعاً غير محدود .

والشعر الانساني ، اما ان يكون شعراً انتخابياً ، او شعراً عالمياً . فالانتخابي هو الذي يعتقد الشاعر فيه ان طبقات معينة من الناس والأعمال هي التي تستحق التناول الشعري ، وفي تاريخ الأدب كان الشعر الانتخابي دائماً هو شعر العصور الماضية . كالذي يروى عن المتنبي ، اذ ترفع عن مدح الصاحب بن عباد معتقداً ان اقل من يصح ان يمدحه هو ابن العميد . فكيف بمن دونه كالصاحب بن عباد ؟

أما الشاعر العالمي : فهو الذي يرى ان الطبيعة الانسانيـة في كل زمان وفي كل مكان ، ومن أي طبقة كانت تستحق ان يتناولها الشاعر ، وفي التاريخ كان شعر الحركات الثورية هو الشعر المثالي ، فهو يعارض العصور الماضية ، ويروم هدم تقاليدها .

ويرى الشاعر المثالي ان الطبيعة الانسانية تكاد تكون متقاربة بين الأفراد ، والفروق التي بينهم فروق عرضية أكثر من جوهرية ، بل انه يرى الانسان الكبير في الصغير ، والامير في الحقير ، ولذلك لا يترفع عن ان يحلل شخصية صغيرة لأنه يرى فيها « الانسان » على أي حال كان ، وشأن هذا شأن تاريخ مؤلفي الروايات ، فقد كانوا في العصور الماضية لا يتكلمون الا عن القصور ومن فيها ،والعظماء والأشراف ومن يماثلهم ، ولم يكونوا يعرضون للكوخ ومن يسكنه الا لأضحاك العظماء او السخرية بهم ، ثم انتقلوا الى فهم ان كل شيء يصح ان يكون موضوعاً للأدب ، وموضوعاً للقصة ، فالكوخ الحقير كالقصر الكبير ، والفلاح الصغير يصح ان يكون موضوعاً للقصة كالأمير الكبير .

الصنعة الشعرية

تشمل الصنعة الشعرية الوزن والقافية والأسلوب الشعري :

فالوزن في الشعر العربي هو ما يسمى بالبحور : ونظام المقاطع وتتابعها . وترتيبها ، هو ما يسمى بالتفاعيل . وللوزن كما قلنا علاقة كبيرة بالموضوع ، فمن الموضوعات ما يناسبه البحر الطويل ، ومنها ما يناسبه البحر الخفيف وهكذا .

أما القافية فعامل عظيم في الشعر : فهي تزيد في موسيقاه : ولذلك تزيد في المتعة منه .

وقد أفرط بعضهم في القيود في القافية ، فكان من ذلك لزوم لا يلزم : كما فعل ابو العلاء في كتابه اللزوميات :

وقد مال العصريون تبعاً للغربيين الى التحرر من القافية الواحدة : لتوسعهم في الشعر غير المقفى ، أما الأسلوب الشعري ، فهو الصفات الكلامية التي تجعله قوياً ، أو رقيقاً عاطفياً ، أو جميلاً .

والفرق بين اسلوب الشعر واسلوب النثر ، ان في اسلوب الشعر قوة غامضة لبعض الكلمات وبعض التراكيب تنتج هذه القوة من اجتماعها أو جرسها فتسبب استثارة الخيال ، وتنفذ الى صميم القلب . ولأسلوب الشعر السحر الطبيعي الذي يرجع الى الوحي الأسمى والى قوة الصياغة التي تعبر بها اللغة عن معان وراء المعاني الاصطلاحية اللغوية . وبما ان اسلوب الشعر اسلوب رمز وايماء فيجب مراعاتها ، ويجب دراسة اصولها ودراسة قيمتها الجمالية .

وفي دراستنا للشعر نتناول ديوان شاعر منفرد لنحلل شعره . ونفحص مميزاته البارزة في لغته وان نتتبع العناصر التي يستمد منها فكره، ونرد اسلوبه الى مصادره وان ندرس علاقاته بروح عصره وحركاته ثم بعد ذلك قد ننتقل منه الى الشعراء الآخرين في عصره . متخذين شعره أساساً للمقارنة بينه وبينهم نقطة فنقطة .

وقد نقوم بدراسة تاريخية لمجموعة كبيرة من الشعر الموريتاني في كتاب آخر ، نتحدث عن هذا الشعر في مده وجزره ، وتأثيره من عصر الى عصر ، وقيام المدارس والطرق والتقاليد وسقوطها ، ملاحظين كل تغير هام في الموضوع والروح والأسلوب ، وباحثين عن شرح هذا التغير في القوة المبدئية لرجال معينين ، وفي الظروف التي ساعدت على شهرتهم أو عدمها ،وفي الميول العظمى للحياة والفكر في العالم الخارجي ، وقد نضيق دراستنا من ناحية ، ونوسعها من ناحية اخرى ،فنعنى بتاريخ نوع شعري كبير واحد كالغزل والرثاء . وخلال ذلك ندرس مراحل الشعر في هذه الناحية وتطوره وتغيره في الآداب المختلفة والأزمنة المختلفة ، وقد نختار موضوعاً معيناً مثل شعر الطبيعة ، ونجعله أساساً لدراسة تمتد وتتفرع الى نواح مختلفة ، ونتصل بنقط كثيرة مع دراسة تطور الأدب على العموم .

ولكن كيف نقدر الشعر ؟ نبدأ بالتحذير من أننا مهما تعمقنا في

دراستنا ومهما توسعنا ودققنا في معرفتنا بتطور الشعر وصنعته ، ومهما انهمكنا في مشاكل التاريخ والنقد ، فيجب ان لا ننسى ان غرضنا الرئيسي من الشعر يجب ان يكون الاستمتاع بالشعر كشعر ، وبالشعر لأجل الشعر ، وبعبارة اخرى نستمتع به كشيء من الجمال مليء بالمعاني ممن لهم قدرة يشعرون بها ، وقلب يفقهون به .. ومن ثم فتنمية القدرة على التقدير الشعري أهم من كل الدراسات العلمية .

وأحسن ملحوظة يمكن ان تقال في هذا الأمر ، انه في تقديرنا للشعر يجب ان نتذكر دائماً ان الشاعر يخاطب مباشرة المشاعر التي في نفوسنا وان استمتاعنا الحقيقي بالشعر يتوقف على حدة ادراكنا الخيالي، واستجابتنا للعاطفة الشعرية .

ومعنى هذا ان أية قصيدة لا يمكن ان نفهمها وان نتمثلها الا بمران طويل من جانبنا للقوى التي سببت انشاء القصيدة .

ومن العبث ان نتحدث الى اولئك الذين ولدوا بدون حاسة شعرية، كما لا نأمل ان نُمتع بالموسيقى الذين فقدوا الحاسة الموسيقية .

ونضيف الى ذلك ، اننا في قراءتنا للشعر يجب ان لا نقتصر على قراءته سراً ، بل يجب ان نتلفظ به بحيث نسمعه ، فأن قراءته سراً تضيع أغلب جماله وسحره اللذين يوجدان في الصوت وخاصة في موسيقى الوزن ، لأن الشعر كلام موسيقي، ولذلك يدين بكثير من جماله وسحره وقدرته الغريبة على استثارة العواطف ، لجمال اللفظ ولانغامه المتنوعة في الوزن والقافية ، ولذلك فقيمته الكاملة لا يمكن ان تقدر إلا اذا خاطبنا العواطف من خلال الاذن أيضاً ، فيجب ان نمرن الاذن بقراءة الشعر بصوت مرتفع .

هـــذه هي الملاءمة في الشعر .. اما الملاءمة في النثر فتكون بحسب اقسامه . ومما يؤسف له ان كثيراً من المحاولات بذلت في تقسيم الشعر سواء في ذلك علماء الشرق وعلماء الغرب ، ولكنهم لم يعنوا هذه العناية

في تقسيم النثر . ولا بد لنا من تقسيمه لنعرف ما يلائم كل قسم ،وهو في الغالب اما خطابة أو دراسة أو تاريخ وسيرة ، او مقالة او قصص تمثيلي نثري ، او رواية أو صحافــة ، فلنبين الملاءمة في كل نوع . فالخطابــة هي الحديث المنطوق تميزاً لها عن الحديث المكتوب ، وهي الصورة البدائية للنفس صحبت الانسان من قديم ، ولها صورتان رئيسيتان: هما الخطابة المدنية والخطابة الدينية .

فالأولى قد تكون سياسية او قضائية او نحو ذلك ، والثانية اكثر ما تستعمل في الوعظ ،ومن أهم مميزات الخطابة على العموم البلاغة. والفنون البلاغية تدخل جميع صور الادب ولكن حاجة الخطابة اكثر .

وفي الخطابة شيء كثير بجانب التعبير اللفظي كالأشارات والنبرات والايماءات والحيــل ، وكل هذه الاشياء لا قيمة لها كبيرة في انواع الادب الاخرى . ومن اجل هذا نرى ان كثيراً من الخطب تفقد قيمتها اذا قرئت لأنها خلت من هذه الاشياء . اما الخطابة الدينية فيدفعهــا الى التزام البلاغة الجلال لأن موضوعها الاساسي هو العلاقة بين الله والانسان فهذه العلاقة تدفع الخطيب الى البساطة والوضوح او الفخامة والتسامي ، وثانياً تحتاج الى يقين الخطيب اذ يتكلم الواعظ تحت شعور خــاص من اليقين وعدم الشك،وهذان يقودانه الى استعمال البلاغة ، فأنه اذا أحس بأن ما يتكلم فيه حقائق لا شك فيها دعاه ذلك الى تأكيدها والمبالغة في اثباتها فيستعمل البلاغة ، وثالثاً مــا تستتبعه عادة من الحث والتحريض فأنه اذا استحثهم دفعه ذلك الى استعمال كل فنون البلاغة . وقال بعضهم: انه اذا قلّت البلاغة سواء في الخطابة الدينية او المدنية كانت الخطــابة أفضل ، لأنها اذا تجردت من البلاغة اعتمد الخطيب على عرض الحقائق كما هي .

اما الدراسة فنعني بها دراسة الأدب والأديب ، فالكتاب الكبير يولد من عقل مؤلفه وقلبه ، فان الاديب قد وضع نفسه في صفحاتــه وهو

مستمد من حياته ومتولد من ذاتيته، فلنبدأ بأن نبحث عن الاديب الذي يبدو في الكتاب ، ويجب ان يكون غرضنا الاول تأسيس علاقات شخصية مع كتبنا بطريقة بسيطة مباشرة انسانية . ويجب ان نقرأ الكتاب لا على اننا علماء ، بل على اننا مستفيدون . ولنكن قراء مجيدين ، ولا نكون كذلك الا اذا أسسنا قراءتنا على اساس الصداقة الوثيقة بيننا وبين المؤلف، والكتاب العظيم ترجع عظمته الى عظمة الشخصية التي انتجته ، اذ كان ما نسميه العبقرية ليس اسماً آخر لصفاء الطبيعة وصدقها وابتكارها . والكتاب العظيم يتطلب قراءة عميقة وفهماً لشخصية المؤلف وربط الصلة به وبعبقريته، فأن ذلك يجعلنا نرى بعينه ونشعر بشعوره .

مبدأ الصدق: ويتصل بهذا شيء يحتاج الى اهتمام خاص وهو الاخلاص التام من الفرد لنفسه والاخلاص التام منه لتجربته الخاصة في الحياة ، ولصدق الأشياء كما يراها هو لا كما يراها غيره ، وقد كان افلاطون أول من أعلن ذلك . قال ألفرد دي موسيه رداً على من يلومه في العشق : « انه أنا الذي عشق .. » وهي جملة تحتوي على معان كثيرة، أي انه هو الذي يتذوق العشق ، وانه يعشق بشعوره لا بشعور غيره ، وانه هو المسؤول عن ذلك . والأديب الحق هو الذي يتكلم بصراحة عن نفسه وعن شعوره وتجاربه ، وربما نجد أديباً أقوى في الطبيعة ، وأوسع ثقافة وأكمل في الفن ، ولكنه أقل صراحة ، فتأتي أعماله أقل من الأول . وبدون الاخلاص لا يمكن ان يوجد في الأدب عمل حي وميزة التجديد التي يدأب الناس في البحث عنها ليست في الجدة ولكنها في الصدق ، وهو مبدأ يجب ان لا ينساه طالب الأدب قط ، سواء كانت تجارب الأديب صغيرة أو كبيرة فيجب ان تكون هي محور أدبه ، وان يصف بصدق وأمانة ما عاشه وما رآه وما اشترك فيه وأحس به . وقد يهمل المتعلم هذه الحقيقة لما يرى من كتب كثيرة رائجة خلت من الصدق، ولكن الحق ان قيمة الأدب هي في مقدار صدقه .

ولسنا ندعي ان الصدق هو الفضيلة التي يقولها الاخلاقيون ، وانما نعني بالصدق مطابقة الكلام لتجارب الشخص ولو كانت رذيلة . فأبو نواس حين يتكلم عن تجاربه في الخمر ومدحها ، وفي الغزل بالمذكر صادق مخلص ، لأنه يعبر عن تجاربه الشخصية ، ولو كان الموضوع غير مستساغ في الخلق ، والسكير المعربد حين يتكلم عن الفضائل ومدح الفضيلة وذم الرذيلة كاذب ، لأنه لا يعبر عن تجاربه الشخصية ولو كان يدعو الى فضيلة ،وبعض الصوفية اذا قلدوا أبا نواس ومسلم بن الوليد ، فشعروا في الخمر وغزل المذكر كاذبون ، لأنهم لم يعبروا عن تجاربهم الشخصية .

وعلى الجملة يجب دراسة المؤلف دراسة عميقة ، ولدراسته طريقتان الطريقة الزمنية والطريقة المقارنة ، فالطريقة الاولى ، دراسة المؤلف من حيث بيئته وعوامل تأثيرها فيه ونتائجها عنده . والطريقة الثانية مقارنة الأديب بغيره من الأدباء المعاصرين له والسابقين عليه وخاصة في الموضوعات التي امتاز بها الأديب . ويجب ان تفرق تفريقاً تاماً بين القارىء العادي للكتاب ، وبين متعلم الأدب ، فالاول لا يستمتع بما يقرأ ، والثاني يستمتع . والأول يقرأ بطريقة اختيارية مطلقة لا تخضع لشروط ،والثاني يقرأ قراءة منظمة وفق نظام معين أو خطة خاصة . وما دمنا نأخذ ببساطة كتاباً من هنا وكتاباً من هناك حسب الصدفة أو كما توحي الرغبة الطارئة ، فأننا نكون مجرد قراء ؛ أما اذا أدخلنا النظام في قراءتنا نكون متعلمي أدب .

فطريقنا الطبيعي ان ندرس بعمق الكتب ،وننتقل الى دراسة المؤلفين ، ونؤسس علاقات شخصية معهم في عملهم الأدبي ، وندرك عبقرية الادب في مجموعها وتنوعها . قد نبدأ بناحية خاصة من نواحي الأديب ، ولكننا نتوسع بعد ذلك في جميع اعماله فنرى انها وحدة . والطريقة الزمنية أيضاً تتطلب ان تعرف اعمال المؤلف وترتيبها في الوجود . هذا

الترتيب يضيء لنا حياته الباطنة ، وكيف نتصورها ، ولذلك كان ترتيب الدواوين بحسب تطور الشاعر ، خيراً من ترتيب الديوان على حسب حروف الهجاء .

اما الطريقة الأخرى فتقارن بين الرجل ونفسه، وبين الرجل ومعاصريه. وبين الرجل ومن كتبوا في مثل أدبه .

وعلى الجملة فيجب ان نقارن بينه وبين الرجال الذين عملوا في ميدانه، وعالجوا نفس الموضوعات التي عالجها ومارسوا نفس المسائل التي مارسها وكتبوا تحت نفس الظروف التي كتب فيها ، او الذين بينهم وبينه في أذهاننا أي سبب آخر .

اما دراسات السِّير فتفيدنا فائدة جليلة في الادب ، فحين يستثار اهتمامنا بكتابة أي مؤلف كبير سنزداد رغبة في ان نعرف شيئاً عن الرجل نفسه ، وسيكشف لنا عمله نفسه ، وسنكون مشتاقين الى ان نراه في الأوساط الاجتماعية التي يعيش فيها ، وفي علاقته اليومية مع رفاقه ، وان نعرف أهم العوامل في تاريخه الخارجي وفي آماله وجهاده ونجاحه واخفاقه ، والصلة بين كتبه وهذه البيئة الخارجية والداخلية والطريقة التي بها كتب هذه الكتب ، والظروف التي كتبت فيها ، مقتصرين على ما يفيدنا في تنمية ثقافتنا الأدبية ، وهذا التحديد مهم جداً . وبعض الادباء يكتب احداثاً تافهة فارغة لا تفيدنا في دراسة أدبه ، كما فعل فروويد في كتابته عن « كارليل » فقد ملأ كتابه بأحواله الشخصية ، وعلاقته الزوجية مما لا يفيد كثيراً في دراسة أدبه .

انما نهتم بالمسائل الأساسية المكونة لعبقرية الاديب لأن مبدأنا في دراسة الاديب ان يعنى القارىء عناية تامة بروح المؤلف ، وبالتعمق في القوى الخيرية لشخصيته .

وفي دراساتنا الأدبية دراسة جيدة يخيل الينا اننا نرسم صورة واضحة للأديب تلقي ضوءاً كبيراً على أدبه .

هذا فضلاً عن ان سيرة الاديب في حد ذاتها لذيذة . ومن الأسف ان دراسة الاديب في الادب العربي قاصرة ، ينقصها العمق والتحليل، وذلك كالسير التي يعرضهـا الاغاني وابن قتيبة وأمثالها . ثم يجب ان نربي في انفسنا روح العطف على المؤلف الذي ندرسه ، ولسنا نلزم الدارس ان يحب الاديب الذي يدرسه ، وقد ندرك عظمـة الأديب ، ولكننا لا نستطيع ان نصادقه ، بل قد تكون علاقتنا معه علاقـة كره صريح . كل الذي يجب ان نفعله حينئذ ان نكون حريصين ، فـلا يطغى علينا كرهنا في الاحكام القاسية عليهم ، كما يجب ان يكون ذهننا مرناً ، ونظرتنا الى الادباء واسعة سمحة .

وقد تنقلب علاقة الكره اذا نحن تعمقنا في دراسة الأديب الى علاقة عطف ومحبة .

ثم تأتي بعد ذلك طريقة المقارنة في الأدب ، فكل من ينتقـل من أدب امة أو عصرها الى أدب امة اخرى أو عصرها ، سيدهشه التغير في الجو الفكري والخلقي ، ومهمة الدارس حين يقوم بدراساته في هذه الآفاق الواسعة ان يلاحظ بدقة هذه الاختلافات الاساسية ، وبذلك يمكن التعبير عن المسائل العظمى للأدب من الحب والبغض ، والغيرة والأمل، وأفراح الناس وأحزانهم ، ومشاكل الحيـاة كيف عبر عنها في الأمم المختلفة ، والعصور المختلفة وسيلاحظ الدارس ان موضوعاً واحداً عبر عنه عند قوم وفي عصر معين بتعبيرات خاصة ، وعبر عنه عند قوم آخرين أو في عصر آخر تعبيرات مغايرة ، وسيلاحظ أيضـاً انه اذا عبرت أقوام مختلفة عن موضوع واحد، كان الفرق في المزاج والنفسية ، وبذلك يستطيع ان يتتبع تاريخ التحول والتغير للصور الأدبية العظمى ، والشعر الغنائي ، والقصة التمثيلية وهكذا .

والاقتصار على دراسة كاتب واحد بمفرده يضيق أفقنا، أما اذا درسناه في ضوء دراسة امته ودرسنا امتـه في ضوء امة اخرى ، فأنه بذلك

يكون أوسع افقاً ، فالأدب العربي يتضح تمام الوضوح اذا ما قارناه مثلاً بالأدب الفارسي ، وكيف تأثر كل أدب منهما بالآخر ، وكيف تطور النثر العربي بعد هذا الامتزاج أو الشعر العربي في العصور المختلفة .

ثم تأتي بعد ذلك دراسة الأدب من ناحية الصنعة الأدبية ، فأن هذه الصنعة تمدنا بنوع من المتعة الفكرية والعاطفية ، كما تعطينا متعة بقالبها الذي تصاغ فيه ، ذلك لأن الأدب فن جميل ، وهو – ككل فن جميل – له قوانينه وشروطه في الصنعة ، وكل ما يتعلق بالصنعة الادبية كالسجع ، وأنواع البديع الأخرى يستمد متعته من ذاته ، فقد نكتفي بها كما هي موجودة فنستمتع بها ، ولكن اذا تتبعنا مؤلفها ومن اين أخذ صنعته ،ودرسنا كيف يصنع عمله الأدبي ولاحظنا خطواته وفحصنا الوسائل التي حقق بها نتائجه كانت متعتنا أكبر ، اذ بذلك يمكننا ان نحكم على هذه الصنعة من نواحي مزاياها وقوتها وضعفها ، ثم يقودنا هذا بعد ذلك الى ان نبحث في مبادىء هذا الفن وقيمة الصنعة التي ظهرت فيه .

وهكذا نجد ان كثيراً من الاشياء التي تبدو للقارىء العادي ذات أهمية عادية يستجلب الانتباه ويثير اللذة .

نحن لا نستطيع ان نطلب من كل انسان ان يكون له عمق غير عادي في فطرته ، ولا نستطيع ان نطلب منه تجربة غير عادية ، ولكننا نطلب منه ان يعطينا أحسن ما يستطيع ، ولن يكون هذا الأحسن شيئاً يملكه غيره .. وكم من الناس قد فقدوا قيمتهم بكبتهم نفوسهم وجريهم وراء غيرهم في اسلوبه وموضوعه ..

وهذا هو الذي يفسر اننا نرى الرجل كبيراً في ملكاته الطبيعية واسع الثقافة كاملاً في الفن ، قد فاقه غيره بسبب ان الأول أقل صراحة وأضعف جرأة في التعبير عن نفسه . وبدون الأخلاص لا يمكن ان

يوجد في الادب عمل حيّ . وميزة التجديد في الادب التي يدأب الناس في البحث عنها ، ليست في الجـــدة ، ولكنها في الصدق . والأنسان سواء كان محيط تجربته وقوته الخاصة كبيراً أو صغيراً ، فأنه يجب ان يكتب عما تقوده اليه اقدامه ، وان يهتم بوصف ما عاشه هو وما رآه وفكر فيه وأحسه بصدق وامانة .

عَناصِرُ الأدَب

اجمع النقاد تقريباً على ان الادب يتكون من عناصر أربعة: العاطفة، والمعنى، والاسلوب، والخيال. ونعني بذلك ان كل نوع من الادب لا بد ان يشتمل على هذه العناصر الاربعة ولا يخلو من عنصر منها. غاية الامر ان بعض الانواع الادبية قد يحتاج الى كمية أكبر من بعض هذه العناصر مما يحتاجه من نوع آخر. فالشعر مثلاً يحتاج الى مقدار من الخيال اكثر مما تحتاج اليه الحكم، والحكم تحتاج الى مقدار من المعاني، اكثر مما تحتاجه من الخيال وهكذا.

١ ــ العاطفة: هي عنصر هام في الادب. ومع علم الاقدمين بها، فان اسمها لم يستعمل في الادب العربي الا حديثاً، كالذي قالوا عن الادب الالماني فيه عشق كثير، ولكن ليس فيه كلمة عشق. فأنت تقرأ طبقات الشعراء لابن قتيبة مثلاً، فتجد فيه قول الشعر للرغبة او الرهبة. ولكن لا تجد فيه كلمة العاطفة لانها لم تخترع الا في العصر الحديث، وكذلك في كتاب العمدة لابن رشيق وفي غيره من الكتب. على كل حال فهي عنصر هام، وقد كثر في تعبير الادباء المحدثين ان فلاناً مشبوب العاطفة او هو ذو عاطفة بليدة. وهذه العاطفة هي التي تمنح الادب الصفة التي نسميها الخلود. فنظريات العلم ليست خالدة.

فالعلم الذي كان في زمن الالياذة قد مات وبقيت الالياذة ، والعلم الذي كان في زمن المتنبي مات وبقي شعر المتنبي ، ولم يبق العلم الـذي في زمنه الا للتاريخ . والسبب في ذلك ان العلم خاضع للعقل ، والعقل سريع التغير حتى في الانسان الواحد من صباه الى شبابه الى شيخوخته ، فقد يرى الرأي في زمن ، ثم يرى غـيره في زمن آخر وهكذا .. امـا العاطفــة فلا تتغير الا قليلاً ، واذا تغيرت تغيرت في اشكالها دون أساسها .

فمثلاً عاطفة الحزن على ميت قد تُضبط عند الالمـان والانجليز ولا تكون مضبوطة عند العرب . ولكن الحزن هو الحزن . وعاطفة الاعجاب بالبطولة قد تتخذ شكل عبادة الابطال عند البدائيين ، وقد تبعث على اقامة تماثيل عند الاوروبيين وقد تتخذ اشكالاً اخرى عنـد غيرهم ، ولكنها في جوهرها ثابتة عند الجميع ، وهكذا .

وأيضاً فأن العلم يتعلق بالموضوع ، والموضوع تتغير قوانينه كلما جد جديد . اما العاطفة فتعلق بشيء ذاتي قليل التغير . وما خلا من العاطفة كالتقاويم والنتائج والاخبار المحلية والمعادلات الجبرية وكتب الاحصاء ، فلا تسمّى أدباً بحال من الاحوال . وكذلك كتب الرياضة وكتب علم طبقات الارض او علم النفس . على حين اننا نعد ابياتاً من الشعر ولو تافهة في فتاة ، أو زهرة او خصلة من الشعر أدباً . ذلك لان النوع الاول غير مرتبط بالعواطف ، والثاني مرتبط بها .

وكتب التاريخ قد تعد أدباً وقد لا تعد ، فاذا كان كتاب التاريخ لا يشتمل الا على حقائق مجردة من العواطف ومستندة فقط على الوثائق والاحصاءات لم يعد أدباً . اما اذا مزج فيه المؤرخ حقائقه بعواطفـه وضحك احيانـاً وبكى احياناً، واتبع الحادثة برأيه فيها ، واكمل بخيالـه ما نقص ، وبعث عند القارىء ما حمّسه أو ما خذّله، كان ادباً بمقدار ما فيه من عاطفة .

واذ كانت العواطف أساساً من أسس الادب وهي التي تجعله خالداً، وكانت العواطف لا تتغير حبب الينا قراءة الشعر مراراً ، فنحن لا نمل من اعادة قراءة المتنبي او أبي العلاء ، على حين اننا نمل بسرعة من قراءة كتاب علمي متى كنا نعلم ما فيه، لانه مرتبط بالعقل لا بالعاطفة، وشيء آخر وهو ان العاطفة أوسع مجالاً لتوضيح الشخصية . ففهم الحقائق العلمية فهماً مطابقاً للواقع والتعبير عنها يشترك فيه الناس على السواء تقريباً ، فنحن اذا قلنا : الخط المستقيم هو أقرب مسافة بين نقطتين كانت هذه الحقيقة عامة يستوى الناس الى درجة كبيرة في فهمها والتعبير عنها . فليس فيها كبير مجال للتعبير عن الشخصية ، ولكن ما اشعر به اذا رأيت نجماً في السماء يخالف ما شعر به من بجانبي ، وتعبيري عنه يخالف تعبير صاحبي . على حين ان الفلكيين في كلامهم عن النجوم واحجامها وبعدها وحركاتها متقاربون في الادراك العقلي والتعبير القولي . وعندما تدخل العاطفة في الشعور والتعبير ، تظهر الشخصية ويكون الادب .

واذا أردت ان تعرف شخصاً ، أعالم هو ام أديب ، ام هو عالم وأديب معاً ، فانظر بنتاجه:أيؤثر كلامه في العقل أم في العاطفة ام فيهما معاً ، فالاول عالم ، والثاني اديب ، والثالث عالم وأديب معاً .

٢ — معنى الادب : وهم يعرفون الادب عادة بأنه تفسير الحياة واستخراج معانيها . ومن الواضح ان استخراج معاني الحياة والتعبير عنها ، انما يرجعان الى ما للانسان من قوة عاطفة ، لان الحياة بمعناها الواسع لا تسيطر عليها الحقائق الخارجية ولا الظروف الخارجية ولا التفكير العقلي بقدر ما تسيطر عليها العواطف ، والعواطف هي التي تحركنا الى العمل وهي التي توجه الارادة وهي التي تحدد مجرى الحياة .

ولذلك نلحظ ان اعمال الحياة ليس ينطبق عليها كلها المنطق ، لان المنطق قانون العقل لا العواطف ، والحياة خاضعة للعواطف والعقل معاً،

ولذلك تراهم يقولون اذا عجزوا عن تطبيق المنطق العقلي ان هـذا ما يقتضيه منطق الواقع . بل قد يكون منطق العاطفة أحياناً مخالفـاً لمنطق العقل ، كالعطف على ابن عاق ، والبكاء على شرير ، وتفضيل ابن الزوجة الجميلة ، ولو لم يكن كفؤاً كما كان من هـرون الرشيد في تقديمه الأمين على المأمون .

والأدب أداته العواطف ، وهو الذي يحدث عن شعور الكاتب ويثير شعور القارىء ويسجل أدق مشاعر الحياة وأعمقها .

٣ – **الخيال** : كذلك لا بد للأدب من عنصر الخيال وهو ضروري في أنواع الأدب وهو الكوة التي نستطيـع بهـا ان نصور الاشخاص والاشياء والمعاني ونمثلها شاخصة أمام من نخاطبه ونستثير مشاعره .

وأخيراً ، لا بد من عنصر رابع وهو حسن النظم وتأليف الكلام كما قدمنا من عناصر الادب ،أعني العاطفة والخيال والمعاني لا بد ان يكون لها لفظ ونمط راق من القول يدل عليه ، وهذا هو الذي نسميه نظم الكلام ، وهذا النظم وسيلة لأداء المعاني لا غاية ولكن له من الاهمية ما لباقي العناصر ، فأثارة العواطف وهي أهم عنصر في الادب ، تعتمد الى درجة كبيرة على ما للكلام من نظم ، فإنا نرى ان المعنى قد يكون مطروقاً شائعاً ، حتى اذا اجيد نظمه خرج كأنه جديد ، بـل يفوق المعاني الجديدة اذا اسيء التعبير عنها ، والقدرة على تأليف الكلام هي مظهر الاديب وهي أقوى أدواته وهي تساوي ما عند الفنانين الآخرين من قدرة على التصوير والنقش او ابراز الموسيقى قطعة فنية وهي انما تكون بحسب الاستعداد وكثرة المران .

والخلاصة التي نصل اليها من كل هذا ، اذا امتحنا العناصر التي في الادب وجدناها أربعة :

١ – العاطفة وهي اظهر ميزة في الادب ، وفي بعض أنواع الأدب تكون الحاجة اليها أشد من أي عنصر آخر .

٢ ـ الخيال وبدونه يكون من المستحيل في أغلب الاحيان ان تستثار العاطفة .

٣ ـ المعاني وهي أساس كل نوع من أنواع الفن إلا الموسيقى ، وفي بعض انواع الادب يكون هذا العنصر أهم ما فيه كالحكم .

٤ ـ نظم الكلام وتأليفه ، وهو ليس غاية ، ولكنه وسيلة للتعبير عما لدينا من أفكار وآراء ، ولكن له من القوة ما يجعله عنصراً قائماً بنفسه . والادب يؤثر ما يؤثر بعناصره الاربعة وليس لعنصر وحده قيمة إلا بتأثير باقي العناصر الثلاثة .

وحصر بعض الادباء العواطف الشعرية ، أو بعبارة اخرى العاطفة الادبية في أربعة : حكى ابن رشيق في العمدة قال : « قواعد الشعر أربعة : الرغبة ، والرهبة ، والطرب ، والغضب ، فمع الرغبة يكون المدح والشكر ، ومع الرهبة يكون الاعتذار والاستعطاف ، ومع الطرب يكون الشوق ورقة النسيب ، ومع الغضب يكون الهجاء والوعيد والعتاب . » والذي يلاحظ ان قائل هذا القول انما راعى عواطف الشاعر والاديب لا عواطف السامعين ، وهو الذي نقصده .

وقد حاول قوم آخرون ارجاع كل المشاعر والعواطف الى شيء واحد ، ومن هؤلاء من قال : ان الأديب يثير عاطفة الجمال أو الشعور بالجمال ، واقتصر على ذلك ، فكأنهم يريدون ان يقولوا ان كل العواطف التي يثيرها الادب مرجعها جميعاً الى الشعور بالجمال ، والقائلون بهذا يذهبون في تحديد الجمال الى مدى بعيد ، وهم يعرفونه بأنه اللذة التي تحدث من ادراك صفات الشيء سواء كان هذا الشيء امرأة او شعراً أو فكرة أو حركة أو عملاً أو غير ذلك . وهذا التعريف كما ترى يشمل حقيقة كل العواطف التي يثيرها الادب ، ولكنه كذلك يشمل غيرها حتى ليعد شعور من قويت شهيته عند أكلة لذيذة جمالاً ، ولكن الاستعمال الدقيق يحصر الجمال في دائرة أضيق من ذلك . وهناك آخرون

أرجعوا كل العواطف الادبية الى المشاركة في الحياة ، فنحن نشعر بأن ما يزيدنا شعوراً بالحياة يزيدنا لذة وما يضعف ذلك يشعرنا بألم . فكل مصادر الادب والفن منشؤها انها تزيد في شعورنا بالحياة . فمثلاً عاطفة الاعجاب بالقوة منشؤها على ما يظهر شعورنا بالمشاركة في القوة التي نعجب بها ولو من طريق التخيل ، ونحن نعجب بالقوة دائماً مالم تهدد امننا، فعند ذلك ينقلب الاعجاب الى خوف، كمواجهتنا للأسد،وكذلك الشعور بالسرور والحب في جميع اشكالها ، فهو عواطف تزيد في حيويتنا . ومثل ذلك العواطف الاخلاقية ، كالميل الى الصدق والعدل وحرمة الدين ونحو ذلك ، فكلها تشعرنا بقوة وسمو فوق الحياة المادية . وهناك مشاعر غامضة يصعب تحديدها كالذي يحدث عند سماع قطعة موسيقية ، أو رؤية بعض المناظر الطبيعية التي تبعث وجداً او حزناً لا ألماً ، أو تهز فينا عاطفة القلق والاضطراب ، ولكنها مع هذا تجعلنا نشعر بأن حياتنا طامحة الى مثل عليا ، وفي هذا معنى الحياة .

وهنا يعرض لنا سؤال هام ، وهو كيف نقيس هذا العنصر ، أي عنصر العاطفة في الادب ؟ ويجب ان ننتبه الى ان صلاحية القطعة الادبية لاثارة عواطف كثير من الناس ليست برهاناً على جودتها،فكثيراً ما تثار عواطف الجمهور بشيء ليس له قيمة أدبية . بل هو مجرد تهريج ، وانما تثار عواطف الجمهور عادة بأشياء لا دخل لها في رفع مستوى الآثار الادبية مثل جدة الموضوع ، أو جدة الشكل ، وهذه الجدة قد تلفت النظر الى القطعة او الكتاب وتثير الانفعال ، ولكن اثارة الانفعال شيء وقتي لا يدوم ، وقد تكون اثارة العواطف الادبية نشأت عن موضوع حاضر ، سواء كان دينياً أو سياسياً أو اقتصادياً . واذا فتر هذا الموضوع فترت القطع الادبية التي قيلت فيه ، وهذا في كثير من الاحيان ينطبق على الروايات والخطب . او ان يكون الاثر الادبي سهلاً بسيطاً يتفق وعقلية الجمهور . واذا كانت اثارة عواطف

الجمهور ليست مقياساً صحيحاً فلنبحث عن المقياس الصحيح وسنجده :

١ - يقدر عنصر العاطفة بصحتها واعتدالها : ونعني بصحتها واعتدالها ان الاسباب التي اثارتها صحيحة جيدة . يقول « راسكين » : « ان الاعجاب قد يثار بعرض العاب نارية أو بتنظيم الحوانيت في شارع من الشوارع ، ولكن هذه العاطفة ليست بعاطفة شعرية ، لان الاساس الذي بنيت عليه باطل مزيف. وليس فيما ذكر شيء يستحق الاعجاب، ولكن الاعجاب من انعقاد الزهرة ثم تفتحها عاطفة شعرية ، فهل لظهور هذه القوة الروحية التي تعمل في تكوين الزهرة وما في ذلك من جمال حي لا ينتهي الا الاعجاب بها » فاذا اردنا ان نقوم عاطفة في قطعة ادبية ، فلنتساءل هل العاطفة التي تثيرها هذه القطعة قوية وصحيحة؟ وهل هي نبتت عن اسباب صحيحة ؟ فاذا نحن استعرضنا مثلاً عاطفة الحب عند مجنون ليلى او في رواية غادة الكاميليا ، وجدناها عاطفة مائعة نشأت من عاطفة مريضة ، وهذا ما تلمحه في كثير من شعر لزوميات ابي العلاء : فهو شعر متشائم حزين نشأ عن عاطفة مريضة ، فقد يصب غضبه على الدنيا وما فيها لان انساناً جنى على الاخلاق ، او يفضل الصخرة على الانسان لان الصخرة لا تظلم ولا تكذب .. وهكذا كل شعر الغزل الممعن في وصف ما يلاقي المحب من الضنى ، والذي يذوب رقة وحناناً ليس ناشئاً عن عاطفة صحيحة قوية ، وكذلك شعر العباس بن الاحنف ؛ فهذا الشعر وامثاله ، إن ارضى الجمهور ولذّهم فهو في كثير من الاحيان اجوف ، وهو في كثير من الاحيان ناشيء عن عاطفة مريضة ، وليس من الحق ان يبيع الانسان عواطفه بهذه السهولة وهذا الرخص ، وليس من المستحسن ان يعطي الممدوح الشاعر حفنة من الدراهم فتثور عاطفته وينبعث عنها شعر كثير . والشاعر الجيد على هذا القياس وهو الذي يثير العواطف بقدر ويبنيها على اساس عميق، اما ان تغالى في ذلك وأثار عواطف حادة لاسباب واهية ، فأنه يكون

شعراً خفيفاً ضعيف القيمة مهما استلذه الناس .

٢ — تقدر العاطفة بقوتها وحيويتها ، فاذا عرض علينا كتاب او قطعة ادبية تساءلنا : هل حرك هذا الكتاب وهذه القطعة عواطفنا واهاجت شعورنا ؟ هـل وسعت نظرنا وأحيت قلبنا ؟ ان كانت كذلك كانت ادباً رفيعاً . وكلما كان فيها هذا المعنى واضحاً كانت القطعة أقرب الى الكمال في الادب . يقول امرسون : « ليس للكتاب قيمة الا ان يوحي» ويجب ان يعلم انه من المستحيل ان تجد مقياساً عاماً للعواطف المختلفة ، فهناك عواطف حنان ، وعواطف جلال ، وعواطف جمال ، وعواطف اعجاب ، وعواطف كره واشمئزاز الى آخر ما هنالك . ومن الصعب ان نقول ان هذه العاطفة اقوى من تلك كما لا يصح ان نقول ان العسل افضل من البصل فلكل فائدته . وكذلك يختلف الناس باختلاف طبائعهم وامزجتهم في العاطفة التي تهيجهم ،فإنسان تثيره عاطفة الحزن ، وآخر عاطفة السرور ، وثالث عاطفة الاعجاب .. ولهذا كان من المستحيل وجود مقياس واحد مضبوط لمعرفة أي العواطف أقوى، ومع هذا فأننا نستطيع على وجه العموم ان نقول ان مقياس القطعة الادبية ما فيها من قوة عاطفة .

وتعتمد قوة العاطفة : أولاً على طبيعة الكاتب او الشاعر ، فيجب ان يكون هو قوي الشعور فيما يكتب ، والا لم يستطع في العادة ان يثير شعور القارئين . وكثيراً ما يكون الكاتب أو الأديب مزوداً بأسباب كثيرة من القوة ، كحسن التعبير ، وقوة الخيال ، ثم هو يفشل لأنه تنقصه قوة العاطفة . وكذلك قد يكون له عين تدرك الجمال ، وشعور رقيق وفكاهة حلوة ، ولكن ليست له العاطفة القوية فيفشل . بل كثيراً ما نجد الشاعر له من قوة العاطفة ما يعوض،نقصه في النواحي الاخرى. ولسنا نعني بالعاطفة القوية العاطفة الهدامة المعربدة الهائجة المضطربة ، فقد تكون هذه مظاهر ضعف فيها وتفضلها العاطفة القوية في ثبات ، وبخار

حار مضبوط خير من نار هشيم سريعة الخمود ثم هي لا تضبط .

ثانياً : وتعتمد قوة العاطفة واثارة الادب عواطف الناس ايضاً على قوة الاسلوب ، وسنجد فيما بعد ان لقوة الاسلوب مدخـلاً كبيراً في اثارة العواطف ووضوح المعاني . والاديب قد يستطيع ان ينقل الى سامعيه معانيه ، ولكن لا يستطيع ان ينقل عواطفه ومشاعره الا بقوة الاسلوب . ويظهر ان هناك شعراء وادباء قد أُعطوا شعوراً ومنحوا عواطف قوية ولكنهم لم يمنحوا اسلوباً ينقلون به عواطفهم الى سامعيهم وقارئيهم ، وسبب ذلك ضعف اسلوبهم . نعم ان كثيراً من صنوف النثر يكون القصد منه ليس اثارة العواطف وانما القصد منه نقل المعاني ولكن ليس هذا الصنف ممعناً في باب الادب ،وما نسميه قوة وجزالة وحياة انمـا يرجع في أغلب الاحيان الى قوة الاسلوب .

ثالثاً : وتقاس العاطفة أيضاً باستمرارها وثباتها ولذلك معنيان : الاول بقاء أثرها في نفوس السامعين زمناً طويلاً فتكون كالقطعة الموسيقيـة يسمعها السامع ثم لا تزال ترن في اذنه بعض الانغام ويتكرر أمداً بعيداً، وكذلك الشأن في الأدب فبعض القطع الادبية يؤثر تأثيراً وقتياً وآخـر يبقى في الذاكرة طويلاً ،والمعنى الثاني ان تكون القطعة الادبية تثير شعوراً متجانساً متسلسلاً .

عُنصُر المعَاني في الأدب الموريتاني

للمعاني قيمة كبرى في الادب ، وفي بعض أنواع الادب يكون لها أكبر قيمة ككتب التاريخ الادبية وكتب النقد والحكم والامثال . فالغرض الاول منها ليس هو اللذة ، وانما هو المعاني والحقائق ، وليست اثارة العواطف فيها بالمنزلة الاولى وانما المنزلة الاولى فيها للأخبار بالحقائق وأداء المعنى ، واذ ذاك يجب في اداء هذه المعاني ان تكون :

(١) غزيرة فياضة ، (٢) دقيقة ، (٣) واضحة .

ففي الكتب التاريخية والنقدية وفي الامثال والحكم يجب ان تعطينا من الحقائق اكثر ما تستطيع ، وان تؤديها في دقة ، وان تستعمل في ادائها اوضح المسالك حتى يسهل فهمها ، وموضع تفصيل هذه المسائل الثلاث وكيفية الوصول اليها أليق بعلم البلاغة ، وانما تعد هذه الفروع الثلاثة التي تعتمد اكثر ما يكون على عنصر العقل ادبية ، بمقدار ما يستطيعه الكاتب من مزج كمية المعاني الدقيقة الواضحة بالعواطف والمشاعر — والناس يختلفون في هذه المقدرة اختلافاً كبيراً كاختلافهم في العواطف والخيال ، فاذا استطاع الكاتب ان يشع على ما عنده من معان وحقائق حرارة من عاطفته وحيوية من خياله ، كانت كتابته راقية مؤثرة حية قوية ، واذا عدم الكاتب هذه المقدرة خرجت كتابته وكأنها سرد للحقائق ،

وتكون كأنها تقويم او اخبار محلية او مجرد تعداد ، وبذلك لا يصح ان تعد أدباً ، انما تعد « مادة خام » للادب او مادة علمية اذا كانت حقائقها علمية .

اما ان نحن نظرنا الى ما يُعَدّ ادباً صرفاً كالشعر والقصص ، اعني ما كان القصد الاول منه اثارة العواطف ، فمراعاة المعاني والحقائق فيه امر ثانوي ، ونحن نرى انه حتى في هذا القسم ليست الحقائق والمعاني فيه قليلة ، بل يجب ان تعد من مقوماتها . وفي كلامنا السابق رأينا ان العواطف انما تكون صحيحة سليمة اذا كانت مؤسسة على اساس صحيح وهذا الاساس هو الحقائق ، والشعر — وهو اكبر مثل في الادب الصرف — يجب ان يقاس ايضاً الى درجة كبيرة بما فيه من معان ترتكز عليها العواطف . واكبر الشعراء قوم صح حكمهم ،واتسعت تجاربهم في الحياة ، وكان لهم علم عميق بكثير من الاشياء التي تحيط بهم ، وكما قال كارليل: « ان الشاعر الذي يجلس على كرسيه يتمطّى ثم يخرج قطعة من الشعر لا يستحق شعره ان يقرأ ... » وفي الحق ان الحقائق العميقة التي تتعلق بحياة الناس وبما للناس من عقائد ونظرات في الحياة في العصور المختلفة ، انما تقرأ في الشعر اكثر مما تقرأ في اي كتاب آخر . ويقول بعض النقاد الانجليز : « ان شكسبير أفادهم في الحياة الانسانية اكثر مما افادتهم الفلسفة ، وان تنسون وبراون وماثيو ارنولد،أفادوهم عن عصر فكتوريا اكثر مما افادهم المؤرخون » . فلنا الحق اذا رأينا اي أثر ادبي ان نتساءل : ما معانيه ؟ ما الحقائق التي يشتمل عليها ؟ وسنجد انه لا يحق ان يسمى ادباً الا ما كان له حظ من افكار راقية ، ومعان سامية ، وان قيمة الاثر الادبي تكبر بما فيه من عمق في المعاني وكثرة في الحقائق .

ويجب ان يلاحظ انه في الادب من هذا النوع ، ليس من الضروري ان يكون ما فيه من المعاني والحقائق جديداً كما هو الشأن في العلوم

الاخرى ، فإنا لا نقرأ كتاباً في التاريخ او في أي علم اذا كنا نعلم ما فيه من قبل . ولكن في الادب لا نتطلب ذلك ، فيصح ان تكون فيه الحقائق التي تتضمنها القطعة الادبية معروفة ، ولكن الجديد فيها صياغتها أو نوع الشعور بها وأعمال الخيال فيها حتى تخرج كأنها جديدة . فكثير من الروايات المؤلفة حقائقها التاريخية او وقائعها معروفة ، ولكن الاديب استطاع ان يخرجها بحلة جديدة حتى كان معانيها جديدة .

وليست وظيفة الاديب ان يعلم الحقائق ، انما وظيفته ان ينتفع بالحقائق المعروفة ويهيج بها عواطف الناس ، ويجعلهم يشعرون بها أكثر مما كانوا يشعرون من قبل ، ولا تكاد تجد كتاباً أدبياً أسس كله على حقائق جديدة لم تكن معروفة من قبل ، أو على معان معروفة للخاصة فقط ؛ فاذا حاول الاديب او الشاعر ان يفعل ذلك لا يمكن ان يعرف الا عند طبقة خاصة قليلة ، ولم يستطع ان يكون شاعر أمة او شاعر شعب ، وقد حاول بعض الادباء ذلك فلم يعترف لهم بالادب الا في اوساط خاصة . ذلك أنه ليس هناك مكتشفات كبيرة في الطبيعة الأنسانية ، والحقائق التي ترتكز عليها حياتنا تكاد تكون معروفة للناس جميعاً ، فلسنا في حاجة الى تعلمها وقد تعلمناها من قبل ، لأنها ليست الا تطبيقاً لأدراكاتنا الغريزية على تجاربنا في الحياة العادية وعمل الاديب ان يجعلنا نشعر بهذه الحقائق لا ان نعلمها وان يستخرج منا الانفعالات التي تناسبها ، وهذه الحقائق والمعلومات الشائعة هي التي تكون أكثر ما في الأدب من حقائق ، وانه ليعد اديباً كبيراً من استطاع ان يجعلنا نشعر بهذه الحقائق شعوراً تاماً ويوسع مشاعرنا نحو الحياة الأنسانية ويحملنا على العمل على وفقها .

واعتبر ذلك في أدبنا قبيل عصرنا ، فقد كاد يكون خلواً من المعاني القيمة ، وكان عماده كله على السجع والمحسنات البديعية . وكان المثل الأعلى له مقامات الحريري والعماد الأصفهاني ، فعُد لذلك أدباً

تافهاً قليل القيمة الى ان رزقه الله بأدباء جدد أطلقوه من اغلاله وزودوه بالمعاني العميقة فعد هذا نهضة قوية .

وهنا يصح ان نثير سؤالاً آخر وهو : « الى أي حد نشترط في هذه المعاني ان تكون حقة وصحيحة في الشعر الموريتاني ؟ كم نشترط في المعاني ان تكون جديدة ؟ ولكن هل نشترط ان تكون حقة وصحيحة بأدق معنى الكلمتين ؟ ألسنا نرى كثيراً من الشعر الراقي او القصص الراقي في البلدان العربية الأخرى قد اسس على نظر الى الحياة مخطىء ، أو على آراء باطلة ؟

قد اختلف الناقدون في الاجابة على هذا السؤال . فالأكثرون على اشتراط هذا الشرط ، والأقلون على عدم اشتراطه . يقول بعض الناقدين ان المعاني في الشعر لا تقاس بصحتها من الناحية الفلسفية ، ولكنها تقاس بمطابقتها لغرض الفن ، وذلك ككثير من شعر ابي نواس الذي يرى ان الحياة خلقت ليتمتع فيها الانسان بالخمر والنساء والغلمان ، وفي قصيدة ابن سينا العينية التي اسست على ان الانسان كان في عالم قبل هذا العالم عالماً بكل شيء ، فلما هبطت نفسه الى الارض واتصلت بالجسم نسي ما كان يعلمه ، وما يعلمه الانسان بالغريزة وما يعلمه باللقانة ، انما منشوءهما تذكر ما كان فيه قبل ان يحل في عالمنا هذا . فأن هذين النموذجين من الأدب ينطبقان على حقائق لم تثبت صحتها ، ولكنها صحيحة من حيث صدق دلالتها على ما شعر به هذان الشاعران .

والحق ان ما كان من الأدب غير مؤسس على حقائق صادقة ليس ذا قيمة كبيرة ، وما عد منه أدباً انما عد أدباً لاستيفائه عناصر اخرى من عناصر الأدب ، وكان يكون أتم لو اشتمل على هذا العنصر ايضاً . وشأن الأدب في هذا شأن كل فن ، فالفنان على العموم يجتهد ان يرى الحقيقة ويريها الناس ، وان يظهر حقائق الأشياء وبواطنها ، وهذا صحيح مهما بعد الخيال ، ومهما كانت أشخاص القطعة الأدبية جناً أو ملائكة ،

فنحن لا نقوّم القطعة الأدبية قيمة كبيرة ما لم تمثل لنا ناحية حقة من حياتنا الانسانية كما هي أو كما يجب ان تكون .

وهذا يسلمنا الى موضوع آخر وهو : الى أي حد يجب ان يصور الأدب الحياة الواقعية ؟ هل يجب ألا يخرج الادب كثيراً عن تصوير حياتنا كما نحياها ؟ وهذا السؤال اثير في كل فن تقريباً وانقسم الباحثون فيه الى مذهبين : مذهب الواقع ومذهب الكمال ، فمذهب الواقع يرى ان الفن يرمي الى تقليد الطبيعة كما هي أو على الاقل الى القرب منها جهد المستطاع . ومذهب الكمال يرى ان الفنان اذا أراد ان يقلد الطبيعة يجب ان لا يقلدها تقليداً تاماً ، بل يتصور الكمال فيها ويخرجها الى الوجود مازجاً فيها الواقع بتصوراته وعواطفه ، يحاكي الطبيعة ولكن يعمد لها ويختار من الاشياء ويوثق بينها ويخرجها الى الناس مترجماً بها عما في نفسه ، فهو يرى ان عمل الفن ان يمثل المناظر الأصلية او الاخلاق الفاضلة أو الآراء العظيمة بخير مما هي في الواقع ، فيجعلها أعظم تأثيراً في العقول من حقيقتها . فالمذهب الكمالي يرى ان الفنان تملكه العاطفة فيحولها الى قوة عاملة فيمثل الشيء لا كما هو ، ولكن كما يتخيله كاملاً .

وعلى الاساس الثاني وضع بعض الكتاب كتبهم في المدن الفاضلة أو كما يسميه الافرنج (اليوتوبيا) وقد نقدوا الحياة الواقعية من جملة نواح ولم يعجبهم النظام الحاضر فتخيلوا عالماً خلا من كل هذه العيوب التي يشكون منها ورسموا عالماً مثالياً كاملاً منزهاً من كل عيب ، وما كانوا يستطيعون ذلك لو ساروا على المبدأ الواقعي . ولو سار العالم على المبدأ الواقعي وحده لما تقدم منذ كان آدم ، ولعاش عيشة الحيوان ، كما عاشت أجداده .

هذا البحث بحث في الادب ، فالواقعي في الادب يرى ان حقائق الطبيعة الانسانية تصور خير تصوير بالاحوال العادية التي تجري بيننا كل يوم لا بالاحوال الشاذة النادرة ، وغرض الادب الواقعي ان يخرج لنا

صورة الحياة كما نراها ونلحظها في حياتنا المألوفة ويكره الحياة الرومانتيكية التي لا تمثل قوانين الحياة بل تمثل شذوذ الحياة كما هو الشأن في حياة مجنون ليلى او غادة الكاميليا . وهو يرى ان هذا النوع من الادب انما يلذ الناس الذين هم في حالة عقلية خاصة ، كقصص العفاريت وقصة عنترة ، فهي تثير العجب عند الاطفال ومن في درجتهم ، ولكن لا تكون غذاء صالحاً لمن نضجت عقليتهم ، ويرى هذا الواقعي ان الحياة كما نحياها وما فيها من حقائق نجربها ونعلمها هي مقياس الادب الصحيح .

ولكن لا ننكر ان للخيال كذلك قيمة كبرى في الادب ، وان هناك نوعاً من الادب راقياً كالشعر ، لا يمكن ان يحصر في حدود الواقع ، بل يجب ان يفسح له في الخيال فلنبين هذا الواقع بالخيال .

من المسلم به ان الفن — بحكم طبيعته — لا يستطيع ان يصور الحقائق كما هي تصويراً تاماً ، بل لا بد ان يخرج عنها قليلاً أو كثيراً... خذ مثلاً لذلك الحياة الحديثة في الرواية . فالروائي لا بد ان يخرج عن تمثيل الحادث الذي وقع في الخارج تماماً الى شيء من التنقية والتصفية ، وأيضاً الفنان على العموم ، لا يصح ان يسرد الحقائق كلها ويقلد الحياة تقليداً دقيقاً لأن غرض الفن ليس ان يقلد ولكن ان يوعز ويوحي ... ليس غرضه ان يخبرك بكنه الاشياء ، ولكن غرضه ان ينقل لك ما اثر الشيء في الفنان وهذا بعينه هو الذي ينطبق على الادب ، فالاديب اذا تعرّض لوصف الاعمال ان الاشخاص أو المشاعر لا يصفها كما هي في الخارج ، بل كما أثّرت فيه .

وهنا يجب ان ننبه الى شيء هام ، وهو ان الاديب والفنان على العموم لا يستطيعان ان يقصا تفاصيل الشيء جميعها ، انما يتخيران منها ما يعدانه موضع التأثير ، وبهذا يختلف الفنان ، فأن الاشياء لا تقع في نفوسهما موقعاً واحداً ، بل قد يتأثر كل بناحية غير التي يتأثر بها

الآخر فيخرجها كل كما تأثر بها ، وهذا ما يصبغ فنه بالكمالية، فهو لا يخرج الشيء كما هو في الخارج ولكن كما يتصوره ويتخيله ويتأثر به فكثير من الاشياء كغروب الشمس في البحر ومنظر البحر يوحي الينا معاني من الجمال أكثر مما هي في الواقع . فالاديب يشعر بها ويخرج أثره الفني ممزوجاً بهذا الشعور .

قلنا ان موضوع الادب هو الحياة الانسانية ، ولكن ليس كل شيء يفعله الانسان أو يقوله أو يفكر فيه، يصح ان يكون موضوعاً للأدب، لأن هناك فرقاً بين العلم والادب ، فالعلم يريد ان يعلم كل حقيقة ويريد ان يوضح ويصنف كل شيء ، ولكن الادب فن ، غرضه الاول ان يثير العاطفة فيجب ان يختار منها، ويوفق بين ما يختار خاضعاً لما استكشف من قوانين الجمال . وخير للأديب ان يمزج ما يختاره بتخيلاته ومشاعره ومثله العليا ، من ان يعرض علينا كل شيء يقع تحت حسه ، وهو بذلك يمزج الواقع بالكمال ، والاديب في هذا واقعي كمالي معاً، والقطعة الادبية اذن تقاس بما فيها من معان وحقائق ، وبما فيها من شعور وعاطفة تثير مشاعر القارىء او السامع .

أما الكمالي فيميل الى ان يتعمق في باطن الشيء ويسبح فيما يوحيه اليه الشيء ، وأحياناً نستعمل كلمة الواقع في مقابلة (رومانتيك) ويقصدون بالواقع حينئذ استنتاج الحقائق من الحياة العادية المألوفة، أما الرومانتيك فيستمد حقائقه من الغرائب والشواذ وأعمال البطولة — والحق ان الادب في حاجة الى ان يلون بالواقع والكمال معاً ، وكل أثر من الآثار الادبية الكبرى فيه الصبغتان ، ذلك انه يكشف الحقائق التي لها قوة على التأثير في نفوسنا ويوحي الينا بالمعاني ويرفعنا فوق مستوى التجارب اليومية الخالية من الروح، وهذا هو الجانب الكمالي . وفي الوقت عينه يؤدي حقائق الحياة الخارجية التي تؤدي اليها ملاحظاتنا في أمانة واخلاص وهذا هو الجانب الواقعي .

وعنصر الكمال في الادب له من غير شك قيمة كبيرة ، فقل ان نعد قطعة ذات قيمة كبيرة في الادب ما لم توح الينا بحياة خير من حياتنا الواقعية ، وتبعثنا على تعمق النظر في الحياة أو ترفعنا الى مستوى أرقى من مستوانا في الحياة العادية ، وبعض الشعراء يفضل آخرين لأن الاولين اذهب في الكمال ، او لان الآخرين عواطفهم خفيفة الوزن ، يدعون مثلاً الى ارواء شهواتهم المادية ويوجهون الناس في شعرهم اليها، وأفكارهم وآراؤهم واضحة،ولكنها محدودة ضيقة ، وأرضية لا سماوية، لا يكادون يلمسون عمقاً ولا رفعة لعالمهم .

حقاً ان الواقعي يمثل حقائق العالم كما هي ، ولكنه كالمصور يبدأ يلاحظ الطبيعة،ويمثلها كما هي ، غير انه ينقصه في الوقت عينه تصوير المعنى الروحي للمنظر . كذلك الأدب ، وذلك واضح في الشعر يبدأ بتصوير الواقع ممزوجاً بالخرافات والتقاليد ، وكلما تقدم في الفن كسب قوة على تصوير الحقائق مجردة عن الخرافات ، وفوق ذلك استطاع ان يرينا معاني الحقائق وروحها،فالواقع يمثل الحقائق كما هي ، والكمال يرقى بالمجتمع فيمثل مجتمعاً راقياً ، وبعبارة أدق : الواقعي يمثل الحياة عادية ، والكمالي يمثل الحياة لها غايات خاصة يرمى اليها .

وعلى هذا يمكننا القول ان الشعر الموريتاني فيه كل خصائص الحياة الشعرية الوجدانية بمبانيها ومعانيها، ويوم يزداد عدد المثقفين ثقافة عصرية في موريتانيا — وهو يوم غير بعيد — فان الشعر هناك سيخلع عن وجهه هذا السمت (الصحراوي) ويبدو فتنة للقلوب والعقول .. ذلك ان العلم وسعته هما اللذان يولدان المعاني . وفرق كبير بين نتاج مثقف ونتاج غير مثقف ..

« شعراء » لا ادباء !

الشعر حين يكون امتزاجاً حميماً — عالياً عميقاً — بيننا وبين أنفسنا

ليلتقي فينا الصحيح الذي نحسب اننا نعرفه وندركه ، والبعيد الذي نحسب انه ارفع وانزه من ان يحده الإدراك ، ومن ثم يصبح في وقت واحد مزيجاً من الغنيمة والفقدان .

هذه حالة موزونة مترددة كالقافية . ومن هنا وجب ان يكون الشعر موزونـاً مقفى ، ولا يكون صورة منظورة ، لان الموسيقى والرقص – مثلاً – يتطلبان الإيقاع ، وتدور فيهما العين على انفسنا لا إلى الاشياء المرئية .. ولا يخفى ان الوعي لا يعمل في هذه الحركة المستغرقة ، وان الشعر يجب – ومن ثم – ان يكون الهامياً وان يكون بسيطاً لأنـه هو موضوع نفسه ، ولا حاجة به إلى التزويق واستعارة الزينـة . وسواء « كتب » الشاعر ام لم يكتب ، فهو في الحالتين راقص مثـالي ، او راقص في حالة التجريـد ، تقتضي المطابقة بينه وبين هذه الحقيقة ان يظل صامتاً لا يكتب ، وانما هي حالة ضعف تدعوه إلى الكتابة التي هي من عمل الاديب .

ان الأدب – وكل كتابة ضرورية – يعتمد على «العين» كالتصوير ، ولا غنى له عن الزينة والفهم والمظهر . وبعبارة اخرى : الأدب «ترجمة» والشعر أصيل . فاذا وكل الشعر بالبواطن العميقة ، فالادب خليق ان يوكل بالظواهر العارضة .

والشعر المكتوب – كسائر الفنون الخلاقة – طبيعي كائناً مـا كان حظه من الإتقان ، أو هو متقن كامل في الواقـع لانه « طبيعي » . ومن هنا ، من هذا المبدأ ، يجب ان ننظر إلى الشعر الموريتاني . عـلى حين ان «الادب» لا يكون مصنوعاً يزداد اتقاناً كلما ازداد من الصنعة ، ويستطاع بلوغ الادب صفة الجمال النسبي . على حين ان « الشعر » ينبغي ان يطمح أبداً إلى الجمال المطلق ، ولن ندرك شأوه إلا اذا تنزل علينا واصبحنا اهلاً له بالطموح وحماسة الروح ، وهذا الذي يراد به من قولهم : ان الشاعر « ممسوس » ، اي مصاحب (الشيطان) يستولي

على وجدانه .. وانه لمسوس حقاً ما دام هذا الانسان يحتوي قبساً من النبوة الروحية التي « توحي » له الحق والخير والجمال على الصورة التي يريدها !

إن بين الشعر والأدب لفارقاً يشبه الفارق بين الحب والشهوة ، او بين الحساسية والرغبة الجنسية .. والشعر الصادق إنما يعرف بعطفه العميق وتياره الزاخر وسبحاته الفطرية إلى ما وراء الطبيعة . واذا قيل ان الناقد العليم أعمق من الشاعر المبدع ، فالقائلون لذلك ينسون ان العمق انواع وضروب . فهناك عمق الإدراك ، وعمق الفكر ، وعمق التخيل ، وعمق الشعور ، إلى غير ذلك من ضروب الأعماق . ومن قال ذلك فمثله كمثل من يقول إن البطيخة اعمق من الوردة .. ولا وجه للمقارنة بين غير الاشباه والنظائر التي تقبل المقارنة .

وخلاصة القول ، إن « الادب » حالة من حالات الثقافة المصنوعة ، وان الشعر سَمْتٌ لا كلفة فيه ، يسبق التثقيف المصنوع ويتلوه . وعلى هذا الاساس ، كان معظم الموريتانيين الذين يتعاطون الادب « شعراء » أكثر منهم « أدباء » ..

ملاحظات عامة حول الشعر العربي

يُشغل الغزلُ ، من الارث الشعري الذي خلفه لنا العصر الجاهلي ، مكاناً واسعاً ، حتى ليكاد ان يكون الجزء الأكبر من ثروتنا الادبية في هذا العصر . ومطالعتنا دواوين الجاهليين المختلفة تضعنا أمام هذه الحقيقة الواضحة ، وهي ان كثرة كثيرة من الشعر الجاهلي الذي وصل الينا تكاد تكون قاصرة على الغزل أو متصلة به بسبب ، وان الاغراض الاخرى جميعاً من الفخر والمدح والهجاء ، والرثاء لا تعدو ان تكون قسيماً لشعر الغزل ... ان الثروة الشعرية كالقطعة الذهبية ذات الوجهين : نقش الجاهليون على صفحتها الاولى عواطفهم التي ابتعثها فيهم الحب ، وما يؤدي اليه هذا الحب من وصل أو هجر ، ومن سعادة أو شقاء ، ومن لذة او غصة ، وصوروا هذه العواطف وأفنوا في تصويرها ملكاتهم ومواهبهم .. أما الصفحة الاخرى ، فقد جمعوا عليها كل اغراضهم الاخرى ، ونثروا في أطرافها كل الفنون والاغراض الثانية كائنة ما كانت هذه الفنون والاغراض . ذلك هو مجمل القول أيضاً في الشعر الموريتاني الحاصل لدينا ، لأن القوم لم يتأثروا بشعر عربي كما تأثروا بالشعر الجاهلي الا في ما ندر ، ولا عجب ، فأن طبيعة حياتهم وبلادهم تشبه من وجوه عديدة طبيعة الجزيرة العربية ، وخاصة البلاد الحجازية !

وليس هذا فحسب ، بل ان الاغراض الاخرى التي عـرض لها الشعراء الجاهليون والموريتانيون كذلك لم تكن ، في كثير من الاحيان ، مقصوداً اليها قصداً ولا متعمدة تعمداً .. كانت روح الحب وعواطف الهوى هي التي تبتعثها،وهي التي تكمن وراءها .. وبتعبير آخر كانت هذه الاغراض تتصل بالغزل بهذا السبب أو بذاك ، بالسبب الواضح او بالسبب الغامض .. ولكنها كانت في أحيان كثيرة قريبة منه .

من غلبة عنصر التقليد في الأدب العربي،أننا نرى أدب كل بلاد عربية يشبه أدب البلاد الاخرى مع اختلاف التاريخ والحوادث التي تقع فيها ، فأدب الأندلس يشبه أدب مصر في موضوعاته وأساليبه ، وهما يشبهان ادب العراق ، حتى ليعسر على القارىء ان يدرك الشخصيـة الممتازة لكل قطر ، مصرية كانت او أندلسية أو بغدادية،حتى الاخطاء التي وقع فيها بعضهم وقع فيها الآخرون ، كبدء المديح بالغزل،والتقيد بالوزن المعروف . والمحاسن التي كانت لأدب قطر ظلت محاسن لآداب الاقطار الاخرى ، كالانتقال سريعاً من وصف لحادثة الى حكمة عامة، واظن ان لو كانت هذه الآداب لرقعة اخرى في العالم يسكنها امم متعددون لكان الاختلاف بينهم أوضح ، وربما كان السبب في ذلك خضوعهم لدين واحد يوحي اليهم بأفكار متشابهة . والدين يوحي بتمجيد العرب، وتمجيد العرب يوحي بتقليدهم في أساليبهم ومعانيهم ..

خصوصاً وان المعجزة الكبرى للمسلمين القرآن العربي . وربما كان اتخاذ الادباء القرآن مثلهم الاعلى سبباً في محافظتهم على اللغـة الفصحى والتقارب بين أدبـاء كل قطر في اسلوبه ومعانيه وتأثير القرآن في الحياة الموريتانية لا يفوقه تأثير في أي بلد اسلامي على الاطلاق !

يعتقد بعض الباحثين ان من اسباب انحطاط المسلمين،وخاصة العرب، الادب العربي نفسه!وتعليلهم لذلك ان اكثره قيل في المديح والملقوالغرام، وعلى حد تعبير بعضهم ، اكثره ادب « معدة » لا أدب قوة . ولو

نظرنا الى الانواع الاخرى لكانت كذلك أو اقرب اليها ، فالمقامات للبديع أو للحريري أو لغيرهما ، انما هي مبنية على الكدية ، والكدية استجداء ، وهي من احط انواع الخلق ، بل هي احط من المديح . ثم ان الأدب العربي من نوع الادب المكشوف الذي لا يتحرج من ذكر العورات بأسمائها ، وحتى كان يسمح بمثل هذا الفحش في مجالس الخلفاء والأمراء من غير تحرز ولا ايماء . ومعجم كقاموس الفيروز ابادي مملوء بألفاظ الفحش حتى لا تكاد تخلو صفحة منها . هذا الى مجون سخيف كمجون الحجاج وابن سكرة ، فاذا طبعت هذه الاشياء كلها في عقل الناشيء ، اتلفت ملكاته وحركت شهواته .

هذا قولهم ، ولكن هل هو صحيح ؟

فبعض شعر المديح قويّ جميل يبعث في النفس اخلاقاً قوية . كما ان باب الادب في العربية عظيم وواسع سعة لا حد لها ، وكذلك باب الحكم ، فالحكم الصحيحة يجب ان ينظر فيها الى هذا وذاك . والعيب عيب من اختار لا عيب من قال : وكم رأينا من رجال كمصعب بن الزبير ، وهشام بن عبد الملك وابي جعفر المنصور ، قاموا بأعمال عظيمة لذكرهم ابياتاً عظيمة ، دفعتهم الى تقديم نفوسهم خوفاً من العار أو اباءً من الذل أو نحو ذلك .

وعابوه أيضاً بأنه أميل الى الخيال منه الى العقل وخصوصاً في الشعر ، فليس فيه شعر فلسفي عميق الا قليلاً ، وفاتهم ان اشعار ابي العلاء المعري ، وابن الشبل البغدادي ، وابن سينا وغيرهم مملوءة بالفلسفة والحكمة . وربما جاءهم هذا الظن من ان الاديب العربي لما عرضوا نماذجه استبعدوا منها كتب العقل ، كمقدمة ابن خلدون ، وكتب التصوف ، كشعر ابن الفارض ، وجلال الدين الرومي ، وكتب الحكمة ككلية ودمنة ، وكتب التاريخ كالطبري والفخري ، مع انها في صميم الادب ، وكانت خليقة ان تظهره بمظهر الغنى .

وعابوه أيضاً بأنه وان التفت من قديم الى الطبيعة ،فقد عني بالصور البهلوانية ، ولكنه لم يتغن بحبها . والشاعر الحق في الطبيعة هو من سلك احدى الطريقتين : اما ان يذوب فيها حتى يفنى واما ان يتشربها حتى يستوعبها ، ولم يفعل الشاعر العربي شيئاً من ذلك بل اخذ يلعب بصورها كما يلعب الحاوي بالمناظر والصور . وهذا حق ، فبعض الشعر الاوروبي سلك هذا المسلك ، أو الآخر ، فكان رائعاً حقاً ، وان حدث ذلك في العصور الاخيرة بعد ان كان الشاعر الاوربي لا يأبه له .

وعابوه أيضاً بأنه يكاد يقتصر على نوع واحد من أنواع الشعر ، وهو الشعر الغنائي وليس فيه شعر ملاحم ولا شعر تمثيلي الا في القليل النادر . وربما دعا الى ذلك التزامهم البحر والقافية ، فأن طبيعة الملاحم والشعر التمثيلي تتطلب طول النفس ، وطول النفس يتطلب تغير البحور والقوافي ، ولكن في الأدب العربي شيئاً من الملاحم كما في ملحمة ابي زيد الهلالي ، وان كان بعضها نثراً وبعضها شعراً ، وفي الشعر العربي بعض القصص التمثيلية كبعض شعر عمر بن ابي ربيعة ، ولكن الحق ، ان ذلك قليل وليس بكثير كثرته في الشعر الاوروبي ، وهذا أيضاً حق .

ولكن ينبغي ان نفسح صدرنا للخلافات بين الآداب من هذا النوع . فليس بضروري ان تتبع الأمم منهجاً واحداً فتقسم نفسها الى هذه الابواب الثلاثة من الشعر وان كان اساس الادب كله واحداً. كالمأكول والمشروب ، فأساسه كله حاسة الذوق وما يؤكل وما يشرب ، ولكن امة قد تفضل البطاطس على كل أنواع المأكولات وغيرها يفضل صنفاً آخر ، سواء في ذلك الافراد والأمم ؛ ثم هذا لا يطعن في ان أساس كل تقدير يرجع الى حاسة الذوق وانفعالها مع المأكول والمشروب .

والآداب الغربية ان تفوقت على الآداب العربية في الملاحم والقصص التمثيلية ، فأن الادب العربي يتفوق في الحكم والامثال والشعر الغنائي

ولكل وجهة هو موليها ، ورحابة الصدر تسمح بكل هذه الفروق كما تسمح للاسرة الواحدة ان يكون فيها مذكر ومؤنث وحليم وغضوب ، ولا يخرجها كل ذلك عن انها اسرة واحدة .

وعابوه أيضاً بأنه يكاد يكون على نغمة واحدة من عهد الادب الجاهلي الى اليوم . فالموضوعات هي الموضوعات،والاوزان هي الاوزان، والاساليب هي الاساليب ، ومع اختلاف البيئات في بغداد ومصر والشام والاندلس ظلت كل الآداب ذات منهج واحد . وعلى العكس من ذلك الآداب الاوروبية ، فيجد مؤرخها مجال القول ذا سعة في نوع من الادب ، وُجِدَ بعد ان لم يكن ، ونوع من البحور وُجِدَ بعد ان لم يكن ، وأدب مطبوع بالطابع الالماني ، وأدب مطبوع بالطابع الانكليزي ، وأدب مطبوع بالطابع الفرنسي ، تبعاً لتغير البيئات والزمان والمكان . أما الادب العربي فمتشابه : الادب المصري والادب الاندلسي يشبهان ادب بغداد ، وادب القرن التاسع عشر ، يشبه ادب القرن الرابع او الخامس من غير كبير تغيير .

وهذا اعتراض وجيه سببه ما عرف عن الشرق من جمود وخمود عقليين وقلة ابتكار وحب تقليد . فأن وجد بين الشرقيين مبتكر كأبن خلدون ، فذلك نادر .

وهذا العيب ليس مقصوراً على الادب ، فهذا هو الشأن في الفقه والنحو وكل العلوم . فمتى تحرر من ناحية ، سرى التحرر الى النواحي الاخرى ، والمأمول في الادب ان يكون أسبق الى التحرر،لأن التجارب علمتنا ان الادب ارهاص للعلم والفلسفة،ولأن من عناصر الادب الاربعة عنصر الخيال ، وليس الابتكار أول أمره الا خيالاً يتحقق فيما بعد ، والله يوفق ..

يروون ، ان الحريري لما اخترع المقامات ، شك في انه وضعها ، وطلب اليه ان يضع مثلها عن موضوعات عينت له فلم يستطع .. وهذا

صحيح ، فبعض الكتاب يحسن ان يكتب فيما يختار ، ولا يحسن ان يكتب فيما يختار له . وبعض الكتاب على العكس ، وبعض الكتاب يحسن ان يكتب فيما يختار هو وما يختار له على السواء ، وهذا أقدر ، وهو تابع لاختلاف الاستعدادات والملكات ، فالنوع الاول قدير في ناحية معينة لا يحسن غيرها ، ولذلك لا يكتب الا فيما يحسن . والبعض يحار بين الموضوعات ، أيكتب في هذا ام في ذاك ؟ ويتردد كثيراً في ماذا يكتب مع سعة قدرته ، فأذا حدد له موضوع رحمه ذلك من تردده فكتب واجاد . وبعضهم قدير على أي موضوع وليس عنده تردد . فهو يجيد الكتابة فيما يريد ، وما يراد منه . وهذا ينطبق على ادبائنا في العصر الحاضر ،فمنهم من يحسن المقال ولا يحسن القصة ، ومنهم من يحسن القصة ولا يحسن المقال ، ومنهم من يحسن الشعر ولا يحسن النثر والعكس ، وهكذا .

وكذلك الشأن في الملكات الاخرى، فمن الادباء من لا يحسن الحديث ولكنه يحسن الكتابة ، كالذي حُكي عن البحتري انه لم يكن يجيد الالقاء ، ويرجو آخر في ان يلقي له شعره . وكذلك كان في عصرنا المرحوم شوقي ، يحسن الشعر اكثر مما يحسنه حافظ ابراهيم ، ولكن حافظ ابراهيم كان يحسن الحديث اكثر من شوقي ، وكان مجلسه ظريفاً يثير الضحك الى اقصى حد ، وربما كان نصف الاعجاب بشعره مرجعه الى حسن القائه ، فترى من تحس بأظلامه في الحديث اذا تحدث ، واشراقه في الكتابة او الشعر اذا كتب او شعر .

وقد اشترطنا فيما مضى للقصاص ان تكون عنده ملكة القَص ، وهي ضرورية في القصص ، حتى ان هذه الملكة تعادل جودة القصة نفسها ، فقد يقص قاص قصة ، فتجعلك من حسن قصه وحركات وجهه وغرابة شكله تضحك ملء شدقيك ، ويقص آخر قصة وليس لديه هذه الملكة،وربما كانت القصة اجود من سابقتها ، ولكنه يقرفك بقصها ،

والله يرزق من يشاء ما يشاء ...

نلاحظ ان العرب من اول امرهم—والحق يقال — لم يتفننوا في أدبهم التفنن الواجب عليهم ؛ سواء من ناحية الكمية او من ناحية الكيفية . وربما كان هذا اول مظهر لذلك الادب بعد الاسلام ، فقد كان الادب الجاهلي غنياً واسعاً في الفاظه وتركيبه وموضوعاته ، فلما جاء الاسلام لم نجد من التصور في الادب ما كنا ننتظره ، فالموضوعات هي الموضوعات ، من هجاء ، ومديح ، وغزل ، وفخر ، ونحو ذلك . والاساليب هي نفس الاساليب ، بل نحن كنا ننتظر ان الفتوحات الاسلامية العظيمة وما رآه العرب في البلاد المفتوحة من اشياء لم يروها من قبل ، كالنيل في مصر ، ودجلة والفرات في بلاد العرب ، والمناظر الجديدة في خراسان وما وراء النهر ، ان تطلق ألسنتهم بالقول كما اطلقت الجاهليين في الصحارى ونباتها وحيوانها ، فأين الغدير من النيل ، او من دجلة والفرات ؟ واين غمدان من الأهرام ، وهياكل بعلبك ؟ وأين وأين الى آخر ما لا عداد له ، ولكنه التقاليد أبكم السنتهم . وربما التمسنا عذراً للفاتحين لانشغالهم بالمسائل الحربية والسياسية ، ودهشة الفتح ونحو ذلك ، فما بال غير المحاربين ممن سكنوا هذه الاقاليم ؟

واستمر الحال على هذا المنوال طوال تاريخ الادب العربي ، فالحروب الصليبية مثلاً لم تنل من القول حقها ، بل ان الشعراء الاوربيين قالوا في الحروب الصليبية أكثر مما قال المسلمون ، والذي قالوه لا يكفي لأشباع النفس .

ثم كان تحت نظرهم الادب الهندي والصيني والفارسي واليوناني والروماني ، وقد اطلعوا على هذه الآداب كلها وفيها من غير شك فنون من القول لا عهد للعرب بها كالأقاصيص الفارسية والتمثيلات اليونانية والخرافات الهندية ونحو ذلك ، فلم يأخذوها ، بل وقفوا عند الادب الجاهلي وحده يحتذونه .

هذا موضع من الغرابة يدل على قلة الابتكار في الادب العربي. وظلوا يعرضون عن الف ليلة وليلة ، لا يستوحونها حتى استوحاها الأوربيون. وهذا مما جعل مؤرخ الادب العربي لا يستطيع ان يفرق بين ادب عصر وأدب عصر آخر الا بمنظار مُعَظِّم !

والأوزان هي الأوزان ، من عهد ان خلق الجاهليون الستة عشر وزناً الى اليوم ، مع ان الأوزان ترتبط تمام الارتباط بالأذن الموسيقية ، والأذن الموسيقية التي كانت تستحسن بعض الأغاني والأوزان الموسيقية استحسنت في عصرها الحديث اغاني اخرى ، حتى ربما اقتبستها من الأوزان الاوربية .

بل نرى ان البيئات تختلف كما بين العراق والاندلس ولبنان وموريتانيا مثلاً ، فيحذو الاندلسيون في أدبهم حذو الادب العراقي ولا يزيدون إلا في اشياء طفيفة ، على حين ان الامر يختلف فناً واسلوباً ، بين لبنان وموريتانيا اختلافاً كبيراً بسبب اختلاف البيئتين .

والموضوعات هي الموضوعات والشكل هو الشكل ، ويؤلف ابو علي القالي وابن عبد ربه فينقلان لنا في كتبهما الادب الشرقي .

هذا شي يستوقف النظر ويحار المتفلسف في تعليل ذلك . وما رموا به من العقم ، حتى المحدثون الذين تعلموا اللغات الاوربية غيروا تقليداً بتقليد ، لا تقليداً باجتهاد ، فبدل ان كان الاولون يقلدون العصر الجاهلي ، اصبح هؤلاء يقلدون الادب الاوروبي تقليداً تاماً ، فهل يأتي عليهم زمن يتغلب عليهم الوعي الادبي فيخلقون ، ويبتكرون ويستلهمون بيئاتهم ، ويستوحون نفوسهم ، ويحوزون كل الفنون الادبية في الامم المختلفة ، ثم يخلقون ما يناسب أنفسهم ؟

ذلك هو المأمول لانه يتفق وطبيعة الاشياء .

ان هذا الشأن الذي اعتراهم في الادب ، هو الشأن الذي اعتراهم في الفقه والعلم والفلسفة ، فلم يقفل باب الاجتهاد في الفقه وحده ،

ولعله قبل ذلك أقفل أيضاً باب الادب والبلوى تعم ، فاذا انكشفت هذه الغُمة ، وفتحت ابواب الاجتهاد في علم او فقه ، رأيت الابواب الاخرى قد فتحت بأذن الله .

من أحسن ما قال المرزوقي في مقدمته على شرح ديوان الحماسة : « ان العرب كانوا يحاولون شرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته ، والأصابة في الوصف ، ومن اجتماع هذه الاسباب الثلاثة كثرت سوائر الأمثال وشوارد الابيات » .

وعيار اللفظ الطبع ، والرواية والاستعمال . كما سلم مما يهجّنه عند العرض عليها ، فهو المختار المستقيم . وهذا في مفرداته وجماله مراعى ، لأن اللفظة قد تستكرم بانفرادها ، فاذا ضامها ما لا يوافقها عادت الجملة هجينة .

وعيار المعنى ان يعرض على العقل الصحيح والفهم الثاقب ، فاذا انعطف عليه جنبتا القبول والاصطفاء ، مستأنساً بقراءته ، خرج وافياً . والا انتقص بمقدار شوبه ووحشته .

وعيار الاصابة في الوصف سبع صفات : الذكاء وحسن التمييز . فاذا اضيف الى ذلك المقاربة في التشبيه ، والتحام اجزاء النظم والتئامها ، ومناسبة المستعار منه للمستعار له ، ومشاكلة اللفظ للمعنى ، وشدة اقتضائها للقافية ، حتى لا تكون منافرة بينهما . فهذه الصفات السبع ، هي عمود الشعر .

الشعر الملحمي في القطر الموريتاني والجزائر

(مقارنات ومقابسات)

الشواهد عديدة على وجود الادب الملحمي في الشعر الموريتاني ، فالباحث عن هذا اللون في ادبهم لا يعترضه عناء غير عناء الاختيار .. والادب الملحمي ينشأ عادة في البيئات التي تعيش حياة قبلية خالصة ، والبيئة الموريتانية ما تزال حتى اليوم ، برغم التمدن والتحضر الآخذين بالازدياد والانتشار فيها ، وبرغم وجود طبقات عصرية راقية — اجل ، البيئة الموريتانية ما تزال حتى اليوم تعيش الى حد كبير بروح « قبلية » في عدة مناطق من ارجائها . وشعرهم الملحمي والهجائي الى الآن امتداد لشعر العصبية الجاهاية ، وشعر الحروب التي كانت تقع بين القبائل الموريتانية الى عهد قريب .

كان للحروب القبلية في موريتانيا ، اثار خطرة في التفكير الادبي تضمنت كثيراً من الخير ، فقد صحبتها حركة أدبية لامعة لا تضارعها إلا الحركة التي رافقت ظهور الاسلام في الجزيرة العربية .

كان للعصبيات « الجاهلية » أثر واضح في ادبهم القديم والجديد . فحروب سكان وادان من قبيلة كنته ، وادولحاج ليست سوى امتداد

لحروب ادوعل وادا بلحسن ، أو حروب كنته واولاد بسباع (ابي السباع) وغيرها ، حتى بات القوم — والى وقت قريب من وقتنا هذا — يصدق عليهم قول من قال في الحالة التي كانت سائدة بين الزبيرية والشيعة والخوارج في عهد يزيد بن معاوية :

وتفرقوا شيعاً ، فكل قبيلة
فيها « أمير المؤمنين » ومنبر . !

ومن الشواهد الادبية — الحربية — ما ذكره صاحب الوسيط عن حرب أهل شنقيط . وكان سكان وادان يتألفون كما قدمنا من قبيلتين قويتين مشهورتين ، هما قبيلة كنته وقبيلة إدولحاج ، رغم انهما كانا من حيث العلاقات في الجوار والنسب كالشيء الواحد ..

رسالة حُرْمَ بن عَبْد الجليل وَقصِيدَته

ومن أجود ما نورد عن هذه الحروب رسالة حرمَ (حرمة) بن عبد الجليل العلوي وقصيدته . وكان حرم المذكور موجوداً اذ ذاك ، وموضعه من العلم والادب لا يحتاج الى تعريف ، وهـذا — أولاً — نص الرسالة التي صور بها تلك الحرب :

« عفـَتْ والعياذ بالله معاهد الاسلام ، وغدى المستضيء بهـا في أعظم الغياهب والظلام ، وصار سلوك مسالك الفسق فخراً بين الانام ، واشتد اشتداد كاهله ، وبلغ أشده ، وجاوز في كل المواطن حده . « وذاع فلم تدرك يد العد عدّه » .

« ولكن من أعظم ما سمعنا به في الزمان ، ما فعلته وندمت عليه أهل وادان ، وذلك انهم مر منهم بأهل شنجيط رجلان ، فقتلهما من من غير ان يمالىء رجلُ قتلوا قبل اباهَ ، وطالب الثأر منا ليس ينساه ، فحاولوا ما صميم الشرع يأباه . فقلنا لهم : هذه دية مهذبة الوسط والنواح :

فأن ترضوا فإنا قد رضينا والا لا ، فأطراف الرماح
مقومـة وبيض مرهفـات تبين جماجماً وبنان راح !

« فقال سيدهم : لتفعلن كيت وكيت ، أو لاطأنكم عما قليل بجحافل ، لكنه مضى من ملتقى المحافل ، والحال منه يضحك : وينشد قول القائل :

عقبى اليمين على عقبى الوغى ندمُ ماذا يزيدك في اقدامك القسمِ ؟
وفي اليمين على ما انت واعده ما دل انك في الميعاد متّهم

« وقلنا لهم : لما رأينا مقالهم ويوم التقى الجيشان قد كذب الفعل :

أبيتم قبول السلم منا فكدتم لدى الحرب ان تغنوا السيوف عن السلّ !

« فصاروا اضحوكة بين أهل السهل والجبال . فحرضتهم نساءهم اذ ذاك على القتال ، فوجهوا الينا في الشهر الحرام جيشاً لهاماً ، وكان من مضى من اهل الملل كفراً واسلاماً ، يرى القتال في الشهر الحرام حراماً . فلم نبق منهم غارباً ولا سناماً ! فمن دعاه حب الحمد الى القتال بقي منشوراً ، ومن دعاه حب التمر الى الفرار فر مذعوراً :

يفر من فر منهم للعدى، دهشا كأنهم في الموامي لم يروا سبُلا
وضاقت الارض، حتى كان هاربهم اذا رأى غير شيء ظنه رجلا !

(وتمثل أيضاً بقول من قال) :

فـلا تلم جيشكم من بعد هزمهم اذا رأيت رجـالاً منهم سلموا
عليك هزمهم في كل معـترك وما عليك بهم عار اذا انهزموا

« ولمـا اغرقهم اللعين ، نكص على عقبيه ، كما فعل بقريش في غابر الازمان . فصاروا كأهل قرية كانت آمنة مطمئنة ، يأتيها رزقها

رغداً من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجـوع والخوف بما كانوا يصنعون ! وصاروا — حسبنا الله ونعم الوكيل ! — عبرة يعتبر بها المعتبرون . وصاروا ألين من الماء بعد الصلابة ، فمتّوا الى كَنت حينئذ بالقرابة ، فملكوهم حينئذ ملك الامراء ، بل لم يبلغوا لهم درجـة الوزراء ، فألجموا الخيل ، وزموا الابل ، وأتى منهم من يملأ السهل والجبل ، ولما رأينا ما سمعنا من امرهم ، تذكرت ما قال بعض الولائد :

تجمعتم من كل أوب ووجهة على واحد ، لا زلتم قِرن واحد!

« فاتوا معشراً معاطاة كؤوس الحمام ، اشهى اليهم من معاطات كؤوس المدام :

فجُلْ بقولك في اقصى مآثرهم ان انت في ذاك بالأفعال لم تَجُلِ
لقد وجدت مكان القـول ذا سعة فان وجدت لساناً قائلاً ، فقل !

(وتمثل ايضاً بقول من قال) :

اولئك قوم كل من جد غيرهم ترى جده هزلاً اذا ما همُ جدوا
ولا ترج يومـاً صالحاً لعدوهم وان هو منهم كان اكثر ان عدوا
ثقال اذا لاقوا ، خفاف اذا دعوا قليل اذا عدوا ، كثير اذا شدوا !

« فسقط في أيدي تلك العساكر وولوا خائبين ، فكم من فئة قليلة ، غلبت فئة كثيرة باذن الله ، والله مع الصابرين ، فقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين ! »

القصيدة

وهذه هي القصيدة ، لاحظ كيف تصور شجون النفس البشريـة

المنغمسة في أتون الحروب، وكيف تتخلص الى وصف المعارك والانتصارات على العدو ، قال حرمَ :

اذا الدهر بالمكروه سامك فاصبرا   ولا تجزعنْ منه أقلَّ أو اكثرا
فما دام شجوٌ لامرىء ومسرة   ارى الدهر من هذا وهذاك اكثرا
لقد كنت احجو الهجر اكبر فاجع   فالفيته من أصغر البين اصغرا !
ارى البين عن ساقيه أضحى مشمرا   وشجوك لما شمر البين شمرا !
وليس يرد الحزن من شطّ وآيُها   فاقصرْ عن الاحزان ان كنت مقصرا

* * *

تغيرتَ احوالا ، كما ان رسمها — وحُقَّ له من بعدها — قد تغيرا
غدا رائح الارواح والمغتدى به   اذاً بدلاً منه أصم واعورا
أمرَّ على اكنافه متجاهلاً   لأني متى اعرفه جفنيَ امطرا
كأني حنيناً من تذكر اهلها   مسِنَّ ، لايام الشباب تذكرا !
تقول وقد اضمرتُ ما بي ، اترتضي   هوى لم يزل في مضمر القلب مضمرا؟
فقلت لها امسى واصبح مره   من الشمس ، اومن فتح (وادان) اظهرا
أقرَّ بذاك الفتح من كان منكراً   له ، وغدا يخفيه من كان مظهرا
وادلج لدلاجاً به كل راكب   على رغم انف الحاسدين وهجّرا
وسيّر في الآفاق امر وقائع   تطيل اذا فكرت فيها التفكّرا
دعا عاجل الآجال للحين معشراً   (بوادان) لن يدعى مدى الدهر معشرا
لئن وردت شنجيط يوماً ظماؤهم   لقد شربوا زعقاً من الموت أكدرا !
وكان لهم شر الموارد مورداً   وكان لهم شر المصادر مصدرا
هم حزبوا الاحزاب من كل جانب   كما حزبت احزابها اهل خيبرا
اتوا بالرعايا ينشدون وعيدهم   فصاروا على البطحاء لحماً منشرا !
وفاض أتيٌّ من نجيع دمائهم   به شجر البطحاء أصبح مثمرا !

فمن كر منهم قد تكسر عمره ... ومن فر منهم صبره قد تكسرا
نجا مذعراً مما رأت عينه وما ... نجا من نجا من مأزق الحرب مذعرا
اذا هو في المرآة ابصر وجهه ... توهم وجه القرب ما كان ابصرا !
وان نام ، لو حفّته منهم عساكر ... رأى مشرفياً بين فوديه أحمرا
لكان لهم صبر شديد وشدة ... ولكنهم لاقوا أشد واصبرا
تطوف بهم طير هناك تخالها ... اذا وقعت حول العساكر عسكرا !
ترى الذئب مسروراً، يقول لصحبه ... « يزودنا هذا سنيناً واشهرا » .. !
أبوا ، وطلبنـا السلم منهم قبولها ... وقالوا لقد كنا على الحرب اقدرا
فولوا على اعقابهم خشية الردى ... غداة غدا باز المنايا مصرصرا
غدت (كنت) تقضي دونهم ما ينوبهم ... من الامر كانوا غائبين وحُضَّرا
فأقبل من (آكان) جند لنصرهم ... ودبر عنه النصر اذا فر مدبرا
(فشنجيط) ظنوا هدمه متيسراً ... فألفوه من إحياء كبّاد اعسرا
كأنهمُ لم يعرفوا بأس اهـله ... ولو سألوا باُنمّ والمسك اخبرا !
اتوا بخميس لم تكن خمس خمسة ... فقل فيه لو ساواه او كان اكثرا
اتاه بجوب البيـد والقفر صائلاً ... فآب من الابطـال والدين مقفرا
بدا اذ بدا ما قد رواه ، تواضعٌ ... لمن كان منهم طاغياً متكبرا
فقال زعيم القوم أصبحت راضيـاً ... بما كان من امر القدير مقدرا
فنالوا إذا عبداً ببعض دمائهم ... زنيماً (وتنّورين) والبعض اهدرا
دم أهدرته سادة علويـة ... وما كان فيهم مثل ذلك منكَرا
وما استنصروا غير الصوارم ناصراً ... واغنتهم عمن اتى متنصرا !
يخوضون يوم الروع في لجج الردى ... كأن منال العز فيهن ابحرا
يسابق عزرائيل وقع سيوفهم ... اذا ما محيا الحرب اصبح مسفرا !
فكم مشهد في الحرب يثني عليهم ... وكم معشر من بأسهم صار أزورا
تراهم وليس الدهر إلا نوائبـاً ... اذا كَبُرَت تلك النوائب أكبرا
سمـا للمعالي من تقدم منهم ... فيسمو على آثاره من تأخرا

مآثرهم حلي الزمان لو أنه على صورة الانسان كان مصورا
فكم من فتى فيهم يروقك علمه ويهزم من اجناد (وادان) عسكرا
ويجعل في احدى يديه مهنداً طريراً، وفي الاخرى كتاباً مطرّرا
يحب الردى يوم الوغى فكأنه اذا مات فيه لا يزال مُعَمَّرا!
بعينيك فانظر، كي ترى بعض مجدهم اذا انت عن ادراكه كنت مُقصرا!

كيف يجري الصلح عندهم

وأما الصلح عندهم، فيكون بسفارة تمشي بين الطائفتين. والاكثر ان يكون ذلك الوفد من الزوايا، ويسمونه (الصربة) ورؤساء حسان يتبادلون أرسال أولادهم الصغار، ويبقى ولد هذا عند هذا، والعكس.. ويسمون الولد امنازله وغفيراً.

اما الزوايا: اذا سئموا من الحرب، فأنهم يتبادلون السفراء، حتى يتفقوا على الصلح. والاكثر ان يضمن بينهم رئيس من رؤساء حسان.

واما حروب الزوايا، فأكثرها انما يكون في تكانت والحوض والرقيبه وآدرار. اما ارض القبلة، فأعظم حرب وقعت فيها انما هي حرب ادوعل وإدا بْلسَحن. وقد وقعت حرب قديماً، بين اولاد آبيير وتندغا وليس عندي تفاصيلهـا، وسببها: ان تندغا استجار بهم بعض من يعـادي اولاد ابييري، فأجاروه وبذلك قال احد شعرائهم الحسانيين (الزجلين):

الحرب أولُ شاب اجميل واعكابُ عزبَ بالزُّوره
ماتْلَ تنْدغِ بحكم ادخيلَ الا اتّل ولداولاد ابيير إدوره

اجميل: بمعنى جميلة. واعكاب: بمعنى اعقاب، وذكّر الحرب،

وهي مؤنثة ، لان العامي أكثر لحن . والعزية عندهم : بمعنى المعصر ، اي التي قاربت البلوغ . وازور : ضفيرة تكون لمن هذه سنها . وماتل: بمعنى ما بقى . ويحكم : بمعنى يمسك ، والدخيل : الذي يدخـل في كنف من يستجير به . يعني ان تندغ لا يجيرون أحداً بعد هذه الحرب أبداً ، لما وقع فيهم ، وان ابناء ابيبري لا يحاولون ان يسلم لهم الشخص من اجاره ، لما نالهم أيضاً . وظاهر هذا الكلام : ان القبيلتين تعبتـا من الحرب ، وهذا شأن كل المتحاربين فغالبهم مغلوب ..

نخوتهم :

ومن نخوتهم ان « الكفيه » الشاعر العامي المشهور ، نزل ببكار ابن اسويد احمد ، رئيس ادوعيش ، فبنى له بيتاً ، وكان بكار يذهب اليه بنفسه ، ويواكله في محله ، فأتاه ليلة مع من يحمل له شيئـاً من اللحم ، فلما وضعه بين يديه امتنع عن اكله ، فسأله عن السبب : فقال اني لست سبعاً ، فأن هذا الوقت لا يأكل اللحم فيه غـير السباع ! وخرجا يوماً يتريضان على فرسين ، فمرا بمنهل غاص بالناس ، يسقون ابلهم فيه ، فأتوهم باللبن ، فشرب منه بكار أولاً ، وناوله ، فامتنع من الشرب ، فسأله عن السبب ، فصرح له بأنه لا يشرب في المنهل، الا اوباش الناس ! فحقد عليه ، فكان هذا سببـاً في دس من يقتله بعد ذلك ..

واشتهر « الكفيه » هذا ، بالنظم المسمى عندهم بالغناء ، ومنه قوله يعتبر بما فعل بهم مشظوف ، وكانوا خـوَلاً لهم ،فحاربوهم وغلبوهم ، فقال :

أسكِ عن تصريفْ الفيُـومْ وأسكِ يذاك التصرُّوفْ !

مشظوف أكبلْ ملكِ واليُومْ عِدْتْ آنَ مالِكن مشظوفْ

اسك عندهم : كلمة بمعنى التعجب ، ويذاك : بمعنى يا ذلك ، والتصروف : مصدر بمعنى التصرف ، واكبل : بمعنى قبل ، وعدت : بمعنى صرت ، وهي عربية ، يعني انهم كانوا ملكه فانعكس الامر . ومن نظمه ايضاً :

مَحَدْ الدني مايلَ شورَكْ واعليهَ مايلْ
اعلم بعد انه زايلَ وانت واياه زايِلْ !

محد : بمعنى ما دامت ، وشورك : بمعنى نحوك واليك ، اي ما دامت الدنيا تميل الى ناحيتك ، وتميل اليها بقلبك ، فاعلم بعد ذلك انكما زائلان :

مَذَ من حَدَ اشْتاكَهَ واجِعهْ بعد افْراكَهَ
مِلكْ اذهبْهَ وانياكْهَ بمِركاتِنْ واشْوايلْ
وامشَ عنهَ ما ظاكْهَ وآنَ ذا آلَ كايِلْ !

مذ : بمعنى ماذا ، واشتاكه : بمعنى اشتاقها ، وأفراكه : بمعنى فراقها ، وانياكه : بمعنى نياقها ، وتمركاتن : بمعنى انها غير حلوبة ، واشوايل : بمعنى حلوبة ، وهذه اللفظة عربية ،الا انهم عكسوا معناها ، لأن الشائل عند العرب ، هي التي شالت بذنبها اللقاح ، ولا لبن لها أصلاً ، والشائلة أيضاً : نقل لما بقي في ضرعها بقية ، وامش : بمعنى ومشى ، وظاكه : بمعنى ذاقها ، وان ذا آل كايل : اي وانا هذا الذي أقول :

فاتُ مَلكُوه لَوْ لِينْ الّ ملْكُوه مَلكْ زَينْ

اعِكبتْ فيْدْ التاليـــين   هاذُوكْ ارْحايِلْ وانْزايِلْ
غيرّ الّ يمشُ كاملين   عنهَ مشيِتْ لوايِلْ

وترجمة ذلك : « ان الدنيا ملكها الاولون ملكاً حسناً ، ثم وقعت في ايدي التالين وهكذا .. » .

وارحايل وانزايل : بمعنى راحلين ونازلين، وهاذوك : بمعنى اولئك.

الشِعْر الشعبي في موريتانيا والجزائر

انطلاقاً من هذا الشعر الشعبي الموريتاني – الحساني – وما سنورد مثله في الفصل السادس الآتي من شعر الهادي بن محمد (رقم ٦ من الشعراء القدماء) ، نود ان نعرض طرفاً من البحث التفصيلي المقارن بين هذا النوع من الشعر الموريتاني ، والشعر الجزائـري ، والبلاد في القطرين ذات طابع واحد في الارض والمناخ والحياة .

غير ان ظاهرة الادب الشعبي في الجزائر تكاد تكون مستقلة تماماً عن ظاهرة الادب الشعبي في الاقطار العربية الاخرى ، لأن أداة هذا الادب لغات متعددة ، فيوجد ادب معبر عنه باللهجة العامية العربية ، وآخر يعبر عنه باللهجات البربرية – لغة الرأس الشمالي الافريقي القديم – إلا ان هذا الادب أو ذاك يتفقان في المادة والروح والموضوع ولا يختلفان الا في الشكل وفي الأداة . والفرق بينهما هو ان الادب المعبر عنه باللغة العربية العامة ، أدب صحراوي . والادب المعبر عنه باللغـة البربرية ، أدب جبلي : وبما ان الاستعمار في كل بلد يدخله يحاول دائماً ان يحدث الفرقة بين أبنائه ، ويحيي العصبية الدينية ان كان الشعب المستعمَر متحداً في لغته وجنسه ، كما فعل في الشام ومصر ولحـج ولبنان ، او يحيي النزعات العنصرية اذا كان الشعب المستعمر متحداً في دينه كما حاول في

الجزائر وموريتانيا . فالاستعمار الفرنسي حاول بكل ما أوتـي من قوة واتخذ جميع الوسائل والحيل ليفرق بين الجزائريين ، ففصل بين العرب والقبائل وهم قسم كبير من البربر ، وجعل لهؤلاء امتيازات خاصـة ومعاملات تختلف عن المعاملات التي يعامل بها بقية الجزائريين . فلقد كانت القبائل تتمتع بالحماية الفرنسية خلافاً لبقية الشعب ، فانهم كانوا مستعمرين استعماراً تاماً ولم ترفع عنهم الحماية إلا بعد ثورتهم على السلطات الاستعمارية ، وانتقلت معاملتهم السياسية من الحماية الى الاستعـمار شأن الفئات الاخرى ، إلا انهم بقيت لهم امتيازات ثقافية ومعاملات اجتماعية خاصة سائرة حتى ايامنا هذه بين القبائل وارسلت حملات التبشير ،وعزلوا عزلاً تاماً عن بقية اخوانهم الجزائريين . ووضعت العراقيل في سبيل انشاء المدارس العربية التي قامت بانشائها هيئات جزائريـة ، وبذلت مجهودات جبارة لتقنين اللغة البربرية ـ لغة القبائل ـ وجعلها لغة المدرسة والاذاعة والصحافة بدلاً من اللغة العربية ..

وحاول الفرنسيون ان يبثوا بين القبائل انهم من أصل اوروبـي آرى لا يمت الى السلالـة السامية او الحامية بصلة . الا ان هذه المحاولات كلها باءت بالفشل الذريع لان فكرة العربية أو العروبة صارت عقيدة في نفوس القبائل ممتزجة امتزاجاً بالعقيدة الاسلامية . فالقبائلي لا يعرف العربية ولكنه يحفظ القرآن عن ظهر قلب ، ويرتله في اليوم خمس مرات.. والى الآن لو حاولت ان تقنع القبائلي بأن العربـي غير المسلم لمـا اقتنع لانه لا يفرق بين العربـي والمسلم،فالعروبة والاسلام عنده تكوّنان معنى واحـداً .

وسارع النقاد والمترجمون الفرنسيون الى ترجمة ودراسة وتحليل الأدب القبائلي لا حباً في التراث القبائلي بل خدمة لفكرة التفرقـة الاستعمارية . إلا ان هذه الدراسات لم تتناول إلا نوعاً واحداً من الادب القبائلي وهو الادب الغزلي الذي لا يمس الشخصية الفرنسية بشيء:فنجد مثلاً جـان

عمروش [1] الكاتب الفرنسي المعروف والمذيع في الاذاعة الفرنسية يخصص جزءاً كبيراً من نشاطه الادبي في ترجمة دواوين من القبائل الى الفرنسية، ونجـد كذلك Elissa Rais اهتمت اهتماماً كبيراً بتحليل الاغاني القبائلية الجزائرية وسجلتها في قصصهـا . الا ان الادب الذي سجل الثورات الجزائرية والصراع بين الشخصية الجزائرية والشخصية الفرنسية ، تجاهله النقاد الفرنسيون ما عدا « باسيه » Bassé المؤرخ الفرنسي المعروف ، فلقد ترجم ديواناً صغيراً جمع فيه بعض القصائد القبلية التي قيلت في ثورة مقراني (١٧٨٠ — ١٨٧٢) .

فدعوة الاستعمار الفرنسي للغة القبائلية واهتمامه بالادب القبائلي جعل الشعب ينظر إلى هذه الحركة بحذر وخوف ويقابلها بالاستنكار ويرمي كل من حـاول ان يدرس الأدب القبائلي أو يهتم به بالخيانة والمحاباة للفرنسيين ... ومن أجل هذا لم نجد بين الجزائريين من حاول ان يدرس هذا الادب ويوجه اليه أهمية . وأخشى ما أخشاه أن يضيع هذا التراث الادبي القبائلي الضخم بين النظرات المحدودة . هذا الادب الذي يعتبر كاملاً في تعبيره ومادته وموضوعه . وفي كونه سجلاً للاحساس الشعبي الجزائري في فترة زمنية تعتبر من أخطر الفترات في حياة الشعب الجزائري وهي فترة الصراع بين الشخصية الجزائرية والشخصية الفرنسية .

أمـا الادب الشعبي الذي يردده قسم كبير من الشعب الجزائري — الجزائريون الذين يتكلمون اللغة العربية العامة ، والجزائريون الذين ينسبون الى الشاوية وهم قسم كبير من البربر — فانه الزجل المعبر عنه باللهجة العربية العامة وهو زجل صحراوي بحت يعبر عن الطبيعة العربية الصحراوية القديمة — خلافاً للأدب القبائلي فانه ادب جبلي فيه الروح الجزائرية —

---

١ — هذا الكاتب جزائري الاصل ينسب إلى القبائل ، اخذه المبشرون الكاثوليك منذ صباه إلى فرنسا وانشأوه على المسيحية والفرنسية وهو يعتبر من المع شباب فرنسا . الا انه لا زال يحمل لقبا جزائرياً هو (عمروش) وهو يعرف اللغة القبائلية .

ولا عجب فان الاغلبية الساحقة هم من العرب الذين نزلوا الجزائر ابان الفتح الاسلامي والهجرات الهلالية التي تات الفتح وانتشرت في المناطق الصحراوية التي تشبه المنـاطق التي تعودت عليها في الجزيرة العربية وفي مصر [1] .

ولو تمعنا جيداً في الخصائص الفنية لهذا الزجل الصحراوي لوجدنا بعضها تشبه الخصائص الشعرية العربية الجاهلية ، فالقسم الكبير من لغة هذا الزجل الفاظ عربية محرفة غريبة احياناً ، وهو لا يخلو كذلك من معان عربية كلاسيكية كالبكاء على الاطلال ، فمثلاً نجد زجالا (كأبو كريو) وقف على أطلال منزل حبيبته وناجى نفسه قائلاً : « هذا الرسم كانت الحبيبة الحائنة ذات العيون النجل تسكنه ، وذهبت وتركته خالياً .. ولماذا اقف على رسم أليفي بعد ان خلا متفقداً ما فات ملهباً نيران أشواقي ؟.. »

هذا الرسم كانت الخدّاعه فيه مصبوغة الانجال خلاّ تو خالي
مرسم ولفي كي حلا وأحلاه نجيه تتفقد ما فات يثقب مشعالي !

واما وزن الزجل الصحراوي فأنه يشبه من وجوه كثيرة الوزن العربي القديم ، وبخاصة الاوزان الطويلة ، وهذه الاوزان الطويلة غالباً مـا تستعمل في المقطوعات أو في القصائد القصيرة ، وأما الاوزان الخفيفة فانها تستعمل في الملاحم ، الا ان الوزن الشائع في هذا الزجل هو وزن التواشيح الاندلسية . واما القافية الشائعة فيه فهي القافية المزدوجة وهي ان تجيء القصيدة مقفاة الصدور بقافية مغايرة لقوافي الاعجاز . والزجل الصحراوي هذا يرجع في تقسيمه إلى اصلين : الزجل الذاتي أو الغزلي، والزجل الوطني .

---

١ – هاجر بنو هلال من مصر إلى الجزائر في القرن الخامس الهجري .

الزجل الذاتي

الشعب الجزائري شعب عاطفي حساس ذو خيال خصب ، استمد هذا الخيال وهذه العاطفة من اندماج كيانه بالطبيعة الجزائرية ، بجبالها الشامخة ووديانها الغائرة وكهوفها المخيفة وصحاريها الممتدة التي تبعث الانسان على ان يقف خاشعاً أمامها مندمجاً فيها . واستمده كذلك من تقلب حياته وتغير المناظر الطبيعية أمامه . فالجو الجزائري كجو موريتانيا متقلب متغير . فمن جو خريفي الى جو شتوي الى ربيعي الى صيفي . ومن انتقال الفرد الجزائري بين بيئة صحراوية شتاء،وبيئة جبلية تليه صيفاً . فلنستمع إلى الزجال حينما يحكي لنا انه قضى الصيف مع ابنة عمه الحبيبة في التل ، وانهما الآن في طريقهما إلى الصحراء لقضاء الشتاء هناك :

في التل مصيفين   جينا محدورين
للصحراء قاصدين
نـــا   والطوايا

والميزة الظاهرة لهذا الزجل الذاتي طابع المأساة فيه ، فهو زجل باك يحكي لنا قصصاً حزينة تنتهي دائماً بالموت أو الفشل او بالخيبة . ويتخذ الزجال الحب كوسيلة لابداء حرمانه في الحياة ولاطلاق زفرات وأنات مؤلمة ، وان أي قصيدة وأية مقطوعة شائعة بين أفراد الشعب الجزائري تحمل دائماً معنى الحرمان وتختتم غالباً بمأساة مؤثرة ! فمثلاً اذا استعرضنا هذه القصيدة المسماة (حيزية)[1] وجدنا ان الشاعر يرثي فيها ابنة عمه التي ماتت في ريعان شبابها ، فكره الحياه من دونها وهرع الى شعره يبثه أحزانه وآلامه . وتفتقت قريحته عن قصيدة تعتبر من الروائع في تاريخ

١ – سميت بهذا الاسم نسبة إلى بطلتها ، والفت هذه القصيدة سنة ١٥٢٧ م .

الزجل الجزائري ، ومن السجلات الكبيرة التي اشتملت على قسط كبير من العادات والاحساسات والخيالات الجزائرية في فترة معينة من الزمن.. فبرغم طولها الشبيه بطول الملاحم انك لا تكاد تشعر بملل وانت تستمع اليها لأن كل قطعة منها جديدة عليك بالنسبة للقطعة التي سبقتها . يفتتح الشاعر قصيدته هذه بنزعة تصوفية ، فكل شيء مآله إلى الفناء ، وكل الناس ستجتمع في اليوم الاخر الذي يطلق عليه الشاعر اسماً فنياً جميلاً وهو (الحارة) .

نعيو مجمولين في ذيك الحارة !

ثم سرعان ما يطغى عليه اليأس والتذمر من فراق ابنة عمه الحبيبة فينتقل من استسلامه للاقدار إلى الثورة عليها ويخاطب القدر بقوله : يا من فرقت بين المجتمعين ويا من درت عليهم بالمرارة بعد الزهو والسعادة :

يا فراق اللي يكونوا مجمولين بعد الزهو أدور عنهم بمرارة !

وبعد هذه المقدمة التصوفية التذمرية ينتقل الشاعر انتقالاً مفاجئاً فيخاطب الحسان طالباً منهن ان يعزينه في حبيبته ، التي يصفها برئيسة الحسان – والتي سكنت تحت اللحود وتركت له نيراناً مشتعلة ..!

عزوني يا ملاح في ريس البنات
سكنت تحت اللحود
ناري مقديا !

ثم ينتقل الى وصف جمالها فيصف كل عضو من اعضائها وصفاً رائعاً جميلاً ،ثم يختتم هذا الوصف بقوله : لقد كان موتها في الوقت الذي اكتملت فيه انوثتها كالشمس التي فسخت بعد ان استوت على

ضحاها ، وكالقمر الذي اضاء في رمضان — لان الناس لا يناموت في ليالي رمضان ومن هذا فهـم يتمتعون بجمال القمر — بعد ان اكتمل فجاءه المسيان والغروب المفاجيء فودع الدنيا إلى الأبد :

والشمس اللي ضوات طلعت واتمسات
فسخت حين استوات
وقت الضحيا
والقمر اللي بـان شعشع في رمضان
جاء المسيان
طلب وداع الدنيا !

وتتغلب نزعة الحرمان على الشاعر فيجعل حتى الصدفة تلعب دورها ضده ، ففي اليوم الذي ماتت فيه حبيبته فارق الحياة فرسه العزيز عليه. وهكذا فارقه في يوم واحد أعز ما يملك في الحياة وهما فرسه وابنـة عمه الحبيبة !

شبّ وشبّ الوداع الازرق وأختي [1] فاع
من ايدي طاحوا الصراع [2]
راحوا ماطلا !

ويختم القصيدة بمخاطبة حفار القبور ،فيطلب منه في لهجة تسيل انسانية ورقة ان يحفظ حبيبته ريم الصحراء فلا يسقط عليها الصخور .. ويستحلفه بالقرآن وبحروف المصحف الوهابي الا يترك التراب يسقط على عينيها الجميلتين خشية من ان يعميها،لانها حيـة في كيانه وان كانت ميتة في الواقع !

١ — شاع استعمال وصف الحبيبة بالاخت في الشعر المصري القديم في اغنية الحسناء والراعي .
٢ — الصراع عنان الفرس .

يا حفار القبور سايس ريم الغـور
ما اطيحش الصخور
اعلى حيزية !
قسّمتك بالكتاب وحروف الوهـاب
طيحش التراب
تعميها هيه .!

فهذه القصيدة تعتبر من أروع المرثيات في الزجل الذاتي الصحراوي، فكل بيت فيها زفرة وكل قطعة منها دمعة ، فهـي مأساة انسانية تعبر وتتجاوب مع شعب محروم من كل شيء في الحياة ..

وننتقل من هذه الملحمة الغزلية إلى شاعر ذاع صيته في الجماهير وتردد فنه على كل لسان وهو (ابن كريو)[1] وزجل هذا الشاعر كله دموع وتأوهات . وكل قصيـدة من قصائده تحكي لنا قصة حب أو عشق ولكن كلها تنتهـي بخيبة الامل . ولنستمع اليه كيف يصف اليوم الذي رأى فيه حبيبته وهو جالس في المقهـى الذي تعود ان يستريح فيه عقب عناء العمل ، وكيف بدت له هذه الحبيبة وراء الستائر كما تبدو الشمس أو القمر من وراء السحب ، ثم اختفت واختفى معها قلبه ووعيـه ! وكيف كان صديقه الطيب .. الذي لم يجرب العذاب ولا الهموم يتكلم معه وهو ساه لا يرد عليه بجواب لشرود ذهنه :

جيت نصبر خاطري ضاق اعشيه زدت عليه هموم من نظرات صعاب
صاحبي صاحب حين مولى عقليه ما هو داري بالبلى ما شاف عذاب !
يمشي في الآمـان ويحدث فيـه ونصتت له ما نرد عليـه جواب
طلت عين كي الشمس الضوايـه والا قمر وبان من خلف اسحاب !

---

١ – هذا الشاعر من مدينة « الأغواط » .

ثم ينتقل فيبين لنا الاهوال التي حفت بهذه الحبيبة فأخوتها ثعابين اذا نسفت الحديد صارت تراباً ، وابوها شبل ، وامها ملكة متحكمة ، ويا ويل من يعارضهم في أمر فان جزاءه التلاشي بين الاظفار والانياب :

خوتك ثعابين طيه عن طيه واذا ساطوا على الذكير يصير تراب !
وابيك شبل وامك بايه واللي عارضهم يروح بين الاظفار والانياب !

وهكذا فالزجل الغزلي الذاتي لم يتجرد من الحرمان الذي هو الطابع العام للفن الشعبي الجزائري ، بل كله حرمان وبكاء . الا ان الشاعر الشعبي الجزائري ، لم ينس وطنه وهو يقول شعراً ذاتياً محضاً . لنستمع الى عبد الحفيظ الغديري [1] الذي ختم قصيدة من قصائده الغزلية فتمنى لو تقوم دولة عربية لينقل من البادية القاحلة ويسكن مدينة (سطيف) ويصنع كل وسائل الراحة في خدمة حبيبته :

يا لو كان تعود الدولة عربية من اوليدات عياض غير اللي نبغيه
ندى خبر شاعة المبانيه ونسكن وسط اسطيف والقلب انزهيه !

الزجل الوطني :

النوع الثاني من الزجل الصحراوي هو الزجل الوطني الذي يعبر لنا عن الصراع بين الشخصية الجزائرية والشخصية الفرنسية . ومن أشهر ما قيل في هذا الموضوع تلك الملحمة التي قيلت في الحرب العالمية الاخيرة ، قالها شاعر مجهول الاسم شارك في هذه الحرب تحت الراية الفرنسية ، فصور لنا فيها الاجناس التي التقى بها ، والبلدان والاوطان التي مر بها

---

١ – هذا الشاعر من مدينة (برج الغدير) .

وعبر فيها عن احساسه ازاء هذه الحرب التي لم تجلب له ولأبناء وطنه إلا الخراب والدمار ، ولم يجن ثمار نصرها إلا عدو لدود لا تربطه به رابطة . ولقد انتشرت هذه الملحمة انتشاراً سرياً بين أفراد الشعب الجزائري وبخاصة في المناطق الجنوبية ،لأن السلطات الفرنسية كانت تنزل عقوباتها الشديدة على كل من يرددها ! ولقد سمعت هذه الملحمة التي جاءت حاملة لكل عناصر الفن الملحمي وخصائصه ، سمعتها مرة واحدة ولم تحتفظ ذاكرتي بغير مطاعها . ولقد بيّن لنا الشاعر في هذا المطلع كيف ان هذه القصيدة تبكي وتخلق الاحزان وتكشف عن هذه الايام السوداء وعن هذا الدهر الخائن وعن هذه الامة التي هي في حالة يرثى لها ، وعن حالته هو وكيف أخذه الفرنسيون للحرب ، وكيف خدمهم مدة ثلاث سنوات أخذوه فيها إلى المانيا وإلى كل بلد أرادوها ...

جايب لي ملزمه تبكي ⠀⠀ وتـدنـي الاحـزان
على الله والايام مشوقه ⠀⠀ على الله والدهر الخوّان
على الله والايام أهديه ⠀⠀ آلامه في حاله دونيه
كتبوني ثلاثة عدّيت ⠀⠀ نخدم من الرومي ظليت !
ادوني للالمان مشيت ⠀⠀ وداروا بـي كل اوطان!

ولم تقف الوسائل لكمّ الأفواه التي عمد اليها الفرنسيون حائلاً دون الشاعر الشعبي ودون التعبير عن احساساته ، إلا ان هذا التعبير جاء في أغلب الأحيان بطريقة رمزية . ولعل أشهر ظاهرة رمزية في الشعر الشعبي هذا هو القول على لسان الحيوانات فهذا شاعر مجهول الاسم يصف لنا حالة إبله التي استغلها الجند الفرنسي بعد ان انتصر على الشعب في حروب التحرير ، استغلها دون مقابل فنقل عليها معداته دون شفقة ! ولقد رمز الشاعر في هذه القصيدة إلى ما يعانيه الجزائريون من الفرنسيين الذين حملوهم ما لا يطيقون ، ووجهوهم حسب أغراضهم وحرموهم

حتى من لقمة العيش الضرورية ! يقول الشاعر (الابل تقول : ابكي واستمر في البكاء على عمري الذي ضاع كله بين المصائب والمحن ، فلقد حملني هؤلاء القساة دون تقدير الحمولة وشقوا بي الفيافي دون اتباع الطرق الممهدة ، وحينما أضر بي الجوع حاولت ان ارعى قليلاً من الحلفا فضربوني بسياط من حديد) !

البل قالت :

انفــرد ونزيــد على عمري راح اتمرميد

البل قالت :

انفــرد يا ديايه وعبوني من غير اعبايه

وساقوني من غير اتنايا وجيت انطبش على الحصابه

ضربوني سياط الحديد !

وهكذا ، فالزجل الوطني كان من أصدق ما قيل في الفن الجزائري ، فلقد عبر تعبيراً واضحاً عن احساسات شعب مضطهد باسم الانسانية والمدنية وسجل كفاح امة ، وان أي جزائري لا بد وان يكون حافظاً لذينك البيتين اللذين قالهما شاعر في معركة من معارك التحرير يخاطب فيهما نفسه التي راودته على الفــرار والاستسلام عندما سقط أصحابه الابطال تحت وابل من رصاص الفرنسيين وبقي هو وحده محاطاً بجند العدو من جميع النواحي . خاطب نفسه في هذه اللحظة الحرجة بقوله : (رومي ايتها النفس العواطف الهوجاء لأن فرارك أمام الاعداء جريمة وما الموت سوى نهاية مقدرة بيــد الله القوي ، وما الرصاص سوى أسباب هذا الموت والعمر القصير لا تطيله مذلة !)

رومــي عجاج الطايب وهروبك قدام الاعداء خايب

الرب يقتل والرصاص اسباب لعمر لقصف ما طولته ذلة !

وقد شاع نوع من الزجل الوطني منذ احتلال الجزائر يسمى بزجل الفتوة ، قاله أبطال فروا من الجيش الفرنسي فرادى بعد ان أبوا الدفاع عن الراية الفرنسية التي هي رمز للاستعمار والبطش ، وتمردوا على الحكومة

الاستعمارية واعتصموا بالجبال وانتقموا من الفرنسيين وأذنابهم ، وساعدوا الفقير وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر . ولقد اشتهر هؤلاء الفتيان بالشجاعة التي لا حد لها وبالفروسية وبمهارتهم العجيبة في فن الرماية ، وتذكرنا حياتهم بحياة الصعاليك في العهد العربي الجاهلي . إلا ان الفرق بين هؤلاء واولئك هو ان الصعاليك في التاريخ العربي تمردوا على بني وطنهم ،اما هؤلاء الابطال فأنهم تمردوا على أعدائهم !

شعر الأراجيز عند الموريتانيين والأندلسيين

شعر الاراجيز عند الموريتانيين (يسمونه الانظام) لا يعدله في الكثرة والجودة الا شعر الاندلسيين. ولا غرابة ، فالموريتانيون تأثروا تأثراً كبيراً بالادب الاندلسي فقلدوه وحاكوه ، فأجادوا التقليد والمحاكاة . اما في الشعر الموشح ، فقد ظل الاندلسيون متفوقين على الموريتانيين وغيرهم من شعراء الاقطار العربية الاخرى .

حنبليتان في وصف الثقلاء واصحاب الصبابة ..

في مظان هذا الكتاب شواهد عديدة من الشعر الارجوزي ، نضيف إليها هاتين الارجوزتين الشهيرتين في أرض موريتانيا، نظمهما الشيخ عبدالله السالم بن الشيخ محمد بن حنبل الحسني . الاولى في وصف روح الثقلاء وما يعتري المصاب بعشرتهم من لواحق الهم وبواعث المكروه .. والقصيدة الثانية في وصف أصحاب الشهوات النسائية وأهل الصبابة .. والقصيدتان فيهما من ظرافة الروح وطرافــة المعنى وجمال العرض والخيال ما يثير الضحك ، ويلامس شغاف القلب بالسرور والايناس ..

وهذه هي القصيدة الاولى في وصف الثقلاء :

الحمد لله ، وصلى الله ... على نبينا ، ومن إتلاه
هذا ، وللثقيل عند الظرفا ... ما يقتضي من حاله ان يُعرفا..
اذ شبهوه بحلول الـدين ... ومثلوه بقذاة العـين !
وبجريض الحَين عند الحين ... وبنعي وغـداة البين
وغير ذا مما هنا لم يذكر ... لكنه حكم بلا تصور
فرمت والله المعـين نظما ... يكشف من احواله المعمى
نظما حوى تفصيل حال الثقلا ... مقدماً على الثقيل الاثقلا..
والله أرجو ان يكون لالي ... ولا علي ، بل يرى كالآل

فصل في الثقل الذاتي :

الثقل الذاتي وصف نفسي ... تدركه النفوس دون الحسّ
ومن يقم به فليس يعقـل ... بدونه فهو الثقيل الاثقل
لكونه تستشغل الارواح ... دنوه وللنـوى ترتاح
وقيل لا بل هو معنى خلقا ... في الشيء بالمرئي قد تعلقا
يدركه الطبع السليم محضا ... يورثه تقززاً وقبضـا
والحق عندي انه وجداني ... كالالم المنتاب للانسان !
دليله ما قال جالينوسُ ... من زينت بحكمه الطروسُ
في قوله لكل شيء حُمَّى ... والنفس حماها ثقيل حمـا !
والروح قال الشافعي تمرض ... من نظر الى الثقيل يعرض!
ومع ثقيل قد حواه مجمع ... فقيل كيف الروح ؟قيل تنزع !
فهذه أدلـة صحيحة ... وفي الذي ذكرته صريحه
لان أمر الويل منه سهل ... يسلم منه النادر الاقل

اذهو من عوارض الانسان بحسب الزمـــان والمكان

فصل في الثقيل العاقل والأحمق العالم والجاهل :

العاقل الثقيل جمرة الكبدْ لا انت تطفيها وليست تبترِدْ
فاصبر عليها مثل صبر المكتوي في لذعة الحشاد قلب يكتوي !
ووطّـن النفس على احتماله واضرع إلى مولاك في انتقاله
لا تبدأنهُ بالسؤال أبـدا واختصر الجواب ان هو بدا
واحذر من ان يعلم حالك فلا تظهر له تضجراً ولا قِلى ..
لكن إذا عدا اليك قدره وظن اناك جهلت أمره
وغره لين الجناب والادب وخال حقه عليك قد وجب
فابصق بوجهه وعامل بالخنا فالعاقل الثقيل شر القرنا . !
والعقل ان خلا من الظرافه وادب ، لم يخل من سخافة
وما بعقل وحده التوصّل إلى قبيح أو إلى ما يجمل
والأحمق الثقيل عند الباب مطرّد عند ذوي الالباب
والأمــــر فيه هين وقيلا ما ان يكون احمق ثقيلا
والجاهل الجلف الغليظ الجافي ثقله في الناس غير خاف
فعـاملتْــــه حيثما المنّــا بمقلة عميا واذن صما !
ولتصرفن عنك ذا التناوه بالذكر والتسبيح والتلاوة
والعالم الثقيل من صفاته حب الطعام فهو من آفاته . !
وان أفادك علوماً أغنى بها ، فقل له السماء فوقنا ..
وقل إذا انصرف عنك وانثنى حمداً لن أذهب عنا الحزنا !
وان تنل منه فذاك اروح للنفس ، والنفس اليه تجنح
وهاجم مع ابتسام الثقل من جندل يلقي عليه جندل
والقاعد المقابل المُسامِت المدمن النظر وهو ساكت

أثقل من كل ثقيل حقاً ... لو سملت عيناه لاستحقا !
أما الذي يأتيك بالأخبار ... وكل ما طرا من الطوارى
ممن تعاطى مجلساً فمجلسا ... إمّعة للرؤساء والنسا ..!
يجمع في الاخبار جمع السيل ... كأنه محتطب بليل !
ان كان عندك ثقيلاً أصلاً ... فأنه في الإختيار شغلا
فاصبر عليه فهو خير الثقلا ... ان من الشر خياراً نقلا
ولا تجالس الثقيل إلا ... مع ثالث يحمل عنك الكلا !
وان بليت منهم باثنين ... فاعلم بأنك رهين الحين !
فاحضر الاشياخ والمسوّده ... واعددن للمات عدده !
فذى لعمر الله هي القاصمه ... فاطلب من الإله حسن الخاتمه !

الارجوزة الثانية في وصف الصبابة :

حمداً لمن جعل في الرجال ... حب النسا وشهوة الجمال !
وبعد فالقصد هنا نظم على ... كيفية الصبوة عند العقلا ..
ومن يقل ذا اقبح المقال ... لانه في منهج الضلال
يجب طول العين في الاريام ... في جنسي الحلال والحرام
ومن يكن قد كان ذا شباب ... عليه واجب لدى التصابي
بلا خلاف في المذاهب طلب ... شبيبة ذات جمال ونسب
وذات حسن دون منصب يرى ... طيبة الفراش ان حلت عُرى..
واعلن بأن الغيد صنفان وفي ... ايهم أفضل خلف السلف
فبعضهم يفضل الهجالا [1] ... وبعضهم لعكس ذا قد مالا ..
لكنما الذي عليه العمل ... تفضيل ذات الزوج وهي الامثل !
اول واجب على الشبان ... كيفية الصبوة للغواني

١ – الهجال : البغايا من النساء .

وتلك كانت منهجاً سهلاً ولـ … كن جاء من غـــير ثم بدّلا
وجعل الممنوع فرضاً وصنع … فيه الخنا وغيره من البـــدع
وجعل الخود الشريفـــة التي … يشفي ابتسامها لكل (علة)
زر في ظلام الليل من تهواه … وبالنهار جنّبن لقـــاه
وجـــاز فعله بلا دوام … ان حصل البعد عن الخيام
يسري الفتى إن كان صبا صادقا … الى التي فيها الفؤاد علقا
وساعة الدخول لا تنطق ولـ … كن يدك اليمنى بها فاقبض على
انف الفتاة يذهب الرقـــاد … وذلك المطلوب والمراد ..!
ومبطلات الحب سبعة تُعتد … وقيل تسع ، فالخلاف قد ورد..
فباتفـــاق العلماء من سرى … لمرأة وهو بأخرى اشتهرا
بلا تأوّل قُربٍ بطـــلا … والحب لا يبطل ان تأولا !

وقال يحي التندغي يصف الحوبارات (المومسات) :

بعض النساء تزني بالاجارة … وهي التي يدعونها (الحوبارة)
واجرة الزّنية قدرها (دُبَلْ)[1] … وذاك عندنا به جرى العمل. !
في غير خود كشحها طيّ ، وتي … أجرتها تعلو على أوقية [2] . !
ذكر ذا ابليس شيخ السفهـا … في كتب الفسق بما قد الفا. !

الأرجوزة اليمنية (الدبلوماسية) ..

قبل الانتقال إلى الكلام عن الارجوزة الاندلسية — الملحمية — نحب

---

١ — الدبل تعني عندهم فرنكين ، وهي تحريف « دوبل » **double** الفرنسية ، وهذه القيمة تعريفة مقطوعة لارخص اجر عند الرخيصات .. لأن المرأة عندهم عندما تسقط إلى هذا الدرك الاخلاقي يتعمدون ايذاءها بهذا الاجر المهين ، مبالغة في الاهانة لعلها ترتدع عن جادة الضلال !

٢ — الاوقية عندهم : خمسة فرنكات وكانت هذه القيمة عالية عندما كانت ذهبية .. وهذا الاجر المرتفع يعطى لذات البعل والمحصنات من المنحرفات ..!

ان لا نفوّت على القارىء هذه الأرجوزة اليمنية الطريفة ، وهي تشبه بروحها الوصفية الظريفة روح الارجوزة الموريتانية السابقة . وهــذه الارجوزة اليمنية هي عبارة عن « تقرير دبلوماسي » بالفعل .. وهذا أغرب ما في موضوعها المعاصر ..!

وخلاصة الحكاية إنه عندما حضر المندوب اليمني السيد عبدالله بن يحيى العلوي الاجتماع التحضيري لمؤتمر الدول غير المنحازة الذي انعقد بالقاهرة في شهر حزيران من العام الماضي ، جلس ليكتب تقريراً إلى حكومته ، فكتب التقرير الدبلوماسي شعراً .. وهذا هو :

وبعد ، فالعالمَ في صراع ... محتدم الخلاف والنزاع !
هذا شيوعي يقول مالي ... لدولتي . وذاك رأس مالي
وبان في الوجود جمع ثالث ... يدعو إلى الحياد غير عابث

* * *

وقد دعا إلى اجتماع ناصر ... من اجله تيتو وعبد الناصر
فلبت الدعوة كل دولة ... ترى الحياد مبدأ ونحلة
وعقد المؤتمر التمهيدي ... لدول الحياد بالتحديد

* * *

في مصر خير بلد افريقي ... وبين شعب في العلا عريق
وانتخبوا لجلسة الرئاسة ... محمودفوزي وهو ذو كياسة
طويل بال يرسل الزماما ... لكل وفد يطلب الكلاما ..

* * *

وجلسوا جميعهم في مائدة ... تجمعهم روح الاخاء السائدة
واختلط البيضان بالسودان ... في قاعه جميلة الاركان

* * *

وكان يوماً قاسي الحرارة		تكاد منها ان ترى الشرارة!
ودارت الاكواب والاقداح		فانتعشت من لطفها الارواح

* * *

وفي الوفود وزراء عشرة		قلوبهم بيضاء عكس البشرة
جاؤوا جميعاً يحملون الرغبة		في دعوة العالم للمحبة
وقرروا بعد جدال مختصر		في بلغراد انيكون المؤتمر..

* * *

ورحب الوفود «بالجزائر»		وهم وقوف، بعد يوم ثائر
وصفقوا لوفده طويلا		وحاولوا العناق والتقبيلا
وحبذوا التعايش السلميا		بين الشعوب أبداً سويا

* * *

كما ارتأوا حق الكبير والصغير		في وحدة الارض وتقرير المصير
وقرروا تصفية القواعد		بكل ما اوتوا من السواعد!
واستحسنوا تبادل الافكار		في كل ما يحدث من اطوار..

* * *

كما رأوا نزع السلاح جملة		من كل سلطان وكل دولة
وان تحد الدول القوية		من صنعها القنابل الذرية
ونظروا في جدول الاعمال		فقرروا ما ضمه في الحال ..

* * *

وفي الختام أصدروا بيانا		وقد حوى الكثير مما كانا
وفي الوفود شاعر يماني		يستلهم الوحي من المثاني
بشعره يسجل الحوادث		ولا يخاف قلم المباحث !

* * *

وبينهم سفيرة رشيقة قد لبست ملابساً أنيقة
تعشقت من مهدها المعاليا بمثلها تعتز اندنوسيا
ترأست إحدى اللجان مره فبرهنت عن فطنة وخبره !

* * *

وفي الوفود غادة غينيه تخالها من اسرة غنيه
ترشقها العيون بالتوالي وبالأخص من سفير مالي ..

* * *

خفيفة في الروح كالمصريه صفراء كالليمونة الطريه
واختتم المؤتمرُ التمهيدي أعماله بالوعد لا الوعيد
والشكر للمضيفة العظيمه «مصر» على الضيافة الكريمه !

الاراجيز الاندلسية :

أما الاراجيز الاندلسية فقلما اتسمت بطابع المجون والفكاهات الاجتماعية شأن الاراجيز الموريتانية ، بل اتسمت بطابع البأس والقوة ووصف القتال والحروب شأن الادب الملحمي . ولكن ذلك لا يعني ان الشعراء البيضان اقتصروا بشعرهم على هذا اللون الذي قدمنا منه القصيدتين السابقتين والمقطوعة الاخيرة الماجنة .. فقد ارجزوا كذلك في التقوى والورع ، وألفوا بالانظام كتباً عديدة في علوم النحو واللغة والفقه ونحو ذلك كما انهم ارجزوا في وصف المعارك والحروب ،وقد مضت الشواهد على ذلك كله في الكتاب .

ونحن الآن بصدد ايراد الشواهد الاندلسية التي قلنا ان طابعها كان الطابع الملحمي . فلنستمع الى احد الشعراء الاندلسيين كيف يصف احوال سنة ٣٠٨ كيف هب الناصر لمحاربة المشركين (ويريد بهم الاسبان)

فحشد اجناده وسراياه حتى نال من عدوه ما أراد، وفتح المدن والدساكر، واحدة بعد واحدة، تتداعى أمامه حصونها، وتدك حدودها، فيقول:

ثم غزا الامام دار الحرب ... فكان خطباً يا له من خطب!
فحشدت اليه اعلام الكوَر ... ومن له في الناس ذكر وخطر
وكل من طاوع في الجهاد ... او ضمه سرج على الجياد
امامه جند من الملائكة ... آخذة لربها، وتاركة
حتى اذا فوز في العدو ... جنّبه الرحمن كل سوءٍ
وانزل الجزية والدواهي ... على الذين أشركوا بالله

وفي افتتاح حصون العدو ومدنه يقول:

واقتحموا الشعاب والمكامنا ... واسلموا الحصون والمدائنا
ثم ارتقوا منها الى الحواضر ... فغادروها مثل امس الدابر!
ثم مضوا والعلج يحتذيهم ... بجيشه يخشى ويقتفيهم
لما التقوا بمجمع الجوزين ... واجتمعت كتائب العلجين[1]
من اهل أليون وبنبلونه ... وأهل ارنيط وبرشلونه

ثم يصف الشاعر كيف كانت تعبئة القتال حين هاجم الناصر اعداءه عند سفح جبل، وكيف اصطف الجانبان — وكان القتال مبارزة —[2] حتى انهزم الخصمان وتشتت جمعها ورفعت على أسنة الرماح رؤوس

١ — العلجان هما (اردون وشانجه) على ما ذكره «لسان الدين بن الخطيب في كتابه «اعمال الاعلام» الذي سماه بروفنسال «تاريخ اسبانية الاسلامية» نشر دار المكشوف ببيروت سنة ١٩٥٦ فالاول اردون بن الفونس ملك «جليقية» والثاني شانجو ملك «قشتالة» — ص ٢٠ و ٦٦.

٢ — اتبع العرب في قتالهم مع الاسبان فنون المبارزة في الوحدات والصفوف والافراد، وكانت هذه طريقة القبائل في الجاهلية في أيامها المشهورة، وقد كانت مناجزة الحروب على هذا الغرار لدى الامم القديمة، واتخذت اشكالا من التعبئة والنظام بحروب الفرسان في القرون الوسطى.

الاعداء . وقد انتهت المعركة بتقويض خيام الفاتح ومسيره . فيقول الشاعر الاندلسي :

فاضطربوا في سفح طود عالي ... وصففوا تعبية القتال
فبادرت اليهم المقدمة ... سامية في خيلها المسومة
وردها متصل بردُّ ... يمده بحر عظيم المد [1]
فانهزم العلجان في علاج ... ولبسوا ثوباً من العجاج
كلاهما ينظر جيناً خلفه ... فهو يرى في كل وجه حتفه
والبيض في أثرهم والسمر ... والقتل ماض فيهم والأسرُ
فلم يكن للناس من براح ... وجاءت الرؤوس في الرماح
فأمر الامير بالتقويض ... وأسرع العسكر في النهوض [2]

وأما الشاعر الاندلسي الذي نظم ارجوزة مشابهة ، وقد ذكره ابن بسام الشنتريني صاحب الذخيرة فسماه بالاديب فهو ، « ابو طالب عبد الجبار » من أهل جزيرة شقرفى غربي الاندلس . وكان شاعراً قصر شعره على الوصف والحروب في التاريخ ، وكان يطلق عليه مواطنوه اسم المتنبي تشبيهاً له بأبي الطيب شاعر المشرق . وكان عبد الجبار ذاهباً بنفسه ، طلاباً للمعالي ، فلم يمدح احداً ولا تقرب الى الملوك بشعره ، وقد كفاه مأثرة في تاريخ الشعر الاندلسي ان ترك لنا ارجوزة تكاد تكون ملحمة ، اتخذت طريقتها صفات الملاحم . فقد بدأها بذكر الله وتمجيده فكانت اناشيدها الاولى تسابيح لاهوتية ، ونظرات في الكون والحياة ، وما وراء الطبيعة ، ثم اخذ يتجه بها في الاناشيد التالية من الخالق الى المخلوق ، فبعد ان سرد مظاهر القدرة الالهية في التكوين

---

١ – يريد بالرد مد الكتائب التي ترفد الجيش ابان المعركة .

٢ – انظر هذه الارجوزة المطولة في « العقد الفريد » طبعة لجنة التأليف بالقاهرة سنة ١٩٤٦ ، ج ٤ – ٥٠١ – ٥٢٧ .

وبدء الخليقة منذ آدم وحواء ، اخذ في ذكر الانبياء فالخلفاء . واتى على أخبار العباسيين وعهودهم حتى بيعة القائم بأمر الله . وكان الشاعر معاصراً لعهده . ثم أخذ في بقيـــة مطولته ، يذكر دولة بني أمية في الاندلس منـــذ دخلها عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل ، زمن الوليد بن عبد الملك .

في هذا القسم من ارجوزته يصور الفتنة الاولى التي قامت بقرطبة ، وقضت على دولة بني عامر ، وكيف حـــارب محمد بن هشام الملقب بالمهدي اعداءه من البربر ، ثم دالت دولته ، فأخذها ابن حمود ، ثم اغتاله غلمانه الصقالبة وهو في الحمام ، وظهر المستظهر بالله بعده ، ثم قتل ، وصارت البيعة للناصر .

وقد اختص الشاعر عبد الجبار ملوك الطوائف بنشيد تال يقول فيه :

لما رأى أعلام مصر قرطبه ان الامور عندهم مضطربه
وعدمت شاكـلة للطاعـه استعملت آراءهـا الجماعـــه
فقدموا الشيخ من آل جهور المكتني بالحـــزم والتدبّر
ثم ابنه ابا الوليد بعده وكان يحذو في السداد حذوه
فجاهدت في فضلها الجهاوره وكل قطر حل فيه الفاقرة
وابن يعيش ثار في طليطلة ثم ابن ذي النون تصفى الملك له
وفي بطليوس انتزى سابور وبعده ابن الأفطس المنصور
وثار في غرناطة حبوس ثم ابنه من بعده ادريس

ويختم عبد الجبار مطولته الحربية هذه في وصف دولة المرابطين ايام « يوسف بن تاشفين » ثم ابنه « علي بن يوسف » .

وقصيدة عبد الجبار تختلف عن مطولة ابن عبد ربه،في انها ذكرت التدهور السياسي والحربي للعـــرب في الأندلس ، ولم تكتف بوصف

فتوحهم ، فهو يصف ما صار اليه الأندلسيون من الخذلان والانهيار وممالأة الاسبان ، واستعانته بهم على بعض في أواخر العهد الذي حكم فيه ملوك الطوائف ، فيقول :

ثم تمادت هذه الطوائف ... تخلفهم من آلهم خلائف
دانت بدين الجور والعدول ... إذ سلبت عقائل العقول
فاهملوا البلاد والعبادا ... وعطلوا الثغور والجهادا
واشتغلت أذهانهم بالخمر ... وبالأغاني وسماع الزمر
وزادهم في الجهل والخذلان ... ان ظاهروا عصابة الصلبان
فاستولت الروم على البلاد ... واستعبدوا حرائر العباد
وقتلوا العباد كيف شاؤوا ... وضاع دلو الدين والرشاء
وإذ أطال القوم أسرى القدَر ... نحوهم خسفاً وما ان شعروا ![1]

ولقد اشتغل بشعر الحرب ووصف المعارك التي كانت تدور بين العرب والاسبان كثير من شعراء الأندلس ، وتواقع جلهم على وصف الوقائع الاخيرة قبيل انحسار العرب عن أرض الاندلس .

فمن الذين صنعوا شعراً ملحمياً في تصوير الايام الحربية التي كانت بين العرب والاسبان « يحيى بن الحكم البكري الجياني » الملقب بالغزال ، وكان حكيم الأندلس وشاعرها ، سلخ من العمر قرابة قرن وتوفي في حدود سنة ٢٥٠ للهجرة وشهد عهود خمسة من الخلفاء المروانيين ، أولهم عبد الرحمن بن معاوية وآخرهم محمد بن عبد الرحمن بن الحكم ، وقد نظم ارجوزة حربية ، وذكر فيها امتداد عمره بقوله :

---

١ — الذخيرة لابن بسام (القسم الاول من المجلد الثاني) طبعة كلية الآداب بالقاهرة سنة ١٩٤٢ ص ٤٠٣ — ٤٣١ .

أدركت بالمصر[1] ملوكاً أربعة ... وخامساً هو الذي نحن معه !

وكان هذا الشاعر يسفر بين ملوك العرب وملوك الاسبان ، وله شعر يتغزل فيه بأميرة اسبانية اسمها (نود) كان قد جالسها فيقول فيها :

انــي تعلقت مجوسيــة ... تأبى لشمس الحسن ان تغربا
يا (نود) يا ورد الشباب التي ... تطلع من ازرارها كوكبا[2]

وصنع ارجوزة حربية في الأندلس « تمام بن علقمة » المتوفي سنة ٢٨٣ للهجرة ،ووضع قصائد حربية اندلسية « ابو بكر الصيرفي الغرناطي » وقد عاش في عصر الموحدين وتوفي سنة ٥٧٠ للهجرة[3] .

وهبت قرائح الشعراء الاندلسيين للذود عن الوطن السليب ، منـذ أخذ ملوك الطوائف في الاضمحلال ، فكانوا يعدون على بعض مستعينين بالاسبان . فصاحب سرقسطة يوسف بن أحمد بن هود يستهدي (لذريق) القمبيطور على عدوه القاضي ابن جحاف صاحب بلنسية . فيدخلها القائد الاسباني ويحرق سادتها .

وقع ذلك سنة ٤٤٨ للهجرة . وتلاحقت سنون كالحة على العرب في الأندلس واستشرى الاسبانيون ،فجعل ملوك الأندلس يستنجـدون بملوك الشمال الافريقي ، ويستصرخون لاغاثتهم ، حتى كانت اغاثة يوسف بن تاشفين صاحب مراكش[4] فجاء الأندلس وأجلى الاسبـان عن الامصار الجنوبية ، واتخذ اشبيلية مقاماً له . ثم ضعفت حاله فعاد إلى بلاده . وتقاطر الاسبان على العرب يدحرونهم ويملكون بلادهم ، فاستصرخ اهل

---

١ – يقصد بالمصر بلاد الاندلس .
٢ – نفح الطيب ، للمقري طبع مطبعة السعادة بمصر سنة ١٩٤٩ ج ٣ ص ٢٤ .
٣ – **La Poésie And a Lous en Arabe Classique au xi** تأليف هنري بيريس طبع باريس سنة ٩٣٧ ص ٣٥٥ .
٤ – (اعمال الاعلام من ملوك الاسلام) للسان الدين بن الخطيب السابق ذكره ، ص٢٤٧ .

بلنسية ، من جديد ، يحيى بن عبدالله بن أبي حفص صاحب أفريقيا ، وارسلوا اليه الأديب المشهور (ابن الابار) صاحب كتاب « التكملة » الذي سيأتي خبره ، فجاء بلاط سلطان المغرب وأنشده قصيدته السينية التي ترد في الفصل الرابع ، والتي صور فيها النكبة الكبرى التي حلت بالعرب في الأندلس ، ووصف المعارك التي قامت .

فأدركها سلطان افريقيا سنة ٦٣٧ ، ولكن الوقعات جعلت تتلاحق ، والاندحار يتتابع والحرب سجال بين العرب والاسبان ، والأدب قائم بتسجيل المعركة ! وهذه ظاهرة رائعة في أدبنا العربي ، وهي اسهام الشعر الحربي في التاريخ العربي في المشرق والمغرب[1] وبخاصة في الأندلس . فكان هذا الشعر صدى الحوادث في السلم والحرب ، وذاك دليل على قيمة الشعر الحربي في الأندلس وخطره في الحياة الاجتماعيه والسياسية .

ولم يكن المستصرخ شاعراً واحداً ، وانما كانوا شعراء أعربوا عن غوث الجماعة ، فصاغوا قصائدهم في سبيل انقاذ الاندلس ، وقد أورد صاحب « نفح الطيب » قصائد متعددة ومقطوعات تصف التحام العرب بالاسبان وتصور النكبات التي لحقت بالبلاد . وكان أكثر المؤلفين الاندلسيين في التاريخ والادب ، يثبتون في تلك الفترة ، وفيما الفوا بعدها ، شعراً كثيراً يصور أثر النكبة والاستغاثة . وكان عبد الواحد ابن علي التميمي صاحب كتاب « المعجب » في تلخيص اخبار المغرب ، كثير الذكر لهذا الضرب من الشعر[2]

---

١ — انظر شعر الحرب في المشرق في كتاب (شعر الحرب في أدب العرب في العصرين الاموي والعباسي إلى عهد سيف الدولة) رسالة دكتوراه من الجامعة المصرية لزكي المحاسني ، طبع دار الفكر العربي بالقاهرة سنة ١٩٤٧ .

٢ — طبعة المطبعة الجمالية بمصر سنة ١٩١٤ .

قصيدة ابي البقاء الرندي

لكن قصيدة (ابي البقـــاء الرندي) هي التي كتب لها البقاء في التداول فصار مطلعها المشهور :

لكل شيء اذا ما تم نقصان فلا يغر بطيب العيش انسان

طابعاً معروفاً على العرب المغلوبين في الاندلس ، وقد كفل لهـذه القصيدة الشهيرة خلودها بحرُها الذي نظمت عليه ، ورويها على النون ، وسهولة التعبير فيها ، واختصار الصور ، وصدق اللهجة الباكية .

وقد علق (آنخيل جنثالث بالانثيا) استاذ الادب العربي في جامعة مدريـــد سنة ١٩٢٨ على هذه القصيدة فقال [١] : « ان الرندي قال هذه القصيدة بعد ان استولى (فرديناند الثالث) ملك الاسبان على قسم كبير من الاندلس ابان انحسار اهليهــا عنها ، وان (خوان فاليرا) ترجم هذه القصيدة الى شعر اسباني ، وذاع صيتها في تاريخ اسبانيا » .

ولا نحب ان يخلو هذا الكتاب من بعض ابيات هذه القصيدة الرائعة المضارعة لقصيدة ابن الأبار المتقدمة ، قال الشاعر :

لكل شيء إذا ما تم نقصانُ فلا يُغَرَّ بطيب العيش انسان !
هي الامور كما شاهدتها ، دول من سرّه زمنٌ ، ساءته أزمان
وهذه الدار لا تبقى على أحــد ولا يدوم على حال لهـا شان
اين الملوك ذوو التيجان من يمن واين منهم أكاليل وتيجـان ؟
اتى على الكل أمر لا مرد لـه حتى قضوا ، فكأن القوم ما كانوا
وصار ما كان من مُلك ومن مَلِكٍ كما حكى عن خيال الطيف وسنان !

---

١ - تاريخ الفكر الاندلسي ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس طبعة النهضة المصرية سنة ١٩٥٥ ص ٦١٠ .

ومنها :

وهيَ الجزيرة أمرٌ لا عزاء له ... هوى له أُحُدٌ ، وانهد ثهلان !
فاسأل بلنسية ما شأن مُرسِيةٍ ... وأين شاطبة ، ام أين جيّـان
واين قرطبة دار العلوم ؟ فـكم ... من عالم قد سما فيها له شان
واين حمص وما تحويه من نزهٍ ؟ ... ونهرها العذب فياض وملآن [1]
قواعد كن أركان البلاد ، فمـا ... عسى البقاء إذا لم تبق اركان !
تبكي الحنيفيـة البيضاء من اسف ... كما بكى لفراق الإلف هيمان [2]
على ديار من الاسلام خـالية ... قد أقفرت ، ولها بالكفر عمران
حيث المساجد قد صارت كنائس ما ... فيهن إلا نواقيسٌ وصلبان
حتى المحاريب تبكي، وهي جامدة ... حتى المنابر ترثي ، وهي عيدان [3]
يا من لذلة قوم بعـد عزهم ... أحال حـالهم جورٌ وطُغيان
بالامس كانوا ملوكاً في منـازلهم ... واليوم هم في بلاد الكفر عبدان
فلو تراهم حيارى لا دليل لهم ... عليهم من ثياب الذل ألوان
ولو رأيت بكاهم عنـد بيعهم ... لهالك الامر واستهوتك أحزان
يا رب أمٍ وطفل حيل بينهما ... كما تفرق أرواح وأبدان
وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت ... كأنمـا هي ياقوت ومرجان [4]
يقودها العلج عند السبي مكرهة ... والعين باكية ، والقلب حيران [5]
لمثل هذا يذوب القلب من كمدٍ ... إن كان في القلب اسلامٌ وإيمـان !

وقد جاء شوقي في اوائل هذا العصر الحديث فعارضها بقصيدة رائعة

---

١ — حمص : إشبيلية .
٢ — الحنيفية : ملة الاسلام . البيضاء : كناية عن النقاوة . الهيمان : من اصابه كالجنون في العشق .
٣ — المحاريب ، جمع محراب : وهو مقام الامام من المسجد .
٤ — طفلة : رخصة ناعمة ، أو هي طفلة بكسر الطاء .
٥ — العلج : الكافر .

القاها في دمشق سنة ١٩٢٦ زفرة حارة على المسجد الأموي وعز بني أمية البائد ، ومنها هذا البيت الذي يجمع فيه كل مصائب الشرق فيجعلها واحدة :

ونحن في الشرق والفصحى بنو رحِمٍ ونحن في الجرح والآلام إخوان

ثم يستطرد الى القول :

بنو أمية للأنباء ما فتحوا وللأحاديث ما سادوا ، وما دانوا
كانوا ملوكاً ، سرير الشرق تحتهم فهل سألت سرير الغرب : ما كانوا ؟
عالين كالشمس في اطراف دولتها في كل ناحية ، ملك وسلطان
بالأمس قمت على الزهراء اندبهم واليوم دمعي ، على الفيحاء هتان [1]
معادن العز قد مال الرغام بهم لو هان في تربه الإبريز ما هانوا
مررت بالمسجد المحزون أسأله «هل في المصلى أو المحراب ، مروان ؟»
تغير المسجد المحزون ، واختلفت على المنابر ، أحرارٌ وعبدان
فلا الأذان أذانٌ في منارته إذا تعالى ، ولا الآذان آذان !

وان في سائر شعر الاندلسيين قصائد حربية لا تحصى ، يمكن ان تؤلف ملحمة للعرب في الاندلس ، بعضها كان مقصوراً على شعر الملاحم ، وهو بمثابة اناشيد حربية في ذكر التاريخ والفتوح ، وبعضها كان دموعاً منظومة في مراث دامية ومآتم ، وهو بكاء على ضياع درة العرب في بلاد المغرب .

١ — الزهراء : قصر للمعتمد بن عباد على نهر اشبيلية . ومدينة قرب قرطبة بناها عبد الرحمن الثالث الخليفة الأموي .

Call No......... *Date.......... ....*

Account No.........

J. & K. UNIVERSITY LIBRARY

This book should be returned on or before the last stamped above. An overdue charges of 6 nP. will be levied for each day. The book is kept beyond that day.

الفصل الرابع

هجرة الأدب العربيّ الى

إسبانيا - المغرب - موريتانيا

Date.......... ....

Call No.........

Account No.........

J. & K. UNIVERSITY LIBRARY

This book should be returned on or before the last stamped above. An overdue charges of 6 nP. will be levied for each day. The book is kept beyond that day.

في بلاد الفردوس المفقود

عرفت الامم التاريخية، الباقية والمنقرضة ، نوعين من الفقدان الغالي : مرة فقدان الاوطان ، ومرة فقدان السلطان . وكلا الفقدانين له تأثيره وعواقبه في نفس الامة المنكوبة بهما معاً أو بأحدهما . وفي تقييم صفة الخسارة معنوياً وتاريخياً ، لا فرق بين خسارة الاوطان أرض الآباء والاجداد ، وجلاء السلطان عن أرض ليست أرض الآباء والاجداد .. لأن الأذى الذي يلحق بالأمة الخاسرة حينئذ يصيبها في صميم عزتها وكرامتها الادبية والعسكرية . وقد عرف العرب في تاريخهم القديم والحديث هذين النوعين من الفقدان الغالي : عرفوه جلاء سلطانهم عن اسبانيا التي سموها لشدة أسفهم وحزنهم عليها « بلاد الفردوس المفقود » وعرفوه في العصر الحديث في فقدان وطن كامل وتشريد اهله منه هو فلسطين، التي لشدة أسفهم وحزنهم عليها سموها « الأندلس الجديدة » !

غير انه لا يزال يعزينا بعض العزاء ، كون أمجاد العرب القديمة — ونحن ما زلنا نتغنى بقديمنا — ليست من النوع السريع الانطفاء حتى بعد جلاء سلطانهم عن مواقع الاحتلال ومواطن الفتح ، لأن آثارهم التي كانوا يتركونها هي آثار حضارية روحية عقلية حية : دين وعلم وأدب . وهي حضارات لا تقوى الايام والحروب على تهديمها ومحوها

من الوجود .

وبين جزر التاريخ ومدّه ، بقي للعرب أياد بين اسبانيا والمغرب وموريتانيا تُذكر فتشكر ، فلنتحدث عنها بهذا الفصل بمقدار ما يتسع له المقام ، مبتدئين بأولاها :

عرفت اسبانيا ظاهرتين كبيرتين من ظواهر الادب في وطنه الأصيل وفي وطن الهجرة ، وهو أمر نادر في تواريخ الآداب لعله لم يعرف على هذا النحو في غير البلاد الاسبانية .

إحدى هاتين الظاهرتين نعرفها نحن أبناء اللغة العربية لأنها تشمل آداب هذه اللغة في « المغرب العربي الكبير »[1] ويحسبها بعض النقاد والمؤرخين شطراً من شطرين متعادلين ، يسمى أحدهما أدب المغرب ، ويسمي الآخر أدب المشرق . وقد يقصدون بذلك إلى المقابلة بينهما في القيمة والغزارة ، ولا يقصرون على تقسيم الموقع والمدة الزمنية .

أما الظاهرة الاخرى فهي هذه الظاهرة الحديثة التي اصبحت اسبانيا فيها موطن الادب الاصيل بعد انتقال المهاجرين منها إلى أوطانهم المختارة في اقطار أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية .

والمقابلة بين الظاهرتين تسفر عن تشابه قريب بين آثار الهجرة في الادب العربي المنتقل إلى الاندلس ، وآثار الهجرة في الأدب الاندلسي المنتقل إلى البلاد الامريكية .

فالشعور بالانفصال من اصل عريق يحدث في نفوس الجاليات المنتقلة منه أثرين متلازمين يخيل الينا عند النظرة الاولى انهما متناقضتان أو متعارضتان ، وإنما هما شيء واحد يستقبله النظر من ناحيتين .

إن أثر الشعور بالانفصال أن تختلف عوامل البيئة حتماً واضطراراً ، سواء اراد المنفصلون ذلك الاختلاف ام لم يريدوا ، ولكنهم كلما اختلفوا

---

١ — في هذه التسميه تدخل جميع اقطار افريقيا الشمالية ، كما تدخل موريتانيا في افريقيا الغربية دون أي غضاضة ..

زاد بهم الحنين إلى موطنهم الاصيل والاعتزاز بماضيهم البعيد ، وقد يبالغون في ذلك مبالغة المشفق من الضياع بين مصير الادعياء الذين يقال عنهم إنهم تركوا اصولهم وتركتهم ، ومصير اللصقاء الذين ينزلون بين قوم يرفضونهم ولا يرحبون بانتسابهم اليهم .

فالجاليات تنطلق من قيود العادات والتقاليد التي فارقتها ولا تلبث أن ترى إنها تغيرت باختيارها ، وعلى الرغم منها ، وإنها تستريح إلى هذا التغير احياناً وتتبرم به احياناً اخرى ولكنها لا تنسى اصولها ولا تزال تناظرها من بعيد مناظرة الند للند ، والشريك للشريك ، وتود لو إنها سبقتها في صيانة النسب وزادت عليها بالنسب المكتسب ، فلا يقال عنها إنها فرع منقطع عن ارومتها ، بل يقال عنها إنها جذور الشجرة نبتت في التربة الجديدة فجادت بالثمرة التي لا تجود بها في تربتها .

***

والذى حدث بعد انتقال الادب العربي إلى وطن الهجرة في الاندلس انه تأثر واثّر ، وان اثر الانتقال إلى احوال المعيشة في الوطن الجديد ملحوظ في شعره ونثره وفي مبناه ومعناه .

فالاسلوب العربي – الاندلسي – أسهل وأبسط وأقرب الى الترخّص والسلاسة ، كأنه وسط بين اللغة الفصيحة ولغة المعيشة اليومية ، فـأن الناطق بالعربية تعود بين المتكلمين بها من الغرباء عنها ،ان يقيس لغته الى لغتهم ، فلا يحس بالاسفاف والخطأ بالقياس اليهم ، ولا يزال يرى في لهجتهم الشائعة انها أفصح وأقوم من لهجاتهم ، وان لهجته الشائعة على اسفافها ، لا تزال مطلباً رفيعاً فيما يحاوله الاعاجم من حكايتها وفهمها .

وقد سرت السهولة الى انماط البلاغة ومعانيهـا ، فأصبح العربي والاندلسي أقرب إلى التصرف وإلى مجاراة أحوال المعيشة في وطن الهجرة ،

ولعل المسألة هنا مسألة استطاعة ، لا مسألة رؤية ومشيئة . فان المنقطع عن وطنه القديم لا يستطيع ان يحافظ على احواله وأطوار معيشته كما يستطيع ذلك أهلوه الذين يصبحون ويمسون بين تلك الاحوال والاطوار، ولا يتكلفون جهداً ولا حركة في المحافظة عليها .

وقد ظهر أثر البيئة الطبيعية واثر الحياة الاجتماعية معاً في أعز الفنون على السليقة العربية وهو الشعر ! فكثر فيه وصف البساتين والرياض ، وذكر الجداول والانهار ، وتوسع الشعراء في تعديد القوافي الذي بدأ في المشرق بالتسميط والازدواج ، ولم يتوسع المشرقيون فيه لقلة الحاجة بينهم الى الغناء المشترك والايقاع على حركات الرقص في الحلقات الجامعة التي يشترك فيها المنشدون والمنشدات . فلم يترك الشاعر العربي الاندلسي قافيته التي انفردت بها القصيدة العربية ، بل احتال على التوفيق بينها وبين تنويع الادوار للمنشدين والمنشدات ، بالاكثار من مواضع القافية وتوزيعها على حسب مواضع الاعادة والترديد .

ووضح الفرق بين المحافظة ومجاراة البيئة والوقت في موضوعات الفكر والعلم ، كما وضح في موضوعات الفن والادب . فلم يعتصم ابن رشد — فيلسوف الاندلس الاكبر — باستقلال المحافظة امام الحكمة اليونانية ، ولم يحاول ان يلحقها على وجه من الوجوه بالحكمة الشرقية ، بل كاد يكون في شرحه لفلسفة ارسطو ودفاعه عنها اشد حرصاً على اراء الفيلسوف من الاوروبيين ورثة الثقافة اليونانية ، ولعله كان حرياً ان يعتدل في الدفاع لو انه اخذها من الغرب كما جاء اليه بثقافته العربية ، فلم يشعر قبلها بعصبية الغربة والغرابة، التي تنبه في الذهن نزعة المقاومة والاعتراض، بل رأى المقاومة لها والاعتراض عليها من الغرب نفسه قبل ان يراهما من ابناء قومه ، فلم يقف منها موقف زملائه المشرقيين ، ولم يقابلها بالمحافظة او بالنفور .

اما الاصول المقدسة في الوطن المهاجر ، فهي السند الدائم الذي

يركن اليه النازحون من ديارهم إلى ديار الهجرة، وهي الذخيرة المضنون بها على التفريط والنسيان ، لأن التفريط فيها أو نسيانها يسلك المهاجر الغريب مسلك الطريد المنبوذ من منبته ، ولا يبلغ به ان يعد من الاصلاء المعرقين في بلاد الغربة التي استقر فيها ، وقصاراه ان يكون في هذه البلاد دخيلاً غاصباً يحتمي بالقوة أو ينطوي في غمار مجهول .

وآية الآيات على ان الملاذ الروحي هو وطن الأمة قبل الاقليم الجغرافي والتربة الأرضية ، ان حرص المهاجر على الاصول يتلخص في تراث الروح والعاطفة ويشتد غاية اشتداده في هذه الامور ، ولا يبلغ مثل هذه الشدة يوماً في الشؤون المحلية ، وما يمكن ان يسمى بشؤون الاقليم والمناخ .

وتلك هي الاصول التي صينت من الضياع في دار الهجرة العربية الاندلسية ، فلم يكن وطن من الاوطان الشرقية أشد حرصاً على عقائد الدين وأقوى غيرة على التراث الروحي من العرب الاندلسيين .

ولا يتبين ذلك من عمل الفرد ، ولا من تشدده أو تسامحه في مسائل التحريم والتحليل ، فربما كان الفرد الاندلسي اطوع لهواه وأسلس لغواية المتعة والطرب من أخيه في الموطن الاصيل ، وانما تتبين صيانة الاصول في العرف الاجتماعي ، وفي الآداب العامة التي يتمثل بها قوام « الروح الوطنية » وتتراءى فيها ملكة المحافظة على البقاء .

واظهر علامات هذه المحافظة ، ان الاندلس لم تنتشر فيها بدعة من بدع المذاهب المتطرفة او المنحرفة التي شاعت في بلاد المشرق وفي صميم البلاد العربية ، فلم يزد عدد القائلين بهذه المذاهب على افراد متفرقين يفهمونها لانفسهم ولا يشيعونها بين جيرانهم ، ولم تتجمع من اتباعها والقائلين بها طوائف كثيرة أو قليلة تحسب في عداد الفرق التي جاوزت السبعين فيما يقال بين ابناء البلاد الشرقية ، وانما تجمعت في المغرب من الاندلس الى افريقيا الشمالية طوائف الموحدين والمرابطين ومن اليهم من

الغلاة المتنطسين الذين استكثروا حرية الغزالي الفكرية ، وهو من المشرق حرب على ادعياء الحرية في الدين .

وأصيب فلاسفة المغرب بما لم يصب به غير القليل من زملائهم المشرقيين ، وكان للسياسة عملها فيما أصاب هؤلاء وهؤلاء ، كما يحدث لكل حركة فكرية على اختلاف الامم والاديان ، ولكن اعداء الفلاسفة بين امراء المغرب لم تعوزهم الذرائع التي يسوغون بها اضطهادهم ومصادرتهم ، كما أعوزت الكثيرين من امراء المشرق في حملاتهم على اصحاب المذاهب والبدع من الفقهاء ، أو من المعتزلة والمتصوفة والمتكلمين وابناء الطرق. فما كان في وسع هؤلاء الامراء المشرقيين ان يخلقوا ذرائعهم لاضطهاد مخالفيهم في كل يوم ، ولا في كل مناسبة ، وانما كانت مناسبتهم الغالبة لتسويغ تلك الحملات فرصة من فرص الفتنة السياسية أو فرص التمرد والانقلاب ، ويصعب عليهم فيما عدا ذلك ان يخلقوا ذرائع الاضطهاد لكثرة المذاهب والفرق ، وصعوبة جمعها في زمرة دينية تجيز لولي الامر أن يعاملها معاملة الخارجين عل الدين .

ومما يلاحظ على مذاهب التصوف التي نشأت بالأندلس إنها لم تنشر كتاباً واحداً من مراجعها الكبيرة في ربوع المغرب ،وان الصوفي الاكبر من أبناء المغرب — محيي الدين بن عربي — هجر المغرب إلى المشرق واستوطن في دمشق وعلم أكثر تلاميذه بين الحواضر الشرقية ولم ينتشر له في غير هذه الحواضر أتباع أو مفسرون .

وأحق من ذلك بالملاحظة في هذا الصدد ، ان مذاهب اهل السنة أنفسهم لم تنتشر بين مسلمي المغرب كانتشارها بين مسلمي المشرق من تخوم الهند إلى تخوم وادي النيل ،ولما اختار المغاربة مذهبهم بين مذاهب السنة الأربعة ، وقع اختيارهم الاول على مذهب أهل المدينة — مدينة الرسول — كما سمي المذهب المالكي عند قيام الامام مالك بن انس بتدريسه إلى جوار قبر الرسول ،وكان من فضائل هذا المذهب عندهم انه أقرب

المذاهب مأخذاً من السلف ، وأكثرهم رواية عن بقية الصحابة في مدينة الرسول . وقد تمذهب به الخليفة عبد الرحمن الثاني على يد يحي بن يحي الملقب بحكيم الأندلس ، وهو على مثال أستاذه الإمام مالك في المحافظة على سنن السلف والاعتماد على الكتاب والحديث ، وقد قيل ان العصبية الاموية كان لها أثرها في الإعراض عن مذاهب الشيعة في المغرب إلا من كان من المغاربة ثائراً على الأمويين ،فأنه أقبل على الدعوة الفاطمية ، وناصر خلفاءها وخرج باختياره على سلطان الامويين . ولكن انتشار المذهب المالكي في أفريقيا السوداء والمغرب ، لا يفسر بسبب آخر غير حب المحافظة على سنن السلف وحب التبرك بالأثر المنقول عن مدينة الرسول ، فقد كان الامام مالك موالياً لآل علي ، ولم يكن له ولاء معروف للدولة العباسية في المشرق ، ولا للدولة الأموية في المغرب . وقد تتلمذ له — مع هذا — خليفتان عباسيان وهما الامين والمأمون ، ودخل في مذهبه خلفاء بني امية المحاربين للعلويين . واعتباراً من موقف الامام مالك الموالي لآل علي — آل البيت — تجد الموريتانيين أقرب مودة وإكراماً لهم ولاتباعهم — الشيعة — من بقية أصحاب المذاهب الاخرى . كما انهم ، أي الموريتانيين يلتقون مع الشيعة في كثير من الاجتهادات والمسائل الفقهية ، ومن ذلك الصلاة مسبولة .

وقد ظهر في المغرب مذهب من مذاهب السنة كان له دعاته السابقون في المشرق ، وهو المذهب الظاهري الذي تولى إمامته بالمغرب الفقيه الحكيم ابن حزم صاحب الدراسات الواسعة في الملل والنحل ، ومذاهب السنة والشيعة وسائر المذاهب الاسلامية وغير الاسلامية ، ولكنه لما اختار له مذهباً يعلمه ويدافع عنه لم يرتض له سنداً يقيم عليه مذهبه غير الأخذ بظاهر النصوص من آيات القرآن وأحاديث النبي عليه السلام ، ولم يشأ ان « يتفلسف » في امور الدين وهو أعرف أبناء عصره بأقوال الفلاسفة والفقهاء ..

* * *

ويلي العقائد والشعائر في حرماتها المقدسة عند النازلين بديار الهجرة حرمة اللغة وحرمة الادب الذي يحسب الفخر به فخراً بلغــة الضاد ، والناطقين بالضاد ، بين من لا ينطقون بها من ابناء اللغات .

وتكاد نزعات المحافظة جميعاً تبدو للناظــر في كتب الاندلس من صفحاتها الاولى ، إذ لا تخلو هذه الصفحات من اسم المؤلف منسوباً إلى قبيلته وإلى بلده وإلى مذهبه ، يتلوه القديم الذي يوشك ان يكون وثيقة نسب وتعريفاً بمصادر الادب الذي تلقاه ، وأسانيــد الرواية التي عول عليها .

وليس في موسوعات الادب المغربي من مرجع متداول في البــلاد العربية اليوم اهم وانفس من هذه الكتب الثلاثة : العقد الفريد لابن عبد ربه ، والذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لأبن بسام ، ونفح الطيب للمقري ، وكلها مُثُلٌ في المحافظة على صلة المغرب بالمشرق ، او مثل في المناظرة التي لا تخفي دلائل الفخر بالمحاكاة والمقابلة ، ولسان حالها المفهوم من ثنايا السطور : اننا لمشرقيون هنا مثلكم ايها المشرقيون !

فكتاب ابن عبد ربه يروي تواريخ العربية وآدابها من عصر الجاهلية إلى العصر الذي عاش فيه ، ويقتبس المؤلف اكثر ما رواه من استاذيه ابن مخلد وابن عبد السلام القرطبيين ، وكلاهما رحــل إلى المشرق ولم يقنع بما وصل اليه من ادبه في مكتبات قرطبة ، وهو كثير .

وقد وصلت نسخة من الكتاب الى الصاحب بن عباد فتصفحها ليطلع منها على أخبار المغــرب فطواها وهو يقول : « هذه بضاعتنا ردت الينا » .. لأنه وجد بين يديه كتاباً قلما يذكر المغرب ، ان ذكره ، إلا كمن يذكره على السماع !

وكتاب « الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة » عـَرض لنوابغ الادب من ابناء المغرب الذين يذكرون مع اندادهم ونظرائهم من المشرقيين ، ولسان حاله ، كما اسلفنــا ، ان للجزيرة الاندلسيـة نصيباً من فخر

العربية جديراً بما سبق من فخر الجزيرتين : جزيرة العرب وجزيرة ما بين النهرين .

وكتاب « نفح الطيب » رحلة إلى البلاد الشرقية تروي أخبار المغاربة الذين رحلوا مثل هذه الرحلة الى مكة او القاهرة او دمشق، او بغداد ، او حواضر الادب العربي حيث كانت من رقعة البلاد الاسلامية ، ويكاد الاديب لا يذكر في هذه الموسوعة الكبيرة الا لما ينتسب به الى حاضرة من تلك الحواضر ، وما قام به من حجة دينية، وحجة « ادبية لغوية » قلما تفترقان .

وكان من ديدن النقاد في المغرب أن يشبهوا كل شاعر من فحول شعرائهم بنظير له بين شعراء المشرق ، فكان عندهم متنبي الاندلس ، وبحتري الاندلس ونواسي الاندلس. وكانوا يفخرون بالشاعر اذا بلغ من شهرته ان تروى له ابيات فيما وراء البحر من بلاد الناطقين بالضاد ، كأنه قد أبرأ الذمة واقام حجة النجابة للبنين في موطن السلف الغابرين ..

واننا لندرك الشيء الكثير من بواعث الحركة الادبية في الامم ذات الوطنين اذا رجعنا بها إلى مناط الفخر بالاصول عند المقيمين والمهاجرين بين عرب الشرق وعرب الاندلس والمغرب على العموم .

فليس مناط الفخر هنا بالمكان ، ولا بالسكان ، لا شيء مما يقع عليه العيان ، فان الفخر بمكان من الامكنة لذاته أبعد ما يكون عن أمة نشأت على الرحلة بادية وحاضرة ، في طلب المرعى أو في طلب الكسب والتجارة ، وأمرها كتابها ان تسيح في الارض ، وعلمتها تجارب الفتوح والنقلة ان سعة المضطرب في ملك الله امتداد للوطن، وليست عقوقاً له ، ولا خروجاً منه الى سواه .

والفخر بالسكان المقيمين في بلادهم أبعد شيء عن خواطر اخوانهم المهاجرين الذين ينتسبون مثلهم الى اعراقهم واصولهم ، ويستمدون شرف النسبة كما يستمدها كل منتسب إلى تلك الاصول والاعراق .

فليس العربي الاندلسي ولا العربي الموريتاني مفاخراً بمكان تركه في المشرق ، ولا بسكان تركهم فيه يعيشون معـه في زمانه وينتمون الى الشرق الذي ينتمي اليه ، ولكنما الفخر عندهم جميعاً « بوطن روحي » واحد ينتمي اليه بنوه بالضمير والفكر ، وبما يشرف الانسان من وجدان ولسان ، فاذا هم أعطوه حقه من القداسة والصيانة ، فلا جناح عليهم بعـد ذلك ان يتنافسوا ويتناظروا ، بل لا جناح عليهم ان يتنازعوا ويتنافروا ، ويذهب كل منهم مع حاضر زمنه ومآلف سكنه ، حيث طاب له الذهاب في أبعد مطاف ، وأوسع رحاب .

وكذلك صنع الاندلسيون في دواعي الجد واللهو من مطالب المعيشة اليومية ،فتصرفوا بفنون النظم والغناء ، وطوعوا الموشحة الفصيحة والزجل العامي على هوى المجلس والسامر الذي ألفوه في رحاب الوطن الجديد، واستطاعوا ان يبدعوا لتلك السوامر الراقصة وفاقها من المعـاني الشعرية والأوزان المستحدثة ، وتمموا المقابلة بينهم وبين ابناء الجزيرة في المشرق الى أبعد غاياتها المعروفة عند ازدواج الفنون العربية والفنون الفارسية حول الحيرة وبلاد النهرين ، فقد أخـذ العرب من الفرس معازفهم وآلات موسيقاهم ، ولكنهم لم يأخذوا منهم شعرهم ولا عروضهم، بل اعطوهم على نقيض ذلك أوزاناً عربية ، وبحوراً من العروض العربي ينظمون فيها اشعارهم الفارسية ويقيسون عليها اغانيهم التي توقع على المعارف واناشيدهم التي تنظم للتلاوة والالقاء .

ومثل هذا فقـد حدث في الاندلس كلها وما جاورها بعد امتزاج الشعر العربي بفنون الرقص والموسيقى الاسبانية ، فان الامة الوافـدة أخذت من الامة المقيمة مجالسها ومعازفها وعادات انشادها ورقصها في الجماعة المشتركة من الجنسين ، ولكنها اعطتها الاوزان والاعاريض ، ويسّرت لمن ينظم فيها بلغات الغرب ما لم يكن يسيراً ان ينظم في الكلام الموزون قبل ذاك .

تأثير الثقافة العربية بعد الفتح :

ولم يكن فتح العرب للاندلس فاتحة مرحلة كبيرة في تاريخ الآداب العربية بالمغرب وحدها ، بل كان على صورة أوضح من ذلك فاتحة المرحلة الاولى في آداب القومية الاسبانية منذ أقدم عهودها . فانه لما لا شك فيه ان هذا الفتح كان حداً واضح المعالم بين عهدين في حياة الاسبان الثقافية ، أولهما سابق لفترة الفتح ولم يكن فيه للامة الاسبانية شيء يصح ان يطلق عليه اسم « الآداب الاسبانية » ولا سيما الآداب المقرؤة او الآداب التي اطلق عليها بعد ذلك اسم الفنون المهذبة **Polite.** والآخر لاحق بالدولة العربية تنسب آثار النظم والنثر والرواية المسرحية والكتابة المهذبة . ويعتبر — على ما تقدم — أول مرحلة في تاريخ أمة موحدة تسمى بالامة الاسبانية ، فلم يكن لهذه الامة قبل فتح العرب لغة عامة تتسع للتأليف والدراسة والآثار الفنية ، وكانت لغة الكلام فيها موزعة بين لهجة قسطيل ولهجة الباسك ولهجات الاقاليم المتفرقة التي لم تبلغ قط أن تكون اداة ثقافة قومية . وقد دخلت اللاتينية الى بلاد الاسبان بعد فتح الرومان فتعلمها الخاصة ورجال الحكم وسرت من السنة الجنود بلهجاتهم الدارجة الى زوجاتهم وأولادهم ، فامتزجت بتعبيرات العامة في كل لهجة من لهجات البلاد وتولدت منها لغة هجينة لا هي باللاتينية ولا بالاسبانية ، وظل الاسبان المتعلمون يرتضخون من اللاتينية الفصحى اسلوباً يتميزون به بين كتابها والناطقين بها يتندر به فصحاء اللاتين فيصفه شيشرون باللوثة أو الجلافة ، ويسخرون منه كما يسخر أهل الحاضرة اليوم بمن يحاكيهم من ابناء الريف .

وجاء الفتح العربي في ابان الدور الذي بدأ فيه تطور اللغة الاسبانية ووجدت فيه الثقافة التي يمكن ان تودع اللغة المكتوبة وتنقل اليها المؤلفات التي كانت مقصورة على اللاتينية وكلها من كتب الدين وما اليها ،

وقد تم هذا التطور كله بعد شيوع الثقافة العربية وسريان البحث فيها والاطلاع عليها بين طبقة المتعلمين وصفوة العِلْية من المرشحين لمناصب الحكم والرياسة . وليس ادل على مدى هذا الشيوع من اقوال الراضين عنه والمتبرمين به على السواء .

الفضل ما شهدت به ..!

ويكفي في مقامنا هذا – ان ننقل منه رسالة الكاتب الاسباني – الفارو – التي اوردها المستشرق (دوزي) في كتابه عن الاسلام الاندلسي حيث يقول : « ان ارباب الفطنة والذوق سحرهم رنين الادب العربي فاحتقروا اللاتينية وجعلوا يكتبون بلغة قاهريهم دون غيرها ! » وساء ذلك معاصراً كان على نصيب من النخوة الوطنية أوفى من نصيب معاصريه ، فأسف لذلك مُرّ الاسف وكتب يقول : « ان اخواني المسيحيين يعجبون بشعر العرب وأقاصيصهم ، ويدرسون التصانيف التي كتبها الفلاسفة والفقهاء المسلمون ، ولا يفعلون ذلك لادحاضها والرد عليها بل لاقتباس الاسلوب العربي الفصيح ، فأين اليوم من غير رجال الدين من يقرأ التفاسير الدينية للتوراة والانجيل ؟ واين اليوم من يقرأ الأناجيل وصحف الرسل والانبياء ؟ وا اسفاه ! ان الجيل الناشىء من المسيحيين الاذكياء لا يحسنون ادباً او لغة غير الادب العربي واللغة العربية ، وانهم ليلتهمون كتب العرب ، ويجمعون منها المكتبات الكبيرة بأغلى الاثمان ، ويترنمون في كل مكان بالثناء على الذخائر العربية ، في حين يسمعون بالكتب المسيحية فيأنفون من الاصغاء اليها محتجين بأنها شيء لا يستحق منهم مؤنة الالتفات . فيا للأسى ! ان المسيحيين قد نسوا لغتهم ، فلن تجد فيهم اليوم واحداً في كل الف يكتب بها خطاباً الى صديق ! اما لغة العرب ، فما اكثر الذين يحسنون التعبير بها على احسن اسلوب . وقد

ينظمون بها شعراً يفوق شعر العرب انفسهم في الاناقة وصحة الاداء! »

***

ولقد كان شيوع التعلم بالعربية على هذا المدى الواسع سبباً لاهمال اللاتينية والاغريقية ، وخطوة لا بد منها لاحياء اللغات الشعبية وتداول الشعر والبلاغة والعلم من طريق غير طريق رجال الدين ، ومن هذا الطريق سَرت الى لغة القوم أنماط النظم والتعبير التي قال صاحب تلك الرسالة ان متعلمي العربية كانوا يحتفلون بتجويدها احتفالاً يفوقون به العرب انفسهم في الاناقة وصحة الاداء ..

ولا شك ان الثقافة الطارئة على البلاد ، كان لها اثرها الذي سرى الى الافكار والاذواق من طريق التأثير في مرافق المجتمع وتبديل نظمه ومعاملاته وتوزيع الارزاق والمزايا الاجتماعية بين طوائفه وافراده ، وهو تأثير متشعب بعيد الغور ، صاحب تكوين الامة الاسبانية في نشأتها الجديدة فشوهدت له نتائجه في كل تغيير تتميز به الامة الناشئة من اسلافها الأقدمين منذ خضوعهم للدولة الرومانية ، وبعض هذا التغيير يتصل بالعقائد التي تركها الفاتحون لاهلها وتركوها لوكلاء الكنيسة القائمين عليها .

قال صاحب كتاب العرب في التاريخ : « ان اسقف اشبيلية رأى من الضروري في الوقت نفسه ان يترجم الكتاب المقدس الى العربية ، ويضبط شروحه وتعليقاته بهذه اللغة ، ولم يفعل ذلك للتبشير به بل لفائدة اتباعه ، واشتغل كثير من المسيحيين بأعمال الدولة ، ومنهم قساوسة كان امراء بني امية يرسلونهم للسفارات السياسية الهامة ، واطلق اسم المستعربين في هذه الفترة على المتكلمين بالعربية من المسيحيين ، وقد عرف الداخلون منهم في الاسلام باسم المرتدين ، واطلق عليهم العرب اسم المولدين .

« وقد كان عهد عبد الرحمن الثاني (٨٢٢ – ٨٥٢ م) عهد سلم طويل بالقياس الى غيره ، وقد أعاد تنظيم الادارة الحكومية في مملكة قرطبة على اسس الادارة العباسية بأساليبهـا المكتبية وانماطها في ترتيب الحاشية الملكية ، وكان مشهوراً برعايته للآداب، جلب الى البلاد كثيراً من المصنفات وكثيـراً من المصنفين والمؤلفين المشرقيين ، معززاً بذلك صلة اسبانيا الاسبانية بثقافة الاسلام في المشرق . وكان من اشهر هؤلاء زرياب الموسيقي الفارسي الذي اقصاه عن بلاط هارون الرشيد ببغداد غيرة استاذه منه ، فوجد له ملاذاً حسناً في بلاد قرطبة وأصبح ثمة الحكم المسموع في شؤون الذوق والزي ، فأدخل الى العاصمة الاسبانيـة طرائف كانت مجهولة فيها من اساليب الحضارة الشرقية تختلف بين ألحان الموسيقى والافتنان في طعام الهليون .

الى ان قال عن عهد عبد الرحمن الثالث الذي تلقب بلقب الخلافـة لاول مرة في المغرب : « وكان عهده عهد استقرار سياسي داخلي بينه وبين الامراء الاقطاعيين وقبائل البـربر الجبلية الذين أطاعوه وخضعوا لامره ، وضعف سلطان المشرق فنشأت في مكانه حضارة عربية اسبانية اصطبغت فيها تقاليد الماضي بالصبغة المحلية ، مع استمرار العلاقـات التجارية وافتتاح العلاقات السياسية بين اسبانيا ودولة بيزنطة مما يدل على مكانة الدولة الاموية .

« .. وصحيح ان الاثر الباقي للعرب في البلاد الاسبانية اقل كثيراً من أثرهم في البلاد الفارسية حيث بقيت معالم الحياة الفكرية والروحية عربية الى عصرنا هذا – عصر المتكلم – ولا تزال هذه المعالم لاتينية بين الاسبان . الا اننـا نرى – حتى من الكلمات التي تخلفت عن أدوات المعيشة – مبلغ دين البلاد للعرب في شؤون الاقتصاد والاجتماع وشؤون السياسة في بعض الاحوال ، وان تراث العرب في شؤون الثقافة ايضاً لجدير ان يعرف له أثره الجليل على اسبانيا وعلى سائر انحاء اوروبـة

الغربية ، فقد كان المسيحيون يفدون الى اسبانيا من كل صوب ليتلقوا علومهم من الاساتذة العرب أو الاسرائيليين وينقلوا تلك العلوم الى اللغة اللاتينية . وقد عرف التراث الاغريقي لاول مرة من طريق لغة العرب واطلع عليه الغربيون بتلك اللغة ، وكانت طليطلة التي أعيد فتحها (سنة ١٠٨٥ م) اكبر مركز للمعرفة انتقلت منه ثقافة العرب الى العالم المسيحي وبقي فيها كثير من علماء المسلمين ولحق بهم اللاجئون اليهود من الجنوب الاسلامي الذي كان قد غلب عليه يومئذ ملوك الموحدين المتشددين .. وفي خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر على عهد الملك الفونس الحكيم والملك ليون (١٢٥٢ – ١٢٦٤ م) دأبت مدارس الترجمة بطليطلة على نقل مؤلفات كثيرة تشتمل على كتاب القانون لارسطو وبعض كتب اقليدس وبطليموس وجالينوس وبقراط ، مضافاً اليها ثروة من شروح العرب وتعليقاتهم ..

« .. وترك العرب طابعهم على بلاد الاسبان في خبرة الفلاحين والصناع ، وفي الالفاظ التي يصنعون بها أعمالهم ، وفي الفن والعمارة والموسيقى والادب ، وفي العلوم والفلسفات التي شاعت بشبه الجزيرة وأرجاء المغرب ايام القرون الوسطى مما حفظه العرب ونقلوه نقل الامانة وزادوا عليه وتبسطوا فيه . وبقيت ذكريات الأندلس محفوظة بين العرب أنفسهم بعد رحيلهم عن شبه الجزيرة إلى افريقيا الشمالية حيث يتسمى اناس منهم حتى اليوم بأسمائهم الأندلسية ويعلقون مفاتيح بيوتهم في قرطبة واشبيلية على جدران منازلهم بمراكش والدار البيضاء »[١]

* * *

ومهما يكن من عناية الباحث بالناحية الادبية ، أو ناحية الشعر من

---

١ – العرب في التاريخ – لويس برنارد .

فنون الأدب كله ، فالحقيقة التي لا تجهل ان الشاعر يقتبس من وحي زمانه ، وان المجتمع الاسباني قد تمخض عن عرف جديد بعد عصر الحضارة العربية غير ذلك العرف الذي توارثه القوم بضعة قرون متلاحقة لم تعقب بعدها أثراً باقياً من فنون الشعر المنظوم أو المنثور التي تحسب في عداد الآداب القومية .

ولا يفوت المؤرخ ان يذكر بين خصائص الأدب الذي ينسب إلى وطنين متباعدين خاصةً مألوفة في كل ظاهرة من قبيلة تشوبهـا أهواء العصبيـة ، ولا تخلص من الهوى في حالـتي الاثبات والانكار . ولكن هذا الهوى الخفي قد يكشف عن نفسه فلا يكلف الناقد شيئاً من العناء للشك فيه حين يتمادى الى اللغو والهراء ، فيزعم ان ادبـاً من الآداب ينفصل عن فعل الزمن بعد عدة قرون ، فلا يبقى فيـه ما ينسب الى تلك القرون في صيغته ولا في موضوعاته ولا في معانيـه .. ومن هذا القبيل انكار بعض الغلاة لكل فائدة خرج بها أدب الاسبان من مئات السنين في ظل الحضارة العربية ولم يكن لها مثيل ولا أصل معروف قبل ورود تلك الحضارة على البلاد .

يقول الاستاذ (جب) في الفصل الذي كتبه عن الادب من مجموعة التراث الاسلامي : « ان اول هذه القضايا أصعبها وأوفرها حظاً من الخلاف والمناقضة، فهناك نموذج جديد من الشعر له مجال جديد ونزعات اجتماعية جديدة وفن جديد يظهر فجأة الى الوجود في جنوب فرنسا عند نهاية القرن الحادي عشر ، ولم يكن في شعر فرنسا قبل ذلك بادرة تتجه الى هذه الوجهة ، ولكنه من الناحية الاخرى على مشابهة قوية من بعض نماذج الشعر العربي المعاصر في البلاد الاسبانية ، فأي شيء أقرب الى المعقول من الظن بأن شعراء بروفنس الأوائـل كانوا يقتدون بالنماذج العربية ؟ » .

ان هذا الرأي كان يلقى القبول الذي لا يتعرض لغير القليـل من

المناقشة عدة قرون ، وكان أشد مؤيديه ومقرريه جياميري وباربييري في ابان النهضة السلفية (الكلاسيكية) كما بسط في كتابه عن « اصول الشعر » الذي طبع سنة ١٧٩٠ . وكانت الاذهان لا تزال مشبعة بسحر الشرق حين اتجهت الافكار عامة بقيادة سموندي وفريين الى القول بالشبه القريب بين الشعر العربي وشعر بروفنس ، ولم يتغير هذا الاتجاه الا بعد فترة حوالي منتصف القرن التاسع عشر اذ بدت بين المستشرقين ودعاة الادب (الرومانطيقي) ومباحث اللغة التي تدور عليها حركة معارضـــة لذلك الرأي ، وراح النقاد يطالبون اصحابه بالأسانيد التي تثبت الصلة بين بروفنس والاندلس ولا يجدونهـــا فيذهبون الى الطرف الآخر منكرين مفرطين في الانكار ، واذا عزونا ذلك بغير نية سيئة الى الحماسة الوطنية التي كانت تعم شعوب الغرب يومئذ فمن العسير مع هذا ان نجد ناقداً (رومانطيقياً) يقدم على الدفاع عن فكرة التأثـــير العربي أمام آراء المستشرق المشهور — دوزي — الذي ينفيه ويسخر منه .

مدرسة الحب والغزل

ورأي الاستاذ (جب) في المدرسة الغزلية التي انفردت بها آداب العرب ، هو الرأي الغالب بين فئة راجحة من المؤرخين المتخصصـين لدراسة القرون الوسطى في امم الغرب ، ولا سيما الامة الاسبانية ، ومن أشهرهم وأوفرهم دراسة للأدب الاسباني الاستاذ جيرالد برينان صاحب كتاب آداب الامة الاسبانية ، وفيه يقول عن هذا الرأي من فصـل افرده للعهد العربي : « اننا اذا طالعنا سير الشعراء العرب على عهد ملوك الطوائف ، وجدنا انهم قد أتقنوا هذه الصناعة — صناعة المديح والهجاء — وانهم كانوا لا يفتأون يتنقلون ولا يكفون عن التطواف — وهو قوام نحلة الشعراء الجوالين — لينزلوا بساحة هذا الامير ان لم ينفحهم

ذاك الامير بالعطاء ، واي مأثرة من المآثر لا يحمدونها في قصيدهم ؟ انها مأثرة الكرم . اذ هي الصفة التي لا تتم بغيرها صفة الشجاعة ولا صفة العزة ولا صفة من صفات الامارة . فلا غنى للامير عن منح الهبات ، وبهذه الهبات من الذهب والجوهر الذي كان يبذل للشعراء ، اجازة لهم وجزاء على مديحهم ، تتجاوب الاحاديث بين أرجاء الشرق بأسره . ونعود الى الشعراء الجوالين فنرى ان اشعارهم قد نشأت في ظروف جد قريبة من هذه الظروف بين قصور امراء الاقطاع من فرنسا الجنوبية ، فقد بطلت قبيل أواخر القرن الحادي عشر عادة ادخار الذهب والفصوص الكريمة والانفاق من غلات الارض ، وخلفتها نزعة جديدة الى البذخ والزهو بالحلل والاسلحة والاناشيد ، واصبح نظم الابيات والمقطوعات من السنن المألوف المستحب الى جانب الغرب الجنوبي من فرنسا ، فظهر الشاعر الجوال في مكان المهرج الوضيع ، وارتفع الشعر الاوروبي لأول مرة بعد عصر الامبراطور اغسطي الى منزلة اجتماعية ذات خطر يعسر علينا ان نشك فيما كان للمسلمين الاسبان من اثر فيه، فانما كانت سيرتهم هي القدوة التي اقتدى بها امراء الاقطاع » .

إلا أن هناك فكرة اخرى تستقر في اساس أدب الشعراء الجوالين وتتطور في شعر دانتي وبترارك وترجع كذلك الى مصدرها الاسلامي ، وهي فكرة الحب المثالي الافلاطوني ، او حب أهل السمت والرياسة ، فكرة الحب كأنه طاعة وولاء خلافاً لحب الاخذ والاستيلاء ، وقد يدهش من يسمع بأن حباً كهذا ينجم من معدن الحياة الحسية التي تنسب الى المسلمين ، فان اسفاف الدراسات العربية بأوروبة لم يهيء اذهاننا لقبول فكرة كهذه الفكرة ، ولكن الدراسات الاخيرة تعلمنا انها حقيقة لا محل للشك فيها . اذ نقرأ — مثلاً — عن شاعر قرطبي هام بجارية شابة لم يبصرها غير لحظات معدودات ، فأصبحت مصدر وحيه والهامه طوال ايام حياته ، ووصف لنا ابن حزم هواه الافلاطوني لفتاة رآها

وهو بعد غلام صغير ، فظلت صورتها تعاوده وتذكي قريحته سنوات عدة بعد ذلك ، وشرح لنا في كتابه الذي الفه سنة ١٠٢٢ أمثلة من الحب الخاضع المستسلم الذي يعم الشعر العربي ، كأنما المحب مجند في سبيل الجهاد لا ارادة له الا ان يطيع ، فكل واجبه ان يسلم زمامه لحبيبته ولها هي ان تعذبه وتذيقه الالم والوجد .. ويقول ابن اللبانة - مثلاً - ان حبيبته كالسيف المصلت الذي يمزق فؤاده ، وفؤاده مع هذا يفيض بحلاوة هواها والشوق اليها ! وهذه النغمة المولعة بالالم تعم شعر القرن الحادي عشر اينما كان وتعم شعر شعراء موريتانيا حتى اليوم ، فلا يزال المحب يخضع للتحكم والهوان من إعراض حبيبته حتى ليسقم وينحل ، او يقضي نحبه كالشهيد .. وعلى هذا النحو نقرأ لابن سهل اليهودي الذي دان بالاسلام وتوفي باشبيلية (سنة ١٢٥١) انه جمع بين ذلين : لانه يهودي وعاشق .. وعلى هذا النحو نقرأ لابن زيدون قوله في الاميرة ولادة :

بيني وبينك ما لو شئت لم يضعِ سرٌّ اذا ذاعت الاسرار لم يذعِ
يا بائعاً حظه مني ، ولو بُذلت لي الحياة بحظي منه لم ابع
يكفيك انك لو حملت قلبي ما لم تستطعه قلوب الناس يستطع
تِهْ أحتمِلْ ،واستطِلْ ، أصبر ، وعِزَّ ، أهِنْ
وولِّ ، أقبِلْ ،وقل ، أسْمع ،ومُره،اطِع . !

وهذه نظرة الى الحب لا ترجع الى اقوال الشعراء وقصص الغرام وحسب ، بل تستند فوق ذلك الى فلسفة مقررة شرحها في القرن العاشر فقيه من فقهاء بغداد ، وبين في شرحه مزية الحب الافلاطوني على حب الشهوة ، وتلته طائفة من الادباء اشادت بهذا الحب العذري - نسبة إلى قبيلة بني عذرة - ونظمت الشواهد لتصويره ، وكانت حركتهم هذه على صلة بحركة التصوف التي سرت في العالم الاسلامي واستقرت

وما تزال مستقرة في موريتانيا إلى اليوم بدعوتها الى الحب الشامل ونحلتها من النساك السياح في الارض .

وان هذه النظرة الى الحب لتوافق مقاصد الشعر ، وسيلة من وسائل المناجاة تنتهي بلقاء الوصال ، فاذا ابتعدت فكرة الوصال قام بسريرة الشاعر هوى التغزل والمناجاة على البعد والجفاء ، فاذا امتنع الامل في لقاء الوصـال كل الامتناع ، فقد يتسامى الحب الى لون من الحب المقدس ، كذلك الحب الذي لهج به قيس ليلى وجميل بثينه وغيرهما .. وعلى هذا يحق لنا أن نعتقد ان الحب على البعد ، كما سماه شاعر من أوائل الشعراء الجوالين وكان ملاك الشعر الغنائي الى ايـام الشاعر دون Donne له أصل من الشرق وسرى الى بروفنس فعـلاً من الاندلس الاسلامية . ولا بد ان نعرض لنوع آخر من شعر العرب الاندلسيين لم نذكره بعد . وذاك ان ابن بسام ، صاحب تاريخ الادب المؤلف في القرن الثاني عشر ، يروى ان شاعراً ضريراً [1] يسمى مقدم نشأ بجوار قرطبة وعاش حوالي سنة (٩٠٠ م) كان أول من نظم الموشحة والزجل على غير اكتراث بلغة العامة – كما قال ابن بسام . فما هي هذه الموشحة؟ وما هو هذا الزجل ؟

١ – هو غير الاعمى التطيلي الوارد ذكره بعد قليل .

المُوَشّحات

ان الموشحة ، ومثلها الزجل ، مقطوعات منظومة في مصاريع مقفاة قصار ، على خلاف القصائد التي تنظم عادة من أعاريض طويلة ، وتلاحظ فيها النبرات لأنها تنظم للغناء وان كانت كترانيم القديس امبروز تجري على أوزان القصيد ، وهي تبتدىء بفاتحة تسمى المركز ، تتألف من سطرين او ثلاثة اسطر مقفاة ، وتتلوها مقطوعات تلتزم القافية في ثلاثة اسطر منها ، ويأتي السطر الرابع على قافية المركز .. وهو وزن تعودناه من المرددات الشعبية — الفولكلور — فهو وزن اغنية الحلقة او الفرقة الراقصة ، ينشد قائدها المركز والخرجة ، وتردد الفرقة سائر الابيات . ومن ثم نعلم ان الشاعر مقدم لم يبتدع هذا النمط من النظم وانما عمد الى اغنية الحلقة فصاغها صياغته الفنية ، وعممها واتفق ذلك في وقت له شأنه ، اذ كانت الاندلس يومئذ تثور على حكم البلاط ويشترك المسلمون والمسيحيون صفاً واحداً في تلك الثورة ، وينبغي ان نذكر ان اللغة العربية ، وان كانت لغة البلاط ، الا ان اللغة الشائعة كانت مزيجاً من اللهجات الاسبانية المتداولة المسماة بالرومانس ، يتكلمها كثير من المسلمين في قرطبة ، ويكون الشاعر الضرير اذن قد اشترك بشعره في ثورة وطنية موجهة الى لغة الفاتحين .

وما ان جاء عهد المرابطين في موريتانيا ، حتى رأينا عدداً من فحول الشعراء ينصرف الى نظم الموشحات ، منهم الاعمى التطيلي (نسبة الى تُطَيلة بالقرب من سرقسطة) ، واسمه أحمد بن علي ، وكان يكنى بأبي العباس وابي جعفر . وتنقل بين سرقسطه واشبيلية ومرسية . وشعره في غاية الجودة،وقد اختار له ابن « خاقان » في القلائد عدداً من قصائده ومقطعاته ، وله ديوان شعر مخطوط في المتحف البريطاني بلندن [1] .

ولكن شهرته الادبية مبنية على ما له من موشحات رائعة ، ومن أخبار هذه الشهرة ما أورده ابن خلدون [2] من انه اجتمع مع عدد من الوشاحين في مجاس بأشبيلية ، وكان واحد منهم قد صنع موشحة وتأنق فيها ، فتقدّم الاعمى التطيلي للأنشاد فلما افتتح موشحته المشهورة بقوله :

ضاحكٌ عن جمانْ سافرٌ عن بدرِ
ضاق عنه الزمان وحواه صدري !

خزق ابن بقي موشحته وتبعه الباقون .. وتوفي الاعمى التطيلي سنة ٥٢٠ هـ ١١٢٦ م .

عندما نخلص الى المقابلة بين أوزان الشعراء الجوالين وأوزان العرب نخلص الى رأي يتوسط بين نسبة التطور كله إلى اثر الآداب العربية ، وبين انكار كل أثر لهذه الآداب في رأي بعض الباحثين المارقين . فنحن قد نبتعد عن الطرفين المتقابلين في بيان آثار الهجرة العربية الى الاندلس.

---

١ – قال الدكتور مصطفى عوض الكريم في كتابه (فن التوشيح) الاندلسي (ص ١٣٠) انه رأى الديوان المخطوط في المتحف .

٢ – المقدمة ص ٥٨٤ .

الا ان ذلك لا يعرفنا عن الرأي الصحيح الراجح ، وهو انه لا بد من أثر ، ولا بد من صلة لهذه الآثار بالحضارة العربية مع انقطاع كل أثر سواه بالمصادر الاخرى. وما من شيء أقرب إلى طبيعة الامور من الايمان بصحة التأثير العربي في بلاد الفردوس المفقود .

مختارات من الموشحات الشهيرة

تعقيباً على ما قدمنا في البحث السابق ، نورد فيما يلي نماذج لبعض مختارات من الموشحات التي تستقيم تلاوتها للقارىء حين يطالعها دون حاجة الى الغناء أو التلحين ليقيم وزنها . ولكنها مع ذلك تمتاز تارة بتنسيق القوافي على نمط خاص ، وتارة باختلاف في طول المصراعين لكل بيت :

أبو بكر بن زهر :

أيها الساقي اليك المشتكى !
قد دعوناك وان لم تسمع

***

ونديم همت في غرته ،
وشربت الراح من راحته ،
كلما استيقظ من سكرته ،
جذب الزق اليه واتكى
وسقاني أربعاً في أربعِ !

***

غصن بان مال من حيث استوى ؛
بات من يهواه من فرط الجوى ،
خافق الأحشاء موهون القوى !
كلما فكر في البين بكى !
يا له يبكي لما لم يقع ِ!

* * *

ما لعيني شقيت بالنَّظر ؟
أنكرت بعدك ضوء القمر !
فاذا ما شئت فاسمع خبري !
عشيَت عيناي من طول البكا
وبكى بعضي على بعضي معي !

* * *

ليس لي صبر ولا لي جَلَد !
يالَقَومي عذلوا واجتهدوا !
أنكروا شكواي مما أجد !
مثل حالي حقهُا ان تشتكَى
كمد اليأس وذل الطمع !

* * *

كبدٌ حرّى ودمــع يكِفُ
يعرف الذنب ولا يعترف
أيها المعرض عما أصف ؟
قد نما حبك بقلبي وزكا

وتَقُلْ اني في حبك مدّعي[1]

نزهون :

من موشحة مطلعها :

بأبي من هدّ من جسمي القوى ،
طرفه الأحورْ

* * *

مر بي في ربربٍ من سربه
يقطف الزهرا
وهو يتلو آيةً من حزبه
يبتغي الأجرا
بعد ما ذكرني من حبه
آيةً اخرى
والذي لو شاء ما ذكّرني
بعد نسياني
قلّب القلب على جمر الغضا
فهو في شان

* * *

حفظ الله حبيباً نزحا
خشية الهجر
جاءت البُشرى به فانشرحا

١ – أصلحت هذه الخرجة في كتب المشارقة لتصير معربة . وقد اثبتنا نصها عن ابن الخطيب في جيش التوشيح (مخطوطة تونس) .

عندها صدري
واستطار القلب مني فرحا
ثم لا أدري
أمِنَ الأنس الذي بشرني ؟
أم من الجان
غير اني شمت برقاً أومضا
حين حيَّاني

* * *

لم تزل تظهر فيه الكَلَفا
عندما غنَّت
غادةٌ لو رام منها النَّصفا
غيره ضنَّت
فهو يهواها ويبدى الصَّلفا
فلذا غنَّت
يتمنانـي اذا لم يرنـي
يتمنـــانـي
فاذا راني تولَّى معرضاً
كنُّو ما راني

* * *

ابن هَرودَس :

يا ليلة الوصـل والسعود
بالله عودي
كم بتُّ في ليلة التمني

لا أعرف الهجر والتجني
ألثم ثغر المنى واجني
من فوق رماني نهود
زهر الخدود

***

يا لائمي اطَّرِح ملامي
فلا براحٌ من الغرام
إلا انعكافي على مُدام
بسَمْع صوتٍ ونقر عود
من كف خود

مدح الامير الاجلّ اولى
السيد الماجد المعلّى
تاج الملوك السنيُّ الاعلى
أفضل من سار بالجنود
تحت البنود

***

أكرِم بعَلياه من هُمام
إمامِ هَدى وابن الامام
مبدِّد الروم بالحسام
يعقد في هامة الاسود
بيض الهنود

***

لله يوم أغرُّ زاهر
قد حلّ بالأنداس آمِر
قالوا وقد وافت البشائر

بالملك السيد السعيد
ابي سعيد

لسان الدين بن الخطيب :

جادك الغيث إذا الغيث همى
يا زمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حُلُماً
في الكَرى أو خلسة المختلس !

* * *

إذ يقود الدهر أشتات المُنى
تنقل الخطو على ما يرسمُ
زمراً بين فُرادى وثُنى
مثلما يدعو الوفود الموسم
والحيا قد جلّل الروض سنا
فثغور الزهر فيه تبسم
وروى النعمان عن ماء السما
كيف يروى مالكٌ عن انس ؟
فكساه الحسن ثوباً مُعلِما
يزدهي منه بأبهى ملبس

* * *

في ليال كتمت سر الهوى
بالدُّجى لولا شموس الغررِ
مال نجم الكأس فيها وهوى

مستقيم السير سعد الأثر
وطرٌ ما فيه من عيب سوى
أنه مر كلمح البصر !
حين لذ النوم مع حلو اللمى
هجم الصبح هجوم الحرس
غارت الشهب بنا أو ربما
أثرت فينا عيون النرجس

* * *

أي شيء لامرىء قد خلصا
فيكون الروض قد مُكن فيه
تهب الأزهار منه الفرصا
أمنت من مكره ما تتقيه
فإذا الماءُ تناجى والحصا
وخلا كل خليل بأخيه
تبصر الورد غيوراً بَرِما
يكتسى من غيظه ما يكتسى
وترى الآس لبيباً فَهِما
يسرق السمع بأذنى فرس !

* * *

يا أهيل الحي من وادي الغضا
وبقلبي مسكنٌ أنتم به
ضاق عن وجدي بكم رحب الفضا
فأعيدوا عهد أنسٍ قد مضى
تعتقوا عانيكم من كربه
واتقوا الله وأحيوا مغرماً

يتلاشى نفساً في نفس
حبس القلب عليكم كرماً
أفترضون عفاء الحبس ! ؟

* * *

وبقلبي منكم مقتربٌ
بأحاديث المنى وهو بعيد
قمرٌ أطلع منه المغرب
شقوة المغرى به وهو سعيد
قد تساوى محسن أو مذنبُ
في هواه بين وعد ووعيد
ساحر المقلة معسول اللمى
جال في النفس مجال النفس!
سدّد السهم وسمّى ورمى
ففؤادي نهبة المفترس!
ان يكن جار وخاب الأمل
وفؤاد الصب بالشوق يذوب
فهو للنفس حبيبٌ أولُ
ليس في الحب لمحبوب ذنوب !
أمرهُ معتمَدٌ ممتثل
في ضلوع قد براها وقلوب
حكم اللحظَ بها فاحتكما
لم يراقب في ضعاف الأنفس
منصف المظلوم ممن ظلما
ومجازي البرّ منها والمسي

* * *

ما لقلبي كلما هبت صبا
عادهُ عيدٌ من الشوق جديد
كان في اللّوح له مكتتباً
قوله «إنّ عذابي لشديد» *
جلبَ الهم له والوصبا
فهو لِلأشجان في جهد جهيد
لاعجٌ في أضلعي قد أضرما
فهو نارٌ في هشيم اليَبَس
لم يدع في مهجتي إلا ذما
كبقاء الصُّبح بعد الغَلَس !

* * *

سلّمي يا نفس في حكم القضا
واعمري الوقت برجعي ومتاب
دعكِ من ذكرى زمان قد مضى
بين عُتبي قد تقضت وعتاب
واصرفي القول إلى المولى الرضا
مُلهِم التوفيق في أمّ الكتاب
الكريم المنتهي والمنتمي
أسد السرج وبدر المجلس
ينزل النصر عليه مثلما
ينزل الوحي برُوح القدس !

* اقتباس من القرآن الكريم .

الشاعر الشهيد ابن الأبّار الأندلسيّ المورِيتاني

سيرة حياته

سوف يمضي زمن طويل ، أطول مما مضى على العرب ، في المشرق والمغرب قبل ان ترسل العناية الإلهية شاعـراً كابن الابار الاندلسي الموريتاني * ، صاحب ايمان اسلامي كإيمانه ، وصاحب قصيدة سياسية كقصيدته ، وموتة فظيعة كموتته ! !

هذا الرجل ، هو اول رجل في العرب يغضب مرتين في حياته ، فيصنع من غضبته مأثرتين لم تعرف الانسانية في القديم ولا في الحديث بين المآثر الاخلاقية عند الصفوة الممتازة من البشر أروع منهما ولا ابلغ !

الغضبة الاولى كانت عندما خمدت ريح بني عبد المؤمن في الاندلس ، وزحف ملك ارغون إلى بلنسية واخرج المسلمين منها من سبعة حصون ، وحصلت مقتلة عظيمة لم يسجل تاريخ الاندلس مثلها معركـة ضارية [1] (٦٣٦ هـ) .

---

* قبيلة الأبييري في موريتانيا قبيلة مشهورة وكبيرة ،وهي نسبة إلى الأبار مع شيء من التحريف اللفظي الذي طرأ بفعل الزمن . وآل الأبييري خرج منهم على مر الأزمان اعظم الشعراء والشخصيات الدينية والسياسية ، منهم اليوم الزعيم الديني المعروف الشيخ عبد الله الأبييري .

١ – في رمضان ، سنة خمس وثلاثين وسبع مئة هجرية .

حينئذ ، غضب ابن الابار أولى غضبتيه ، فنظم قصيدته السينيـة السياسية الاسلامية ، ومضى حتى وقف على سلطان تونس ، وهو يومئذ الامير ابو زكريا ، فأنشدها في حضرته في جمع من أهـل الدولة ، فأثارت نخوته ايما اثارة ، واستجاب لداعي المـروءة ، وبعث اسطوله لنجدة المسلمين مشحوناً بمدد الطعام والأسلحة والمال كما سيأتـي مفصلاً بعد قليل ، فسجل ابن الابار بهذه البادرة نصراً للشعر والأدب لم يسجله قبله ولا بعده أحد مثله .!

وكانت الغضبة الثانية حين آثر السلطان (وكان يومئـذ المستنصر) بخدمته رجلاً آخر على ابن ابار ، اذ رمى بالقلم في وجه اعيان القصر بأنفة وإباء حين عاتبوه على بعض ما يغضب السلطان من أفعاله وأنشد متمثـلاً :

واطلب العز في لظى ، وذر الذ ل ولو كان في جنان الخلود!

والآن اسألوني كيف مات هذا الشاعر الموريتاني العظيم بعدئذ ؟ فلنستمع الى ابن خلدون راوية التاريخ ، يروي لنا الحكاية بأسلوبه الرائع * :

« كان هذا الحافظ ابو عبدالله بن ابي بكر القضاعي ** بن الابار من مشيخة اهل بلنسية [1] . وكان علاّمة في الحديث ولسان العـرب ، وبليغاً في الترسيل والشعر . وكتب عن السيد ابي عبدالله بن ابي حفص ابن عبد المؤمن ببلنسية ، ثم عن ابنه السيد ابي زيد ، ثم دخل معه دار الحرب حين نزع الى دين النصرانية ،ورجع عنه قبل ان يأخذ به ؛

* ص ٦٥٢ – ٦٥٥ ج ٦٢٣ طبع دار الكتاب اللبناني ببيروت .

** نسبة إلى قبيلة قضاعة اليمنية التي استوطنت شرقي الاندلس وسكنت في « أندة » من ضواحي بلنسبة حيث ولد الشاعر ابن الآبار سنة ٥٩٥ هـ .

١ – لهذه العائلة اصول وفروع في موريتانيا إلى اليوم ، ولا ننس ان تاريخ موريتانيا في أوائل الفتح كان جزءاً من تاريخ الأندلس .

ثم كتب عن ابن مردنيش .

« ولما دلف الطاغية الى بلنسية ونازلها بعث زيان بوفد بلنسية وبيعتهم الى الأمير ابي زكريا ، وكان فيهم ابن الابار هذا الحافظ ، فحضر مجلس السلطان وانشد قصيدته على روي السين يستصرخه ، فبادر السلطان باغاثتهم ، وشحن الأساطيل بالمدد اليهم من المـال والاقوات والكسى فوجدهم في هوة الحصار ، الى ان تغلب الطاغية على بلنسية .

« ورجع ابن الابار بأهله الى تونس غبطة بإقبال السلطان عليه، فنزل منه بخير مكان ، ورشحه لكَتْب علامته في صدور رسائله ومكتوباته ، فكتبها مدة . ثم ان السلطان أراد صرفها لأبي العباس الغساني لما كان يحسن كتابتها بالخط المشرقي ، وكان آثر عنده من الخط المغربي فسخط ابن الابار انفة من إيثار غيره عليه ، وافتأت على السلطان في وضعها في كتاب أمر بإنشائه لقصور الترسيل يومئذ في الحضرة عليـه ، وان يبقي مكان العلامة منه لواضعها ، فجاهر بالرد ووضعها استبداداً وانفة ، وعوقب على ذلك ، فاستشاط غضباً ورمى بالقلم وانشد متمثلاً :

واطلب العز في لظى وذر الذل ولو كان في جنان الخلود !

« فنمي ذلك الى السلطان فأمر بلزومه بيته ، ثم استعتب السلطـان بتأليف رفعه اليه ، عدّ فيه من عوتب من الكتاب ، وأعتب ، وسماه (أعتاب الكتاب) . واستشفع فيه بإبنه المستنصر ، فغفر السلطان له وأقال عثرته ، واعاده الى الكتابة .

« ولما هلك الامير ابو زكريا رفعه المستنصر الى حضور مجلسه مع الطبقة الذين كانوا يحضرونه من أهل الأندلس وأهل تونس ، وكان في ابن الأبار انفة وبأو[1] وضيق خلق ، فكان يزري عـلى المستنصر في

---

١ – بأى ، باؤاً عليهم : فخر ، تكبر – قاموس .

مباحثه ويستقصره في مداركه ، فخشن له صدره مع ما كان يسخط به السلطان من تفضيل الأندلس وولايتها عليه .

« وكانت لابن ابي الحسين فيه سعاية في حقد قديم ، سببه ان ابن الأبار لما قدم في الأسطول من بلنسية نزل ببنزرت ، وخاطب ابن ابي الحسن بغرض رسالته ، ووصف اباه في عنوان مكتوبه بالمرحوم . ونبه على ذلك فاستضحك وقال : ان أبا لا تعرف حياتـــه من موته لأب خامل ! ونميت الى ابن ابي الحسين فأسرّها في نفسه ، ونصب له الى ان حمل السلطان على اشخاصه من بجاية . ثم رضي عنه واستقدمه ورجّعه إلى مكانه من المجلس ، وعاد هو الى مساءة السلطان بنزعاته ، الى ان جرى في بعض الايام ذكر مولد الواثق وسأل عنه السلطان فاستبهم ، فعدا عليـــه ابن الابار بتاريخ الولادة وطالعها ، فاتهم بتوقع المكروه للدولة ، والتربص بها كما كان اعداؤه يشنعون عليه ، لما كان ينظر في النجوم فتقبض عليه وبعث السلطان الى داره فرفعت اليه كتبه أجمع ، وألقى اثناءها فيما زعموا رقعة بأبيات أولها :

طغى بتونس حلف سموه ظلما خليفة !

« فاستشاط لها السلطان وأمر بامتحانه ، ثم بقتله قعصاً بالرماح وسط محرم من سنة ثمان وخمسين ، ثم أحرق شلوه ، وسيقت مجلدات كتبــه وأوراق سماعه ودواوينه فأحرقت معه ! »

رحمك الله يا شهيد الاباء والأدب والأسلام !

نشأته العلمية

قضى ابن الأبار طفولته في مسقط رأسه بلنسية ، وهي مدينة مشهورة بجمال موقعها وغنى أراضيها ، تقع على ثلاثة أميال من البحر . في سهل

منبسط « في غاية الخصب واعتدال الهواء » . ويشقها نهر جار يسقي بساتينها ومزارعها ، وعلى جانبيه جنات وارفة الظلال وعمارات متصلة. هذا الموقع الجغرافي الممتاز جعل بلنسية مدينة غنية بتجارتها وزراعتها ؛ فالقوافل دائبة المرور بها ، وحركة الميناء البحري القريب منها لا تكاد تهدأ . ولخصب الأرض واعتدال الهواء تنوعت محصولاتها الزراعية ، وكثرت فواكهها وثمارها،ورخصت اسعارها وأصبحت كما يقول الحميري « جامعة لخيرات البر والبحر » .

والمؤرخون يجمعون على الثناء على أهل بلنسية واخلاقهم العربية الأصيلة ، فلهم : « حسن زي ، وكرم طباع ، والغالب عليهم طيب النفوس » ، كذلك أهل موريتانيا !

في هذا المحيط الخيّر الخصب نشأ ابن الأبار ، واذا كنا لا نعرف الشيء الكثير عن طفولته وشبابه ، فان مؤلفاته الكثيرة التي وصل بعضها الينا تدل على ان صاحبها أمضى في التحصيل والدراسة زمناً ليس بالقصير قبل أن يكتمل تكوينه الثقافي وينشط الى التأليف ، فهو قد درس على شيوخ كثيرين يردد اسماءهم في مؤلفاته ، وينقل عنهم ، امثال ابي عبدالله بن نوح ، وابي جعفر الحصار ، وابي الخطاب بن واجب ، وابي الحسن بن خيرة ، وابي سليمان بن حوط ، وابي عبدالله محمد بن عبد العزيز بن سعده ، ويمكننا ان نعد ابا الربيع بن سالم في طليعة شيوخ الأبار ، فقد لزمه قرابة عشرين عاماً ، وابو الربيع اكبر محدث في عصره، وأشهر علماء الأندلس في زمانه ، وهو الذي علم ابن الأبار صناعة الكتابة ، وأورثه اياها .

لم يكتف ابن الابار بالدراسة على علماء بلنسية ، بل قام برحلة طويلة جاب بها الأندلس ، وأصبح يجمع الى تضلعه في الحديث ثقافة جامعة لعلوم عصره ، ثم عاد أخيراً ولما يبلغ الثلاثين من عمره ، الى بلنسية ليتخذه اميره السيد ابو عبدالله محمد بن ابي حفص بن عبد المؤمن بن

علي كاتباً له ، ثم أصبح كاتباً لابنه السيد ابي زيد من بعده .

هجرته الى تونس

كان حزن المسلمين على سقوط بلنسية عظيماً ، وبكى ابن الابار مسقط رأسه بدمع غزير : « واما الأوطان ، فقد ودعنا معاهدها وداع الأبد .. اين بلنسية ومغانيها واغاريد وُرْقها واغانيها ، اين حلى رصافتها وجسرها ، منزلا غيطانها ونضرتها ؟ اين افياؤها تندي غضارة ؟ اين جداولها الطفّاحة وخمائلها ، اين جنائنها النفّاحة وشمائلها ! شد ما عطل من قلائد ازهارها نحرها ، فأية حيلة ولا حيلة في صرفها مع صرف الزمان ، وهل كانت حتى بانت إلا رونق الحق وبشاشة الأيمان ! »

وكأن ابن الابار قد أدرك بعد سقوط بلنسية ان الغزاة سيوالون هجماتهم على المدن الأسلامية الباقية في الأندلس واحدة أثر اخرى ، فعزم على الهجرة بأسرته الى تونس ، لاجئاً الى حمى السلطان الحفصي الذي لقي منه خلال سفارته السابقة لديه كل رعاية وتكريم ، وكذلك غادر ابن الابار في أواخر صفر من غام ٦٣٦ أرض الأندلس الى غير عودة !

آثار ابن الابار

لم يصل الينا من مؤلفات ابن الابار الخمسة والأربعين غير ستة تصانيف ، أما المؤلفات الأخرى فقد أكلتها النيران كما أكلت جثة مؤلفها ، أو ضاعت خلال القرون ، وأصبحنا اليوم لا نعرف عنها غير أسماء بعض منها ، يذكرها ابن الابار حيناً في تضاعيف كتبه التي وصلت الينا ، أو يشير اليها بعض من اقتبسوا منها من مؤرخي الأندلس حيناً آخر . وهذه الأسماء هي :

١ ـ افادة الوفادة : ذكره المقري في نفح الطيب . وموضوعه ذكر الوافدين من الأندلس إلى المشرق .

٢ ـ كتاب ايماض البرق في ادباء الشرق : ذكره ابن شاكر في فوات الوفيات .

٣ ـ كتاب التاريخ ، وكان سبب مقتله وإحراق كتبه لما وجد فيه من امور تسيء الى المستنصر .

٤ ـ كتاب التحفة : ولعله كتاب « تحفة القادم » الذي سنتحدث عنه بعد قليل .

٥ ـ قطع الرياض : وهو كتاب في متخير الأشعار .

٦ ـ المأخذ الصالح في حديث معاوية بن صالح : وهو كتاب في الأحاديث التي رواها هذا العالم الحمصي الذي هاجر الى الأندلس واستقضاه عليها عبد الرحمن الداخل .

٧ ـ معادن اللجين في مراثي الحسين : والغبريني كثير الاعجاب بهذا الكتاب : « ولو لم يكن له من التآليف الا كتابه هذا لكفاه في ارتفاع درجته وعاو منصبه ، وسمو رتبه » .

٨ ـ هداية المعتسف في المؤتلف والمختلف : أشار اليه ابن الابار في معجمه ، ومن المحتمل ان يكون كتاباً آخر غير الكتاب التالي الذي يحمل اسماً مشابهاً .

٩ ـ هداية المعترف في المؤتلف : ويذكره المقرى في نفح الطيب .

١٠ ـ مظاهرة السعي الجميل ، ومحاذرة المرعي الوبيل في معارضة ملقي السبيل (صلة التكملة للحسيني ـ خ) الأعلام : ١٠ ـ ٢٠٩ .

١١ ـ أنيس الجليس ونديم الرئيس (هدية العارفين : ٢ ـ ١٢٧) .

أما الكتب الستة التي وصلت الينا وطبع أكثرها فهي :

١ ـ التكملة لكتاب الصلة : كتاب في تراجم علماء الأندلس ، يكمل كتاب (الصلة) لابن بشكوال ، وهو مصنف حسب الترتيب

الأبجدي لأسماء الرجال ، صنفه ابن الابار في مدى خمسة عشر عاماً ، كما يذكر في مقدمته . فقد بدأه سنة ٧٣١ وانتهى منه ٦٤٦ ،والكتاب مطبوع بكامله : نشر القسم الكبير منه كوديرا ، من حرف (ج) الى نهاية الكتاب ، في مجلدين في مدريد خلال عامي ١٨٨٨ - ١٨٨٩ ، ونشر القسم الأول الباقي منه ابن شنب وبل في الجزائر عام ١٩٢٠ .

٢ - المعجم في اصحاب القاضي الصفدي : كتاب في تراجم الأندلسيين الذين عرفوا القاضي ابا علي الصفدي ، وقد صنفت اسماؤهم حسب الترتيب الأبجدي ، والكتاب مطبوع ، نشره كوديرا في مجلد واحد سنة ١٨٨٦ في مدريد .

٣ - الحلة السيراء في اشعار الامراء : كتاب في الادب ، اراد ابن الابار ان يصف فيه النشاط الادبي لمشاهير الأعلام في السياسة والحرب ، من رجال الاندلس وشمالي افريقيا ، فقسم الكتاب الى قسمين غير متساويين : أولهما في تراجم الرجال الذين لم تصل آثارهم الى ابن الأبار ، وثانيهما ملحق يتعلق بهؤلاء الرجال ، وقد صنف ابن الابار التراجم تصنيفاً زمنياً فأفرد لكل قرن رجاله ، من القرن الأول الى القرن السابع ، وفي الملحق من القرن الأول الى الثالث ، ورتب المؤلف الأعلام في كل قرن ترتيباً يجمع رجال كل اسرة معاً ، أو الرجال الذين تضمهم ميول سياسية متجانسة - نشر دوزي من الكتاب قطعاً متفرقة في فصول متعددة ، نجد اهمها في كتابه (تعليقات على بعض المخطوطات العربية) المطبوع في لندن سنة ١٨٤٧ - ١٨٥١ في مجلد واحد ، وقد تابع موللر عمل دوزي فنشر قطعاً أخرى من الكتاب سنة ١٨٦٦ ولكنه وقف عند نهاية القرن الثاني من الملحق .

٤ - تحفة القادم في شعر الأندلس : كتاب في تراجم الشعراء ، يضم تراجم مائة من الشعراء وأربع من الشاعرات ، من أهل الأندلس ، من رجال القرنين الخامس والسادس ، مع قطع مختارة من أشعارهم وقد

وصل الينا مختصر لهذا الكتاب ، من عمل ابي اسحق ابراهيم بن محمد البلفيقي (المقتضب من كتاب تحفة القادم) طبعه الفريد بستاني في مجلة المشرق ، وعن هذه الطبعة اخرجت فصلة من المجلة ، لا تحمل تاريخاً .

٥ — در السمط في خبر السبط : وهو كتاب اخبار الحسين بن علي ابن ابي طالب ، ويدل على تشيع ابن الابار . ويقول عنه المقري في نهاية الصفحات التي ينقلها : « وهو كتاب غاية في بابه . ولم أورد منه غير ما ذكرته ، لأن في الباقي ما نشم منه رائحة التشيع ، والله سبحانه يسامحه بمنه وكرمه ولطفه » .

ونقف قليلاً عند هذه العبارة، لنسامح المقري على نعرته وتعصبه ، ونقول له ما قال عن ابن الابار حين شم منه رائحة التشيع : « والله تعالى يسامحه بمنه وكرمه ولطفه » ..!

وهنا يقول الدكتور صالح الأشتر ان نسخة خطية وحيدة وصلت اليه من هذا الكتاب — السمط — تعود الى القرن الثاني عشر الهجري . وكان السيد عامر غديرة قد حققها وترجمها للفرنسية وأعدها للطبع ، وقدمها لنيل دبلوم الدراسات العليا في باريس* .

أما الكتاب السادس والاخير فهو (أعتاب الكتاب) الذي يحققه الدكتور صالح الأشتر وينشره اليوم مجمع اللغة العربية بدمشق لأول مرة.

اعتاب الكتاب

يمكننا ان نقسم الكتاب الى ثلاثة أقسام . القسم الأول : المقدمة وفيها يستعرض المؤلف موضوع كتابه ويشرح الغرض منه .

القسم الثاني : تراجم الكتاب وعددها خمس وسبعون ترجمة، تختلف طولاً وقصراً ، فبعضها يتسع حتى يشغل أكثر من خمس صفحات (مثل

---

* مجلة « الثقافة » الدمشقية ، عدد آب سنة ١٩٦١ .

ترجمة سهل بن هارون العتابي وابن الزيات وسليمان بن وهب وابن زيدون وغيرهم) ويضيق بعضها ويقصر فلا يزيد على أسطر قليلة (كترجمة كاتب الهادي وعبدالله بن سوار بن ميمون وابي جعفر البغدادي وغيرهم) أما تصنيف التراجم فقد قسمت الى قسمين ظاهرين اولها لتراجم الكتاب المشارقة ، وثانيهما لتراجم كتاب الغرب الاسلامي (شمالي افريقيا والأندلس) وان لم تكن مراعاة هذا التقسيم دقيقة جداً ، ذلك اننا نجد في قسم المشارقة أمثال داود القيرواني وعبدالله بن محمد الزجالي الأندلسي ، كما نجد في القسم الثاني ترجمة لكاتب صلاح الدين.

وتتسلسل التراجم في كل من القسمين تسلسلاً زمنياً ، فتراجم المشارقة تبدأ بكتاب عثمان الخليفة الراشد الثالث فكتاب الأمويين فالعباسيين ، خليفة بعد خليفة ، وفي القسم الغربي تأتي ترجمة كاتب عبد الرحمن الناصر قبل كتاب الحاجب المنصور ، وبعد هؤلاء تأتي تراجم كتاب ملوك الطوائف .

ويكاد ابن الابار يتبع منهجاً واحداً في كل ترجمة في كتابه : فهو يبدأ الترجمة بتحديد أسماء السادة الذين كتب لهم صاحب الترجمة ، ويمر بذلك سريعاً حتى يصل الى السيد الذي أغضبته زلة صاحب الترجمة ، وعند ذلك يتمهل ابن الابار ليقص علينا كيف تمكن الكاتب من استرضاء سيده ، ويرينا الوسيلة التي تمكن من ان يستعيد بها مكانته لديه ، من رسالة يكتبها اليه ، او قصيدة يمدحه بها ، أو يعتذر فيها عن ذنبه ويعلن توبته وندمه ، وقد يستطرد ابن الابار عند ذكر بعض الرسائل أو القصائد مشابهة لآخرين . فرسالة هذا الكاتب تستدعي ذكر قول فلان .. وهذا المعنى يستدعي ذكر ما قاله فلان وقد اهمل ابن الابار في تراجمه تحديد سني الولادة والوفاة ، والحق ان الكاتب يمثل اسلوباً جديداً في فن التراجم ، اسلوباً موجهاً وجهة خاصة .

ويشير ابن الابار في اغلب الاحيان الى مصادره التي ينقل منها ،

وقد كان اميناً في نقله حتى يبدو لنا في كتابه جمّاعة يجمع وينقل ويحاول ان يربط ويضم أطراف ما يجمعه وينقله ، ويضيف الى ذلك ، هنـا وهناك اشارات الى السلطان ابي زكريا وولي عهـده يحيى ، اما ابن الابار المؤلف حقاً فلا يظهر الا في التراجم التي خص بها بعض الكتاب الأندلسيين الذين عرفهم في حياته معرفة شخصية .

ويورد ابن الابار احياناً روايات مختلفـة لحادثة واحدة من مصادر شتى دون ان يقطع بتفضيل رواية على اخرى ، ويذكر لنا ابن الابار اسماء مصادره فأذا هي قرابة ثلاثين مصدراً مشرقياً ومغربياً وأندلسياً ، وبعضها اليوم ضائع ، لم يصل الينا ، مثل كتاب (الاخبار المنثورة) لأبي بكر الصولي ، و (اخبار الدولة العامرية) لابن حيان، و(طبقات خلفاء الأندلس) لسكن بن ابراهيم الكاتب ، وبضياع هـذه المصادر وأمثالها تزداد قيمة الكتاب الذي تنشره دمشق الآن .

القسم الثالث : خاتمة المؤلف وفيها يعلن ابن الابار غايته من تقديم كتابه الى السلطان ابي زكريا فجميع تلك الأمثلة التي ضربها لعفو الملوك عن زلل كتابهم هي دون عفو السلطان ابي زكريا عن زلته ، يقول : « كل ذلك بالنسبة الى الحلم الامامي والأسجاح ، كالذبالة باهرة انوار الصبح الوضاح » ثم ينهي الخاتمة بأيراد عدة قصائد في مديح السلطان وولي عهده والأعتذار والحمد .

ادخل شاعر من غرناطة (الاندلس) هذا الطراز الغريب من النقوش إلى بلدة « ولاتة » في موريتانيا ، في القرن الثالث عشر الميلادي . وهي رسوم يتجدد تخطيطها وتلوينها بالطين الأحمر (المغرة) كل خريف من كل عام ، من هطول الامطار في الصيف – صيفهم – وتستمد خطوطها من فن الزينة الرائع الذي كان سائداً في القصور العربيـة في سامراء و (سر من رأى) قرب بغداد فيما بين القرنين الثامن والتاسع الميلاديين. ويرى في الصورة أحد الموريتانيين جالساً أمام باب البيت المنقوش و بجانبه مصطبة خشبية (سرير ريفي) في باحة الدار للنوم والاستلقاء عليه في ليالي الحر الشديد .

سينية ابن الأبّار الثوريّة

وأما خبر القضية الثانية – الاولى في الترتيب الزمني – أو المأثرة الاخلاقية الاسلامية الثانية على الأصح ، ونعني قصيدته السينية ، خبر هذه القصيدة يرويه أيضاً ابن خلدون* ، قال :

لما استقل ابو جميل زيّان بن أبي الحملات مدافع بن أبي الحجاج ابن سعد بن مردنيش بملك بلنسية ، وغلب عليها السيد أبا زيد بن السيد ابي حفص ، وذلك عند خمود ريح بني عبد المؤمن بالأندلس ، وخروج ابن هود على المأمون ، ثم فتنته هو مع ابن هود ، وثورة ابن الأحمر بأرجونة ، واضطراب الأندلس بالفتنة ، وأسف الطاغية الى ثغور الأندلس من كل جانب ، وزحف ملك أرغون الى بلنسية فحاصرها وكانت للعدو سنة ثلاث وثلاثين سبع محلات لحصار المسلمين : اثنتان منها على بلنسية ، وجزيرة شقر وشاطبة ، ومحلة نجيان ومحلة بطبيرة ومحلة بمرسية ومحلة بلبلة ، واهل جنوة من وراء ذلك على سبتة .

ثم تملك طاغية قشتالة مدينة قرطبة ، وظفر طاغية ارغون بالكثير من حصون بلنسية والجزيرة ، وبنى حصن أنيشة لحصار بلنسية ، وانزل بها عسكره ، واستنفر اهل شاطبة وشقر وزحف اليهم فانكشف

---

* ص ٥٩٩ – ٦٠٥ ، ج ٣ م ٦ طبع بيروت .

المسلمون ، واصيب كثير منهم . واستشهد ابو الربيع بن سالم شيخ المُحدِّثين بالأندلس ، وكان يوماً عظيماً ، وعنواناً على أخذ بلنسية ظاهراً . ثم ترددت عليها سرايا العدو . ثم زحف اليها طاغية ارغون في رمضان سنة خمس وثلاثين وست مئة ، فحاصرها واستبلغ في نكايتها . وكان بنو عبد المؤمن بمراكش قد فشل ريحهم ، وظهر أمر بني أبي حفص بافريقيا ، فأمل ابن مردنيش وأهل شرق الأندلس الامير ابا زكريا للكرة ، وبعثوا اليه ببيعتهم ، وأوفد عليه ابن مردنيش كاتبه الفقيه أبا عبدالله ابن الابار صريخاً ، فوفد وأدى بيعتهم في يوم مشهود بالحضرة ، وانشد في ذلك المحفل قصيدته على روي السين ، يستصرخه فيها للمسلمين وهي هذه :

أدرِكْ بخيْلك خيلِ الله أندلسا ... إن السبيل الى منجاتها درسا !
وهب لها من عزيز النصر ما التمست ... فلم يزل منك عز النصر مُلتَمسا
وحاش مما تعانيه حُشاشتها ... فطالما ذاقت البلوى صباح مسا !!

***

يا للجزيرة ، أضحى اهلها جَزَراً ... للنائبات ، وأمسى جدُّها تعسا
في كل شارقةٍ ، إلمام بائقةٍ ... يعود مأتمها عند العدى عُرُسا !
وكل غاربةٍ احجاف[1] نائبةٍ ... تثني الامان حذاراً والسرور أسى
تقاسم الروم ، لا نالت مقاسمُهم ... إلا عقائلَها المحجوبة الأُنسا
وفي بلنسية منها ، وقرطبة ... ما يذهب النفس، اوما ينزف النفسا
مدائن حلهـا الإشراك مبتسما ... جذلان ، وارتحل الايمان مبتئسا
وصيرتها العوادي عائثات بهـا ... يستوحش الطرف منها ضعف ما أنسا !

***

ما للمساجد عادت للعدى بيعاً ... وللنداء يُرى أثناءها جرسا !

---

١ - الغاربة : السفينة والاحجاف الصوت الداخلي النذير .

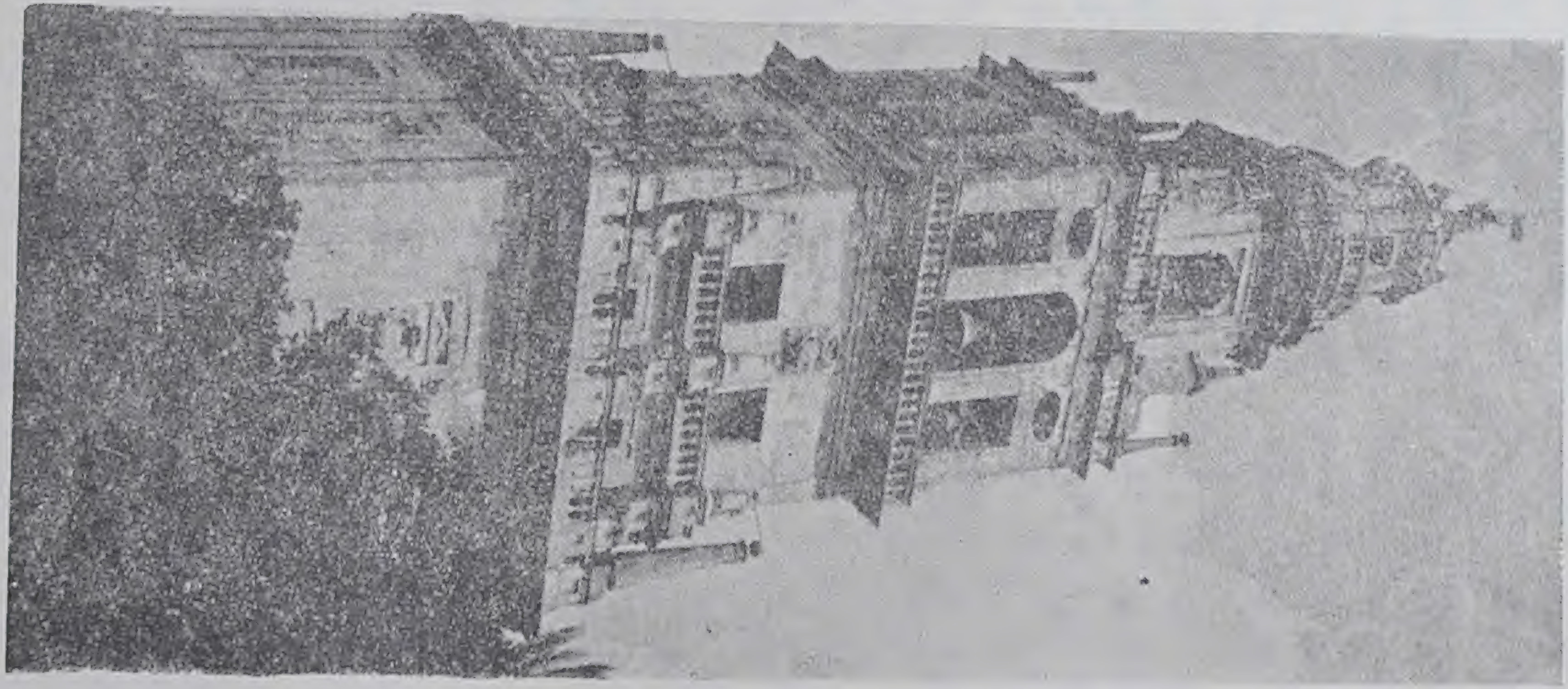

منارة اندلسية عربية في قرطبة لم يبق منها الآن سوى القاعدة الكبيرة الأولى . والصورة قديمة مأخوذة قبل تهديم المنارة . وقيل إنه كان لها ١٤ نافذة ذات عقود ، وسلمان ، احدهما للصعود والآخر للنزول .

لهفاه عليها ! الى استرجاع فائتــها مدارساً للمثاني اصبحت دُرُسا
وأربعاً غنمت ايدي الربيع بها ما شئت من خلع موشيّة وكِسا
كانت حدائق للاحداق مونقــةً فصوح النضر من أدواحها وعسا
وحال ما حولها من منظر عجبٍ يستوقف الركب، او يستركب الجُلُسا
سرعان ما عاث جيش الكفر واحرباً عيث الدبا [1] في مغانيها التي كبسا [2]
وابتزّ بزتها ممــا تحيّفهــا تحيف الاسد الضاري لما افترسا !

* * *

فأين عيش حَبيْناه بها خَضِراً وأين غصنٌ جنيناه بها سلِسا ؟
محا محاسنها طاغ اتيح لهــا ما نام عن هضمها حيناً، وما نعِسا
ورجّ ارجاءها لما احاط بهــا فغادر الشم من اعلامها خنسا [3]
خلا له الجو ، وامتدت يداه الى إدراك ما لم تنل رجلاه مختلسا
واكثر الزعم بالتثليث منفردا ولو رأى راية التوحيد ما نبسا
صِلْ حبلها ايها المولى الرحيم ، فما ابقى المراس لها حبلاً ولا مرسا !
وأحي ما طمست منها العداة كما احييت من دعوة المهدي ما طمسا
ايام صرت لنصر الحق مستبقــاً وبت من نور ذاك الهدي مقتبسا
وقمت فيها لأمر الله منتصراً كالصارم اهتز ،أو كالعارض انبجسا
تمحو الذي كتب التجسيم من ظلم والصبح ماحيــة انواره الغلسا

* * *

هذي رسائلها تدعوك من كثب وانت افضل مرجوٍّ لمن يئسا
وافتْك جارية بالنجح راجيــةٌ منك الامير الرضى والسيد الندُسا [4]

---

١ – جمع آخر للدبة وهو نادر .

٢ – كبس كبساً على شيء شد وضغط ، القوم جمدوا فجأة ، وهذا هو المعنى المقصود من البيت في قلب الشاعر .

٣ – خنس خنساً وخنوساً : تأخر وانقبض فهو اخنس وهي خنساء جمع خنس .والمعنى هنا متفق مع مراد الشاعر في الشم العالية .

٤ – الفطن الكيس السريع الاستماع للصوت الخفي .

خاضت خضارةَ ، يعلوها ويخفضها ... عُبابه ، فتعاني اللين والشرَسا
وربما سبحت والريح عاتيةٌ ... كما طلبت بأقصى الشدة الفرسا !
تؤمّ يحيى بن عبد الواحد بن ابي ... حفص مقبّلةً من تربه القدسا
ملك تقلدت الأملاك طاعته ... ديناً ودنيا ، فغشاها الرضى لبسا
من كل غاد على يمناه مستلماً ... وكل صاد الى نعماه ملتمسا
مؤيد ، لو رمى نجماً لأثبته ... ولو دعا افقاً لبى ، وما احتبسا !
امارة تحمل المقدار رايتها ... ودولة عزها يستصحب القعَسا [١]
يبدي النهار بها من ضوئه شنَباً ... ويطلع الليل من ظلمائه لعسا
كأنه البدر والعلياء حالته ... تحفّ من حوله شهبُ القنا حرسا
له الثرى والثريا خيطتان ، فلا ... أعزّ من خطتيه ما سما ورسا

***

يا ايها الملك المنصور أنت لها ... علياء توسع أعداء الهدى تعسا !
وقد تواترت الانباء انك من ... يحيي بقتل الملوك الصُّفر اندلسا
طهّر بلادك منهم ، انهم نجسٌ ... ولا طهارة ما لم تغسل النّجسا
واوطىء الفيلق الجرار ارضهم ... حتى يُطاطىء، رأس كل من رأسا !
وانصر عبيداً بأقصى شرقها شرقت ... عيونهم ادمعاً تهمي زكا وخسا
هم شيعة الامر ، وهي الدار قد نهكت ... داء، متى لم تباشر حسمه انتكسا !
املأ هنيئاً – لك التمكين – ساحتها ... جُرداً سلاهب ، أو خطّيةً دعسا
واضرب لها موعداً بالفتح ترقبه ... لعل يوم الأعادي قد اتى وعسى !!

فأجاب الامير أبو زكرياء داعيتهم ، وبعث اليهم اسطوله مشحوناً بمدد الطعام والأسلحة والمال، مع ابي يحيي بن يحيي الشهيد ابي اسحاق ابن أبي حفص . وكانت قيمة ذلك مائة الف دينار . وجاءهم الاسطول بالمدد وهم في هذا الحصار ، فنزل بمرسى دانية واستفرغ المدد بها

١ – الفرس المنيع الأبي . والمعنى من الدقة والجودة على جانب عظيم !

ورجع بالناس اذ لم يخلص اليه من قبل ابن مردنيش من يتسلمه . واشتد الحصار على أهل بلنسية، وعدمت الاقوات وكثر الهلاك من الجوع فوقعت المراوضة على اسلام البلد ، فتسلمها جاقمة ملك ارغون في صفر سنة ست وثلاثين ، وخرج عنها ابن مردنيش الى جزيرة شقر فأخذ البيعة على اهلها للأمير ابي زكريا . ورجع ابن الابار الى تونس فنزل على السلطان وصار في جملته ، وألح العدو على حصار ابن مردنيش بجزيرة شقر ، وازعجه عنها الى دانية فدخلها في رجب من سنته وأخذ عليهم البيعة للامير أبي زكريا .

ثم داخل اهل مرسية ، وقد كان بويع بها ابو بكر عزيز بن عبد الملك ابن خطاب في مفتتح السنة ، فافتتحها عليه في رمضان من سنته وقتله ، بعث ببيعتهم الى الامير ابي زكريا . وانتظمت البلاد الشرقية في طاعته وانقلب وفد ابن مردنيش اليه من تونس بولايته على عمله سنة سبع وثلاثين، الى ان اخذها طاغية برشلونة من يده سنة اربع واربعين، واجاز الى تونس ، والبقاء لله » .

نعم ، البقاء لله ، ثم للاعمال والشخصيات التاريخية التي يبقى ذكرها العاطر الطيب الى أبد الآبدين كأبن الابار !

أوليات عن العلم والأدب وانتشارهما في موريتانيا *

ان أول معلم عرفته موريتانيا ، هو عبدالله بن ياسين الجزولي ، المتوفي سنة ٥٥١ هـ جاء به يحيى بن ابراهيم الكدالي في فجر دولة المرابطين ، فكان معلماً مربياً سائساً مدة يحيى بن ابراهيم ويحيى بن عمر ولما تنازل هذا الاخير لأبن عمه يوسف بن تاشفين عن سياسة المغرب بعد ان أخضع بعضه ، رجع ابو بكر الى الصحراء واستصحب معه من اغمات وريكه ، الامام ابا بكر محمد بن الحسن الحضرمي المتوفي سنة ٤٨٩ ، بـ « ازوكي » قرب اطار .

فهذان هما اصل العلوم الدينية في موريتانيا ، وعنهما انتشرت في قبائل المرابطين لذلك العهد مثل المدلش [١] في القبلة ، فقد كانت لهم عناية عظيمة بالعلم حتى قيل ان الغلام منهم كان يحفظ « المدونة البراذعية » قبل بلوغه ، ولهذا قيل لهم « مجلس العلم » وقيل لأن جدهم كان قاضي مجلس الأمير ، ثم حرفت الكلمة فقيل « مدلش » كما مر في الشرح.

ومثل تجاكانت في قرية بشنيك من آدرار . قيل انه كانت توجد

* مصدرنا في هذا الموضوع مقال للمختار الحامد المؤرخ والأديب الموريتاني المعروف ، نشرته مجلة « العلوم » البيروتية في عدد ك ١ سنة ١٩٥٩ .

١ — أصلها « المجلس » ، ثم حرفت وصارت علماً لقبيلة عرفت بالعلم .

فيهم ثلاثمئة شوبية فارقة تحفظ الموطـأ فضلاً عن غيره — ناهيك عن الرجال الذين كانوا يحفظون ذلك واكثر منه — ولهذا قيل «العلم جكني» .

وكذلك كان الامر في سائر قبائل الزوايا الذين كان جمهورهم ذلك العهد في « ابير » اي شنقيط القديم . ثم جاء الشريف عبد المؤمن مؤسس قرية تيشيت وجد شرفاءها المعروفين ، والحاج عثمان جد بعض بطون ايدولحاج ، وأحد مؤسسي قرية وادان سنة ٥٣٦ ، وكان قراءً على القاضي عياض فانتشر عنهما العلم واتسع نطاقه ونفقت سوقه قروناً عديدة في القريتين ، وكان قبل ذاك قاصراً على علم الشرح آلاتها ومتماتها ، وكذلك قدم على ولايته يحيى الكامل جد المحاجيب ، فانتشر على يده علم كثير في تلك النواحي ، وكان العلم في موريتانيا دائماً تزيد ثروته بواسطة سفر الحجاج والتجار الذين كانوا يصلون الى افريقيا الشمالية ومصر وغيرها من بلاد الشرق فيأتون بالمتون المؤلفة في شتى الفنون العلمية .

ولما تم تأسيس شنقيط الجديد في القرن السابع قامت به سوق العلم حتى بلغت اوجها في شتى قبائلها وخاصة في قبائل ايدوعل والاغلال والشماسد وغيرهم .

وفي ذلك العهد تفرقت زوايا ابير الى شتى الجهات وفي كل قبيلة علماء ومدرسون او قضاة مفتون،او مؤلفون . ولم يخل عصر ما من علماء مشاركين في جميع العلوم متخصصين في بعضها ذوي عناية تامة بالمتون العلمية يستظهرونها أو يختصرونها أو ينظمون منثورها .. وأقدم متن درسوه في الفقه موطأ مالك ومدونة البراذعي ورسالة القيرواني ، وقد شرحها منهم جماعة ، وعقدها بالنظم آخرون .

ومن المتون المتداولة عندهم ، تحفة ابن عاصم ، ولامية الزقاق ، ونظم المرشد المعين لابن عاشر . وقد شرح هذه المتون جماعة منهم ، ومختصر الاخضري وقد شرحه جماعة ونظمه آخرون . ومختصر خليل

وعليه اعتمادهم ، وقد شرحه جماعة وقلده آخرون . وحذا هذا الحذو آخرون وآخرون بمؤلفات منظومة أو منثورة يبينون مجمله أو يستدركون عليه أو على شروحه . من ذلك ما وقع للحاج الحسن بن اعيد الزيدي والشريف حمى الله التشيتيين مع العلامة الخرشي في شرحه الخليل . فقد استدركا عليه زهاء اربعين مسألة منها نظم ومنها نثر ، عربي أو حساني.
وما زال الفقه عندهم مالكياً بحتاً ،وكان اصل ذلك ما هو معلوم من حمل عبد الرحمن الداخل الاموي أهل الأندلس على مذهب مالك .. وما زالت مآخذ الفقه عندهم مقصورة على كتب الفروع المالكية وتقليد أصحابها . وكل فقه عداها مهجور عندهم ، حتى النظر في أدلة القرآن والحديث.

وقد أخذ بعض علمائهم ينزعون عن هذا الجمود منذ صدر هذا القرن الحالي . ويرجعون الى التبصر في الدين . وذلك بسبب انتشار الكتب التي كانت مفقودة بواسطة المطبعة وسهولة المواصلات . وفي طليعة هؤلاء المجددين الشيخ سيدي باب المتوفي سنة ١٣٥٢ مؤلف ارشاد المقلدين عند اختلاف المجتهدين .

وقد بحث في هذا الموضوع رجال من أهل القرن الماضي منهم الشيخ محمد المام المتوفي سنة ١٢٨٢ مؤلف كتاب البادية وغيره . الا ان هؤلاء لم يجدوا اصغاء كافياً لرسالتهم .

أما اصول الفقه وقواعده ،فأشهر متونه عندهم ورقات امام الحرمين ، وهي أقدم متن درسوه . وقد شرحها جماعة ونظمها آخرون ، ثم تنقيح القوافي وجمع الجوامع للسبكي . ونظم الكوكب الساطع للسيوطي وقد شرحه جماعة . ونظم المنهج للزقاق وتكميله لميارة . وقد شرحهما قوم وحاذاهما آخرون بالنظم والنثر .

أما العقائد الدينية فأشهر متونها عندهم بعد عقائد رسالة القيرواني التي هي أقدم متن درسوه فيها ،مؤلفات السنوسي واضاءة الدجنة للمقرى ، وقد شرح جميعها جماعة وحاذاها آخرون بالنظم ولهم سوى ذلك مؤلفات استوعبت مسائل علم الكلام . منها فرائد الفوائد لليدالي المتوفي سنة

١١٦٦ ، ووسيلة السعادة لابن بسون الجنكي المتوفي سنة ١٢٢٠ . وقد شرح « الوسيلة » جماعة زهاء العشرة .

أما مذاهبهم في الاعتقادات ، فمذهب الشيخ ابي الحسن الاشعري ومتأخري أصحابه من الجزم بعقيدة السلف مع تأويل المشكل وتخريجه على ما عرف في كلام العرب من فنون مجازاته كما يساعد عليه النقل والعقل . سرى ذلك اليهم منذ عهد الموحدين ، وكانت العقيدة قبل ذلك سلفية لا يشوبها شيء من التأويل ولا علم الكلام ، بيد انه أصبح اليوم منهم جماعة يجنحون الى مذهب السلف في ترك التأويل والايمان بما صح من ذلك، وتفويض المراد منه الى الله تعالى.. على حد قول الشافعي: « آمنا بما جاء عن الله على مراد الله وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

ومنهم من يخرج عن ذلك مسألة المعية فيمنع التفويض فيها للاجماع الوارد على تأويلها بالعلم ويقول : « المفوض فيها ان الاجماع اذا صح فهو فعلي يدل على الجواز ، لا حكمي يدل على الوجوب » مع انه لو دل على الوجوب لم يفد عنده الا منع احداث تأويل آخر لا منع التفويض. وهي مسألة ملأت الدفاتر واتعبت الاقلام . ولا يهمنا هنا غير تاريخها اذ ليس المقام مقام بحث علمي لنتذاكر في حجيج الجميع فننفي ما ننفي ونثبت ما نثبت .

التصوف

أما التصوف عندهم،فعلى طريقة الجنيد ، ومعتمدهم فيه على كتب الغزالي والسهروردي والشعراني ورزوق واضرابهم ، وهي كتب مطالعة لا درس في المدارس ، انما يدرس التلميذ عندهم تصوف ابن عاشر من نظمه « المرشد المعين » ثم ان لهم في التصوف مؤلفات مجلية عم

الثفع بها وراجت عند الناس منها للشيخ محمد اليدالي والشيخ سيدي الكبير وأحمد بن محمد الحاجي والشيخ ابن متالي التندغي ومحمد مولود ابن احمد فال اليعقوبي والشيخ ماء العينين القلقمي وغيرهم .

وجمهور الموريتانيين يفهمون التصوف كما حدّه السيوطي : تجريد القلب لله ومراقبته بفعل الفرائض وترك المحرمات ، ثم بفعل المندوبات وترك المكروهات واستكمال شُعَب الايمان حسب طاقة الانسان وجهاد النفس واستعمال الاوراد ، اما بأخذها من بطون الكتب كأذكار النووي والحصن الحصين للجزري ، واما بتلقين شيخ من مشايخ الطرق. وكانت الطريقة الشاذلية اكثر الطرق انتشاراً في البلاد حتى ظهر الشيخ المختار الكنتي وتصدر على يده رجال مشاهير كالشيخ سيدي الكبير والشيخ القاضي وغيرهما ، فشاعت الطريقة القادرية ، ثم ظهرت التيجانية في صدر القرن الثالث عشر فأخذ بها خلق كثير .

ثم ان القادرية فرعان : كنتية منسوبة للشيخ الكنتي وقد شرح تاريخها وسلسلتها ابنه الشيخ سيدي محمد ، وفاضلية منسوبة للشيخ محمد فاضل القلقمي ، وقد شرح تاريخها ابنه الشيخ ماء العينين وغيره . واما التيجانية ففرعان : حافظية منسوبة للشيخ محمد الحافظ العلوي وقد شرح تاريخها التيجاني بن باب العلوي وغيره . وحموية منسوبة للشيخ حماه الله الشريف. واما الشاذلية ففرعان غظفية منسوبة للشيخ محمد الاغظف الداودي ثم الجعفري ، هذا ولا يزال جمهور من الناس لا يتقيدون بطريق معينة بخصوصها وربما ينتقدون على بعض المتصوفين مثل ما ذكر صاحب الاستقصا * وفي ذلك المعنى قال الشيخ سيدي باب :

كن للاله ذاكرا وأنكر المناكرا
وكن لقوم احدثوا في أمره مهاجرا

* صفحة ١٢٩ ، ج ١ طبع الدار البيضاء سنة ١٩٥٥ .

واسلك سبيل المصطفى ومت عليه سائرا
فما كفى أولنـا أليس يكفي آخرا ؟
وان دعـا مجادل في امرهم الى مـرا
فلا تمار فيهم إلا مـراءً ظاهرا !

علم قراءات القرآن

اما اداء القرآن عندهم ، فبحرف نافع ، ولو قيل ان نسبة القرآن في الزوايا سبعون في المئة لم يُستَبْعد لشدة عنايتهم بالقرآن ، وكذلك نسبة المجوّدين في القُرّاء . وقد اشتهر منهم جماعة لا تدخل تحت الحصر من الائمة القراء بقراءة نافع او بالقراءات السبع أو العشر ، الحذاق بتجويد القرآن وضبطه ورسمه وروايته بالاجازة المسلسة ، منهم الفغ عبدالله الديماني وسيدي عبدالله التنواجي وأحمد بن محمد الحاجبي والطالب عبدالله الجكني وسيد المختار إيداُبهْمي ، والمرابط عبد الفتاح التركزي وغيرهم .

وأول ما يبدأ الصبي منذ يفصح الكلام حفظ القرآن ثم رسمه وتجويده. وأشهر المتون المستعملة لذلك عندهم نظم الدرر اللوامع لابن برى ، ونظم الشوساوي ومقدمة ابن الجزري وقصيدة الشاطبي ،وكلها شرحها جماعة وحاذاها آخرون بتآليف منظومة أو منثورة ، مطولة أو مختصرة عربية أو حسانية ، وكل اجازة قرآنية في موريتانيا ترفع الى عبد الرحمن ابن القاضي . إلا أنهم يختلفون في النطق ببعض الحروف كالهمز المسهل، فان منهم من ينطق به هاء خالصاً ، وكالجيم ، فان بعضهم ينطق بالجيم الشديدة القريبة من الدال ، وبعضهم ينطق بالجيم المنفتحة القريبة من الزاي . وكانوا قديماً يقرأون بالمنفتحة الى صدر القرن الثاني عشر ، فكان أولهم قراءة بالشديدة سيدي عبدالله التنواجيوي — او التنواجي —

المتوفي سنة ١١٤٥ ، أخذها عن سيد أحمد الحبيب قطب سجلماسة، فكان الناس يقولون لها لذلك جيم تنواجيو ، وللأخرى جيم مسوم لان علماء مسوم وتجكانت انتصروا لها . وكتب منهم ابن ايد الأمين الجكني برد على سيدي عبدالله كتاباً موجوداً بأيدي الموريتانيين إلى اليوم .

وممن انتصر للمنفتحة أيضاً لذلك العهد ، الفغ مينحن الديماني. وقال في ذلك من أبيات :

قد افسد الجيم جيل كان مسكنهم ارض الحجاز وهم سودانُ بُشّارُ

ومحمد اليدالي الديماني وغيرهم ، ثم جعل القارئون بالشديدة يزدادون مدة القرنين الماضيين ، وقال في ذلك بعضهم :

قرأنا كتاب الله بالجيم اولاً ولكن بدل الجيم بالجيم أفضلا

على انه لم يزل الخلاف مستمراً والحروب القلمية قائمة الى اليوم ، وكلهم متفقون على شدة جيم تنواجيو وانفتاح وانسفال جيم مسومة وجهرهما معاً . وانما المناكرة في شدة جيم مسومة . وانفتاح وانسفال جيم تنواجيو، وكذلك أيضاً يختلفون في النطق بالضاد والهاء .

مصادرهم الثقافية (اللغوية)

ان مصادر اللغة المدرسية عندهم، هي دواوين الشعراء الستة الجاهليين. والمعلقات . وديوان غيلان (ذي الرمة) ، والشنفرية (قصيدة الشنفرى اللامية) ومقصورة ابن دريد ، ولامية الطغرائي ، ثم مطالعة كتب المعاجم : كالقاموس ، والجوهري ، ومختار الصحاح وغير ذلك .

أما النحو ، فأقدم فن درسوه فيه « ملحة الاعراب » للحريري .

ثم الفية ابن مالك وتسهيله وكافيته . وفريدة السيوطي ، ومختصر ابن اجروم – الاجرومية – وكلها شرحها جماعة وحاذاها آخرون بمؤلفات منظومة او منثورة . أشهرها جامع ابن بون الجكني المسمى « بالاحمرار » وقد شرحه جماعة وشرح شواهده آخرون .

هذا وقد بلغ النحو أوجه في تلك البلاد واشتهر فيه طائفة كبيرة . ولا يعلم مبدأ دخول النحو الى موريتانيا ، إلا ان محمد سعيد اليدالي ، كان أول من جلبه من القبلة في القرن العاشر ولذلك سمي بالنحوي ، ومنه رضعه حفيده بن بون الجكني الذي انتهت اليه رئاسة علم النحو ، والذي له المنّة على جمهور من النحاة ، مثل حرمة بن عبد الجليل العلوي وبُلاّ [1] والشقروي وعبد الودود بن عبدالله . وتلا هؤلاء اولاد الفغ احْبَيسل ، والحسن بن زين الفنـاني . ويحظيه بن عبد الودود سيبويه زمانه ، وتلامذته مثل ابنه اتان ، ومحمد سالم بن المسا اليـدالي وأحمد بن فتى الشقروي ، ومم وابي الجنكيين ، ومحمد عال بن تعم المجلسي ومحمد عال بن عبد الودود من آل المبارك المدرس الأعلى حالياً في المعهد العلمي الأسلامي في مدينة بوتليميت (سنة ١٩٥٩) وغيرهم ممن لا يجمعهم حصر ..

ومن مشاهير النحاة في شنقيط : سيدي محمد بن حبّت وابنه «الشيخ» وهما من شارحي « جامع ابن بوه » ومنهم في « تيشيت » سيدي محمد بن موسى بن اجّل الزيدي المتوفي سنة ١١١٩ وابنه الطالب سيد احمد والشريف محمد بن الامام المتوفي سنة ١٢٠٨ وأبو بكر بن الطفيل المسلمي . ومنهم « في وَلاته أنوي » واسمـه عمر بن الامام محمد عبدالله المتوفي سنة ١٢٦٠ وغيرهم .

---

١ – هو بلا بن البو حسني الذي قيل في مدحه :

يا رب ، ابقلنا بلا لنسألـه ... عن كل سر من القرآن محتجب
وعن دواوين شعر لا يفسرها ... إلا ابن بجدتها ابن الفضل ، ابن أبي !

يقال : فلان ابن بجدتها ، و ابن ابيه : اي العالم بالشيء المتقن له .

وأما فنون البلاغة ، فأشهر متونها عندهم لهذا العهد ألفية السيوطي المسماة « عقود الجمان » ونظم الجوهر المكنون للاخضري . وقد شرحهما جماعة وحاذاهما آخرون بالنظم والنثر ، ولا يعلم متى توسعوا في علم البلاغة ولا اقدم متن درسوه فيه . الا انهم في القرن الثاني عشر والذي بعده ، كانوا قد بلغوا فيه منتهى النضج والتخصص . اذ تخصص فيه منهم رجال ، يدل على ذلك قول ابن رازكه العلوي يخاطب علماء فاس ويخص بن زكري من قصيدة مذكورة في « الوسيط » مع حل محمد اليدالي للغزه :*

اسائلكم . ما سر اظهار ربنا — تبارك مجداً — « من وعاء أخيه[1] » ؟
فلم يأت عنه منه او في وعائه لأمر دقيق جل ، ثم يخيه
فأن تلك اسرار المعاني خفية فمرآتها أفكار كل نبيه !
وأنت « ابن زكري » نبيه محقق تفردت في الدنيا بغير شبيه

فأجابه محمد اليدالي :

سؤال بليغ في البيان نبيه اديب ، من أرباب الهدى وذويه
عن السر في اتيان ربي بظاهر مكان ضمير في وعاء اخيه
معمى .. قد أعيى اهل فاس وغيرهم فكنا بحمد الله مفتتحيه ..!
فلو قال فرضاً ربنا من وعائه فذلكم بعد التفكر فيه
يؤدي الى عود الضمير « ليوسف » فيفسد معناه لمختبريه ..

* ستأتي ترجمة بن رازكة في الفصل السادس فصل الشعراء القدماء . وفيها القصيدة كاملة مع جواب اليدالي .

١ — جاء في سورة يوسف الآية : « فأخرجها من وعاء أخيه » في معرض قصة يوسف واخوته المشهورة .

لأن الضمير في الصناعة عائد لأقرب مذكور هناك يليه ..
وان قال منه اختل أيضاً لأنه يؤدي لعود مضمر لاخيه
فينزع منه « الصاع » ، لا من وعائه وتأنف من ذا نفس كل نبيه
لما في انتزاع من أذى ومهانة ولم يرد الرحمن ذا لنبيه ..!

وقول بابه الديماني في نظمه في البيان اثناء الكلام على متعلقات الفعل ما لفظه زيادة في تأخير الفاعل على مفعوله : « لنكتتين ، تنبهت لهما بفضل الله » ولم أرهما في كتب البيان والنحو :

يؤخر الفاعل ان تأخرا وجوده ككونه معنى طرا
او لفظ مفعول ، اقل مثل ما في حضرة القسمة «هنداًعلما»

قصد في البيت الثاني وقوع ترتيب اللفظ على ترتيب الوجود نحو : « اذا حضر يعقوب الموت حتى اذا حضر احدهم الموت من قبل أن يأتي احدكم الموت » .
وقوله : واذا مس الأنسان الضر ، قد مس آباءنا الضراء والسراء .
وقال — في شرح الشطر الثاني من البيت الأخير — مشيراً الى قوله تعالى « واذا حضر القسمة اولو القربى واليتامى والمساكين » او نحو : (فاما يبلغن عندك الكبر احدهما او كلاهما » ، او نحو : « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها » الخ ...
ومن قرأ مؤلفات ابن بون الجكني وسيدي عبدالله ابن الحاج ابراهيم العلوي ، ومحمد فال بن العاقل الديماني واضرابهم في هذا الفن . قال « عين الجواد فرارة » ..

علم العروض والقوافي والمنطق

واما علم العروض والقوافي ، فكانوا يدرسون له كتاب الوافي .

ومقصورة الخزرجي وغيرها من كتب القدماء. ثم استحدثت فيه مؤلفات محلية أكثرها نظم فأخذ بها الطلبة .

على ان منهم من يتلقى هذا العلم وتحصل له الملكة فيه بواسطة رواية شتى القصائد في شتى البحور بضرب من المحاكاة والتوقيع ، فتمايز به البحور بعضها عن بعض بحيث يميز الناظم البحر بعرض البيت منه على مختلف التوقيعات والمحاكاة المعتادة عندهم فلا يخطيء ابداً .. ويسمون هذا بـ « الجنكية » .

واما المنطق ، فمتونه المتداولة عندهم هي: مختصرة السنوسي وجواهر ابن طيب وسلم الاخضري . وقد شرح هذه المتون جماعة وحاذاها آخرون بالنظم والنثر . وقد تخصص في هذا العلم رجال منهم بحثوا مع المتقدمين في بعض مسائله . فقد وقفت على بحث لابن حبيب الزايد التندغي من أهل « اعمر اكداش » وهو فتى في سن العشرين يعارض فيه ابن طيب، وشروح في بعض مسائل القضايا .

Date........... ....

Call No.........

Account No.........

J. & K. UNIVERSITY LIBRARY

This book should be returned on or before the last stamped above. An overdue charges of 6 nP. will be levied for each day. The book is kept beyond that day.

الفصل الخامس

المجتمع القبلي في موريتانيا
مجتمع الشاي والشعر

Call No..........   *Date*........... ....

Account No..........

J. & K. UNIVERSITY LIBRARY

This book should be returned on or before the last stamped above. An overdue charges of 6 nP. will be levied for each day. The book is kept beyond that day.

انعكاسات المجتمع القبلي الجاهلي على البيئة الموريتانية

كانت القبيلة وحدة الحياة في المجتمع الجاهلي ، وكانت كل قبيلة تؤمن بوجود رابطة تجمع بين أبنائها جميعاً ، تقوم على أساسين من وحدة الدم ووحدة الجماعة .

وفي ظل هذه الرابطة نشأ قانون عرفي ينظم العلاقة بين الفرد والجماعة على أساس من التضامن بينهما في الحقوق والواجبات، فالقبيلة من ناحية ، مسؤولة عن أي جريرة يرتكبها أحد أبنائها ، وعليها واجب الانتصار له مظلوماً ، والوقوف معه ظالماً ، فجناية الغزو جناية الجماعة كلها يعصبها برأس سيدها ، ويلقي عليه عبئها ، ليتولى باسم القبيلة تدبير أمر النصرة . والفرد ، من ناحية اخرى ، متضامن مع قبيلته ، يعمل من اجلها ، ولا يتصرف الا في حدود النطاق الجماعي الذى يحفظ عليها وحدتها فلا يخرج على اجماعها ، ولا يحملها ما لا تطيق . وعليه – من اجل ذلك – ان يرفع من احساسه بالجماعة ، وان يهدر في سبيلها كل نزعة فردية او انفصالية من نفسه . فإذا حدث – لسبب من الاسباب – ان شذ الفرد على هذا التضامن او تصرف في انفصالية فردية خارج ذلك النطاق الجماعي ، كان من حق القبيلة ان تتحلل من العقد الاجتماعي القائم بينها وبينه ، فتهدر حقوقه عليها ، وتتخلى عن حمايته ونصرته ،

فتطرده من حماها ، وتعلن بين القبائل انها خلعتـــه ، او — بعبارة اخرى — سحبت منه جنسية القبيلة ، فلم تعد مسؤولة عنه ولا سائلة أيضـــاً !

ويخرج « الخليع » أي المخاوع من حمى قبيلته ليجد نفسه في موقف ضيق ووضع شاذ ، لقد سحبت منه الجنسية القبلية ، وأصبـــح فرداً منفصلاً عن قبيلته في مجتمع لا يؤمن بالانفصالية الفردية، وفرص الحياة في الصحراء محدودة ، ومن المستحيل على الفرد ان يعيش فيهـــا الا مرتبطاً بجماعة . وينظر الخليع فلا يرى أمامه الا أحد طريقين : اما ان يلجأ الى قبيلة اخرى يعيش في حماها جاراً لها او مولى من مواليها ، واما ان ينطلق الى الصحراء ليتخذ من الغزو والغارة وقطع الطريق وسائل للحياة وأسباباً للرزق ، معتمداً على قوته في فرض نفسه واثبات وجوده في مجتمع تخلى عنه،وقطع ما بينه وبينه ..

المجتمع القبلي طبقات ثلاث

في ظل هذه الرابطة ايضاً انقسم المجتمع القبلي الى ثلاث طبقات اجتماعية : طبقة العرب الصرحاء الذين يجمع بينهم الدم الواحد والنسب المشترك .

وطبقة العبيد التي كانت تتألف من الارقاء المجلوبين عن طريق الشراء، ومن اسرى الحروب الذين يقعون في أيدي القبيلة في اثناء حروبها والذين تشتريهم من اسرى القبائل الاخرى ، ثم طبقة الموالي التي كانت تتألف من العتقاء الذين رد عليهم سادتهم حريتهم ولكنهم ظلوا مرتبطين بهم برابطة الولاء .

ومن خلعاء القبائل الذين خلعتهم قبائلهم او فروا هم منها فاستجاروا بقبائل أخرى وأصبحوا جيراناً لها او حلفاء تربطهم بها رابطة الولاء .

وقد نظم القانون العرفي الذي اصطلحت عليه القبائل العلاقات بين هذه الطبقات ، وحدد ما لها من حقوق وما عليها من واجبات ، على اساس من الإيمان بوحدة الدم التي تجمع بين أبناء القبيلة الصرحاء .

وكان مقياس الشرف عند العربي ان لا يجري في عروقه دم أجنبي ، وان يكون من أب عربي وأم عربية ومن هنا كان حرصه على ان يحفظ لسلالته نقاء الدم وصفاءه وامتيازه . وفي سبيل هذا الحرص كان يرفض الاعتراف بأبنائه أو من الحاقهم بنسبه اذا جاءوا ثمرة لصلة غير متكافئة بينه وبين امائه ! ومن أجل ذلك أطلق المجتمع الجاهلي على ابناء الاماء من العرب الصرحاء اسم «الهجناء» وكان اسوأ هؤلاء الهجناء حظاً في الحياة ابناء الاماء السود الذين سرى اليهم السواد من امهاتهم وأطلق العرب عليهم اسم « الاغربة » .

وكانت طبقة العبيد ، من بيض وسود ، ممن تجري في عروقهم شائبة من دمائهم من الهجناء والأغربة في وضع اجتماعي سيء ، فقد سلبتهم الارستوقراطية العربية ، المؤمنة ايماناً عميقاً برابطة الدم ، كل ما يمكن ان يكون لهم من حقوق ، وفرضت عليهم من الواجبات ما أرهق كواهلهم وأهدر انسانيتهم ، وباعدت بينهم وبين الحياة الاجتماعية الكريمة ، وضيقت عليهم النطاق في حياة ذليلة مهينة على هامش المجتمع .

وكان طبيعياً أن تتمرد من هذه الطبقة طوائف أبت نفوسها الكبيرة أن تخضع لهذه الحياة ، وهو تمرد لم يكن له إلا منفذ واحد ، وهو الفرار إلى الصحراء ، حيث الحرية التي لا تحدها حدود ، ولا تقيدها قيود . وفي الصحراء لم يكن امام هذه الطوائف إلا طريق واحد، طريق القوة توفر به لأنفسها فرص الحياة بالغزو والغارة وقطع الطريق ، وتثأر

به من المجتمع الذي أبى عليها حقها في الحياة الحرة الكريمة

الفقر والثراء في المجتمع القبلي

المجتمع القبلي — من وجهة النظر الاقتصادية — مجتمع بسيط التكوين، يتألف من طبقتين اقتصاديتين : طبقة المال من التجار وأصحاب الابل الذين تتركز في ايديهم الثروة، وتتحكم رؤوس اموالهم في الحياة الاقتصادية، وطبقة الفقراء الذين لم يستطيعوا المشاركة في النشاط التجاري الجارف في المدن ، والذين أوصدت طبيعة الحياة الرعوية في مجتمع البادية أبواب الثراء في وجوههم . وكانت الهوة الاقتصادية بين هاتين الطبقتين بعيدة الغور الى حد كبير ، مما أدى الى اختلال التوازن الاقتصادي بينهما اختلالاً شديداً ، وهو اختلال وقف منه القرآن الكريم موقفاً حاسماً حين حمل حملاته الشعواء على طبقة المرابين المنتشرين في المدن التجارية الذين كانوا يأكلون الربا « اضعافاً مضاعفة » وحين توعد بالويل والعذاب اولئك المطففين « الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون ، واذا كالوهم او وزنوهم يخسرون » ، وحين نعى على أعراب البادية وأدهم بناتهم وقتلهم اولادهم « خشية املاق » ، كما حاول ان يضع حداً له بما فرضه من الزكاة والصدقات والكفارات وما قرره من حقوق على الاغنياء للفقراء ، وما نظمه من علاقات بين المتداينين .

وبقدر ما كان الفرق الاقتصادي بين هاتين الطبقتين بعيداً ، كان الفرق النفسي بينهما قريباً ، فقد كانت الطبقات الفقيرة تؤمن في قرارة نفسها بأنها لا تقل شيئاً عن الطبقات الغنية، وبأن اختلاف حظوظ الناس من الحياة ليس معناه اختلاف اقدارهم ، واذا كانت الحياة قد حرمتهم واغدقت على غيرهم غنى واسعاً ، وثراء عريضاً ، فتلك خطيئة المجتمع الذي يعيشون فيه ، وليس خطيئتهم ، وماذا يملكون لتغيير حظهم من

الحياة في مجتمع صحراوي موارد الرزق فيه محدودة ، ومجال العمل فيه ضيق ؟ ان تلك القوافل التجارية التي تسيل بها شعاب الصحراء كان من الممكن ان يكون لهم نصيب فيها لو ان الحياة منحتهم شيئاً من رضاها ، وان تلك الابل التي يضيق بها حمى القبيلة لم يخلقها الله لتكون ملكاً لفرد أو طبقة وانما خلقها للجميع ، وهل من العدل ان يستأثر فرد بألوف من الابل ، ولا يملك آخر إلا حبلاً يجرره لا بعير فيه ..؟

على هذا النحو كان بعض الفقراء المتمردين على وضعهم الاقتصادي يتصورون مشكلتهم ، وهي مشكلة لم يجدوا حلاً لها إلا في الفرار من مجتمعهم القبلي الى الصحراء ، ليشقوا طريقهم في الحياة معتمدين على قوتهم لاسترداد ما آمنوا بأنه حقهم المسلوب ، والانتقام من اولئك الذين اعتقدوا انهم هم الذين سلبوه !

تمرّد الصعاليك

وعلى رمال الصحراء التي لا ترد عنها لاجئاً ، وفي اعماقها الغامضة التي لا تضم اليها ضعيفاً ، وفوق مرتفعاتها الوعرة التي تستعصي على المطاردين ، وعلى طول الطرق التجارية التي تسيل بالقوافل المحملة بثروات المالكة ورؤوس أموالهم ، وعلى مقربة من مناطق الخصب والثراء ومراكز النشاط التجاري في الجزيرة العربية ، انتشرت عصابات الصعاليك من مخلوعي القبائل وشذاذها ، ومن هجنائها واغربتها ، ومن فقرائها المتمردين الذين فارقوا قبائلهم مرغمين أو طائعين ، ليؤلفوا فيما بينهم بعيداً عن المجتمع النظامي ، مجتمعاً فوضوياً متمرداً ، يتخذ من الغزو والغارة والفتك وسائل للحياة ، ومن السلب والنهب وقطع الطريق اساليب للعيش ، مؤمناً بأن الحق للقوة ، وان الغاية تبرر الوسيلة !

وفي الحق ان نسجل منذ البداية ان هذا المجتمع الفوضوي المتمرد ،

— مجتمع الصعاليك — سواء اكان في الجزيرة العربية أو في موريتانيا، لم يكن من حيث وسائله إلا صورة من المجتمع القبلي من حوله الذي كان يؤمن بأن الغزو وسيلة مشروعة من وسائل الحياة وأسلوب معترف به من اساليب العيش. غاية ما في الامر ان حركة الصعاليك كانت حركة فردية تتم خارج ذلك النطـــاق الجماعي الذي كانت القبائل تتصرف في داخله في حين كانت حركات القبائل حركات جماعية تتم في داخل هذا النطاق.

انتشرت هذه العصابات المتمردة من صعاليك العرب في أرجاء الصحراء وقد جمع بينها الفقـر والتشرد، والتمرد على النظام القبلي، وما كان يؤمن به من وحدة الدم ووحدة الجماعة والكفر بالاوضاع الاجتماعية والاقتصادية التي تسيطر على مجتمعات القبائل حولهم، والايمان بأن هذه الاوضاع في حاجة الى ثورة تغير منها! ورأوا ما يلاقيه اخوانهم المستضعفون في الارض من ذل وضيم وهوان، فآلوا على أنفسهم ان يثأروا لهم من مجتمعهم الذي ظلمهم، ولم يجدوا أمامهم من وسيلة يرضونها لنفوسهم القوية إلا القوة يعتمدون عليها ليضمنوا لأنفسهم الفوز في معركة الثأر التي أشعلوا نيرانها في وجه قبائلهم، وليفرضوا انفسهم بعد ذلك على هذا المجتمع الذي تنكر لهم، ولم يعترف بحقوقهم!

انتشرت عصابات الصعاليك في أرجاء الصحراء كما تنطلق الذئاب الجائعة، خاف الأغنياء من التجار وأرباب الابل، وخاصة البخلاء منهم، وتربصوا بالقوافل التجارية التي تسيل بها شعاب البادية الفقيرة الجائعة، ينشرون جواً من الارهاب بين القبائل، ويبثون الرعب والفـــزع في نفوس مترفيها، ويقطعون الطرق على القوافل التجارية، ولا يتورعون عن قتل من يعترض طريقهم، ما دامت المسألة مسألة حياة او موت: حياة كريمة تحقق لهم أهدافهم، أو موت كريم في سبيـل المبدأ الذي التقوا عليه، وحملوا رؤوسهم على أكفهم من أجله، والذي عبر عنه

زعيمهم عروة بن الورد في هذا البيت الذي يخاطب به أحد صعاليكه في اسلوب حاسم لا يقبل جدلاً :

فقلت له : ألا احيَ وانت حرٌ ستشبع في حياتك ، او تموت !

أو في هذه الابيات القوية التي يخاطب بها زوجته معللاً لثورته :

ذريني أطوِّف في البلاد ، لعلني اخلّيك ، او اغنيك عن سوء محضَر
فأن فاز سهم للمنية لم أكن جَزوعاً ، وهل عن ذاك من متأخَّر ؟
وان فاز سهمي ، كفكم عن مقاعد لكم خلف ادبار البيوت ومنظر !

والمسألة عندهم ليست مسألة غنى فحسب ، ولكنها مسألة غنى يحقق لهم المساواة مع طبقة الاغنياء في الكرم والبذل والعطاء واكتساب المحامد والمفاخر ، أو – بعبارة اخرى – يحقق لهم تكافؤ الفرص حتى يستطيعوا التشبه بالسادة الاغنياء في مظاهر الشرف والمجد والسيادة ! ! فالغنى ليس إلا هدفاً قريباً ، اما البعيد فهو هذا الحرص على تحقيق عدالة اجتماعية تتكافأ فيها الفرص أمام الجميع ، وهو هدف عبر عنه عروة في هذه الابيات الرائعة :

دعيني أطوِّف في البلاد لعلني افيد غنى فيه لذي الحق محمَل
أليس عظيماً ان تلم ملمّةٌ وليس علينا في الحقوق معوَّل ؟
فأن نحن لم نملك دفاعاً بحادثٍ تلمُّ به الايام ، فالموت اجمل !

ومن هنا كان الصعاليك جميعاً كرماء لا يبخلون بما يقع في ايديهم من غنائم ، ولا يستأثرون به لأنفسهم وانما يوزعونه على من التف حولهم من الفقراء الذين حال ضعفهم أو عجزهم عن المشاركة في

ثورتهم ، بل ان عروة يفتخر بأنه يقسم جسمه على اجسام الفقـراء اللائذين به ، ويكتفي بشرب الماء القراح في ليالي الشتاء الباردة مؤثراً غيره من الفقراء الجياع بما لديه من طعام ، فيقول مخاطباً احد الاغنياء البخلاء :

واني امرؤ عافي ، إنائي شركةٌ ... وانت امرؤ عافي، إناؤك واحد !
أتهزأ مني ان سمنت ، وقد ترى ... بجسمي مسَّ الحق، والحق جاهد؟
اقسم جسمي في جسوم كثيرة ... واحسو قراح الماء، والماء بارد !

كان الصعاليك فقراء، ولكنهم كرماء . وكانوا ابطالاً أشداء مغامرين ، ذوي أجساد قوية ونفوس ابية ، واصحاب حيلة واسعة ودهاء عميق ، وكانوا عدّائين يسبقون الخيل ولا يعجزهم اسرع حيوان في الصحراء عن ادراكه ! لذلك كانوا مضرب المثل في سرعة العَدْو ..!

صعاليك .. ولكنهم عظماء !

وشعر الصعاليك — بدون شك — صورة طريفة وفريدة في الشعـر العربي كله على مر عصوره واختلاف بيئاته ، وهو يختلف اختلافـاً جوهرياً عن الشعر الجاهلي المعاصر له ؛ اختلافـاً يرجع اساسياً الى انه صورة صادقة لحياة اصحابه، فكما تحللوا في حياتهم من التقاليد الاجتماعية التي كان يخضع لها مجتمعهم ، تحللوا كذلك في شعرهم من التقاليـد الفنية التي كان الشعر الجاهلي يخضع لها ، تحللوا فيه من الشخصية القبلية التي جعلت من الشاعر الجاهلي لساناً لعشيرته وصحيفة لقبيلته ، وأحلوا محلها شخصياتهم الفردية، فأصبح شعرهم لسان أنفسهم وصحيفة احوالهم، واصبح ضمير الفرد « انا » اداة التعبير فيه بدلاً من ضمير الجماعـة

« نحن » الذي كان أداة التعبير عند شعراء القبائل . واصبحت المادة الفنية فيه مشتقة من شخصياتهم وحياتهم لا من شخصيات قبائلهم وحياتها. وتخلصوا من اضطراب القصيدة بين موضوعات شتى . واقاموا قصائدهم – حتى المطولات منها – على اساس وحدة موضوعية دقيقة، كما تخلصوا من المقدمات الطلية ، وما تنطوي عليه من حنين الى الحبيبة الراحلة ، وبكاء في الديار العافية ، واستعاضوا عنها بمقدمات فروسية محورها « حواء الخالدة » ..

ولكنها ليست حواء المحبوبة المتدللة التي نعرفها عند سائر الشعراء ، وانما هي حواء المحبة الحريصة على فارسها ، الذي تدعوه دائماً الى المحافظة على حياته ان لم يكن من أجل نفسه هو فمن اجلها هي . ولكنه دائماً معرض عن نصحها لأنه مشغول بكفاحه في الحياة الذي وهب له نفسه وحمل رأسه على كفه من اجله !

وشعر الصعاليك – في مجموعه – من مشارقة وأفارقة ، شعر قصصي واقعي ، يسجل فيه اصحابه كل ما يدور في حياتهم الحافلة بالاحاديث المثيرة تسجيلاً قصصياً رائعاً ، يتخذ من الحياة بما فيه من خير وشر مادة لموضوعاته ، ويصدق في النقل عنها ، ويحرص على ان يكون نقله دقيقاً لا زيف فيه ، ومن هنا كنا نرى ان أول من اصطنع القصة الشعرية في الادب العربي ليس هو أمرأ قيس – كما يذهب مؤرخو هذا الادب – ولكنهم شعراء الصعاليك الذين سبقوه ، والذين لا نشك فيهم هو انه تأثر بهم ايام تَصَعْلُكِه بعد طرد أبيه له، وقديماً قال الأصمعي : « ويقال ان كثيراً من شعر امرىء القيس لصعاليك كانوا معه » !

لقد أهمل مؤرخو الادب العربي هؤلاء الصعاليك وأمثالهم لانهم شغلوا بأصحاب المعلقات وأمثالهم من سادة الشعر الجاهلي . واذا كان مجتمعهم قد تخلى عنهم في حياتهم ، فقد آن لنا ان ننصفهم – ولو من الناحية الفنية – وان نرد اليهم بعض اعتبارهم – كما يقول اصحاب

القانون – حتى تطمئن أرواحهم التي طال تشردها فوق آفاق الصحراء الموحشة الغامضة الرهيبة ولنذكر – من أجل ذلك – قول شاعرهم الشنفرى :

وإني لحلو إن أريدت حلاوتي ومُرٌّ اذا نفس العزوف استمرت
أبيٌّ لما آبى ، سريع مفيئتي الى كل نفسٍ تنتحي في مسرتي

هذه الصفات الجاهلية كلها انعكست على البيئة الموريتانية انعكاساً جلياً واضحاً لا يزال أثره حتى اليوم . ففي شعر ابن الطلب (الطلبة) من المتقدمين ، وشعر ابي بكر بن ابي بكر من المتأخرين – من صعاليك موريتانيا العظماء – صور صافية رائعة تمثل أصدق تمثيل ما ذهبنا اليه في هذا البحث . حسبك هذا الشاهد من شعر أبي بكر ، لترى كيف تتجانس الأرواح والحياة بين شاعر عربي جاهلي كالشنفرى ، وشاعر عربي موريتاني اسلامي كأبي بكر القائل :

سألت ، فملّوني ، فهنت عليهم ووجه أخي الحاجات أجدر أن يُمَلّ
واعطوا قليلاً ، ثم اكدوا ، وفيهم مَن انْ سيلَ يوماً لا يصيخ لمن سأل !
وفيهم من ان يسأله ذو الحاج ردّه بوعد ، ومهما جاء يطلبه اضمحل
فلو ان اهلي اهل مال وثروة لما كنت ابغي عنهم أبداً حوَل
فلست أرى في الناس أكرم منهم ولكن داء الفقر اكثرهم شمَلْ

المجتمع الطبقي "العائلي"

عند البيضان مجتمع طبقي ، أو « حياة عائلية » في تعبير آخر ، كما هي الحال في مجتمعاتنا هنا ، مما هو معروف عن « ابناء الذوات » أو « العيل الكبيرة » في تسمية أخرى . ومعلوم ان المجتمع الذي تنشأ فيه الطبقية العائلية ، هو مجتمع يفرض « نوع » الناس ، ليقدمها للأذهان جاهزة للأكبار والاحترام ، أو للضعة والاحتقار ..!

وانت اذا طفت موريتانيا ، أو زرت بعض نواحيها فقط ، فأنك ستسمع حالاً اسماء عـائلات معروفة مشهورة كأنها اسماء العواصم او اسماء الشعوب ...

فعندك : آل الشيخ سيدي أو سيديا ، والبوعلية ، وبني الأعمش ، وإيدا بلحسن ، والايدوعلين الخ ... من اسماء العائلات الكثيرة الأخرى.

ولكن عائلة آل الشيخ سيديا ، عائلة لا تضاهيها عائلة اخرى في العلمية والشهرة ، لا في القديم ولا في الحديث !

يمدون احناكهم في ياء (سيدي) الأخيرة ، ويفتحونها عالياً حتى تصبح (سيديا) ..

فالشيخ المذكور – جد العائلة الاكبر – وذووه آل الشيخ سيدي ، قبلة شعراء البيضان في كل قطر من اقطارهم من قديم الزمـان ، فهم

اصحاب وجاهة زمنية وروحية ، لها من الحرمة والمهابة عند البيضان ما لا يستطيع أن يظفر بمثلها كبير او وجيه ..

وان شعر شعراء عرب افريقيا في الشيخ سيدي ومن يليه من سلالته، لا يتسع لجمعه والأحاطة به وقت مهما طال وتوفرت معه الأسباب !!

حتى اني لأعتقد ، انه لا يوجد في موريتانيا شاعر أو شويعر ، إلا وله في الشيخ سيدي او احد ابنائه قصيدة رثاء أو مدح ، ومنهم من له قصائد لا قصيدة واحدة ، في الرثاء والمديح لافراد هذا البيت !

الشيخ سيدي

وبعد ، فمن هو الشيخ سيدي ؟

الشيخ سيدي ، عالم من علماء البيضان ، ولد في اوائل القرن الثالث عشر للهجرة ، وكانت له الرياسة الدينية في ذلك الوقت .

وفي البيئة المتدينة ، تنشأ الرياسة الدنيوية تبعاً للرياسة الدينيـــة نشوءاً اوتوماتيكياً من غير استفهام .. وهذه مزية طبيعية في كل محيط متأخر اجتماعياً وثقافياً ، كجبل عامل – مثلاً – قبل عشرين أو ثلاثين سنة، حين كان العالم الديني يلف عباءته على (الإمامة) والزعامة في آن واحد ..!

والشيخ سيدي ، يقال له أيضاً « الشيخ سيدي الكبير » للتفريق بينه وبين المشايخ الذين تحدّروا من صلبه ..

ولما توفي عام ١٢٨٥ للهجرة ،خلفه ابنه الشيخ محمد ابن الشيخ سيدي . ومن هنا اصطلح البيضان على تسمية كل عقب من بيت آل الشيـــخ سيدي بـ « الخليفة » تعظيماً لشأنه .. ولكن الشيخ سيدي محمد لم يعش بعد والده سوى سنة واحدة وتوفي وعمره ٣٩ سنة .

ثم خلفه الشيخ سيدي بابا ، الذي جاء الاستعمار الفرنسي على زمانه،

وهو الذي مهّد الأمور للفرنسيين فاحتلوا موريتانيا بعد مقاومة اربع سنوات حرب !

ولذا ، كان الشيخ سيدي بابا من اول المقربين لدى الحكومة الجديدة – لدى النصارى كما يقولون – فكانت رياسته على البيضان موروثة من جهة جده، ومفروضة من جهة حكومة الاستعمار . ومنذ ذلك الوقت جعلت له الحكومة الفرنسية الامتيازات الآتية :

١ – كل من ينتمي لآل الشيخ سيدي لا يدفع ضريبة ولا خراجاً ولا غرامة ..

٢ – يؤذن بالمرور لمن شاء من آل الشيخ سيدي انى شاء – ما عدا ان يكون ملاحقاً بجرم – ويمنح جميع التسهيلات ، فيركب في البر والبحر والجو على نفقة الحكومة (ركيزيسيون) .

٣ – البيضان كافة ، سواء أكانوا في موريتانيا او خارجها، معفيون من الخدمة العسكرية الجبرية ، الا من تطوع من تلقاء نفسه ..

وقد أرّخ بعض تلاميذ الشيخ سيدي بابا وفاته فقال :

قضى بجيم في جمادى الثانية ... إمام كل حضر وبادية

الشيخ سيدي بوقت الظهر ... وتلك اعظم دواهي العصر

في سنة تاريخها بشمس ... والعمر دَين كضياء الشمس

مأربة لا حفاوة ..

كانت الحكومة الفرنسية في افريقيا ، تعامل البيضان باحتراس وحذر كلين، وتصطنع لهم ضروباً من اللين والرفق والاستمالة لشدة مراسهم...!

وهي إذا كرّمت رؤساء القبائل منهم وذوي الجاه فيهم، فأنما تكرمهم صوناً لمآربها الاستعمارية لا حباً بالحفاوة بهم ...

وعلى سبيل المثال ، اذكر الحادثة التالية :

في سنة ١٩٤٤ ، ارسلت الحكومة الشيخ عبدالله ولد الشيخ سيدي على نفقتها بالطيارة الى مكة لأداء فريضة الحج بالرغم من ان الزمان كان زمان حرب – العالمية الثانية – وبالرغم من حراجة مسؤوليات السفر في ذلك الحين .. وكثيراً، فعلت الحكومة الفرنسية مثل هذه (المكارم) مع وجهاء البيضان والسودان ..

ومشايخ البيضان كانوا إذا جاؤوا لسان اويس (اندر) ، او دكار السنغال ، يُعطَون ما يشاؤون وما يسألون من الخنط (القماش)، والشاي (الاتاي) والسكر ونحوه بكميات كبيرة واسعار حكومية رسمية . مع ان الظروف كانت ظرف تقنين شديد – ايام حرب – والتجارة السوداء على اشدها وهولها من فحش الأثمان وغلاء السلعة ...

مع ذلك كله ، كانت الحكومة تصطنع الوسيلة تلو الوسيلة ، والمبرر بعد المبرر ، لتعطي في ظروف التقنين العصيبة ، كل ما يطلبه مشايخ البيضان وزعماؤهم ليكونوا راضين !

قصيدة بن احمدي *

وعلى ذكر حجة الشيخ عبدالله الى مكة بالطياره كما قدمنا ، نورد قصيدة عربية بليغة، نظمها شاعر البيضان الكبير – يسمونه الشاعر المفاق – محمد محمود بن الشيخ بن احمدي ، مهنئاً بها الشيخ عبدالله المذكور بعد رجوعه من الحج ، وهي من غرر قصائد الموسم في ذلك الوقت، وهي طويلة ، تبلغ الثمانين بيتاً ، كانت لدينا كاملة ، فأرسلناها « للعرفان » لتنشر سنة ١٩٥٢ ، ولكن فضيلة المرحوم الشيخ احمد عارف الزين

* هذا الشاعر من الشعراء المعاصرين ، وقد التقيت به مراراً في بودور و اشهد انه من كبار الشعراء ! وقد قضت عوامل التبويب ورود قصيدته هنا .

صاحب المجلة يومئذ،رأى ان يحذف من القصيدة بعض المقاطع الأخيرة منها ، ولم يحتفظ لنا بأصولها ، فلم يبق منها سوى هـذا القدر الذي ننشره الآن ، وهي على غرار اكثر قصائدهم في المدح : يتغزل الشاعر ، ثم يتخلص من الغزل الى مدح صاحب العلاقة ، وهذه هي القصيـدة بعد حذف قسم منها كنا نود لو بقي لجودتها وقوتها ، قال الشاعر :

تبدّت له بالرّس آيات منزلٍ ... فهاجت عليه لوعةً هي ما هيا !
عشية لا بالرس يلقى ، ولا النقا ... من الحي ، الا منزلاتٍ بواليـا
محاها الحيا ، الا اواريّ خشّعـا ... فلأياً بلأيٍ ، ما عرفتُ الأواليا !
والا رمادا في معرّسٍ مرجَلٍ ... ترى حولَه سفعاً ثلاثا اثافيـا
بدا لي منها مختِل كنت ادّري ... غريرا به الوحش السنين الخواليـا
« فظلت بنات الشوق يحنن نزعا » ... ولم يعد دمع العين ان سح هاميا
وما زلت حتى ظن صحبي انني ... ولم يعلموا ما بـي يقينا لما بيا
وماذا يغير الصب في رسم دمنـة ... بدّويةٍ لو ظل حيران باكيا !
تكلفت حلماً وارعواءاً ، إخـاله ... على خطرٍ ، إن تبد هند اماميا !
تصنّع ، لا سالٍ تسلى، فلم يجـد ... من الوجد حتى راعه الشيب واقيا
ألا تسألان الشيب مالي وماله ... لدُن حل منى مفرق الرأس، راسيا
وهل كتمٌ ابغي به اليوم كتمه ... فأنني رأيت البيض اذ شبت لاهيا..
امامي مشيب ، والشبيبة ادبرت ... أراها ورائي لا تريد التلاقيا
فليت ورائي ما أمامي رأيتـه ... وليت امامي ما أراه ورائيا !
وليت خليـا ينكر الحب والهوى ... وما بات الاّ ناعم البال ، خاليا
وليت لنفس الصب نفساً سواءها ... اذا لم تجد من لوعة المجد شافيا
تيمم « عبدالله » أجدى ميمم ... لمن ساور الأزم العظام الدواهيـا
وذي حيلةٍ قد فرق الدهر ماله ... وفرق عنه الاقربيـن المواليا
تلقى يداً منه ، وعزاً ونصرة ... فما زال جحجاحاً بذلك ، ساميا

اولئك (آ ل الشيخ) لا نال مرتقى … لمنصبهم اخــرى الليالي مراقيا
مراتبهم فاتت أمانيَّ غيرهم … فما قال فيها قائل « ليتها ليا » !
اذا سالموا كانوا بحوراً خضارما … وان حاربوا، كانوا ليوثاً ضواريا !
اذاما اعتدوا اردوا . وان قدروا عفوا ، … وان بذلوا اغنوا هبات ضوافيا
وان وهبوا الجزل استقلوا هباتهم … مذاكي جردا ، او عناقاً متاليا
وهذى مقاليد الخلافة القيت … بطلعة مثل البدر يجلو الدياجيا
تصدى لأعباء الخلافــة قائماً … بكل يهــد الشامخات الرواسيا
فعمَّ الورى عدلاً وبذلاً ورأفة … وحاطهم بالحفظ يقظان راعيا
فأضحى له متبوعنا اليوم تابعاً … وامسى له متلوّنـا الدهر تاليا
لحى الله من ناووه ، يا بؤس للجفا … يناوون مهدياً الى الرشد هاديا
ابت نخوة ضلوا بها الرشد رشدهم … ضلالاً ، فآلوا لا يوالون واليا
سروا دون هاد في مسالك وعرة … اذ ادرّعوا الليل البهيم الحداريا
متى تأتهم تلمم بأهل حوائج … تمنوا عليه مسرفــين الامانيا
ترى ذاك جذلانـاً بما حاز رائحاً … وذلك مسروراً بما نال غاديا ..
خليفتنا اسمع من ثنائي قصائداً … مطابقــة الفاظهنَّ المعانيــا
طربت الى الانشاد في بعض مدحكم … فقمت له جذلان ادعو القوافيا
فصادفت منهن القواصي دوانيا … وألفيت منهن العواصي عوانيا
سلام عليكم ما تناهت لديكم … طوامح آمل البرايا تناهيا !

لاحظ كيف يبرز الشاعر اكثر ما يبرز من صفات ممدوحه الكرم والشجاعة .. وهما الصفتان اللتان يحرص كل شاعر بيضاني (مدّاح) على اكسابهما لممدوحه ، ان صدقاً وان كذباً ..!

وبذلك ، أي بهذا الشعر المرائي نفسه « يستدر » المادح يد ممدوحه بالجود .. وغالباً ما يضع الشاعر « هدفه » في قصيدة .. فيختار «الهبة» فرساً أصيلاً أحياناً وهي أعظم الهبات عندهم وأغلاها ..!

انك اذا أردت أن تدرس حيـاة هؤلاء العرب النائين ، وتدرس نفسياتهم ونوع عواطفهم ، ومبلغ ادراكهم للحياة والأدب ، فلا حاجة لك ان تعاشرهم ،أو تركب البحر وتقطع مسافات القارة السوداء للذهاب اليهم والأختلاط بهم والعيش في خيامهم .. بل عليك بقراءة شعرهم.. هذا الشعر « الفطري » الصادر عن نفوسهم الساذجة الصافية دون صنعة أو تفنن ..

اقرأ هذا الشعر قراءة « علمية دراسية » دون ان تنظر الى الأسلوب القديم ، أو الطريقة التقليدية المصوغة في قوالب القدماء ، خاصة شعر المدح الذي يربو عندهم على كافة أبواب الشعر الأربعة المعروفة ، ذلك ان هذا النوع – المدح – يظهرك على جملة احوالهم وخصائص سرائرهم وأذواقهم ..

اقرأ مثلاً لمحمد بن السالم يمدح الشيخ سيدي الكبير من قصيدة :

حوت ما دون مرتبة التنبّي يداك من المكارم والمعالي
وانت إذاً ، من الثقلين طراً بمنزلة اليمين من الشمال !
يداك غمامتـــان على البرايا على التدءآب دائمة انهمال
فذي عمّت بصيّبها ، وهذي تخص بها ذوي الهمم العوالي!

أرأيت هـذا « الغلوّ » في التعظيم ...؟ أرأيت كيف يطيب له ان يجعل ممدوحه من طينة غير طينة البشر ..! ثم انظر كيف جعله بمنزلة (اليد اليمنى) وهي اليد المفضلة عندهم ، على اليسرى .!

أتدري من أين أتى بهذا « التفضيل » لليد اليمنى !

لقد اقتبسه من تعاليمه الدينية ولذا،فهو يقدمها – اي يده اليمنى – في الوضوء ، ويقول وهو يتوضأ : « اللهم اعطي كتابي بيميني ولا

تعطي كتابي بشمالي » .. بمعنى ان من اخذ كتابه (جدول اعماله في الدنيا يوم القيامة) بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً ، وينقلب الى اهله مسروراً .. واما من اخذ كتابه بشماله ، فسوف يحاسب حساباً عسيراً ، الى آخر الآية .. !

من هنا ، من هذا المصدر الديني – القرآن – مصدر كل تأثير على شعور الافريقي وسلوكه ، اخذ الشاعر « منزلة مكرمة » » خاصة لليد اليمنى وادخلها في شعره ..

أرأيت انه ينبغي لنا ان نكون مطلعين على عقائدهم ، لنهتدي الى محاسن معانيهم في شعرهم ؟ ثم انك لتعثر – وهذا قليل في شعرهم – على لمعات انتقادية باهرة في ادبهم كقول سيدي محمد بن الشيخ سيدي من قصيدة انتقادية يعدد فيها معاني الشعرِ المطروقة والمسروقة ، والتي لم يترك الشعراء فيها قولاً لقائل .. حتى اصبح كل متأخر محدث ، يعتبر (سارقاً) عمن تقدموه لكثرة (ما وقع الحافر على الحافر) .. وهكذا مضى في تعداد اغراض الشعر والشعراء ، الى ان قال :

.. وجميع هذا ، قد تداوله الورى حتى غدا ما فيه موضع اصبع !

واقرأ لشاعرهم « الذئب » .. لقب بذلك لأنه على زعمهم قد اكل شعراء زمانه ، اي بزهم ...!

اقرأ له غزله في حبيبته مريم .. وانظر كيف ينتزع صور شعره – اي جمال محبوبته – من « طبيعة » الارض والمناخ الذي يعيش فيه ، وهو مناخ كثير البرق ايام الشتاء ، ومناخه رملي تكثر فيه التلال .. قال :

.. اذا قيل من اضناك ، قلت مجاوباً ببيتين مرويين عمن تقدما
« ادام علي الوجد ، اني كلما بدا لي سنا برقٍ ، تذكرت مريما

واذكر منها المقلتين ، وجيدها اذا الربرب الغادي ثلاثاً تسنما »

وله ايضاً :

اما والغواني من اناة وناهد وما طاب من ايامها والمعاهد
وما لذّ للعينين من بَشراتها وللسمع قدماً من حديث الخرائد
لقد نزلت ارضاً (مريمة) منزلاً من القلب لم تظهر به عين رائد..!

ان الشاعر يقسم قسماً عجيباً .. يقسم بلذّاته مع ذوات النهود والبشرة الناعمة .. وبكل ما طاب من ايامهن ..!

لقد كانت العرب تقسم ايمانها قبل الاسلام بالأصنام والأوثان ، وبمواقع النجوم .. ثم صارت تقسم بعد الاسلام بالله .. واذا بهذا الشاعر البيضاني يقسم بملذاته ..! وهو قسم لم يسبقه اليه أحد عند العرب ولا عند العجم ..!

ولمحمد ابن الحاج عبدالله العلوي من قرية تجكجة — قضاء تغانت — قصيدة غزلية طويلة يتحدث فيها عن (دمن الأحبة) : بيوتهم وخيامهم .. وعن البيض الخرائد فيقول :

دمنَ الأحبة لو عصيت العاذلا لأجبتِ عن ظُعُن الخليط السائلا
وبردت عنه البعض من حر الهوى وكففت عنه وساوساً وبلابلا
وحبست في عينيه بعض دموعه وشفيت داء في الجوانح داخلا
وأريته ملهى الأحبة باللوى زمن السرور به ضحى وأصائلا
ايامنا بلوى « الطويل » اذ الهوى طوع الصُّباة مواثقاً ووسائلا [1]
لا نختشي تشحاج ابقع بالنوى فالوصل عذب ، لا صدود ولا قلى [2]

١ — الطويل : اسم موضع فيه عين ماء يسمونها حاسية . والصباة بضم الصاد وتشديده : جمع المتصابي على وزن غزاة .

٢ — تشحاج ابقع : نعيب الغراب .

نلهو على الكثبان بـين خرائد رود تأطر في الرباط غوائـلا
ونبيت في العرصـات نكتم سرنا نخشى العواذر ان تكون عواذلا
ونظل نرقب غيبة الرقباء كي نصطاد بيضاً كالظباء خواذلا
ما ان بعثن لحاظهن لمرعـوٍ الا أصبن بهن منه مقاتلا !
يصطدن كل مدجج متمنع مهما نصبن دلالهن حبائلا
وتـُزلُ من اعلى شماريخ الذرى نغماتها الشيخَ الرزين العاقلا !
وكأنهن اذا رنين من المها عينٌ متطافِلُ قد حسسن مخاتلا
وكأن أوجههن اقمار الدجى وكأن في ظفراتهن ليائلا [1]
وكأنهـن اذا يسمن بوارق بل هن املح طلعة واقاولا
وكأن في انيابهن على الكرى عسلاً ، وفي نكاتهن خمائلا
وكأنهـن تثنيـاً وتمايـلاً بان النقـا متثنياً متمايـلاً
ولها انابيب رِوىً ، ومعاصم ملأت بهن اساوراً وخلاخلا
واذا وعدن وفين ، لكن الوفا « عدم الوفاء » فقد عرفن مواطلا !.
وكأنني لما مررت بدمنتي ذات الربى نسفت ، نقفت حناظلا !
وكأن في قلبي غضاً متضرماً يغلي زفيري ، عالياً او سافلا
وكأن ادمع مقلتي من جريها بين الربوع ذوارفاً وسوائلا

كل هذه المكافآت التشبيهية في قوله « وكأنهن » المتعددة ، كلها صور صادقة تعكس جانباً كبيراً من حياة المجتمع الموريتاني ، حياة الصبابة والغزل بين الرجل والمرأة .. ولله در الشاعر ، كم هو صادق الشعور والتصوير بقوله : « ولها انابيب روىً » الخ ...

فالنساء عندهم ، يلبسن في معاصمهن وارجلهن اساور وخلاخل من فضة خالصة لا من ذهب . ويكون وزن الاسوارة او الخلخال احياناً اوقيتـين الى نصف كيلو ..! ولكن اعجب من ذلك تلك الصحة

---

١ - ليائل بالهمزة جمع آخر لليال .

النسائية الجميلة التي تملأ هاتيك الاساور والخلاخل الفضية خصباً وانوثة يثيران الاغراء ..!

وقال محمد بن أحمد يوره يحيي النخلات السامقات اللائي يظهرن للرائي من بعيد ، فقد كن طالعات في الارض التي تقطنها حبيبته ..:

سقى النخلات اللائي يظهرن من بُعد   الى النهر من « شوبان » مرتجز الرعد[1]
وما كنت اهدي « نهر شوبان » انما   اصابته عدوى حبها، والهوى يعدي! ..

وله أيضاً :

كنا بميمنة « الميمون » من طَرب   نجني من الغيد ما شئنا ، ونهتصر !
ولليـالي رجوع في مواهبهـا   كأنها الأب ، يعطي ثم يعتذر ..

وله أيضاً :

أقام عليـه ذا البرق القياما   فذكّـره المخيّمَ والخيامـا
وذكره احبته ، وأحيي   عظاماً من صبابته رِمامـا !
ومن ذكر الأحبة ، وهو شيخ   فلست تظنه الا غلاما ..!!

---

١ – اسم نهر معروف .

حياتهم الاجتماعية وشرب الاتاي

الموريتانيون ، كجميع الامم ، لهم حياة اجتماعية ذات طابع خاص بهم . انك اذا جئت تصف هذا الطابع وتسميه، فلن تجد له وصفاً ولا اسماً أفضل من القول « طابع السذاجة والبساطة » .. انما حذار ان تذهب بهذه التسمية وخاصة « السذاجة » مذهب التقليل من يقظة القلب ونباهة الفكر ، فأنك حينئذ تظلمهم ظلماً كبيراً .. كل ما في الامر أنهم يؤثرون في طبيعتهم طابع السهولة والبساطة في العيش ، انسجاماً مع الحرية التي الفوها في حياة الصحراء .

فمن طرائف حياتهم الاجتماعية البارزة تحلّقهم اينما حلوا حول عدة الاناي (الشاي) ويسمونه « الورقة » — بتسكين الراء — . فللموريتانيين ولع عجيب بشرب الشاي يفوق المعتاد . والبيضاني اذا لم يتيّ — اي يشرب الاتاي — مرتين على الاقل في النهار ، لا يهنأ له عيش ولا يصفو له بال .. ويصبح ضيق الصدر ، مكروب النفس ! فالاتاي ، جزء مهم من حياتهم اليومية ، لا يملكون أنفسهم عن اشتهائها ، ولا يستطيعون على فراقها صبراً يوماً واحداً .. انها كقوتهم الضروري ، بل هي بالتأكيد بالنسبة لهم أصبحت حاجة روحية أكثر منها حاجة غذائية ، فكما ان الخمر اكسير الحياة بالنسبة للمدمنين ، كذلك الاتايا بالنسبة

لا تكثر من الماء يا من يعدّ الشاي ..
اسمع نصيحتي ،فان انت اكثرت من الماء
اعرض الناس عنك ..!

« مثل موريتاني »

للموريتانيين !! فحين يعزّ وجودها ، ومـا أكثر ما كان عزيزاً ايام الحرب (الشرّ في تعبيرهم) ، يشترونها بأي ثمن مهما غلا ، لا فرق – في طلابها – بين غنيهم وفقيرهم ، فلو كان أحدهم لا يملك احياناً من حطام الدنيا سوى ثمن كأس واحد منها ، لدفعه مسروراً واشتراه .!

كان شعارهم حين ترتفع اثمان الحاجات فوق المعتاد ، قول ابن سينا :

واذا غلا شيء عليّ ، تركته فيكون أرخص ما يكون، اذا غلا

الا الاتايا .. فقد كانوا يستثنونها من هذه القاعدة ..!

ثم هي ، فوق ما وصفنا من خبرها ، تكون دائماً واسطة انتظام حلقاتهم الاجتماعيـة ، وحافزاً طيباً (لشد اخبارهم [1]) كلها ، وأينما حطوا (عِـدتها) وغلى مغرجها (ابريقها) ، وصُفّت كؤوسها ..

مقارنة بين وصفنا ووصفهم لها

ومن المفيد الطريف ، ان نقارن في هذا المقام بـين وصفنا – في المشرق – للأتاي (الشاي) ووصفهم لها ، لأن المقارنة في موضوع بعينه تتيح للقارىء ولاستاذ الادب الدراسي ، فرصة الاطلاع على أطرف مناظرة شعرية بين ادبنا في المشرق ، وأدبهم في موريتانيا، وبين الصورة التي ترسمها مخيلة شاعر هنا ، والصورة التي ترسمها مخيلة شاعر هناك لمشهد بعينه .. وقد اخترت لهذه المقارنة الطريفة قصيدتين من أجمل ما نظم في موضوع الشاي عندنا وعندهم . الاولى – وتمثـل المشرق – للشاعر احمد الصافي النجفي ، والثانية – وتمثل موريتانيا – للشاعر محمد ابن الشيخ حبيب الله المعروف بـ« محمد لحبيب » وهذه قصيدة الصافي :

---

١ – شد الاخبار عندهم ، كناية عن السمر والحديث المشترك .

لئن كان غيري بالمدامة مولعاً ... فقد ولعت نفسي بشايٍ معطَّر
اذا صُبَّ في كاس الزجاج حسبته ... مذاب عقيق صُبَّ في كاسِ جوهر !
به أحتسي شهداً، وراحاً ، وسكَّراً ... وانشق منه عبق مسك وعنبر ..
يغيب شعور المرء في أكؤس الطلى ... ويصحو بكاس الشاي عقل المفكر !
يجدّ سرور المرء من غير نشوة ... فأحبِبْ به من منعشٍ غير مسكر ..
خلا من صداع ، أو نزيف كأنهُ ... سلافة اهل الخلد ، أو ماء كوثر ..
فمنه اصطباحي ، واغتباقي ، ولذتي ... ومنه شفائي من عناء مكدّر !
كأني اذا ما اسفر الصبح ، ميتٌ ... وان ارتشف كأساً من الشاي أُحشَر !
فلله أرض الصين اذ أنبتت لنا ... ألذّ نباتٍ ، بالمسرة مثمر
لو ان ابن هاني فاز منه بجرعة ... لراح بأقداحٍ ابنة الكرم يزدري ..
ولو ذاقه الاعشى وحُكِّم في الطلى ... وفيه ، لقال الفضل للمتأخر .!
فللفم أحلى مشرب من مذاقه ... وللعين من مرآه اجمل منظر
عجبت له ، يكوي اللسان حرارة ... ويطفيء نيران الحشا المتسعر !
لقد نال من طبع الحياة حرارة ... فان يسرِ في ميت من الناس يُنشَر
اذا فار ما بين السماور[1] ماؤه ... سمعت له انغام ناي ومزهر
فأشرب مرتاحاً على نغماتـه ... كؤوساً ، وما نُقلي له غير سُكَّر
كأن به صباً ينوح ، وقد ذكى ... لهيب الهوى منه بقلب مسعّر
فيسكت ان تخمد به نار حبّه ... وان تذك فيه لوعة الشوق يزفر
وان بلغت نار الهوى فيه حدها ... بكى لوعة في دمعه المتحدّر ..
كأن به بركان « ويزوف » ثاقبٌ ... فان ثار ، يقذف بالشرار ويمطر
كأن بـه نار الغرام تمثلت ... لدى العين يخشى قربها كل مبصر !

١ – السماور : جهاز من نحاس خاص باعداد الشاي،صنع بلاد العجم ، يوضع فيه الماء والنار – في جوفه – بطريقة فنية بحيث تسخن الماء حتى الغليان دون ان تنطفيء النار.. وله ينبوعة (حنفية) صغيرة لصب الماء المغلي في الابريق (المغرج) . والسماور عندنا معروف ، ولكن هـذا الشرح للموريتانيين ..

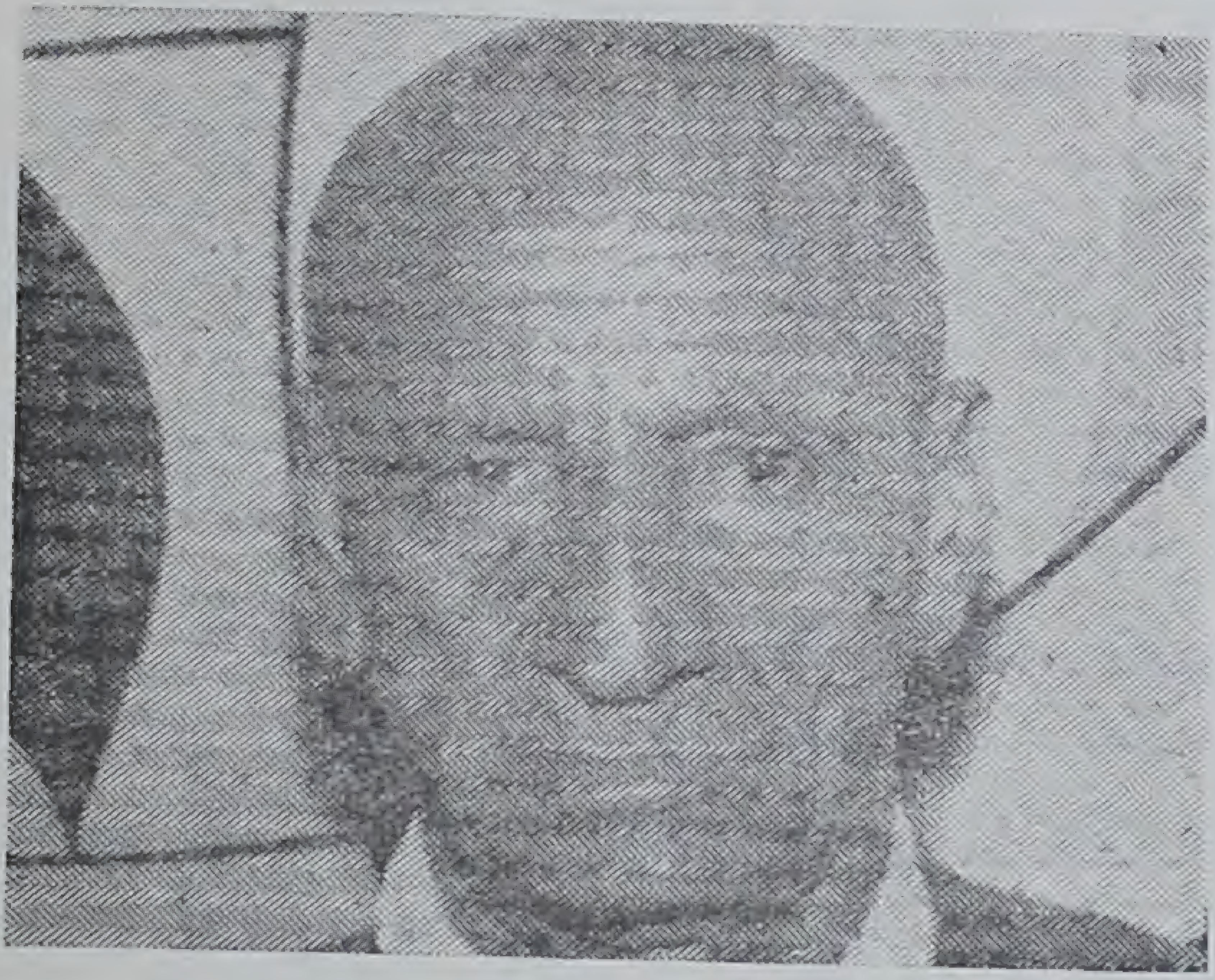

أحدث صورة لشاعر الشرق والعرب الأكبر أحمد الصافي النجفي، اقتصرت على اظهار جمجمته وصفحة وجهه اللتين يقرأ فيهما النظر الثاقب الشيء الكثير عن شاعرية الشاعر الفيلسوف، وعمق نظرته الى الحياة — المعنى الذي يجعل من الصورة بحد ذاتها قصيدة بليغة بدون كلمات !

ويبلغ الشاعر الصافي الآن من العمر السابعة والستين بدليل قوله في صيف العام الماضي :

ضمَمْتُ على الخمس والستين لي سنةً — نطقتها ، وكأني أجرع الصّابا !
روّضت في سنة نفسي على سنة — مرّت ، وأبدأ ترويضاً واتعابا ..
يُقرّ شيبي بهذا السن ، معترفاً — لكن روح الصبا في مهجتي تابى ..
ستٌ وستون ، أعيى ان أفوه بها — لو لم يكن فيّ قول الصدق غلاّبا !

تمـد بأفلاذ الزنوج [1] اذا خبت فتحكي جحيم الزنج في يوم محشر..
فثم تخـال الفحم افلاذ مهجة من الليـل تلقى في نهار منوّر
فان ضاق صدراً عن تأجج شوقه تأوه في انفاس مـاء مبخّر !
لئن يمتلك يوماً جناحـاً يطرْ به الى حيث مَن يهوى، وبالوصل يظفر
كأن كؤوس الشاي بضع نواسك تحيط بمعبود من التبر أصفر
وتفتح فاها بالدعا، فيجودهـا بذَوب لُجينٍ، أو بدّرٍ مقطّر
واحسبهـا حول (السماور) تارة بنـات مجوس قد احطن بمجمر
وتحكي لنا ما بين بيضٍ صحونها تماثيـل درٍ في معـابد مرمر
وابريقـه فوق السماور مرتقٍ كمثل خطيب جالس فوق منبر
يفـوه .. ولكن في عقيق مقطرٍ وينطق، لكن في كلام مصوَّر ..
(سماوره) يبدو كشيخ معممٍ من الصين، يزهو في رداء معصفَر . !
اذا ساق همُّ الدهر نحويَ جيشَه الاقيه من اقداح شاي بعسكر ..
فخذ احتسي جاماً، وأرشف ثانيـا يفر الأسى مني بجيش مبعثر ..
فاشرب كأس النصر جذلان ناعماً وازهو وقد أدركت عز المظفر !
فلله كـاسات لنصريَ اسرعت ومن ينتصر في اكؤس الشاي ينصر !
كأن به معنى السعادة كامن فلو يشترى بالنفس ما ليم مشتر !
لئن انقص العمر الثمين اعتيـاده فأي حيـاة دونه لمعمّر ؟

وهذه قصيدة الشاعر الموريتاني محمد بن الشيخ حبيب الله :

شربت كؤوس الشاه [2]، بعد غلاها وخالفت فيها من يروم علاهـا
وجنّبت منها ما رأيت له قذى وما كنت أرضى ان اكون قذاها
شراها [3] اذى بعد الغلاء، واني تحملت من بعد الغلاء اذاهـا

---

١ كناية عن حبات الفحم .

٢ – يستعملون الهاء بدل الياء في الشاي، فيقولون الشاه .

٣ – يقصد «شراؤها»، والتخفيف لضرورة الوزن، والمعنى يفيد انالشاعر اشتراهاغالية من السوق السوداء، فلحقه من ذلك أذى مادي ظاهر ..

مشهد آخر (لتعديل) الأتاي : أحد الجالسين في إحدى يديه قبضة من السكر (الحب)وفي الثانية يضع بعض ذرات من الشاي في الابريق وأمامه طقم كامل من الكاسات المضلعة(عددها٨) الخاصة بشرب الشاي .

شربت كؤوساً ، طالما كنت مغرماً بها ، مستهام القلب حين أراهـا
اضعت تليد المال فيها ، وانمـا أديم شِراها حين عز شراهـا
تركت عليها بعض ما كنت اقتني من الشهوات المرتضات سواهـا
كؤوس بها قُوتُ النفوس ، وانما شفاء ظِما النفس مَصّ ظماهـا
علي بها حمراء لونٍ ، كأنهـا سماء عقيق ، والنجوم حصاها .!
وقام اليها فيه صاحب ضيعة فاغرسها في متنها ، وسقاها
وراقبها ، حتى تنمق زهرها وَنَمّ على واشي الانوف شذاها
وامست ثنايا النَّور عن برد الندى ضواحك منها حيث طاب جناها
جناها ، وادنى « الكيص [1] » منه وفكّه واودعها فيه ، وشد غطاها
وخطّ عليها اسطراً عربية ورمزاً ، مبيناً عتقها وذكاها
حجيجية [2] تروي احاديث عتقها عن السند المنقول حيث رواها
تفوح اذا ما شللوها [3] كأنها رياض من الريحان غِبّ سماها
وتغشي حمياها الندامى ، كأن في مفاصلهم ناراً تشب لظاها !
فما انا في ترشافها غير مغرم يضم الى حُوّ [4] الشفاه شفاها
وان نفذت ، ذي اختها بنت امها وبنت ابيها لن يكون اباها ..

---

١ – الكيص – بالصاد – بلغتهم المحلية الحسانية تعني الـ **caisse** بالفرنسية ، أي الصندوق الذي يوضب به الشاي توضيباً محكماً .وهم لا يرون بأساً من استعمال بعض الالفاظ والاسماء الاعجمية – الفرنسية – دون تحوير وتعريب .. مع انه ما من لفظة أجنبية أو اسم أو كنية ، الا ولها بالعربية مدلول فصيح ، ولكنهم قلما يحاولون !

٢ – نسبة إلى تاجر مغربي كان مختصاً باستيرادها يدعى احمد حجيج .

٣ – شلل الشاي : صبه في الكاس (زرزبة) من علو مرتفع على هيئة الشلال..ثم اعاده للابريق ثانية ، وهكذا يفعل مرتين أو ثلاث . وهي طريقة خاصة (فنية)في صب الشاي (وتعليله) عندهم ، بل هي طريقة اختبار لما يفوح من رائحته الزكية ، وحسن نكهته وجودته .

٤ – حو الشفاه : – بضم الحاء وتشديد الواو – : هو خضاب اسود تجعله المرأة عندهم على شفتيها تجملا كما تضع المرأة عندنا أحمر الشفاه ..

لدى حافظ [1] يقضي لمن شاء نحبه　　اذا شاء أو شاء الإله قضاها
علامتها في (كيصها) رقم اربع [2]　　وصورة (مغراج) بروق سناها
هما هي الا منية النفس ، ينتفي　　عن النفس منها كربها وعناها
وحيث تمارى الناس فيها ، فهذه　　شهود عليها شاهدون علاها

ليس القصد من عرضي هاتين القصيدتين وضعهما في الميزان ، فأن قصيدة الصافي — المشرقية — اجمل بلا مراء . ولكن القصد توارد العديد من خواطر شاعرين عربيين — مشرقي وموريتاني — حول أشواق بالذات يتعاوران على ادائها وتصويرها كل بحسب خياله وثقافته وطريقتـه في عرض الجمال الادبي .. وانت في هذا العرض أو المقارنة ، تستطيع ان تستمتع بجمال الصور الذهنية المتشابهة روحاً واحساساً ، وأنت مع ذلك متأكد ان أحداً من الشاعرين لم يأخذ عن الآخر ولا تأثر به .. وفارق التفوق الابداعي في القصيدة الرائية هو فارق جودة « الاخراج الفني » أو الصناعة الشعرية ، لأن صاحبها ذو فكر حضاري مدني عريق بمعرفة اصول الصناعة والذوق والجمال الادبي ، فتكلم عن الموضوع بصورة عمومية ، وزينه في عيون الناظرين والمتذوقين بأحسن زينة ، بينما الشاعر الموريتاني ، وهو ابن بادية ، لم تصقل ذوقه البيئة بالقدر اللازم ،وليس له إلا ما تمنحه الصحراء من مواهب فطرية ، فقد تكلم عن الموضوع بصورة تفصيلية ، أو بعبارة اخـرى على صورة (تقرير شعري) ، فحدثنا عن أنواع الشاي ، ونبهنا الى ان منه الجيد ومنه الرديء ، كما حدثنا عن غلائه المادي ، وعمن اشتراه منه كأنما يرشدنا الى (عنوان) وجوده ، وحتى عن (الماركة المسجلة) التي عليه وهي رقم ٤ ،وصورة

١ — تاجر موريتاني من كبار اثرياء الحرب يدعى حافظ ولد الوداع ، كان مشهوراً بالمتاجرة بجميع اصناف الشاي الاخضر والاحمر والاسود من كل جيد ورديء . وكان مركز تجارته في بودور (السنغال) حيث كنت انا .

٢ — أي صندوقها الذي كانت علامته (الماركة) العدد ٤ وصورة (المغراج) أي ابريق الشاي .

المغرج، من قبيل تحذيرنا من وقوع الغش، فعلُ التاجر .. ولكنه على كل حال اجاد التصوير وأجاد (التقرير) عن الشاي ..

على ان هناك ظاهرة جديرة بالذكر والتأمل ، احب ان أشير اليها في معرض المقارنة اشارة منفصلة ، وهي ان الشاي مشروب العربي — المسلم — المفضل في كل مكان ، وعند كل بيئة عربية ، مما يدل على ان العرب أكثر شعوب الأرض استهلاكاً لهذه المادة الصينية ، بل حتى من الصينيين أنفسهم .

وهذا شاعر آخر ، هو سيدي محمد بن الشيخ احمديّ — بتشديد الياء بالفتح — يصف لنا كؤوس الاتايا البلورية الصافية ، فيقول :

وكؤوسٍ ، كأنما جمعوها من هباء ، او جمدت من هواء!
قد اديرت وسط النديّ علينا وهي دائي ، ومن لماها دوائي

وله أيضاً هذه القطعة التي يصف بها آداب شرب الاتايا :

وصينية شهباء ، دارت كؤوسها على فتية شم الانوف اماجد
يجيء بها من صينها كل صائنٍ لها بصوان من رصاص وكاغد [1]
مخافة ان تسري بها الريح موهناً فتنقص من معنى بشهباء واكد
يؤم بها في (الغرب) سوق رواجها بطنجة ، اذ يرتادها كل رائد
فيصبح منها بعد يوم وليلة سليباً قرير العين بين المشاهد
تخيرتها للضيف عند نزوله بأنفس مال ، من طريف وتالد
ثمانية اعدادهم ، قذفت بهم إليّ الفيافي وامتحان الشدائد
ودوخة رأس لا يرام عناؤها وقسمة رزق لا تذاد بذائد

---

١ — انه يصف في هذا البيت عملية تغليفها في صندوقها (الامبلاج) اذ تأتي ملفوفة بورق رصاصي — جلاتين — بالاضافة إلى الورق الابيض العادي (الكاغد) ، وفي البيت الذي يليه يصف متانة الصندوق الذي يشبهه بالتابوت المجلد ...

هذه صورة تاريخية لجلسة شاي في سان لويس تعود إلى سنة ١٩٤٥ تجمع بين المؤلف (الجالس على الكرسي إلى اليمين) والشعراء البيضان : محمد عبد الرحمن، المختار الحامد (في الوسط)، ومحمد المامي.

أدرت عليهم مرة بعد مرة الى مرة اخرى ادارة ماجـد
فقلت لهم بعد الثلاث ازيدكم ؟ فقالوا نعم .. لكنني غير زائد ..
ولكن تأتوا لي انيـا [1] ازدكم موائد بنج [2] يا لها من موائد !

في هذه القطعة أمور للشرح والايضاح : ان الشاعر بعد ان وصف حرص التجار المصدرين للاتايا، بجعلها في صندوق محكم الاقفال (تابوت منيع مجلد) لا يتسرب منه اليها الهواء ويذهب بعطرها وذكائها المخزون ، مشيراً الى بلد المصدر — طنجة — التي كانت منطقة دولية حرة « يرتادها كل رائد » .. عمد الى وصف آداب شربها، وبأنها عندهم أحسن ما يختار لاكرام الضيف من شراب .. واما البيت (ثمانية اعدادهم الخ ..) فهو يعني ان عدد الكؤوس عندهم (الطقم) هو ثمانية ، وغالباً ما يكون من الزجاج (المضلع) .. وان الانسان منهم اذا قعد عن شربها بعض النهار احس بدوخة في رأسه تلازمه حتى يشربها ..

ومن آدابهم ان تدار عليهم ثلاث مرات متتالية — كما عندنا — وما زاد ، فهو من قبيل الكرم والاريحية الفائضين عن العادة ..

وأجود أنواع الشاي عندهم ما يسمونه (المفتول الاخضر) . وأما رديئه الذي يتواصون بعدم شربه ، فهو « الاحمر » . قال داود بن علي بن جبريل التوكلوري من بوصيا — محافظة ماتام — السنغال :

عليك من « المفتول » بالأخضر الذي الفت ، ولا تعبأ بناه وزاجر
واياك و « الحمراء » لا تشربنها اذا وجد « المفتول » في بيت تاجر ..

وجملة القول ، ان الاتايا عند « البيضان » في موريتانيا ، كالخمر

---

١ — الأني ، بضم الهمزة وفتح النون المخففة وتشديد الياء : توقيت عندهم لشرب الاتايا ، مشتق من « آناء الليل واطراف النهار » ، أي انهم يشربونها في اجزاء متقطعة معينة من الزمانين ..
٢ — نبات يذهب الحس . والمقصود به الاتايا على سبيل المجاز !

عند أبي نواس ، قلما عرفوا حالة من حالاتها ، أو صفة من صفاتها إلا ووصفوها ..

آدابهم في التهذيب والحياة الاشتراكية

للبيضان آداب في التهذيب رفيعة وطريفة ، تليق بأن يحذى حذوها في أوساط الطلبة عندنا وعند أرقى البلدان ، لأنها ترتكز على قاعـدة اخلاقية رادعة أكثر من اساوب العنف والشدة . وتتلخص هذه الطريقة التأديبية في انه اذا بلغ الشيخ — الاستاذ — ان أحد التلاميذ أساء الكلام أو التصرف ، فأنه يعاتبه برفق بأن لا يلتفت اليه اياماً حتى يعلم التلميذ ذلك من حاله . وكان العلامة محمد فال بن احمد فال التندغي تجتمـع عنده الطلبة من الزوايا ومن قومه،فاذا بلغه عن أحدهم قول لا يليق ، تركهم حتى يتجمعوا في حضرته ، فيقول :

وقول ما لا ينبغي ، لا ينبغي « لتندغي » ، ولا لغير تندغي !

فيستشعر القائل المسيء من نفسه الخجل ويستسمح شيخه بعد ذلك على انفراد .. وهي طريقة التلميح المهذب ، وأحسن بها من طريقة !

اشتراكيتهم ..

ومن الطلاب من يتغرّب في طلب العلم ،لأن مشاغل البيت والضيافة والنظر في الشؤون الخاصة والعامة ، لا تسمح له بالتحصيل الا اذا كان من المقيمين الموسرين .

وقد يجتمع عدة طلاب عند شيخ ، أيّ شيخ ، ويكوّنون « شلة »

ذات حياة اشتراكية .. فيأتون بثلاث أو اربع بقرات او نياق حلوب (حلابات) فيحلبونها في (قدر) ويتحلّقون حولها ، فيحسو كل واحد حسوة ويعطي الآخر ، وهكذا ..

وقد يتناوبون رعي مواشيهم ، فيخرج أحدهم اليوم يرعى الابل آخذاً كتابه او (لوحه) معه . ويظل يقرأ ، ثم يخرج غيره بعده وهكذا ، حتى يدور ذلك عليهم ..

واذا كان الطلبة أصحاب بقر ، يتناوبون الورود على المنهل لسقيها ، لأن البقر يشرب كل يوم ، بخلاف الابل ، فانهم يعطشونها اياماً ، واحياناً شهراً أو شهرين اذا كانت الارض مخصبة .

أما ما يسكنونه من الامكنة ، فيصدق عليهم فيها قول أحد شعرائهم :

تلاميذ شتى ، ألّف الدهر بينهم لهم همم قصوى ، أجلّ من الدهر !
يبيتون ، لا قنّ لديهم — سوى الهوى — ولا من سرير غير أربدةٍ غُبر !

وتالله ما عرفت الاشتراكية الصحيحة التي يتشدق بها دعاة هذا العصر ، اشتراكية مثالية ، كاشتراكية اولئك التلاميذ البيضان الذين يتشقون في طلب العلم كل ذلك الشقاء وهم لا يحزنون !

مُقارنة بيْنَ الشعر اللبْناني وَالشعْرِ المورِيتاني

لا أقصد بالمقارنة وضع المقاييس العلمية والفنية بيننا وبينهم ، والنظر بعد ذلك في كفة الرجحان .. وقد قدمت القول على ان القوم متخلفون من حيث « الصنيع الفني » والعمل الحضاري عن بعض البلدان العربية كلبنان والعراق والعربية المتحدة . وانما قصدت بالمقارنة وضع صُورتين – موريتانية ولبنانية – لموضوع واحد بالذات ، بحيث تظهر للقارىء العادي بَلْه المثقف ، فوارق التناول في الطريقة والاساوب ، والانطباعات الذهنية على مشهد واحد ..

لقد قدمت شاهداً عالياً – قصيدة الصافي– لا تجوز فيه المقارنة بينـه وبين أي شعر موريتاني أو غيره، فشاعر كبير كالصافي لا يعتبر شعره مقياساً للتفوق عند سواه من اللبنانيين والمشارقة على الموريتانيين ، فليس كل الشعراء احمد الصافي .. ولكن الشعراء الموريتـانيين شعراء مجيدون ومتفوقون نسبياً بالنسبة لكثير من شعراء المشرق ..

بعد هذا التفنيد لا اخشى ان اضع نفسي بين الشعراء الصغـار في لبنان والمشرق ، فأنا الى حد ما ، شاعر « بيئة فلاحين » جبلية،هي جبل عامل التي تشبه حياتها القروية من وجوه عديدة حياة البيئة الموريتانية، لذلك غلب على معظم شعري ، وخاصة شعر الصبا ، طابـع الصورة

المحلية التي لا يتذوق جمالها ويدرك محاسنهـا إلا من عرف بيئتي حق المعرفة ، كما هي الحال مثلاً مع أي شاعر موريتاني لم ينطلق من افقه المحلي .

لذلك اخترت نفسي في بعض شواهد هذه المقارنة العابرة ، بينهـا وبين شاعر موريتاني هو المختار الحامد ، فأن نشأته الادبية — العصامية — هي أخت نشأتي عيناً من حيث الظروف والتكوين ، واطلالته على الحياة النورانية هي نفس اطلالتي ..

التقينا مرة — مصادفة — على تصوير موضوع بالذات يعتبر بالنسبة لي وله « تجديداً » ،لانه خارج عن الطابع المحلي الذي ألفه كل منا ، أو الذي لم يستطع افقه ان يحد أبعد منه .. غير انه واني ، كنا «نحاول» دائماً الخروج من محيطنا والتطلع الى أبعد .. وبدافع هذه الرغبة العصامية نظم يوماً قصيدة في « القطار » ونظمت انا في نفس الموضوع [1] فقال هو :

يا راكباً يطوي القطارُ به الفلا ... يتتبع القارات قارا قارا
قد بت منه على وثوق انه ... بادكار سوف يزيرك الاوكارا
فغدوت مختالاً اليه مبادرا ... كي لا يفوتك وقته المختارا
فأممت في امم يضيق بها الفضا ... دار المحطة قد أغصّوا الدارا
فاجيز وُرّاد المحطة كلهم ... صوب القطار فاصدروا اصدارا
فادّاركوا فيه ،فعاد القهقرى ... فتنفس الصعدا فخار خوارا
فتصاعدت زفراته فتأججت ... احشاؤه ناراً ففر فرارا
فكأنه رأدَ الضحى رعدُ الضحى ... طارت بمزنته الجنوب مطارا
وكان (كاوة) سيرت هضباتها ... فجرت وجرّت هضب (شاووشارا)

١ — كان ذلك من نحو ٢٥ سنة .

وكان سيلاً جارياً في مدفع — وكان جيشاً جحفلا جرارا
وكان زلزلة ووقع صواعق — وكان بحراً مزبداً تيارا
وكان شولاً، ولُهاً وكأنما — قرم يُهدّر خلفها تهدارا
وكأنه بالليل فجر طالع — وكانه الليل البهيم نهارا!
وكانما أمم الجراد دخانه — وعواصف الابار هجن غبارا
ما زال ينفخ عند كل محطة — في صوره اعذاراً، وقلْ انذارا
فترى الخلائق مهطعين لصوبه — تترى، ترى الاشفاع والاوتارا
يلقي بكل محطة مما به — قدراً، ويحمل مثله مقدارا
حتى ازارهم (دكار) عشية — وليحمدن مزاره من زارا
بلغ تحيتنا (دكار) ولا تذر — من اهله ودياره ديارا

وقلت انا :

ألا ودّعْ، فقد صفر القطارُ — وبانت عن نواظرنا الديار
فما في القلب غير سعير شوق — وما في الفكر إلا الاذكار!
هما في كل آونــة وارض — رفيقانا اذا شط المزار!
وهل بعد النوى، والحب الا — هما، ام هل خبا لهما اوار؟
فأي صبابة عاشت، وأبقت — على كبد، وأي حشى تُجار؟
وأي نوى تُصان من الرزايـا — ويؤمَن في نواحيها العثار؟
ذر الجمرات تحلم في حشانا — فقد قرّت، وطاب لها القرار!
غنينا بالعواطف في هوانا — هي السلوى لنا، وهي اليسار
اذا استعرت، فقل تلف المعنى — وان غنت فقل اين الهزار؟
حنيني في صميمي ذو جناح — يرفرف في ضلوعي وهو نار!
نجوم الليل وهي معلّقــات — يطير من الحنين لها شرار
وعين الشمس، وهي تغيب عنا — يبين من الفراق بها احمرار
كوجه البدر اذ يعروه كسف — اذا احتجبت، ويسفعه انكسار

فيرمز للشقاء ، وتلك حال ... اليها بالبنان غدا يُشار !

ومنها وهي طويلة :

يصد العين أفقٌ مكفهرٌ ... اذا سبحت ، ويحجبها ستار
عيون الهاجرين لها دليلٌ ... وعرّافٌ ينبيء لا يحار
فما كذب الفؤاد اذا تنبا ... ولا ضل اليقين الاختبار
لدينا يا رفيق نوىً وحبٌ ... فخذ ما تشتهي ولك الخيار..
تبرأ من هوىً لا نار فيه ... فذاك هوى كذوب مستعار!
تمهلْ يا قطار! ضللت قصدي ... فما من ههنا الاحباب ساروا!
مشيت على (الرفائز) فيك علّي ... أرى احداً ، فقهقهت القفار!
وفتشت المقاعد فيك طراً ... وعدت ، يلاطف الالمَ الوقار
وما نفع الوقار إزاء حزن ... يهدده من القلب انفجار ؟
عذلت مشاعري ، وعذرت دمعي ... له في العين فيض وانحدار
لسان الحزن ينطق في صموت ... وينشد في نياحته الكنار
كأن على حدود الروح منه ... شياطيناً اذا ابتهجت اغاروا!
لقد شهد القطار أسى وداعٍ ... فلم يخطر له إلا الفرار !
ترفّق يا بعاد بقاب امٍّ ... وهيفاء براها الانتظار
لتلك وهذه ، داران : دارٌ ... بقلبي ، اختها في الشمس دار
فأنىّ سرت كان القلب بعضي ... وانّى كنت للشمس انتشار !

وهكذا اخذ هو الموضوع من ناحيته « المادية » فصوره « بصماً » وأخذته انا من الناحية « الروحية » ، فصورته تخيلات واشواقاً .. ولا ريب في ان ذلك يرجع — عندي — الى عنصر الحنين كأنسان مهاجر طري الذكريات !

والتقينا مرة اخرى في موضوع آخر بعنوان « البريد الجوي » وكان

المقصود فيه وصف الطائرة ، فقال المختار الحامد :

خفقان قلب العاشق الولهان ما منذ آن تسمع الاذنان
أم هو زلزال بعيد مؤذن بالخسف في ناء في البلدان
ام هو زأر الاسد في اجماتها ام هو صوت تأجج النيران
أم طائر طار الغداة تعلمت منه (الطيابر) حكمة الطيران
برقت به من (تاردانة) بكرة برقية معها مشى في آن
فيكاد يشئوها فينزل قبلها لولا توقفه بكل مكان
فله « بوادي النون » خمس دقائق والدارة البيضاء عشر ثواني
وله لدى « تندوف » وقفةساعة بمنازل الاقيال من (جاكان)
وحنى على (ام القرين) جناحه امات محموم عليه حواني
ومضى مضاء السهم منها حائماً في مثل ما تتحرك العينان
حتى إذا حاذى اطار وكان من (كنوال) مرمىسهم أو سهمان ؟
القى على دار المحطة نظرة من تحته في الامعز الصوان
فدنا رويداً نحوها متدلياً فكأنما يدلي بحبل سواني
حتى اذا اقعى على صفوائها متنزلاً منها على الصفوان
فاذا جرى طلقاً على صم الصفا فكأنه خيل على صفوان
فأثار نقعاً ملء ما بين السما والارض منساباً كما الثعبان
يأوي لظرف مكانه حتى به القى البواني وهو ليس بوان
بين المحطة والحضيض ضحية فكأن بينهما له ابوان
فاذا به بعد التحرك ساكن واذا به بعد التباعد دان
واذا بأخوته رقود حوله مثل الحدوج على ذرى الحيتان
واذا الخلائق محدقون به ، فهم يلقونـه بتحيــة وتهاني
لو كان ينطق ظل مفتخراً على سفن البخار ، وكل ذات دخان !

وقلت انا :

فوق متن السحاب ، والآفاقِ		طار ، فالطرف ضَلّ عند اللحاق
تشرئبّ الاعناق نحو سماه		غير مُجدٍ تطاول الاعناق !
مركب في الفضاء ، فوق ركام الغيم ، يجرى في غير ما اشفاق !
تهلك الغيمة الخفيفة عن ان		تتخطاه في مدى الانطلاق
وكذا تقفل البواصر امــا		حاولت ترتقي الى حيث راق
هو فوق السحاب يسترق السمع		من الارض تحت سبع طباق !
تعرج الروح والملائك فيه		كل يوم الى قصيّ المراقي
يا له من بساط ريح حديث		ما سليمان ، ماحديث البُراق . ؟
ان يغادر مطاره عاد توآً		فلديـه الفراق غير فراق
طار شوقاً ، كأنما حملته		بحنين جوانح المشتاق !
وهوَت فيه من مكان سحيق		وأرَتْه مصارع العشاق !
من أهم الانباء يحمل للناس ،		وفيه رسائل الاشواق
ان في الكاغد الرقيق كلاماً		فوق ما في حشاه من احتراق !
ليت شعري ، مافي رقيق القراطيس		وماذا في تلكم الاوراق ؟
اهي الحرب ؟ أم فرادى الرزايا		أم صكوك التحرير والانعتاق ؟
ارقب العقربَ الذي ينبض الكون		عليه ، كقلبك الخفــاق
وانتظر مهبط الرسول الى		الارض ، قبيل المسا او الاشراق
واقرأ الاسطر الرقيمة ، ليست		غير روح تسيل خلف المآقي !
وجَب القلب خافقاً لنباهــا		رب سم بها مع الترياق !

في هذا الملتقى الثاني تجد الملاحظة الفنية نفسها التي مضت في موضوع القطار ، بين الشاعر الموريتاني والشاعر اللبناني .. فالمختار الحامد هنــا في المطار صور انطباعات عينه وأذنه مع قليل من الخيال الضعيف ، في حين اني انا صورت ، عــدا الناحية الموضوعية المادية البحتة ، الجانب

الانساني مضيفاً اليه الوصف الخيالي لاشواق النفس البشرية وخلجاتها في مثل هذه الحال .. وبذلك كنت على ما اعتقد أقرب الى « التجديد » من الشاعر الموريتاني من غير تواضع ..

وصف الاسفار

ويعتبر الموريتانيون من أشد الشعوب ولعاً بالاسفار وارتياد الامصار ، كأنهم للفنيقيين واللبنانيين اخدان واقران .. فقد ركبوا إلى اقصاها الابل مراكب الصحراء الاولى في بداية الامر ، ثم السكة الحديدية ويسمونها باللفظ الفرنسي (الشمندفير) ، ثم الباخرة عندما عرفوا البحر ، وذكروا كل هذه الاشياء في شعرهم ، وكان حظ الابل منه أوفر الحظوظ ، ولا عجب ، فالابل لا ثالث لها في الدنيا سوى الصحراء والعرب ..

وممن قال في وسائط السفر المذكورة شعراً ، الشيخ سيدي محمد ابن الشيخ سيدي الكبير [1] :

قد رمينا بها الفلا وهي خوص ... لاصقات بطونهـا بالظهور
ومخرنا بها وللنار فيها ... كدخان الحريق لج البحور
وطوينا طي البرود ، فجاجاً ... مثل لون البرود (بشمندفير)
ورفيق لنا اذا نحن سرنا ... او نزلنا ، لطف اللطيف الخبير
ما جفانا على الجفاء ، ولا قصّر في سرنا على التقصير

---

١ – الشيخ سيدي الكبير شخصية دينية كبيرة ، لها زعامتها وتأثيرها في موريتانيا . ولد في أوائل القرن الثالث عشر للهجرة ، وتوفي عام ١٢٨٥ ﻫ وخلفه ابنه الشيخ محمد صاحب هذا الشعر . وللشعراء الموريتانيين المتقدمين منهم والمتأخرين شعر (مدائح ومراث) في الشيخ سيدي وآل الشيخ سيدي لا يتسع لجمعه والاحاطة به وقت ولو طال . ذلك ان من طبائع التاريخ البشري في البيئات المتأخرة ، ان يستحوذ رجال الدين المتصفون « بالاولياء » على عقول الشعب وعواطفه ، إلى درجة التقديس ، وتصبح لهم زعامة قوية تؤهلهم للاشتغال بالسياسة واعلان الحروب على كل من يناوئهم احياناً .

وقال يصف الباخرة :

تری دواخنها من فوقها ظُللاً ... وللنواتي في أرجائها زجَلُ
كأن مصباحها نار على علم ... او كوكب من رجوم الجن مشتعل
الله صاحَبَنا سَفْراً ، وخالفنا ... في اهلنا ، واليه الوجه والامل

باستطاعتك ان تقارن بين هاتين الصورتين الجميلتين — وسيدي محمد هذا أكبر شاعر في موريتانيا بين القدماء والمحدثين على الاطلاق — اقول باستطاعتك ان تقارن بين هاتين الصورتين وبين هذه الصورة التي أقول فيها :

ركبنا في جوار منشآت ... سئمنا بعد مركبها الركوبا
اذا سارت ، فانت بها حبيس ... فما تدري صباحك والغروبا !
لتلك هي التي قد جرّعتنا ... مرارات النوى كوباً فكوبا !
لتلك هي التي عمّرت اروبا ... لعمري ، فاقتنت فلكاً و (طوبا)
لتلك هي التي قد شتتنا ... فعانينا المصاعب والكروبا

أو هذه الصورة الثانية :

تشق عباب اليم ، واليم زاخر ... وتدفع عنها الموج ، والموج لاطم
قفي زودينا يابنة البحر نظرة ... بمن ودّعت هذي الدموع السواجم
وما هالني شيء على الشط مثلما ... بَعُدنا ، وقد ظلت تلوح (المحارم) *

ولد علي بابي

وهذه صورة ثالثة — قصيدة — أصف فيها شعوري واشواقي واشجاني

* الاولى والثانية من ديوان « الانسام » للمؤلف .

- المهجرية - يوم سافرت من باكل الى سليبابي[1] (ولد علبابي) عام ١٩٣٨ ، وأقول* :

و لِدْ علِبابي ، اي خاطرة النوى ألوي عليك ، واي شوق اتبع ؟
شوق الرحيل ، ولم انفّض بعد عن ثوبي غبار السير اذ انا مزمع !
ام شوق حلي والبقاء ، اذ الهوى كالبين لا يعدوك ، بل هو اوقع
ما هالني طول الطريق ، وشقة بعدت ، اليك ولا شواسع تُقطَع
ما ذاك الا ان فيك أحبة لي آثروك فما لغيرك انزع
طوت المسافات الطوال وأدنت الـ ـ ابعاد اشواقي ، وريء المربع
وانا امرؤ ألف التنقل وارتضى ال اسفار ، فهو بها شغوف مولع
من اين للنهر الذي جاورته وقطعت ، يشفي غُلّةً لا تُنقع ؟
هيهات لا يروي الحشا ، ويبل من ظمأ الحشا الا اللقاء الأمتع !
يا جارة الصحراء أي ظلامة أشكو اليك ، وأي شكوى تُسمع ؟
يا جارة الصحراء كم من لوعة هي مثل شمسك في فؤادي تلذع !
قلب يكاد يفرّ من اضلاعه وحشا تكاد من الاسى تتصدع !
لكنني رجل تمرس بالأذى « جلد لريب الدهر لا يتضعضع »
ما زال لي أمل يغررني ، وما انفكّ في بسماتـه أتمتع
ما زال ايماني بنفسي راسخاً كرسوخ طود الشم لا يتزعزع

***

يا جارة الصحراء هل للشمل من بعد التفرق والتشتت مرجع ؟
ما كنت أحسب ان اراك وان أرى غرباك من اهلي ، ويجمع مجمع

---

١ - بلدة موريتانية معروفة تقع في شرق شمالي كوركل ، وتبعد مسافة ٤٠ ك م عن باكل - السنغال . أكثر سكانها من السرخللي والتوكلور ، وتعتبر سليبابي من مهاجرة سيدي محمود .

* ديوان « الانسام » أيضاً .

ما كنت احسب والحوادث حُضَّرٌ ... بصري لنخلتك [1] الرفيعة يرفع

مـــا طول ايام الشقا بأطول ... منها ، تكاد على الغمامة تطلع !

وتبيت كالصحراء تندب عرهـــا ... ندباً تردده الجهـــات الاربع

فكأن فوق عريشها العالي الذرى ... ثكلى ، على ابن لها تتفجع !

ما كنت احسب ان اعود «لباكل» ... بعد السنين الخمس ، وهي تقطع

دارا تركت هناك عـــامرة المنى ... ورجعتها ، فاذا يباب بلقع * !

لما وقفت على حزين طلولهـــا ... كادت تبوح بما اكنّ الادمـــع

ذكرى ! تضيء النار في جنباتها ... حزناً ، ويذكيها البيان الطيع !

الشاعرية مـــا يذوب صبابة ... منهـــا ، ومن ايحائها ما تبدع

يا ايهـــا الخفّاق انك ظالمي ... امساك شجونك،لا وقتك الاضلع !

« ولد علبابي » أي خاطرة النوى ... الوى عليك ، وأي شوق اتبع ؟

يا موطن المستعبَدين وبلدة آل ... مستضعَفين عداك فقر مدقـــع

وفريسة المستكلبين ، ومن همـــز ... تالله منك ، ومن وحوشك أجوع

صور الحياة تمر فيك ثقيلـــة ... مملولة ، والعيش عندك اسفـــع

ومنها :

تلك الليلات الانيسة كن في ... « ولد علبابـي » نهلة لا تشبع ..

قصرت ،فكانت مثل (لا) في لفظها ... وأقلّ من حظي الذي لا ينفع ..

عُذبَت هناك ، ومذ تعجلها النوى ... سقت المرارة ، فهي حوض مترع

يكفيك أهوال الطبيعة عندما ... يأتي الشتا ، والريح هوج زعزع

الله أكبر حين يزعق بوقها ... زعقاً ، وينسد الفضاء الاوسع !!

* * *

---

١ – كان في مدخل سليابي يوم نظمت هذه القصيدة نخلة طويلة عارية الجذع ، تبدو للقادم من مسافة بعيدة كأنها العملاق الطويل وعلى رأسه مظلة منشورة ..

* يتذكر الشاعر – المؤلف – هنا دار السيد خليل شعيتو المعروف بـ (ابو ابراهيم) قرب النهر ، وهي اول دار أقام فيها عندما وصل إلى باكل سنة ١٩٣٨ ، ثم غادرها إلى بودور حيث قضى ما يقرب من خمس سنين عاد في أعقابها إلى داره في باكل فوجدها « يبابا بلقعا » ..

ولدعابابي ، اي خاطرة النوى ألوي عليك ، واي شوق اتبع
سمح الزمان ، وقلت فيك قصيدة انت الختام لها ، وانت المطلع !

تلك مقارنة جزئية عابرة بين شعرنا وشعرهم ، أردنا بها فتح باب « الدراسة الادبية » بين قطر عربي وآخر عند من يهمهم هذا الامر.. ذلك ان مثل هذه المقارنات تساعد الى حد كبير على ابراز الصفات والميزات الادبية الكامنة عند اولئك وهؤلاء ، كما توضح أماكن الضعف والقوة لدى الطرفين ؛ وتهدي الى التي هي أحسن ..

الفصل السادس

الشعراء القدماء

(أخبار ونصوص)

Call No.........   *Date............ ....*

Account No.........

J. & K. UNIVERSITY LIBRARY

This book should be returned on or before the last stamped above. An overdue charges of 6 nP. will be levied for each day. The book is kept beyond that day.

كتاب «الوسيط» وصاحبه

قبل كتاب « موريتانيا الحديثة »[1] لم يكن يوجد في المكتبة العربية، من المحيط الاطلسي حتى الخليج الفارسي كتاب يتحدث عن موريتانيا – شنقيط – ويلم بأخبارها الادبية والعلمية والاجتماعية والقبلية ، سوى كتاب واحد هو « الوسيط في تراجم ادباء شنقيط » لمؤلفه أحمد بن الامين المشهور بالشنقيطي .

وانه لمن المفيد والواجب ان نتحدث عن الكتاب وصاحبه بصورة موسّعة لعلاقته بشعر وشعراء موريتانيا :

ظهر « الوسيط » الى الوجود سنة ١٩١١ ، بفضل همة محمد أمين الخانجي الكتبي وشركاه ، حيث تم طبع الكتاب بالمطبعة الجمالية بحارة الروم ، عطفة التتري[2] ..

يقع الكتاب في ٥٤٢ صفحة . ولكنه على ضخامته وغزارة مادته وقيمته التاريخية ، لا يبلغ المرام عند القارىء أو الباحث المعاصر ، فقد

---

١ – للمؤلف . وهو أول كتاب من نوعه وموضوعه في المشرق يؤلفه مشرقي . صدر هذا الكتاب في ١٥ حزيران عام ١٩٦٠ ، وكان له صدى بعيد وشهرة واسعة لأن موريتانيا كانت في ذلك الوقت قضية دولية وعربية كبيرة .

٢ – هكذا كان عنوان المطبعة سنة صدور الكتاب في ذلك الحين .

طغى فيه الجانب الادبي ، وخصوصاً الشعر ، على النواحي الاخرى الأكثر أهمية (الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والصحيـة الخ ..) التي تعرض لها تعرضاً خاطفاً .

كما ان في الكتاب أحكاماً وتحقيقات ناقصة ، وبعضهـا يحتاج الى تصحيـح ، اوردها المؤلف دون تمحيص او وقوف شخصي على ما يظهـر .

وبالنظر لأهمية الكتاب من الناحية الموضوعية ، وندرة نسخـه في المكتبة العربية ، فقد ادركت احدى المؤسسات الطباعية الحديثة * بحسها التجاري ،شعور الحاجة الى اعادة طبع الكتاب ،فطبعته — طبق الاصل — مرة ثانية سنة ١٩٥٨ ، بعناية فؤاد سيد ، امين المخطوطات بدار الكتب المصرية . ولم تزد عليه سوى مقدمة امين المخطوطات الموجزة ، التي اقتصرت على بيان فضل المؤلف وآثاره .

قدمت القول ، ان المكتبة العربية من المحيط الاطلسي حتى الخليـج الفارسي ، كانت مفتقرة اشد الافتقار ، الى كتاب كالوسيط يحدثنا عن موريتانيا .. اما اليوم ، وبسبب اعتبارات زمنية تقدميـة عديدة ، فقد زال الافتقار ، وزالت الحاجة الى الكتاب الذي بقي منفرداً بنوعه وموضوعه مدة نصف قرن من الزمن . فلقد قام في بلد المؤلف نفسه من نافسه الموضوع والمجهود والغاية وفاقه بمراحل ،يدعى المختار الحامد ، عالم البيضان واديبهم الاكبر في العصر الحاضر ،وهو يلقب هناك بـ « ابن خلدون الثاني » ، وما يزال حياً يرزق ، وسنأتي على ذكره ، ونقدمه مع من نقدم من شعراء موريتانيا ، الى عالمنـا العربـي في المشرق .

* هي مؤسسة الخانجي للنشر في القاهرة ، بالاشتراك مع ناشر هذا الكتاب السيد أحمد عيسى صاحب مكتبة الوحدة العربية بالدار البيضاء ، واحد كبار الناشرين والموزعين اليوم في العالم العربي . وبالمناسبة نرى من الانصاف ان نشير إلى ان السيد عيسى ، هو صاحب الفضل الاول في نشر الكتاب العربي — المشرقي في انحاء افريقيا الشمالية والغربية .

صاحب « الوسيط »

هو احمد بن الامين الشنقيطي . ولد سنة ١٢٨٩ هجرية على الارجح* ونشأ في بلاده ، وتلقى العلم فيها على شيوخها ، ثم قام برحلة في انحاء بلاده درس فيها حالتهـا الاجتماعية ، وتعرف الى مواطنها ، والتقى بعلمائها وادبائها ، وحفظ عنهم بواعية عجيبة معظم ما دونه في كتابه من اشعارهم واخبارهم !

وفي سنة ١٣١٥ هـ بدأ رحلته الى المشرق ، فأدى فريضة الحج سنة ١٣١٧ . والتقى هناك بعلماء مكة والمدينة ، فأخذ عنهم واستفاد منهم ثم خرج من هناك قاصداً بلاد الروسيا ، وخاصة المواطن الاسلاميـة فيها ، وفي سنة ١٣١٩ زار البلاد العربية وعرج على دمشق ، فأقام فيها بضعة شهور .

ويبدو انه دخل القـاهرة سنة ١٣٢٠ ، لأنه طبع كتابه « الدور اللوامع على همع الهوامع » فيها سنة ١٣٢٠ واستقر في القاهرة في ذلك التاريخ ، متصلاً بالاوساط العلمية فيها ، مكباً على الدرس والتصنيف والتحقيق . وكان شديد الاتصال بعلماء مصر في ذلك العصر ، وبخاصة السيد توفيق البكري ، نقيب الاشراف وشيخ الطرق الصوفية . وقام له بشرح كتابه القيم « صهاريج اللؤلؤ » بالاشتراك مع السيد « ابو بكر لطفي المنفلوطي » وأيضاً العلامة المرحوم احمـد تيمور باشا ، صاحب الخزانة التيمورية الشهيرة الحافلة بالمخطوطات والمطبوعات . وهو الذي أمده بنسخة عن القصيدة الميمية المشهورة لحميد بن ثور الهلالي** بعد

---

* انظر معجم المطبوعات لسركيس ص ١١٤٨ — ١١٤٩ ، ومعجم المصنفين لرضا كحالة ، ج ١ ص ١٧١ .

** سنأتي على ذكر هذه القصيدة في أخبار ابن الطلب اليعقوبي . وقد وضع المؤلف دراسة مستقلة لخمس قصائد عربية نادرة منها : ميمية حميد هذا ، ومقصورة ابي صفوان الأسدي ، واليتيمة (قصيدة دعد) ، وقافية العجير بن عبدالله السلولي ، وقصائد اخرى .

ان تطلبها المؤلف في كثير من البلاد التي رحل اليهـا دون جدوى ، وأخيراً وجدها عند المرحوم تيمور باشا وأثبتها في كتابه ، مع معارضتها للشاعر محمد بن الطلب اليعقوبـي .

ومن المعروف ان المؤلف كان على صلة وثيقة ، طول مدة اقامته في مصر ، بالمرحوم السيد امين الخانجي الكتبي الشهير ، وهو الذي هيأ له وسائل التأليف والتحقيق ، ويسر له طبع جميع ما أخرجه من الآثار تقريباً . وذكر انه اعد له سكناً خاصاً ، في بناء المطبعة التي كانت تطبع هذه الكتب ، وهي المطبعة الجمالية ، وكانت بحارة التتري ، داخل حارة الروم ، بشارع الغورية ..

ويمكننا ان نقول – استناداً الى ما ذكر المؤلف – في ثنايا كتابه ، انه كان على فهم تام ومعرفة كبيرة بالعلوم الاصولية والفقهية . كما كانت له دراية بالتعاليم الصوفية . هذا فضلاً عن عاو كعبه في علوم العربية وآدابها ، كما يظهر ذلك جلياً من الجهد العلمي واللغوي الذي بلغه في شرح وتحقيق الكتب التي تولى نشرها من عيون الادب العربي ودواوين الشعراء وأصول اللغـة . ويكفي ان نعلم انه تصدى للعلامة الكبير ، الشيخ محمد محمود بن التلاميد التركزي الشنقيطي في الرد على الحائه في « صرف عمر » برسالة سماها « الدرر في منع عمر » وربما كان لهذه المناقشات العلمية بينهما ، أثر في الترجمة التي وضعها له المؤلف في كتابه ، وقسا عليه فيها في بعض المواضع ، رغم ان هذه الترجمة لابن التلاميد ، تعتبر من أوفى ما كتب عنه ، وعن تاريخ حياته .

آثاره ومصنفاته

تنقسم آثار صاحب الوسيط الى قسمين ، احدهما : الكتب المؤلفة . والآخر : الكتب التي شرحها وعلق عليها . فالكتب المؤلفة هي :

١ — الدرر اللوامع في شرح جمع الجوامع (في العلوم العربية في مجلدين) طبع القاهرة ١٣٢١ .

٢ — الدرر في منع عمر طبع القاهرة ١٣٢١ هـ

٣ — طهارة العرب طبع قازان ١٣٢٦ .

٤ — شرح المعلقات العشر واخبار قائليها طبع مصر ١٣٢٩* .

٥ — الوسيط في تراجم ادباء شنقيط سنة ١٣٢٩ هـ

٦ — درء النبهاني عن حرم سيدي احمد التيجاني طبع مصر سنة ١٣٣٠ هـ

والكتب التي شرحها هي :

١ — ديوان طرفة بن العبد طبع قازان سنة ١٩٠٩ م .

٢ — امالي الزجاجي طبع مصر سنة ١٣٢٤ هـ

٣ — صهاريج اللؤلؤ للسيد توفيق البكري طبع مصر سنة ١٣٢٤ .

٤ — ديوان الشماخ بن ضرار طبع مصر سنة ١٣٢٧ هـ

٥ — ليس في كلام العرب لابن خالويه طبع مصر سنة ١٣٢٧ .

٦ — الاعلام بمثلث الكلام . لابن خالويه طبع مصر سنة ١٣٢٩ .

٧ — تحفة المودود في المقصور والممدود لابن مالك . طبع مصر سنة ١٣٢٩ .

٨ — تصحيح كتاب الاغاني لابي الفرج الاصفهاني (طبع الساسي).

ومن هذا الثبت المشرف لآثار المؤلف نرى انه كان دائب العمل ، وافر الجهد في المدة التي نزل فيها بالقاهرة — وهي عشر سنوات تقريباً — والتي انتهت بوفاته صبيحة يوم الاربعاء ، الثاني عشر من شهر رمضان سنة ١٣٣١ هـ (سنة ١٩١٣ م) .

---

* آخر طبعة موجودة الآن من هذا الكتاب تحمل تاريخ سنة ١٣٥٣ هـ .

غير ان كتاب الوسيط كان أوفر كتبه نصيباً من الشهرة والسيرورة في بلاده وخارجها ، لانه كان الكتاب الوحيد الذي يتحدث عن موريتانيا (شنقيط في ذلك الوقت) ، ليس في المشرق فحسب ، بل في الدنيا .

ولا عجب فأن موريتانيا ظلت حتى الأمس القريب نكرة من نكرات الدنيا ، فما قولك بذاك الوقت (١٩١١) ..!

وظل الوسيط حتى اليوم المصدر الوحيد لكل باحث او مؤلف يهمه معرفة الشعر الموريتاني القديم — ليس القديم جداً على الاقل ..

ان بلاداً لم يكن لها « تاريخ » مكتوب يتداوله الناس ، وليس عندها حتى اليوم ، بَلْه هاتيك الايام مطبعة ولو عتيقة .. كيف يصل الينا شعرها القديم وهو جد غزير في كل زمان ، اي ما قبل الوسيط بنصف قرن على الاقل ، فكيف بأبعد ؟

حتى تاريخ اغترابي الى موريتانيا سنة ١٩٤٤ — ١٩٥٠ كانت وسائل الاطلاع والمعرفة وسائل بدائية : النسخ على القراطيس ، او الالواح الخشبية التي يحملها التلاميذ ..

وكان الكتاب المطبوع ، سواء اكان ديوان شعر ، او كتاباً أو تفسيراً او تاريخاً وغيره « تحفة نادرة » تضطرهم الحاجة الى حفظها بالقيام بنسخها اينما وقعت ..

وعلى هذا ، فان الخدمة التي اداها الوسيط — على علاته ونواقصه ، وافتقاره الى أمور عديدة — لبلاده وآدابها وللغة العربية ، كانت خدمة جليلة لا تقدر بغير الرحمات الدائمة واستنزال أطيب البركات على روح المؤلف !

ان فضل هذا الشنقيطي العظيم في الوسيط وغيره ، فضل لا ينكره

الا كل جاحد او مكابر . فلقد كان التدوين في عصره قاصراً كما قدمنا على النسخ والاستنساخ من خط الى خط ، ومن حافظة الى حافظة .. الامر الذي يستوجب تعـدد الرواة ، والرواة ليسوا كلهم سواسية في المستوى والفهم والذوق . وكلنـا يعلم ماذا يجري في الشعر حين تكثر رواته .. (وما آفة الاشعار الا رواتها) .

فلو لم يحفظ لنا الوسيط هذا القدر اليسير من الشعر الموريتاني، لظل كمية مهملة يفتك بها الاهمال والنسيان والتشتت ، كما فتك بكثير من القيم الادبية والعلمية سواها ..!

لقد حفظ لنا الوسيط شعر ما لا يقل عن خمسين شاعراً من معاصريه — ليس كل شعرهم طبعاً — وغيرهم ممن كانوا قريبين من زمنه، ولكنه على كل حال لم يخرج فيما اعطانا عن أبعد من اوائل القرن التاسع عشر للميلاد في أقصى حد .

وقد حرص فيما رأينا على ان يرضي جميع القبائل الموريتانية المشهورة، اذ روى لشعراء كل قبيلة ما وسعه حفظه في حافظته العجيبة !

فبدأ بشعراء قبيلة ادَوْعلِ ، ثم قبيلة ايدقب ، ثم شعراء بني ديمان (وهؤلاء كثر في كل زمان ومكانٍ) ثم شعراء اولاد الابييري . ثم شعراء ايدابلحسن ، ثم شعراء تندغ ، ثم شعراء مـدلش ، ثم شعراء الحريكات الخ ...

فاذا كان الوسيط ديوان شعراء موريتانيا المتقدمين وحدهم ، فـان كتابي هذا سيكون بلا ريب ديوان « شعراء موريتانيا » القدمـاء والمحدثين .. وان قوله « مـاذا ترك الاول للآخر » سوف لا تنطبق علي في كثير أو قليل ، بل سيكون ردي — عملياً — عليها : « ماذا عند الاول مما عند الآخر » ..؟

والآن اذ ننتقل الى شعراء الوسيط ، نقتصر على من توفرت فيهم عناصر التفوق النسبي في الصفات والحياة، مما يقع في نطاق هدفنا الادبي

من هذا الكتاب ؟

وننبه ، الى انه لا عبرة في وضع الارقام التي رقمنا بها اسماء الشعراء. فالرقم حيث كان ، وبالغاً ما بلغت عدته ، فهو عندي مجرد رقم ترتيبي عددي ، لا رقم رتبة ولا منزلة ، تتخذ لتحديد منزلة الشاعر بين منازل الاقدار .

على اننــا سننوه خلال المرور بكل شاعر بما نرى انه يستحق من تنويه وتقدير وتقييم ، من المتقدمين والمعاصرين .

وبعد ، فلا بد من الاشارة الى أن النواقص الملحوظة في التراجم الادبية ، وخاصة في « تراجم الشعراء » لم يكن منها بد بسبب فقدان الوسائل والسبل المؤدية الى معرفتها حسب اللازم والاصول .

ولعل القارىء المثقف ، وخاصة القارىء الباحث (ابن المهنة) يجد لي العذر الوجيه في تلك النواقص ، وعذري انني اقدم « مؤلفاً » للاطلاع والاستفادة ، وليس « كتاباً مدرسياً » حسب المنهاج الدراسي في وزارة المعارف .. والكمال لله وحده على كل حال :

نصوص من شعرهم

١ – عبدالله بن محمد العلوي

هو عبدالله بن محمد بن عبدالله بن الطالب بن حبيب بن أبيجَ . ينتهي نسبه الى يحيى العلوي ، الجد الجامع لاكثر القبيلة في تلك البلاد ، يعرف بابن رازكة بكاف معقودة [١] وهي امه ، ويعرف ابوه بمحم وجده بالغاظي (بالظاء والغين المعجمتين تصحيف القاضي) ويعرف أيضاً بقاضي البراكنة العالم النحرير ، المقدم على اهل قطره من غير نكير .

وكان مولده في أرض القبلة ، ثم نشأ بها الى ان ترعرع ، فطمحت نفسه الى العلوم ، فاشتغل بها حتى تضلع . وكان ذلك على طريق خرق العادة ، اذ مدة طلبه ، لما نال ليست معتادة . ثم جعل يرجع الى بلده تارة ، والى مسقط رأسه أخرى ثم طمحت نفسه الى الاعتاب السلطانية . وكان ذلك في اقبال الدولة العلوية . فاتصل بالسلطان اسماعيل فحظى عنده ، وكان من خاصته . وكان عبدالله المذكور متفنناً في فنون شتى ، منها : النحو والعربية . والبيان . والمنطق . والفقه . والهندسة . والرياضة .

---

١ – الكاف المعقودة : اصلها قاف ، وتكتب كاف يعلوها ثلاث نقط ، وهكذا في سائر ما يأتي بكاف معقودة .

والتربيع وغير ذلك، ولم نرَ من أخذ عليه شيئاً الا ما قيل عن بعضهم، انه غلطه في فائيته حيث يقول :

قفوت بها الشامي في الفاء موقنا   بأني وانٍ دون ادراكه ضعفا

قال : لان الذي تقدمه في هذا الروي واقتضاه ، هو ابن هانيء الاندلسي وهو مغربي ، فكيف يقول انه شامي ؟ وهذا غير صحيح، لان الشامي الذي يعني ، هو ابو الحسن علي بن احمد الشامي المغربي * وانما لقب ابو الحسن هذا بالشامي،لان جده قدم من الشام على حضرة فاس ، فاشتهرت بنوه بالنسبة الى الشام . وابو الحسن هذا مات بعد الثلاثين والالف ، ويدل عليه ان فائية عبدالله المذكور في مدح نعال النبي (ص) ، كما ان قصيدة ابي الحسن الشامي كذلك . اما فائية ابن هانيء المعروف بمتنبي المغرب ، فأنه مدح بها جعفر بن علي صاحب الزاب.

ولنبدأ بقصيدته التي مدحَ بها نعله (ص) ، ويبدؤها — كعادتهم — بالغزل وهي :

غرام سقى قلبي مدامته صرفا   ولما يقم للعذل عدلاً ولا صرفا
قضى فيه قاضي الحب بالهجر مذ غدى   مريضاً بداء لا يطبُّ ولا يشفى

---

*هذا هو مطلع قصيدة الشامي التي عارضها شاعرنا الموريتاني لجودتها :

دعوا شفة المشتاق من سقمها تشفى   وترشف من أسار ترب الهدى رشفا
وتلثم تمثالا لنعل كريمة   بها الدهر يستسقي الغمام ويستشفى
ولا تصرفوها عن هواها وسؤلها   بعدلكم ، فالعدل يمنعها صرفا
جفتها بكتم الدمع بخلا جفونها   فمن لامها في اللثم فهو لها اجفى
لئن حجبت بالبعد عنهم ، فهذه   مكارمهم ، لم تبق ستراً ولا سجفا

ومنها :

فصفحة هذا الطرس ابدت نعالهم   وصارت له ظرفاً ، فيا حسنها ظرفا
تعالوا نغالي في مديح علائها   فرب غلو لم يعب ربه عرفا

نهاري نهر بين جفني والكرى … وليلي بحرٌ مرسل دونه سجفا
جريح سهام الحب عاث به الهوى … فأبدى الذي ابدى، واخفى الذي اخفى!
توطنت الاشواق سوداء قلبه … فترفعه ظرفاً، وتخفضه ظرفا
يحاول سلواني الاحبة عُذّلي … وهل يجد السلوان من يفقد الإلفا؟
سهرنا فناموا، ثم عابوا جفوننا … لقد صدقونا المُره[1] لا تشبه الوطفا
فحسب المحب الصادق الود قلبه … جفاه بشكواه مرارة ما يخفى
وما ضر اوصال المحب مقوّتا … وجاء وصال الحب إسنا ُتها عجفا
لئن فاتنا عين الحبيب فانما … بآثاره الحسنى اكتفاء من استكفى
فان لم تر النعل الشريفة فانخفض … لتمثالها، واعكف على لثمها عكفا
وقف رائما إشمام ريا عبيرها … حشاشة نفس ودّعت جسمها وقفا

ومنها:

مضى سلفٌ في خدمة النعل صالح … فكن خلَفاً فيما تعاطوه لا خلفا
رأوا تلك في الدنيا الدنية قربة … الى الله في الاخرى مقربة زلفى
ارى الشعراء الهائمين تشببوا … بذكر المحاكي من يحبونه وصفا
يُذيعون ذكر البان والحقف ذي النقى … ويطرون ذات الحشف بالقول والحشفا
فها انا في تمثال نعليك سيدي … مضيت على التحقيق في الوصف كالاشفا
واني وتوصافي بديع حلاهما … كمن هم بالبحرين يفنيهما غرفا
موازي تراب النعل بالتبر سائم … جبال شرورى الشمّ ان تزنَ الزفا
ايا من سقت الفاً ظماء بنانُه … كما وهبت الفا، كما هزمت الفا
يد سميت في فادح الفقر راحة … كما سميت في كفها للعدى كفا!

ومنها:

وشعر بديع لو حوى الفتح شينه … تمنت عذارى الحي وارده الوحفا

---

١ — المره: جمع مرهاء. وهي التي فسدت لترك الكحل. والوطف: جمع وطفاء، مأخوذة من الوطف، وهو كثرة شعر الحاجبين.

فانْ لم يكن حق النبي فزخرف اذا زلزلت للحشر الفيته كهفـــا
قفوت بها الشامي في الفاء موقنا بأنيَ وانْ دون ادراكه ضعفـــا
انا التابع النَّعَّات فيك مؤكدا بيانهم ، أرجو به عندك العطفـــا
تخذتك كهفا دون ما انا خائف فلم اخش في اعقاب حادثة لهفا
فرشني ،ومن راشت يداك جناحـه يكن آمناً ما عاش من دهره النتفا !

وقال ايضاً ملغزاً في قوله تعالى « ثم استخرجها من وعاء اخيه » ويخاطب علماء فاس عموماً ، ويخص العلامة ابن زكري :

شيوخ البيان الذائقين حـــلاوة من العلم لم تطعم لغير ذويه
سلام من الله السلام ورحـمـة يعمّانكم ، من خـــامل ونبيـه
سؤال غريب دون شنقيط ارضـه من البعد تيـهٌ يتصلن بتيـه
اذا شبه الهادي بها وجه مرشد تشابـــه في عينيه وجه متيه
قراه لديكم اهل فـــاس جوابه بنص بيان في البيان وجيـه
سما بكمُ علم البيـــان وحقه اذا ما هوى ظن بمختلجيـه
اسائلكم ما سر اظهار ربنـــا تبارك مجداً « من وعاء اخيه »
فلم يأت عنه منه او من وعائـه لامر دقيق جل ثم يخيـه
فان تلك اسرار المعاني خفية فمرآتهـــا افكار كل نبيه
وانت ابن زكري نبيه محققٌ تفردت في الدنيا بغير شبيه
اذا غصت في بحث حصلت بدرّه وخليت من سفسافه ورديه
بمدك في اتقان عـــلم تبثه قيـاس اصولي ونص فقيـه
وقاك الذي ابداك كالنجم يتّقى به الغيَّ من يبغي الهدى ويعيـه

وقد اجاب على هذا اللغز،محمد بن سعيد اليدالي الديماني ، بقصيدة طويلة ، قال في الذهب ، اقتصرنا منها على محل الفائدة وهو :

سؤال بليغ في البيان نبيه اديب منَ ارباب الهدى وذويه

غليه مدار العصر في العلم سيما … علوم المعاني وهو قطب رحيه
سبوق لدى قيد الشوارد راكب … من الفهم متني لاحق ووجيه
عن السر في اتيان ربي بظاهر … مكان ضمير في وعاء اخيه
معمى قد اعيا اهل فاس وغيرهم … فكنا بحمد الله مفتتحيه
وكلفني نصح البرية فكه … فاعظم بما قد كان كلفنيه
فقلت وبالله الصواب مجاوباً … له بقياس في الاصول وجيه
ولكنه صعب المدارك معسر … على ضعفاء الفهم منتقصيه
فهذا بحمد الله ايضاح لغزه … مساو له في بحره ورويه
فلو قال فرضا ربنا من وعائه … فذالكم بعد التفكر فيه
يؤدي الى عود الضمير ليوسف … فيفسد معناه لمختبريه
لان الضمير في الصناعة عائد … لاقرب مذكور هناك يليه
وان قال منه اختل ايضاً لأنه … يؤدي لعود مضمر لاخيه
فتنزع منه الصاع ، لا من وعائه … وتأنف من ذا نفس كل نزيه..
لما في انتزاع من اذى ومهانة … ولم يرد الرحمن ذا بنبيه
ونص على هذا السيوطي فهاكه … بوجه بياني ونص فقيه
ويعرف هذا الذائقون حلاوة ال … معاني ومن يدري الهدى ويعيه
وفي فضله اجمع شملنا ربنا كما … فعلت بيعقوب النبي وبنيه
وصل على الهادي وسلم واله … واصحابه طراً ومتبعيه
وقائل هذا ابن السعيد محمد … محب النبي المصطفى وسميه

وله في الغزل :

اثار الهوى سجع الحمام المغرّد … وارقني الطيف الذي لم أطرّد
ومسرى نسيم من (أكيْنّاف) حائل … وبرق سقى هاميه برقة ثهمد
وذكر التي بالقلب خيم حبها … والبسني شوقاً علالة مكمد

فبت اقاسي ليلة نابغيّة ... تعرفني هم السليم المسهّد !
طويلة اذيال الدجى دب نجمها ... الى الغرب مشي الحائر المتردد
ويزعج وُرّاد الكرى دون مقلتي ... بُعوث غرام من لدن ام مَعْبد
بنفسي عرقوبية الوعد ما نوت ... وان حلفت قط الوفاء بموعد
ترد الى دين الصبابة والهوى ... فؤاد الحليم الراهب المتعبد !
وتقصد في قتل الاحبة قربة ... بشرعة ديان الهوى المتأكد

وله أيضاً في الشكوى من النفس وهي من روائع الشعر — لاحظ البيت الأخير :

الى الله اشكو طوع نفسي للهوى ... وإسْرافها في غَيِّها وعيوبها
اذا سقتها للصالحات تقعّست ... ودبت على كرهٍ اليها دبيبها
وتشتد نحو الموبقات نشيطة ... اذا فاوقتها الريح فاقت هبوبها
وما هي الا كالفراشة انها ... ترى النار ناراً، ثم تصلى لهيبها !

هذا بعض ما اخترناه من شعره وكان كثير التداول في موريتانيا . اما تاريخ وفاته ، فقد ظل مجهولاً . وكل ما قيل بهذا الشأن لا يتجاوز الكلمات التالية « كان رحمه الله موجوداً في صدر القرن الثاني عشر . »

٢ — حرم بن عبد الجليل العلوي *

هو حرمٌ بن عبد الجليل العلوي ويقال له حرمة الله وحرمة الرحمن ابن الحاج بن سيدي الحسن بن القاضي ، يجتمع فيه مع الذي قبله علامة عصره ، وأعجوبة دهره . جد واجتهد حتى ظفر بمناه ، واقام بمدينة شنقيط وآطار لطلب العلم . وكان ابوه من امثل قبيلته يقطن ارض

* من شعراء القرن الثالث عشر .

القبلة ، فلما تأخرت عنه المؤونة نقلة القادمين ، كتب الى اهله يعرض لهم ، بأن كثرة مالهم لم يحصل منها على طائل في وقت الحاجة اليه فقال :

عليكم سلام مارست شمُّ يذبل ... وما جال ذكر الزاد في قلب مرمل
وما انشرحت نفس امرىء متغرب ... لثوب قشيب ناله بعد مسمل
وبعد فبرقٌ خلَّب متألق ... على البعد لم تمرع به ارض ممحل
ومن لا يغادر ثلمة في المنيل لا ... يسد جداه ثلمة المتنوِّل !

ويحكى عنه من الاجتهاد في طلب العلم ، وتحمل المشاق والصبر ، شيء عجيب . ومن شعره في جواب ابيات لا محمد بن الطلبة اليعقوبي ، يسأله اعارة كتاب التبصرة لابن فرحون .

يا ابن المشايخ والاشياخ اسلافُهْ ... جزاء من يسعف العافين إسعافُهْ
لكن تبصرة الحكام مبخلة ... واؤلؤ وسواد القلب أصدافُه
ومن اعار سواد القلب اتلفه ... لكن يهون علينا فيك إتلافُه

ومن أشهر مشايخه المختار بن بون ، وكان عليه اعتماده من كل طلبته ، ولم يحمل عنه احد من علمه ما حمل ،' وكان يساعده في نظم التسهيل حتى انه قال : لو اخذت ما يخصني لم يبق منه ما يسمى به !

ولما تضلع من ابن بون ، جلس لافادة الناس ، وضربت اليه اكباد الابل ، وانتفع به خلق كثير ، ولم يبلغ أحد من تلامذته مبلغ الشيخ سيدي ومحنض بن سيدي عبدالله الشقروي ، وكانت له اليد الطولى في جميع العلوم . اما النحو فاشتهر به بعد ابن بون . واما الفقه فكان المرجع فيه ايضاً ، ويدل على تفننه قوله ، وقد مر بربع خلا ، كانوا يطلبون العلم فيه على بن بون :

دِ منٌ دعتك الى القريض فان تجب ... فلمثلها يهدى القريض ويندبُ

وإذا سكت عن الجواب لشرة فاضت ، فذاك من الاجابة اصوبُ
اما النسيب فلا يسوغك ذكره عصر التعلم والمشايخ يعـذب
كنا مع البوني في عرصاتهـا هالات بدر لم يشبها غيهـبُ
فيها تجمع سيبويه ويوسف والكـاتبي والاشعري واشهب
شاقتك اطلال بلـين لهم ، ومـا شاقتك سعدى اذ نأتك ، وزينب

ومن عجيب أمره، انه لما كبر اصيب ببصره ، فكان لا يميز الناس ولا الدواب ولكنه يقرأ الكتب ، وقد حدث صاحب الوسيط عنه ، انه كان يكتفي في الليل بضوء قليل يقرأ الكتب عليه ، وهـذا شائع هناك . وله شواهد منها قول العلامة الآتي يرثيه من منظومة :

اغناه نور القلب عن نور البصر يطالع الكتب ولا يرى البشر !

وقال ابن عيد الجكني يخاطبه ويشكو اليه ناساً من اقاربه هجوه :

يا حرمة الله، يا نبراس ذي العُصُر يا من بصيرته اغنت عن البصر !
ماذا تقول لمن أمسى يخاطرني من خاطر البُزل لم يسلم من الخطر

وكان مع علمه وصلاحه يجيد النسيب . ومن بديع قوله :

الى متى تظهر السلوانَ ، والفكرُ تعلو بقلبك احياناً وتنحدرُ
ما أنت اول من افنى تجلـده وصبره دعج العينين والحـور
لو مر أهيف مجدول على حجر صبـا له ان رآه ذلك الحجر
هيف الخصور خدال السوق قد صرعت
قيساً وقيساً وغيلانا وما انتصروا
جرعن عروة كأس الموت قبلهم وقال فيهن ما قد قاله عمر

عراك منذ شهور ما المّ بهم ... ردٌمثل ما وردوا، واصدر كما صدروا
لا يصدر الطرف عن جَيْدا منعمة ... الا امرؤ لم يكن في وجهه بصر!
واجعل سريرك رحلاً فوق يعملة ... من شدة الخطو لا يبدو لها اثر
ساير براحاً عليها كل هاجرة ... وادلج كما تدلج الجوزاءُ والقمر
حتى تؤوّب غزلاناً تسامرها ... يا حبذا تلكم الغزلان، والسمر!
ان شاكلت كل خضرا دمنة زهرا ... يا حبذا الدمن اللاتي بها الخضر
ماذا تضر عروق غير طيبة ... ان طاب للمجتني اثمارها النمر

وقال أيضاً في حرب أهل شنقيط وأهل وادان وهي من غرر الشعر الملحمي:

اذا الدهر بالمكروه سانك فاصبرا ... ولا تجزعن منه أقل أو اكثرا
فما دام شجو لامرىء او مسرة ... أرى الدهر من هذا وهذاك اكثرا
لقد كنت احجو الهجر اكبر فاجع ... فألفيته من أصغر البين اصغرا
أرى البين عن ساقيه أضحى مشمرا ... وشجوك لما شمر البين شمرا
وليس يرد الحزن من شط وليها ... فاقصر عن الاحزان ان كنت مقصرا
تغيرت احوالا كما ان رسمها ... وحق له من بعدها قد تغيرا
غداً رائح الارواح والمغتدى به ... إذاً بدّلا منه اصمّ او اعورا

ومنها:

تقول وقد اضمرت ما بي اترتضي ... هوى لم يزل في مضمر القلب مضمرا
فقلت لها اضحى واصبح أمره ... من الشمس، او من فتح وادان اظهرا
اقر بذاك الفتح من كان منكرا ... له وغدا من كان يخفيه مظهرا
وادلج ادلاجاً به كل راكب ... على رغم انف الحاسدين وهجّرا
فصيّر في الآفاق امر وقائع ... تطيل اذا فكرت فيها التفكرا
دعا عاجل الآجال للحين معشرا ... بوادان، لن يدعى مدى الدهر معشرا

فشنقيط ظنوا هدمه متيسرا ... فألفوه من إحياء «كباد»[1] اعسرا
كأنهم لم يعرفوا بأس أهله ... ولو سألوا بأن ام[2] والمسك اخبرا
لئن وردت شنقيط يوماً ظماؤهم ... لقد شربوا زعقاً من الموت اكدرا
وكان لهم شر الموارد موردا ... وكان لهم شر المصادر مصدرا !
هم حزبوا الاحزاب من كل جانب ... كما حزبت احزابها اهل خيبرا
اتوا بالرعايا ينشرون وعيدهم ... فصاروا على البطحاء لحماً منشرا
وفاض اتي من نجيع دمائهم ... به شجر البطحاء أصبح مثمرا!

ومنها :

غدت (كنت) تقضى دونهم ما ينوبهم ... من الامر كانوا غائبين وحضرا
اتوا بخميس لم نكن خمس خمسه ... فقل فيه لو ساواه او كان اكثرا
واقبل من (آكان) جند لنصرهم ... وقد فر عنه النصر اذ فر مذعرا
فمن كر منهم قد تكسر عمره ... ومن فر منهم صبره قد تكسرا !
نجا مذعراً مما رأت عينه وما ... نجا من نجا من مأزق الحرب مذعرا
اذا هو في المرآة أبصر وجهه ... توهم وجه القرن ما كان ابصرا !
وان نام لو حفته منه عساكر ... رأى مشرفياً فوق فوديه احمرا
بدا اذ رأى ما قد رآه تواضع ... لمن كان منهم طاغياً متكبرا
فقال زعيم القوم أصبحت راضياً ... بما كان في أمر القدير مقدرا
فنالوا اذا عبدا ببعض دمائهم ... زنبا ، وتنورين ، والبعض اهدرا
دم اهدرته سادة علوية ... وما كان فيهم مثل ذلك منكرا
وما استنصروا غير الصوارم ناصرا ... واغنتهم عمن اتى متنصرا

---

١ – كباد : بكاف وباء موحدة مشدودة ودال مكسورة : اسم رجل مات في تلك الحرب .

٢ – بان أم فعل وفاعله في الأصل . إلا ان حق بان ان تؤنث لاسناده إلى مؤنث حقيقي ، لكن الأعلام تحكي كما تسمع ، وهو اسم شخص .

يخوضون يوم الروع في لجج الردى — لأن منـال العز فيهن الحرا
يسابق عزرائيل وقـع سيوفهم — اذا ما محيا الحرب اصبح مسفرا !
فكم مشهد في الحرب يثني عليهم — وكم معشر من بأسهم كان ازورا
تراهم وليس الـدهر الا نوائبا — اذا كبرت تلك النوائب اكبرا
سما للمعـالي من تقدم منهم — ويسمو عـلى آثاره من تأخرا
مآثرهم حليُ الزمان لو أنـه — على صورة الانسان كان مصورا
فكم من فتى منهم يروقك علمه — ويهزم من انجاد (وادان) عسكرا
ويجعل في احدى يديه مهنداً — طريراً ، وفي الاخرى كتاباً مطرراً
يحب الردى يوم الوغى فكأنه — اذا مات فيه ، لا يزال معمّـرا !
بطرفك فانظر كي ترى بعض مجدهم — اذا انت عن ادراكه كنت مقصرا !

وانت لا ترى كيف نزه شعره عن هجو اعدائه مع ظفر قومه .

وله من ابيات يخاطب فيها العلامة بُلاّ بن مكبد الشقروي ، وكان مدحه بقصيدة فأطال غزلها ثم نال من ابن احمد دام :

دع التطويل في ذكر الغواني — ودع عنك البكاء على المغاني
اسن الدهر عن هذا فقصر — عنان الشوق واثن من العنان
فان المرء يحسن في زمان — عليه ما يشنع في زمـان !

٣ — محمد بن سيدي عبدالله العلوي * :

هو محمد بن سيدي عبدالله بن الفغ سيدي أحمد بن محمد بن القاضي المتقدم العاوي . كان وحيداً في العلم والصلاح ، وله اليد الطولى في العربية والفقه والبلاغة وغير ذلك . وكان غاية في جودة الشعر ، ولولا

* من شعراء القرن الثالث عشر للهجرة .

ما هو متصف به من العبادة والاشتغال بطريق الصوفية ، ما اشتهر في قطره احد سواه بالشعر ، ولولا دفاعه عن الصوفية لم ينظم بيتاً واحداً.

وقال سيدي العربي بن السايح ، في كتاب البغية في ترجمة التيجاني ابن باب العلوي : وأخذ الطريقة عن العلامة الاوحد الفاضل الامجد ، ابي عبدالله سيدي محمد المدعو محمد الملقب بالخليفة ، لقيامه بالخلافة في اعطاء الطريق ، بعد وفاة شيخه سيدي محمد الحافظ ، وله خمسة جدود ، كل واحد منهم أعلم اهل زمانه وهم : ابوه سيدي عبدالله ابن سيدي احمد الفغ بن سيدي محمد بن سيدي عبدالله المعروف بالقاضي .

كان معاصراً لشاعر هجاء كبير من شعراء بلاده يدعى « اديبج » وصف بأنه نابغة قطره وجرير عصره هاجى كثيراً من فطاحل شعراء تلك البلاد فظهر عليهم ، حتى لقد بلغ روح التحدي عنده ان هجا الشيخ سيدي احمد التيجاني ومريديه . فما كان من محمد — صاحب الترجمة — الا ان ضربت الحمية في رأسه فشمر للشاعر اديبج وقارعه في هذا الفن مقارعة شديدة ، إلى درجة ان الناس يومئذ انقسموا في الرأي ، فمن قائل انه تكافأ مع اديبج ومن قائل ان محمداً ظهر عليه . ومن قوله في قصيدة :

اديبج اذ صار كالعصفور صال على باز جديد شبا منقاره قرم
او كالضفادع في احشاء ذي زبد نقت ، فصال عليها سالخ الرُّقم

وله من قصيدة :

واني لحسان الطريق واهلها اذود ابا جهل النكير وازجر
(اقيس ذراعاً كلما قاس اصبعاً) اخب اذا يسعى عليهم واحضر

وله ايضاً يسلم على اهل تيشيت :

سلام كعرف الروض غب وكيف والا فنخل آذنت بقطوف

والا فطعم الراح مسك مزاجه يعمكم من طالب وشريف
وكل أخ ليست بتيشيت داره وكل حميم منكم وحليف
سلام محب ليس ينسى ودادكم على حين ينسى الود كل اسيف
أخلّي لجمع الشمل بيني وبينكم بلادي ، واعطى تالدي وطريفي
فكم بك يا تيشيت من ذي بلاغة أديب فصيح في المقال ظريف
يغوص ببحر الشعر يخرج دُرّه بسيط طويل كامل وخفيف
له وافر من حظه متقارب سريع الى الخيرات غير عنيف
له رمل للشاردات يردها بمنسرح للمعضلات كشوف
ويرمي بمجتث الخطوط لظهره له هزج للذكر غير ضعيف
وفارس علم لا يشق غباره وذي خشية عالي المقام عفيف
وذي قلم أزرى بخط ابن مقلة وكان على الحراق أي منيف
وذي شرف من بضعة نبوية موطأ اكناف البيوت ألوف
وذي شرف علما وآخر جامع لدين جسيم المكرمات نحيف
سقى الله مصراً هم به كل ممرع من الودق يغشاه بكل مصيف

ومن جيد نظمه ، قوله يخاطب ابن اخته الشيخ سيدي احمد بن الشيخ محمد الحافظ «ولي الله» يومئذ وكان محمد هذا صغيراً اذ ذاك :

ان السيادة في اثنتين ، فلا تكن يا ابن المشايخ فيهما بالزاهد
حمل المشقة، واحتمال اذى الورى ليس المشمر للعلى كالقاعد
قل للذي طلب العلى بسواهما هيهات تضرب في حديد بارد

وله أيضاً في قصيدة ، يتكلم فيها عن حال سيدنا الشيخ احمد التيجاني رضي الله عنه :

ان لم تعاين فضله وكماله وغدوت منه في محل نازح
طالع لتعرفه شوارد علمه تظفر بنور كالمجرة لائح

واذا تكلم في الحقـائق مرة   بهر العقول كلام عبد صالح

وله أيضاً من قصيدة أخرى :

طالع جواهره واصحب رسائله   وما يبث من الانوار والحِكَم
وما يدل على المولى الكريم، ومـا   أبانه من مقـام الصادق القدم
تجد ولايته لاحت معالمهـا   كما تُرى في الدجى نارٌ على علم
تجد كلاماً جلا عن شأن صاحبه   ان الزمان بمثل الشيخ ذو عُقُم
قد يحجب الله اقوامـاً ويظهره   لآخرين وشتَّ الناس في القِسَم

و « شت » هذه فصيحة ، يقال أمر شت متفرق . قال الطرماح ابن حكيم :

شت شعب الحي بعد التـآم   وسجال الربيع ربع المقـام

وله أيضاً من قصيدة نونية يتشوق بها الى فاس . ويبث ما يكابده من شدة الحنين الى زيارة الشيخ احمد التيجاني على طريقة من سبقه وقال :

وما حب الديار شغفن قلبي   ولكن حب من سكن الديارا !

٤ ــ بابَ بن احمد بيبَ :

هو باب بن أحمد بيب بن عثمان بن سيدي محمد بن عبد الرحمن بن الطالب ، ويقال له الطالب محنَّمْ ، يجتمع فيه مع الذين قبله .

وفي البغية ، لسيدي العربي بن السائح الرباطي في ترجمة التجاني ابن باب المذكور .

واسم والده بابا حسبما تقدم مصرحـاً في النظم . وكان عالماً ناسكاً

فاضلاً ، مشاراً اليه في بلده وجيله ، ملحوظاً بعين التعظيم في معشره وقبيله . ترك من الآثار شرحاً للتحفة العاصمية ، وتكملة التكملة للديباج ، انتهى فيها الى ذكر اهل القرن الثاني عشر ، فترجم الشيخ التـاودي ابن سودة ، والشيخ ابا حفص الفاسي وغيرهما .

كان باب ، رحمه الله ، يناظر العلماء وعمره ثلاث عشرة سنة ، وكان الناس يتعجبون منه ، وكان ابن عمته حرمة الله بن عبد الجليل المتقدم ، يقول اذا زار اخواله (امسكوا عني بأبتكم وعيش ذؤابتكم !) وكان يقول لا تذاكراني بعلمك هذا الفرخ ، والفرخ الولد لغـير رشدة ، فصار الجهال يحملون ذلك على غير معناه ، ويجعلونه طعناً في علم آباء صاحب الترجمة .

وكان اذا القى كلكله على مسألة ، لا يقدر أحد ان يفوقه فيها . واشتد الخلاف بينه وبين حرمة الله في مرجع حبس ، وانضم الى كل واحد منهما طائفة من العلماء ، فمن انضم الى صاحب الترجمة العلامـة محنض بابه بن اعبيـد الديماني . وممن انضم الى حرمة الله ، اديبج الكمليلي .

قال باب من جملة أبيات :

فحجتي وصحابي غير داحضة ... من نص بهرام والتوضيح والكاف
صدقت بالحق لكن من يقله لكم ... يا ديب يوطأ بأخفاف واظلاف
فالحق أمسى فواهفـا ووا اسفا ... مثل الدبار التى يسفى بها السافي
فمالك ان تصف عما يقول فاني ... لست عن قوله يوماً بصياف
اني اوافقـه حقاً واتبعـه ... هل مهتدٍ ناعلٍ كالحائر الحاف ؟

ولاديبج من أبيات يخاطبه فيها هو ومحنض بابه :

فوافقا حُرمَ فيما قـال ويحكما ... فأن شيخكما أدرى بالاوقاف

فحجة الشيخ في بهرام ناهضة لو كان يكفيكما ما كان في الكافي

ومن جيد شعره قصيدته التي أولها :

الوى بصبري لاعج الاشواق ان الاحبة آذنوا بفراقي

الى ان يقول :

يا من يسابقني ويطلب عثرتي اني لعمري سابق السباق
واذا قرنت ابن اللبون وبازلا ملّ القرين ولم يزل بخناق
واذا المسائل احجمت وتمنّعت وأبت مشاكلها على الحُذّاق
اعملت سيف الفكر نحو عويصها فحنت علي خواضع الاعناق
فتبوح لي بسرائر مكتومة حتى عن الاسطار والاوراق !!

ومن جيد شعره قوله معرفاً بأحد اقرانه :

يظن الغمْر ان الكتب تهدى اخافهم لادراك العلوم
ومن يدري الجهول بأن فيها غوامض حيرت عقل الفهيم
اذا رمت العلوم بغير شيخ ضللت عن الصراط المستقيم
وتلتبس الامور عليك حتى تصير اضل من «تُوما الحكيم» ..

وقلما مات أحد ممن يشار اليه من قبيلته الا رثاه . ووقعت بينه وبين اديبج مشاعرة كثيرة ، وكذلك اجدود بن اكتوشن العلوي ، وحرمة الله بن عبد الجليل كما تقدم . وتوفي بسبب سقطة سقطها من فوق جمل ، ثم تطاول مرضه بعدها سنة . وكان ذلك قبل الثمانين من القرن الثالث عشر .

٥ ـ محمد بن محمد العلوي :

هو محمد بن سيدي محمد المتقدم ، برع في عنفوانه في العلوم ،

وصرف همته الى نظم الشعر ، وبلغ صيته في قطره مبلغاً لم يبلغه أحد ممن عاصره ، فاذا قيل : ابن محمد ، خضعت له رقاب الادباء وفطاحل البلغاء ، وانا اسوق عنه بعض ما يبرهن عما ذكرت ، وغطت شهرة شعره على علومه ، مع ان له اليد الطولى في العربية والفقه ، وكان ينظم القصيدة فيقدمها الى العلامة باب بن احمد بيب العلوي ، فينشده اياها فيـأمره بسترها ، فيمتثل امره ثم يعود اليه بغيرها ، حتى قال قصيدته التي رثى بها محمد الدنبج التندغي وهي :

لا عذر للقلب ان يقنى السّلوّ ،ولا للعين ان تبق في آماقها بلـلا

فأنشده اياها فاستحسنها ، وجعل يزحف عن مجلسه استحساناً لها ، وهي في غاية الانسجام . ومنها بعد المطلع :

إن النعيّ بفيه الترب ، فاه بما اسهى واسهر من تبريحه المقلا
رمى القلوب بما لو كان صادفه رضوى ولبنان دهدى منهما القللا !

كان « لبنان » عند الموريتانيين القدامى جبلاً من الجبال الشهيرة مثل « رضوى » في الحجاز ولذلك جمع بينهما في المقارنة .. ومنها :

نعى محمدنا الناعي فقلت له هلا عطفت عليه العلم والعملا !
يا هالكاً وقِسِيّ الموت ما برحت ترى ، واغراض رامي نبلها النبلا
ان تعتبرها قنى ام اللهيم لكم نفست معضلها المرهوب ان نزلا
او سرت عن هذه الدنيا الغداة لقد سارت مزاياك في اقطارها مثلا
نفاد زادك من دنيـاك زودنا حزناً،وان كنت مسروراً به جذلا
ووردك الموت روانا الزعاق وان رواك مورده الصهباء والعسلا !

ومنها يخاطب قومه ، وكانوا يلقبون بحلة اربعين جواداً :

يا اربعين جواداً ، ان حسبكم لطف المهيمن فلترضوا بما فعلا
ولتذكروا الرزء لاضاعت اجوركم بخاتم الرسل تنسوا خاتم الفضلا

ولما نبغ محمد ، طار صيته في ذلك للقطر ، وكان صغير السن يدهش الناس بذلاقته وحدة ذهنه . ولما كان محمد بن الطلب الشاعر المشهور في تلك البلاد موجوداً اذ ذاك ، فاجتمع به يوماً ، فأنشده قصيدته التي يقول فيها :

فيمن اهيم بها لاموا ولو هاموا بمن اهيم بها يوماً لما لاموا
هام الفؤاد بمن لولا ملاحتها ما سفهت من ذوي الاحلام احلام
هام الفؤاد بحيث الناس بحت بها اذ في الكناية تلبيس وابهام

حتى اتى على آخرها ، فقال له محمد المذكور : الحمد لله الذي جعلك في غير زمني ، وكان محمد اذ ذاك شيخاً كبيراً . ولما حلقت اليه العيون ، نزعته اعراقه الى طاعة الله والتفكر في أمر الآخرة ، فاشرأبت نفسه الى حج بيت الله الحرام وزيارة نبيه صلى الله عليه وسلم ، فوازره على ذلك صديقه وابن عمه ، سيدي احمد بن حرمة بن الصبار العلوي ، وكان فاضلاً عاملاً . وكان لهما ابن عم آخر ، فوافقهما على ذلك ثم بدا له فيه ، فجلس وجعل يثبط همة محمد فقال فيه :

يا مُشفقاً من رحيلي لجّ في كمد هل انت من دون ربي آخذ بيدي
امسى يفندني فيما أرى وأرى مفندي فيه منسوباً الى الفند
دعني وعزمي والبيدا وراحلتي وما جرى من بنات الفكر في خلدي
الله حسبي لا الوى على أحد كلا ومثلي لا يلوي على احد
وعقدة العزم مني لا يحل بها حل اذا حل عزم محكم العقد

وقال أيضاً لما عزم على الحج :

تجلد جهد نفسك للفراق وكفكف غرب سافحة المآق
وجرد من عزيمك ما يوازي مُتِرَّات المهندة الرقاق
ونكِّب عن مقال اخي الهوينا وعنها فهي خاسرة الصفاق
وعن باك وباكية اراقا دموعا ليس واكفها براق
الى البيت العتيق بنص احدى عتاق الكوم او احد العتاق
بنص شمِلَّة تعدو بعالي قَراها عدو منفرد لهاق [1]

ومنها :

أأحبابي اعاد الله مني ومنكم بعد فرقتنا التلاقي
الى ارض الحجاز أحلت عنكم صفيحة وجه وجدي واشتياقي
سلوت احبتي واشتاق قلبي بتلك الارض للنجل الحداق
وللبيض الترائب والثنايا مديرات الجهان على التراقي
بزمزم غُلَّتي تعلي ، فمن لي بكأس من مدامتها دهاق
صفا نفسي الصفا ومنى مناها وبالجمرات قلبي ذو احتراق
الا يا ركبُ حُقِّقَ ما رجوتم على حسن التلاطف والوفاق
ثقوا بالله واعتصموا وسيروا خفافاً بالمهيمن خير واق

ولما وصل الى مراكش في طريقه الى الحج انشد بين يدي السلطان مولاي عبد الرحمن قصيدتين استحسنهما السلطان استحساناً عظيماً ، وأولاهما :

هل في بكا نازح الاوطان من باس ام هل لداء رهين الشوق من آس
ام هل معين يعين المستهام على ليل كواكبه (شدت بأمراس)
آه لمغترب بالغرب ليس له جنس وان كان محفوفاً بأجناس

---

١ - القرا : الظهر ، واللهاق : الثور الوحشي الأبيض .

على الامام بفضل الله يمنحه رحمى ، فيكشف غم الآسف الآسي
اقول والركب محزون بوحشتنـا صبرا ، فكم وحشة افضت لايناس!
اذا وضعنا بأرض الغرب أرحلنا راح الرجاء علينا طارد الياس
اني كفيل بنيـل السؤول لي ولكم إما بمُرّاكش المحروس أو فاس
امامنا في كلا المصرين نورهمـا امامنا المسمّاح المطعم الكـاسي
خليفة المصطفى وهو ابن بضْعته ثوباً من المجد ، لم يعلق بأدناس
الله منك حقوق الناس قلّدهـا يقظان لا غافل عنهـا ولا ناس
عمّرت عمّرت من عهد الشريعة ما باض النعام بدور منـه ادراس
داركتها بعدما مالت دعائمهـا فاستحكمت واطمأنت فوق آساس
واقاك ركب تعاطوا من نعاسهم على متون المطايا قهوة الكاس
حثوا جلاس المهارى لا يرون على منابر الميس منهـا غير جلاس
حتى برى السير منهم كالقداح ومن بها كالقسي حنتها كف قواس
فواسِنا بلقاً ما اعتيد منك ومـا فضل المقـالة الا قولنا واسِ
وحقق الظن ، إنا سوف تحملنـا على مجوّفة الحيزوم كالراس
لها دخان حريق الغاب ازعجه أنف الجنوب بأنفاس فأنفاس
واسمح لنا بدعاء منك صالحه بيمنه يسهل المستصعب القاسي

وقال أيضاً يصف ليلة سهرها عند بعض افاضل أهل مراكش ، ويصف ما اعتراهم فيها من السرور ، ويصف منزل صاحب الدعوة وكيفية شرابهم للشاي (الأتاي) :

يا ليلةً راحَ فيها عازب الوطر بات الصفاء بها يسطو على الكدر!
طابت مجـالسنا فيها وخامرنا حسن السرور على موضونة السرر
اذ بات أحمد يسقينا على مهل اشهى من الراح في أبهى من الدرر
في منزل تتعب الافكار عبرتهـا فيه كما يتعب الابصـار بالنظر
فيه النهار عشاءٌ والمعايش والـ انهار تجري ، وفيه مثمر الشجر

ثم انه بعد مقابلة السلطان عبد الرحمن وحفاوته به وبمن معه ، ركبوا البحر متوجهين الى الحرمين الشريفين ، وفي الركب ابن ابي الشيكر (بكاف معقودة) قائد ابناء ابي السباع ، فبدؤوا بالزيارة ، ثم قضوا حجهم ، فتوفي رحمه الله بين مكة وجدة ، ولم يعثر له على نظم في الحجاز ، سوى بيتين قالهما لابراهيم القاضي صاحب الصولة في الينبوع وضواحيه . وكان تلقى ذلك الركب بما ينبغي ، وهما :

يا قاصداً بطحاء مكة يرتجى ... نيل الطواف ببيتها المرفوع
لا تخش من ينبوع حاجك غورة ... ما دام ابراهيم بالينبوع

وقال وهي من جيد شعره :

هاج التفرق فاعذليني اودعى ... شوقاً أصم عن العواذل مسمعي
لا تنكري مني الشحوب فهكذا ... فعل الفراق بكل صب مولـع
ان الاحبـة اودعوا اذ ودعوا ... في القلب شجواً لم يكن بمودع
كيف السلو خلافهم ام كيف لي ... بالكف بعد نواهم من مدمعي
بانوا ، فبت بليلـة لم تنكشف ... من بعدهم ، وبمقلة لم تهجع
بانت ببينهم الرباب وخلّفت ... بين الجوانح غلـة لم تنقع
حي الاله زماننا اذ لم يرع ... فيك الصدود ولا نعيب الابقع
دهر مضى جمعت لنا ايامـه ... شمل السرور فهل له من مرجع ؟

ومن غرر قصائده قوله :

زارت عُلَيّ[1] على شحط النوى سحرا ... فاعتاض جفنك من عذب الكرى سهرا
زارت فبات نظام الهم مجتمعـا ... شوقاً وبات نظـام الدمع منتثرا
فالقلب يغلي وجفن العين يسعده ... بمدمع كلما كفكفته انحـدرا

١ – ترخيم علية .

يا رب مشتبهات لا منار لهـا ... من خاضها ركب الاهوال والغَررا
خاضت الي ودوني من هوائلهـا ... ما يستتيه عن القصد القطا الكُدُرا
زارت معرَّس سَفْرٍ بعدما ارتحلوا ... شهراً رواحا ، وتهجيراً ومبتكرا
تهوي بهم راقصات العيس طاوية ... اخفافها من عراض البيد ما انتشرا
تعلو الهضاب وصم الصخر حافية ... ما ان ترى نقبا فيها ولا دَبَرا
بُزلاً سما النّي في اثباجها وعلى ... غربانهـا لبّدت اذنابها الخطرا
عهدي بها لم تزر جاراتها كسلاً ... واهاً لها كيف باتت تسلك الوعرا
باتت تشك ظلام الليل نحوهم ... يا عظم ما كلفت اوصالها الفترا
ما انس لا انس ، والايام مولعة ... بفرقـة الشمل اذ خالستها النظرا
فأومأت بكحيل الطرف باسمـة ... نحوي لكيما أرى ان الرقيب يرى!
أيامَ احسو رحيق الوصل آمنـة ... نفسي أن احْسُوَ سُمَّ الصَّرْم والصبرا
ما كنت احسب هذا الدهر تحدث لي ... أحداثه من ليالي صفوه كدرا !

ومن بديع قوله في الغزل :

ولّت ليال الينا ساقها الزمنُ ... ما سيق من بعدها للاعين الوسَنُ
ولّت سراعاً وولى البِشْر يتبعهـا ... عنا ، واقبل من إدبارها الحزَنُ
ولت ، فقائم ركن الصبر منهدِمٌ ... من بعدها ، ومصون الدمع ممتَهَنُ
قد غبن بالوصل ممن لم يغب جزعي ... من بعد ما غاب عنا وجهها الحسَنُ
عمن اذا قابلت يومـاً محدثة ... تحاسَدَتْ عند ذاك العَينُ والأذنُ
بانوا بها ، لاسقى الساقي مطيّهم ... ولا رعت ما وشاه العارض الهتن
يا ظـاعنين ولي نفس تصاحبهم ... في بينهم ، حيثما ساروا وما سكنوا
حملتموني ثقـلاً من تحملكم ... يعوق جَلْدَ القوى عن حمله الوهن
ان ظَلْتُ بعدكم ادعو الربوع لمـّا ... هاجت لقلبي من ذكراكم الدِّمَنُ
تعتادني زفرةٌ يرتدُّ صاعدهـا ... من عبرة ضاق عن منهلها الجفن
لميت الألى ظعنوا بالقلب اذ ظعنوا ... لم يظعنوا ، والالى لم يظعنوا ظعنوا

ومن رقيق شعره قوله :

شمِّر لعلَّ رسيمَ الأينُقِ الذلُلِ … من بعد عشرين يدني ساكني العقُل[1]
سِرْ مُدمِناً عبر امواج الهجير وسر … تحت الدجى ثالث البيداء والإبـل
واعصِ العذول فمشتاق الاحبة مَن … مـا ان يميز بين العُذر والعذَل
واصحب دليلاً من الشوق المبرح ان … مال القطا عن سبيل القصد لم يمل
واجعل مهادك بطن الرحل من جمل … جون المؤخَّر او وجناء كالجمل
رعت من الروض في اكتاب دومس ما … لم ترع منه بجنبي هضبة الوعِلِ

ومنها :

سهل تجشمي البيـداء معتَسفا … لو كنت من وصل من اهوى على امل
اني وان حلَت يأذي عن مودتنا … عما عهدتِ لديَّ الدهرَ لم احُلِ
سلي فؤادي عني هـل سلوتكم … والجفن بعدك، هل ذقت المنام، سلي!
بورد خدك الا ما وصلت اخا … بثٍّ، الم يأنِ بعد الهجر أن تَصِلي؟
صلي أخا كلَفٍ كم بات من شغفٍ … الى لقاك سمير النجم أو زحَلِ !

ومن رقيق غزله قوله :

بعد الهدو يمين الضرع أسرالي … طيف احل ببالي كل بلبـال
اسرى ، فنبهني وهناً بتبرس من … بارين[2] طيف قطوف المشى مكسال
زارتك عائش والجوزاء جانحـة … والليـل ملتف ارواق واذيال
زارت ومن دونها شم الجبال واو … عاث الرمال ، ولماع من الآل!
وكل مغبرة الارجاء طامثة الـ … اعلام حفت بأوجال وأهـوال

---

١ – العقل : مواضع معروفة لها آبار غير طويلة ، بالنسبة لما يقال له بئر في عرفهم .

٢ – بارين : بباء موحدة بعدها الف وراء مفتوحة وباء ساكنة ونون مفتوحة : اسم بئر .

ومنها :

اما وكل خلوب اللحظ ساعدها — والساق غصا بدملوج وخلخال
لفي الفؤاد هوى مني لعائش لا — يبلى، وكل جديـد غيره بال
مَلّ المعاتِبُ فيه من معاتبتي — فكف عني، ومل العذلَ عُذالي
وطالما سمته كتماً فنمّ بـه — دمعي ، واخبر عنه مخبر الحال !
دعني اليها أجوب البيد ممتطيـاً — بُزلاً تواصل ارقالاً بأرقـال
ادنى بها النازح النائي ، واسبحها — بحر الدجى وبحور الآل في الآل !

وله أيضاً :

ارض العقيلات، يا برق الحيا، وعلى — احيائها لعيون الشائمـين لُح
ولا تَرِق دونها في الارض ملء فمٍ — من ساريات روايا ودقِك الدُّلُحِ
حول المليحة خيِّم واغدونّ ورح — ثم اغدونّ ورح ثم اغدونْ ورُحِ !
ولا تزل مستطيراً مثل ما رمحت — بُلق العوادي زهاها فادح المرح
حتى اذا عمت السقيا مسارحهـا — فاسق المسارح من بارين واسترح

ومن ظريف ما يحكى عنه ، انه كان مسافراً ومعه ناس من أهل الفضل ، فنزلوا امام بيت فيه عبيد لابن جيرفين ، أحد من اشتهر في بلده . وكان ابن جيرفين المذكور ، موجوداً في تلك الليلة عند عبيده، فلم يسلم عليهم ولم يبعث اليهم بفراش ولا قرى .. فاجتمعوا به من غد تلك الليلة ، فأخبرهم انه غدا يذهب الى ابن احمد بن عيد امير آدرار، فقالوا له : نريد منك ان توصل اليه هذا المكتوب . فظن ان المكتوب فيه سلام على الامير لا غير ، فلما ناوله اياه أمر من يقرأه ، فاذا فيه :

ان يمنع الله رزق العبد ينزله — ضيفاً لدى نجل جيرفّين ذي البقر
اهدى اليه بنو عوز الكرام ومـا — لاقت نجائبنـا من شدة السفر

لم يأتنا بفراش ، لا ولا بقرى ولم يسلم ، ولم يسأل عن الخبر
فبات ملآن بطنٍ حولنا ، ولنـا مبيت موسى كليم الله والخضر..!

فلما قرأت الابيات ، ضحك الناس ممن يحمل هجو نفسه الى امير .. فهذه الصحيفة مثل صحيفة المتلمس ..!

وكان لابن جيرفنّين هذا ، ابن عم يملك الابل ، فلما سمع الابيات قال : الحمد الله على ان لم يقل « ذي الابل . »

وقد ذكر صاحب الوسيط ان الشاعر ترك ديواناً ضخماً فليتنا نعثر عليه أو بعضه ، فان هذا الشاعر شاعر حقاً حقاً !

اما وفاته فلم يذكر لها صاحب الوسيط تاريخاً ، بل كل ما قالـه انه كان وما يزال حياً سنة ١٢٥٠ هـ .

٦ – الهادي بن محمد الشاعر الزجال :

هو الهادي بن محمد ، المتقدم ، وشقيق محمد المتقدم أيضاً . كان فقيهاً محققاً وخنذيذاً [١] مفلقاً ، رزق فهماً ثاقباً ورأياً صائباً ، وهو أحد الرواة المتقنين والعُبَّاد الناسكين ، توفي سنة تسع عشرة وثلاثمائة والف. وكان غاية في الظرف ومعرفة آداب المجالس ، له اليد الطولى في نسج الشعر ونظم الأزجال العامة ، وقلما تساويا عند شخص ، بل لا بد وان يكون الشخص أتقن لاحدهما من الآخر . وكان الظلمة من قبائل حسان يخافون من لسانه ، لانه كان يذكر قبائحهم في ازجاله فتحفظها العامة ، وكانوا يتأثرون منها أكثر مما لو كان نظمها بالشعر الحقيقي . فمن ذلك قوله فيهم :

---

١ – الخنذيذ : الشاعر المجيد ، وبعبارة المفلق ، وبعده الشاعر المطلق . ثم الشويعر . ثم الشعرور ثم المتشاعر .

مَـذ مـِن وخـْشِ
فينا يتـْمـَش
مـاهُ امـْخـَلّ شِ
الاّهُ امخـَلّ شَ

قوله مذ : أصله ماذا ، فساقها على عرف العامة هناك . والوخش: رذال الناس وسقاطهم وهي عربية خالصة . وقوله ماه امخل ش: معناه انه لا يترك شيئاً . وقوله الاه امخل ش : اصله شاة ، وهو من عطف الخاص على العام ، وهذا النظم يسمونه كاف (بكاف معقودة) وضابطه ان يكون الشطران مختومين بحرف واحد بشكل واحـــد ، اعني الأول والثالث وكذلك الاخيران ، اعني الثاني والرابع وأقله أربعة أشطار كما تقدم ، ولا حدّ لاكثره .

مـَذَ من عـَلاّلْ
معدود افلـِعـْيـَالْ
افكـُل انـَـوَالْ
اسْرَ مـِن حـَنْشَ
ما خـَلّ سـِروالْ
الاّ خـَلّ فـَشّ

قوله مذ : أصله ماذا كما تقدم ، وعلال : فعال من العل ، يعني انه يحلب نوق الناس بعد ان تذهب للرعي من عند أهلها ، وهذا عندهم وصف في غاية الذم ، ومعنى معدود افلعيال: انه كـَلٌّ على الناس ، فيعدونه في عيالهم ، وفالعيال : اصله في العيال ، الا انا كتبناها على ما يتلفظون به ، ولأن بحرهم الذي ينظمون في ميزانـــه لا يصلح فيه الا هكذا ، لانا لو قلنا في العيـــال ، ينكسر الوزن في اصطلاحهم ،

اذا المعتبر عندهم فيه قدر المتحركات ، ولا يبالون بالسواكن قلّت أو كثرت ، وكذلك لا يعدون الهمز المتحرك الواقع في اوائل الاشطار ، ويسمون المصراع تافلويت ، وما أدرى اشتقاقها ، وهذا يسمونه طلعة، وضابطها ان تكون على ستة أشطار ، ثلاثة هي الاولى على روى واحد، وبعدها واحد على روى آخر الكاف الذي تقدمها ، وبعدها شطران احدهما مساوٍ للثلاثة التي تقدمته ، والآخر على آخر ما قبله وهكذا ، وأقل الطلعة ستة ، كما تقدم ، ولا حدّ لأكثرها ،وقوله افكل انوال: اصله في كل ، وانوال عندهم تقال لبيوت من الشعر غير كثيرة ، وقوله : اسر من حنش : اصله اسرى ، اي أكثر منها سرى ، او حنش هي الحية الانثى ، ومذكرها احنش عندهم ، وهذا غير المعروف في لغة العرب ، لان الحنش تقال للذكر والانثى من الانواع التي اختلفت فيها عندهم ، ومعنى ما خل : ما ترك ، وسروال هو المعروف عند المشارقة أيضاً ، مع ان الصحيح سراويل ، وهو مفرد ملحق بالجموع ، وقيل : هو جمع ، ومفرد سروالة ، وانشدوا عليه قوله :

عليه من اللؤم سروالة   وليس يرق لمستعطف .

ومن زجلياته قوله :

ما فَـم اتمـَغـفِـر
وبلاخـيم اكـبِـبْـر
اتشوف البِـنْـدِير
مِن عزّت لِعـْشَ
يـَوكـُل لـَيْـن الخـيـْر
يـَبـْك بـِدّشّ

قوله : فم اصله ثم . وهي لغة معروفة في ثم ، وليست دخيلة ولا عامية ، واتمغفير : معناه التخلق بأخلاق بني مغفر ، قبيلة كبيرة ، وهذه التسمية تطلق على كثير من الترارزة ، كما يقال : تمعد الرجل : اذا صار جسمه كأجسام بني معد ، قال :

ربيته حتى اذا تمعددا وآض نهداً كالحصان احردا
كان جزائي بالعصى ان اجلدا

وبنو مغفر : قبيلة كبيرة في نواحي فـــاس ، وهم اخوال ملوك الغرب ، إذ أمهم ، اي ملوك الغرب ، السيدة خناثي بنت الشيخ بكار العالمة المشهورة ، ذكرها صاحب الاستقصاء في تاريخ المغرب الاقصى ، وذكر ان لها حواشي في هامش نسخة من كتاب الاصــابة لابن حجر بخطها ، والخيم عندهم حسن السجية ، وقريب منه ما في التاج . قال وفي المحكم : وهو الخلق ، وقيل سعة الخلق ، فارسي معرب.وتشوف ، بمعنى ترى ، والبندير عندهم بمعنى صاحب العظمة والكبرياء ، ولعش اصله العشاء ، ويوكل ، اصله يأكل ، وهذه اللغة هي الدارجة هنالك ، وهي صحيحة ، مثل اكد ووكد ويبك (بكاف معقودة) بمعنى يبقى ، ويدش ، بمعنى بتجشأ يذمه بالشرّه ، وبالجملة ، فقد أثر فيهم زجله ، اكثر مما لو كان نظم فيهم شعراً من اضراب ، قفـــانبك : لأنهم لا يفهمونه .

ومما اتفق انه كان يوماً راكباً مقبلاً من جهة ، فرآه احدهم وهو راكب أيضاً يقصده ، فعرفه قبل ان يقرب منـــه ، وكان تحت ذلك الراكب شيء من اللحم معلق ، فقطعه ورمى به خوفاً ان يراه عنـــده فيظنه ممن وصف .. وهذا الزجل يسمونه الغناء ، ويسمون صاحبه مغنياً ، سواء كان عالماً أو جاهلاً ، شريفاً أو وضيعاً ، وليس هو بمنزلة المغني

عند المشارقة ، فان ذلك من يغني للناس ليأخذ منهم أجره ، فان هذا في بلاد شنقيط ، لا يتعاطاه الا طائفة يسمونها ايكاون (بكاف معقودة) ومفردها ايكيو ، وعادة اولئك ان من يحب السماع يذهب اليهم في بيوتهم فيغنونه ذكَرهم وانثاهم ،صغيرهم وكبيرهم ، لا يستحي بعضهم من بعض – اعني ايكاون – ولهم أوتار يضربونها ولها اعصاب ، فاذا حرك أحدهم وتره ، علم الماهر من الحاضرين يضرب في أي ظهر ، وهو ما يقابل البحر الذي أنشده منه بيتاً يكون طويلاً او بسيطاً ، أما الذي يطرب بصوته من غير هذه الطائفــة ، فيسمونه نشاداً ، ويزعم أهل تلك البلاد ، ان ايكاون أصلهم يهود أسلموا ، ولم أرَ ما يصحح زعمهم .

***

ولنرجع لصاحب الترجمة فنقول : انه كان راوية لاشعار العرب ، بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم ، ظريفاً لا تمل مجالسته ، ولا يسمع في مجالسه الا ما يعلي الهمم ، ويحض على التقوى والدين ،ومن جيد شعره قوله يرثي الشيخ سيدي :

الارض بعد الشيخ ثكلى يا لها	قد زلزلت من فقده زلزالها
أنّى لها تجـد السلو وراءه	عز السلو وراءه انى لهـا
يا للحوائج والخطوب اذا دهت	ذهب المعد لمن كان فيالهـا
رزء اصاب العـالمين جميعها	اطفالها ونساءها ورجالهـا
كهف البرية حامل اعباءهـا	دون الورى ومصدق امالهـا
غوث الانام اذا السنون تتابعت [1]	والارض أصبح ماؤها صلصالها
كم كاعب او فارش أو يافع	أو عائل قدمت اليه فعالهـا

١ – التتابع : الاسراع في الشر .

كم عصبة ضربت اليه جيادها ... وعصابة ضربت اليه جمالها
تبغي حوائج من يديه كثيرة ... حطت لهن سروجها ورحالها
الواهب الجُرد العتاق وقد حمت ... قصب الرهان اذا تجول مجالها
ان العطية لا يتم نفاذها ... الا واردف بعدها امثالها
دار رأى اقبالها ادبارها ... ورأى الورى ادبارها اقبالها

ومن جيد شعره ، قوله في موعظة ذكر فيها ثلاثة تجار من النصارى، (الأوربيين) مشهورين بكثرة المال، اسم احدهم وَيْتْ ،واسم الثاني ججم، واسم الاخير كزبار (بكاف معقودة) :

إجعل جميع السعي في الالهِ ... لا في التجارة ولا في الملاهي
مغتبط الدنيا حَرٍ بالندم ... وغير فاطر السما لم يدُم
فلتسرع العباد بالسباق ... لربها الحي القيوم الباقي
فانما الدنيا كمحض العدَمِ ... لاهي بالبقا ولا بالقدم
عن (ججَم) زالت وقلّ عجمي ... وعربي في الغنا (كججَم)
بعد اشترائه لكل عير ... عدَلَ للخلود في السعير
بعد اشتراء (كندر)[1] الاغلال ... أصبح في القيود والاغلال
خلا قِلال الشهد في انتظام ... وهو اعوذ بالاله ظام
وقع في عظامه العظام ... تزَلّعُ اللحم عن العظامِ
من قصره ولج في الجحيم ... ولم يلجْ في رحمة الرحيم
ولم تفد فيما اليه صارا ... يا ويحه مكائد النصارى
حل به يا ويحه الوبار ... ويقتفي سبيله (كزبار).

---

١ – الكندر عندهم : الصمغ ويقولون له أيضاً العلك .

قبلهما قد هلكت (وبار) وامم تنعّموا وباروا [١]

لباسهم لما مضوا غبارُ ودمهم اذ قتلوا جُبارُ

واصبحت من بعدها الديار وهي يباب ما بها ديّار

لم يقِ (ويْناً) وهو حي ميِّتُ فلك ، ولا حضن ولا كميتُ

ولا دجاجة ولا حمام لما عليه اشرف الحمام

يرى الخنازير تداسُ بالعمَدْ ما كان ذاك ظنه طول الأمَدْ

تقتلها اراذل الرعاة وكان جباراً قوياً عات

كان القتاد دونها والضّالَ حتى اتاه داؤه العضال

تباً له من معشر افرنْج يلعب بالنرد وبالشطرنج ... !

فما له في الله دمع ذارفْ شغله النعيم والزخارف !

من لاحظ الاشياء في المآل وجدها معدومة كالآل

من لزم الدنيا ورب زمزم لزمَ ما لزومُه لم يلزمْ

٧ — حرم بن عبد الله

هو حرم بن عبد الله المعروف بلكنيز بن عبد الله بن عثمان . يجتمع فيه مع باب المتقدم ، وباقي النسب هناك . كان فقيهاً ورعاً متواضعاً نحوياً سليم الذوق ، يتدفق ذكاء وفطنة ، تطربه الاشعار الحسان . ولم تشتهر له قصائد كبار ، وانما مقطعات حسان .

قال قصيدة يمدح بها العلويين ، تشتمل على ثلاثة بحور ، فاجابه شاعر العلويين ، أبّدّ بن سيدي احمد بن محمود ابن اخي أبّدّ المتقدم بقصيدة تشتمل على عشرة بحور ومطلعها :

---

١ — قوله : قد هلكت وبار ، وبار قبيلة سميت بوبار بن ارم بن سام بن نوح عليه السلام ، وقيل وبار بن اميم بن لاوذ بن سام المتقدم ، ولما أهلك الله هذه القبيلة ، اسكن الجن في موضعها ، فلا يسكنها غيرهم ، وهذا أصح ما قيل في وبار . وباروا الاخيرة فعل ، ومعناه هلكوا .

درر البهاء رمى بهن غطمطمُ حار البليغ بها فبلغ طمطمُ

فاجابها ابن المعلى باربعة ابيات ، تقرأ في كل البحور او جلها ، فردّ عليه أبدّ ببيتين ، يقرآن في كل البحور ، وساقا هذا الشعر في معرض المدح ، وانما المراد به التعجيز لما بين الحيين من المنافرة القديمة .

ومن شعره هذه القطعة الاخيرة ،

ابني احمد بن اعمر كنتم لمن اعتزّ مأمناً وربيعا
ان يكن من صنيعكم ان رفعتم عالي الناس فوقكم والوضيعا
لا يضركم ذاكم ، فانتم الاعلو ن اتضعتم تأدباً وخشوعا
ضمن البر والتقى لكم ان لا تزالوا فوق الأنام جميعا
في مكان لا يطمع الناس فيه وكفاهم ما دونه ترفيعا !
فمساميكم المسابقُ كاب قاصرٌ حين لم يكن مستطيعا
فدعوا عنكم التأنق في المد ح والاعجاز فيه والتنويعا
ليس بعد النور المنزّل إعجا زٌ ، فما الحسن بعده ممنوعا
وعليكم منا السلام سلام كشذا المساك بعد هدءٍ أذيعا

٨ — النابغة الغلاّوي

هو النابغة الغلاّوي البكري . قال صاحب الوسيط — مصدرنا — انه لا يعرف اسم والده .

والغلاوي هو العالم الوحيد الذي اشتهر في قطره بالعلم والورع ، سافر من ارض الحوض ، يريد من يصحبه ليتعلم عليه ، فكان كلما اجتمع بعالم وعرض عليه طلبه ، يسأله العالم : « اي فن تريد ان تقرأ » فلا يراجعه الكلام بعد ذلك . حتى لقي العلامة الشهير ، ولي الله

احمد بن العاقل الديماني ، فقال له "مش" ، كلمة يقولها العالم هناك للتلميذ ، اذا امره ان يبتدىء في درسه . فألقى عصا التسيار عنده ، وجعل يعلّه من معينه الجاري ، حتى تضلع منه . وكان لا يعجبه الشيخ خليل ولا شراحه ، وله نظم اسمه : بواطْلَيحيَّة ، ينتقد به كتب الفقهاء ، ومنه :

فطرّة ابن بونَ والحطاط كلاهما في غاية انحطاط

ولكن طرة ابن بون في النحو ، لا بأس بها ، وقد طبعت بمصر. ولم نسمع له بطرة في الفقه ، ولما مات شيخه المذكور ، رثاه بأرجوزة اشطارها الاخيرة من الالفية . وهذا بعضها :

يا أسفَ الدين وكل عاقلِ على وفاة شيخنا ابن العاقلِ
يا أسفَ المنطقِ والكلام كم بهما اصبح من كلامِ
لموته قد ريعت الف روْع علـى اصول الفقه والفروعِ
من ذا الذي يعرف سر الحرف فذاك ذو تصرف في العرفِ
من ذا الذي من بعده يقول مَنْ يصِل الينا يستعن بنا يُعَنْ
لما نعوه وذكرت فضلَهْ كلِي بُكىً بكاء ذاتِ عَضْلَه
ويت ساهراً بليل أليَلِ مُروع القلب قليلَ الحيلِ
قلت لجلد مضمرٍ اي جزَع فلا تكن جلْداً وتُضمِر الجزع
وقلت لما قال لي الى اين المفَر ايا ابنِ امي يا بن عمي لا مفرّ
حياته عارضة وصفيّة فالغيّنّ عارض الوصفيّة
لو كان غير الله حي قد بقا لكان اولى من سواه بالبقـا
او كان يفدى بكذا ما ذهبا لو كان مثل ملء الارض ذهبا
لكن مثل الشيخ عند مَن خبَر ملتزمٌ فيه تقدم الخبَر

وهي طويلة من هذا النوع .

٩ — ابن الطّلب

هو احمد بن محمد بن المختار بن الفغ موسى اليعقوبي ، المعروف بامحمد ابن الطلب . ينتهي نسبه الى سيدنا جعفر بن ابي طالب ذي الجناح شهيد مؤتة . قيل انه من ولد عون بن عبد الله بن جعفر الجواد المشهور . فاق اقرانه في العلم والكرم وجودة الشعر .

قال فيه العلامة الكبير محمذ فال بن متالي التندغي : « هذا عربي اخره الله ، ولا تكاد تعد طبقة الا بدأت به في اولها ، اذا عد الكرام فهو حاتمهم ، او العلماء اللغويون ، فما هو بدون ابن سيده ، وكل اخباره يكتب بالذهب » . وانما لقب بيته بالطلب ، لأنهم كانوا اعلم اهل ناحيتهم ، فكانت الناس ترحل اليهم في طاب العلم ، وكان مولعاً بالعربية ، لا يفتر من التنقيب عنها والتحرير ، يقال : انه اذا سافر ونزل بحي من الزوايا نهاراً ، اول ما يسألهم عنه القاموس . . . فان كان موجوداً عندهم ، طلب منهم الاتيان به لينظر اليه يومه . فان لم يكن فيهم ، ارتحل عنهم ، ولا يترك يومه ضائعاً !

وكان يبري النبال ، فيصطاد بها الوحش ، لشغفه باقتفاء العرب . وكان مولعاً بأرض تيرس ، ولا تكاد تجد موضعاً منها ، الا وله ذكر في شعره . وكان له شهرة عظيمة عند الزوايا وحسان ؛ صاحب وجاهة فيهم ، وهو من الحلماء المشهورين .

ذكر انه كان يوماً في مسجد قومه ومعه رجالهم ، فقدم عليهم ناس من ابناء دليم ، فطلبوا منهم جملا ، وهذا الطلب يسمى (مداراة) في عرفهم ، فكل الناس احب ان يتولى دفع الجمل غيره ، وان كان بحسب العرف يقسم على الحاضرين ، فيدفعون قيمته لصاحبه من الغنم واللباس ، فدفع هو جملا عنده لا يملك غيره . فقال له احد اقاربه : عن اي شيء تداري ؟ فقال : عن مائة ناقة هنا ، وضرب صدره ،

يشير الى انه غني النفس . . وقال له : يا فلان ، ان فقري قطعت به غنا فلان وفلان ، وساقطع به غناك انت !

وكلمهم يوماً في مسجدهم ، رجل غريب يطلب جملاً يبلغ عليه بلاده ، فلم يجبه احد ، فأعطاه هو جملاً ليس له غيره ، كان اعطاه اياه احد اقاربه ، فلامه بعض الناس ، قال له : انا لا اعجز ان اعطي شيئاً اعطاه فلان . وبالجملة فامحمد هذا حسنة من حسنات الدهر والادب لانزاع في ذلك .

معارضته (الجيمية) لقصيدة الشماخ :

بعد ان تقرأ شعر ابن الطلب ، يتضح لك إنه كان شديد الاعتداد بنفسه الى درجة الخيلاء ، كثير الزهو والغرور شان كل شاعر تعجبه نفسه .. وفي قصيدتيه الجيمية التي يعارض فيها الشماخ بن ضرار ، والميمية التي يعارض بها حُمَيد بن ثور الهلالي دليل دامغ على صحة ما نقول ..

ومعلوم ان المعارضة في الشعر تعني التحدي بالقدرة على التفوق اكثر مما تعني النسج على نفس المنوال .. ولكن ليس دائماً يتفوق المعارض المتحدى على قريعه ونظيره ، فأحياناً يسفّ عنه ويتأخر . ان شوقي وحده من الشعراء المحدثين عارض الاقدمين وبزّهم . فقد عارض الامام البوصيري الصنهاجي في همزيته ، وتفوق عليه ، وعارض البحتري في سينيته وتفوقَ عليه ، وعارض او قل « قلّد » جميع الشعراء الفحول القدامي وظهر عليهم . فهل اتفق لابن الطلب مثل ذلك مع اعترافنا بأنه شاعر كبير ؟

كلا !

ونقولها مرة ثانية كلا .. على الرغم من ان صاحب الوسيط يقول :- « اما جودة شعره ، وكونه لا يقل عن شعر العرب العرباء ، فأنها محسوسة لا تحتاج الى تصديق فلان وفلان .. » فنحن اليوم اعرف من صاحب الوسيط باصول الادب والذوق ، ونملك من صحة الحكم على « المستوى » الشعري والادبي عند المقارنة بين شاعر وشاعر اكثر مما يملك عالم لغوي محترم من علماء القرن التاسع عشر !

وفي حكمنا ان قصيدة الشماخ * وقصيدة حميد ، هما اجمل بلا مراء من من قصيدتي ابن الطلب الذي قال :

« ارجو من الله ان اقعد أنا والشماخ بن ضرار في ناد من اهل الجنة ، وننشد بين ايديهم قصيدتينا لنعلم ايهما احسن ! »

وقال مثل هذه القول في معارضته لميمية حميد بن ثور ، ولا نشك في انه كرره — وان لم تسجل عليه — في معارضته للامية اعشى قيس .. ونحن لا ننكر على الشاعر ، اي شاعر ، ان يتبجح او يستشعر من نفسه القدرة على تحدي الاخرين ارضاء لغرور في نفسه ،

---

* هو الشماخ بن ضرار الغطفاني الصحابي ، وتعتبر قصيدته من عيون شعر العرب القديم (في الجاهلية وصدر الاسلام (و مطلعها :

الا ناديا اظعان ليلى تعـرج ... فقد هجن شوقاً ليته لم يهيج
أقول وأهلي بالجناب ، وأهلها ... بنجدين ، لا تبعد نوى ام حشرج
وقد ينتأي من قد يطول اجتماعه ... وتخلج اشطان النوى كل مخلج
صبا صبوة من ذي بحار ، فجاوزت ... إلى آل ليلى ، بطن غول فمنعج
كنانية ، ان لم أنلها فانهـا ... على النأي من أهل الدلال المولج
وسيطة قوم صالحين يكنهـا ... من الحر في دار النوى ظل هودج
منعمة ، لم تلق بؤس معيشة ... ولم تغتزل يوماً على عود عوسج
هضيم الحشا ، لا يملأ الكف خصرها ... ويملأ منها كل حجل ودملـج
تميح بمسواك الاراك بنانهـا ... رضاب الندى عن اقحوان مفلج
وان مر من تخشى ، اتقته بمعصم ... وسب بنضح الزعفران مضرج

وهي طويلة تبلغ ٥٩ بيتاً وكلها من هذا النوع .

كذلك الشاعر .. ولكن الحكم على منزلة شعره ليس من شأنه هو ، بل من شان الناقدين الاخرين ، وشأن الحقيقة الصافية التي تظهرها المقاييس الفنية الادبية .

لقـــد تمنى الشاعر بكـــل سذاجة وقلب طيب ، لو ينعقد مجلس « تحكيم » من اهل الجنة للنظر في قصائده وقصائد من عارضهم .. مسكين ابن الطلب رحمه الله ما احلى هذه الامنية لشاعر مثله مسلم مؤمن بالله واليوم الاخر والنار والجنة .. ما احلى هذه الامنية وابعدها !

ولكن من اين لنا ان نعلم يا سيدي اذا كان اهل الجنة يفهمون في الشعر والادب كما يفهم اهل الدنيا ؟ ..

كنا نتمنى ان يمد الله في عمرك الغالي الى اليوم لترى ان « حكما صدر » في الدنيا قبل الآخرة ، وفي لبنان .. يقول : ان قصائد من عارضتهم اجمل من قصائدك .. ونحن نعرف ان هذا « الحكم الغيابي » لا يرضيك لو كنت حاضراً .. ولكن تأكّدْ يا سيدي ان الاحكام « الغيبية » في هذه الامور الادبية ، مثلها مثل الاحكام الوجاهية بكل تأكيـــد .. فعسى ان لا تعتب علينـــا روحك الشاعرة الطاهرة في عليائها !

ان المقاييس الشعرية اصبحت ، يختلف مفهومها في زمنكم وزمن الجاهلية الذي قلدتموه تقليداً حرفيـــاً ، ومفهومنا في هـــذا الزمن يا سيدي .

فلقد تقطعت الاسباب بين هذه اللغة القاموسية الصعبة ، وبين ما نحن عليه اليوم . وحتى في نطاق المقاييس الادبية الاولى « للادب الصعب » لم يكن ابن الطلب على مستوى من عارض شهياً سائغاً ، بل كان « وحشي » اللفـــظ ، جـــاف الروح ، في حين ان نظراءه استخدموا مثلما استخدم كلمات « قاموسية » عويصة ، ولكنها كانت

لما تتطوي عليه من جمال رائع جد مأنوسة ، تشرح نفسها للقارىء دون ان تكلفه الرجوع للقاموس ..

وبعد فنحن من قبيـــل الاحاطة بكـــل حالات وخصائص الشعر الموريتاني ، جيده ورديئه ، وحثيه ورقيقه ، نورد نصوصاً من كل قبيل .. وبذلك نعطي فرصة طيبة مقباة لمن قد يهمهم دراسة هذا اللون من الوان الآداب العربية التي لم نطلع عليه في المشرق .

وعلى هذا الامل نورد بعض مختارات من شعر هذا الشاعر الموريتاني الكبير ، بادئين بجيميته ، او بالاحرى (معلقته) التي تبلغ ١٠٣ ابيات ، والتي حشد فيها مئات من المفردات القاموسية ، مكتفين منها — ومن بقية قصائده — بأقلها ، قال :

تطاول ليـل النازع المتهيج اما لضياء الصبح من متبلَّج ؟
ولا لظلام الليل من مُتَزحزح وليس لنجم من ذهاب ولا مجي ١
فيا مَن لليلٍ لا يزول كأنمــا تُشدّ هواديه الى هَضبتي إجِ ٢
كأن به الجوزاء والنجم ربرب فراقدها في عُنّةٍ لم تُفرَّجِ ٣
وتحسب صبيان المجرة وسطهــا تناوير ازهار نَبتنَ بهجهج ٤

---

١ — قوله من متزحزح : اي تزحزح .

٢ — قوله تشد : أي تربط ، وهواديه : جمع هادية . وهي في الاصل أوائل الوحش واستعارها هنا لاوائل نجوم الليل وهذا مأخوذ من قول امرىء القيس :

فيالك من ليل كأن نجومــه بكل مغار الفتل شدت بيذبل

واج : بكسر الهمز والجيم : موضع بتيرس .

٣ — قوله : كان به الجوزاء الخ . الجوزاء : معروفة . والنجم : الثريا . والفراقد : جمع فرقد ، وهو ولد البقرة الوحشية . والعنة بالضم : الحظيرة من خشب او شجر ، وفي عرف أهل الصحراء يقال لها : الزريبة — بفتح الزاي المعجمة وكسر الراء المهملة وفتح الباء الموحدة — وهي الصبية فصيحة أيضاً .

٤ — قوله : وتحسب صبيان الخ . المجرة : النجوم الصغار التي نرى فيها . والمجرة : الطريق في السماء التي تسير منها الكواكب . وقوله نبتن بهجهج ، الهجهج : الارض الصلبة الجدبة .

كأن نجوم الشّعريين بملكهـــا هجائن عقرى في ملاحبِ منهج ١
فبات يُماني الهم ليـــلى كأنـــه ببرح مقام الهم في اضلعي شج ٢
فلو كان يفني الهم أفنى مطالُهُ هـمومي، ولكن لج في غير ملجج ٣
اذا ما انتحاها منه قطع سمت لهُ افانين همّ ٍ مزعجٍ بعد مُزعج ٤

اماكن الظعن :

أعِني على الهم اللجوج المهيج وطيف سرى في غيهبي مُدجدج ٥
سرى، يخبط الظلماء من بطن تـيْـرسٍ الي لـدى ابربير لم يتعرّج ٦
فلم ار مثل الهم هماً ، ولا ارى كليلة مسرى الطيف مُدلج مدلجِ
وذكرة اظعـــان تربعن باللوى لوى الموج فالخبْتين من نعف دوكج ٧
الى البئر ، فالحواء، فالفج، فالصوى صوى نشل، فالاجواد، فالسفح من إج ٨

---

١ — قوله : كأن نجوم الشعريين بملكها الخ . الشعريان : الشعرى العبور ،والشعرى الغميصا . والملك : مثلثلة ، وسط الطريق . والضمير عائد على المجرة . وقوله : في ملاحب –في نسخة بالفاء بخط صحيح ، وكثيراً ما رأيناه بالباء الموحدة – فالاول : جمع ملحقة . والثاني : جمع ملحوب ، صفة لمحذوف ، أي طريق ملحوب ، بمعنى واضح ، ومنهج على الاول : بمعنى ثوب خلق . والثاني : بمعنى طريق واضح . وهذا أنسب بتشبيه النجوم في المجرة .

٢ — قوله : فبات يماني : أي فبات يماطلني الهم ، وفي اضلعي شج . أصل الشجي ما يعترض في الحلق . ومراده هنا ، كان باضلعه شيء يمنعه من الاضطجاع .

٣ — قوله : لج ، أي تمادى . وفي غير ملجج ، قياسه الادغام لاستكمال شروطه . والفك جائز ضرورة .

٤ — قوله افانين : جمع افنون . وهو الضرب من الشيء . ومزعج : مقلق .

٥ — قوله في غيهبي : أي في ليل مظلم . ومدجدج : مظلم .

٦ — قوله : تيرس : هي ارض مشهورة . وابربير — بالف نقل وراءها مهملة مفتوحة مرققة وباء ساكنة وباء موحدة مكسورة وباء ساكنة وراء مفتوحة : بئر في اخريات اكيد — بكاف ومعقودة — ، وهي الآن خالية لا انيس بها . ولم يتعرج : لم يقم في الطريق .

٧ — قوله : لوى الموج فالخبتين الخ . هذه اسماء مواضع بأعيانها .

٨ — اج ، بهمزة مكسورة وجيم : اسم موضع .

تحل باكناف الزقال فتبرس ... الى زيز فالاورتين فالاعوج [1]
الى ابلقى ونكار فالكرب ترتعي ... به حيث شاءت من حزوز وحنندج [2]
تربعها حتى اذا ما تنجنجت ... جوازؤها تعدو الى كل تولج [3]
وصرت على الظهران من وهج الحصى ... جنادبها من لافح متوهج [4]
بيوم من الجوزاء تشوي سمومه ... جلود حواني الربرب المتولج [5]
وغرد مكاء الأخرة بالضحى ... تغرد منزوف الشروب المزرج [6]

---

١ – قوله : تحل باكناف الزقال الخ . تحل : تنزل . واكناف : نواحي . والزقال : هكذا يقع في شعر صاحب الترجمة ولعله اسم موضع أيضاً .

٢ – قوله : فالكرب الخ . سبيله سبيل ما قبله . والشائع على السنة العامة لكرب – بكسر اللام وسكون الكاف وفتح الراء وسكون الباء الموحدة – والحزوز : الامكنةالغليظة المنقادة والحندج : رملة تنبت الواناً من النبات .

٣ – قوله : تربعها ، اصله تتربعها ، وحذفت احدى التاءين تخفيفاً . وتنجنجت : ترددت الماء . وجوازؤها : جمع جازئة ، وهي التي اجتزأت بالرطب عن الماء . وتغدو : من الغدو وفي الماء . وتغدو : من الغدو وفي نسخة ، تعدو وهما متقاربان في المعنى . والتولج : كناس الوحش الذي يدخل فيه ، يعني انها قامت تتربعه حتى اشتد الحر ، فهي تأتي الكناس غدوة ، أو تأتيه تعدو من شدة الحر .

٤ – قوله : وصرت ، أي وصوتت . والجنادب : الجراد . الظهران : جمع ظهر . وهو ماغلظ من الارض . والوهج : شدة الحر . ومن لافح ، أي من حر محرق للناس ، ومتوهج : متقد .

٥ – بيوم من الجوزاء : برج في السماء . والسموم : الريح الحارة . وحواني الربرب ، أصله الربوب الحواني ، واضيفت الصفة إلى الموصوف ، والحواني التي تعطف على الظل لتتبردوالر.برب. قطيع بقر الوحش . والمتولج الداخل في الكناس .

٦ – قوله : وغرد ، أي وصوت . والمكاء كزنا : طائر معروف . والآخرة : جمع خرير : وهو المكان المطمئن بين الربوتين . وروى : بالزاي ، وهي المكان الغليظ المنقاد ، والمنزوف : السكران . وقوله : الشراب في بعض النسخ : الشروب ، والاول احسن : والمزرج : السكران أيضاً ، وهو من قولهم : شخص زرجون ، فالنون أصلية ، ووقع مثل هذا في رجز لبعض العرب وهو :

هل تعرف الدار لام الخزرج ... منها فظلت اليوم كالمزرج

قال ابن جني ، وابن السراج وغيرهما : ان العرب قد تتصرف في الالفاظ العجمية كتصرفها في العربية بالحذف وغيره . فالراجز توهم زيادة النون فعاملها معاملة الزائد فحذفها .

ولّفت نِصيّ الليف هيف تسوقه ونشّتْ تناهي غيثها المتبعّج [1]
وزفت الى الاعداد من كل وجهة اعاريبها من كل صِرمٍ مُنجنج [2]
ونادى منادي الحي مُسْياً وقوضوا نضائدهم يا هادي الحيّ أدلج ! [3]

وقد اقتصرنا منها على هذا القدر وهي طويلة تبلغ ١٠٣ أبيات .

الميمية

وهذه قصيدته الميمية التي عارض بها حميد بن ثور الهلالي * :

---

١ – وقوله : ولفت : أي وجمت . والنصي : نبت مادام رطباً ، فاذا ابيض فهو الطريفة ، فاذا ضخم ويبس فهو الحلى . والليف : نبت معروف . وفي نسخة : نصى الهيف . وهو من هاف ورق الشجر إذا سقط . والاول اظهر . والهيف : ريح حارة تأتي من نحو اليمن ، وهي نكباء بين الجنوب . والدبور من تحت مجرى سهيل ، تيبس النبات وتعطش الحيوان . ونشت : يبست . والتناهي : جمع تنهاة ، وهي حيث ينتهي الماء إلى النهى . بالفتح والكسر ، وهو الغدير . والمتبعج : المتفرج من السحاب عن الودق .

٢ – وقوله : وزفت ، أي واسرعت . والاعداد : جمع عد بالكسر ، وهو الماء الكثير . اعاريبها : جمع اعراب هم البوادي . الاعراب : جمعلعرب بالتحريك على الصحيح. الصرم ، بالكسر : ابيات من الناس مجتمعة . قيل :هم جماعة ينزلون بابلهم ناحية، هذا اقرب . سنجنج : اسم فاعل نجنح ابله ، اذا رددها على الحوض . والمعنى اسرعت احياء العرب التي كانت تنتجع ارعي مواشيها في أيام البرد إلى المياه ، حين اشتد الحر .

٣ – قوله : وقوضوا ، أي نزعوا الاعواد . الاطناب النضائد : جمع نضيدة ، وهي ما حشي من المتاع . قوله : يا هاديالحي : هو مفعول به لنادي ، أي قال مناديهم : يا هادي الحي . وهو الذي يهديهم الطريق . وأدلج : سره من اول الليل .

* هو حميد بن ثور الهلالي الصحابي ، شاعر مخضرم عاش في الجاهلية قضىالشطر الاكبر من حياته في الاسلام ، لذا عده ابن سلام من شعراء الطبقة الرابعة ،وذكره الاصمعي مع اربعة من عظماء الشعراء الفصحاء . وأما قصيدته ، فمطلعها :

الا هيما مما لقيت ، وهيما ويحاً لمن لم الق منهن ويحما
أأسماء ما أسماء ، ليلة أدلجت الي وأصحابي بأي ، واينما
سل الربع انى يممت ام سالم وهل عادة للربع ان يتكلما ؟
وقولا لها،يا حبذا أنت،هل بدا لها ، أو ارادت بعدنا ان تأيما
ولو ان ربعا رد رجعاً لسائل اشار اليه الربع أو لتفهما !

تأوّبه طيف الخيال بمريمـا فبات معنى مستجناً متيماً ١
تأوبه بعد الهجوع فهـاضَـهُ فأبدى من التّهيام ما كان جَمْجما ٢
لطاف بها حتى اذا النفس اجهشت وأبدت بناناً لي خضيباً ، ومعصما ٣
ووجهاً كأن البدر ليلة رابع وعشرٍ عليه، ناصِلاً قد تهمّما ٤
تولى كأن اللمح بالطرف زوُرهُ وكان وداعاً منه ان هو سلما ٥

ومنها (أي من قصيدة حميد) :

سراة الضحى ما رِمن حتى تحدرت جباه العذارى زعفراناً وعندمـا
فقلن لها قومي فدينناك ، فاركبي فقالت الا لاغيرَ اما تكلما
فهادينها ، حتى ارتقت مرجّحنة تميل كما مال النقـا فتهيما
وجاءت يهز الميسناني مشيهـا كهز الصبا غصن الكثيب المرهما
من البيض عاشت بين ام عزيزة وبين أب بَر ، اطاع واكرمـا
منعمة ، لو يصبح الذر سارياً على جلدها ،بضّت مدارجه دما!!

١ - تاوبه : أي اتاه ليلا . وطيف الخيال : مجيئه ليلا . والمعنى اسم مفعول من عناه ، أي العبه ، يعني انه بات مهموماً . ومستجنا : اسم مفعول من استجن المبنى للمفعول والمتيم . الذي عبده الحب .
٢ - الهجوع : النوم . وهاضه : أي حرك هواه الكامن في نفسه ، من قولهم : هاضي العظم . أي كسره بعد جبر . وجمجم : اخفى ما في صدره .
٣ - قوله : لطاف بها الخ : هذه اللام يقال لها : لام التمهيد . وهي مؤذنة بالقسم ، واقتران الماضي بهذه اللام شائع في كلام العرب . وورد في القرآن العظيم قال تعالى « ولئن ارسلنا ريحاً فرأوه مصفراً لظلوا من بعده يكفرون » وقال النابغة الذبياني :

لكلفتني ذنب امرئٍ وتركتـه كذي العر يكوي غيره وهو راتع

واجهشت : فزعت اليه ، كالصبي يفزع إلى أمه .
٤ - ناصلا : حال من البدر . وتهمم : بمعنى ذاب فوقه ، فدخل نوره فيه .
٥ - زوره : بمعنى زيارته ، وقوله : وكان وداعاً منه ان هو سلما ، مأخوذ من قول العكوك :

ركب الاهوال في زورته ثم ما سلم حتى ودعـا

فمن ذا ولا مَن ذا رأى مثل زوره ... ومثل الذي بين الجوانح اضرما ١
فبات الهوى يستنُّ بي هيجانه ... فأسدى بابي ما تبغَّى والحما ٢
وبت بهمٍ لا صباح لليله ... اذا ما حداه الصبح كر ودوَّما ٣
فقلت اما لليل صبح كما أرى ... ام الصبح مما هيج الطيف أظلما؟
بلى، كل ليلٍ مُصبحٌ، غير انني ... ارى الصبح يا للناس للصبح أنجما! ٤

هودج مريم ..

الا يا خليليَّ ارحلا وتيمما ... بنا حيث أمسى رائد الظعن يمما
فكيف القرار بعدما قبل يممت ... مرابعها بالجو اظعان مريما ٥
ظعائنُ يهديهن في كل نجعةٍ ... من القوم ميناف اذا همَّ صمما ٦
تحملن ان قد شمْنَ من جال تيرس ... مخيلاً بها القى البعاعَ وديما ٧
فخبرهم روادهم بعد سبعةٍ ... بما سرَّهم ان جاد فيها فافعما ٨

١ – قوله : فمن ذا ولا من ذا رأى : أي من الذي رأى مثل زوره ، ولا أحد رآه ، فان من ، تقع نكرة موصوفة وتامة ، واضرم : بمعنى أثار الحزن ، من أضرم النار أوقدها .

٢ – الاستنان : الجولان في القلب ، مأخوذ من استنان الابل في عدوها ، وهيجانه : شدته . واسدى : من السدور ، أي أحدث له شوقاً ، مأخوذ من اسدى الثوب ، والحم : مأخوذ أيضاً من الحم الثوب : إذا جهل فيه لحمته ، وقت النسج .

٣ – قوله : وبت بهم الخ ، الهم : الحزن . ولاصباح لليله : يعني انه طويل . وحداه الصبح : ساقه وكر : عطف : ودوم الطائر : إذا حلق في الهواء .

٤ – قوله : ارى الصبح يا للناس للصبح انجما : أي اقلع .

٥ – قوله : مرابعها بالجو : في النسخة التي بأيدينا بالجيم ، وقد رأيت في بعض النسخ : بالحو بالحاء المهملة المضمومة فعلى الاول يمكن ان المراد : جو المبيديع . لأنه ذكره في شعره مراراً ، وعلى الثاني فالظاهر انه اسم اماكن متجاورة .

٦ – النجعة : ارتياد المرعى ، والميناف : الطويل . وصمم : أمضى عزمه .

٧ – تحملن : احتملن . وشمن : من الشيم . وهو نظر البرق خاصة . وخال تيرس : جانبها . والمخيل : جمع مخيلة ، وهي السحابة . والبعاع : ثقل السحاب من المطر ، وديم : ادام المطر .

٨ – الرواد : جمع رائد . وهو الذي يرتاد الكلأ . وان جاد فيها : بدل مما سرهم . والضمير لتيرس . وافعما : ملأ غدرانها ماء .

وجر على انجادها ووهادهـا ... من الوشم حوكاً سُندسياً وانعما ١
فمن يلك يوماً ذا عزاء ونسوة ... لطول تناءٍ ، او لوصلٍ تصرّما
فلست بنـاس يوم ولت جمالهم ... وسال بهن الفج بالظعن عُوّما ٢
هجائن بيض من عقائل عامر ... جمعن الى الاحساب حسناً وميسما ٣
تخيرن للاحداج كل منوّق ... من البُزلِ فعماً قيسرياً عثمثما ٤
يزيفُ بمبهاجٍ كان مروطهـا ... تخال برئمٍ من غشيواء أرثما ٥
جعلن على الأحداج خملا وكِلّةً ... وعالين رقماً عبقرياً مُنمنما ٦
تظل عتاق الطير في كل رحلة ... اليه مديماتٍ عكوفاً وحُوّما ٧

---

١ — الانجاد : جمع نجد ، وهو ما غلظ من الارض ، والوهاد : جمع وهد ووهدة ، وهي الارض المنخفضة . والوشم : معروف ، شبه به اخضرار الارض ، والرواية الصحيحة من الوشى ، والمراد به ما يزين الارض من النبات ، مأخوذ من الارض وشي الثوب ، وهو نقشه . وسندسياً : حسناً أيضاً ، مأخوذ من السندس من الثياب وهو رقيق الديباج .

٢ — الفج : الطريق الواسع بين الجبلين . وعوما : سرن سيراً يشبه العوم في البحر ، وهو حال .

٣ — هجائن : جمع هجان . وهي الخيار . وعقائل : جمع عقيلة ، وهي الكريمة المخدرة . وعامر : ابو قبيلة الشاعر . والميسم بالكسر : اثر الحسن والجمال .

٤ — تخيرن : اخترن . والاحداج : جمع حدج ، وهو مركب من مراكب النساء . وكل منوق : كل جمل احسنت رياضته . والبزل : جمع بازل ، وهو الذي طلع نابه . والفعم : الغليظ . والقيسري : العظيم ، والعثمثم : الشديد الطويل .

٥ — قوله : يزيف ، أي يتبختر في مشيته ، من زافت الحمامة : نشرت جناحيها . ومبهاج : مفعال من البهجة ، وهي الحسن . أي بامرأة مبهاج . ومروط : جمع مرط : بالكسر ، وهو كساء من صوف أو خز . وتخال : تظن والرئم : الظبي الخالص البياض . وغشيواء : اسم موضع معروف حسن الظباء . وارثم به رثمة : بالضم ، وهي بياض في طرف الانف .

٦ — الاحداج : جمع حدج ، كما تقدم . الخمل : هدب القطيفة . مراده القطيفة نفسها . كله أي ستراً رقيقاً . وعالين : رفعن ، ورقما : ثيابا بها رقم هو وشيها خططها التي تحسن بها . وعبقريا : منسوباً إلى عبقر ، وهي أرض تنسب اليها العرب كل شيء استحسنته . ومنمنما : مزخرفاً

٧ — عتاق الطير : جمع عتيق . والمراد بها الجوارح . ومديمات : من دوم الطائر ، إذا حلق في الهواء . وعكوفا : مقبلة عليه مواظبة ، وهذا المعنى مأخوذ من قول علقمة الفحل :

عقلا ورقما تظل الطير تتبعه ... كأنه من دم الاجواف مدموم

كأن العيون اللامحات اذا بــدا تمج عليه ارجواناً وعندما ١
فلم ار يوماً كان أحسن منظراً وأهوى هوى يقتاد صبــاً متيما
وآنس أنساً لو يرام منــاله والهـى لُهـيـّاً للصديق واصرما ٢
ولله عيناً من رأى مثل سيرهــا اذا رجع الحادي بهن وهمهما ! ٣

وهي طويلة تبلغ ٧١ بيتاً اكتفينا منها بهذا القدر :

اللامية

وهذه هي لامية الاعشى * التي عارضها:

ما بكاء للكبير بالاطـلال وسؤالي وما ترد سؤالي
دمنــة قفرة تعاورها الصيـ ـف، بريحين، من صبا وشمال
لا تأنى ذكرى جبيرة ام، من جاء منها بطائف الاهوال
حل اهلي وسط الغميس فبادو لي، وحلت علوية بالسخال
ترتعى السفح، فالكثيب فذاقا ـ ر، فروض الغضى، فذات الرئال
رب خرق من دونها يخرس السفـ ـر ، وميل يفضي الى اميــال
وسقاء يوكي على تأق المــلـ ـء ، وسير ، ومستقى او شال
وادّلاج بعد الهـدو وتهجـ ـير وقفر وسبسب ورمال

١ ــ الارجوان : صبغ شديد الحمرة . والعندم : دم الغزال .

٢ ــ قوله : لو ينال مناله . لو ، هنا حرف تمن . مثلها في قوله تعالى« لو انهم بـادو ن في الاعراب » .

٣ ــ قوله : إذا رجع بهن وهمهما . الترجيع : ترديد الصوت في الحلق . والهمهمة تطريب الحادي للابل بصوته لتسرع . مأخوذ من همهمة الاسد . وهي تردد الزئير في الصدر من الهم .

* هو اعشى بكر بن وائل .

وقليب أجن كان من الريـ ـش ، بأرجائه سقوط النصال
فلئن شط بي المزار لقد اضـ ـحى قليل الهموم ناعم بال
اذ هي الهم والحديث ، واذ تعـ ـصى الي الامير ذا الاقوال
ظبية من ظباء وجرة ادمـا ء تسف الكباث تحت الهدال
وكأن السموط عاكفـة السلـ ـك بعطفى وشاح ام غزال
وكأن الخمر العتيق من الاسـ ـفنط ، ممزوجة بماء زلال
باكرتها الاغراب في سنة النو م ،فتجري خلال شوك السيال
فاذهبي ما اليك ادركني الحلـ ـم ،عداني عن هيجكم أشغالي!

وهي طويلة تبلغ ٩٨ بيتاً .

واما قصيدته فهذا مطلعها :

صاح . قف واستلح على صحن جال سخة « النيش » هل ترى من جمال

ومنها :

ظعن من ظباء ابناء موسى وظباء الاعمام والاخوال ١
لينات معاطفـاً ، خفرات كمهى الرمل باهرات الجمال ٢
طيبـات مآزراً ، حظيـات يا لها من حمول حي حلال ٣

---

١ – قوله : ظعن من ظباء ابناء موسى الخ . ابناء موسى : فخذ الشاعر من قبيلته ، ويقال لهم اهل الفغ موسى . والاعمام والاخوال ، بصيغة الجمع فيهما : فخذان آخران منها أيضاً .

٢ – قوله : لينات معاطفاً الخ .. لينات : صفة مشبهة . ومعاطفاً : اصله لينات معاطفها ، فاسندت الصفة إلى الضمير ، ونصبت النكرة بعدها على التمييز . وخفرات : حييات .

٣ – قوله : طيبات مآزراً ، اصله طيبات مآزرها ، وفعل به ما فعل بلينات معاطفاً ، وطيب المئزر : يكنى به عن العفة . وحظيات : محببات عند ازواجهن . وقوله : يا لها من حمول حي حلال : يا لها : بمعنى التعجب كقولهم ،لله دره . وحي حلال : أي كثير ،و به فسر قول زهير :

لحي حلال يعصم الناس امرهم إذا طرقت احدى الليالي بمعظم

حي يعقوب انهم خير حي ... اذ تسامى الكرام عند النضال ١
من يرمهم يجدهم حيّ صدق ... اي حي عرندسٍ ذي ظلال ٢
منّ جَداهم على الحوادث يعرف ... كيف تعفو الكرام عند التبالي ٣
من دعاهم لكشف ضراء يَغرف ... عند عض الزمان أربى السّجالي ٤
فهم كالجياد تعفو اذا ما ... نفقَ الراكضات عند الكلال ٥
يا ليعقوبَ شمّروا للمعالي ... واستعدوا لما تجيء الليالي
واعدوا لكل خطب جليل ... عدةً من عزازةٍ ونوال ٦
وتواصوا بالحق والصبر وابغوا ... في العفاف الغنى على كل حال
وأمروا بالمعروف وأنهوا عن المنكر ، واسموا للمكرمات العوالي
والهُوينا دعوا ، وللمجد فاسموا ... وصعاب العلى بصعب الفعال ٧

---

١ — قوله : اذ تسامى الكرام عند النضال . تسامى طلب بعضهم ان يسمو على بعض . والنضال : مصدر ناضله ، أي فاخره .

٢ — قوله : من يرمهم الخ . يرمهم : يقصدهم . وقوله أي حي : هو نعت لحي صدق ، مثل قولهم : مررت برجل ، أي رجل . وعرندس : ذا عز ومنعة . وذي ظلال : أي نعمة وسرور .

٣ — قوله : كيف تعفو الكرام . أي كيف تعطى خيار مالها عند التبالي ، أي الاهتمام بالشخص .

٤ — قوله : عند عض الزمان الخ . اربى : بمعنى أعظم . والسجال : جمع سجل : وهو الدلو فيها ماؤها ، واربى : منصوب باسقاط الخافض ، أي يغرف . من اربى السجال.وعند عض الزمان . متعلق بمن دعاهم .

٥ — قوله : فهم كالجياد الخ . الجياد : جمع جواد ، وهو الفرس العتيق . تعفو : تعطى عفو جريها من غير ان تركض من قولهم : اعطاه عفواً ، أي من غير مسألة . ونفق : انقطع ومات. والراكضات التي تركض في سيرها . أي تعدو . يقال : اركض الفرس وركضت هي .

٦ — قوله : واعدوا لكل خطب جليل الخ . أصل عده : عدته ، وحذفت التاء للاضافة ، كما تحذف النون لها ، مثل : واقام الصلاة ، اصله : واقامة الصلاة .وقرئ.فنظرة إلى ميسرة ،والاصل إلى ميسرته ، ولا عدوا له عدة : أي عدته . والعزازة العز : والنوال : العطاء .

٧ — قوله : وصعاب العلى بصعب الفعال
مأخوذ من قول المتنبي :

ذريني انل ما لا ينال من العلى ... فصعب العلى في الصعب ، والسهل في السهل

والزموا الحلم والاناة ، وخلوا نزغات الشيطان شر الخلال
واتقوا الشُّحَّ والضراعةَ والفكّةَ والهاع شيمةَ الأنذال [1]
هاج قرح الغرام بعد اندمال ظَعْنُ ظُعْنِ الخليط يوم إنال [2]
يوم ولّت كأنها حين جدّت باسقات النخيل من (كانوال) [3]
مائرات مُعْرورفات على ظهر مَروري القَلْب ذي الطير الال [4]
جاعلاتٍ عن اليمين تمزكين ضُحَيّاً (وتشل) ذات الشمال [5]
رحن من منحر التؤام رواحاً تتبارى بهن أدمُ الجمال [6]
اشقريات عنصر مُوَّر الأعضاد ما في اروومها من ثفال [7]
فاستمرت معصوصبات فأمست بالثنايا من الضلوع الطوال
ناحرات هَضْب القِلات فدَرّا مان ترعى من تيرسٍ بالمطال [8]

---

١ – وقوله : واتقوا الشح الخ . مأخوذ من قول ابي قس بن الاسلت الانصاري :

الحزم والقوة خير من الاد هان والفكة والهاع

الادهان : من المداهنة ، وهو مثل النفاق . والمخادعة والفكة : الضعف . والهاع : شدةالحرص.

٢ – قوله : هاج قرح الغرام الخ . القرح : الجرح . والغرام : شدة الشوق والاندمال: البرء ، والخليط : القوم المختلطون . وانال : جبل بتيرس .

٣ – كانوال : موضع فيه نخلات طوال .

٤ – قوله : مائرات ، أي يسرن سيراً ليناً . ومعرورفات : ملتف بعضها ببعض ، أي متدانية في سيرها . ومروري : اسم قليب . وذي الطير الال : أي ذي النبت ، الذي يقال له سطير الال ، وهو نبت تأكله الابل .

٥ – تمزكين – بتاء مثناة مكسورة وميم مكسورة أيضاً وزاي ساكنة وكاف معقودة مكسورة وياء ساكنة ونون – موضع بعينه.وتشل – بتاء مثناة من فوق مكسورة وشين ساكنة ولام مفتوحة موضع أيضاً .

٦ – التؤام : موضع يقال له بالعامية : اتوام . وتتبارى : تتسابق . وادم الجمال : الحمر منها .

٧ – واروومها : أصلها . والثفال : البطيء .

٨ – ناحرات : أي سالكات مقدمها . وهضب : جمع هضبة . ودرامان – بكسر الدال وفتح الراء المشددة وبعدها الف ونون – موضع . وتيرس : ارض مشهورة . و المطال : أي من بعد .

فانتحت من ربى ذي الاوتاد نجديل   لمرعى قصارها والطوال [1]
ظعن لسن ينثنين اذا ما   وزع الظعن حادث الأوجال
فسقى الله حيث أمت بها العيس   سجال الغمام بعد سجال

وهي طويلة تبلغ ٩٣ بيتاً اكتفينا منها بهذا المقدار .

---

١ – انتحت : قصدت . وربى : جمع ربوة . وذو الاوتاد . موضع . يقال له بالعامية : ب الاوتاد ، جمع وتد . ونجديل : بكسر النون وسكون الجيم : موضع .

ثورة على عادة التيمم
والاستغناء عن الوضوء !

هذه القصيدة الصغيرة نفضلها على شعر ابن الطلب كله ، بل على كثير من شعر البيضان التقليدي تفضيلاً كبيراً ، لأنها اول ثورة دينية اصلاحية من نوعها .!

وهي تذكرنا بثورة الامام الشيخ محمد عبده على رجال الدين الرجعيين في الازهر التي شنها علهم بقوله المشهور وهو على فراش المرض :

ولست أبالي ان يقال محمد أبلّ ، ام التفّت عليه المآتم
الا ان ديناً قد اردت صلاحه احاذر ان تقضي عليه العمائم !

وابن الطلب في قصيدته التي نحن بصددها كان صاحب نزعة اصلاحية جريئة ، حين هاجم عادة التيمم في التراب عند البيضان ، والاستغناء عن الوضوء .. وهي عادة مشهورة معروفة وما تزال جارية حتى اليوم في كثير من اوساطهم الدينية .

لقد كان ابن الطلب اول من قبح هذه العادة في بيئته ، وانتقد بعض احوال مجتمعه ، قال :

أأهاجكَ رسم بالغُشيَواء مائـلُ ... كما لاح جفنُ السيفِ والسيفُ ناملُ ١

ومغنى بميثاءِ القرارة بعثرت ... معالمهُ هوجُ الرياحِ الجوافلُ ٢

وقفت بها فاستجهلتني رسومها ... وما الجهل الا ما تهيج المنازل

فدع ذكر ايام الشباب ، فذكره ... اخبر ، وقد ولى ضلالٌ وباطل

ولكن الى الرحمن فاشك مصيبةً ... المتّ بنا ، ما ان اليها المعاضل ٣

مصيبة دين الله أمسى عماده ... كمنفوس حبلى غرّقته القوابل ٤

تظـاهر اقوام عليـه فطمّسوا ... هداه ، فهم عادٍ عايه ، وخاذل

فحسانُ عادٍ والمهدّى بهديـه ... وجـلُ الزوايا فيهً عنهم يُجادل ٥

يجادل عنهم ذلـةً وطاعـةً ... ألا لُحيت تلك اللحى والحواصل !

فهم يدّعون الدين ، والدين منهم ... مناط الثريا ، رامها المتناول .!!

يصلّون ، لا يأتونها بطهارة ... وعند الاذان نوُؤهم متكاسل ..

يصلون دأبـاً بالتراب ، جهالةً ... بافواهم ترب الحصى ، والجنادل . !

يقولون « مرضى » ..هل سمعتَ بأمة ... بها مرض قد عمها ، لا يزايل ..!

نعم ، مرضُ القلبِ المُعدّ لاهله ... به دركُ النار الحرار الاسافل

وأما تكاليف الرجال التي اتت ... من الله آيات بهن نوازل

فقد اغفلوها مستحلّين تركهـا ... وقد اغفلوها فهي منهم بواهل ٦

لخانوا امانات الالـه وعهـده ... وما الله عما يعمل القوم غافل

---

١ — العشيواء : اسم موضع . ومائل : لاطيء بالارض ، يقال مثل الرسم إذا بان ، وبالعكس فهو من الاضداد . وجفن السيف : غمده . والنامل : القديم العهد بالصقال .

٢ — الميثاء : الارض اللينة كما تقدم . والقرار : قرارة معروفة . وبعثرت : فرقت وبددت ، وقلبت بعضها على بعض .

٣ — المعاضل : جمع معضلة ، وهي المسألة الصعبة ، أي لا تساويها المعاضل .

٤ — يعني بعماد دين الله : الصلاة ، لما يأتي من اضاعتهم لها بترك الوضوء .

٥ — حسان : تشمل قبائل من أهل الصحراء ، وهم أهل الشوكة فيها . والزوايا : قبائل أيضاً ، وهم اهل العلم والدين فيها .

٦ — بواهل : مهملة ، من قولهم ناقة باهل ، لا صرار عليها ، يحلبها من شاء .

ويبكون ان ضل البعير سفاهةً وإن تظما الشُّول الجوازي الاوابل[١] . !
وأن تقف البيقور عند ورودها هناك التبكّي منهم والتقاتل ..
فهلا على الدين الحنيف بكيتم فلا رقأت تلك الدموع الهوامل !
ليبكِ لدين الله من كان باكياً فقد قطعت منه العرى والوسائل !
ولم يحمِ ديناً مستباحا حريمه من المعتدي ، الا القنا والقنابل[٢]
وفتيان صدق صابرون لربهم يحامون عنه وهو عنهم يناضل
يحشون حوماتٍ الوغى بنفوسهم اذا هابها النِّبت المِحش المباسل

لا نريد ان نطيل مواقف الاعجاب بهذه القصيدة الثورية الاصلاحية ، فروحها لمن يقرأها تكفينا مؤونة شرح مواطن الاعجاب فيها .

انما لا نملك انفسنا من اعادة استحساننا بقوله ،

فهم يدعون الدين ، والدين منهم مناط الثريا ، رامها المتناول . !

وقوله

يقولون « مرضى » هل سمعت .. بامة بها مرضٌ قد عمّها ، لا يزايل !

ذلك ان الذين يتكاسلون عن الوضوء ، حجتهم دائما انهم مرض . وان الدين يجيز لهم الاستعاضة عن الماء للوضؤ بالتيمم بالترب .. والبيت من اروع آيات النقد البناء ، والثورة على المذموم من العادات العامة التي يكاد يكون لها صفة الاجماع عليها عند المزاولين .

---

١ – الجوازي : جمع جازئة ، وهي التي اجتزأت بأكل الرطب عن الماء . والاوابل : التي تركت ترعى من غير راع .

٢ – القنا : جمع قناة ، وهي الرمح . والقنابل : جمع قنبلة ، وهي الطائفة من الناس ، ومن الخيل .

وقا ايضاً :

لا القلب عن ذكر ام المؤمنين سلا ولا أرى عاذلاتي تترك العذلا
بل لا ارى لوم من يلحو ومن عذلا الا يزيد عليّ الهمّ والخبــلا
ولا اراني ارى رسماً ولا طلــلا الا وساءلت عنها الرسم والطللا
هي التي انا لا ابغى بها بدلا من غيد (عثمة) ذات الضال من أجلا
هي التي للقاها افرح الجذلا ونيلي الوصلَ منها نيلي الامــلا
هي التي البست غيد الورى الخجلا وتحت اخماصها اليافوخ من زحلا
فان تكن تبتغي ان تدرك الاملا فلتتبعن حيثها أيان ما ارتحلا
وارحلْ مراحله ، واعمل كما عملا وانزل منازلــه ايــان ما نزلا

ومنها :

ارى الهوى غير ما حملتني جللا ولا ارى غير ما حملتني جللا ١
فمن يكن سالياً عمن يحب فــلا ذا القلب عن ذكر ام المؤمنين سلا

وله ايضاً من ابيات :

لج في دائــه القديم الممانى من جنون الصبا ولات اوان ٢
لــج في غيِّه فلــج بــه الهتر ، لعرفــان دارسات المعاني

قال صاحب الوسيط في آخر ترجمة ابن الطلب :
« الى ههنا ، تم ما تسنى من شعر نابغة شنقيط ، وما عثرت له على قصيدة وفاتتني كلها، الا قافية في مدح النبي صلى الله عايه وسلم، رأيتها مرة واحدة عند شخص ، وكان الوقت ضيقاً » !

---

١ – جللا : الاول بمعنى خفيف ، والثاني بمعنى ثقيل .
٢ – المماني : المماطل .

وفي ذلك دليل على انه استقصى جميع شعره في كتابه ، فلم يترك منه شاردة ولا واردة .

١٠ - مولود بن احمد الجواد :

هو العلامة النحرير ، اللغوي الشهير ، احد اعلام تلك البلاد ، واليه المرجع وعلى اقواله الاعتماد . وكان مشهوراً بسرعة الجواب ، مرهوب الجناب ، نزل يوماً عند العلامة الصالح ، ولي الله احمد بن العاقل الديماني ، فلم يقابله بنفسه إلا بعد بطء ، فعاتبه على ذلك فصرح له بأن السبب تمزيقه لاعراض المسلمين ، فقال : انهم يبدأوني فأنتقم .. وتلا قوله تعالى : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » .. فعارضه الشيخ بآية مناقضة ، فقال له : انتم إذاً تؤمنون ببعض الكتاب ، وتكفرون ببعض ..

وتكلم رجل في مجلس هو فيه وقال : هذا لا يمكن ، وفتح حرف المضارعة ، فقال : هو لا يمكن ، ففتح اولاً على الحكاية ، وضم ثانياً ليوضح غلطه ، وقال رجل أيضاً : هذا يزري بالمروءة ، وفتح حرف المضارعة . فقال له : يَزري بالمرو والمروءة يُزرى بالمروءة ، ففتح حرف المضارعة أولاً على الحكاية ، وضم ثانياً ليبين خطأه . وهذا رحمه الله وقع منه على طريق التبكيت لذينك الرجلين . وقد وقع منه هو ما يناقض هذا ، فقد خطأه يوماً انسان ، وكان يقرأ ، فقال له : اتريد مني أن أجمع لك بين القراءة والاعراب ، اقرأ انت ، وانظر ما اخطئك انا فيه ، وهذا هو الصحيح . فان محمد بن يزيد المعروف بالمبرد ، لحن يوماً في مجلس أحد الخلفاء ، فعاب ذلك عليه ، وقال له : كيف تلحن وأنت امام اللغة ؟ فقال له : ان الفصاحة في حقنا تكلف ، فاذا جريت على الطبع الحن ، واذا احضرت ذهني لا الحن ،

فاستحسن ذلك منه .. ولو استحضر هذه الحكاية بعض العلماء في مصر، كان أحسن لهم ، فاني كثيراً ما حضرت ــ الكلام هنا لصاحب الوسيط ــ في مجالس بعض افاضلهم الذي تتردد عليه العلماء ، وله عليهم الفضل الوافر ، فاذا قرأ في كتاب ، تراهم يردونه من غير ان يعهد اليهم ذلك ، ولا بد انه يتأثر في الباطن ، لانه تجهيل له في الحقيقة ، ولله در القائل :

ومصلح الشكل لدى حكايه غير حديث المصطفى والآيه
من غير اذن منه أو قرينه قد فاته الادب والسكينه ..

ومن أجوبة مولود الحاضرة ، انه كان في مجمع من أهل الفضل ، وكلهم غرباء . وكان ذلك في شهر رمضـــان ، في آخر ليلة منه ، فخرجوا ينظرون الهلال ، فقال مولود : يا رب صائمه لن يصومه ، وقائمه ان يقومه . كلمة كانوا يقولونها عند انقضاء رمضان ، فقـال أحد الحاضرين : من هذا الذي لم يبلغ حروف الجر في الالفية ، فقال مولود : من ذا الذي لم يتجاوز حروف الجر الى ما بعدها .. ؟ يشير الاول الى قول ابن مالك في حروف الجر :

واخصص بمذ ومنذ وقتاً ،وبرب منكّراً والتــاء لله ورُب

ويشير مولود الى قوله في الاضافة :

وان يشابه المضـــاف يفعل وصفا،فعن تنكيره لا يعزل

المراد بمشابهته ليفعل ، كونه للحال أو للاستقبال . وكان مولعاً في شعره بالمعاني البعيدة التي تشبه اللغز ومن ذلك قوله :

ايها الناس للصلاة اقيموا واستعينوا بها على كل بؤس

قدّموها وأخروا ما سواهـــا   انها فرض عين كل انيس
قدّموها وأخروا ما سواهـــا   لا يصلى الصلاة غير مجوسي
هي ليلاي ، فِرتناي ، ربابي   هي جَمْلي ، ومَيّي ، ولميسي

معنى « لا يصلى الصلاة غير مجوسي » لا يمتنع منها ويوليها بصلاة الا المجوسي ، والصلا : وسط الظهر ، ومن معانيه الغريبـــة ، قوله وكان خرج في طلب نوق له ضلت :

فما هبة الصعلوك حيث الاصابع   وتهجير من شم الجبال الينابع
بأصعب من وجدان نوق تتابعت   على أثرها مرّ الرياح الزعازع [١]

قوله : حيث الاصابع ، بمعنى منقبضها ، كناية عن بخلـــه ، كما قال الحريري في مقاماته :

وانما الدهر المسيء المعتدى   مال بنا حتى غدونا نجتدى
كل ندى الراحة عذب المورد   وكلّ جعد الكف مغلول اليد

فحيث الاصابع ، صفة مشبهة ، مثل حسن الوجه ، وليست حيث هذه هي التي تلزم اضافتها الى الجمل ، فمن توهم انه اخطـــأ لذلك ، فهو المخطىء على ان حيث ، تجوز اضافتها الى المفرد عند الكسائي ، وسمع في اشعار العرب قال :

ونطعنهم تحت الحبا بعد ضربهم   ببيض المواضي حيث ليّ العمائم !

وقال الآخر :

---

١ – قوله تتابعت على اثرها مر الرياح : أنث الفعل ، وهو لمسند لمر ، ومر مذكر ، لأن المضاف يكتسب من المضاف اليه التأنيث ، كما في قوله لأحدهم :

طول الليالي اسرعت في نقضي   نقضن كلي ، ونقضن بعضي !

اما ترى حيث سهيل طالعا   نجما يضيء كالشهاب لامعا

ومن ظريف مـــا اتفق له ، انه اراد قول قصيدة ، فنظم الشطر الاول وهو :

امربع الغصن ذا ، ام تلك أعلامه

فارتجّ عليه سنة ، فورد يوماً منهلاً ليسقى جملاً له ، فتخاصمت جاريتان في المنهل ، فقالت احداهما للأخرى : والله ما ذلك كذلك ، ولا كانت ايامه كما تقولين ، أو ما هو قريب من هذا ، فضرب جمله من غير ان يسقيه ، ودخل الحي وهو يجري به ، فظن الناس انه رأى ما يذعره ، فسألوه ، فأخبرهم بأنه وجد شطراً يتمّ به مطلع قصيدته.. فقـال :

مربع الغصن ذا ، أم تلك اعلامه   لا هوّ هوّ ، ولا الايام أيامه!

وكان مولود من أكابر تلاميذ العلامة المختار بن بون الجكني ، حتى وقع بينه وبين قبيلته ما وقع : فصار هو خصمه الالد . وكان المختار أقل منهم مرتبة في الشعر ، وهم أقل منه في علم النحو والكلام، فكان يلقي عليهم الالغاز ، فيتصدى مولود لحلها ، فربما حل البعض وعجز عن البعض ، فاتفق انه القى عليهم لغزاً وقال : ان اجبتموه كفرتم ، وان سكتم غلبتم ، فمكث مولود مدة معتزلاً عن النـــاس ، يفكر في ذلك اللغز ، فخرج عليهم في وقت حر فقالوا له : ما فعلت مع زركة المختار !.. والزركة (بزاي وراء وكاف معقودة مفتوحة وبعدها هاء تأنيث) بمعنى الرمية ، وهم يعبرون عن اللغز بذلك ، إلا من أراد ان يتصافح ، فقال : بركت عنها . وروى انه اخطأه في كلمة مجلس ، فقال مولود : انها في المقامات ، فقال له المختار : في أي مقامة ؟

فقال : في قبحت من شيخ .. وانا اعتقد ان هذا موضوع ، لان مثل مولود لا يليق به ان يقابل مثل ابن بون بهذا ، خصوصاً وهو شيخه .

ولما قال في قصيدته التي يمدح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم :

حسبي اذا كنت استجدي اخا كرم   بالحاتم الهاشمي من حاتم الطائي

قال المختار : ان حاتماً ليست من اسماء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم ان معنى هذا ، تشبيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بحاتم ، والمشبه دون المشبه به ، فاحتج مولود بأن حاتماً وردت في دلائل الخيرات معبراً بها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال في ذلك قصيدة ، لم يحضرني منها الا بيت واحد ، وهو قوله :

لم يكن في دلائل الخيرات   جهل ما في دلائل الخيرات

وهذا غاية التحامل منه ، عفا الله عنه . وهو متقدم على امحمد ، المتقدم في السن ، وقد ادركه ورثاه كما تقدم ، والناس مختلفون ايهما أشعر ، فطائفة تقدم هذا ، وطائفة تقدم ذاك .

وقد سئل امحمد نفسه عن ذلك ، فقال : هو اكثر حِلفة وانا افتل . (الحلفة هي سعَف الحَلْفاء وأهل الصحراء يفتلون منها الحبال) يعني ان مولوداً أكثر منه لغة ، وهو أجود منه نسجاً ، وليطالع شعرهما بأمعان من أحب ان يحكم ، ثم ليحكم بما بدا له .

وكان مداحاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم وله فيه ثلاث قصائد : النونية ، والجيمية ، والهمزية ، أطولها وأجودها الاولى المعروفة «بالمرجانة» وهي تبلغ ١٥٧ بيتاً ، اقتصرنا منها على الأبيات التالية في الغزل :

من أي مرجان رب العرش مرجانه   تبدو لعينيك في تركيب انسانه[١]

---

١ – الانسانة : مؤنث انسان . والاكثر ان انساناً للذكر والأنثى ، وقد انكر عليه بعض الناس هذه اللفظة ، وهو غير صواب . واطال الشارح في البحث ، وبالجملة فقد ورد انسانة في اشعار العرب قال كاهن الثقفي :

انسانة الحي ام ادمانة السمر   بالنهي رقصها لحن من الوتر

امسى بها القلب مفتوناً وكان ابى على الفواتن لم تفتنه فتانة
لما بدت تتهادى في خرائدها تثني معاطفها خرعوبة البانه
قالوا أشمساً نرى تمشي ، فقلت لهم ترون انسانةً كالشمس حسانه !
لها مصائدُ تُصمي من محاسنها تصيدها الصيدُ لا َهيقاً وبيدانه ١
ترنو اليك بمغضوض كما نظرت مزؤودةً أم ساجي الطرف جيدانه
ترى الدماليج منها والبرى بقنىً خدلّجٍ ماليء للعين ملآنة
تنوء لأياً بدعص كاد يقعدها ما ضره انه ردفٌ لخصانه
ما ساقطتك حديثاً ساقطتك به ابصارنا تحسد الاسماع صيدانه
لما رأتني من فرط الغرام بها بعد ارعوائي عميد القلب حيرانه
قالت احافرة من بعد زاجرة من علم ماشان ذا التقوى وما زانه
فقلت لا تعجبي من امر خالقنا اتعجبين من امر الله سبحانه ..؟

وسافر مولود — رحمه الله — الى ارض السودان ، فعرض له بحر ، يقال له : ماو . وكان لا يعرف السباحة . فأخذوا اعواداً من شجر يسمونه « الفرنان » ، وهو موجود بتهامة بكثرة . ومن خاصة ذلك الشجر ، انه لا يغوض بالبحر ، فجرّوه بها فقال وهي من اطيب شعره :

قدرٌ ما قدرٌ أي قدّره ما أرى عينيّ عيني (صنبصر) ٢
عجب الناس لرابيه ، ولم ين يجري بالتعاجب القدر
ان في َعبرى على معبرِه بحرُ ماوِ عبرةٌ للمعتبر ٣

---

١ — الصيد : جمع اصيد . وهو رافع رأسه كبرا . والهيق : الظليم . والبيدانة : الاتانالوحشية.
٢ — صنبصر : اسم سوداني .
٣ — بحر ماو ، مفعول به لعبري .

نركب البحر غروراً لا على ذات لواحٍ ولا ذات دُسر[1]

ولقد تعلم صحبي انني غير مغرور اذا ما الغُرُّ غر

ولقد تعلم صحبي ان لي نفس حرٍ حين لا من نفس حر

ولقد تعلم صحبي انني بلوُ أسفارٍ اذا طال السفر[2]

لست بالهلباجة الرّامك لا يصدر الهم اذا الهم حضر[3]

يا ليالي (بماوٍ) طالما طلت طولاً صيَّر الطول قصر !

لا اعاد الله لي امثالها من ليال ليس تجلوها نهر

فالى اين مفرّى لأفر يا ابن امي ، يا ابن عمي ، لا مفر

هذه هذى ، واني داخل بعدها (ماواً) بملكي لسعر

وقد رأيت له مقطعة ومطلعها :

ما مثلها من عتاق شعشعانات

الى ان يقول :

ادمانة من بني المبروك حُمّ لنا منها لعمرى إدمان الصبابات

وله رائية جيدة ، في مدح احد الاشراف نوه بها صاحب الوسيط ولم يذكرها . ومن ابياته التي يمرن بها صغار الطلبة ، قوله :

قد غادروا نحيتي من بعد ما ملئت ملوية ضربوا ملويةً جدداً

فملوية الأولى : خبر غادروا ، والثانية ، عن مصدر ضربوا ، اي سياطاً ملوية . فان آلة المصدر تنوب عنه ، كما نص عليه النحاة . وله ايضاً :

الحق ابلج حقاً والخفا برحا والصبح افصح الا أنه وضحا

---

١ – الدسر : جمع دسار ، وهو المسمار ، أي لاعلى سفينة .

٢ – بلو اسفار و بلى اسفار – بكسر الباء فيهما – أي ابلاه الهم والسفر والتجارب .

٣ – الهلباجة : الاحمق . والرامك : اسم فاعل من رمك بالمكان ، إذا اقام به ، لا يبرح منه ، مجهوداً كان أو غيره ، أو خاص بالمجهود .

الناس تعلمنا ، والناس تعلمكم والناس تعلم منا اللكن والفصحا
والناس تعلمنا والناس تعلمكم من غش جاراته منا ، ومن نصحا..

يلاحظ من شعر مولود بن احمد وغيره من شعراء موريتانيا مدى اهتمام القوم بالعربية نحوا وصرفا ومفردات فصيحة . كما يلاحظ ان شعر صاحب هذه الترجمة لم يقع كله في حفظ الرواة بدليل قول صاحب الوسيط :

« هذا ما تيسر لي من اشعاره الآن من قصائد فيما وقع بينه وبين ابن نون ، ومع ادييج الكمليلي وغيرهما ، وقد رأيت له نظما في حجم مجلد وسط ، جمع فيه الاجوف والناقص ، وسماه بعج بطنه » .

اما تاريخ ميلاد الشاعر وتاريخ وفاته فقد ظل مجهولا ، ولكنه على كل حال من شعراء زمن صاحب الوسيط .

١١ – المجيدرى بن حبيب الله :

واسمه محمد ، ويقال له محمذ – بالذال المعجمة – مصحف محمد .

قيل انه احد اربعة ، لم يبلغ احد في ذلك القطر مبلغهم ، وهم : ابن راكزه ، ثم ابن الحاج ابراهيم ، ومحمد اليدالي الآتي في موضعه .

وكان المختار بن بون ، احق بكونه في موضعه ، لانه استاذه : ولان المحققين يقولون : ان الحق مع ابن بون في المسائل التي خالفه فيها ، ولا شك انه كان من العلماء الاجلاء . وكان اعظم تلامذة ابن بون من اليعقوبيين ، ثم وقعت بينهما وحشة شديدة حتى تالبوا عليه كلهم . وكان ابن بون يذكره في اشعاره بما كان يعاني من نصيحته ، فما افاد ذلك ومات في حياة المختار بن بون ، فقال قصيدة مطلعها ؟

اودي الظلال ، الا فليفرح الجذلا   من عاش ضالا مضلا شاقق الرسُلا

فنقضها مولود المتقدم بقصيدة مطلعها :

اودى الكمال الا فليفرح الجذلا   من لا يموت ، ومن لا ينقضي أجلا

وقد الف العلامة ، محنض باب بن اعبيد الديماني ، رسالة في تضليله ، وهذا لا يقدح فيه لما هو مشهور عن العلماء من قديم .

واتصل بالسلطان سيدى محمد بن عبدالله ، ونال الحظوة عنده ، ورحل الى المشرق ، واكرمه أمير مصر . وبالجملة فقد كان غاية في الفهم . ويكفيه ان الصالح الصوفي سيد احمد بن ادريس الفاسي تلميذه ، ورجع الى ارضه ومات بموضع يقال له بيرايكن (بهمزة مكسورة وياء ساكنة وكاف ساكنة معقودة ونون مكسورة) وهو ايضاً ممن لم يقع شعرهم في ايدي الرواة والحفاظ ، فبقي مطموسا لم يذكر منه سوى ابيات فيما ورد من كلام العرب على فاعول ولامه سين .

وله في الموشح ، يتذكر بلاده واصحابه ، لما كان في المشرق ، وهذا النوع يسميه اهل موريتانيا ، الغناء بالعربية ، وتقدم تعريف الغناء العامي الحساني عندهم :

يا مَن يَرى ولا يُرى   عني الكروب نفّس
لقد نفى عني الكرى   شوقي لاهل تيرس !
واجعـل لامر عسرا   يُسراً بـلا تعكّس
ان قيس معبـد عـلى   غريدهم كالاخرس [1]

---

١ – معبد : مغن مشهور . والغريد : المغني . وكالاخرس : جواب الشرط ، وحذفت منه الفاء ضرورة ، والاخرس معروف .

او قيس سحبان على بليغهم لم ينبس [1]

* * *

لهفي عليهم نبلا مهذبين فضلا
حب المهيمن جرى في الدم منهم وسرى
وامتثلوا ما امرا به اجلّ قبس
واجتنبوا ما حظرا من خبثٍ ورجس
منزلهم رحب الذرى وكومهم شمّ الذرى [2]
فاقوا جميع من قرى وحط بالأباخس [3]
همُ كرامُ ذي الورى هم ثمال البائس [4]

١٢ – صلاحي بن المامي :

هو العالم الوحيد في زيه وشكله ، وفي تطوافه واقامته ، وللناس فيه اعتقاد ، وفي ابيه قبله . وكان ابوه من اعلم قبيلته ، وكان هو مولعاً بتحرير المسائل ، وكان له طبل يحمله معه اينما توجه ، فاذا عنت مسألة عويصة وفهمت ، ضرب ذلك الطبل .. وكان يحارب اخوته ، لانه يراهم مانعين للزكاة ، لان لهم اتباعاً بمنزلة الرعية لهم ، وكانوا يفتونهم بعدم وجوب الزكاة عليهم محتجين بان حسان

---

١ – سحبان بن وائل : بليغ مشهور .
٢ – الذرى – بالفتح – الساحة ، والذرى – بالضم – جمع ذروة : الأعلى من كل شيء .
٣ – الاباخس : الاصابع . وقيل ما بين الاصابع واصولها .
٤ – الثمال : الغياث ، الذي يقوم بأمر قومه . والبائس : الذي أصابه البؤس ، وهو الخضوع والفقر .

يأخذون منهم الامكاس ظلما ، فان ملكهم ناقص ، والشيخ خليل يقول : تجب زكاة نصاب النعم بحول وملك كملا وقاسوهم بمال العبد المملوك وكان يغير عليهم ببعض العرب اهل الشوكة ، فذهب اخوته اليه ، وكان مقيما عند محمذ فال بن متال التندغي ، وكانت الناس تهابه لعلمه وصلاحه ، فرغبوا في الصلح معه ، فعلم هو انهم سيغدرون به ، فلما امره الشيخ بالذهاب معهم قال :

مالي اراني كأني في هوى مسكة مالي الى الغيد من بشر ولا حركه
مذ قيل ان ضياء الدين اسلمني للمعتدين ، وفيما قال بركه
عندي لهم كلما جاؤا بغائلة خمس ، وفيها لنفس المعتدى هلكه
سمر الحديد ، وعون الله جل ، وما ولى عليهم ابو الزغما وما ملكه [1]

ومن رائع شعره قوله :

أحسن ما رأيت في رحلتي يا نزهتي من بعدكم غيطله
ابصرتها تختال في ريطةٍ والريح في اردانها مرسلة ..
بينا انا في سبحتي ذاهلٌ والنفس في نهج التقى معمله
اذ لاح لي من ثغرها لائح أنساني التسبيح والهيلله !
من ارسل الطرف الى غيرها قد ضيع الإرسال والمرسلة !

١٣ – الشيخ سيدي :

هو ابن المختار بن الهيب الابييرى ، ثم الانتشائي ، ونسبه الاصلي

---

١ – يعني بالغوث : الصالح محمذ فال بن متالي – بالذال المعجمة – مصحف محمد فال ، وبابي الزعماء محمد لحبيب ، شيخ الترارزة .

يرجع الى تندغ (تندغة) ، ثم ان فخذه اولاد انتشاييت كذلك ، وانما سكنوا في اولاد ابيير ، وتواشجت بينهم الارحام ، ثم ان الله أعلى به اولاد ابيير وغيرهم

انه العلم الذي رفع على اهل قطره ، واستظل به اهل دهره ، وماذا نقول في رجل اتفق على انـه « لم يظهر مثلـه في تلك البلاد » !

اشتغل في شبابه بالعلوم وبرع فيها ، بملازمته لحرم بن عبد الجليل العلوى ، وكان يخدمه خدمة العبد لمولاه ، حتى ان تلاميذه كانوا لا يدخلون عليه ، الا حبوا على ركبهم اجلالا له !

وحدث من رآه في زمن اشتغاله عليه ، وقـال : ارسل حرم المذكور الى التلاميذ ، ان يذهب احدهم الى المنهل ليسقي البقر ، فان العبد القائم بامره غير موجود ، فلم ينتدب لذلك الا الشيخ سيدى ، فلما التقى بالبقر ، جعل يقرأ مع التلاميذ على ضوء النار ، فارسل اليهم ايضاً ان يحلب احدهم البقر ، فلم ينتدب لذلك غير الشيخ سيدى ، ثم انه رجع بعد حلب البقر ، وجعل يقرأ ايضاً ، فوافى رسول من حرم (حرمة) ايضاً ، بان يحضر احدهم قرى الاضياف النازلين عنده ، فلم ينتدب لذلك غير الشيخ سيدى !

ولما تضلع من علمه ، شد الرحل الى الشيخ المختار الكنتي بازواد من مسيرة شهر ، واكثرها غامر ، ثم وصل اليه ، ولازمــه ستة اشهر ، ثم مات الشيخ المختار ، فبقي عند ابنه سيدى محمد المعروف بالخليفة ، لقيامه مقام ابيه ، فلازمه عشرين سنة يخدمه فيها ، حتى برع في معرفة الطريق ، وعلم الاسرار ، ثم رجع الى بلاده ، فنزل

اولاً في تندغ ، اصله القديم ، فلم يكترثوا به ، ثم رجع الى قبيلته اولاد ابيير ، فتلقوه بما هو اهله واكرموه ، واعترفوا بفضله ، فلم تزل فضائله تبدو ، حتى اذعنت له الزوايا وحسان ، وصار مثل الملك بينهم ، فلا يعقب امره . وكان اهلا لذلك ، كرماً وحلما وعلما ، وظلت الدنيا تنثال عليه ، ويفرقها في الناس ، وقدم مراكش في ايام المولى عبد الرحمن ، واظنه كان متوجهاً للحج ، فرجع بسبب المرض في الحجاز ، ونال حظوة عظيمة من السلطان .

قال الفاضل عبـد الرحمن الجزولي ، المعروف في مراكش بابن التلمود ، وكان ابوه كاتباً للمولى عبدالرحمن انه لما قدم الى مراكش ، وجه المولى سيدى محمد بن المولى عبد الرحمن ، الكن لا يبين اللازم ، فنقل في فمه ، فانطلق بالكلام . وكان يبحث عن الكتب في مراكش ليشتريها . فاذا اراد ان يقضي الثمن ، يسلم الى البائع ما بقي عن المحاسبة بالغاً ما بلغ .

وكانت العرب في ارض شنقيط (موريتانيا) ، تجعله حرما آمنا ، فيجتمع عنده احدهم ، بمن قتل اباه او اخاه ، فيجسلهما على مائدة واحدة ! واذا بلغ الجاني نواحي البلد الذي يقيم به ، امن على نفسه . ولم يمض عليه يوم ، الا وعنده الاف من الناس ، يطعمهم ويكسوهم ، ويقضي جميع مآربهم ، حتى لقي الله ، ولا يسأله احد حاجة الا اعطاه اياها ، بالغة ما بلغت !

وكان تلامذته يريدون ان يقللوا من ذلك ، فما امكنهم . وسأله يوماً شخص حمارا فقال : اعطوه الحمار الفلاني . فقالوا : انه غائب . فقال : اعطوه الجمل الفلاني . فقالوا : ان الحمار قد حضر . فقال : اعطوه اياهما معاً ! وجاءه احد ابناء شيخه ،

فاعطاه جميع ما يملك من الدنيا ، ثم عاد اليه بعد مدة ، ففعل ذلك ثلاث مرات !

وشكى اليه انسان سوء معاملة امرأته اياه . فقال له : وما مالكم ؟ فأخبره بأن عندهم شيئاً من الغنم ، وحماراً وامة . وقال : ان هـذا لامرأته . فدعا بأحد تلامذته، وأمره ان يعطيه غنماً وحماراً وامة . وقال له : انها سيسهل أمرها !

وشكا اليه تلامذته المكلفون بالاضياف كثرتهم . فقال : انحروا من الابل ما يكفي . فقالوا : انها مهازيل وليس فيها من السمان الا ناقة ، روي من لبنها اثنان لكثرته . فقال : انحروها ، فانها ستشبع مائة !

وكان يبلغه ان الطريق منقطع في الجهة الفلانية ، لعدم عمارتهـا ، فيحفر فيها الآبار ، ويبعث المؤن الطائلة لقرى المارين . وفضائله أكثر من أن تذكر ، رحمه الله . وكان شاعراً مجيـداً . وما رويت له الا القليل . قال يحض على حسن المعاشرة :

أيا معشرَ الاخوان دعوة نادب ... الى الحق، والمعروف ليس بكاذب
أعيروني الاسماع أهدِ اليكمُ ... وصية مُصفي النصح غير مُخالب
فمن كان منكم ذا وداد وخلة ... لمرتفع الاخلاق جم المناقب
ليسحَبْ على عيب الخليل ذيوله ... ويستُر ، فشان الخل سَتْر المعايب

إلى أن يقول :

فمنزلة الاخوان فيها تفاضل ... فمنهم لذيذ الطعم عند المصاحب
ومنهم زُعاق لا تطاق طباعه ... مُعاشره يرتاح إذ لم يُقارب
ومن كان ذا (لوحٍ) وهمٍ وطاعةٍ ... فلا يدنُ للمستصبيات اللواعب..
وما أفسد الالواحَ والهمَّ والتقى ... كبيض التراقي مشرفات الحقائب
مراض العيون النُّجل حُوٌ شفافها ... رقاق الثنايا، حالكات الذوائب !

انه على تقواه وورعه يعلم عن الحسن والحسان علم خبير ..!

ذكر ان له قصيدة بديعة، يمدح بها ولي الله الشيخ المختار الكنتي ، وتستخرج منها ثلاث قصائد ، لكل منها بحر ، أعني انها كلها في بحر الكامل . ثم تقرأ أشطارها الاول ، فتكون قافية من بحر المديد ، ثم تستخرج من أوائل اشطارها الثواني . قافية من بحر البسيط ، ولكن لم يصل الينا سوى مطلعها وهو :

طلعت ببرجك للبرية أُسعُدُ   ايام جاد بك الزمان الاجود

وله قصيدة اخرى مطلعها :

أمعالم الميمونةِ السُّعْدى ذِهِ   أم انت ناظرها بمقلة أمره

ترك من التآليف شرحاً على لامية الافعال لابن مالك ، وشرحاً لمقصورة ابن دريد ، ومات سنة ثلاث وثمانين ومائتين والف هجرية .

١٤ — سيدي محمد :

هو ابن الشيخ سيدي المتقدم المشهور « بسيدي محمد » ، العلامة الاريب ، واللغوي الاديب . نشأ في نعمة عظيمة ، وكلاءة جسيمة . وما ظنك بمن ابوه الشيخ سيدي . ولما ولد هذا الفتى ، تباشرت به تلك الاقطار ، واشرأبت الى مآثره تلك الصحارى والقفار ، ولما ميز بين الحي واللي وفرق بين النشر والطي . استجلب له أبوه المؤدبين والمتأدبين ، وكان يعلمه الكرم كما يعلمه العلوم ، ويدقق في محاسبته على ما يبدو منه في عنفوانه ، حتى سما ونبل ، واقتدى به حذوك النعل بالنعل .. حتى صار كما قال زهير في هرم بن سنان وأبيه وجده:

هو الجواد ، فان يلحق بشأوهما على تكاليف مَن مِن مثله لحقا
أو يسبقاه على ما كان من مهَلٍ فمثل ما قدما من صالح سبقا

وكان الناس يظنون ان الشيخ سيدي ، لا يسد أحد مسده ، فلما مات ، وبقي ابنه هذا في موضعه ، ما تغير شيء مما كان يجريه ابوه على الناس ، الا ان مدته لم تطل ، فانه عاش بعده سنة واحدة ،وكان رحمه الله شاعراً مجيداً ، وصوفياً وحيداً ومن تأمل قصائده الغزليات ، وجد في أواخرها ما يدل على أنه كان على جانب عظيم من التصوف ، ويقال انه لما مدح اباه بأرجوزته الطنانة التي أولها :

يا سيدي إني فداكَ لله بي جاري الحما ما عنه لي من مذهب

قال له ما حاجتك ؟ قال : حاجتي ان لا اعيش بعدك ، فاسترجع والده . وبالجملة فقد كان سيدي محمد هذا ، حسنة من حسنات الدهر ، وترك قصائد تدل على طول باعه في الآداب ، وله من النكت الادبية اشياء كثيرة ،منها أنه تزوج بامرأة من غير ان يستأذن والدته ، فذهبت اليه ، تصحبها بعض عجائز الحي ، فضربنه ، فكتب الى ابيه يشكوهن :

أمِن فعل أمرٍ في الشريعة جائز يروم اهتضامي بينكم كل عاجز ؟
وكان بكم جند البغاة يهابني فصال علي اليوم جند العجائز . !
فصرت كأني قد انيت ببدعة وفاحشةٍ من نحو فَعْلَة ماعز
فلو أن ارضى ذات مَعزٍ رجمنني ولكنها ليست بذات أماعز

وكان سلس العبارة ، رقيق الشعر ، فصيحاً ، لم نر من انتقد عليه شيئاً ، سوى النزر القليل ، الذي تعفى عليه جودة معانيه ، وسلاسة الفاظه .

وكان عالي الكعب في معرفة النحو والتاريخ ، وغير ذلك . وتوجه من بلاده الى الحج ، ثم رجع من غير ان يحج ، لعارض اقتضى ذلك. ولما بلغ الى الساقية الحمراء قال :

« أحمراء السواقي » ما ورائي ألان غربْتَ أيها الانتشائي
تخال نَصيص فُتل العيس شهراً يدوم من الصباح الى المساء
ولا ينأى به مـا كان دان ولا يدنو به ما كان نائي

وكان رحمه الله ، اذا قال شيئاً من الشعر ، يبعث به الى ابيه ، فكان كلما رأى شيئاً من شعره يمرقه ، حتى قال هذه القصيدة ، يحرض الناس فيها على الاستعداد للنصارى (الفرنسيين) . ويأمرهم بمحاربة أهل البغي من قبائل حسان ، فلما عرضت على والده : قال للتلاميذ : صاحبكم الآن قال الشعر !

وفيما يلي بعض مختارات من القصيدة المذكورة وهي طويلة تبلغ ١٠٩ أبيات :

رويدك انني شبهت دارا على امثالها تقف المهارى [1]
تأمل صاح هاتيك الروابي فذاك التل احسبه أنارا [2]
وتان الرملتان هما ذواتا عُلَيَّانٍ وذا خطُّ الشقَارا [3]
وان تنجد رأيت بلا مثال جماهيرَ الكناوين الكبارى [4]

١ – الكاف في رويدك ؛ حرف مثلها في ليسك ونحوها . كما تقدم .

٢ – انار : كثيب عظيم في اوكار . واسمه الشائع انير – بهمزة ونون مفتوحتين ، بعدهما ياء ساكنة أيضاً .

٣ – خط الشقارا : ارض مستوية ، قريبة من انار المتقدم ، واسمها بالعامية : خط اشكار – بهمزة مكسورة . وشين ساكنة – وهو نبات إذا أكلته الدواب ، أحدث مرارة في لبنها ، وتتغير انفاس شار به .

٤ – تنجد : تعلو على نجد ، أي مكان مرتفع . و الكناوان : رملتان عظيمتان ، اسم الواحدة منها آكن .

هنالك لا تدع منهن رسماً بدا ، إلا مررت به مرارا
ولا تقبل لعين في رُباهـــا تصون دموعها الا انهمارا
ودُرْ بين الميامـــين العوالي فأن على معاهدها المدارا [1]

ومنها :

سقانا الحب ساقي الحب صرفا فنحن كما ترى قوم سكارى !
ترى كل الهوى حَسَناً علينا إذا ما الجاهلون رأوه عارا
واحرار النفوس تذوب شوقاً فنأتي كلما نأتي اضطرارا
ومن يأتِ الامور على اضطرار فليس كمثـل آتيها اختيارا
ترانا عاكفين على المغاني لفرط الشوق نندبها حيارى
اسارى لوعة وأسى ننادي وما يعني النداء عن الاسارى
واو في المسلمين اليوم حرٌ يفكٌ الاسر او يحمي الذمارا
لفكوا دينهـم وحموه لمـــا أراد الكافرون به الصغارا [2]
حماة الدين ان الدين صارا أسيراً للطغاة من النصارى
فـــان بادرتموه تدركـــوه وإلا يسبق السيف البدارا !
بأن تستنصروا مولىً نصيراً لِمَـن والى،ومن طلب انتصارا
مجيباً دعوة الداعي مجيراً من الاسواء كل من استجارا
وان تستنفروا جمعاً لُهاماً تغص به السباسب والصحارى [3]

---

١ – الميامين : مواضع معروفة من آوكار ، .واسمها بالعامية : ايمرزكان

٢ – الصغار : بالفتح ، مصدر صغر ككرم ، إذا رضي بالذل ، أي لما أرادوا ان يحطـوا من قدره .

٣ – اللهام : الجيش العظيم ، سمي بذلك لأنه يلتهم كل شيء . وقيل لأنه يغيب من دخله في وسطه . وتغص به : تمتلىء . والسباسب : جمع سبسب وهي المفازة . والقفر : الارض المستوية البعيدة. والصحارى : جمع صحراء وهي الارض المستوية في لين وغلظ ، أو هي الفضاء الواسع دون حد.

تمر على الأماعز والثنايا قنابله فتتركهـا غبارا [1]
ثنى رُبْدُ النعام بحافتيه وتعيي دون معظمه الحُبارى [2]
يلوح زهاؤه لك من بعيد كما رفع العساقيل الجرارا [3]
تخال سلاحه شهباً تهاوى وتحسب ليلها النقع المثارا
بكل طليعة شهباء تبدي إذا طلعت من الصدأ اخضرارا
وتخفق فوقها بالنصر رأيٌ فتحسبها بها روضاً أنارا
وفتياناً يرون الضيم صابا وطعم الموت خرطوماً عقارا! [4]
أحبوا المِلَّة البيضا فكانوا عليها من مراودها غيارى
سُطاةٌ فوق متني كل ساط قليل من ينال له عذار
بما يحويه من وصف حميد على احزان فارسه أغارا

ومنها :

فيـا للمسلمين لها اموراً لها الاكباد تنفطر انفطارا!
تهاونتم بموقعها وما ان تهاونتم بهـا إلا اغترارا
لصوص لا تخاف البأس منكم ولا العقبى فترضى ان تدارا
ولا ينجو مقيم من أذاهم ولا ابن تنائف اتخذ السفارا
ولا شيب عكوف في المصلى ولا عون النساء ، ولا العذارى

---

١ – الاماعز : جمع امعز ، وهو المكان الصلب . والثنايا : جمع ثنية ، كغنية . وهي العقبة أو طريقها . أو هي الجبل نفسه ، أو الطريقة فيه أو اليه . والقنابل : جمع قنبلة ، و هي الطائفة من الخيل .

٢ – تني : من الونى . وربد : جمع ربداء ، وهي التي بها زبدة ، وهو لون يشبه الرماد . والحبارى : طائر معروف .

٣ – العساقيل : السراب . والحرار : الحجارة .

٤ – الصاب : عصارة شجر مر . وقيل هو عصارة الصبر . والخرطوم : الخمر . وكذلك العقار

فبينا الحي خيم ذا طلال تبوأ من فسيح الارض دارا[1]

ومنها ، في حض المسلمين واستثارة نخوتهم الدينيـة للهبوب بوجـه الغزاة — ويسميهم « الروم » — ومقاتلتهم حتى الجلاء .. يقول :

وروم عاينوا في الدين ضعفاً فراموا كلما راموا اختبارا
فأن أنتم سعيتم وانتدبتم برغم منهم ازدجروا ازدجارا
وان انتم تكاسلتم وخنتم برغم منكم ابتدروا ابتدارا
فألفوكم كما يبغون فوضى حيارى لا انتداب ولا ائتمارا[2]
وما ظنوا لِعَظْمٍ جابروه كسارى بعد هيضته انحيارا[3]
وقالوا ان للفرس انتهازا وثاروا كي ينالوا منه ثارا
ولم اعرف وسوف ترون عما قليل صبح ليلكم استنارا
مهىً حور المدامع عاطفات تخوض بها القراقير البحارا[4]
اذا التفتت لجانبهـا تلافت حدار الموج لوحاً او دسارا
لئن كانت مراكبها المهارى وان كانت مراودها القفارا[5]
تلطمها العلوج على خدود كسى الوانها الفزع اصفرارا
يـدرن لهم عيوناً حائرات يغرّق فيض عبرتها احورارا
فلاهم يرحمون لهـا بكاء ولا يخشون ان تجد اقتدارا

---

١ — خيم : سكن . وذا طلال . أي ذا نعمة وسرور . وتبوأ من فسيح الارض : أي نزل داراً من متسعها .

٢ — فوضى : أي متساوون . لا رئيس لهم . قال الافوه الاودي :

لا يصلح الناس فوضى لاسراة لهم ولا سراة إذا جهـالهم سادوا

٣ — قوله : وما ظنوا لعظم الخ . انحيارا : مفعول به لظنوا . وجابروه : مبتدأ ، واصلـه جابرون له ، وحذفت النون للاضافة . وكسارى : خبر جابروه ، وهو جمع تكسير . والهيض : الكسر بعد الجبر .

٤ — القراقير : جمع قرقور ، كعصفور ، وهي السفينة أو الطويلة أو العظيمة .

٥ — مراودها : جمع مراد ، وهو موضع الارتياد ،أي طلب الكلأ .

وحلوها خلاخل من قيـود ... وقد كانت لجيناً أو نضارا
واغلالاً بأجياد وايـد ... تعودت القلادة والسوارا
تكلفها بنات الروم قسراً ... بخدمتها رواحاً وابتكارا
وكانت كلما مشت الهوينـا ... لكسر البيت تنبهر انبهارا
فيشددن الحبال بكل خصر ... رقيق الربط كان له ازارا
ويحملن الجذوع على رؤوس ... غدائرها تضل بها المُدارى[1]
وتكره للذى كـانت تراه ... حلالاً وهي طائعة شنارا [2]
فيا للمسلمين لمـا دهاكم ... الى كم لا تردون الجِوارا
اجيبوا داعي المولى تعالى ... أواعتذرواولن تجدوا اعتذارا !

ومن مطولاته الرائعة هذه النونية المثناة :

أدمعاً تبقيان بغرب عَيْـنٍ ... وقد عاينتما دار الكُنَّيْنِ
اليس من الوفاء لقاطنيهـا ... إذالة ما يُصان بكل عَيْـنِ
بَلَى ، ان البكاء على المغاني ... بمنهاج الصبابة فرض عين
وان لم يبق منهـا غير رسم ... كوشم في نواشر معصَمَيْنِ[3]
فان لها يداً دَيناً علينـا ... وحتم ان يؤدي كل دين
افاويق الصفاء بها ارتضعنـا ... مدى حولين كانا كاملين [4]

---

١ – المدارى : جمع مدرية ، بفتح الميم وكسر الراء ، وهي المشط . وتضل بها المدارى : أي من كثرة شعرها ، وهذا مأخوذ من قول امرئ القيس :

غدائره مستشزرات إلى العلى ... تضل المدارى في مثنى ومرسل

٢ – الشنار : بالفتح ، اقبح العيب والعار .

٣ – النواشر : عصب الزراع من داخل وخارج ، أو عروق وعصب في باطن الذراع. وهذا المعنى مأخوذ من قول زهير :

فدار لها بالرقمتين كأنهـا ... مراجيع وشم في نواشر معصم

٤ – أفاويق : جمع فيقة ، بالكسر ، وهي اللبن يجمع في الضرع بين الحلبتين . والصفاء ، المصفاء . وكان واسمها زائدان بين النعت ومنعوته .

ولم يسحر فؤادي قط طرف   سوى طرفين فيها ساحرين
فذانك تاركا قلبي وروحي   بنيران المحبة خالدين
فعوجا يا خليليّ اللذين   هما مني بمنزلة اليدين
عليها باكيين وحيياهـا   معي حييتما من صاحبين
قفا ثم ارجعا الابصار فيهـا   رعوداً فأرجعاها كرتين

ومنها :

معاهد عندنا في الحب فاقت   معاهد منعج والرقمتين
ليالي لا احاذر ان الاقي   صدوداً من سعاد ولا بثين
ولم تقل العذارى انت عم   نعدك عندنا احد الابين
تحن إلى الشباب ولست منه   على حظ سوى خفي حنين
فقلت لهن ان يك وخط فودي   بسوء الفاليات إذاً فلَيني[1]
فكم يوم يعز على الفوالي   به منى فراق المفرقين
وكم يوم وترت به العذارى   كيوم مهلهل بالشعثمين
يُجبن اذا دعا الداعون باسمي   كأني عندهن ابن الحسين

ومنها :

وكم سامرت سمارا فتوا   إلى المجد انتموا من محتدين
حووا أدباً على حسب فداسوا   أديم الفرقدين بأخمصين
أذاكر جمعهم ويذاكروني   بكل تخالف في مذهبين

---

١ – الوخط : استواء بياض الرأس وسواده . والفود : معظم شعر الرأس ، مما يلي الاذن وناحية الرأس ، وقوله إذا فليني : اصله إذا فلينني ، فاجتمعت نون الرفع ونون الوقاية ، فحذفت الاولى . وقيل بل حذفت الثانية . هكذا قيل : في قول عمرو بن معد يكرب :

تراه كالثغام يعل مسكاً   يسوء الفاليات إذا فليني

كخلاف الليث والنعمان طوراً ... وخلف الأشعري مع الجويني [1]
واوراد الجنود وفرقتيه ... إذا وردوا شراب المشربين [2]
وأقوال الخليل وسيبويه ... واهلي كوفة والاخفشين
نوضّح حيث تلتبس المعاني ... دقيق الفرق بين المعنيين
واطوار نميل لذكر (دارا) ... وكسرى الفارسي وذي رعين [3]

ومنها :

فللعزمات اجنحة تداني ... كلمح الطرف بين الشاحطين
فشطر المشرقين تأمّ آناً ... وآونة تأمّ المغربين
وليس كمثلها وزر للاقٍ ... من الدهر ازورار الجانبين
فما حر يقر بدار هونٍ ... ولو كانت مقر الوالدين
واهل المرء نيل غنى وجاه ... وهل يسعى الرجال لغير ذين؟
ومسقط رأسه ضر ونفع ... وإلا فاتّباع القارظين [4]
فمال المنذرين يعد فقراً ... بلا عز ، ومال الحارثين [5]
وعز الحارثين يعد ذلاً ... بلا مال وعز المنذرين

---

١ – الليث : هو الليث بن سعد ، الامام المصري . والنعمان : هو الامام ابو حنيفة . والاشعري : هو امام الطائفة الاشعرية . والجويني : هو ابو المعالي عبد الملك بن عبد الله ابن يوسف امام الحرمين ، منسوب إلى جوين ، وهي كورة بخراسان .

٢ – الجنيد : هو ابو القاسم ، سعيد بن عبيد ، وقيل : هو ابن محمد بن الجنيد الخزار القواريري سلطان الطائفة الصوفية .

٣ – دارا : أحد ملوك الفرس ، وكذلك كسرى . وذو رعين : ملك من ملوك حمير .

٤ – القارظان : رجلان ، خرجا يطلبان القرظ ، فلم يرجعا ، فضربت العرب بهما المثل فقالوا : لا آتيك أو يؤوب القارظان .

٥ – المنذران : المراد بهما المنذر اللخمي ، والد النعمان ملك العراق . والمنذر الآخر : هو ابن ماء السماء . والحارثان : الاكبر الغساني ويكنى بابي شمر ، والحارث الثاني ابنه . ويقال له الحارث الاعرج وامه مارية ذات القرطين . والمعنى ان المال إذا لم يكن معه عز ، فهو فقر ، كما ان العز إذا لم يكن معه مال فهو ذل ، وهو من احكم القول !

فعش حراً فأن لم تستطعه   فضرباً في عراض الجحفلين[1]
وهون في أقاصي الناس هين   وهون في العشيرة غير هين
فما المنكور من اصل وعين   بكالمعروف من اصل وعين

والقصيدة طويلة تبلغ ١١٣ بيتاً ، اقتصرنا منها على هذا المقدار .

ومن شعره المطرب وهي من عيون الشعر اطلاقاً :

ما حل عقدة عزمي سحرُ حَوراء   ولا ازدهى طودَ حلمي برُق زهراء!
عصر الصبا انتّقتني ، فاقتديت بها   سُبل الهُداة واخلاق الاعفاء
حبست نفسي بسجن الصبر منتضيا   عزمي ، وقيدت الحاظي باغضاء!
كي لا تمر إذاً في وجه غانية   بروضة من رياض الحسن غناء
ماء الملاحة جار في مسائلها   الى منبر اقاح وسط حواء
فتنثني لفؤادي وهي رائدة   له ، فتخبره بالرعي والماء !
حتى اذا القيهَل التاءَت[2] حديقته   به ، وهمّت بإزهارٍ فإزهاء
وكاد يصبح ليلي بعد دهمته   وآن وقت انتباهي بعد اغفائي
سَرّحتها من وثاقي ، اذ وثقت بها   والعجب أصلٌ لما في النفس من داء!
فآنست في صِوار العين آنسةً   وفي السحائب منها برق غراء
فانهدّ اذ ذاك طود الحلم وانتكثت   مني عرى العزم لمحَ الطرف من راء
حتى هممت بشيء ما هممت به   ازمان لاقَ بأشكالي واكفائي
حسناء هام بها قلبي ، ولا عجب   كم هام قاب فتى قبلي بحسناء

---

١ — قوله : فعش حراً الخ . هذا مأخوذ من قول الشاعر :

فعش عزباً فان لم تستطعه   فضرباً في عراض الجحفلين

وهذا يسمى تضميناً لشهرة البيت .

٢ — القيهل : الوجه . والتاءت : استدارت . والحديقة في الاصل : كل ما احاط به البناء . ومراده استدارة شعر لحيته على وجهه . ومعنى : وهمت بازهار فازهاء : اي حان ان يبدو فيها الشيب .

هن اللواتي اذقن الموت عروة والنهدي عن مقلتي هند وعفراء [1]
وابن الملوح قيساً في فتوته اصمين ،وابن ذريح اي اصماء [2]
كم ذا هممت بوصليها، فتردعني عنها روادع من آي وانباء
فانثني ، وأقول الله أرحم ان يولي انتقاماً على وصل الاحباء!
ولم ازل هكذا حتى تنهنهني عداوة وردت بين الاخلاء [3]
هنالك ازور كرهاً عن زيارتها كي لا يجر لها المكروه جرائي
وأي شيء على الاحرار أشنع من تسبب في معاداة الاوداء!

* * *

هذا، وليست يد لي ان اعادي من شدت يدها بقلبي بعد ايداء
ولا ودتني ،ولا انقادت الى قودي ولم ترق كأرباب الارقاء
واقبلت تتشكى وهي مشكية كالقوس رنت وقد شاكت بحراء [4]
وشافع في محياها شفاعته يمحو بها حوبها من كل حوباء
اما وعزة من أهوى علي على هوني عليها ، وابعادي وإقصائي
اولا خشاتي عليها سوء عاقبة لما يعقب تماديها بأنهاء
لصلت للوصل جهراً لا تنهنهني زرق الاسنة في أيدي الاشداء!!
حتى أمر حبالا لا يغيرها طول التنائي ، ولا مشي الأنماء
فأمزجن بروحي روحها ، فنرى روحاً بشخصين ،مزج الراح بالماء!

---

١ – عروة : هو ابن حزام العذري ، صاحب عفراء . والنهدي : هو عبد الله بن عجلان ، صاحب هند .

٢ – ابن الملوح : هو مجنون بني عامر ، واسمه قيس ، ويقال له مجنون ليلى . وابن ذريح : صاحب لبنى بنت الحباب .

٣ – قوله : عداوة وردت بين الاخلاء ، يشير إلى قوله تعالى « الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين » .

٤ – قوله : كالقوس رنت وقد شاكت بحراء : هذا مأخوذ من قول ابن الرومي :

تشكي المحب وتلفى الدهر شاكية كالقوس تصمى الرميا وهي مرنان

وحيثما شئت بتنا في مسرتنا ... سرّين ، يكتمنا حيزوم ظلماء . ! .
أفٍ على الصبح ما دام الوصال ! فان ... كان التقاطع ، فلينعم بسراء !

وقال أيضاً ينصح بعض اخوته :

ايها العاقــل الأريب الأبرُّ ... والفتى الماجد السريُّ الأغرُ
اصغ لي تستمعْ نصيحة ود ... أحـْرِ ان لا يأبى النصيحة بـِرُّ
ان تقل لي أتأمر الناس بالبر ... وتنسىٍ لِمْ لا فهلا تبرُّ[1]
قلت أمري سواي أمر لنفسي ... وبكيٍّ الصحيح يبرِ الأعرُّ[2]
اتق الله ما استطعت تـُقاهُ ... في الذي أنت مُظهرٌ ومُسرّ
تائباً توبة اعتراف نصوحاً ... لا تقل تائباً وانت مُصرّ
أعصِ أمر الهوى ولا تتعلّق ... منك نفس بكل ظبي يمر ..!
فاقتناص الظباء قد لا يسنّى ... واتباع الفتى الهوى قد يضر
ولكم من سعى ليصطاد فاصطيد ... ولم يحمــه الصـّيود المفر
فر منها حيث استطعت فراراً ... ثـَمّـَتَ اكرر إذا تعيـَّن كـَرّ
فالكمي المحتال طوراً مفرٌّ ... والكمي المحتال طوراً مِكَرّ
وهبَ ان الدنيا كزائل ظل ... ليس فيها لحادث مستقرّ
وكغيث ينهل حتى إذا ما ... اعجب الناس نبته يَصفرّ
فمقيم بهــا سيرحل عنهــا ... وقويم عمــاده سيخر
كل ذي جدة بها سوف يبلى ... وهــلال بدا بها يَستسر
لا يلذنّ مطعم لك فيهــا ... كل حلو من بعده الموت مر

---

١ – هذا اقتباس من قوله تعالى « اتامرون الناس بالبر وتنسون انفسكم » .
٢ – الاعر : البعير الذي به عر ، بالضم ، وهي قروح مثل القوباء ، تخرج بالابل متفرقة في مشافرها وقوائمها ، يسيل منها مثل الماء ، فتكوى الصحاح لئلا تعديها المراض ، كذا في التاج ، والمعروف ان كي الصحيح ليبرأ الاعسر ، من زعمات العرب الفاسدة .

وقال أيضاً : وكان سافر إلى بني دليم ، يريد منهم ان يردوا له ابلاً أخذوها ، لأحد المنتسبين اليه . وكانت بينهما مسافة بعيدة ، مع اختلاف بلديهما ، هواء وشكلاً . فقال في ذلك :

عينُ رُودي لترَيْ ما لم تريْ ... ذلك البحر وذي أكَمُ متيْ
كنتِ من قبل تخالين البرا ... قِبَل الغرب انتهت عند فُويْ [1]
ولك اليوم مناديح بها ... فاسرحي فيها تري ما لم تري
يا نسيم الريح ان تمررْ بحيْ ... خيمهم فوق الورى خيماً وحي
ولذات اليمن بلّغ انني ... ان تكن سلمى فاني بعض طي [2]
او تكن حَجراً ، أكُن يحي لها ... او تكن حزوى ،أكن غيلان متَي .!

وله في سفره إلى أبناء دليم أيضاً وهي من الشعر الوطني :

طال في اربع القرار قراري ... ليت شعري مالي وما للقرار
طال مكثي وانما طال فيهــا ... باختيار المليك لا باختياري
لم اكن مزمع القدوم اليها ... بل رمتني لها يد الاقدار
سئِم القلب بردها ونداها ... وخلاها البليل بالاسحار
وصفياً بها كحد المواسي ... وجذوعاً بها كحد الشفار
ليت شعري والعبد ذو اجبار ... وهو يبدو في قالب المختار
هل يُسنّى لنا سجيس الليالي ... عوض من عودة الى (أوكار)
حيث تبدو تلك المعالم غراً ... حسنها سر أعين النظار
نمّقتها يد الحيا بلعاع ... شاب حُسن ابيضاضها باخضرار
تلك ارضي التي احب وأهوى ... وهي حقاً منازل الاحرار

١ — فوي : مصغر فاي ، وهو ارض متسعة صلبة ، ومساحتها كبيرة ، وهي معدودة من آوكار .

٢ — ذات اليمن : تعني تامر زكيت . و سلمى جبل لطي عزيز عندهم. و حزوى : كثيرة الذكر في شعر غيلان .

عذبة الماء ليس ينبت فيهـا ... شجر غير طيب الاشجار
تُنبت السَّرح والسِّيال وأرطىً ... حاكياً في الرمال وشم العذارى
لا بلادٌ مياهها خمجرير ... منبتات طعام أهل النار
سكنتها غوغاء تنفك فوضى ... لم تميز من ليلها والنهار
طرقتك الهمومُ وهي سوارٍ ... فلماذا لطيفها انت قار ؟
ما قرى طارق البلابل قار ... مثل اعمال يَعمَلات المهار
صحبتي شمروا ، فلم يبق إلا ... شد فتَل المطي بالأكوار
قربوها بويزلات عليها ... من ذراها كعاليات المنار
فذراها لركبها ضامنات ... بعد شحط المزار قرب المزار
ملكتها رعاتها الامر دهراً ... ترتعي ما تشاء من أزهار
فهي طوراً بأقحوان وحمض ... وهي طوراً بقرقد وجدار
سلخت في الربيع شهر جمادى ... تتوخّى مواقع الامطار ..

وقال أيضاً وهي من جيد شعره الوجداني :

لعمرك ما ترتاب « ميمونة السعدي» ... بأنا تركنا السعي في أمرها عمدا [١]
سوى اننا كنا عبيد مشيئة ... ولا عار في ان يعجز السيدُ العبدا
فليس علينا ان يساعدنا القضا ... ولكن علينا اننا نبذل الجهدا
ألم تر أنا قد رعينا عهودها ... على حين لا يرعى سوانا لها عهدا
حبسنا عليها وهي جدبٌ سوامنا ... فما صدَّنا السعدان عنها ولا صدا
ويظعن عنها الناس حال انتجاعهم ... ولم ننتجع برقاً يلوح ولا رعدا
وإذ غدرت فانفضّ من كان حولها ... وفَينا فلم نغدر، ولم نخلف الوعدا
فجئنا لها حتى ضربنا قبابنا ... على نجدها الميمون، أكرم به نجدا!
ومرجع سانيها جعلنا مخيمـاً ... لئلا نصون الشيب عنها ولا المردا

---

١ – ميمونة السعدي : اسم بئر ، ويقال لها بالعامية : تامر زكيت بالحسانية وقد تقدمت .

نظل وقوفاً صائمين على الظما   نخال سموم القيظ في جنبها بردا !
وتذري علينا الرامسات غبارها   فننشقه من حب اصلاحها وردا
ويشرب كل الناس صفو مياههم   ونشرب منها الطين نحسبه شهدا !
بهذا ترى ميمونةً ، انّ تركنا   لها لم يكن منا اختياراً ولا زهدا
على اننا ، والامر عنا مغيّبٌ   ولله ما اخفى ، ولله ما ابدى
من الله نرجو ان ييسر امرها   ويجعل بعد النحس طالعها سعدا
فيرأب مثآها ، ويجبر كسرها   ويبقيَها ميمونةً كأسمها «سُعْدى» !

ومن رقيق شعره قوله :

رفقاً بنا يا ذوات الاعين النجُل   يُنال بالرفق ما بالعنف لم يُنل !
نحن العبيد الالى انتن سادتهم   فارعين فينا وصاة الله بالحول
واحذرن مما انهى عنه المهيمن من   تكليفنا غير مُسطاعٍ من العمل !

وله أيضاً :

يا ليت شعري هل في زورة حرج   لمن لها بعد ان نام الورى دَلجُ
من أعظم البر مثوى مغرم دنف   عن وصل غانية في طرفها دعج
لا سيما ان يكن بالقرب منزلهاً   ولا لها حارس يخشاه من يلج

وله أيضاً : يصف صوت مغن ، يقال له : لِمتَيَّن ، وكان أشج :

صوت الاشج هنيهات فأحيانا   كنا من الحزن امواتاً فأحيانا !
يا حسن ترداده فوق الكثيب لنا   تأتيك من قِبَل الرّيان أحيانا

وله ايضا في الصفات الخلقية الرفيعة :

أزِف الرحيل ، فقرّبا أجمالنا   ثم اجعلا فوق الجمال رحالنا

أنا اذا بلد نبـا يوما بنـا ... حملت لآخر نُجبنا اثقالنـا
ديداننا ان لا نيط حبالنـا ... الا باحبل من يحثّ وصالنا
نطوى على الشعب المواصل ما طوى ... صدرا على ان لا يشد حبالنا
سترا عليه ، وفي هواه ووصله ... نعصي ، ولو آباءنا عذالنـا
واذا رماه الدهر كنا دونه ... ترساً ، ونمنح من رماه نضالنا !
ما إن تقي اموالنا مهجاتنـا ... كلا : ولا مهجاتنـا اموالنا
واذا دعاكن الجواب وان سعى ... كنـا حواليه وكان خلالنا
ويصيب من صافى العدوّ عداؤنا ... وينال من والى الوليّ نوالنا
خلقا لنا لا صالحين لغيره ... خلقا وليس بصالح الا لنا
هذا وما كنا نحوم حوال من ... كنا نراه ولا يحوم حوالنا
واذا ابى الا القطيعة والجفا ... ورأى الصواب بغيرنا ابدالنا
قمنا فعالجنا الوصال ، فان أبى ... الا قطيعتنا قطعنا يالنـا
لمَ لا ؟ ألسنا الاغنياء بربنـا ... يا ليت شعري مالنا ؟ ما خالنا ؟
والارض لا تأبى اذا يأتي لنا ... مهما عكسنا بالرحال جمالنا
اعمالنا فتل المهارى فوقها ... حتى ننال ببلدة آمالنـا !

وله ايضاً :

أرقت عيناك من طيف الم ... هاج للمحزون مكنون الالم
زار ممن انت تهوى موهنـا ... برخيم الصوت مكحولٍ أحم
ابن بيد بات يسري مُدلجاً ... ليله حتى اذا انجاب جثم
عند حدباء القرى اسآرها ... خبطها فيح الموامى والظلم
بين مُعزٍ وتـلال وصوىً ... ورمـال وبطـاح وأكم

وكتب الى صديقين له وفيها من محاسن التلاعب بالالفاظ ما فيها :

يا ايها الراكب الموموق هبك لدي ... أخاً تقوم يداه لي مقام يدي
انت الامين على ما آن مرسله ... الى الامين الذي دأبي هواه ودي (آدني)
بلغه عني تحايا مالها كفوءٌ ... الا اجتماعاكما بعد الفراق لدي
وان جند الهوى في الصدر معترك ... بكل سهم ورمح سمهري ورُدي (ني)
لذاك قد سبقت لي منكما عدةٌ ... والوعد كان على اهل السماحة دي (نا)

وهذا النوع ، يسمى عند اهل البديع بالاكتفاء ، وله ايضاً :

فدتك وقلَّت للفدا كل غانيه ... من العين والآرام يا عين رابيه
وعنك عفا ربى دماء ارقتها ... ولم تبذلي فيها قصاصاً ولا ديه
ولا اشمت المولى بك الناس انهم ... غدوا في طلاب الثار منك سواسيه !
فمن حسدٍ قتلى ، وقتلى من الجوى ... فلم يبق جحجاح ، ولم تبق عانيه
وقد كانَ سقم الطرف للعين زينة ... ولكنها في اعين الحور خافيه
فاظهرته للناس انت لكي ترى ... عليك خفايا الحسن تبدو علانيه !
لئن صدأت من عضبك اليوم صفحةٌ ... فما في صدى عارٌ على الهندوانية
نهبت من الاعمار ما لو حويته ... لهنئت الدنيا بانك باقيه ! ١

وقال ايضاً ، وهي تدل على فهمه الرفيع لمعائب الشعر والشعراء ، وعلى ذوقه المثقب في النقد :

---

١ — هذا البيت مأخوذ من قول المتنبي :

نهبت من الاعمار ما لو حويته ... لهنئت الدنيا بانك خالد

يا معشر البلغاء هل من لوذعي   يهدي حجاه لمقصدٍ لم يبدَع
اني هممت بأن اقول قصيدة   بكراً ، فاعياني وجود المطلع ..
لكم اليد الطولى علي إن انتم   الفيتموه ببقعة او موضع !
فاستعملوا النظر السديد ومن يجد   لي ما احاول منكم فليصدع
وحذار من خلع العذار على الديار   ووقفة الزوار بين الاربع
وافاضة العبرات في عرصاتها   وتردد الزفرات بين الاضلع
وتذاكر السمار بالاخبار من   اعصار دولة قيصر او تبع
والقينة الشنبا تجاذب مزهرا   والقهوة الصهبا بكاس مترع
وتداعي الابطال في رهج القتال   الى النزال بكل لدنٍ مشرع
فجميع هذا قد تداوله الورى   حتى غدا ما فيه موضع اصبع !
والشعر ليس كما يقول المدعي   صعب المقادة مستدق المهيع
كم عزّ من فحل بليغ قبلنا   او من اديب حافظ كالاصمعي
هل غادرت « هل غادر الشعراء » في   بحر القصيد لطامع من مطمع [1]
والحول يمكثه زهير حجةً   ان القوافي لسن طوع الامّع
ان القريض مزلَّةٌ ، من رامها   فهو المكلف جمع ما لم يُجمع
ان يتبع القدما اعاد حديثهم   بعد الفشوّ وضلّ ان لم يتبع
والشعر للتطريب اول وضعه   فلغير ذلك قبلنا لم يوضع
واليه ترتاح النفوس غلبةً   فيميلها طبعاً بغير تطبع
ينساغ للاذهان اول مرة   ويزيد حسنا ثانياً في المرجع
فيخال سبق السمع من لم يستمع   ويعود سامعه كأن لم يسمع !

---

١ – يشير إلى قول عنترة العبسي في معلقته :
هل غادر الشعراء من متردم   ام هل عرفت الدار بعد توهم

كالروض يغدو السرح فيه وتنثني ... عند الرواح كانه لم يُرتع
من كان مسطاعـا لـه فليأتـه ... وليقن راحته امرؤٌ لم يسطع
والجل من شعراء اهل زماننا ... ما ان ارى في ذله من مطمع

ومنها :

واليوم ، اما سارق مستوجب ... قطع اليمين وحسمها ، فليقطع
او غاصب متجاسر لم يثنه ... عن همه حد العوالي الشرع
مهما رأى يوما سواما رُتعا ... شن المغار على السوام الرتّع
فكأنه في عدوه وعدائه ... فعل السليك وسلمة بن الاكوع [1]

وقال ايضاً في رجل اسمه « نحن » كان يدعي انه من الاشراف وهو من أسقاط الناس :

لا تنكروا ما ادّعاه « نحن » من شرفٍ ... به استبدّ بآباءٍ واجداد [2]
هو (الشريف) بلا شك ولا ريبٍ ... لكنه حل في مسلاخ حداد ..!

وله ايضاً فيمن يحرم التبغ وقد شبهه مجازاً بكؤوس الشراب لشدة ما يبعث من أنس .. وهي قصيدة تدل على عقلية متحررة عند طبها .. ولم يكتف الشاعر بالرد على من حرم عليه التدخين ، بل عمد الى تعداد فوائده ..! فقال :

دع الاكثار من قال وقيل ... كفاك اللوم بالكلم القليل
أقلني ان عثرت على عثاري ... فخير الصحب كل فتى مُقيل

---

١ - السليك بن السلكة ، وسلمة بن الاكوع هما من مشاهير الشعراء الصعاليك العدائين :

٢ - المسلاخ : الجلد . ومن كلام عائشة ام المؤمنين رضي الله عنها : ما رأيت امرأة احب إلى ان اكون مسلاخها من سودة ، تمنت ان تكون مثل هديها وطريقتها .

والا تزدجرْ عما عليه ... جبلت على التهوّر والصهيل
فاني لست منك ولست مني ... وليس رعيل خيلك من رعيلي
ولست الى القاء الله مني ... بمنزلة الرفيق ولا الزميل
ولم تك في الحساب غدا حسيبي ... ولم تك لي بمولى او وكيل
تلوّم ان تعاطينا كؤوسا ... تذكرنا كؤوس السلسبيل
تحاول ان تحرمها علينا ... فليس لما تحاول من سبيل
تريد على اباحتها دليـلا ... « متى احتاج النهار الى دليل » ؟
اصول الحل عدوها ، فعدوا ... نبات الارض من تلك الاصول !
وقبلك ملّ فيها القول قومٌ ... فما اغنوا بذلك من فتيل
وليس اللوم فيها اليوم الا ... احاديث تعد من الفضول
وان لها فوائد واضحات ... يراها كل ذى نظر اصيل !
ازالة حقد ذى الحقد المناوي ... وتحبيب الخليل الى الخليل
وجبر خواطر وقضاء حاجٍ ... ومعرفة السخي من البخيل
وفوزاً ان تعاطاها الندامى ... بتمييز الظريف من الثقيل
وايقاظ النواظر من كراها ... وابراء المتيم والعليـل
وزاد مسافر ومتاعُ مُقوٍ ... وأنساً في الاقامة والرحيل
وتحفة قادم وسرور آوٍ ... أوى حين المبيت او المقيل
وفاكهة الشتاء اذا تأذى ... وجوه الناس بالشمل البليل
وتطرب من يدرّس كل فن ... وتفرج كرب ذى الهم الدخيل
وتسلى كل صب مستهام ... عن الخدّين والطرف الكحيل
وتدفع ذا التلصص فهي اغنى ... اذا دفعت من السيف الصقيل

وفي هذا البيت الأخير معنى جيد مستتر ، وهو يشير إلى ظاهرة معروفة في موريتانيا ، وهي ان بصيص السيكارة او الغليون في الليل عندهم يخيف اللصوص المتسللين للسلب والنهب اكثر من سلّ السيوف ،

لأن بصيص النار دليل عند اللصوص على وعي الجماعة ، فيهربون ..!

وقال ايضاً

من التعذال حسبك يا عذول | فلوم اخي الغرام هو الفضول
فما تغني الملامة من غرام | تزول الشامخات ولا يزول
فلومُكهُ عسيلٌ وهو صخر | من اصفاء تضمنها مسيل
فلومك لا يؤثر فيه إلا | كما في الصخر أثره العسيل [1]
فلو شاهدت من اودى هواها | به ، ما لمت صبا يا عذول
ولكن قد جهلت الأمر منها | وليس كعالم الأمر ، الجهول
أغص مخلخلاها كل حجل | فنادت من يغيثني الحجول
فقال الثغر : عندي الخمر ، لكن | نأت داري ، وماعندي رسول ..
فقال الفرع : ارسلني فاني | إلى تقبيل موطئها وصول ..
اذا لم يعترض من دونها لي | فأحبس دونها الكفلُ الثقيل !

وقال يخاطب أباه ويفتخر :

يا سيدى انى — فداك الله بى — | جارى الحما ما عنه لي من مذهب [2]
أطنابكم موصولة بطنب | لحق ذى القربى وحق الجنب
واني قن لكم لم اشب | وذو انتساب لست بالمؤتشب [3]
وذو تعلق وذو تحبب | وذو تملق ، وذو تربب

---

١ – هذا المعنى مأخوذ من قول الشاعر :

فرشني بخير لا اكون ، ومدحتي | كناحت يوماً صخرة بعسيل

٢ – الله : مفعول به لفعل محذوف . اي : اسأل الله فداك بي ، والحما : اصله الحمام فحذف منه الميم الآخر ، وهذا هو المسمى بالأكتفاء .

٣ – القن : العبد الذي ملك هو وابوه . ولم أشب : أي ليست في شائبة عنقولست بالمؤتشب أي لم أكن مشوباً .

وسائلٌ ، وذاك غير مشعب | لكنني في نيلكـــم كأشعب [1]
وكم حقـــوق لي لم أأنـــب | ان قلت أهلها بهم اوصى النبي [2]
لا أن إليَّ منكم لم يرقبِ | غمصاً ، لما من فضلكم علق بي [3]
لكن عدا بي الطور توق رقبي | من نسبتي لكم لأعلى مرقب [4]
واحمد الله فلو لم انسب | الى حماكم في الورى لم احسب
ولم تجد ركائبي من مضرب | في مشرق الأرض ولا في المغرب [5]
نعـــم كفاني الأمتلاء جُرُبي | علمي بكم ورؤيتي وقُرُبي [6]
في جنب ذلك هباً عند هبي | ملء البرى من فضة وذهب [7]
امي فداكم بعد ان يبدأ بي | ويا ابي ، لو ان غيركم أبي !
ووجنتي لنعلكم في التيرب | وقاية من شوكة وعقرب ! [8]
من ادعى عنكم غنى في مذهب | اني الى مذهبـــه لم اذهب
اما درى من جهله المركب | بأنـــه سوى العمى لم يركب !
فأنه لـــولاكم لم يضرب | له بسهمٍ ما ، أقل مضرب
وعذره الجهل وعلم الحدب | منكم لـــه أدّى لسوء الأدب
وما على عالى الذرا من نصب | في هبة الصبا ورمية الصبي !

---

١ – المشعب : الطريق أي لم يكن السؤل طريقي ، واشعب : رجل يضرب به المثل في الطمع .
٢ – أأنب : أي لم ألم .
٣ – لأل : كل ماله حرمة ، وحق القرابة ، و الرحم و الجوار ، و العهد . والغمص : الاحتقار .
٤ – عدا بي : تجاوز بي . والطور : القدر . والتوق : الأشتياق ، ونزعة النفس إلى الشيء .
ورقبي : توقعي لما انال منكم .
٥ – المضرب بالكسر : موضع الضرب في الأرض لطلب الرزق ، أو التجارة أو الغزو .
٦ – الجرب : جمع جراب . وهو المزود . والقرب بضمتين : لغة في القرب .
٧– هبا بمعنى هباء . أي غباراً . وهبي : ان كانت مصدراً ، وهب : بمعنى ظن . فالمعنى يستقيم
الا أن وهب هذه لا تتصرف . والبرى : الأرض .
٨ – التيرب : لغة في التراب .

وكيف اغني عنكم ونسبي ونشبي منكم ، ومنكم حسبي ؟

وهي طويلة تبلغ مئة وبيتين .

وقال ايضاً وهي من روائع الغزل . والغريب أن الشيخ محمد يتعفف ويترفع وهو من اعرف اهل (الكار) في الحب والتغزل بالحسان .. مثله في ذلك مثل الشريف الرضي ! قال رحمه الله :

ما للمحبين من أسر الهوى فاد … ولا مُقيد لقتلاهم ، ولا واد
ولا حميمٌ ولا مولى يرق لهم … بل هم بواد ، وكل الناس في وادى !
يا رحمتا لهم ما كان أصبرهم … على معاناةٍ جمع بين اضداد
والناس ألْبٌ عليهم واحدٌ فلذا … ما ان ترى من يواسيهم بأسعاد ١
اما عذول واما ذو مراقبة … او زاعم النصح ، او ساع بأفساد !
ان اظهروا ما بهم ليموا ، وان كتموا … لاقوا بما كابدوا تصديع اكباد !
وهيّنٌ كلما لاقوه عندهم … لو ان احبابهم ليسوا بصُدّاد
يا عاذلين أقلوا اللوم ويحكم … اني لمن رام قودي غير منقاد
ولا يلين قناتي غمز غامزها … ولا يقيم ثقاف العذل منآدى ٢
احيث ما كنت او يممت من جهة … الفى رقيبا ، ولواما بمرصادى !
ما اعتاد قلبي الصبا لكن من ملكت … يد الغرام يُعوّد غير مُعتاد
يزداد باللوم حب الصادقين هوى … واهاً لحبٍ بطول اللوم مزداد
والطرف للقلب مرتاد ، ولا عجب … في قفو منتجع آثار مرتاد
والحب امر عزيز ليس مرتبطاً … في حكمه عند من يدريه بالعادى
ما لي وحب الألى ، يتركن منتظما … حب القلوب بالحاظ واجياد

---

١ – الألب ، بالفتح والكسر : بمعنى مجتمعين ، يقال : هم عليه ألب واحد .

٢ – الغمز : تليين القناة . والثقاف : ما تسوى به الرماح ، والمناد : الأعوج .

هل النساء سوى لحمٍ على وضمٍ ... لمبتغي نُزُلٍ ، او مبتغي زاد؟..
فهن قد هُن ، اذ صرن مبتذلا ... ما عندهن ، لأوباش وأوغاد!
لذاك اعرضت عن لهوٍ وعن غزلٍ ... وعنهما صنت انشائي وانشادي
ولي من الفكر ابكّار مشنفة ... من البديع بترصيع وأرصاد [1]
وانما بي هوى بيضاء واضحة ... كلفت وجداً بها من قبل إيجادي!
حسناء معرقةٌ في الأكرمين ،وما ... كانت لتدعى لآباء واجداد [2]
ما للزعانف في وصل لها طمعٌ ... ولا لهم سرها المكنون بالبادي! [3]

١٥ — المختار بن بون الجكني :

وصفه صاحب الوسيط بأنه « تاج العلماء ، الذي طوّق بحلى علمه كل عاطل ، ووردت هم الرجال زلاله ، فصدر عنه كلهم وهو ناهل» ولا يوجد عالم بعده ، الا وله عليه الفضل الجزيل ، بما استفاد من مصنفاته ، وتلقى من مسنداته ، ويكفيه انه هو الذي نشر النحو بعد دفنه ، وكفى الناس مشقات مؤنه ، وكانوا لا يتجاوزون قبله ما في الألفية وشروحها ، مع عدم معرفة الخطة التي يمكن للطالب ان يخزن في ذهنه بها ، ما يكون قريب التناول عند الحاجة الى ذلك ، حتى نظم لهم ما تخلف عن الألفية ، مما تضمنه التسهيل ، والصق كل شذرة بما يناسبها ، وضم الى ذلك طرته المفيدة ، وأتى على كل مسألة بالشواهد من كلام العرب ، وهو ثالث ثلاثة من قبيلته ، كلهم اسمه المختار .

وكان من أجلّ طبقته : الناتي ، المختار بن حبيب ، وهو شيخه الذي فتح عليه عنده . والمختار بن إبّيّ ، وهو من أهل القبلة منهم.

---

١ — الترصيع ، والأرصاد : نوعان من البديع .

٢ — عنى بالحسناء : الطريقة القادرية ، ومعرفة ذات أصل في الأكرمين .

٣ — الزعانف : جمع زعنفة . وهو الرذل ، ويقال للقصير أيضاً زعنفة .

قال مخاطباً لمجيدري بن حبيب الله ، ويقال له حُبُبَّل :

على رِسلك اربعْ يا بن حبّل ، انما يقدم هذي الناسُ منا المقدّمـا
ومن قدمته نفسه دون غيره رأى غيره التأخير ذاك التقدمـا
تقدمت للتصدير جهــلاً مؤخراً ذوي الرأي ، والتصدير أن تتقدما
وقلت كما ضلت قريش ضللتم الا فاسمعوا هذا الفتى المتقدما
قريش قفت اهل الضلال ونحن في هدى سلفٍ منهاجه قد تقوّما !

ومنها :

فلا تنكروني آل يعقوب ، واذكروا ليالي أجلو ما على الناس اظلما
وحين أحلّي منكم كل عاطل بدرّي ، واسقي باردي كل اهيما
فلا نولكم ان تكفروا كمحمد سنى سُرُجٍ مني تسامى وانعما
فكم قد بذات الوسع فيكم معلماً له يقظة كيما يعيه ويفهما
واهدى إلي العاب والشتم جازيا وليس جزائي ان اعاب واشتما
الا قبّح الله ابن حبُبَّل ، انه جزاني سنّماراً وما كان اظلما [1]
إلى ولد الخطّاط اهدى بعيره على انه في النّوْم منه تعلـما

وبقي منها قليل .

وكان المختار رحمه الله مكباً على تحرير العلوم ، ومن أنفع مألف ، نظمه الذي سماه بالاحمرار ، عقد فيه من تسهيل ابن مالك ، ما يذكره في الألفية ، ومزجه بها مزجاً جيداً ، يدل على مهارة تامة ، وفيه أبواب كثيرة تركت منها ، كالقسم وجوابه ، والتسمية بلفظ كائن ما كان ، وتتميم الكلام ، والإلحاق ، ومخارج الحروف والهجاء ، وغير ذلك من

---

١ — سنار : رجل بنى الخورنق للنعمان ، فلما تم بناؤه قتله ، خشية ان يبني مثله لغيره . وبه يضرب المثل في سوء الجزاء .

الفصول الكثيرة ، ولما أراد نظم التسهيل ، لم يجد شرحاً له يستعين به فذكر له الدماميني عند محمد بن بابان العلوي ، فقصده وقال :

أتيتكم يا قضاة العلم والدين ... وليس لي غرضٌ غير الدمامين
عن كل حِب به قد كنت ذا كلف ... وكاد زائدةٌ قد كاد يُسليني [1]
كأنكم وهي للتحقيق ترتفعوا ... على ظنون فؤاد ذات تحسين [2]

فقال محمد المذكور ، اعطوه له على قبح أبياته !

ولما شاع نبوغه بين الناس ، جعل الطلبة يرتحلون اليه من البلاد الشاسعة ، وكان حسن الصحبة والمعاملة للطلبة ، جواداً بما يملك ، إلا انه قليل الاقامة ، فشق ذلك على تلامذته ، لتعطل الأوقات وعدم من يقوم مقامه في الدروس ، لأن الطريق التي اجترح للطلبة لا يقدر عليها غيره ، فتعطلت دروس الطلبة مدة ثم حضر ورحل بهم إلى بئر تسمى بودريك (بكاف معقودة مفتوحة) وهو في أرض تاكانت فقال لهم : اني سأقيم هنا سنة لا أشتغل ليلاً ولا نهاراً إلا بتعليمكم ! وكان لا يمل من التدريس الليل والنهار ، فشرعوا يبنون الاخصاص ، فلما اكملوها رحل إلى السودان ، وهم بعيدو الدار ، فلما وصل اليهم ، جاءه النذير يخبره بأن ابناء دليم ، أغاروا على ابله، فانكفأ متوجهاً الى أقصى تيرس، وكان يصحبه أكبر تلامذته ، فقال أحدهم :

للك الله من شيخ إذا ما تبوأت ... تلاميذه مأوى لنصب المدارس
تيمّم ميمون الخصاصة فاتراً ... على ظهر مفتول الذراعين عانس

---

٢ — قوله : وكاد زائدة قد كاد يسليني ، أي وأسلاني ذلك ، يشير إلى ان كاد ، تزاد عند الكسائي.واستشهد عليه بقوله تعالى « ان الساعة آتية اكاد اخفيها » وهو مذهب ضعيف .

٣ — وقوله : كأنكم وهي للتحقيق الخ . معنى هذا ،اجزم بارتفاعكم على تحسين ظني بكم. يشير بذلك إلى ان كأن ، اصل معانيها التشبيه . وقد ترد للتحقيق كقوله :

فأصبح بطن مكة مقشعراً ... كأن الأرض ليس بها هشام

يفزّع نون البحر طوراً وتارةً ... يهدم جُحر الضَّبّ في رأس مادس

وكان يشدد النكير على ولي الله الشيخ المختار الكنتي ، وله في ذلك ، وقد بلغه ان الشيخ قال انه يسلبه :

اسيدنا المختــار لاتاك مفرطاً ... واياك والتفريط واعدل وأقسطا
فكونك ذا مال وجاه ورتبة ... علت في قلوب الناس،لم يمنع الخطا
وكوني لم اذكر كذكرك لم يكن ... ايمنعني التوفيق من مانح العطا
أتسلبني والله ما شاء مثبتٌ ... إذا كنت في تعظيم نفسك مفرطا

وله أيضاً في ذلك :

لئن كنتم استظهرتمو ان جعلتموا ... اموراً علينا في الشريعة لم تكن
فلا تنكروا أن كَنَّتِ الكتب عنكم ... سرائر عنا حالة البحث لم تكن

ثم انه رجع عن ذلك ، وصارت بينهما مكاتبات وملاطفات ، واتفقا على ان يجتمعا في تاكانت ، بأن يقــدم ابن بون من أرض القبلة ، ويتوجه الشيخ من ازواد . ثم ان المختار رحل من القبلة كما قال ، ولما بلغ أول طرق تاكانت ، بلغه ان الشيخ عدل عن عزمه ، وسأل عن ذلك المحل ، فقيــل له : يقال له التِّبْراتن (بتشديد المثناة الفوقية مكسورة وفتح الموحدة وفتح الراء مرققــة وبعدها الف وكسر المثناة الفوقية مخففة وسكون النون) اسم طريق من طرق تاكانت فقال لهم : بلدة طيبــة ورب غفور ، وأخبرهــم بأن ذلك محل تربته ، وكان كما قال !

أما شعره الذي وصل الينا فقليل ، ولعله كان هو نفسه مقلاً في النظم . ومن شعره — وهو شعر علماء — هذه القطعة في زنجية سوداء رام منها وصلاً فامتنعت عليه لأنه أبيض .. فقال في ذلك :

وسوداء رمت الوصل منها، فأعرضت فقلت أمثلي عنه مثلك يُعرِضُ . ؟
فقالت بلَوْني عنك ما انا راغبٌ ولكن كلوني عن كلونك مُعْرِض
وقالت سُماك (النار) اني اخافها على جسد للنار لستُ أعرّض[1]
فقلت لها ما لفظ (نار) بمحرق ولكن عذراً لي أردت يُعرِّض
وقلت لنفسي عن هواهـا صيانة ففي الذنب كل الذل للمرء يعرض
فان اعرضت عني فيا رب رَودَةٍ من البيض مني للهوى تتعرض

وله أيضاً :

وشادن اصمى الحشى طرفُهُ بفاتر أضعف من حُجتي[2]
فبتّ لا هجعة من همه في ليلة اطول من حِجَّة[3]
تعتادني من ذكره زفرة احط للآنـام من حَجّة[4]

وله أيضاً، ابيات يهجو بها جملاً له، وقيل هي لأحد إدابَلْحَسَنْ :

لحاك الله من جمل حيادي تفجّعُه مُخايلةُ الهواء ..!
بَرُوكٌ إن نُرِدْ منه قياماً يميل من البُروكِ الى اتّكاء
وأحمَلُ للمضارب من جمادٍ ويحرنُ في الخلاء على الخلاء!!

قال صاحب الوسيط انه كان حياً في أوائل القرن الثالث عشر، وقد طبعت طرته المسماة : «بالاحمرار» في مصر ، وطبع بعض تآليفه بمدينة فاس .

---

١ – معناه : ان السودان يسمون العرب (نار) . وقد سمعتهم في بلادهم يقولون . إذا رأوا أحداً من العرب : (نارب) ، أي يا أيها النار .. قيل سبب هذه التسمية . انهم حاربوهم ، منذ زمن طويل . فكانوا يحرقون ابنيتهم بالنار ، لأنهم يسكنون إلى الآن في اخصاص الحشيش .

٢ – أي اضعف من حجة نحوي .

٣ – الحجة بكسر الحاء : السنة .

٤ – الحجة بفتح الحاء : واحدة الحج .

١٦ – الامام بن محمد الفغ الجكني

محمذٍ بالذال المعجمة منون مكسور ، وهو مصحف محمد ، شاعر مفلق ، وهو اشعر أهل تجكانت ، ولم أقف له على غير قصيدته الآتية ، ولو لم يكن له غيرها ، لاستحق ان يعد مع أصحاب الواحدات مثل سويد بن ابي كاهل ، وله قصائد يجيب بها المأمون اليعقوبي وعن شيخه ، ابن عمه المختار بن بون ، وقد وصلت الى المختار قصيدة جيدة ، يهجو بها المأمون ، فقال لتلامذته : من يحسن ان يجيبها منكم؟ فقالو له : « الأمام تحت الشجرة ! » وهذه كلمة يقولونها ، لمن لا ينبغي ان يتكلم فيما غيره أقدر على القيام به منه موجود ، وسافر الأمام المذكور ، مع جماعة من قومه الى سجلماسة ، فأصابهم بها جدري فأوهن قواهم ، ولم يساعدهم أهل البلدة ، فقال هذه القصيدة الطنانة . وأخبرني بعض فضلائهم ان اهل تجكانت أكلن – بكاف معقودة – الى الآن ، لا يسمعونها الا ووقع فيهم العويل ! وهي :

واهاً لمرضى رهان في سجلماس ... نائي المؤانس والعُواد والآسي [١]
واهاً لها من حُشاشات يساوقُها ... تنُو جسومٍ الى تصعيد أنفاس
ومن عظامٍ وأشلاءٍ ممزقة ... كأنما لبثتْ حيناً بأرماس !
ما كان أطول اياماً عليّ حسن ... وصحبة ظلتُها منهم على ياس
كأنما شربوا فيها ، وما شربوا ... عصارة الكرم من بَيْسان أوراس [٢]
صهباء طاف مُهيْنِمُ اليهود بها ... دبّابة في عظام الظهر والراس! [٣]

---

١ – واها : اسم فعل بمعنى اعجب . ورهان : جمع رهين . وسجلماس : مدينة بالمغرب الأقصى . والمؤانس : اسم فاعل آنسه . والآسي : الطبيب . و« تنو جسوم »في البيت الثاني : مصدر ناء بالحمل ، اذ نهض به بمشقة .

٢ – عصارة الكرم : ما عصره منه والمراد بها الخمر . وبيسان : بلدة بالأردن ، واقعة بين حوران وفلسطين . واليها تنسب الخمر . ورأس : مدينة مشهورة من مدن الجزيرة ، بين حران ونصيبين .

٣ – مهينم اليهود : الذي يصوت بالهينمة ، وهو الصوت الخفي ، يعني انه يغني .

سقاهم الجدري كأساً بها شرقوا … تفديهم النفس، من شرب على كاس!

من كل جلد على الضراء مصطبر … يقسو اذا لان من ضرائه (الفاسي)

يصحو المريض وينسى من معاهده … يوماً وما هو بالصاحي ولا الناسي

تهتز منها ذماء كلما سجعت … خطباء تبعث ما بالواله الآسي [4]

تبكي لهـا أخر أبدانهن كما … خط الزبور يهودي بقرطاس ..

يا بعد منهم حلول قاطنين على … عد تحف بدور منه أدراس

ارسوا على كل نجد من محاضره … خيماً ، مثابة اضياف وجلاس

يلقون للضيف ما القى مراسيه … منهـا مراسي اوتاد وأمراس

حتى تهب عن ايسار الخيام صباً … تنحل منها عزالى كل عراس

حتى إذا انجدل العامي وانتسجت … من وارق النبت اجناس بأجناس

حلوا عوالي انجاد على نطف … زرق دموع مُلِثّ الودق رجّاس

ما زال من معصرات الدلو يسكبها … على الأباطح فيضاً غير أبساس

على بطاح فلاة لا أنيس بها … الا مراويـد آرام بأكناس

ترتاح مغزلة منهـا لمغزلة … من ام درّاج او من ام خنّاس

كأنهن عذارى بين احويـة … ترتاح منهن ميناس بميناس

حتى غدت مثل جحر الضب واحتملت … منها السيول جماهيراً لأجناس

واضمرت نطفاً منهن وابتسمت … عن ثغر كل شنيب الثغر نواس

كأنه ونداهـا منـه منتشر … زجاجة نثرت من زيت نبراس!

احوى اغر ، تحاماه الرماح فلا … يدعو النفوس له تزيين وسواس

الا ظعائن من (جاكان) ترتعه … لا عن ذمام ولا تجساس أحراس

لا بل مهابة سادات اذا اختلفت … هل النوادي وآساد لدى الباس

غيظ العدى، ورضى المستنجدين اذا … هبت رياح الصبا ادبار عسعاس

تغدو عليها المتالي من منازلهم … نثر الدراهم من أفواه أكياس!

---

٤ – الذماء : بقية النفس . والخطباء : التي بلونها خطبة ، وهي لون يشبه الرماد . والواله : الذي به وله . والآسي : الحزين اضناه الأسى .

شُوْلٍ تَرِيع الى بيضٍ مُعطَّفَةٍ — طيٌّ الأهلّة في ألوان كراس
سود حقائبها من طول ما نَضَجت — منها توالي ابراجٍ واقواس
وترتعيه حواليها مُؤَبَّلَةٌ — من الهُنيدات لا أذواد مفلاس [1]
فيها الحواني وامّات الرِّباع سُدًى — لا من صِرار ولا من زجر بسباس [2]
كوم تروح وتغدو فيه من كَثَبٍ — تأوي الى خَيَم ارفاضٍ وسُوّاس [3]

١٧ – سيدي عبدالله

ابن أحمد دام ، الملحوظ بالاعظام ، من أقر بتفوقه جميع معاصريه، وأذعن له من أهل قطره حاضره وباديه . برع في صوغ القريض ، حتى كان طوع فكره ويقال ان اول ما نظم قوله :

أما والغواني من أناةٍ وناهدٍ — وما طاب من ايامها والمعاهد
وما لذّ للعينين من بَشَراتها — وللسمع قِدْماً من حديث الخرائد
لقد نزلت ارضاً اميمة منزلاً — من القلب لم تظهر به عين رائد

وكان حر الافكار ، سالماً من التعصب ، يعتمد على فكره ، من غير متابعة الناس، على ما يعتقد خطأهم فيه . ووقعت بينه وبين الصالح الناسك ، محم بن أحمد البوحسني وحشة ، سببها ان بعض القبائل ، وقعت بينه وبين ادا بلحسن فتنة ، فقتل ادا بلحسن من تلك القبيلة

---

١ – حواليها : حولها . والمؤبلة : الأبل المتخذة للقنية . والهنيدات : جمع هنيدة ، وهي اسم الأبل ، أو لما فوقها ودونها أو للمائتين . والأذواد : جمع ذود ، وهو من الثلاثة إلى العشرة .

٢ – الحواني : جمع حانية ، وهي التي تحنو على ولدها لصغره . والرباع : جمع ربع : وهو الذي نتج في زمن الربيع . وسدى : مهملة من غير راع .

٣ – الكوم : جمع كوماء ، وهي عظيمة السنام . وعن كثب : أي عن قرب . وخيم : جمع خيمة كما تقدم . و ارفاض : جمع رافض أي يرفضون من لا يرجى اصلاحه . و سواس : جمع سائس .

رجلين ، فوفد اليهم محمّم المذكور ، فتحمل لهم خمس ديات مغلظة فقال :

ايا شيخنا الاستاذ انت إمامنا وكنت لنا عند الخطوب ملاذا
حملت رعاك الله ما لا نطيقه وهل حملت « تـيـْزكـ » قبلك هذا؟
مضوا يسقطون المُدّ ثم تبدلوا به عُكَّة إذ يحضرون جذاذا
فذى ديّة من غير عقل ولا دم وتان قضاء واثنتان لماذا

فقال محم المذكور : ان لماذا لا ترد في عجز الكلام لأن الاستفهام له الصدر فقال :

هي العرب تأتي من وجوه كثيرة يتيه بها بعض النُّحاة الأكابر
لذلك أضحى بعض اشياخ معشري يقولون ماذا لا ترى في الأواخر
والف لماذا في النوادر كررت وهل تجهل الاشياخ ما في النوادر ؟

يشير إلى قصة الاعرابي ، الذي سأل بعض الامراء ، فقال له : ما يجبر كسرك ؟ فقال : الف والف والف . فقال الامير : الف لماذا ، والف لماذا ، والف لماذا ؟ فذكر الاعرابي لكل الف وجهاً يصرفها فيه ، وهي في امالي ابي علي القالي ، وكتاب « الامالي » يعرف عند اهل الصحراء بالنوادر . قالوا : فقال الشيخ « ابعده الله » فكان ذلك سبب جولاته .. ووقعت بينه وبين اديبج مشاعرات ، تقرب من المهاجاة وسببها ان اديبج كان يهجو التجانيين ، وكان سيدى عبدالله المذكور يعتقدهم . ومما قال يخاطب اديبج :

صاح لا تسع ان تلم بناد يتعاطون غيبة العُباد
عدّ عن ذاك ، وليكن لك شُغلٌ بالذي فيك من خفي وباد..!

كيف لا يغنم السلامة مني رائحٌ في عبادة الله غـاد
ان بدا ما يقرر الشرع عندي منه ، سامت تاركاً للعناد
واذا ما بدا بعيد احتمال لسداد نسبتـه لسداد
إن نُكراً نكير من ليس يدري وقمينٌ بالعزلِ ترك الجلاد
واذا لم يكن لديك نصاب فايزك المليّ ذو الأذواد
ان أمراً قد أحجم الحَبر عنه نجل عبد الجليل وابن الجواد
لجديرٌ ان لا تكرّ إليـه كيف كر البغال بعد الجياد..

وغلطة اديبيج في قوله — ان نكراً نكير من ليس يدري — حيث نكر اسم ان ، وذلك غير صواب ، لأن الأعشى ميمون ، من الطبقة الأولى من الجاهليين قد نكره قال :

إن محلاً وإن مرتحلا وإن في السفر اذ مضوا مهلا

وفي قوله « فيترك الملي ذو الاذواد » لأن الذود ، تقـال للثلاث وما فوقها الى العشر ، وافعال جمع قلة ، وهو ايضاً من الثلاث الى الى العشر ، والحاصل ان من عنده اذواد لا يقال له مليّ وهذا غير سديد ، لأن الذود قيل فيه : انه من الثلاث الى العشرين ، وقيل الى الثلاثين فأذا جمعنا ثلاثين عشر مرات صار ملياً ، ولأن جمع القلـة قد يرد للكثرة قال تعالى : « ولو ان ما في الارض من شجرة أقلام » ولا يقال : ان اقلاماً هنا للقلة معنى ، وله أيضاً في هذا المعنى .

من كان في مذهب التيجان ممترياً فأنني لكمال الشيخ معتقـد
من ينظر الكُتُب اللائي افاد بها ينظر كـلام محقّ كله رشد
امّا الذين تعاطوا ورده فلقـد اعيا على العد حصراً منهم العدد
وليس يعدم في الأعراج غص بهـا فيح الفلا عرجٌ في البعض او حرد

ان يأت منتسبٌ يُنمى اليه بما يخالف الحق ، عقّ الوالد الولد!
فأردد عليه بمضمون الثلاثة في قيد عن الشيخ لا يجمع بك الحسد
سُم وحيّ ، فلا تذهب لتعلقه ان العقول عن اسباب الردى صفد

ذكر ان له رائيتين في بحر واحد ، ومطلع كل واحدة منها :

سلام كما هبّ النسيم المعطّر إلى فَم احوى ، طيب النشر أدفر

وقال وهو في ارض اسنغان :

الا ليت شعري هل الى معهد النوى خلاصٌ من أيدي النأي والجوَلان
وهل لي بجنبي (تغرريتَ) الى الصفا الى الاجرع الغربي ، فالجرذان [1]
الى جنبتي ذي قسطلٍ متنزه فإني اليها دائم الهَيمان
وتبدو لعيني بلدة واحبةً عداني طويلاً عنها الملوان
فيرأب ما أثأته ايام سالمٍ وأيّامنا في ساحة السنغان
واخرى اقمنا في قرى (جلف) التي اقمنا بها في ضيعة وهوان
فمن منظر تقذى به ورطانة تصمُّكَ .. أخزى منظر ولسان. ! *
بلاد رمتنا بينها ، لا محبّب الى العين مرآها يد الحدثان
ومن صَحِب الايام أنأين جاره وأدنت له من ليس بالمتداني !

وقال وهو في أرض السودان :

مِن أين وأنّى للفؤاد صدود وفي كل أرض من بلادك رود
اذا أنا أزمعت الصدود تلاعبت بعقدة عزمي اعينٌ وخدود
فأصبحت مشغوفاً بكل مليحة بدت لي ، فبيضٌ بعضهن وسود

---

١ – الجرذان : تعريب محل اسمه في اللغة الشلحية : اندومر .
* في هذا الشاهد الحسي برهان على إصالتهم العميقة في العربية لساناً والعروبة قومية !

وقال أيضاً :

بينما نحن (بانتجال) نوام   اذا أتتنا تميس ثم « أمام »
وانتبهنا ، وقد ملئنا سرورا   فأذا الأمر كله أحلام !

وله من قصيدة يمدح بها العلامة ، حرم بن عبد الجليل العلوي ، ويهجو بُلاّ بن مكبد الشقروي :

جابت على شحط المزار نوار   فيحاً اليك مُتونهن قفار
يلقى بها غرد الصدى متوسطاً   تيهاً يتيه بها القطا ويحار
لولا القتير وأربعون لأسبلت   مني عليها دمعةٌ مدرار

وقال أيضاً :

ما سفّه الحلم واستصبي أخا كِبرٍ   كالكاعب الرّود لم تعدُ اثنتي عشرة !
كأنها فننٌ ، طوع الرياح ، فما   تنفكُ مُسفِرةً طوراً ومختمره ..
عجلى القيام ، ضحوكٌ عن مؤشرةٍ   تنسي ملاحتُها ذا اؤلؤ درَرَه
وفي الجواب ، وفي كل الذي نطقت   طيش ، ترد به الأكباد منفطره ! !
يخال ذو الجهل ان الخود ليس لها   لُبٌ ، ويعجبه من ذاك ما اختبره

فغضبت امرأته من هذه الابيات ، وخرجت من بيته .. وقالت له: إبنِ بيتاً من الشعر ! فقال :

من يهجر الشعر جرّا عاذلٍ زجره   ام من يطيق صدود الحِب ان هجره
اضحت (صفية) عن لقياك معرضةً   والشعر يعرض من مكنونه دُرره
لم أدر أيهما ادهى مفارقـةً   كلّ يحن فؤادي دائماً اثره
قد كُنتِ يا ذي الى نفسي محببة   وربما صدفت حال امريء خبَره

طاشت عن القلب رميات الحسان، سوى سهميك، قد قرعا اعشاره العشره !
فما عليك اذاً لو رُحتِ عالمة ان القريض جنىً للفكر لن يذره
ام خلتني مثل أقوام عهدتهم طوع الحلائل، لا يعصون امر مره..؟
كلا .. لعمر بنات الفكر نمّقها حرّان ، ذاد بها من همه شرره
بل ليت يوماً فتاة الحي اذ أمرت ان ابتني من قريضي واسع الحُجُره
تدري حقيقته علم اليقين لكي ترى البيوت سواه غير مُعْتبره !

وقال ايضاً : وسبب هذه القصيدة ، انه لما كان في اقاصي السودان اشتاق الى اوطانه واهله فترك اولاداً له صغاراً ، ورجع الى اهله . فلما أقام مدة بين اظهرهم ، اشتاق الى اولاده ، وحن اليهم فأراد قومه ان يثبطوه عنهم . فلما علموا انه لا يمكنه تركهم، جعلوا يعدونه برفقاء ليأتي بهم ، فقعد سنة ينتظر وعودهم ! فلما تحقق خُلفهم ، شد رحله على جمله ، ووافاهم في مسجدهم ، فلما قضوا صلاتهم ، قال لهم : لا يخرج احدٌ حتى اتم كلامي ! فأول ما نطق به ، ان اقسم لهم ان لا يصحبه احد منهم ، ولا يأخذ منهم زاداً ولا غيره ، ثم انشد القصيدة ، وركب جمله ! فبعد مدة طلع عليهم في مسجدهم ذلك ومعه اولاده وعنده خمسة عشر عبداً .. وها هي القصيدة :

تجلدت للتوديع والقلب جازع واخفيت ما كادت تبين المدامع
ترقرق دمعٌ لو اطعت غروبه ذرفن كأجرى ما تفيض الدوافع
فيا عجباً اخشى الفراق وطالما حرصت عليه مُكرهاً انا طائع
امرّ النوى منأى حبيب اذا دنا لَونْك بمحبوب بلاد شواسع
هما طرفا ميزان شوق كلاهما تُطالقني اهواله ، وتراجع
انيحت لغرب الارض مني زيارةٌ وفي الشرق ارض في المزار تنازع
الا فارحلا قبل الصباح مطيّنا فلم يبق الا ان تجاب البلاقع

الى حاجة لم يثن عنها عزيمتي ... صديق بألوان الملامـة صادع
غدا اذ غدا فرخاه منه بمنظر ... يُشبط لو ان الشجي يطاوع
أ أُصغي وافراخي قدّ اعرض دونهم ... عِراض الفيافي والجبال الفوارع
دعاني الى نسيانهم كل راقمٍ ... على الماء صُمّت عن دعاه المسامع
اذا وعدوا بالمال ثم ذكرتهم ... تلاشت اذاً او يعلمون المطامع
وان خدعوا بالغيد غادر ذكرهم ... لديّ هباء ما وشاه المخادع
وان قيل في اهل التغرّب اسوة ... فما انا للضاوين في العجز تابع
سأعمل سير النجب نصاً اليهم ... واهمِل لَغواً رأي من هو راجع
ومعطي عهودٍ أن يرافق اصبحت ... تمرّ بها نُكبُ الرياح الزعازع
يضاعف من عزمي على السير كلما ... بدت من ضمير المُخلفين الجنادع[1]
بدا ما طوى من كان يزعم انه ... سيطوي اليّ البيد والحق ناصع
تكاسل اخواني الأقارب في الرخا ... لدن صدعت شملي الليالي الصوادع
فما استأجروا لي صاحباً من سواهم ... فربّ اجير في المضايق نافع
ولكن كفتـني مِنّةٌ سيمنّها ... فتى لم تدم مني لديه الصنائع
جَلادةُ نفسٍ بين جنبي مجربٍ ... تهاب قتاد المنّ منه الأصابع
ويصغر في عينيه ما استعظم الذي ... تهون لديه الداهيات القوارع
اما والموامي والهواجر والسُّرى ... وانضاؤها منها رهيص وظالع
لئن اسلموني للنوى، لم يكن معي ... اخ لحميّا وحشة البين دافع
لما اسلموا حيران يعيى بأمره ... اذا راح كل الناس وهو مقاطع
ولكن غنى النفس امضى عزيمة ... من العضب جلاه الكمي المصارع
تعوّد فقـدان الرفيـق بأمكـن ... تغول بها نفس الجبان الروائع
خليليّ من يخشى اعتساف تنوفة ... لواه بحوجا وهدها والأجارع

---

١ – الجنادع : أوائل الشر ، واحدها : جندعة ، وهذا مأخوذ من قول محمد بن عبدالله الأزدي :

لا أدع ابن العم يمشي على شفا ... وان بلغتني مـن اذاه الجنادع

فأني لمقدام عـــلى كل مهمهٍ يتيه به لو كان يغشاه رافع [1]
جسور على دهم المخاوف في يدي عرى الحزم،لا يلفى بها وهو ضائع
صبورٌ على برح المشقات ، ينثني عن َ اهوالها الزرق العيون السمادع
ولست لأمرٍ ان تعاصى بتاركٍ ولست لمرءٍ في أموريَ أطـاوع
اصيخ اذا قالوا ، واتبع ما أرىً وما سيف َمنقاد القرينة قاطـع
وما ضم ثوبـي عاجز الهوء كلما اشار عليه غيره فهو طـائع
شكوت الى المبدي المُعيد بمثل مـا شكوت به ، اذ عوقتني الموانع
فسنّ امتناناً أمرَ حوجاء طالمـا لوت ، فانثنى باليأس من هو طامع
الا ليت شعري،هل أراني بصبيتي طليقاً من َ أيدي النأي والشمل جامع ؟
عليّ إذاً إطعامُ اضعاف من مضى وصومٌ بصيفٍ ، سبعة متتابع [2]

وهو من شعراء صدر القرن الثالث عشر .

١٨ – ابن السالم البوحسني

هو محمذٍ بن السالم (بذال معجمة مكسورة منونة) مصحف محمد البوحسني ثم البانغمرى ، وهو من قبيلة الذي قبله : شاعر مجيد رقيق الألفاظ سلسها ، وقد رآه صاحب الوسيط ووصفه بأنه أسمر ، وكف بصره في آخر عمره. وكان يقول اذا سمع الناس يطرون الأحوال الآني: « انا اشعر منه وأحول » وكان القياس ان يقول : وأشد حولا ، لأن

---

١ – يتيه : يضل . ورافع : هو رافع الطائي الصحابي ، وكان من أشد الناس هداية . هو دليل خالد بن الوليد ، لما بعث اليه ابو بكر رضي الله عنه : ان سر إلى العراق . وكان خالد باليمامة وأراد سلوك المفازة ، فقال له رافع : قد سلكتها في الجاهلية ، هي خمس للابل . ثم اقتحم به وبجيشه تلك المفازة ، فلما كان في الليلة الرابعة ، قال رافع : انظروا ، هل ترون سدراً عظيماً ؟ فـأن رأيتموها والا فهو الهلاك ! فرأوا السدر ، فأخبروه فكبر وكبر الناس ، ثم هجموا على الماء !

٢ – قوله اضعاف من مضى : يشير إلى قصيدة قالها في غربته ، يقول فيها :
« علي إذاً إطعام ستين مسلماً » .. يعني إذا رجع إلى أهله . وهذا بمثابة نذر .

افعال العاهات ، لا يأتي منها فعل التعجب ، ولا اسم التفضيل، وانما جرى في ذلك على مصطلح العامة . وكان الشاعر حياً في صدر القرن الرابع عشر . ومن جيد شعره يمدح الشيخ سيدي :

قفا نستنطِق الدمَن البوالي ... ونبكي أعصُر اللهو الخوالي
قفا بي لحظةً اسكب دموعي ... بأغبر موحش العرصات بال
بشقِّ البيت غيَّره السوافي ... واقدم عهده مرُّ الليالي [1]
تكنسه ذوات شوىً ضِئال ... مكان مهى ذوات شوى خِدال
وكم غنَيت بساحته عَروب ... تبسَّمُ عن عوارض كاللئالي
خُدلّجة المخلخل علّ فوها ... شآمية كلون دم الغزال
تماطل بالمؤمل من جناها ... بغاة البُسل هيّنة الحلال
فدع هذا ، ولكن ما لسلمى ... كلفت بها،وترغب عن وصالي
تأوّه ان تغمدها نحيف ... يضمّ لحافُه شخص الهلال
وعابت خِلقتي ،والعضبُ يُلفى ... صقيلاً نصله والجفن بال !
وقافية بذلت الوسع فيها ... لتصلح ان تُزفّ الى الكمال
احاول ان اضمنها خِلالا ... تضمنها ، فمن لي بالمحال ؟
إمامٌ في مصالح ذي البرايا ... وفي كسب المحامد غير آل
يقصّر عن مداه ابو عُديٍّ ... ويحيى ،وابن مامة ،في النوال [2]
وتخجل من سناه إياتُ يوحٍ ... فتكسَف حين تدنو للزوال
ولم ار قبل مسجده مصلّى ... تضمّن وابلاً سَرب العِزال
يداه غمامتان على البرايا ... على التدآب دائمتا انهمال

---

١ – شق البيت : موضع ، واسمه بالعامية : شك الخيمة (بشين وكاف معقودة) بمعنى شق .

٢ – ابو عدي : يعني به حاتماً الطائي المشهور ، الذي يضرب به المثل في الكرم . ويحيى : هو يحيى بن خالد البرمكي ، وشهرته في الندى معروفة . وابن مامة : هو كعب بن مامة الايادي الذي آثر رفيقه بنصيبه من الماء ، ومات هو عطشاً !

فذي عمت بصيّبها ، وهذى — تخص به ذوي الهمم العوالى
تجرّد للعلى شيخان يبغي — مقامات عصين على الرجال
لمعترّ وجـــار وابن عم — وارملة توءآ كلها الموالي
وعرجلةٍ من الغرباء شعث — من اللؤواء تجأر كالسعالى [1]
جمعتً على مكللةٍ رداحٍ — كجابية المخوّل وفر مال
وعان قد فككت ، ومستضيف — حضأت له الزخيخ على التلال [2]
كلا الغوثين عالّك قهوتيه — ولم تترك لغيرك من فضال [3]
فرحت ولا يعاب عليك فعل — ولا الفيت مغلوبا بحال
تخالق بالجميل الخلق طرّا — وانت مع الخليل الفرد خال
حوت ما دون مرتبة التني — يداك من المكارم والمعالي
وانت إذاً من الثقلين طرّاً — بمنزلة اليمين من الشمال !

وكان مقيما عند الشيخ سيدي ، وكان يقابل مع بعض تلامذته الحماسة ، فمر ببيتين وهما :

ما استحسن الناس من أكرومة سلفت — الا رأوها على استحسانها فيكا
ولا تحلوا بمعنى يستحب لهم — الا وكان مُعاراً من معانيكا !

فضمنها قصيدته الآتية ، ولعل مراده حماسة ابي تمام ، فأنها لا

---

١ — العرجلة : الجماعة من الناس ، وقيل : جماعة الرجالة . وتجأر : تصوت . والسعالى : جمع سعلاة ، وهي انثى الغيلان .
٢ — حضأت : اوقدت واصل حضاء النار : ان يحرك جمرها بعد ما يهمد . والزخيخ : النار .
٣ — عنى بالغوثين : الشيخ سيدي المختار الكنتي ، وابنه الشيخ سيدي محمد ، المدعو بالخليفة .

يوجدان بها والقصيدة ها هي :

وَدْقُ الرواعيد نزر من أياديكا ونفحة المسك هبّت من نواحيكا
ومن جداك استمد البحر مادته فما جرى البحر الا من جداويكا
والشمس تخجل من انوار غرتكم كما تضاءل رضوى ان يساميكا
تدني القصيّ متى قصاه اقربه حتى يرى انه ادنى مواليكا
نيل الأماني قليل من تفضلكم على جميع الورى في حق عافيكا
وقد ارى الناس فيكم ينشدون وما منهم محيط بأدني من ادانيكا
« مااستحسن الناس من اكرومة سلفت الا رواها على استحسانها فيكا »
« ولا تحلوا لمعنى يستحب لهم الا وكان معارا من معانيكا »
مرآهم الظل يدعوهم لما وصفوا حتى رأوا ان ذا وصف يكافيكا
وهل تنال بمرأى الظل معرفة ام كيف وصفك مجهولا بماحيكا
فشأني الصمت ، ان الصمت ابلغ من نطق الألى زعموا ان بالغوا فيكا
اقررت بالعجز عما فيك يا املي اذ فيك ما فيك مما الله موليكا
اقررت بالعجز عن ادنى حلاك فلا تحرم نوالك ملهوفا يناديكا

وقال ايضاً ، وهو مقيم عند الشيخ سيدى :

أهلاً وسهلاً بطيف الخود فاطمة لكن رِبقة آل الشيخ في عنقي
طافت بنا بعد تهجيعٍ ، فقلت لها بنت الكرام ، ألا لاوصل فانطلقي
لا تحسبي نفثات الشيخ مبقيةً مرمى لنبل لحاظ الجؤذر الخرقِ
لو كنت اصبو الى خود لكنت ولكن ليس وصل الغواني اليوم من خلقي
لا ينبغي لأمرىءٍ امسى تعلّقه بالشيخ يصبو الى الجيْدانة الفنُقِ

ما حضرة الشيخ ملهى عاشقٍ كلفٍ ولا الكلى والعُجى يُجمعن في شُدُقِ [1]

وقال يصف طباعه :

يا باحثاً عن طباعي كي ليعرفها فعلي يعبّر عن ما رمت تعبيرا
اني امرو لم تكن يا زيدُ راحتهُ ولم يكن ماله يوماً دنانيرا [2]
لكنما تلوه التمييزُ مُظهرةٌ ضريبة المرء ان لؤماً ، وان خيرا

لا ندري كيف اجاز هذا التعبير « كي ليعرفها » اذ المفروض ان تكون لام « ليعرفها » لام « كي » وما دامت « كي » قد ذكرت اولا ، فان اللام بعدها تكرار لها ، لا نراه صحيحاً ، ولكن علمهم في اللغة فوق علمنا « وفوق كل ذي علم عليم » !

وقال ايضاً :

أميمة ، ان يكون خلِقاً ردائي فقد يبلى جفير الهندواني
وان يلك يا أميم الجسم نحلاً فما يزري النحول بافعوان
وان لم الف ذا مال فأني انا الطِّرف المضمر للرهان !

وقال ايضاً : وقد نزل عند امرأة ضيفا ، وهي لا تعرفه ، فلم تفرشه ، ولم تكترث به فمر به انسان يعرفه ، فلام المرأة ، وعرفها بضيفها ، فأعتذرت اليه ، فقال :

---

١ – الكلى : جمع كلية . والعجا : جمع عجابة ، وهي مضغة لحم موصولة بعصبة تنحدر من ركبة البعير إلى الفرسن . وقيل : هي عصبة في باطن يد الناقة ، وهذا مثل عامي .

٢ – أي لم تكن مضمومة عن العطاء ، كما ان يا زيد مبنية على الضم ، وأراد بذكر الدنانير : ان ماله ليس ممنوعاً من الصرف ، وهنا الطرافة في المعنى .

نزيلك فأمني أبـداً أذاه نزيـل غير مرهوب المصال
ضعيف لا يخاف البطش منه عفيف لا يسب على النوال
قراه اذا ألمّ بأرض قوم مفاكهة اللبيب من الرجـال

وقال احد ادباء قبيلته بيتين يفخر بهما ، ورد هو عليه ببيتين من رويهما او العكس ، وللأوّل منهما :

فما بالشعر كان المجد مني ونفسي ليس ذلـك منتهاها
فأني قد ارى الشعراء تحَتى عصافيراً تطاردها بُزاها !

فقال الثاني منهما :

انا ليث الشرى احمي عريني بعصلٍ غير مفلول شباهـا
وهل تخشى بزاة او صقوراً ليوثُ الغاب تزأر في حماها !

ومن جيد شعره ، وقد بقي فريداً ليس معه غير كلب يقال له « فيداح » :

أصخْ لسرد قريض الشعر « فيداح » ان كنت ممن لسرد الشعر يرتاح
قد اصبح الشعر عمري لارواة له ان لم يكن من رواة الشعر « فيداح » !
نعم المرافق لولا قبح منظره ينفي الذئاب اذا يعوى فتنزاح
ان يطرحوني أرضاً لا يصاحبني إلا ألصّ هريت الشدق نباح
فقد يسامرني في مجلس عطرٍ شم الأنوف لهم كتب وألواح
وقد اغازل جماء العظام على انيابها العنبر الهندي والرّاح .!

وله قصيدة مفقودة مطلعها :

ان الديار بجنب ذات الجَيْأَلِ   هاجت عليك عمايةً لا تنجلي ؟

وكانت وفاته رحمه الله في اوائل القرن الرابع عشر .

١٩ ـ الاحول البوحسني

واسمه عبدالله ، وقد أغناه شهرة لقبه ، عن معرفة اسمه واسم والده . هو الفصيح الشاعر ، ذو الصيت الطائر ، اشتغل في صغره بتثقيف اللسان ، حتى صار كشباة السنان ، ولازم يوسف بن المختار ، وباب ابن احمد بيب العلويين ، مدة مديدة ، حتى وقعت الحرب التي شتت العيال ، وافنت الأمجاد * وانحاز الى قومه ، وصاغ فيها قصائده الطنانة ، ومما نقم الناس عليه فيها ، انه هجا استاذه باب المتقدم ، في قصيدته التي اولها :

الا بلغنْ   باب جان الحروب وجان الحروب رهين الخطا

وكان سلس العبارة ، كأنما يأخذ الشعر من جيبه ، لقرب مأخذه ، على اشياء اخذت عليه . منها قوله في وصف خيال :

اهلا به من ملم صوبنا قذفت   بيداً لبيد وأصحاراً لأصحار

فان صحراء لا تجمع على اصحار ، وانما تجمع على صحروات ، وعلى صحارى وصحاري ، وانما اغتر ببيت الأنصاري :

من كان في نفسه جوجاء يطلبها   مني ، فأني له رهن بأصحار

---

* هي حرب الـ ١٤ .

فان اصحار هنا ، مكسور الهمزة مصدر اصحر أي ما برز للصحراء . وقد رأيت هذا البيت مكتوباً هكذا :

« بيداً لبيد واسحاراً لأسحار »

وهذا غلط اشد من الأول ، لأن الأول صحيح المعنى ، وهذا فاسده ، ولأن الطيف لا يصح ان يقذف ، اي يرمى سحراً لسحر ، والمحافظة على المعنى ، اولى من المحافظة على اللفظ . واخذ عليه قوله في صفة سلاح ناري :

ومهمى مرّت خلفيه أيد تطايرت من الجوف شتى أمهات الذوائب

لأن الأم من غير الأناس . تجمع على امات ، واما من الأناس فأنها تجمع امهات ، وهذا هو الكثير ، وقد جمعت ام من العقلاء : امات ، ومن غيرهم امهات ، وقيل ان من قال في المفرد ام قال في الجمع امات ، ومن قال امهة ، قال امهات ، والحاصل انه لا يسوغ تلحينه ، فيما قيل انه جائز بقلة ، ولا على هذا التفصيل ، وكلما غلط فيه ، يوجد له جواب يقنع ، غير اصحار .

ونقض أبَدّ بن محمود قصائده غير البائية ، قالوا : لأنه مات قبل بلوغها الى ابن محمدو والناس يفضلون الأحول عليه ، لسلاسة الفاظه ، ويعضهم يعكس . قال : لأن كل معنى وقع في شعرهما ، اذا تؤمل يظهر ذلك فيه ، فان الأحول ، قال في صفة سلا ح ناري :
وجلجل رعدٌ ينهمي عند هزمه نجيع العدى ، لا ماء غر السحائب

وابن محمود قال في صفته :

بأجرى فرانس فيها صوا عق ، تصمي الفتى قبل ان يسقطا !

صوت الرصاص الخارج من السلام بالرعد ، وجعل سيلان الدم أشد من سكب السحائب ، وابن محمود ، نسب السلاح لفرانس (فرنسا) ، وشبه صوت الرصاص الخارج بالصاعقة ، وهي ابلغ من الرعد ، وجعل المصاب بها يموت قبل وصوله الى الأرض ، والذي نزفه الدم ، كثيرا ما يرقأ دمه ، ثم يسلم بعد ذلك وقالو : ان

الأحول قال هزم عدوّه هو وقومه :

لما رأوا عابد الرحمن منقبضا تحت العجاجة مثل الضيغم الضاري
ولوا فرادى ومغنى ، مدبرين ولم يثنوا من الرعب وجهاً بعد ادبار !

وان حمود قال لما دارت رحى الحرب ، وهزموا عدوهم ، بعد الأيام التى كانت عليهم :

سقونا بـــلاءً سقينـــاهموه بضعف ، وكنا لهم أضغطا !

فأنه انصفهم حيث ذكر نكايتهم فيه اولا ، ثم ذكر انهم ضغطوهم وهزموهم . وقال في رائيته :

والعلويون ركبـــان تنوشهم بالأندرية تردي كل ختـّــار
حتى اذا اثخنوهم محنقين وهم ما بين ملتزم او واجب خار
ولوا فرادى ومثنى ، مدبرين ولم يثنوا من الرعب وجها بعد ادبار .. !
فأنه انصفهم حيث قال : إنهم فروا بعد ان اثخنوهم ، حال

كونهم – اي العدو – محنقين ، فليس من انهزم بعد ان لم يترك دفاعاً، مثل من فرّ لأول وهلة ، ولأن العلويين في اليومين الذين دارت عليهم رحى الحرب ، تركوا في موضع المعركة كثيراً من ابطالهم موتى ، ولو كانوا انهزمرا لما رأوهم ، ولم تبلغ موتاهم ذلك العدد مما جعلوه عبرة قوله :

ومن شاء فينظر عواقب معشر جنى حربنا يزجوه شوم العواقب !

لأن آخر وقعة وقعت ، هي فتنة تندرج ، وقتل فيها هو نفسه ، ولم يعقبها شيء فأنه قضى على نفسه فيها ، ولأن الحرب في الاصل بين أولاد اخطير والعلويين ، وكان اولاد اخطير ، أخذوا ديات قـومهم على يد جموع كثيرة من الزوايا ، فنقض أبناء اعمر اكداش ذلك ، وغدروا بابني الخطاط العلويين . ثم انه هو من قبيلة كنيت (بكاف معقودة) وليس من ادابلحسن ، فهو الباغي ، وهذا لا يخلو من تحامل فأن ذلك الأصل قد اندثر وصار نسياً منسياً ، حتى ان فخذه في ذلك الوقت وبعده ، من أفضل ابناء اعمر اكداش ، وكذلك قوله :

وجدل ، حتى جاذبته عصائب من الطير غرثى تهتدي بعصائب

فأنه هو بقي جديلا وجاذبته الطير ، وانه لو كان يدري ان عاقبة أمره كذلك ، ما كان سره ما سره ، من تجديل ذلك الشيخ .. ولله در الشاعر حيث يقول :

فقل للشامتين بنا افيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا !

وقال من يفضل ابن محمود ان الأحول لما قال هذا البيت :

ما أبعد العار منا في الحروب ،وما أدنى سيادة محمود من العار !

لو هجا ابناء أعمر اكداش غير ملوم ، لأن شاعرهم اقذع علـى أبيه ، ولما انطلق لسانه بالأيام المتوالية كيوم ابلحتوش ويوم تندوج ، رأى ان أخذ الثأر بقتل الأبطال ونهب الأموال ابلغ من اخذه بالهجـاء وأي عار على محمود ، في ان هزم هو وقومه مرتين ، وأخرجوا من بلاد غير بلادهم الأصلية وعشيرتهم . ثم هزموا اعداءه هزائم ابلغ من هزيمته في يوميه السابقين ، ولم تزل الحرب سجالاً من قديم الزمان ، ومن ذا الذي يخطر بباله ، ان يحارب قبيلة مثل ادابلحسن في الكثرة، ومن انضم اليهم من أبناء البوعلي ، وتيابهم ، ويظن انه لا يهزم ؟ بل العار في ان لا يهزمهم هو ، وفي ان يخرج من أرضه ولا يبعث الجيوش حتى ينتصف ، اما اذا انهزم يوماً بعد يوم ، ولم يلن لذلك جانبه ، فهذا دليل على صلابة عوده وقوة عزمه ، وهل امكن عدوّه ان يوافيه في أرضه وعشيرته ، بجيش واحد فيغنم أو يخسر ؟ فمحمود مثل مـا قال الشاعر ابن عنين الدمشقي عن دمشق :

واخرجت منها ، ولكنني رجعت على رغم انف الجميع !

وقال في الحرب التي وقعت بينهم وبين العلويين ، اثر هزيمة كانت لأعدائهم . وتقدم بعض التي نقضت بها ، لما انهزم قومه ، وقتل هو:

جادت بطيف سرى لي أم عمـار لله لله لقيا طيفهـا الساري
اهلاً به من مُلمٍ صوبنا قذفت بيداً لبيد واصحاراً لأصحار
لا وصل من ام عمار أأملـه ما لم تزر في منامي أمّ عمار
لو كنت زير نساء،كنت زائرهـا بل زير حرب،أخوها غير زوّار
إنا بنو الحرب ،لا نشكو أظافرها لو جـرّحتنـا بأنياب واظفار
خضنا لواها وجنبنا بني حسنٍ حمل المغارم من حمل وأوزار
والخيل فيها على الأبناء نؤثرها صوناً ، فيا لك من صون وايثار

والوفد نقريه في اللاوي ، ونكرمه طول الثوى، اذ يجل المكرم الفاري
ما ابعد العار منا في الحروب ، وما ادنى سيـادة محمود من العار !
لما رأوا عابد الرحمان منقبضاً تحت العجاجة مثل الضيغم الضاري
وَلَّوْا فرادى ومثنى مدبرين ، ولم يثنوا من الرعب وجهاً بعد ادبار !

وقال ايضاً في تلك الحرب :

تداعت حداة الركب من كل جانب فودّع سُليمى قبل سير الركائب
فان ضعفت اسباب ذلك بينها وبينك إلا سَرف ماء الحواجب
وكيف وداع الحب آخر كلما دنا منه ، صدّته مخافة راقب
سلام عليها اين غابت بها النوى عن العين من حِبٍ عن العين ذاهب
ففاضت دموع العين حتى تناثرت تناثر نظـم اللؤلؤ المتراكب
فقلت لصحب اكثروا العيث في البكا وليس بكاء الوجد بعض المعائب

ومنها :

هم جلبوا الحرب العوان، فلم نزل نبيد ونقصي منهم كل جانب
شفى التائبون الغيظ من نهب مالهم ولو علموا ، لم ينهبوا مال تائب
وزرناهم من آل اعوج فائق باسد واسد من حبيب وطالب
واخواننا الشم الالي ان تقحموا لقاء تجلى بأسهم غير كاذب
غداة أراد الشيخ ما لا يطيقـه فلاقى الذي لاقى يسار الكواكب
وجدل حتى جاذبتـه عصائب من الطير غرثى تهتدي بعصائب
لدى مشهد دارت رحاه فجرعت صناديدهم حتفاً مرير المشارب

ومنها في وصف حصان القتال :

فكم هيئوا من كل جرداء وردةٍ ومُنجرد عَبْل الشَّوى غير لاغب

وازهَر مصقول الحديدة ، متئِمٍ سَخيٌّ نقيٌّ اللون ، وار المناقب
اجادته ارباب الجريدة ميسماً ونقشا كفى من رائفات الغرائب
وحلوه نعلاً من لجين ودوروا من الدرّ في اوساطه والجوانب
ومهمى مرت خلفيه ايد تطايرت من الجوف شتى امهات الذوائب
وجلجل رعد ينهمي عند هزمه نجيع العدى لا ماء غرّ السحائب!

وتوفي رحمه الله في صدر القرن الثالث عشر ، في وقعة (تندوج) كما يسمونها .

٢٠ – محمد البوحسني

محمد بن حنبل بن الفال البوحسني ، اصله من تاكانت ، كفخذه اهل محملفلك ، هكذا ينطق الناس بهم ، ولعل الاصل محمّ بن فلك . وهو من أقارب الأحول ، المتقدم ذكره .

كان محمد هذا ، من العلماء الاعلام ، واشتهر في اللغـة في ذلك القطر ، حتى قيل بتقدمه على معاصريه فيها . وكان نحوياً ، وله اليد الطولى في البيان . وكان حريصاً على طلب العلم ، يقال انه مكث سبع سنين منقطعاً لطلب اللغة ، وانه تلك السنين ، لم يذهب الى زيارة اهله مع قربهم منه !

وكان مولعاً بالعلم منكباً على طلبه في أول أمره فلما حصل عليه ، اشتغل بتعليمه للناس ، وكان يحضهم في اشعاره عليه.ومن . جيد شعره قصيدته التي مدح بها الشيخ سيدي ، ثم حض على العلم فيها وقد عاب عليه بعض الناس فيها كثرة السناد ولكنها في غاية الجودة لغة وشاعرية وديباجة :

أضرم الهمّ سُحيراً فالتهبْ لمع برقٍ برُبيّات الذهبْ
في شماريـــخ ثِقالٍ دُلَّحٍ كتهادي العيس في الوعث النُّكُب
أسَديات عليهـا ألْوةٌ ان تجود الارض سبتاً وتَرُ ب[1]
جدن ذا الرِّسل بسيلٍ مُفعَمٍ والمراجيع بسحّساح لجِب[2]
وعلى ذي التيلميت استوسقت لمزار الشيخ تَهدي بالهضَب[3]
وانهمى بالعين منهـا أيمنٌ وبذي الغاب مياسير سُكُب
فحدتها الريح هوناً تقترى كل وادٍ ، ورهاء وصبَب
يرزم الرعد خطيباً بينهـا كهزيم القَرم في الشول الحدب
فرنا العُقْل اليها مثل مـا نظر الصب الى الخود الوصب[4]
فأجنّت حسداً اهضامهـا لرباها ، والجماهير اللبَب[5]
ثم وافتها رِواءً هُمّعـاً لذرور القرن لو لم يحتجب[6]
بسِجالٍ من منيفات الذُّرا وطُف الأكتاف جمات السَّرب[7]
فكان المزن تبكي ملحداً في ربا العقل بدمع منسكب
تذر السرح صريعاً للقفـا خاشع الأوراق مرفوع الطُّنُب
وتَهد التـل من اعرافه بأخاديد تمدّيك ، رُعُب

١ – اسديات : سحائب طالعات من برج الأسد . والوة : حلفة . وترب : تقيم .

٢ – الرسل في الأصل : اللبن وهو هنا موضع . واسمه بالعامية ابير اللبن .

٣ – ذو التلميت : بئر اسمها بالعامية : بتيلميت ، وهي ما قبلهـا من آمشتل . واستوصقت : حملت أو ساقها .

٤ – العقل : آبار فصار اسمها بالعامية : لعكل (بكاف معقودة) وقياسه لعقل يضم وفتح ، لأن مفرده على فعله .

٥ – اجنت : اضمرت . والأهضام : جمع هضم بالفتح ويكسر ، وهو المطمئن من الأرض . والجماهير : جمع جمهور ، وهي الرملة المشرفة على ما حولها . واللبب : المشترق من الرمل .

٦ – الهمع : السائلة . ولذرور القرن : أي وقت طلوع قرن الشمس.ومعنى لو لم يحتجب : لو لم تحجبه السحاب .

٧ – السجال : جمع سجل ، وهو الدلو . ومن منفيات الذرى : أي من سحائب كثاف . ووطف : جمع وطفاء ، وهي السحابة المسترخية لكثرة مائها .

يا لها من غاديات قد كفت   مانح العُقل لها شد الكرب
فتحلت بلجين حوله   من نضير النبت أبرادٌ قُشُب
فأقام الذُبُّ في الروض الغنا   وأقام البتر في الماء الصخب [1]
وشنوف الطلح قد نيطت به   كشنوف الغيد خُضْراً تضطرب
والحمام الورق تشدو بالضحى   فتذوب النفس شوقاً وطرب!
ربّ بيضاء خَلُوب لحظها   ما لها في العجم شبه، والعرب
تحت ليل الفرغ منها قمر   فوق غصن، فوق حقف منكثب
يقبل الشوق اذا ما اقبلت   يدبر الصبر اذا ما تنقلب
بابليّ السحر في اجفانها   بابليّ الراح منها في الشنب
زرت والظلماء مرخى سدلها   غيبة الواشي وفقد المرتقب
ربّ تيهاء نزوح ماؤها   ينام البوم بها كالمنتحب
وتضل الكُدر في ارجائها   بالحسا الصفرعن افراخ زغب
جُبْت والليل مُغطّ قورها   بفُتيّ، ومراسيل نجُب
وقريض بت أبني، فغدا   مثل نظم الغيد تقصار الذهب
آخذاً من لحن أقحاح اللغى   مُضَغ القيصوم والشيح النخب
من لآلي حاضريهم اصطفي   ومن الأعراب رشّاف العُلب
ما تعاطي اللُسْن في اندائهم   وتعاطوه بأفواه القُلُب [2]
وأداروه عصوراً بينهم   لابتناء الفخر ايام الغَلَب
ان خير الزاد يا صاح التقى   فبه المجد التمس لا بالنسب
في التقى عز وكثر وغنى   دون سلطان وجند ونشب
هو دون العلم عنقا مُغرب   فاطّلبْه، فلنعم المُطّلب
جرّع النفس على تحصيله   مضض المُرّين: ذل وسغب!

---

١ – الذب بالادغام: جمع ذباب، على لغة تميم. والبتر: جمع ابتر، وهو قريب من الوزغ، كثير الأصوات، بعد المطر وتسميه العامة: آشوار. والصخب الصياح.

٢ – اللسن: جمع السن، وهو الفصيح. وانداؤهم: مواضع اجتماعاتهم. والقلب: جمع قليب.

ودع المال الى تطلابه | تكتسبه ، فلنعم المكتسب
هو حلي المرء في أقرانه | وهو عند الموت زحزاح الكرب
وهو نور المرء في اللحد واذ | ينسل الاقوام من كل حدب
يا غريباً يطلب العلم اصطبر | ان مبدا العلم من قبل غرب
ما سعى في الربح ساع سعيكم | بل سواكم سعيه جد نصب

ومنها :

قد تجوع الاسد في آجامها | والذئاب الغبس تعتام القتب
رأت الدنيا خبيثاً مثلها | لم تمالك ان اتته تنسلب
فحبته الحب منها خالصاً | وكذاك الشكل للشكل محب
ورأت ذا العلم فؤاح الشذا | آبي الذام ، فآلت تصطحب
فقلته وقلاها ، يا له | قمر عنه قد انجاب الحجب
فغنى ذي الجهل فاعلم فتنة | وافتقار الحبر تأسيس الرتب
فخذ النصح ولا تعبأ بمن | بدل النصح فطاوعه تصب
اضيع الاشياء حكم بالغ | بين صم ونداء لم يجب
ولو أرسلت عيناني في مدى | ما بدا لي من أساليب العرب
ومن الحث لأرباب النهى | لقريت الأذن منها بالعجب!
لكن الشعر انقضت ايامه | لا ترى اليوم اليه منتدب
غير راو خافض مرفوعه | ناصب مخفوضه ،او ما انتصب
ونزوح الفهم عن ميزانه | ليس يدري كاملاً من مقتضب..!

وله منظومة جيدة (ارجوزة) يحمل فيها على اهل الجهل ،ومنها :

حلي الفتى اعرابه لا ماله | ولا نجاره ولا جماله
كل فتى شب بلا إعراب | فهو عندي مثله مثل الغراب.!

وان رأيته لخود عاشقاً فقل لها اتقى الغراب الناعقا
لا انتفعت بالأكل والشراب من آثرت ما لا على إعراب

وقال أيضاً يمدح الشيخ سيدي ، ويعارض مقصورة ابي صفوان الاسدي وهى من روائع الادب :

اشاقتك بعد تولّي الصبّا حَمولٌ بكَرنَ بأُدمِ الظُّبا
بدُعج اللواحظ بيض الوجوه ثقال المروط ثقال البرى
فأوقد في القلب نار الغرام انَ آذن بالبين داع دعا
فبتّ كظيماً ، وبات الحسان مستبشرات بقرب النوى !
فلما طوى الصبح ثوب الظلام مسّحنَ الكرى عن بدور الدجى !
وقرّب بزل منَ آل الجديل شمّ الكواهل شم الذرا [1]
فشدّ الحدوج ، ومدّ الخدور عليها ، وتحت الخدور المهى !
وحثّ الحداة بها اشطرا ثمانية من نخيل روى
فأمست منازلهم بلقعاً يرجّع فيها الحمام الغنا
فأعملت في أثرهم جسْرةً انيلت محالا ، كصمّ الصفا [2]
عسوج الصباح ، وسوج الرواح نعوب الهجير ، خبوب السّرى [3]

* * *

كأني ، ورَحْلي على قارحٍ من الحقب ، جأب خميص الحشى [4]

---

١ – آل : بمعنى اهل ، واستعماله في غير العقلاء قليل ، وسمع في شعر النابغة ، قال :
قعوداً لدى آل الوجيه ولاحق يقيمون حولياتها بالمقارع
وحيث سمع نظيره ، فلا يسوغ انكاره عليه .
٢ – الجسرة : الطويلة الضخمة والمحال : فقار الظهر ، واحدها : محالة .
٣ – عسوج : فعول من عسجت الناقة ، إذا مدت عنقها في المشي ، و وسوج : فعول من وسجت الناقة أيضاً ، إذا اسرعت ونعوب : من نعبت الناقة أيضاً : إذا حركت رأسها حين تسرع ، وخبوب : فعول من خبت ، أي أسرعت .
٤ – الحقب : جمع احقب ، وهو الذي في حقبه بياض .

اقـام بمربعـه قائمـاً — على اربع كقسيّ السرى
فلما حدا النجم هادي الصباح — وآنفهـن نصال السفى
حدا بنصائحـه قارباً — اشد الحداء ، ذنابى الشبّا
فباتت تبارى ، فلما انجلى — تبين ماء خلال الأشا
وعنـد شمائلهـا بابل — خفي ، حرامٌ عليه الكرى !
ابو دَرْدق سبعة مالهـا — من الكسب الا بنات الملا
فجئن السريّ على هيلة — فلما سلكن شطور الشوى
طوى شخصه فرمى رميةً — ثنتها عن الحقب أيدي المنا !
فنادى الثبور ، وأعلا العويل — وخال السماجيح برقا خفى
ألم يَعلمَ انّ الفتى من إذا — دعا الخطب ولاه ركن العزا
وهل لا اراح يداً افنيت — بحفر القراميص بين الصوى
يَؤمُّ الكمال ، ويغشى الظلال — ويلقي النوال ، ويلقى الندى
هو البحر منه جرى الرافدان — ومنه شفى الخافقـان الصدى
فرِده مُضَافاً تجِد مأمنـاً — وزره مجوداً تجد مرتوى
وزره جهولاً تنل حكمـة — وزره عديماً تنل مقتنى !

وهي طويلة تبلغ ٦٢ بيتاً . وكان تأثره فيها بقصيدة أبـي صفوان * شديداً ، الأمر الذي أفقده الكثير من صفات الأبداع على علو كعبـه في الشعر !

---

* هي فريدة من فرائد الشعر القصصي ، وكنا نتمنى لو يتسع المجال لها كلها. وهذا مطلعها :

نأت دار ليلى ، فشط المـزا — ر ، فعيناك ما تطعمان الكرى !
ومر بفرقتهـا بـارح — فصدق ذاك غراب النـوى
فأضحت ببغدان في منـزل — له شرفات دويـن السما
وجيش ورابطـة حولـه — غلاظ الرقاب كأسد الشرى
بأيديهم محـدثات الصقـال — سريجيـة يبتغين الطلـى !
ومن دونهـا بلد نازح — يجيب به البوم رجع الصدى
ومن منهـل آجن مـاؤه — سدى لأيعاذ به قـد طما =

٢١ ـ الشويعر البوحسني

اشويعر (بالتصغير) البوحسني . هو الشاعر البليغ ، اشتهر بهذا اللقب ، وما ادري اسمه الاصلي ، ولا اسم ابيه ، واظنه من قبيلة ابناء الفال ، ويقال له شويعر الانبياء ، لأنه كثيراً ما يذكرهم في شعره الغزلي . ومن ذلك قوله :

حي المعاهد حول العائديّات ... اغرى الزمان بها أيد البليّات
تلاعبت فوقها الأرواح ساحبة ... اذيالها في ضحاها والعشيات
فكم لعبت بمغناها بغانية ... تجلو الدجى في ليال مرقسيات
قد أودعت كل قلب من شجون هوى ... موسى تقطع اسباب الحشاشات
آيات موسى هواه حين تبعثه ... تسع كآياته التسع الجليّات
سنى محياً والحاظ وسالفة ... يُذهبن بهجة ارباب السكينات
وورد خد وجيد لو توسمه ... غيلان ما رام آراما بموماة
ولين قدّ لو ان البان ما يسّه ... لما تمايس انواع الهبوبات
وبشرة منّ لجين الحسن قيل لها ... كوني ، فكانت مراحاً للصبابات !
ولطف خصر على ردف يعرفه ... جذب الضعيف القوي الجذبة العاتي !
ذي الآي دلت على بعث الأسى كلفا ... وتلك دلت على صدق النبوات

ومن حنش لا يجيب الرقا ... ة اسمر ، ذي حمة كالرشا
اصم صموت طويل السبات ... منزوت الشدق حارى الترا
له في اليبيس نفاث يطير ... على جانبيه كجمر الغضى
وعينان حمر مآقيهما ... تبصان في هامة كالرحى
إذا ما تثاءب ابدى له ... مذربة عصلا كالمدى !
فلو عض حرفي صفاة إذا ... لأنشب انيابه في الصفا !

وهي طويلة تبلغ ٦٥ بيتاً في غاية الجودة .

ومن ذلك قوله في فتاة من قبيلة ابناء احمد من يوسف ، زوجت من غير كفء لها على زعمه :

فُتَيَّة شربت بالبخس حين غَلَت ... بوالد المشتري تُفدى الفتاة وبهْ
أضحى بها المشتري في الأهل مقترناً ... بالمشتري بعد وضع كان في رتبه
من آل يوسف منه الحسن قد ورثت ... وبيعة البخس لما ان نأى عنَ ابهْ

وقال أيضاً متغزلاً وهو يقصد الفتاة نفسها :

أمن ذكر سلمى ان عرفت لها رسماً ... كما رجعت حسناء في المعصم الوشما
به الورق تشدو ، والظباء مربَّةٌ ... ومور السوافي ما تركن له وسما
مزجت دموعاً بالدماء صبابة ... واغرى بك اذّكار أزمانها الهمّا
بلاد بها أسماء كانت مقيمةً ... وكانت نواحيها مجالسنا قدما
فأمست يباباً بعدها ، وتمهمهتْ ... وأمستْ لذا آناؤها بعدها دُهما
دعاني اليها الشوق حتى أتيتها ... وروعت سرباً كان مستوطناً ثمّا
ومما شجاني ، انني إن سألتها ... اكون كأني سائل صخرة صمّا !
فما زلت ابكي في الديار ، وانثني ... كئيباً ، وما لاقيت قد اوهن العظما
وقد مرّ بي ركب وقد شفني الهوى ... فقالوا وما يبكيك ، قلت نوى أسما
فقالوا ومن أسما ؟ ومن حبها الذي ... اذا ذكرت اسما نراها له تُنمى.. ؟
فقلت لهم أسماء من آل يوسف ... ويوسف ذا عمري ، هو النسب الأسمى !

٢٢ ـ محمد محمود التركزي

هو محمد محمود بن التلاميد (بالدال المهملة) مصحف التلاميذ ، بالذال . انفرد في المشرق باللغة والانساب . لازم العلامة اجدود ابن اكنوشن العلوي ، وعليه تخرج ،ورحل الى المشرق،ومر بابن بلَّعمش

الجكني بتيندوف، وتلقى عليه جملاً من الحديث . ثم قدم مكة المكرمة واتصل بالشريف عبدالله أمير مكة (الملك عبدالله مؤسس المملكة الهاشمية الاردنية) ، وكان من أهل العلم والكرم[1] ، فأكرمه واختصه . ولبث عنده زماناً ، وكان يعجبه ويحرش بينه وبين علماء مكة ، حتى حصلت البغضاء التامة ، وفي اثناء اقامته بمكة ، قدم عكاش اليمني مكة . فقدم شرحاً له على لامية العرب للشريف فقال الشريف لمحمد محمود: أيمكنك ان تغلطه ؟ فقال : نعم . فعمل عليه انتقاداً وجهّاله ، ونقضه فيه ، فلم يحصل عكاش على شيء من الشريف . وكان محمد محمود ، يراوح في الاقامة بين مكة والمدينة المنورة ، وحصلت بينه وبين المرحوم اديب الحجاز ، وعالمه عبد الجليل برادة محبة ، وكان عبد الجليل المذكور ، يبالغ في الثناء على محمد محمود ويكرمه ،فاستمر على ذلك مدة طويلة ، ثم وقعت عداوة بين محمد محمود وعلماء المدينة كلهم ، عدا عبد الجليل المذكور .

بعض ما وقع له في المشرق

حدثنا صاحب الوسيط ، قال :

«كان الشيخ الدراج رئيساً للمالكية في المدينة ، وفائدة هذه الرئاسة، ان يأخذ قدراً معلوماً من وقف المغاربة ، لا يناله غيره . فقال محمد محمود : انه أحق منه بالرئاسة ، لأنه أعلم منه ، وكان اهل المدينة ، ما عدا عبد الجليل، يساعدون الدراج ،لأن محمد محمود كان يُنَقِّصهم ، فلم يحصل محمد محمود على طائل .

«وكان السيد علي ظاهر الوتري استاذاً يدرس البخاري هناك . فكان محمد محمود يقعد بحيث يسمع ما يقول ولا يراه ، فأذا شرع في درسه

---

١ — الوسيط .

يصيح عليه : أخطأت ! فيأخذ محفظته ويخرج فاشتدت العداوة بينهما ..

«وكان محمود يشنع على القاضي عياض في « مشارق الأنوار » ويلحنه ويخلطه في بعض تفسيره لشيء من الحديث . وكان السيد احمد البرزنجي ، يغلط الامام مالكاً في الموطأ ، في قوله في كتاب الايمان والنذور : « وعليه هدي بدنة او بقرة او شاة ، ان لم يجد الا هي » قال : فإلاهي لحن . ووافقه على ذلك الشيخ حبيب الرحمن الهندي اللكنوي وغيره ، وألف محمد محمود رسالة انتصر فيها للامام مالك واطال فيها واعتمد على ان يجد فعل لاوم بمعنى يستغني . وجعل الا هي ، مبتدأ حذف خبره ، وجواب الشرط محذوف أيضاً ، وتقديره فهي عليه ، وخبر الا هي هو عليه المتقدم : ولا يخفى ان البرزنجي ، ما احسن في تغليطه للامام مالك ، وان جواب محمد محمود فاسد ، لأن المعنى يصير انه اذا لم يكن غنياً ، فليس عليه الا شاة . فعلى هذا لو كانت له بدن ، ولا يصدق عايه ، اذا انه غني ، فلا يلزمه ان ينحر منهـا واحدة . وهذا خلاف الواقع ، والتحقيق : ان نظير الا هي، مستعمل عند العرب ، وهو انابة ضمير عن ضمير . وقد افردت ذلك برسالة مستقلة ، نقلت فيها كلام النحاة معزواً ، وقد صحح ابو حيان هذا المذهب في شرح التسهيل فليرجع اليه .

«وقدم محمد محمود من القسطنطينية ، ونزل عند فضيلة السيد عبد الباقي البكري رحمه الله ، ووافق ذلك عيداً من اعياد المسلمين ، فقدم شيخ المالكية المذكور ، يهنىء السيد البكري ، ومعه جمع من العلماء ، فيهم الاستاذ الرافعي ، فلما جلسوا ، واطمأن بهم الجلوس،قال الرافعي لمحمد محمود ، وكان يعرفه ، وقصد ان يوقع بينه وبين البشري : شنآناً يا مولانا ، تنصرت بعدنا حيث لبست الخف الاسود ؟ فرد عليه بأن قال له : ما فعلت الا السنة ، فقال البشري : اجمع على كراهة لبس الخف الاسود ، فقال له محمد محمود : ثبت في الصحيح ان

النجاشي :اهدى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم خفين ، فلبسهما ، ومسح عليهما ، فما لونهما ؟ فقال : لا ادري . فقال محمد محمود : عجباً لك : تدعي الاجماع ،ثم تقول لا ادري ؟ فقال الشيخ بسيوني ، الذي كان إماماً للحضرة الخديوية : ان هذا ، وأشار الى الاستاذ السيد البيلاوي ، يزعم ان علياً عليه السلام ، لبس خفين أصفرين ، فقال له : ذلك خارج عن موضوع المسألة ، فسكت الجميع . وكان في المجالس أحد الأفندية من المصريين ، فخاطب محمد محمود المذكور ، قائلاً : يا مولانا ، أفدنا عن لون الخفين المذكورين ؟ فقال له : سأعلمه للعوام ، فتلقوه من هناك . فانفض المجلس . »

سفره الى استانبول

اهتم السلطان عبد الحميد ، بالبحث عن الكتب العربية ، الموجودة في استانبول من كتب الأندلسيين . فأشار اليه أحد رجال مملكته ، ان يبعث محمد محمود المذكور ، فبعث اليه بأن يتهيأ للسفر ، فقبل ذلك بشروط . منها : ان يعزل ناظر وقف الشناقطة في المدينة المنورة ، وان يعطيه طباخاً ومؤذناً ، وان يعطيه المكافأة اذا رجع ، وقد ذكر هو نفسه هذه الشروط في رحلته ، واليها أشار في قصيدته المسماة : هذا حظ مَن آلَمْناه . وبراءة محمد محمود من عاب الجهل الذي عبناه ، بقوله :

فكان من السلطان امرك بعد ما شرطت اموراً لم تصادف اولي عزم

ثم ان السلطان ، بعثه في (وابور) مخصوص على نفقته ، واعطاه مؤذناً وطباخاً .. وبعث معه أحد ادباء تونس ، وكانا يتخاصمان دائماً في الطريق .. ثم انه ذهب الى استنبول وكتب أسماء الكتب النادرة ،

التي لا توجد في القسطنطينية ، ثم رجع فبعث اليه السلطان بأن يقدم الأوراق التي عنده ، فأبى ان يقدمها الا بعد اخذ اتعابه ، فبعث اليه السلطان ، بأن مكافأته ستأتيه ، فامتنع .. فرد عليه السلطان بأن لا حاجة له في الأوراق ، فضاع سفره بغير فائدة . ثم ان اسكار ملك السويد والنرويج ، بعث الى السلطان ، ان يبعث اليه وفداً من ابناء العرب ، يسألهم عن اشياء في القرآن ، وعن اشعار العرب ، وان يكون فيهم محمد محمود الشنقيطي ، فبعث اليه السلطان بأن يتهيأ للسفر. فقال : لا ، حتى تعطوني مكافأة اتعابي ! فغضب عليه السلطان ، وأمره بالسفر الى المدينة .

خروجه عن المدينة واتصاله بمحمد عبده

تقدم ان أهل المدينة ، صاروا يداً واحدة عليه ، ما عدا عبد الجليل برادة رحمه الله فأنه لم يزل يواليه ويحتمله ، الى ان اتفق انه دخل على جماعة ممن يعاديه . وكان عبد الجليل قاعداً بينهم ، فلم يقم اليه احد منهم ، وما قام عبد الجليل ايضاً . فقال هو : بال حمار ، فاستبال احمره ! فغضب عبد الجليل ، حيث جعله حماراً في وجهه ، ثم انهم اتفقوا على اخراجه من المدينة ، وكلموا الوالي في ذلك ، فبعث اليه : لئن اصبح في المدينة ، لأفعلن به كيت وكيت ، فخرج ليلاً ، وشيعه الأديب الفاضل ، محمد بن عبد الرحمن القاضي ، وأمين بري شيخ الفرّاشين في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، وسعد المخرج ، وترك كتبه وجاريته ، عند امين بري ، وسار الى مصر ، ونزل عند نقيب الأشراف السيد توفيق البكري ، فأكرم منزله واستأجر له بيتاً ، وأجرى عليه خمس جنيهات في الشهر ، وبعث احد أعوانه الى جاريته وكتبه ، ومصروف الكل من عنده . ثم جمع عليه شمله ، وكان السيد البكري

يشرح اذ ذاك اراجيز العرب ، فطبعها . فلما تم طبعها ، ادعى محمد محمود انه اغتصب شرحه ونسبه الى نفسه ، فرفع عليه قضية ، ففشل فيها ، والحق ان السيد البكري ، لا يعجز عن تأليف مثل ذلك الشرح وقد الف ما هو أحسن منه . على انا لو فرضنا انه لمحمد محمود ، لكان الواجب عليه ان يتركه له لكثرة احسانه عليـه . فذلك سبب النفرة بينهما .

ثم خرج من عنده واتصل بالأمام محمد عبده ، وسعى له في راتب من الأوقاف ، قدره خمس جنيهات ، ولم تقع بينهما وحشة ، حتى ماتا رحمهما الله .

شعره

اما مرتبته في الشعر ، فأنها تعلم من قصائده التي طبعت في رحلته ومن اسلسها الفاظاً ، قصيدته التي هجا بها الأزهريين عموماً ، وخص منها شيخ المالكية في ذلك العصر ، الاستاذ البشري ، ومنها :

فأشلى عليّ الازهر اللّدّ بُسّلاً ... كأن لهم عندي دماء الطوائل
حلائب علم للسباق اعِدّها ... سوابقها في الشوط خلف الفساكل

وهجا فيها البشري هجواً قبيحاً ، وهي طويلة عددها ١٣١ بيتاً ، أما قصيدته التي هجا بها البرزنجيين ، فليست بشيء ، وهي طويلة ، ومنها يخاطب السيد احمد البرزنجي :

رِباك في النسب المجهول زاد على ... رِباك في فضة بيضاء او ذهب !

ومنها يذكر رزوق باشا ، وعبد الجليل براده :

زروق والذيخ براده قد ارتضيا ان يدخلا النار ذات الجمر والحطب
ويدخلا النار (طوعاً) لا تفاقهما على اباطيل من غيٍّ ومن شغب
اذ انما حزب شيطان ضعيف قوي يقتادكم في فيافي الجهل والتَّبَب

وله قصيدة في هجو عبد الجليل براده ، والسيد احمد البرزنجي ، وغيرهم ممن شاركهم في تلك الشحناء ، وعددها ١٤٢ بيتاً ومطلعها :

أحن الى الرسول فيعتريني اذا ليلي دجا ما يعتريني

وله أيضاً قصيدة اخرى في هجوهم ، عددها ١٢٠ بيتاً ومطلعها :

صراطَ العلم نستبق استباقاً وشأو الجهل نجتنب السباقا

ومما هجاه به عبد الجليل افندي براده ، ينتصر للقاضي عياض لما غلطه :

يا ابا الفضل ان يكن ساء قولٌ لجهول من شأنه الازدراء
زورُ قولٍ به تبجح جهلاً تُركزيٌ له الحماقة داء
تركزي بكل خزي مليٌّ شأنه العجب ، دأبه الافتراء
ليس يدري بأنه ليس يدرى وله الحمق عادة والمراء
ظن من حُمقِه بأن عياضاً عاكشٌ خاب ظنه والرجاء
كل من رام ان يخطّئ قولاً لك ، ذاك الغبي والخطّاء
يا ابا الفضل ، انت للفضل اهل ولك الفضل شيمة والوفاء
ولك الفخر بالمشارق اضحى شاهداً والشفاء نعم الشفاء
ومساعيك بالمآثر أمست ما لها في قبيلها اكفاء
لك بحر من العلوم عميق لم تكدر صفاه ذاك الدّلاء

ولقد قام نصرة لك منا عند دعواك معشر خُشَنَاء [1]
نصروا الحق بأنتصارك حق لاح ما فيه للعيون من خفاء
لم يكونوا أبنـــاء درزة، كلاّ لا ولا قط اسلموا من جاءوا [2]
نصرة الحق دينهم من قديم ليس فيها على الدهور امتراء
فسلام على ضريحك منـــا وثناء ورحمة ودعـــاء !

وقال أيضاً :

متى تسألوا شنقيط عن شر اهلها تجبـْكم بأعلا الصوت تُرْكز تركزُ
فتركز في شنقيط شر قبيلـــة لدائرة اللؤم المحيطـــة مركز !

ومنها في تعداد مساوىء محمد محمود المذكور :

وللفخر فخر الدين ، قام منقضا يكرر تُفْ تُفْ لا يبالي، ويهمز
وفي مصر للكفار قـــام مفضلا على أهلها في نظمه الرذل يُلْغِزُ

ومنها :

وما العلم الا مـــا يزين لأهله ويهدي، وعن قبح الأفاعيل يحجز

وهي طويلة. وله من اخرى :

اوصت بنيها تركز بوصية يا بئس ما أوصت به ابناءها
شنقيط فيها التركزي محقّر يدري بذلك كل من قد جاءها
وابن التلاميذ، الخبيث التركزي أخزى شناقطة البلاد وساءها

---

١ – غلطه محمد محمود في جمعه خشن على خشناء . لأن فعلاء ، لا يجمع عليه، الا وصف على فعيل . ويجاب بأن بعض النحاة اجازه في كل وصف دل على سجية مدح أو ذم .
٢ – اولاد درزة السفلة . وكان محمد محمود يلقب علماء المدينة بذلك .

هو لحمة لا من زوايا ارض شنقيط ، ولا حسانها امراءها [١]
وعلى الذين لهم عليه منة متسلط لا يأتلي ايذاءها
والله لو قسم الذي فيه على كل التراكز ملمساوي ناءها

ومنها :

يا ابن التلاميد الذين لهم علي ركب الفتاة تواثب ما ساءها
حلفت تقول لمن يلوم على الخنا غير التلاميد امرؤ ما جاءها ..!

وقد أرخ موته أحد ادباء المصريين ، يقال له « كامل » وكان يعاديه . فلما بلغه موته نظم أربعة أبيات ، وبعثها الى بعض المجلات فنشرتها ، ونشرت خبر موته أيضاً . قال صاحب الوسيط : لقيته بعد المغرب ، فأنشدني الابيات ، ومات في الليلة القابلة من غير علة ! ومطلع الابيات :

مات الامام التركزي وانقضى وبموته مات السباب والشغب !

تعليق

يتضح لنا من خلال سيرة محمد محمود التركزي ، المتقدمة أمران ، أولها انه كان عالماً كبيراً وافر الحيوية والنشاط في الاوساط العلمية والدينية محباً للجدل..ومن المعلوم ان الجدل العلمي يبعث الحركة والحيوية في أوساط العلماء ، كما انه يورث البغضاء والشحناء أحياناً اذا اتفق ان

---

٣ — اللحمة : جنس من الناس منحط في ارض شنقيط . وليس محمد محمود المذكور منهم، بل هو في عداد الزوايا ، ولله در القائل :

من احوج الناس إلى ذمه ذموه بالحق و الباطل !

كان المتجادلون ، أصحاب أمزجة حادة ..

والامر الثاني ، ان صاحب الوسيط كان مغرضاً فيما روى عن الامام التركزي ، سيء القصد عليه، بدليل « روح » الترجمة التي اوردناها .. ويتأكد لنا سوء القصد من عدم اهتمامه برواية شعر صاحب الترجمة الينا ، واكتفائه بذكر طرف من سيرته التي تصوره « سباباً مشاغباً » لا أكثر ولا أقل !

مستدركات

هذه بعض تمات فاتتنا من شعر ابن رازكة المتقدم ومنها هذه القصيدة يمدح بها محمد العالم ابن السلطان مولاي اسماعيل :

اثار الهوى سجع الحمام المغرّد ... وارّقني الطيف الذي لم اطرّد[1]
ومسرى نسيم من أكَيناف حائلٍ ... وبرق سقى هاميه برقة ثهمد
وذكر التي بالقلب خيّم حبها ... وألبسني قهراً غلالة مكمد
فبت اقاسي ليلة نابغية ... تعرفني هم السليم المسهّد[2]
طويلة اذيال الدجى دبّ نجمها ... الى الغرب مَشيَ الحائر المتردد
ويزعج وُرّاد الكرى دون مقلتي ... بعوث غرام من لدن ام معبد
بنفسي عرقوبية الوعد ما نوت ... وان حلفت قط الوفاء بموعد
ترد الى دين الصبابة والصبا ... فؤاد الحليم الراهب المتعبد !
ويقصد في قتل الأحبة قربة ... بشرعة ديان الهوى المتأكد

---

١ – يعني انه لم يجف ذلك الطيف ، كما وقع لجرير حيث قال :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا ... وقت الزيارة فارجعي بسلام

فقد عابت ذلك عليه السيدة سكينة ، وقالت له : هلا قلت : فادخلي بسلام ؟

٢ – يشير إلى قول النابغة :

فبت كأني ساورتني ضئيلة ... من الرقش في انيابها السم ناقع

ومنها :

سبتني ، فقبلت الثرى متخلصاً امام امتداح ابن الشريف محمد
هو الوارث الفضل النَّبيئيّ خالصاً من العلم والعليا ومن طيب محتد
ثمال اليتامى والايامي ، موكَّل بتفريج غماء الشَّجِي المتنكّد
غيور اذا ما الحق غُيِّر مولَع بقطع لسان الباطليّ اليلَنْدد ١
اديب اريب ، لين الجنب ، هين ولكن متى عادى ، فأي مشدد
اذا كشفت عن ساقها الحرب والتظت وسارت صَدوقَ الملتقى بالمُفنَّد
سقى الرمح من نحر العدو فديته وقام بحق المشرفي المهند
اغر المحيا طاهر البشر طاهر السجايا كريم اليوم والامس والغد
جزيل الندى ، ما أفّ في وجه حاجة ولا كف حاشا جوده كف مجتد ٢
كِلا الدين والدنيا به ازدان وازدهى وأمّن شر المبطل المتمرد
فريد العلى ، يقوى لرقة طبعه عن الجمع بين النار والماء في يد!
حميد المساعي سار في الرُتَب العلى من المجد سير الفائق المتفرد
تساعده في ذاك نفس نفيسة تعد الثريا للفتى غير مصعد
دأبت على السير المبرح والسرى اجوب الفيافي فدفداً ، بعد فدفد
مهامه للسارين فيها توقع للأهوال اغوال طواغيت مُرَّد ٣
يطير لما يبدينه من تلوّن شعاعاً فؤاد الضابط المتجلد ٤
إلى حضرة سنِّيَّة حَسنيَّة منيرة آلاء الهدى المتصعّد ٥

---

١ – اليلندد : الشديد الخصومة الجدل ، ويقال له : الألندد ، قال ابن جني : همزة الندد وياء يلندد ، كلتاهما للالحاق . والدليل على صحة الألحاق ظهور التضعيف .

٢ – اف . قال : اف ، وهي كلمة تقال عند الأستثقال . والمجتدى : طالب الجدي أي العطاء.

٣ – المهامه : جمع مهمه ، وهي المفازة البعيدة . وتوقع الشيء : انتظاره . والأهوال : جمع هول . والأغوال : جمع غول ، وهو ذكر السعلاة الذي قيل انه لا حقيقة له . وطواغيت : جمع طاغوت وهو الشيطان ، ومرد : جمع مارد ، وهو العاتي .

٤ – الشعاع : المتفرق ، والضابط : القوي الشديد ، والمتجلد بمعناه .

٥ – الآلاء : النعم .

حوت شرف العلم الرفيع عماده
الى شرف البيت الكريم المصمد [1]

فما تمّ الا ثمّ فضلٌ، ولا استوى
سوى ما تحلّت من كمال وسؤدد [2]

وبحر ندى ما للفرات انسجامه
ودجلة لا تحكيــه فسحة مورد

فاعتاد منه ما تعودت من يَدَيْ
ابيه امير المؤمنين المؤيَّــد

هما والدٌ مـــا توّج الملك مثله
ومولود صدق بالمكارم مرتـد

عظيمان مَعنيّان بالدين وحــده
فأعطتهما الدنيا سلالة مِقـود

فلا برحا بدرين عمّ سناهمـا
وبحرين لا يعدوهما قصد مجتد

أمكنه من بكر شعر خريدةً
نتيجة فكر سلسل الطبع جيـد

عروب، عروس الزّي، اندلسيةً
من الأدب الغض الذي روضه نَدِ

من اللاء يستصبين (مِينَحِنُ) عنوةً
ويعهدن في (الحرّاق) اطيب معهد [3]

ويسلبن معقول ابن زيدون غيظة
بأسلوب ما يسقين من خمر صرخد [4]

٢٣ — الشيخ ماء العينين

هذا الاسم علم اشتهر به، واسمه مصطفى بن الشيخ محمد فاضل مأمّين. هو العلامة الوحيد، معرفة بعلوم الشرائع من الحديث والتفسير والفقه، وغير ذلك.

وما جاء بعد الشيخ سيدي مثله، في اقبال الناس عليه وانفـاقه.

---

١ — المصمد : الذي يقصده الناس لنيل حوائجهم، وهذا مأخوذ من قول طرفة :

وان يلتقي الحي الجميع تلاقني ... إلى ذروة البيت الكريم المصمد

٢ — قوله : فما تم الا ثم فضل الخ. فضل : فاعل تم. وثم : ظرف متعلق بتم، أي لم يكمل فضل، الا في الموضع الذي فيه الممدوح، أي اصله.

٣ — اللاء، بمعنى اللاتي، وهو صفة المحذوف، أي من القصائد اللاء، ومينحن : بضم النون على الحكاية : صالح مشهور. والحراق هو صاحب الطريقة في المغرب.

٤ — ابن زيدون : هو الوزير ابو الوليد المشهور صاحب الرسالة المشهورة التي شرحها ابن نباتة. وصرخد : بلد بالشام تنسب اليه الخمر، ويلفظونها هنا باللام (صلخد).

حج في ايام السلطان مولاي عبد الرحمن وتردد على السلطان مولاي سيدي محمد . وكان حظه في ايام السلطان مولاي الحسن ، أحسن منه في ايام ابيه وجده ، وهو في ايام مولاي عبد العزيز ، أحسن من ايام مولاي الحسن وصارت له في مراكش املاك طائلة ، من زوايا ودور ، وبساتين ومزارع ، وكان هذا الشيخ فاضلاً كريماً ، لا يوجد أحسن منه اخلاقاً. قال صاحب الوسيط : وقد اجتمعت به حين خروجي من مدينة شنقيط الى مراكش ، في توجهي الى الحجاز ، ورأيت منه ما حيرني لأني اقدّر من معه في وادي اسمار من الساقية الحمراء ، بعشرة آلاف شخص ، ما بين أرملة ومزمن ، وصحيح البنية ، وكل اصناف الناس ، وكل هؤلاء في أرغد عيشة ، كاسيا من ذلك الشيخ ، ويزوج العازب ويدفع المهر من عنده ويجهز المرأة من عنده ، مع حسن معاشرته لهم ، لا فرق عنده بين ولده والمحسوب عليه ، ولا يمضي عليه يوم الا وقد بعث قافلة تأتيه بالميرة ، وقدمت اليه اخرى تحملها ، ومتى بلغ الأنسان قريباً منه ، يسمع دوي مريديه يذكرون الله وينشدون الادعية ، ورأيته في تلك الأيام التي اقمت عنده لا تفوته صلاة الجماعة في أول الوقت ، مع كبر سنه وضعف جسمه ، وبعد صلاة العصر ، يسردون له الحديث وهو يسمع ، ثم يشرح لهم بعض المواضع منه ، وكان الموضع الذي هو فيه صعباً ، بعيداً من الأماكن التي تجلب منها الأرزاق ، الا انه نفعه مرسى لبيظ ، اذ كان السلطان يملأ له البابور في كل أربعة أشهر ، أو ستة ، فينزله بها وهي تبعد عن محله بأربعة ايام أو نحوها ، ولكن معظم المؤنة تأتيه من اكليميم ، وهو نحو عشرة أيام ، ومن لحنيكات ، ومسافته اثنا عشر يوماً (بالسير العربي) ، ومن آدرار ، وهو قريب من العشرين ومن سان لويس (اندَرْ) في السنغال . وكثيراً ما تعدو عليه شياطين العرب ، فينتهبون قوافله من جهة سوس وغيرها . وانما كان الشيخ سيدي ، أشد احتراماً عند حسان منه ، لأن العرب الذين

يحوطون الشيخ سيدي ، لهم رؤساء يطيعونهم ، وهم أحسن ديناً وأخلاقاً من الذين في ارض الشيخ ماء العينين . ولم يزل نافذ الكلمة في المغرب الى ان وقعت الفتن وازدادت الشرور » .

ولما أراد الفرنسيون احتلال شنقيط وصحراءه ، ارسل اليهم الشيخ ماء العينين يحضهم على الدفاع ، ويمنيهم بمساعدة السلطان لهم ، وكانوا يعتقدون ان السلطان أقوى من الفرنسيين ، فبعض القبائل سالمهم ، وبعضهم جعل يقطع عليهم الطريق ، ويحاربهم من بعيد بالهجوم ليلاً ونحو ذلك. ثم ان الشيخ بعث اليهم أحد اشراف فاس ، وأخبرهم بأنه هو خليفة السلطان عليهم ، فقدموا اليه من كل الجهات : وكان ذلك الشريف حازماً مدبراً ، فوقعت بينه أيام مع الفرنسيين ، انتصر في بعضها وخذل في بعض ، فلولا قلة الفرنسيين ، وكثرة الصحارى والجبال لقهروهم في أول وهلة ، لولا رداءة سلاح أهـل الصحراء ، وعدم انتظامهم في أنفسهم لدافعوا سنين كثيرة ، على انهم ما دخلوا ادرار ، منذ دخلوا تجكجه ، الا بعد سنين ، وهمـا كالشيء الواحد ، لولا ما يبعدهم الشيخ ماء العينين به من انجاد السلطان، لساموا لهم أيضاً،فطال الروغان، فلما علم الشريف بعدم الفائدة رجع الى فاس ، لأن العرب لما طال عليهم الأمر ، فنيت مواشيهم ، وكابدوا كثيراً من الشدائد ، فصاروا يهربون الى فرنسا ويصالحونهم ، ثم بقيت تلاميذ الشيخ ماء العينين ، وما انضم اليهم من شذاذ الناس وصعاليكهم ، يناوشون الفرنسيين ، حتى احتلوا مدن آدرار ، فتركوا محاربتهم ، ولجأ الشيخ الى تيزنيت ، من ارض سوس ، وتوفي — رحمه الله — سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة وألف .

مبايعته للسلطان مولاي الحفيظ

قدم الشيخ ماء العينين من الساقية الحمراء في جموع كثيرة ، ليأخذ

لهم المؤونة والسلاح من السلطـان مولاي عبد العزيز ، وكان اذ ذاك برباط الفتح فلما وصل الى نواحي مراكش ، بلغه ان اهله بايعوا مولاي الحفيظ ، وان أهل المغرب ، ناقمون على أخيه السابق ، وتعرض بينه وبين مولاي عبد للعزيز وما أمكنه الا ان يبايع مولاي الحفيظ ، فقدم مراكش بمجموعه ، وبايع واحتفل به السلطان واكرمه، والناس يخوضون فيما لا يعرفون حقيقته ، فأن السلطان الحالي كان يطفيء الفتن الداخلية ، التي التهمت ، نارها المغرب ولا يمكنه ان يلتفت الى غيرها ، ويكفي الشيخ ماء العينين ، انه لم يعارضه في شيء مما يملك . امـا أمره له بالرجوع عن فاس ، فأنه لم يكن عن نية سيئة ، بل لان السلطان ، كان محتاجاً الى ان يستنجد بفرنسا ، وهم يعادون الشيخ المذكور ، وكان السلطان يتوقع مجيئهم ، فلو دخلوا فـاس ، وقع السلطان بين أمرين ، اما أن يتركهم وشأنهم به ، فأن السلطان لا تسمح له مروأته بذلك ، واما ان يحدث ذلك ضغائن بينهم وبينه، فذلك مما يضر بصالحه، فأمره بالرجوع وللشيخ المذكور ديوان شعر مفقود ومن شعره :

تغافل عن الاخوان في كل زلة وإياك والتبصير في زلة الاخ
وكن راحمَ المسكين واصلَ رحمه وإياك ان تبدو له بالتبلخ [1]
وإياك والتقصير فيما احبه وساو زمان العسر في ذاك والرخي
وداوم على تقوى الإله وعلمه تفزْ وتنلْ مما رجوت بخٍ بخٍ [2]

٢٤ ــ اديبج بن عبدالله الكمليلي

عالم كبير ، ولغوي شهير ، اشتهر في الفقه والبيان ، والعروض

١ ــ التبلخ : التكبر .

٢ ــ بخ بخ : بكسر الأولى منونة وكسر الثانية للقافية ، والأصل تسكينها : كلمة تقال عند الأعجاب والرضى بالشيء ، أو الفخر والمدح .

والنحو ، وكان شاعراً مجيداً وما بقيت قبيلة الا هجاها الا ما قل ، واشتهر من ذاك هجوه لأدوعل ، لما بلغه فشوّ الطريقة التيجانية فيهم فكان يبعث لهم القصائد يهجوهم بها ، فلا يردون عليه ، لان الشيخ محمد الحافظ بن المختار بن لحبيب العلوي ، كان يأمر بذلك ، فلما توفي وأكثر من هجوهم ، تصدى له باب بن احمد بيب .

قال صاحب الوسيط : « وقد مضى قليل مما قالوا له ، وما احفظ شيئاً من شعر اديبج ، ورأيت له قصيدة في باب مطلعها :

ايها الراكب المغذ ذهاباً   حي عني باب الهداية (بابا)
(باب) عندي منزه عن امور   بلغتني فقلت فيها صوابا

ولما وقعت مسألة الحُبُس التي تقدم ذكرها جرى فيها ، بين باب المذكور وحرمَ الذي تقدمت ترجمته ، وانضم الى باب محنض ، باب بن اعبيد ، وانضم الى حرم ، اديبج هذا . وكانت بينهما موالاة ، واستثناه هو واكتوشن بن السيد ، لما رمى العلويين كلهم بالضلال ، في قصيدة يقول فيها :

شرب الضلال صغيرهم وكبيرهم   الا اكتوشن وحرمة الرحمن

وقال يخاطب باب ، ومحنض باب المذكورين ، ويأمرهما بالرجوع الى قول حرم في مسألة الحُبُس :

يا صاحبي قفا بالمنهل الصافي   وسلما الحكم للقاضي بانصاف
ووافقا حُرْمَ فيما قال ويحكما   فأن شيخكما ادرى بالاوقاف
فحجة الشيخ في بهرام ناهضة   لو كان يكفيكما ماكان في الكافي

ولأدييج المذكور ، مهاجاة مع قبيلة إدَيْقُب ، وله شينية ، يهجو بها أبناء اعمر اكداش وهي عجيبة ومطلعها :

يا خابط البيد خبطاً فوق وشواش ... يواصل السير في ضوء واغباش
بلغ لديك منى نفسي اذا بلغت ... بك المطية أبنا أعمر اكداش
وقل لها انني من بعدها دنف ... والعين جادت بتوكاف وتطشاش
لم انس ايامنا حول الكليم وان ... شط المزار ورأت قَولةُ الواشي

وهي طويلة . وذكر ان شيخاً فاضلاً من قبيلة صاحب الترجمة ، كان يحدّث انه رآه مضطجعاً على قفاه يترنم ، وعند رأسه ثلاثة من تلامذته ، يملي لكل واحد منهم بيتاً ، يجيب على ثلاث قصائد وردت عليه من ادوعل في هجوه ، وكلما أتم واحدٌ بيتاً يسرد له غـــيره ، وهكذا حتى اتم ثلاث قصائد في وقت واحد ! !

وكتب الى محمد بن المختار المجلسي في رفعه بالنشوز :

يا من تأمل مكتوبي بما نقلا ... سلم لنا حكمنا او بيّن الخللا
الله يعلم اني ما أردت به ... الا بيان الهدى في معضل نزلا
وذاك ان فتاة زانها حسبٌ ... رامت نشوزاً ولم تعبأ بمن عذلا
فقام بعض رجال الحي اذ رفعت ... اليهم امرها يقضي بما انتخلا
فطاق الخود عن ظلم ومودعها ... نجل الوديعة لم يتحف بما بذلا
ما كنت احسب ان الزوج مغتفر ... في حل عصمته لو كان مختبلا
ولست اعرف تطليقاً لمن نشزت ... الا بخلع يراه الزوج منتحلا

وقال أيضاً وهي من رائع الغزل :

نفسي الفداء لحبيب هاجــرِ ... قاسي الفؤاد، ليّن الخواصِر !

ظبي احم المقلتين حُمَّ لي ... ما حُمَّ من جواه في المقادر
من كان في الوعد كعرقوب، ومن ... في البخل ان طالبته كمادر[1]
كأن طعم ريقها بعد الكرى ... طعمُ المعتّقة عند التاجر (؟)
تبسم عن نور الاقاحي اصبحت ... بقفرة ممطورة الظواهـــر
لو كلمت ميتاً لأحياه الهوى ... واستبدل الاحيا من المقابر!
ولو بدت لراهب في ديره ... لصدَّ عنها بفؤاد حائر
فأن حماني وصلها وغيره ... لم يحمني طيف الخيال الزائر
طيف يبيت في الكرى مسامري ... طيفي اذا نأنأت عن مسامري[2]
وقد مضت لي اعصر في وصلها ... ما انمضت في سالف الاعاصر
ايام كان السعد جاراً مسعداً ... وكان صرف الدهر غير جائر
لا بردة الشباب، انهجت ولا ... جـدّ المحب في الهوى بالعاثر
وكم ليال بتهـا في جنة الـ ... ـهوى بأمثال الدمى السوامر
في خَلقها وخُلقها ما تشتهي ... نفسي، وما يلذ كل ناظر!
بين الترائب، حسان خرَّدٌ ... هيف الخصور، رجَّح الاواخر!
امسى فؤادي من هواها مدنفاً ... وفاض دمع العين كالمواطر
اروم كتمان الهوى وادمعي ... تبوح بالمكنون في الضمائر
وكيف اخفائي الغرام بعدما ... ابديت من مستودع السرائر!
لا حبذا من لامني في حبه ... وحبذا من في هواه عاذري
فأن يكن عن ناظري مغيباً ... فشخصه مصور في خاطري
يا من يلوم في الهوى مهلاً، فما ... لومك يسليني ولا بضائري
داء الهوى صعب الشفاء، ما له ... غير الحبيب من طبيب ماهر
هيهات ان تشفيك من داء الهوى ... فُتَيِّـةٌ نقيـة المآزر
لطيفة الكشحين خَوْدٌ خَدلةٌ ... رَوْدٌ رداحٌ بضّة النواشر

---

١ – عرقوب : رجل يضرب به المثل في الخلف ، ومادر : رجل يضرب به المثل في البخل .
٢ – نأنأت : ضعفت .

ريا الروادف أباةٌ طَفلَةٌ ملء الحجا والعين والاساور!
فان مشت فغصن بان ناعم وان رنت ترنو بطرف ساحر
لها محيا مُشرقٌ ومنطقٌ كقهوة في مسمع المحاور!
وبَشرٌ مثل الحرير ليّنٌ وجيد ظبي من ظبا المشاقر
يلوح صبحُ وجهها اذا بدت في ليلِ فَرعٍ اسحم الغدائر
زان الجواهر بهاء نحرها وغيرها يزانُ بالجواهر!

وكان حياً في اواسط القرن الثالث عشر.

٢٥ — عبد الودود الالفغي

هو عبد الودود بن عبدالّ بن انحينان الالفغي : نسبة الى قبيلة ابناء الفغ حبيب الّ،نحويّ شهير ، انفرد به من غير نكير ، واوضح للناس اسراره وأعلى مناره ، تلقى عن بُلاّ الشقراوي ، وسبب ذلك انه خرج في عير ، فنزلوا عند بلا ،فرأى عبد الودود تلامذته يكررون دروسهم ، فسمع تحريراً لم يعهده في بلاده . فلما وصل الى اهله ، رجع الى بلا المذكور ولازمه ، حتى اتقن النحو وبرز فيه ، وبلغ مبلغاً لم يبلغه غيره في عصره ، سوى شيخ محمد علي بن سيدي بن ساعيد بن عمه ، ويعرف بمعى . وكان لا يبارى في النحو ، وتخرج عليه الحسن بن زين القناني ، وهو احد فطاحل تلك البلاد ، وعلى الحسن تخرج سيبويه زمانه،يحظيه بن عبد الودود،وهو وان كان اصغرهم سناً ، فقد اتفقت الناس على انه فاق الكل في النحو ، وانفرد عنهم بأتقان الفقه ، وغيره من العلوم .

ما ترك عبد الودود المذكور عويصة من النحو ، الا نظمها اسلس نظم واتقنه . وله « روض الحرون من طرة ابن بون » صغير الحجم،

الا انه كبير الفائدة ، ولا يستغني عنه نحوي هناك .

ومن شعره ، يخاطب تلامذة له ، كانوا كفروا نعمة تعليمه ، قصيدة مطلعها :

ابى ليَ سلوان الرباب ، ابى ليا | خيال متى هوّمتُ وهناً سما ليا

ومنها :

لقد مزقت قلبي سهام جفونها | كما مزقت (ميّجات) عمداً كتابيا
وعيرني (ميجات) بالجهل ضِلّةً | فقلت لهم لِمَ تقذفوني بدائيا !

ومنها :

ولست بشيخكم (؟) ولستم تلامذي | لكم دينكم ذاكم ، وديني ذا ليا ..

وقال مقطعة ، يعارض بها أخرى لشاعر أهل المبارك ، وأظن اسمه محمد مولود بن احمد فال او العكس ، وها هما القطعتان من غير تحقيق للتمييز بينهما . قال احد الشاعرين :

ما لسليمى من شبيه في الأممْ | كأنها شمس الضحى او بدر تمْ
أو دُرّة قد اخرجت من قعر يمْ | غاص لها غواصها ثم ارتَسَم
حتى اذا ما راءها بعد ابتَسَمْ | أو أمّ خشف خذلت على علم
ترعى الخزامى والبشام والسلَمْ | بجانب الملحَس او فرد الأجم
توجست ركز ابن داة من أمَمْ | فراعها صوت القنيص ذي القرم
ابي ثلاثٍ كمهازيل الغنم | قد كان من غاداته اذا احتزم
ان يضع اللحم لها على وضم !

فقال الثاني منها :

هل وجد اسماء القديم تاركي   من قبل ان أهلاك في الهوالك
ليس لها في الحسن من مشارك   كظبية ترعى برمل عانك
توجست ركز ابن عبد المالك   فراعها صوت القنيص الفاتك
يصيبها لا بد في المهالك   اذا رماها في النسا والحارك

اما انظامه (أراجيزه) فأنها أجود من شعره . ومنها :

ومدٌ مقصور خلافه اشتهر   وفصل الفراء تفصيلا بهر
فجوّز المدّ لما لم يذهب   بالمد عن نهج لسان العرب
فمرمىً الةً يقيسُ مَدّه   وفي اللحا اللحاءُ جاز عنده
اذ شابها المفتاح والرماحا   بمدة فالاحتجاج لاحا
ولم يجز مدّاً لما كالمرمى   مفتوحةً ، ولا اللحى ان ضما
لفقد ذا الوزن ولم يحفل بما   قال سواه من فحول العلما

٢٦ — اعمر مولود

هو اعمر مولود بن شيبة الأنتابي . قال صاحب الوسيط « ليس عندي شيء من خبره ، وما وقفت له الا على هذه القصيدة ، يقولها فيمن لحنه بغير حق » وهي تدل على عمق تضلعه في صناعة الشعر ، وأجاد :

امن شأنك التلحين، لا حبذا اللحن   تلحنني طعناً ، ولم تدر ما اللحن
تأمل صنيع الشعر واضبط شروطه   ليمكنك التلحين والنقد والطعن
فلا تغترر في الشعر بالحد وحده   وبالحفظ كي لا يستخف بك القرن

فللشعر تحسين يزيد اعتباره — على حده المعروف في فوته غبن
فمن رام فن الشعر بالحدّ وحدَه — ولم يأت بالتحسين ما حَسُنَ الفن
اذ الحدّ معنى محكم بصناعة — وقافية وزن اذا يُقصَد الوزن
ولم تخل هذي من محاسن سنها — رعاة رقيق الشعر ، يا نعم ما سنوا
اذا اختل منها البعض في الشعر شأنه — فحسن نظام الشعر في كلها رهن
فما هي الا الشرط والركن وحده — ووهن يرى في الشرط في ركنه رهن
فما الركن يجدي دون احكام شرطه — واقلل بجدوى الشرط اذ ضَعُف الركن
ولكن اذا ما استحكما عند شاعر — وكان صفت منه القريحة والذهن
وحاك على نَيِّر البلاغة نحسه — ومن حيث راعى الحسن ، ساعده الحسن
فيجني ثمار الحسن من هام دوحه — عليه طوال الدوح عاطفة تحنو
ويسقى المعاني من مدام بديعه — وراح بديع اللفظِ شعشعها المزن
فطوراً الى الأرصاد لم ين راصدا — وطوراً الى التجنيس أعينه ترنو
وطوراً يملّيه بجلواء حِكْمَةٌ — ومن غرر الأمثال لهجته تدنو
فجاء جمانا باليواقيت فصلت — فما شانه خَبْلٌ ، وقد زانه خَبَن
اذا شنف الآذان شذر انسجامه — يود سوى الآذان لو انه أذن !
يحق له ان يُتَّقى لمزُ شعره — فتوهينه وهن ، وتلحينه لحن !

وقال وهي من جيد الشعر البدوي — شعر الصعاليك الاشقياء الهائمين على وجوههم في الصحراء :

لمثلها من عِتاقٍ شعشعانات — قضى اللبانة معنيّ اللبانات[1]

---

١ — الضمير في مثلها ، يعود على المطايا المفهومة من السياق . والشعشعانات : الطوال . واحدها : شعشعاني ، وجمع بالألف والتاء ، لإنه يسوغ فيما لا يعقل . واللبانة : الحاجة .

ملموج شُدت لطيات بارحلها ويلُمّها إبلاً شُدَّت لطيات ١
راحتَ برحلي من (فرَّل) واكتفلت تلك العشية بالسبع الاضيات ٢
طوى برحلي اجواز الفلا يَقَقٌ عَركركٌ من ذوات العجرفيات ٣
جأب الشراسيف ينبو عن وليته كالاخدريّ يباري اخدريات ٤
اذا النجائب امست لا حراك لها تحت الوليات أشباه البليات ٥
نُجُبٌ ينجّيننا من كل مهلكة لم يقتحم هولها الا ابن مقلاة ٦
زوى الاريّب عنها خوفها فخلت الا الوحوش ، جماعات جماعات
ولو تراهن يفرين الفريّ بنا منا بكل فتى كالنصل مصلات ٧
ضخم الدّسيعة لا ينفكّ ديدنه نيط المسرات،او ميط المضرات ٨

---

١ – ملموج : اسم موضع بعينه ، والأصل من الموج . والطيات : الحاجات وويلمها : أصله ويل امها ، فركب ويل وامها ، وجعلا كالشيء الواحد ، وهذه اللفظة تقال للشيء يستجاد . واصل ويل : كلمة عذاب ، وهي من المصادر التي اهملت افعالها . قال المتنبي :

ويلمها خطة ، ويلم قابلها لمثلها خلق المهرية القود !

٢ – وفرل : بفاء وراء مفتوحتين ، ولام مفتوحة مشددة : اسم موضع ينبت اجود الصموخ (العلك) . واكتفلت بالسبع الأضيات : أي جعلتها على كفلها ،والأصل بالأضيات السبع.فوقع تقديم وتأخير .

٣ – الأجواز : جمع جوز ، وهو الوسط، والفلا: جمع فلاة ،وهي المفازة. واليقق: الابيض والعركرك: الجمل القوي الغليظ . والعجرفيات : جمع عجرفية ،وهي سير في نشاط . أي من توق ذوات عجرفيات .

٤ – جاب : غليظ . والشراسيف : جمع شرسوف ، وهو غضروف معلق بكل ضلع ، أو هو مقط الضلع ، وهو الطرف المشرف على البطن . وينبو : يرتفع . والولية : البرذعة أو ما تحتها . والأخدري : جمار الوحش .

٥ – البليات : جمع بلية ،وهي الناقة التي تعقل عند الميت ،وينكس رأسهاحتى تموت،يزعمون انه يركبها عند الحشر !

٦ – المقلاة : التي لا يعيش لها ولد .

٧ – يفرين الفرى : أي يأتين بالعجب في سيرهن بنا . والنصل : حد السيف . والمصلاة : الماضي في الأمور .

٨ – الدسيعة : العطية . والديدن : العادة ونيط المسرات : أي جلبها . والميط : الأزالة.

معصوصباتٍ على معصوصبٍ خشنٍ ما بين وهم علندي او علنداة [1]
مالي اراني مذ يومي وليـلاتي تامت فؤادي احدى اللاّدميّات [2]
ادمانة من بني المبروك حُمَّ لنا منها لعمري إدمان الصبابات

٢٧ ـ العم بن احمد

هو العم بن احمَد فال ، بن أحمَدْ بن عَمّ ، ويقال له : لِعَمْيَم ، وبه اشتهر في قبائل تندغ ، ومن بجوارهم ، يجتمع مع أكثر من تقدم في ابيج ، كان شاعراً مقتدراً على نظم الشعر في أي روي ، وعلى اي اسلوب ، مع رقة الفاظ وانسجام ، وكان ممن جمع بين الشعر والأزجال على حدّ سواء ، ويكفيه انه ساجل محمد بن هدار الأحراكي ، وكان غايةً في ذلك الفن ، فكاد يغلبه ، ثم انه أسر اليه وقال له : لا تفضحني في هذه البلدة ، فأني لا اعيش الا باعتقاد الناس اني منفرد في هذا الفن ، فقال فيه ما يدل على تقدمه عليه ..

وكان من أفراد عصره في معرفة البيان ، وله يد في النحو والفقه ، وأكثر من أخذ عنه ، العالم النحرير احمد بابا التندغي .

من جيد شعره قوله :

اما واليعمُلات من المطايا ومكنون المحاسن من حذام
لمن ريب الزمان ومُعْتَـداه مقامي في (دَكان [3]) بلا مقام
كأني في المحافل واوُ عمروٍ وهمْزُ الوصل في درج الكلام ..

---

١ ـ معصوصبات : جادات في السير . وقوله : على معصوصب ، أي على مكان مجتمع مشتد . والهم : الذلول في ضخم وقوة ، والعلندي : البعير الضخم الطويل الشديد . والعلنداة : انثاه .

٢ ـ الليلاة الليلة وهي الأصل بدليل الليالي ، وتامته : استعبدته بالحب . واحدى اللادميات : واحدتهن . واللادميات : نساء من قبيلة لادم ، وهي قبيلة من اللحمة ، معروفة بكثرة الابل .

٣ اسم قرية على شاطيء بحر ابجك قرب نهر النيل .

وهذا المعنى اخذه من قول القائل :

ايها المدعي سليما سفاهاً لست منها ولا قلامة ظفر
انما انت في سليم كواو ألحقت في الهجاء ظلماً بعمرو

لكنه زاد عليه همز الوصل في درج الكلام ، وكساه رونقـــا بسلاسة الفاظه .

ومن نظمه :

ضحى زرت الحبيبة (لا) فقالت متى تسعى ، وهل لك من رجوع ؟
فلم يسطع اجابتهــا لساني فبادرت الأجابــة بالدمــوع

قوله « لا » معناه قدّر « لا » فلا ، هنا ظرف ، وقد تكون (لا) اسم الحبيبة . وهذا المعنى اخذه من قول ذى الرمّة :

تريك بياض لبتها ووجهاً كقرن الشمس افتق حين زالا
اصاب خصاصة فبدا كليلاً (كلا) وانغلّ جانبه انغلالا

اي ، فظهر بقدر ما يقول القائل : لا . ومن نظمه قوله :

ستُدنيني اليوم من نزهتي أميمةُ ذات الهوى الخالد
ثلاثٌ تقرّبُ ما قد نأى زماني ، ورحلي ، وذو الشاهد [1]

واتفق انه انشد بيتين لنفسه ، فبلغه أن احد الأدباء . ويدعى « أخير » ادعى أنه اشتراهما بثمانية أبيات ، فقال :

---

١ – ذو الشاهد : اسم جمل لصاحب الترجمة .

« أخترأً » ، هاجك البرق اليماني وتذكـار المعاهـد والمغاني
مغان طال لهوك في رباهـا بآنسة مخضبـة البنـان
اذا برزت ، تبختر بين بيض حسان ، ينتمين إلى حسان
يُخلن اذا برزن نعاج رمل لدى مخنى جآذرهـا حوان
تخال الفرع ليلاً ، والمحيا سراجاً ، والقوام قضيب بان
فبينـا ننشد الأشعـار قصراً ونـأخذ في المقابس والمباني
وننحو النحو والتصريف طوراً واطواراً نميل إلى البيـان
اذا بفتى يقـول شرى فلان بذي الأبيات ذينك من فلان
فقلت وهل صدقت ؟ فقال قولاً لعمر الله ، ليس بمستبان
أليس الشعر طوع يدي وقلبي وسهل الصوغ ويك على لساني ؟
صوغ البيت منه بلا عروض على أقـوى واقوم الاتزان
وانفي اللحن والتعقيد عنه بـذوقي والقريحة والجنـان

وفي هذا القول برهان على أن الشعر عند البيضاني فطرة فطراً عليها ، سواء أكان مثقفاً ام غير مثقف !

وسافر من بلده ، الى الأمير احمد بن الحاج عمر الفوتى في سيك (بكاف معقوده مضمومه من ارض السودان) فحظي عنده ، وله في مدحه قصيدة ميمية سمعها بعض معاصريه بأنها في غاية الحسن ، وتوفى هناك في صدر القرن الرابع عشر . بجدري اصابه .

وله من ابيات :

اسلا خلتي سالبتي ، سلاها لمَه سلت الفؤاد وما سلاها ؟
سلا عن كل فاترة رداح من البيض النواعم ما خلاها

٢٨ — ابن الشدّ التندغى :

هو معاويه من الشدّ التندغي . شاعر رقيق ضاع شعره ولم يدون له صاحب الوسيط سوى بعض ابيات من لاميته التي يمدح بها السلطان مولاى اليزيد بن السلطان سيدى محمد عبدالله . وبعض الناس في موريتانيا ينسبها الى عبدالله بن سيدى محمود الحاجي ، وذلك غير صحيح . وقد حصلت منها على اكثر ما حصل عليه صاحب الوسيط بفضل الرواة البيضان الذين اتصلت بيهم يوم كنت في موريتانبا والمقطع الذي حصلت عليه — غزل — من اولها جعل القصيدة تبلغ ٣١ بيتاً ، في حين ان المدون منهـا في الوسيط لا يزيـد عن ٩ أبيات ، قال الشاعر :

لله كم من هضبةٍ وجبَلِ من الهوى ، بها يسير جملي !
وكم حوّت جوانحي من الجوى ومن أسىّ ، ووله ، وخبَلِ
وكم اصابت مهجتي وكبـدى صوارمٌ من العيونِ النجُلِ
ومُقلةٍ ترنو اختلاساً رسخت سهاُمها مني بكلّ مقتلِ !
غداةً اظعانُ الخليط يممت صوب اللوى ، وصوب ريع الحجلِ
وقبلها كنت أرى صرف النوى سالمنا ، ونام نومة الخـلي
ما راعني قبل تفرّق الدجى إلا مُنادى الحيّ بالترحـل !
فلم أزلْ انظرهم ، ومُقلتي إنسانها ، يغرق ثم يعتلي !
حتى اختفوا ، وقد بدا لدونهم فودُ العَملّس وفودُ السَّعل [١]
من كلّ بيضاء عَروبٍ طفلةٍ بهكنةٍ ، لذيذة المقبل ..! [٢]

---

١ — العملس : الذئب . والسعل : الظب . وهما اسما كثيبين من الرمل .
٢ — بهكنة : عظيمة الردفين .

تفتر في ابتسامها عـن بردٍ ريقتهـا ممزوجة بالعسل
يعبق من انفاسها وثغرهـاً ري الخزامى الغض ، والقرنفل .!
كأنها بعـد النعاس والكرى تمج صهبا من رحيقٍ سلسل
شيبت بماء مزنة جادت به ريح الصبا فوق الصفاة جندل
وقد ثوت في الدن عامين لدن صارت أرق من دموع المقل !
تقصارها في جيد مذعور الظبا وعينها كعينه في الكحل
خمصانة ، ازارهـا كأنمـا تنطقت بـه على عقنقل [1]
خرعوبة عطبولة ، أحوى اللمى مكعب الثديين ، نهد الكفل ![2]
ملء السوار والحجال والحجى ودرعها مجدولة المخلخـل
تمشي فتهتز الهوينا ان مشت مثل اهتزاز غصن بان خضل
وفي ظعائن سليمى ظبيـة قد سلكت غاض الحضيض الأسفل
لا بد لي ، لا بد لي ان اقتفي آثارهم باليعملات الذلـل [3]
تسلك بي اي طريق سلكوا وكل تيهاء ، وكـل هوجل [4]
تمر بالحزن اذا مروا به ، ومنهل ، مرت بذاك المنهل !
اذا الهجير أجج ورضرض الحصى واصبح الحرباء ذا تململ [5]
تهوى هوي ام حقل باكرت تزق فرخين بأعلى جبـل [6]
تسبق للإرسال فـارط القطـا اذا القطا سابقهـا للوشل [7]
والأرض لا تمنعني ما ابتغى أسير في آفاقها من مثـل !

---

١ – العقنقل : الرمل الناعم .

٢ – خرعوبة : واسعة الصدر . عطبولة : عظيمة الكتل. احوى اللمى : سمرة دكناء في مقبل المرأة البيضانية أو السودانية يستجملونها وهي بمثابة الحمرة على مقبل المرأة البيضاء .

٣ – النوق .

٤ – الهوجل : المفازة .

٥ – كناية عن شدة الحر .

٦ – انثى العقاب .

٧ – الوشل : المستنقع .

ويخلص هنا الى مدح الأمير فيقول :

لا واهبٌ أنفُس مـا ملّكهُ الا الأمير بن الأمير المعتلي
خليفـة الله وبابه ، هـو أهل الخلائف على التسلسل

٢٩ – المصطفى بن جمال :

ويقال له المصطف التندغي – بترخيم مصطفى – ، شاعر مفلق ، ومعين الفصاحة من شعره متدفق . ومن جيد شعره قوله :

كأن عيني وقلبي بعدكم طرفا غصنٍ ، من البانة الخضراء فينان
يسيل جانبه ماء اذا اشتعلت نار مؤججة بالجانب الثانى !

وله ايضاً :

أشِمُ بريقاً بات ليلته يهفو فآونة يخفى وآونة يخفـو
تضمنه ربع الجريبِ فاللوى الى حيث من جنب الغضاة شرا النعفُ
به اتقدت بين الجوانح أنؤر دموعك من تسعارها ديمٌ وُطفُ

وله ايضاً :

لحُونُ العندليب بمـاء بُوقٍ أصيلاً اذ تأنّف في الغناء
بعثن ألي من طربي وشوقي دفيناً مات منذ ولى صبائي

وله ايضاً :

اقول اذ حملوا ليلى على رَمْثٍ بأسم المهيمن مجراها ومرساها

يا نُوتي البحرِ سرٌ فيها على مهلٍ   يا بحر رهواً ألم يشغلك مرآها ؟
اودعتهـــا للذي تحظى ودائعه   كما اودَعت أم موسى قبل موساها !

٣٠ ـ احمد التندغي :

هو احمد بن أمين بن الفراء التندغي . عـــالم مشارك في فنون كالنحو ، والفقه ، والبيان . وله معرفة بالعروض عظيمة ، ما اظن احدا في عصره بلغها ، ولا جمع احد من كتبه ، ما اجتمع عنده ، وكان يتقن اربعة السن : العربية ، والحسانة ـ وهي العامية الموجودة هناك ـ واللغة الشلحية ، المعروفة هناك بكلام آزناك ، والسودانية المعبر عنها عند العرب هناك ، بكلام (لْكوَرْ) وكانت له منزلة عظيمة عند رؤساء السودان . وتولي القضاء لتْين رئيس بوَلْ

وكان جواداً ظريفاً مزّاحاً كثير البشاشة يجيد ركوب الخيـــل والسباحة . وبالجمله فأنه من فتيان وقته . قال صاحب الوسيط : « بلغنا موته بمصر في نحو ثلاث وعشرين وثلاثمائة والف » وله شعر متوسط ولكن له انظام (اراجيـز) كثيرة في النحو والعروض ومن شعره قوله :

الا ليث شعرى اهل ابيتن ليلة   « بأميجرانٍ » حيث حلّت بها دعدُ
وهل لي مقيل ها هناك بأثلها   وهل لي مساء بالأضية من بعدُ
فيخشى رقيب كان في البيت حولنا   صواعق رب لا تجور ولا تعدو
فيعدو وما يعدو عن الله موقن   فمالي ارى ذاك الرقيب اذا يعدو
وأوّعد اذ نخاو بدعلٍ ، وليتني   علمت متى يُنجز لها ذلك الوعد
تماطلني بالوعد دعد ، وطالما   اتى دون الأدْنى من مواعيدها البعد !

٣١ – بوفمين :

اصله ابو فمين ، وهذا لقب اشتهر به هذا الشاعر . فأغنى عن معرفة اسمه واسم ابيه ، وقيل انه لقب بذلك ، لأنه لما ابتدأ في قراءة الألفية ، قرأ قول ابن مالك :

بالجر والتنوين والنـــدا وألْ ومسندٍ للاسم تمييـزٌ حصل

قال : حصل الأعراب والتمييـز ، وحصلا عنده بالفعل ، مع انه لم يشتغل بالعلم قبل ذلك ! وكان معاصرا لابن رازك ، ولمـــا قال قصيدته الطنانة ، التي هجا بها ايدابلحسن ، ومطلعها :

ايحسب ان لا يزأر الأسد الوردُ ذئابٌ عوت لما تغافلت الأسد !

ومنهـــا :

وعقل الذي منهم يشدّ عمامةً كعقل الذي منهم يشد له المهد !

وبعثوا اليه قصيدة مطلعها :

سل الدين والدنيا من الأسد الورد سوانا ، وما العلوي سواك وما القرد؟

قال : هو هذا شعر ابن رازك ، فهجاه بأبيات ، وفر خوفاً منه ! وقيل : انه لم يهجه ، ويقال : ان هذه القصيدة ليس لابن رازك فيها الا مطلعها ، ثم انه بعد فراره هذا اشتاق الى بلاده ، وقال ابياتا في ذلك ، وهي :

أصيخْ لِقُبَّرة ناءت عن الوطن كما نأيت ، ويبكي ساكنُ الوكنِ
مغبرة الطرق والمنقار جوجؤها تشوبه حمرة مصفرة البدن
لما شدت ، خلت اني كنت اعهدها بذي ذوى مائة تشدو على فنَن

فلما بلغت ابن رازك كتب اليه الامان فرجع ، وكان هجاء مفزعا قلما نجا من لسانه احد .. ونزل يوما عند قبيلة انتاب في موضع يقال له (انجول) فلم يسلّموا عليه ، ولم يكترثوا به .. فقال :

دهر الدهارير ، لا اصبحت فيه لدى (انتاب) يوما ، ولا في قرب (انجول)
يوم القيامة فيهم خلته ظمـأ يوم القيامة ، اذ يحكيه في الطول !
حتى تذكرت ان الناس قاطبـة إذاً تُسألُ ، واني غير مسؤول ..

ونزل يوما عند قبيلة « ادغماجلك » فرحل غير راض عنهم ، ثم رجع فوجدهم رحلـوا ، وقـد خلفوا بين دورهـم قبرا لاحدهم ، فقال :

اذا فقد المفقود من آل ماجلك فمن فقده فُقدانُ بعض الحسائس
فلو فاه مغناهم بذي الدرس عنهم لانباء عن لؤمٍ جديدٍ ودارس !

متفرقات

فيما يلي بعض مقطوعات لشعراء تقدموا ، وشعراء لم يردوا — وكلهم من القدماء — وقعنا عليها مؤخراً ، ولم يكن بالامكان اخضاعها للتبويب ، فالحقناها هنا تحت عنوان متفرقات ، التفرق اسمائهـــا راغراضها :

قال الأحنف المجلسي ، وهو شاعر مشهور بجودة الشعر ، كان هجاء ، وكان يخرج في اثواب خلِقة ، وعنده حمار يحمل عليه الملح ، يبدله بالدخن ، ومن هذه حرفته لا يعبأ به في تلك البلاد .. ثم انه استضاف ادا شغر ، احدى قبائل ادا بلحسن ، فلم يكترثوا به ، فقال قصيدته التي صارت لهم كالدامغة ، التي لجرير في بني نمير ، ومطلعها :

أهل اليُنيبيع ، لا تعبأ بما فعلوا . من دابهم خلتان : اللؤم ، والبخُل !

وقال المجدد البوحمدى المجلسي وهو شاعر مجيد ايضاً :

افي الحق اني لا تزال قلائصي تروح بطاناً مولفات المسارح

وتمضي منيرات الليالي ، ولم ابت على كور فتلاء الذراعين لاقح
كأني لم اركب بركب مفازةً جناداً بها معروريات الصفائح
ولم ارد الأسدام وهناً ، وقد خفت وكاد الدجى يثني حداد المناصح

ويقال انه اجتمع بامحمد بن الطلب اليعقوبي المتقدم ، فقال امحمد :

وغزالٍ أحمَّ في بيت نُعمى ظلَّ يبدي تبسما عن لآل
كاد يَسبي العقول عما قليل وقليل ايامه والليالي

فقال هو :

ما لمن راعه الزمان ببين من حبيب سوى الرضى بالقضاء
ولئن راعك الزمان ببين لبوصلٍ ظفرت قبل الثناء
من خويديج [1] بالأضاء زماناً رضي الله عن زمان الأضاء !

وقال احمد البدوي المجلسي البوحمدى وهو العالم الكبير ، والنسابة الشهير ، وهو الذي احيا انساب العرب بنظمه « عمود النسب » ، ومن ذلك قوله :

حمداً لمن رفع صيت العرب وخصَّهم بين الأنام بالنبي
وعمهم انعامه بنسبته فدخلوا بيمنها في زمرته
ودوخوا بسيفه غلب العجم اذ هم بنو أبٍ وأمٍ بالحرم
اذا الخيول البلق في فتوحهم والرعب والظفر في مسوحهم

---

[1] – تصغير خديجة ، والأضاء : اسم مكان .

هم صفوة الأنام من احبّهم بحبه احبهم وودهم
كذاك من ابغضهم ببغضه ابغضهم تباً لـه معضه
أمـة الدين عـماد السنـة لسانهم لسان اهـل الجنـة

ونظم ايضاً ، غزوات النبي صلى الله عليه وسلم نظما جيدا ، يدل على تبحره في السيرة واوله :

حمداً لمن ارسل خير مرسل لخير امـة بخير الملـل
وافضل الصـلاة والسلام على لبـاب صفوة الأنـام
وآله افنان دوحة الشرف وصحبه ، وتابعي نعم السلف
ما ارهفت وارعفت يراعه في مهرق ينابـع البراعه
وجلجل الرعد وسحّ مزنه وهب شمألٌ وماس غصنه
وبعد ، فالعلم اهم ما الهمم تنافست فيه ، وخير مغتنم
وخيره ، والعلم تسمو رتبته من فضل ما دلّت عليه سيرته
فهاك منها نبذة ليست تمل ولم تكن بمعظم القصد تخل
ارجوزة على عيون الأثر جلّ اعتمادي نظمها في السير
وشذ ما اجترأت في ذا الهدف اذ لم اكن اهلاً لصوغ النتف

وانظر الى حسن نظمه ، حيث يقول في غزوة الخندق :

ثمّت لمـا اجليت يهود واوغرت صدورهـا الحقود
وحزبت عساكرا عنـاجُها الى ابن حرب ، وقريش تاُجها
وجعلوا كي يتروا خير الورى لغطفان نصف تمر خبرا
خندق خير مرسـل بأمـر سلمان ، والحروب ذاتً مكر

وكان الأحسن ان يقول : بأشارة سلمان ، ولكن الجأته القافية الى ذلك ، والى قوله في غزوة حنين :

ثم الى وادي حُنَين انحدر عن مكة من الالوف اثنا عشر
فوجـدوا هوازنـاً تأهبـوا بكل مخـذم لهم وألبوا
وبينما الجيش اليهم ينحدر بِغَلَس، شدّوا اليه وهو غرّ
فاستنفرت بهم لذلك الركاب وادبرت تخدي بهم غلب الرقاب
واستنزلوا وادّرعوا وهي تمرّ مرّ سحاب بالبهاليل نُفُر
فاقتحموا عنها وآبوا للنبي وزحزحوا عنه زحوف العرب

وقال محمد عثمان ابن اغشمت المجلسي اخو المتقدم من ابيات قالها لما قدم فاس ملغزاً لأهل مدارسها :

الى مدارس فاس الغر اسئلة عيالم العلم، اهل الحفظ والملكه
عن حاضرٍ قَسْمَ متروك لوالده صار البكاء له حظاً من التَّركه[1]
وما به مانع في القسم يمنعه وحاز الابْعدُ عنه كلما تركه
وعن طوامث لا يُمنعن، او جُنُب من مسجد، وفروع الفقه مشتبكه[2]
واسمٌ في الافراد والتذكير تذكره (؟) وفرع ذين بنوع واحد سلكه[3]
اريد منكم جواباً رائقاً حسناً نظماً، والا فما اعطتكم الشبكه..!

وقال سيدي احمد بن الصبار المجلسي وهو عالم موصوف بالأدب :

لئن طال ليلي وصبري وهَن بحيِّي إدودن وإيدَكْبهَنْ[4]
لقـد مرّ دهرٌ بأنياشون تمر الليالي كأن لا زمن !

---

١ – يعني ان العمرى ، ترجع الى من عمرها ، لا على اهل المعمر عليه .
٢ – يعني ان نساء أهل البيت ، يدخلن المسجد وهن حيض ، وكذلك أهل البيت يدخلون المسجد متلبسين بالجنابة ذكوراً واناثاً .
٣ – يعني ان المصدر لا يثنى ولا يجمع ولا يؤنث ، تقول : رجل جنب ، وامرأة جنب . و نساء جنب .
٤ – بحطنان : من قبيلة إدكفف .

وله :

فائدة افادهـا المفيدُ حقّ لها بالذهب التقييدُ
وهي مـا في الطبقات رُويا مَن ان بعض الشرفاء الأوليا
قال رأيت المصطفى من بعد ما قد قلت يوماً مرة ما نظما
من راقـه البشير والنذيرُ وهو هـذا الرجزُ الشهير
محمـد بشَر لا كالبشَرِ بل هو كالياقوت بين الحجَرِ
قال له قد غفر الله لكـا وكل من قـد قالها فمثلكا
ولم يزل هذا الشريف يكثر من ذكرها بُشرى بها فبشروا

وكان بعد العشر من القرن الرابع عشر .

وقال محمد بن هدار وقد اشتهر بالغناء ، وكان صديقاً لمحمد بن الطلب المتقدم ، ومما ينسب اليه :

لعمري وفي ترك النساء مزية ومن يتّبع اهواءه يمسِ نادما
لهمت بحدادية منـذ أزمُنٍ وقد علمت اني بها صرت هائما
ولم أر فيها خير ذلك مرة فلا خير في الحداد لو كان عالما[1]

وقال الشيخ سيدي المختار بن ابـي بكر الكنتي :

من فتنة غشت بظلمائها أضحى بها العالم كالجاهل
وضل فيها المرء عن رشده زيغا عن الحق الى الباطل
فاجعل لنا يا ربنا مخرجا من هولهـا المقتحم الهائل

وهي طويلة ، وكان الشاعر حياً في اوائل القرن الثالث عشر .

---

١ – هذا مثل عامي عندهم .

وقال عبدالله بن سيدي محمود بن المختار بن عبدالله بن ابج الحاجي وهو بالمدينة المنورة :

يا سيد الناس ابن عبد المطّلب — وخير مدعو وخير منتدب
اليك جبنا كل غور وحَدب — وكل هول يشتكى ويُرتهب
وليس يا سيدنا ، ليس الأرب — منا لديك فضة ولا ذهب
وانما اربنا كشف الحُجب — وحفظ الايمان لنا من السّلب

ولما رجع الى بلاده قال هذا البيت الجميل :

بان الرسول ، وبانت عنك طيبته — ان الأحبة والاوطان اعداء !

ومن شعره أيضاً :

حبذا اربع لدي اتفيتنات — بعد لاي عرفتها مقفرات
ظَلْتُ اذرو الدموع فيهاوقلّت — لربوع عرفتهـا عبراتي
وخشيت احتراق الاربع لولا — ديم الدمع من لظى زفراتي
فعلى الاربع المحيلة مني — وعلى الحي أطيب التّحْيات [١]

وقال ايضاً ، يهجو ادا بلحسن :

قراكم الضيف وهنا يا بني الحسن — بالمذق في الخصب فعل ليس بالحسن
وليست السنـة الغـراء تأمركم — بجعل ماء الاضا للضيف في اللبن ..!

ومما ينسب اليه :

---

١ – لغة عندهم في التحيات .

كان يصبو الى الحسان الكعاب كل آب عن الخنا وابن آب
شامخ الانف ضامر الكشح قرمٌ وعليه الوقار صعب الجناب
فغدت للرعانف اليوم نهباً فرأيت الصواب ترك التصابي
ان ظبياً عز الاسود اصطياداً لم تصده مجلّحات الذئاب !

وكان رحمه الله حياً في صدر القرن الثالث عشر .

الفصل السابع

الشعراء المحدثون

(نصوص)

Call No......... *Date........... ....*

Account No.........

J. & K. UNIVERSITY LIBRARY

This book should be returned on or before the last stamped above. An overdue charges of 6 nP. will be levied for each day. The book is kept beyond that day.

شعراء نقدمهم

من هم الشعراء المحدثون في موريتانيا ؟

ونلقي السؤال على نحو آخر :

كم عدد الشعراء المعاصرين في بلاد المرابطين ؟

في كل بلد عربي، بل في كل بلد آخر على الاطلاق ، نستطيع ان نوجه هذين السؤالين، ونحظى بالجواب عنهما على وجه التحديد والتأكيد الا في موريتانيا ..

فهناك، لا يقع عـــدد الشعراء القدماء والمحدثين تحت حصر الا اذا اقتصرت على كبار المشاهير منهم .. ومع ذلك لا بد وان يفوتك بعضهم. !

ورب شعراء مغمورين منهم ، تجدهم اذا لقيتهم أشعر من المشهورين المذكورين .. لذلك اعلن ان عملي في هذا الكتاب على ما فيه من احاطة وشمول وغزارة مادة ، غير محيط الا بشعر فئة محدودة من شعراء البلاد اسمي منهم :

المختار بن حامد الديماني الملقب بـ « ابن خلدون الثاني » .

محمود بن احمد ميلود المعروف بـ« يـَقوى » .

محمدن ولد حجاب الديماني .

محمذن — بذال معجمة — ولد محمد الديماني .

الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيديا .

وهناك يندر ، أو ربما من المستحيل ان تكون قبيلة موجودة ، وليس لها شاعر او أكثر .. فقبيلة ايدابلحسن (بنو حسن) مثلاً منهم محمد فال بن عينين [١] كما يوجد عن قبيلة إيدوعلِ شعراء كثيرون ، مثل محمدو ولد محمْدي .

ومن شعرائهم المعاصرين محمد فال بن باباه [٢] ومحمد عبدالله ولد ففاء [٣] ومحمد بن احمد يورَ الديماني [٤] وغيرهم .

وقد بدأنا شعراء موريتانيا المحدثين بشاعر لا نعتقد ان في البلاد أكبر منه ولا أشعر ، لا نستثني شعراءها القدماء والمحدثين ، وهو ابو بكر بن محمد بن ابي بكر الفاضلي الديماني .

على ان هذه الشهادة لا تنقص شيئاً من قدر شاعرين كبيرين لهما وزنهما في الأدب الموريتاني ، احدهما من القدماء وهو الشيخ سيدي محمد ابن الشيخ سيدي الكبير ، والآخر هو المختار الحامد المعاصر ، ومدير الشؤون الثقافية الاسلامية في نواكشوط .

---

١ – هو صاحب القول المشهور المخطوط على غلاف الكتاب :

إنا بنو حسن دلت فصاحتنا ... انا إلى العرب الاقحاح ننتسب
ان لم تقم بينات اننا عرب ... ففي « اللسان » بيان اننا عرب !

٢ – هو والد السيد محمد المختار المقيم الآن في المغرب ، وكان وزيراً سابقاً في أول حكومة تألفت في موريتانيا في ٢١ حزيران سنة ١٩٥٨ .

٣ – القائل :

يهزك بالأمداح طالب ثمرة ... وعند اهتزاز الدوح يساقط الثمر

٤ – القائل :

كتبنا لكم بعض المرام ، وبعضه ... مخافة تطويل عليه نلخخ

أي نقول : الخ الخ ... وكان يور هذا معاصراً لابي بكر بن ابو بكر الفاضلي شاعر القبيلة المشهور الآتي ذكره وشعره على الصفحة ٥٧٢ .

وقد جمعنا في هذا الكتاب كل ما وصلنا من شعر هـؤ ء الشعراء الثلاثة ، آملين ان نفرد لهم دراسة خاصة في كتاب آخر قائم برأسه ، ذلك ان شعرهم غني بمادته وآفاقه على أوسع معاني الحياة الموريتانية .

ونشير إلى ان ما حصلنا عليه من شعر المعاصرين قليل جداً بالنسبة إلى القدماء . فبعضهم لا يتعدى القطعة الواحدة او القطعتين ، وأحياناً البيتين ، باستثناء صديقنا المختار الحامد الذي أمدّنا بمعظم نصوص شعره الواردة – بعد ابي بكر – في هذا الفصل ، فاستحق شكرنا الجزيل.. كذلك نبعث بآيات الشكر والتقدير إلى الصديق الشاب الاستاذ محمد باباه الذي أمدّنا بشعره الفاضلي الآنف الذكر .

أبو بكر بن محمّد بن أبي بكر

ولد بالبتراء (حكامة المذرذرة) سنة ١٢٦٥ هـ المقابلة ل ١٨٤٨ ، وتوفي في ٢٦ محرم ١٣٤٠ هـ المقابلة لعام ١٩٢١م . شاعر كبير بين شعراء زمنه . من شعره قصيدته « البادّة »[١] ، قال يخاطب نفسه اولاً :

وعاذلةٍ هبّت علي بلا مَهلْ ... تعيرني بالفقر ، والعجز ، والكسلْ !
وتظهرُ إشفاقاً علي بزعمها ... وتوسعني نصحاً بضرب من العذل ..
تقول (يمين الله مالك حيلة) ... ولم ار تدبيراً لديك ولا عمل ..
أترضى بأَنْ تحيا على الخلق هيناً ... كمثل ضمير الفعل ليس له محل ؟
فقلت لها أمري اليك ، لتنظري ... برأيك .. ماذا تأمرين فيُمْتَثَل . !
فقالت أرى اذ لم تكن لك حيلة ... تنال بها حسن المعيشة ان تسل
اريتك اذ أصبحت ذا فاقة ، فهل ... سألت كرام الناس ؟ قلت لها أجل ..
سألت ، فملّوني ، وهِنت عليهم ... ووجه أخي الحاجات أجدر ان يُمل !
واعطوا قليلاً ، ثم أكدوا ، وفيهم ... مَن أن سيل[٢] يوماً لا يصيخ لمن سأل

---

١ – البادة – بتشديد الدال – التي تحتوي على محاسن ومساوئ اهل زمنه .

٢ – تقرأ بوصل وادغام فيستقيم الوزن ، وإلا اختل .. والمراد بها « من ذا سئل » فكسر السين ولين الهمزة حتى جعلها ياء . وهذا الاستعمال كثير في شعرهم .

وفيهم مَن ان يسأله ذو الحاج ردّه بوعد ، ومهما جاء يطلبه اضمحل
فلو ان اهلي اهلُ مال وثروةٍ لما كنت ابغي عنهم أبداً حِول
فلست أرى في الناس أكرم منهمً ولكن داء الفقـر أكثرهم شمَل

مع قومه :

نعم فيهم قوم قليل عديدهم لهم نشبٌ ،من جاء يسأل منه زل..
به خصهم ذو العدل دون سواهم فخصوا به ، والله أعدل من عدل
وخافوا من العدوى بفقرٍ ، فكلهم بما عنده رام السلامة فاعتزل ..

مع نفسه ايضاً :

فقالت : واين المدح بالشعر ، انه مَهـزَةاهل الفضل ،قلت اتركي الجدَل
فذلك دهر فات ، قد مات اهله ودولته ولّت ، كذا دهرنا دول
أراك عهدت الدار خضراء انها غدت جرزاً[1] ميتاً ، وقاطنها ارتحل
مدحت فأكثرت المديح ، وربمـا هجوت .. فما اغنى فتيلاً[2] ولا أقل ..
« بكل تداوينا ،فلم يشف ما بنا » مقال رواه الناس،قد صار كالمثل !

يمدح آل الهيب[3] :

ووجهت وجهي في الانام لكل من يشار اليه بالأصابـع والمقل
فلم يعبأوا بالمدح ، بل ساءهم كما تضر رياح المسك والورد ، بالجُعل[4]
مدحت اميريً ذا الزمان كليهما والاشياخ آل الهيب ،والكل ما وصل

---

١ — ماحلة : قاحلة .
٢ — شيئاً لا قيمة له بقدر الفتيل .
٣ — آل الهيب : اسرة آل الشيخ سيدي المشهورة في موريتانيا .
٤ — من الزيزان القذرة التي تموت من رائحة المسك وتعيش بالرائحة النتنة .

وقد كان معلوماً لدى الخلق كونهم … بأمثالهم في الجود قد يضرب المثل
وأموالهم مبذولة لعفاتهم … وأيديهم سحّ الغمام اذا هطل
فما نلت منهم لا ، ولاخرّ بصيصة … ولا منهلاً منهم أصبت ، ولا عَلَل
« وسيدات » نجل من سعيد [١] مدحته … ولم ادر ذاك المدح هل طار ام نزل !
وايقنت لما كانت الحال هكذا … بأني محروم من الناس في الازل
فقالت معاذ الله لا تيأسن الا … تفاءل بخير يأتك الخير عن عجل
كذلك حكم الله ، يقبض مرة … ويبسط اخرى ، فارجه الدهر لا تملّ
ألم تك ارض الله واسعة الفضا … وفيها لمن يبتغي الفوائد مرتحل [٢]
ففيها فشرّق او فغرب ، لعل ان … تصادف حراً ما جدا يرأب الخلل
ففيها اذا شرقت حلة تندغي [٣] … لها شهرة فاقت بها سائر الحلل
ومهما تغرّب ، سوف تلقى معاشرا … هنالك بات الجود بينهم وظل
« فبالشكتبيين » [٤] امْرمرَنْ ، ففيهم … ندى ورثوه عن جدودهم الاول
وأهل الاماليف [٥] اقصدن ، فأنهم … يرون حقيراً كل خطب يرى جلل
فبالحبّليين ابدأنْ وسائلنْ … وسائلهم ما ان يُعاب بما سأل
وليس عجيباً عندهم قول قائل … اذا قيل هذا سائل عندهم نزل
وثن اذا « بالباركريين » انهم … كرام جحاجيح ، اكفهم سبل
وشاع ، ففي الآفاق بسط اكفهم … وسارت به الركبان في السهل والجبل
ويصغر ما يعطونه في نفوسهم … وأعينهم ما لدن ناقة أو جمل
وقف ببني يعقوب ، لا تتركنهم … فهم عرفات الحج تاركها بطل

---

١ – سيدات هو ابن الشيخ سعد بوه (سعد ابيه) المشهور توفي عام ١٩٣٣ .

٢ – إشارة إلى بيت الشنفرى المشهور :

وفي الارض منأى للكريم عن الأذى … وفيها لمن خاف القلى متحول

٣ – تندغي : قبيلة فقيرة من اوائل سكان موريتانيا .

٤ – الشكتبيين نسبة إلى قبيلة (أيشكتب) قليلة العدد معروفة في ارض الترارزة .

٥ – اهل الاماليف : أي اهل اللام–الف . وهي علامة على القبائل التي تضع على ماشيتها : لام–الف « لا » لتكون مميزة من سائر المواشي . الباركريين : قبيلة عربية معروفة هناك .

ومن ثم زر أبنا [1] محمد سالم   فهم مجلس العلم المعضّد بالعمل
فقلت اتركيني عنك احظى براحة   وأسعى لما يسعى له كل من عقل
فمن عمرنا قد فات ما ليس ثلثه   ولا ربعه باق ، ولا مد في الاجل
واني على رب العلا متوكل   أليس بكاف من عليه قد اتكل؟
ولست أرى عن بابه متحولا   له الحمد لا ابغي بذا ابداً بدل ..
واسأله رزقاً حلالا بلا عناً   ولا كلفة : والله اكرم من بذل
فقالت : فبالاسباب جاء خطابنا   فلا ينبغي في حقها ، تركها همل
لذلك كانت لا تنافي توكلا   تسبّب ،ولكن ويك لا تطل الامل
ولا تنسب التأثير الا لمن علا   على الكون رباً .. لا يزال ولم يزل
ولا تشكرن إلا له ولكل من   يكون اليك الخير من يده وصل
فلما انتهينا في الجدال الى هنا   وقسنا على ما قيل،ما كان لم يُقل
وقلت لها لا حول الا لربنا   ولا قوة الا له عز ثم جل
واستغفر الله العظيم مفوضا   اليه اموري راضياً بالذي فعل
وصلى إله الأرض جل جلاله   على من اذا،ما كان في مقصد كمُل

اخلاق المحافظين

وله من قصيدة اخرى :

لك الحمد مولانا بكل المحامد   على كل حال في الرخا والشدائد
لك الحمد اذ لم تجعلنّيَ كافرا   ولا فاسقاً مستعملاً في المفاسد
ولا ملكاً ، ما عاش فهو مسلَط   عليه البرايا بين واشٍ وحاسد !
منوطاً به حق الرعية دائما   حقوق الاداني منهم والاباعد

---

١ – ابنا : جمع ابن والمقصود ابناء وحذفت الهمزة لضرورة الوزن ، وظلت علامة الاعراب مقدرة تقديراً .

ولا قاضياً بين الانام مبغّضا   لمن لم يكن حكم له بمساعد
شقياً بتوريط الخصوم ، موكلاً   بتحرير احكام القضا في المساود
ولم اك باسم (الشيخ) لفظاً ملقبا   مسماه عنه غاية في التباعد
ولا ذا مقام في الورى متشبثاً   بما ليس فيه من خصال الاماجد
تراه يحامي دائماً عن مقامه   لخوف انحطاط القدر بين المشاهد
ولا (سيفه)[1] يسعى لجلب ومطمع   لجمع الفلوس جاهداً أي جاهد
ولم اك ذا مال شقيا بجمعه   لكثرته ، او لاجتلاب الفوائد
ضنيناً به عن كل حق ولم يكن   يؤدي زكاة دون ضرب القماحد
ولا من شباب العصر ذا، ان جلهم   اذا هو لم ينقص، فليس بزائد ..
بفقر وجهل قد رضوا مع انهم   اذا استنصروا كانوا ضعاف العقائد
ولا امرأة .. ان النساء نواقص   ولو انها من غاليات الخرائد !
ولا سيما ان لم تكن معتنىً بها   من المهملات ، مالها من مراود[2]
ولم اك عبداً آبقاً غير طامع   لسيدي على طول المدى كالمعاند
ولا شارباً ذات الدخان ولا (الأتا)   لنيلهما افني طريفي وتالدي
ولست أرى فضلاً على من ذكرتهم   لنفسي معاذ الله ربي وشاهدي
ولست ازكّيها واعلم انها   لامّارة بالسوء ذات المفاسد
سوى انني والحمد لله مسلم   بوحدة ربي شاهد غير جاحد
مقر بذنبي ، تائب منه توبة   نصوحاً وعزمي انني غير عائد
واسأل ربي جل غفرانه وان   يبلغني فضلاً جميع المقاصد
بجاه النبي الهاشمي وآله   وأصحابه أهل الصفا والتوادد
عليهم صلاة الله ثم سلامه   كما ان فضل الله ليس بنافد !

---

١ – كلمة حسانية معناها شيخ القرية المنتدب من قبل الحكومة أو المخزن في اصطلاحهم لجمع ضرائب الدولة وجباية أموالها من الناس . وهذه الصفة هي مثل صفة « المختار » عندنا .

٢ – منشئ ومربي يراودها على فعل الخير .

صراع مع المادة !

وله من قصيدة اخرى :

أبا لي َحبّ المال اني لا أدري — أأجر في مالي، أم أذهب بالوزر؟
لأني لما ان رأيت ذوي الغنى — وسيرتهم فيه التي بهم تزري
رأيتهم لم يعملوا لمعادهم — ولم يحصلوا عند الفخار على فخر
على انه ان كان للمال ثمرة — فبالفخر في الدنيا، او الاجر في الحشر
ترى مالهم في كل ارض سوائباً — وذو الرحم المحتاج في غاية النصر
فلم يمنحوا منه لجار حلوبة — ولم يفقروا ظهراً لمن ليس ذا ظهر
وقد فطموا اهل الحوائج عنهم — فلا سائلاً يغشاهم أمد الدهر !
فان يذهبنْ اهل الدثور باجرهم — فلن يذهبوا يوم القيامة بالاجر
ومع ذا فلسنا في الحياة نراهم — بأحسن حالاً في الغنى من ذوي الفقر !
فليسوا بأقرى للضيوف ولا هم — بأنفع فيما قد ينوب من الأمر
ولم يلبسوا اثواب خز ولا ابتنوا — مساكن تنفي فادح البرد والحر
ولم يستريحوا من شقا الجيش انهم — يدورون في قفر دواماً الى قفر
ولم يدمنوا هدماً ، ولم يتعلموا — على جهلهم بالفقه والنحو والذكر
ولم يعمروا للناس ارضاً مفازة — فلم يحفروا بيراً ولا نهراً يجري
فليست لهم في جانب المجد همة — ولا أرب، يا ضيعة المال والعمر !
ومن يك ذا مال، ولم يك صارفاً — له في وجوه الخير او طرق البر
فخير له من ماله ان يصيبه — معاينة، سهم ضرير على النحر !
اولئك قوم خيب الله سعيهم — فأحرِ بأن لم يفلحوا ابداً احر
لهم مذهب غاوٍ به قد تمذهبوا — اذا لم يكن كفراً قريب من الكفر !
كأنهم لم يسمعوا قول ربهم — وتهديده بالكي في الجنب والظهر
ولم يسمعوا من قول افضل مرسل — أحاديث تروى عنه في البخل والكثر
ولم يسمعوا بيتاً من الشعر حكمة — منَ أصدق ما قد قيل من حكم الشعر

فلا خير في ذكر الفتى بثرائه ... اذا لم يزد شيئاً على انه مثر !

آراء في آداب العيش !

قال في النصح والارشاد والتعريض :

إرضَ للمرء كلما هو راض ... وعليه فلا تكن ذا اعتراض
واترك الناس ، يفعلوا ما أرادوا ... لا تناقش عن فاسد الاغراض
ثم لا تطلبن للمجد أهلاً ... دولة المجد آذنت بانقراض
جُل سُو َّام ذا الزمان (جُلات[1]) ... يشترون العَروض بالأعراض !
ثم لم يحسبوه غبناً ، لذا قد ... جعلوه تجارة عن تراض
وبعين النقد افتدوا من عيون ... تستبي القلب بالجفون المراض
ليس يدرون في التعامل فرقاً ... بين بيع ، وشركة ، وقِراض
لم يهابوا فعلاً على غير فرق ... بين فعل مضارع او ماض
فهمو يضربون شرقاً وغرباً ... في مهاوي الجهل الطوال العراض
لم يكن فيهم انقباض لجهلٍ ... بل لفقد الفلوس أي انقباض . !
حينما للفلوس أومض برقٌ ... اسرعوا نحو ذلك الايماض
وتقاضي الديون بينهم اليوم ... قد انساهم ذكر يوم التقاضي
ليس مني هذا لتزكية النفس ... ولكن ذكرى لذي الاعراض
حاش لله لم يكن ذاك ، اني ... يعلم الله ، لست عنها براض
غير اني أبديت نصحاً أراه ... ذا وجوب علي ، بل ذا افتراض
هكذا مُرَّةٌ .. في الآذان ، أدّت ... واجب النصح ، فاقض ما انت قاض

---

[1] – صنف من التجار المتجولين واللفظة اقليمية افريقية .

احوال الدنيا :

وللشاعر نفسه في وصف أحوال الدنيا :

أرى الدنيا وقد بلغت مداها سيهدمها وشيكاً من بناها
وذاك له قرائن واضحاتٌ ولو كان المغفل لا يراها
فولّت غير مأسوف عليها وولّت من يراودها ، قفاها !
فما تلوي على احد ، سواء عليها من احب ومن قلاها
ومن يدري حقيقتها يقينا دعاها يا غدور ، وما كناها
فلا يحزن اخو عقل عليها بمغنمه السلامة من اذاها
لها مثلٌ يرى كزروع قوم اتى منها الجناة على جناها
تخلت ويحها عن كل خير غداة دهى الافاضل ما دهاها
وبدل كل معروف بُنكْرٍ ولم تجر الامور لمقتضاها
بها خلق يقودهم هواهم يطيعون الابالس في رضاها
يضيعون الفرائض ، لا تراهم يقيمون الصلاة لدى اداها
فللآتي اقامتهم دواما قد أغنت عن اقامتها غناها
تنافسهم ، وسعيهم جميعا لتحميد الرياسة لاسواها
لذا كثر السيوف بها ، فيخشى عليها ، ان يكون بهم فناها !
وقد هجر المكارم والمعالي فما في الناس ملتفت الى ها
وعم الجهل في الفتيان طراً اذا الالواح لم يُرَ من قراها

* * *

وفي التعليم مبلغ كل لوحٍ لابواب النيابة قد تناهى
وانثى اللوح سائرة دواما فليس الدهر يعلم منتهاها
وليس فتى بصبٍ في فتاة ولا تصبو الفتاة الى فتاها

ايرجى بعد ذاك لها فلاح ... لقد خاب الرجاء لمن رجاها
هي الدنيا ، فليس لها بقاء ... جهول من يروم لهــا بقاها
فقد نشأث من العدم ابتداءً ... كذا الاخبار تتبع مبتداهــا
فمن يلك عاملا منهم لشيء ... ليبلغ نفسه فيهــا مناهــا
لدار الخلد فليعمل ، ففيهــا ... بلوغ النفس غاية مشتهاها !
فتلك الدار يا من داخلوهــا ... ظِماها لا يُخاف ولا ضحاها

* * *

الا فهي الرياسة فاغتنمهــا ... ودعهــا في الحياة لمن ابتغاها
ولا تمرر بساحتها ، مسؤولا ... عن اخبار الرعية من رعاها
ولست مزكيا نفسي ، ولكن ... سأتحف بالنصيحة من بغاهــا
فمن يعمل بذلك نال خيرا ... ومن لا ، فالنفوس الى هواها
فنسأله الرشاد ، ومنه نرجو ... صلاحا للقلوب ، وما عداها
ونجحا في المقاصد حيث يخفى ... عليها الرشد فيها من خطاها
وتعميرا على الطاعات دهراً ... وحملا للنفوس على تقاهــا
وعوناً في الامور بكل حال ... وتيسيراً ، لنسلم من عناها
وختما بالسعادة حيث متنا ... وضمتنا القبور الى ثراهــا
وتثبيت الشهادة ان سئلنا ... وتسديد الجواب لمقتضاهــا

* * *

كذاك عل الصراط نمر مراً ... كمر الطير تسبح في هواها !
وبعداً من جهنم ، لا ترانا ... لدى الفزع الكبير ، ولا نراها !
وفوزا بالجنان بــلا حساب ... وبالفردوس مأوى في علاها
وعفوا عن خطايانا جميعــا ... ورضوان الكريم بجاه طــه
واهل البيت كلهم ، وصحب ... به نالوا مراتب لا تضاهى

عليهم ما تغنى القمر يوماً … وحنّت ناقة لاخي سلاها
دواماً ، بل بكل اخ قلاهم … من الله الصلاة وما تلاها
ومولانا الموفق لا سواه … لارشاد القلوب الى هواهـــا

طعام القبائل

وللشاعر نفسه هذه الارجوزة يصف فيها ألوان الاطعمة عند قبائل موريتانيا ، وهي من أطرف الاراجيز :

قال ابو بكر سمي جَدّه … المرتجى طلوع سعد جَدّه
الحمد لله الذي قد جعـــلا … للخاق رزقاً واسعاً تفضُّلا
به عليهم ، وبعض فضلا … منه على بعض كما قد نزلا
ثم صلاته على من خلقـــا … من أجله الاكوان كلا مطلقا

* * *

وبعد ذا نظمٌ ان صلح … فيه سداد غنم اعواز الملحْ
لأنه في العبث المبـــاح … فالظرفا له ذوو ارتياح
محتسباً لله في الضحكـــا … للمسلمين منه حين يحكى ..
منبها فيه على رجحـــان … اذهان « دِيمان » على الاذهان
ومظهراً فيه بيان علّي … حبهم (للعيش[1]) في الاطعمة..
سميته اذن مزيل العيش … بين المطاعم وبين العيش
فهي وان تكاثرت الوانها … ثم تفاوتت لذا أثمانهـــا
فبين أمرين إذا ما خيرا … فبيننا اختار الأخف الأيسرا
وهو الذي يمكن للدوام … عليه دون سائر الطعام

---

١ – اسم طعام شعبي معروف عندهم خاص بالفقراء واهل الخصاصة .

وفيه جل عيش اهل القبلةِ ... ففقده علة أي علة !

***

اذا لم يك القمح لهم معروفا ... ولا الثريد عندهم مألوفا
فليس كالرز او اللحم اللذين ... لم يوجدا يوماً بنقد او بديْن !
ولم أكن مفضلاً عليهما ... شيئاً لما قال النبي فيهما
اللحم سيد الطعام .. خبرُ ... مما عن النبي كان يؤثر
وجاء في الأرز مثل ذلك ... لقوله لو كانت الملائك
لكن في العيش لمن يعتبرا ... بعض خصال ينبغي ان تذكرا
منهن الاكتفاء باليمين ... والاستغناء عن السكين
وفي الدروس لم يكن ليدخلا ... فيحوج الأكمل ان يخللا
ولم يكن يحتاج للمضغ الكثير ... فأمره حينئذ سهل يسير
لكنه أغفل مذ أزمان ... حتى استوت في صنعه اليدان
وليراعَ حقه مَن ثما ... لمّا يطابق اسمه المسمى
فعيش (ديمان) الذي قد شاعا ... في الناس حبهم له وذاعا
ليس كغيره له أحكام ... نخصه ، يأتي بها النظام

التعريف بصنعه ..

وها أنا آخذ في تعريف ... أوصافه ، وحدّه الظريف
فالحد فيه ما عليه صدقا ... من غير قيد اسم عيش مطلقا
أو لم يُضَف لشيء او لم يُضف ... له اذن بدونه لم يعرف
وفيه ان للعهد لا للجنس ... منكشف عنها قناع اللّبس
فالعهد فيه ينبغي ان يرْعى ... كما يراعى في الفروع شرعا
كالعدل في فرائض الصلاة ... جميعها وسائر العادات
فللعبادات وللعادات ... مكتملات بعد الاجراءات ..

كذاك (للعيش) امور تغفل ... بها يتمُّ امره ويكمل
فالعدل فيه اولاً ان ينخلا ... وإن تأتَ غسله ان يغسلا
بل يطلب الانقاء، لكن احرى ... بما ذكرت ان يكون (مُترِي)
ثم يدق ويغربل الى ... حد المُلوسة لكي ما يسهُلا
وماؤه بقدر ما يطفيه ... من غير ايباس ولا تمويه
يملح في التنور قبل الحط ... وقبل ذلك لأجل الخلط
حتى يصير من صفاء الذات ... في العيش، لامن عارض الصفات
واستدركته ان يفت من بَعد ... حط، فخير نفضه بالبعد
وذا بأن يجعل في الاوام ... اذ عنه لا استغناء للطعام
ففيه جا عن خير الانبياء ... تشبيه امرأة بلا حياء.!
وطرحه ان حُط حتى تذهبا ... فورته، كان لكلٍ مذهبا
ومذهب التبريد مذهب قوي ... لخبر عن النبي قد روي
والوسط المختار في الامور ... أيضاً كما في الخبر المأثور

آداب أكله ..

لكن يكون مالحاً إن يُنفد ... آكله فيه أصابع اليد
واصبب عليه اللبن الإداما ... وان يكن دهنا[1] فلا يلاما
فالدهن والسكّر ان كان ينال ... احد ذين فهو شرط في الكمال
بل ان اتى بتلكم الأوصاف ... يسوغ ان يؤكل وهو حاف
لانه قد كملت مفاخره ... اوله (عيشٌ) وعيشٌ آخره
فهو الذي ما فوقه عند بني ... «ديمان» اكرام لمن به اعتُني!

---

١ — الدهن في اصطلاحهم : سمن الحيوان .

حكاية الأتاي :

ومن أتى لشارب الدخان ... بُدَيرة ، بالغ في الاحسان

لكن ذا قبل نزول آيـــي ... اتى بها الشيطان في الأتاي . !

فلقيت بالنصر في البلاد ... تلقيا زاد عن المعتـاد

وآمن الناس بها وصدقوا ... باطلهم اكيسهم والاحمق

وفي عكوفهم على كتابهــا ... يبغون مرضاة لمن أتى بهــا

بها اكتفوا ، وعمروا اوقاتهم ... بها ، فلم يأسوا على ما فاتهم

واعتقدوا ان أتايا طاعة ... واجبة لله كل ساعـة

فلن ترى حينئذ الا ملا ... عليه عاكفين في كل فلا

منهمكـين فيـه يحسبونا ... انهـم للصنـع يحسنونا

فليس للفتيان من مراد ... فيما سوى الكيسان (والبرّاد)[1]

فيـه يخالون من الرشاد ... بذل طريف المال والتلاد

تراهم عند طلوع المَغْرَج[2] ... من امره في هرج ومرج !

وكلهم عند ارتشاف الكاس ... نشوان غائب عن الاحساس!

ممتلئاً تيهاً تريه (الهدره)[3] ... على تناول السماء قدره !

من يرتشف منها ثلاثاً كمّلا ... قد نال من مطلوبه مؤملا ..

وكل من قد نال منه ريا ... همّ بأن يلتمس الثريا !!

من شيم الشراب ..

وما جنى حينئذ فهو هذر ... اذا انتشى من الشراب (فهدر) ..

---

١ – للأتاي عندهم ابريقان ، كبير ، وهذا يغلى فيه الماء إسمه (المغرج) ، وصغير يوضع فيه الشاي ويصب عليه الماء الغالي وهذا اسمه (البراد) .

٢ – الابريق الكبير يغلى فيه الماء للأتاي .

٣ – الهدرة : الحديث مع القوم باعتزاز وعنجهية . والكلمة حسانية .

وليس عنده من الادراك   شيء سوى معرفة السكاك
يكاد بالمسكّين يسطو   أقلّ ما يلقون منه السّخْط
حرصاً على (أتايه) وشحا   ذان هما أشد شيْنٍ قُبحاً
فسكّر الاتاي لا يرام   بل جعله في غيره حرام
ولا يصدق على المريض   منه ،ولو قد غص بالجريض !
ولا يرى منه لمحتاج سدف   ولو لمن يؤمن منه بالخلف
وليس ما أقوله بمطلق   في الناس ،بل لابد من بعضٍ يقي
من الكرام والأفاضل الاولى   علّوا سماء المكرمات والعُلى
ليسوا بمعنيين في مظلوم   هذا بمنطوق ولا مفهوم
بل رب عود يابس يحترق   بقربه الغصن النضير المورق
ومن يقل تشربه الأفاضل   لكثرة ، صدق ذاك القائل
لكن فيهم فضائل أُخرَ   تستر غير لائق منهم، صدر
وانما العصمة للنبي   ليست لعالمٍ ولا ولي
فالعلما بقولهم لا يُقتدى   الا بما للشرع كان أُسْنِدا
والأوليا لا يقتدى منهم بقو   ل ،لا ولا فعل الجهل ما نووا
من اقتدى بهم اذن فليقتدِ   بصالح الاعمال منهم فقدِ
بالله يا اخي أترك الأتايا   لمن يرى له من المزايا
وقل لمن كان يراه فخراً   يقوت بطناً اذ يغول [١] اخرى
لكن اذا لم يك منه بد   وقاد نحوه الهوى الألدّ
فكل صنف نحّه على حدّه   ولا تكن حلقتهم بواحده
فانه أسلم للأفاضل   ان يطبخوا في مرّق الأراذل . !

أخلاق الزوايا وأهل الأتايا ..

وللشاعر نفسه هذه القصيدة يهاجم بها الزوايا ويصف طائفة من

١ – من غال يغول .

اخلاقهم وأحوالهم :

عمري ، لقد آثر الآتاي منذ أتى   في الناس ، يا للزوايا أي تأثير
هم فتية تركوا التعليم مذ درسوا   فن الاتاي ، بتكرير وتحرير
واهملوا كل فرض كان يلزمهم   دوماً ، وما كل ذي جهل بمعذور
به اكتفوا ، وبه عن غيره اشتغلوا   وبذّروا المـال فيه أي تبذير
لم يفرقوا بين نص لا ، وشارحه   كلا ولا بـين قرآن وتفسير

* * *

سلهم اذا اجتمعوا للشرب هل لهم   علم بما بـين منهيٍ ومأمور؟
ام كان عندهم علم اذا سألوا   بفرق ما بين تعريف وتنكير ؟
أو فرق ما بين مبني ومُعربـه   او فرق ما بين تأنيث وتذكير
افعالهم ، بئست الافعال جامدة   ما ان لها في المعالي من مصادير
علامة الرفع في اعراب جمعهم   ضم (؟) ١ فهمُ جمع لتكسير
والنصب عندهم أيضاً علامتـه   نصب المخارج داباً في التنانـير
وعنهم الرأي في إشغال عالمهم   تعيين نصب بترجيح وتشهير
واستعملوا في اتاي ، يا خسارتهم   ما كان قبلُ معداً للدفاتير
فانظر الى كل صندوق ، فلست ترى   سوى الزنابيل فيه ، والقوارير
وليس عندهم من موجب أبداً   سوى الاتاي لايقاد الفناذير
فما لهم حجة تغني ، ومعـذرة   يلقونها ، عند القـاء المحاذير
فكم أعـانهم في شأنه نفر   من الافاضل أرباب المحـابير
فتح المناخر ممن يقتـدى بهم   قولاً وفعلاً ، ذوو رأي وتدبير . !
يا ليتهم تركوا منه نصيبهم   لكل من ظنه أسنى المفاخر
ومن اذا لم يجده ظل مكتئباً   في حال كلب مريض القلب مأثور
تراه من حبه والجد في كمد   ... ٢ حلفة او يوفي بمنـذور

١ – سقطت هنا كلمة غير مقروءة .
٢ – سقط هنا من الاصل كلمة .

انّي رأيت اتايا لا غناء لـــه   فما يزيد ذويه غير تحسير !
هم العُماة .. لذا ما سافروا ابداً   اذ ينزلون بأجحاف وتعسير
فلست احسب تقصير الصلاة لهم   ولا اصدق مفتيهم بتقصـــير !
أين يُنخْ اهل آتاي ، فأول ما   يُقري الكؤوس بتلقيم وتعمير

* * *

وليس ذاك بمغنٍ في ضيافتهم   شيئاً ، وليس اخو عذر بمعذور
ما كان أحوج يوماً من به نزلوا   لأن يُعان بتيسير وتسخير
اما الشراب، واما الاكل ان وجدا   دون الاتاي ، فأمر غير مشكور
هذا ، وما فيه من خير ومفسدة   على الخلائق لا يحصى بتعبير
ان عُد في شهوات النفس فهو إذاً   مما يُعد ولاءً ، وبالخناصير
عوذاً بك الله من تأمير انفسنا   يوماً علينـــا ، ففيه شر تأمير
بجاه عبدك طه من اذنت له   في الكائنات بتقديم وتأخير
وآله الغر والاصحاب من سلكوا   منهاجه بين اسراف وتقتير *

الذات العليا

وللشاعر نفسه من قصيدة في مخاطبة الذات الإلهية العليا ويذكر بعض المعجزات النبويـــة :

ايا فاعلاً في الكون كيف يريدُ   ومن عنـــده للسائلين مزيدُ
ومن هو حقاً ربنا ومليكنا   ونحن له رغم الانوف عبيد
اذا شاء فينا فعل امر يريده   فليس لنا عما يريد محيد
دعوناك مولانا لتقضيَ حاجنا   فأنت الذي دون السؤال تجود

---

* سقط آخر بيت من القصيدة لتعذر قراءته في النص المخطوط .

وتصرف عنا كل سوء بأرضنا ... وليس لها من بعد ذاك يعود
وادعوك ربي ضارعاً مترتلا ... بمن لاح منه للأنام سعود
بمن جاءه يوماً ، عليٌّ وقد غدا ... بــه رمد في مقلتيه شديد
فولّى بعيــني شافيين بنفثة ... له نظر بعد الكلول حديد !
ومن جاءه يوماً قتادة عينه ... على خده تَنْجَرّ ، فهي تميد
فعادت بكف المصطفى بمكانها ... ولولاه ما كانت اليه تعود
إلهي أصرف داء عيني كله ... وما هو منه دارس وجديد
وارزقني ما عشت في الجسم صحة ... وعافية ، عنه البلاء يحيد
وعلما صحيحاً خالصاً لك نافعا ... ومالاً به في النائبات أجود
وتمحق عني كل ذنب عملته ... اذا حل بي ، ما كنت منه احيد
وتعفو عني ، ثم عن كل مسلم ... فمن ذا الذي نرجو سواك يجود ؟
وتختم لي بالخير عند منيتي ... فيدفن مني في الضريح سعيد

الجنكور

وقال في وصف « الجنكور » :

لقد مسني (الجنكور) لا مرحباً به ... وبالمري لا (أسكي) اذا هو جنكرا
ترى أهله عنهم اذا يعزلونه ... ويعطونه كالضيف قدحاً منشرا
وكلهم يقصيه عن يم (زرّه ...) ... يحاذر كل الحذر ان يتخطرا
وفي صاحب الجنكور رسوم بينة (؟) ... تراه يفاجي ساعة المشي أزورا
فلو كان في جمٍّ غفير وجئته ... بدا لك بين الناس اشعث اغبرا
وتلقى اخا (الجنكور) للشمس بارزاً ... اذا ما استوى حر النهار (وزنزرا)
ولا بد ان المرء (بفسخ) ثوبه ... (لينعت) للزكار ما فيه قد ترى
اذا ابصروا في جلده منه حبة ... وان تك من رأس الذبابة اصغرا

يقولون داوِ عنك بالقطع هذه
وبالجرظ او ذي ِطلبها ان تشفّرا

ولا تهمل العفريت فيه ، فانه
من الكافر النمرود قد كان اكفرا

وكان اذا يدنو مداويه قلبه
على شوكة أوما المداوي تحذار

ترى وجهه يخضرّ طورا ، وتارة
تراه اذا يخلو من الدم اصفرا

اذا مسه بالموس مسته دوسة
ووحوح حتى كاد يبكي وكشرا !

الا انما (الجنكور) كان دواؤه
ثقيلا كتطبيب البهيمة اغجرا

على َصبْره لا يقدر المرء ساعة
ولو كان اقوى من َعلاة[1] واصبرا

سواء على الجنكور ذو نصف ليلة
ومن كان من فرعون في السن اكبرا

اذا اقبل الجنكور لا مرحبا به
وسخطاً له بعدُ اذا هو ادبرا

فخففه عني يا مهيمن ، واكفني
توابعه ، يا من علا وتكبرا

بجاه رسول الله والصحب كلهم
ومن طاف بالبيت الحرام وكبرا

ومن يدع بالمختار طه ، فانه
بنيل المنى من غيره كان اجدرا

عليه صلاة الله ما لاح كوكب
وما لاح برق في السماء وامطرا

وما طلعت شمس ، وما قال قائل
رأيت فلانا اصبح اليوم (جنكرا)

شقاء !

وللشاعر ايضاً في وصف الوغى وامور الزراعة :

ويومٍ منَ أيام الوغى ليس مثله
من الدهر يوم ، لا ُحنين ولا بدرُ[1]

ولا شبك كلا ، ولا الجلّ ،انه
على كل ايام الحروب له فخر

فبينا نقاوي الدهر ينتج غارزا
حرايث زرع ناعم نبتها نضر

تعاورها الامطار ، حتى كانها
من الزهو نخل كاد يصرعه الوقر

نطوف به طورا ، ونزعم اننا
اذا ما حصدناها ، فقد حصد الفقر !

---

١ — موقعتان معروفتان من مواقع النبي صلى الله عليه وسلم في بدء نشر الدعوة الاسلامية .

وحتى اذا كادت تغيب رعاتها … اتيح لها طير مناقرها حمر
توطنت الاحراص حتى حسبتها … سوى سنبل الاحراث ليس لها وكر !
فلما رايناها تحاول اكلهـا … وللشر اهوال يضيق بها الصدر
بنينا تواكيدا طوالا عمادهـا … فلما استوينا فوقها ودنا الامر
اخذنا سواويطاً كأنّ رنينها … رنين قسي النبع هيجها نتر !
يطير فتيت الطوب شتى كانه … رصاص تداعى خلفه الزند والشفر !
وظلنا قياماً لا قعوداً كاننـا … جذوع رواس ، ما يزول بها دهر
ومن تحتنا بالارض منا جماعة … تخالهم يجرون كلهم ، كروا
ونزقو كما تزقو رجال عشية … تداعت على عليا مهيب لها زجر
فما من جلوس لا سوى .. [1] ما به … تحل يمين الحالفين او النذر
ولا وقعت في الوقت من صلواتنا … صلاة ، فما ظهر اداء ، ولا عصر
يظن إذاً من قدره ذاك ، أننا … زناديق كفار وليس بنا كفر ..
بلى ان دين المصطفى هو ديننا … لك الحمد مولانا على ذاك ، والشكر
ولكن تلك الطير لم ار مثلها … عن الزجر والتسواط يشغلها النقر
اذا ما هزمنا عصبة من جيوشها … اتت عصبة من بعدها ، مكرها المكر !
فنهزمهم كل انهزام ، وكلما … تركناهم بعد إنهزامهم كروا !
فما زال هذا دابنا وهو دابها … لدن اشرقت حتى تضمنها البحر
فان تلك لم تمنع من الطير زرعنا … ولم نستفد منها ، فقد بقي الاجر
وما خاب من بالاجر فاز ، فانه … هو الفوز ، مافي ذاك ريب ولا نكر ..

وله :

الا حين جاوزت الحدود من الصدى … ومن شدة (الحمان [2]) خفت على عمري !

---

١ – سقطت كلمة هنا لتعذر قراءتها في النص .
٢ – الحمان عندهم كناية عن شدة الحر .

أبا لي بابات وخلّي ابو بكر مرورا على اهل المُليزم « بوزكر »[1]

ولـــه :

خليلي هل لي فيكما من مساعد على ان تمرّا بي على اهل زائد
فان لم تمرا بي عليهم ، فانني اذن فيكما والله ازهد زاهد

ولـــه :

أعد لنأي الدار منها عرندساً يقيد اولى الهاديات مقيـــدا
اذا رعته ينساب ، حتى كانه اوابد وحش قدارين المؤيدا

ولـــه :

فؤادى من حبي اميمة قد امسى عليه من (التشواش) ما يربط الراسا
فان تلك باعتني ببخل فانني ابيع اذن من دونها الروح والنفسا
وان نسيت او خانت العهد بيننا فان لها من لا يخون ولا ينسى

ولـــه :

لدى جنب راس الفيل من كبْل ساحل فتاة لقاها عندنا غير (زاحل)
فتاة اذا امسى الهوى مترحلا فليس هواها عن فؤادى براحل
وان كان بعض القوم في الغيد (واحلا) فما انا في خود سواها (بواحل) ..!

وله يمدح احد الحكام وقد شمله عفوه :

جزاك اله العرش ، عرّفتني قدري وعاملتني فيه على مقتضى أمري

---

١ – لعله ضابط فرنسي مر به الشاعر . والمليزم تصغير الملازم والمقصود التحقير .

تجاوزت عن ذنبي بما انا قارف   وما كنت اهلا للتجاوز والعذر
لعلك من عند الاله مكاشفا   بما لست ادري من عيوبي ، وما أدرى

وله يهجوا جارية :

وجارية من امرها يُتعجّب   هلموا الى اوصافها فتعجبوا
اذا غاب عنها اولياها تعطلت   وان اباها في المسافة اقرب
ولم تنتظر من خاطب غير خاطب   ولكنها وقف لمن جاء يخطب
سواء عليها الخاطبون ، فكلهم   يجيء بقدر المثل منها ويذهب .!

اليدمه :

وله في وصف اكلة تسمى « اليدمة » :

ويَدْمةِ عيش ما ترى مثلها يدما   صلاحاً ، تسر العين ، والكف والفما !
من الجفنات البيض إشتغلت بها   يدا أُمة تسمى باسعد اذ تسمى
فواها لها اما التقتها فحسنت   لذلك منها اللون واللمس والطعما
وجاءت بها من بعد ما تم امرها   الى اهلها ، لم تعد ان امرها تما
فلما كسوها من إدام ملاءة   فصبوا عليها الدهن واللبن الجما
ترى (الراس) منها خارجا من إدابها   كما خرجت من آلها قنة (١) شُمّا
وصارت كما يشتاقها الضيف ، ارسلوا   الينا بها تحكي بثينة او سلمى
فما هي الا كالعريس ، قد أهديت   مزففة تشفي هموم من اهتما
اذا وضعت بين الضيوف تبرّجت   فلم يستطيعوا عن تناولها (سكما)
هي اليدمة الحسناء ، والحلو طعمها   كما يشتهي في الخصب في السنة الدهما
على مثلها مهما قدرت فلا ترم   طعاما سواها ، لا ثريد ولا لحما ..!

---

١ - عذق النخلة .

وله يمدح اميراً من آل الشيخ سيدي :

جزى الله عنا كل خير اميرنا ووفقه في كل امر الى الرشد
اتانا بما لم يأت قط بمثله امير سواه ، لابجد ولا كد
اتانا بآل الشيخ سيدي ، حبذا مجيئهم بعد الزيارة من بَعد
هنيئاً لنا اذ جاورونا بارضنا فقد جاء في امثالهم انها تُعدي

وله يمدح قوما يهبون البقر :

شيئان ، ان فقد الاشياء بعدهما فلا (يُشد) الى الدنيا أذن خبرُ
ابقاهما الله ما دام الزمان بنا : ابناء أحمد من دامان ، والبقر !
اودى الاله بما في الكون من بقر وقوم خندوس قد اودى بهم (عُمَر)

وله في اهل عمار :

يا اهل عمار ، ان الضيف والجارا اوصى بحفظها الباري ولو جارا
إذا ، فلا تكلوا اضيافكم ابداً الا الى من يخاف العار والنارا

وله يصف حالة من حالات وفاء الدين وهو معسر :

يا رب لطفاً دائماً سرمدا اذا انقضى دَيني في احمدا
لم ادر مـا اصنع من بعده عسى بفضل الله ان أرشدا
قد عشت في اقتضائه ازمناً اظنهـا سبعة او أزيـدا
اقضيه منـه درهماً درهـماً هوناً له ، اخاف ان ينفدا ..!

* * *

سادة السادات

وقال في النصح والأرشاد ، ويخاطب بها قوماً عناهم :

يا سادة السادات فيما دُري ... في الناس ، من باد ومن حاضر
دونكمُ وفداً اتى زائراً ... ليس بهزّاءٍ ولّا ساخر
ببابكم الجأه الخوف من ... سطوة دهرٍ خائن جائر
جئنا بأوطار نرجّي بكم ... قضاءها من ربنا القادر
ونرتجي اصلاح اعمالنا ... في باطن الأمر وفي الظاهر
والناس افواج على بابكم ... من سائل منهم ، ومن زائر
او خائف يخشى على نفسه ... كيد العدو الغادر الماكر
والسائل المحتاج ان أمّكم ... قد شفهُ برح ابي جابر
يحظى من الدنيا باجناسها ... بالظّلف ، والخُف ، وبالحافر ..
ويأمن الخائف في شربه ... فيما يرى في الناس من ضائر
يستعمل الأضياف خدامكم ... في حرف شتى فمن مائر
او طاحنٍ يخبز ، او حالبٍ ... لم يغنيا شيئاً عن الجازر .!

* * *

بنى لكم في المجد بانيكم ... لا كالبنا في الطين والآجُر
سرى بذي الآفاق بين الورى ... ذكركم في المثل السائر
يا بارك الرحمن في ما به ... قد خصكم من فضله الباهر
اعيذكم بالله من شر ما ... يجري لأهل السوء في خاطر
كالعين او كالحسد من أهله ... والسحر من كل امرىءٍ ساحر !
ماذا عسى يبلغ من مدحهم ... إطناب ذي النظم أو الناثر
فهاكم مني قويصيدةٌ ... قد حالها من ليس بالماهر ..

تبّطه عن شأو أصحابه — وصــل ذوات المنظر الفاتر
لم يعص في يوم هواه ولم — يصغ الى الناهي او الآمر
قــد باع في شهوته نفسه — يا ويحه من بيعــه الخاسر
حتى غدا من بعد ذا كله — يقرع سنّ النــادم الحائر
بل أمّ ما لم يك اهلاً له — ولم يكن عليــه بالقادر
إمّا رأى بحرا محيطا بكم — من المديح الكامــل الوافر
ملتطــم الأمواج ، مَن أمّه — الفاه ما عليه من حاجر
فيستقي من حيث ما شاءه — فيلحــق الواردُ بالصــادر
لكنها جاءت كما ينبغي — كالروض تحت الديمة الزاهر
قد يصلح البذر ولم يرتبط — صلاحــه برفعــة البــاذر
هدية منه ، وان لم تكن — اهلا لذاك المنصب الفاخر
يقول اذ قد مُدحتمو قبله — « كم ترك الأول للآخر » .. ؟
هذا وصلى الله ربّ الورى — على النبي العــاقب الحاشر
والــزائر الصــادق تروونه — من بحر عرفانكم الزاخر

وله يمدح نجل متّالي :

ما كان للحق من والٍ ولا تالِ — لولا الاله ، ولولا نجل « مُتالي »
امسى نهابا لأهل الغيّ ، يختله — من صائديهم سفاهاً كل ختّال
ولم يردّ له عدل ولا حكم — ولا تلافاه متلوّ ولا تــال
وكاد اذ كاد جند الغي يطرده — فانتاشه عابد الرحمن من تال
فانتاشه بعد ما كادت تشبطه — أعدْل معتذرٍ فيه ، ومحتال
فاصبح الحق في أمن وفي دعة — بعد المهانة ، يمشي مشي مختال
وذبّ عنه بعضب صارم ذَكرٍ — مهند لجنود الغي مغتــال
يا رب صل على الهادى وشيعته — وجاز خيرا عن الحق بن « متالي » !

« عرابة » جديد ..

أرى عبد العزيز فتى اذا ما تتابعت الشدائد في السنين
يصول الى المكارم ، ليس يلوي لدفع النائبات على معين
حقيقاً ما رأيت احق منه ببيت في عرابة مستبين
« رأيت عرابة الأوسي يسمو الى الخيرات منقطع القرين »
« اذا ما راية رُفعت لمجدٍ تلقاها عرابةُ باليمين » !

وقد جاءت هذه الأبيات ناقصة بيتا لا يزال في حافظتي ، رواه لي المختار الحامد يخاطب فيه الناقة ، وهو :

اذا بلّغتني ، وحملت رحلي عرابة ، فاشرقي بدم الوتين !

وله في مدح سيد اسمه يحي :

لقد فضل الرحمن من انزل الوحيا على اهل هذا الشط قاطبة يحيي
فمن يك في « جاكان » ميت حاجةٍ فيحيي به الحاجات ميتها يحيا ..

وفي الممدوح نفسة يقول هاجياً :

شهدت لحيحي بالسخاء شهادة تبينت فيها بعد اني كاذب !
فأشهدكم ، والله يعلم انني الى الله من تلك الشهادة تائب ..!

وله من ظريف القول :

مات الغداء لدينا أهل ذي الأفق والخطب سهلٌ اذا كان العشاء بقي ..
ولست أحسبه يبقى ، فقد ذكرت عواله انه في آخر الرمق ..!

وقال هاجياً :

اشكو الى الله من «تجلاج» ذى الحالا ضل الحمير وظلت شاة « ونكالا »
وبالخيام غدا قوم اذا نزلوا يدعون عند صلاة الصبح ترحالا

متنكرون للاتاي .!

وقال يعاتب جماعة كانت تدعوه لشرب الأتاي ، ثم تنكرت لهذه العادة الكريمة ، فبادرهم بهذا الملام :

اری اليوم جل الناس عني تكبروا فاين غدا المعروف حين تنكروا ؟
فلا تنكروني ، انني انا ذاكم ليالي اذ (مفتولكم) [1] متعذر
ليالي هذا الكيت عز وجوده مجاهره اكدت اذا عنه يخفر
فليست عقيلات المواشي تناله ولا (الكندر [2]) الغالي اذا بيع كندر
اتمشون « ايكنتي » ويأتي (بتبخة) [3] وليس من المفتول ذلك (يجبر) [4]
تجاهلتموني كبراً علي ؟ وقلتم «اهذا المغيري الذي كان يذكر» ..؟
فبعضكم مهما أقم طار قلبه وبعضكم من طار بي يتفكر
كأني لم اصبح شرابا لفتية كرام كريما عندهم حين أحضر
حظينا لديهم في الصباح وفي المسا ويسمر منهم سامرٌ بي ، و(يصهر)
ثلاثــة اعـوام شرابهم انا فهل كان فيهم يومها متكبر ..!

---

١ – نوع من الشاي مشهور هو اجوده .
٢ – اسم الصمغ عندهم .
٣ – ايكنتي : خادم . وتبخة بالتاء ، أي طبخة شاي وقد كتبها كما يلفظونها في الحسانية .
٤ – يجبر : يوجد ، والكلمة حسانية . والشاعر يستعمل قاصداً أحياناً الكلمات العادية في شعره ، لاعطائه طابعاً اقليمياً ...

الحوش

وقال يصف (حوشا) اقاموه للدرس والعلم ويعيبه لنواقصه وسوء بنائه ، ويعرج على ذكر اهل الدرس والعلم ويسخر منهم :

بنينا لدرس العلم (حوشاً) مشيداً ... لنبرأ بالتكرار من عاة الجهل
فلما تبوأنا من الحوش منزلا ... وجدناه مسلوباً سن الدفء والظل
اذا لم تكن يا حوش دفئاً ، ولم نكن ... بظل ، فخير منك (صدراية) الغسل[1] !
فما انت للتكرار والدرس آلة ... فقبحت من حوش ، وقبحت من حل !
ولا درس الا انكم تشتموني ... فوالله ما شتمي دواء من الجهل ..
تظنون ان الحوش للذود آلة ... فاليقتمو جل المروءة والعقل
تقولون (كررنا) ونحن تلامذ ... ولم ارتكرارا سوى الشرب والأكل . !
فان انتمُ لم تفعلوا غير هكذا ... فما انتم أهلٌ لحوشٍ ولا نهل

وقال في بعض الأغراض الخاصة :

لقد كان في ذا الدهر للمتعجب ... عجائب عمري ما لها من مُكذب
فمنهن من قد كان يزعم غلبنا ... ولم يأتلِ فخراً به اهل قُطرب
ولكنه في سالف الشعر حكمة ... تخلص من تأنيب كل مأنب
فانشأت بيتاً لامرىء القيس ، جاءني ... « خليلي مرّا بي على أم جندب »
فيسمعه من ظن صدق مقالهم ... وليس اريب القوم في الأمر كالغبي
فان هو لم يفخر عليك كفاخر ... ضعيف ، ولم يغلبك مثل مغلبي

---

١ — الصدراية بالحسانية : الشجرة على الاطلاق ، وهو هنا يعني شجرة الغسلين ، أي شجرة جهنم ..!

وقال :

أرى آل يعقوب الألاه تجرأوا على ظلمنا عمداً بغير جناح
وذلك مما كان شرواه يقتضي أنِ الظلم حقاً تحت كل جنَاح!

وقال :

الا ان اشعار بن أنديه أحمدٌ لشعر الحناذيذ الفصاح لناسخه
ولكنه مني اليه نصيحة فمن لي بمن فيه النصيحة راسخه
بأن احتكار الملح عار على الفتى واشعاره في ألسن الناس (ماسخه)..

وقال :

ايا زاعماً ان انتسابك «للأسدي» لعلمك يجدي، لا وجودك لا يجدي
ويا سابقاً في النثر كل مسابق ولكنه في الشعر ابطأ من هندي
ويا معرضاً يزورّ عني تأنفاً ومعتذراً في العين عني بالزهد
على انه في الشعر يبذل جهده ويهدي اليه من قوافيه ما يهدى
مكانك فاخسأ، ليس جهدك بالغاً مرامك، فاطلب، ما تزيد على الجهد
فأنك فهد، والقوافي عفائف ولم تك ترضى بالوصال من الفهد
ستأتيك عني ملء سمعك عاجلاً قصائد لم تحقر لها الشعرا بعدي!

أرق الشاعر

وقال يرد على بني باب أحمد وكانوا له اقران اضداد في الشعر :

أرقتُ، وحق لمثلي الأرَقْ لطارقٍ همٌ سُحَيراً طرقْ
وذلك من نبأٍ جاءني وما خلت من قد رواه صدق

يخبر ان بني باب احمد … لقد حاولوا شتمنا عن رهَق
ويهدون اشعارهم نحونا … سيدرون عند احمرار الحدَق !
ليغدوا ، وذا كل ما يخلقون … بأن يجمعوا بين كذب وحق
ولا خير في خلق من لم يكن … ليغري شيئاً اذا ما خلق
ولو شئت اجريت من فكرتي … عليهم من الشعر سيلاً غدَق
ونقطع ما غدر الحكم في … حشاشتهم من عروق الرمق !
ولكنني معرض عنهم … وما بي من اشعارهم من فرق
سوى انني لم اكن ابتغي … هجا كل من للهجاء استحق .. !
بني عمنا ، يا هديتم الى … سواء الطريق فماذا النزق ؟
وكفوا من الغيظ ، لا تحنقوا … علينا ، فشر الخلال الحنق
بل الحكم ذا : «سلموا تسلموا» … وتصفو المودة بعد الرمق
وللحق لما بدا فارجعوا … فان الرجوع الى الحق حق ..
ولا تظلموا سنة المصطفى … شفيع الورى يوم نشر الورق
عليه صلاة من الله مع … سلام ، كما فاح منه العرق
وآله الغرّ والاصحاب ما … تجلى سداد الدجى بالفلق
وما لاحت القمر في ايكها … وما صاح ديك بِقَوقِيقَقُ[1]

وقال في بعض الأغراض الخاصة :

قل لمن يدعي الفخار طويلا … بالمعاصي يراه أمراً جميلا
يألف الكذب في الأمور جميعا … ليس يبغي بالكذب يوماً بديلا !
وهو يشفي غليله بالأماني … والأماني لم تغنِ عنه فتيلا
ان بالعلم فخر كل الزوايا … لا ترى دونه اليه سبيلا
قد شفى الناس ان ظللت كئيباً … لابساً ثوب الأفتضاح ذليلا
بين جمع به قبائل شتى … ضمّ من كلّ أهلٍ قبيلا

---

١ – وضع الشاعر هذه اللفظة لصياح الديك وضعاً صوتياً من عنده ، وهي على غرار : قوقوقو !

عند قاضٍ محكم كان آلى   عن سواء الصراط ان لا يميلا
هكذا كان الأمتهان لعمري   وامتهان الرجال يشفي الغليلا !

الى (مقبولة) ..

وقال يخاطب امرأة ذات شأن تدعى مقبولة (ويحذفون التـاء عند الترخيم) : ويظهر ان مقبولة هذه كانت من سيدات المجتمع الموريتاني :

الا بلغ (المقبول) ذات الفضائل   ومن هي للمقصود أقوى الوسائل !
ومن وصلها غنمٌ جزيل ، وقربها   ينوّه قدر الذكر من كل خـامل
سلام محب صادق الود ، لم يكن   اذا مال عنه الخل ليس بمـائل
فموجبه اني أجلّك ان تُري   عن الحق في ميل لسبل الأباطـل
وان الألى لاذوا عن الحق ضِلّةً   ببـابهم يمشون مشي المخاتل
رماة بهم تشفى الوحوش ، تعودوا   تَصيُّدَها بالنّبل ، او بالحبائل
خُذي حـذراً منهم لعل رئيسهم   يرى بك ظبياً راتعاً في الخمائل ..!
فيكمن حـتى ان يجيئك غرة   وتلك اذاً والله ام النوازل !!
وان لا تكوني نزهتي مثل من رأى   ظباءً فراء الرأي نبـذ السراول
وان تعلمي ان الفضائل اهلهـا   وان عدموا ، خيرٌ من اهل الفواضل *

وقال في نقد بعض الأمور والحالات في بيئته :

الدهر ذو عجبٍ جمٍ ، ومن عجبِه   تقريظ بعض ذوي الآداب في أدبه

* اراد الشاعر من هذه المفاضلة تفضيل الرجال على النساء « وإن عدموا » .. فهم في نظره « خير من اهل الفواضل » ، فالفواضل جمع مؤنث . وجمع المذكر الأفاضل . وهذا الحكم مستوحى من البيئة التي يعيش فيها الشاعر ، وهي بيئة تفضل الجنس النشيط على الجنس الناعم تفضيلا مطلقاً لاهوادة فيه ! وكذلك شأن كل مجتمع متأخر ..

لذاك ان فتى بالأمس مرّ بنــا   تقاصرت رتب الفتيان عن رتبه
لما رأى حرصنا على زيارته (؟)   نرجو التبرّك من أجداده وأبه (؟)
ولّى يحثُّ بعيراً تحته جذَعـا   قد جُذَّ من عظم ذُفريهِ الى ذنبه . !

الطعام الحار ..

وقال في طعام حار قدم اليه :

فتى أنخنا به يوماً فأكرمنا   والحُر من يكرم الأضياف ان زاروا
هنيهة ، ثم جاء بالغداء لنــا   أحمى من الهول في ارباع من ثاروا !
لما مددنا لأكل منه ايديَنــا   كادت لتأكلها من دونه النار . !
ان الطعام اذا اشتدت حرارته   يكون منه مكان النفع أضرار ..

الشعر البارد ..!

بابَ بن محمود فتى نجْرِه   ما كان يدري العدل في امره
طعامــه حام ولكنه   لا بارد ابرد من شعره . !
فليت ذا يطفيء من برد ذا   وليت ذا يطفيء من حَرِّه ..

توبة ..!

وقال يخاطب قوماً يتراكم مالهم ويعرض بأدب الضيافــة ، ويخص بالذكر « باب » الآنف الذكر وآخر اسمه « ماركم » :

ما بالـكم ، اني أرى (ماركم)   من حبه قد حارتِ افكارُكم

من حرصكم عليه لم ينتفع ... ضيفكم منه ، ولا جاركم
تعطونه الضيف ، وتهجونه ... في أكله ، لا قربت داركم .!
يا معشر الأضياف اني لكم ... نذير ، اذ عليّ انذاركم
هبوني الأسماع ، انصحكمو ... ان قدرت في الناس اسفاركم
خلوا اذاً (لباب) عن حيه ... قفراً ، فخير منه اقفاركم
اولا ، فعن طعامه فارغبوا ... ففيه دون النفع اهذاركم
سيان في ذلكم فاعلموا ... اقلالكم فيه ، واكثاركم
بالله هل سمعتم مثل ذا ... يا باب ، أو رأته ابصاركم
ما ان أرى مثلكم انكم ... عجيبة في (مارُ) اخباركم
تبينا إذا لله من ذكره ... انا ضربنا الذكر عن «ماركم» ..

كرّة..على المنتصرين ..

وقال أيضاً يهاجم المنتصرين « لمارُ » المتقدم الذكر :

ايا من كان منتصراً « لمارُ » ... بما عن حده في اعتذارُ
اذا ما كنت منتصراً ، فهلا ... لنفسك كان ذاك الأنتصار ؟
الم تنتبك — فلتذكر أمورا ... سوى هذي — مهمات كبار ؟
وقد ظلت لشعري في انتظار ... فطال بها الرجا والأنتظار
صبرت لها ولم ترجع جوابا ... على ان لا يُطاق لها اصطبار
وتمشي وهي ذاهبة «حبارا» [1] ... وتصبح ساكتاً وعليك عار
وتلفى بعد مشتغلاً بما لا ... عليك العار فيه ولا الشنار
ولم تبصر اذا ندبٌ قرانا ... طعاماً لا يطاق له استعار
طعاماً ليس يؤكل للتشفي ... اكلناه وليس لنا اختيار ..؟

---

١ — الحبار تخريج حوبارة في الحسانية ، وهي عندهم المومس الساقطة.ويقال للرجل المعروف بالزنا والفحش حوبار .

لتطبيب الخواطر ليس إلا ... مخافة ان يكون له انكسار
فقلنا فيه لما ان تناهت ... حرارته .. فما احماه « مار »
أعهدٌ كان بينكما عليه ... تحافظ ، ام صداقة، ام جوار؟
ولكن الكريم يجل عما ... عليه منه يقبح الأنتصار
قد اخطأتُ الفراسة فيك اذ لم ... تكن شيخاً ، ولا قطباً يزار
ولم تك في العلوم محط رحل ... لاطفاء الجهالة ، فهي نار
بساحتك المدارس للقضايا ... رواح نحو وجهك وابتكار
ولم تك سيداً ملكاً مهاباً ... عليه من عشيرته المدار
ثمالا للارامل واليتامى ... لبيباً في النوائب يستشار
الم ترضعك منا امهات ... صفيات ، اذا ذكر النجار ؟
غوال في العشيرة منجبات ... حظيات يرام بها الصِّهار
اذا ارتضع الغلام لها ثديـاً ... سرت فيه السكينة والوقار
ولا عجباً ، الست ترى بنيها ... يسودون الكبار وهم صغار !
فمنهن اكتسبت شموخ أنف ... لذلك كم يطيب لك القرار
تروم الشعر ، لست له بأهل ... وما لك في صناعته اقتدار
ولم تصرفه مصرفه ، فزلّت ... بك الأقدام ، واشتد العثار
عثار ليس يؤمن منه كسر ... وبعض الكسر ليس له انجبار
فكن هذا اذا ما شئت فاسكت ... أو ارسل بالجواب لك الخيار

وقال في الموضوع نفسه وهي القطعة المصورة على الصفحة الخامسة من الكتاب :

قريضك لا قريض ، فمن يبيع ... به الأشعار ، فهو لها مضيع
قريض ليس يوجد فيه معنى ... لطيف ، لا ولا مغزى بديع
ولا مِلَح ، فيضحك حين تحكى ... على وجه السرور لها السميع
ولكن جل ما هو ذو اشتمال ... عليه الكذب والهجو الشنيع

كأنك في تكلفه دوامـاً وخانتك القريحة والصنيـع
كذلك من يحاول فعل أمر ـاذا ما الأمر عاص ـ فلا يضيع
(اذا لم تستطع أمراً فدعه وجاوزه الى ما تستطيع) ..
مسيلمة الكذوب أراد يحكي كلام الله فافتضح الوضيع .!

وقال يهجو :

قل للذي بركيك الشعر قد نبغا وبالهجاء لنا حقاً طغى وبغى
بحر المعاني عميق ليس ينزفه تعاقب الفصحاء اللسنُ والبلغا
وانت لم تنتقص يا «باب» منه سوى ما ينقص الكلبُ من بحرٍ اذا ولغا !

وله :

من مخبر (باب) اني شاعر ذَلِقٌ وأن فهمي بحمد الله يأتلق
مهما تفكرت في اشعاره جعلت جرد القوافي الى جنبيّ تستبق

وله :

يا ناقداً يبتغي في النحو تلحيني لا ترضَيَنْ من علوم النحو بالدون
جهل الثنا فيه للفتيان منقصــة فانظر لذلك تنبيهاً في «الاشموني»

وقال يهجو باب أيضاً :

رويدك (يا باب) السفاهة عن هجري اذا كنت من سكر الغواية في صحو
وحسبك من تلحين شعري باطلاً او اظهره بالنصر المؤيد بالغزو
فان هو لم يظهر لغيرك ، انني على القول من تلقاء مثلك لا ألوي
فماذا على الليث الهزبر يغيلــه اذا ظل ذيب في عراض الفلا يعوي !

تقول فلان شاع في الشعر لحنه كذا وكذا، كالكلب يلغط في الجوّ!
فدع عنك ما قد كنت مرتكبا بلا دليل ، فليس الجد في الامر كاللهو
فمن لدني كالفتح شعري ، ولم اكن له افتح القاموس او كتب النحو
على انه يأتي كما شئت غالبــاً على سَنَنِ الأشعار حذواً على حذوِ
وان يك فيه اللحن فرضاً ، ففضله عن اللحن يكفي في أداء الذي يروي
يسامحني فيه حيـاء لحسنه ويستر عما كان من خطأ يحوي
وذو الشحّ يعطي الله ما فيه مقمعٌ لجند دعاويه الركيكـة واللغو
فأما بنص او قيـاس يرده فيبدو له وجه اليقين من السهو

وقال مخاطباً نده نفسه :

نهيتك عني ، ثم لم تسمع النهيا سأرميك من شعري بداهة دهيا !
اذا علقت يوماً بجيدك اصبحت عظام التّراقي منك واهية وهيا !!

وله ، ويهدد بها بني ديمان أيضاً وهم قبيلته ، ولم انقلها كلها :

الا يا بني ديمان ، انيَ فأعلموا نذير لكم مما به العرض يكلم
احذركم نفسي ، فلا تأمنوا لها بأن تزهد وافي المكرمات فتندموا!
ولكن عليها حافظوا ما استطعتمو تنالوا بها مني الثناء وتغنموا
وان لساني شهدة يشتفى بها وهو على من صبه الله علقم !
وها انا ذا ارعاكم من ورائكم وما قد بدا لي منكم واكتسبتم
فعن مجدكم لا تغفلوا وتيقظوا فحتى متى انتم عن المجد نوم ؟
وسيرتكم ذى تعلمون اقتدوا بها ودوموا عليها ، او الى غيرها انتموا
وعضوا عليها بالنواجذ ، وادرجوا على نهج السلاف لكم قد تقدموا

يكذب نفسه

وله ، وهي آخر المطاف في معركته مع مهجويه من بني قبيلته دبمان ، وقد سجل بها على نفسه اسوأ معاني الأنكسار والهوان ، وانه كان « كاذبا » في كل ما قال .. ! قال :

... عني به كل أعمري [1] علي حنيق قلـبه كالمجمر
أهمّ همومي كلهن رضاهم فمثلي ؟! يرضى به مثلهم حري
وقد نزغ الشيطان بيني وبينهم وما قدر الرحمن لا بد يقدر
فان غاظهم اني اجبت قريضهم فأني إذاً ممـا يغيظكم بري
شهدت على نفسي بأني كاذب واشهد احياء الزوايا ومنفر
ففي الشعر ما قال الاله ، وانهم « يقولون ما لا يفعلون » كما دري
ندمنا على ما قد مضى منه بيننا ومهما يتب عبد من الذنب يغفر
فها انا لحم منضج وهمو المدى ولم اك من مرضاتهم بمقصر
غررت بهم ، اذ خلتهم كسواهم من الشعرا ، اني على الشعرا جرى
حسبت لجهلي كل بيضاء شحمة كما قد حسبت الكعك كل مدور ..
سأهدي لهم مني الثناء محبراً فأنهم اهل الثنـاء المحبر
وبقى على نفسي ان اسطعت منهم لدن كان هربي منهم غير منكر
فأني ضعيف .. لست احمل ضربة سأحمل تعييرا لكل معير !

في خلاف قبائلي :

وله يصف بها احوال قومه السياسة وهي من جيد شعره :

---

١ — سقط من هذا الشطر كلمة في النص غير مقروأة . وأعمري يقصد كل من ينتمي لآل اعمر اكداش .

دعوناك يا ذا العرش اذ نابنا همّ تطاير منه في جماعتنا سم !
تحالفت الأغراض بين قلوبهم فلم ترمنهم من بآخر يأتمّ
ففي القوم بعض عنده الرأي ، انه الى الشيخ إسليمان يأوي فينضم
وبعض له من ذلك الرأي نفرة وفي قلبه مالا يفوه به الفم !
فاصلح لنا يا ربنا ذات بيننا على منهج ما فيه ذنب ولا اثم
ودبّر علينا يا مدبر امرنا بما لم يدبره البراء ولا حتم

تبرير مواقف !

وقال مبررا بها بعض مواقف هجاء مقذعة بينه وبين شاعر من قبيلته بني ديمان — خصومه بالأمس ! — ويمدح :

ارى سيّدَيْ ديمان حين هجاء اتى منهما سهواً لمحض قضاء
به خرقا اجماع (تشمش) اذهما رئيسا بني ديمانٍ النبــلاء
جرى لهما حيف به الدهر لاهج قريب ديار في البلاد وناء
بعيدين مما فيه نقص كلاهما براء من الاسواء اي براء
فحقهما الشرعي ان يتمادحـــا وان يرعيا في الله محض قضاء
فحاشاهما مما به قد تراميا من الهجو بالتصريح والغلواء
نعم خلطا بالهجو فخرا مؤثلا وشعرهما في ذاك غير سواء
فما كان من هجو فغير مصدّق وقد صدقا في الفخر دون مراء
ولست ابالي ان يقال بغير ذا فذلك حكمي فيهما ، وقضائي !

وقال معرضا بابن احمد يوره الشاعر المشهور :

انبئت ان ابن احمديوَرصار واعجبي يحرّق الإرّمَ (؟) علي من غضب !

وانه ربما قد كان يأخذ في بعض المجالس من عرضي وعرض ابي
الا اذا كان مذ ضاقت مذاهبه بدت له من لدنّا رقة الذّرب

حديث مفترى

وقال يمدح ويدفع حديثاً مفترى :

يا ذا الذي ما فاقه سابق قط ، ولم يلحق به لاحق
مني سلام طيب رائق اليكم بمثلكم لائق
موجبه ، والدهر يبدو به ما هو من دون الكرى عائق
انك قد ُخبرت عنا أسىً صدرك من عتب به ضائق
وهو حديثٌ كذبُ مفترى قد ساقه من كذبة سائق
ولم نخل انك من قولهم بكل ما تسمعه واثق
لا تسمعنْ من باهت ، واعتبرْ في قوله « ان جاءكم فاسق » ..[١] .
اعاذنا الله وايا كم من شر ما يأتى به الطارق
ومن ظروف الدهر طراً ومن تسليط ما سلطه الخالق !

يمدح الحسنين

وقال يمدح الحسنين وهي من جيد شعره :

سلام كماتستودع النحل بالجبح (؟) وكالخمر تهدى للندامى مع الصبح

---

١ – يشير إلى الآية الكريمة : « يا ايها الذين آمنوا إذا جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ان تصيبوا قوماً بجهالة ، فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » .

وكالمسك نشراً ، والخزامى ورندها او الياسمين الغض قد همّ بالنفح
على الحسنيين الكرام محاتدا أباة الخنى والضيم والفحش والشح
بغاة العلى والمجد والدين والندى من ايديهم كالسحب رائحة السحّ
ومن يشهد الناس الزوايا وغيرهم بسؤددهم بالنص حقا وبالشرح
ومن هم اذا ما الأمر قد عض قفله واشكل واستعصى ، تلاقوه بالفتح
ومن فيهم للعلم دأباً مدارسٌ بها يشتفي ذو الجهل من جهله الفَدح
ومن هُمْ ومن هم ، ثم مَن هُمْ ، ومن همو وكيف بأنفاذ الزواخر بالنزح !

ومنها :

فها نحن نقفوا إثرهم ، نقتدى بهم كذلك نمسي في الوداد كما نضحي
واشعارنا تروى ، ولم يجر بيننا لحاءٌ ، فلا لاحٍ تراه ، ولا مُلح
فلما اتت من غير قصد قصيدة وشنّعها من ليس من عصبة النصح
تميزتموا غيظاً ، وهاجت شواظكم ومزقتم الأعراض بالقذف والقدح
وعظمتم الأمر الحقير ، ورمتموا عُريش غراب الهجو اسرع من لمح
ووزعتم الأشعار بين بطونكم كتوزيع اموال الحملاّت في الصلح
فما نحن الا مثلما قال قائل يعد مجازاة المسيء من القبح
هجوني ولم أهج الاخلاّء ، إنني الى آخر البيت الشهير لذو لمح
جلبتم الينا شتمنا بقريضكم ستنقلبوا (؟) بالسيف عنا ، وبالرمح
فلما علمنا عجزنا عن جوابكم على الطبق ، قابلنا وبالعفو والصفح
ففينا اذا افنيتم أحرف الهجا سنفني اذاً في مدحكم احرف المدح !
ونرجو من الرحمن ستر عيوننا وعفواً اذا باء الجوارح بالجرح !

مع بني الاكداش

وقال مستغيظا من بني الأكداش :

هجوني[1] بنو الاكداش ظلماً على عَمْد ... وما لأمرىء مما قضى الله من بُدّ
هجوني ، ولم يحصوا عيوبي كلها ... على الله اثني عند ذلك بالحمد ..
قد انتهروني كلهم ، وتقرّبوا ... بسبي وتخويفي الى الصَمَدِ الفرد !
قد انتبحوني كالكلاب جميعهم ... فقلت اخسأوا طرداً لهم أشنع الطرد

ومنها :

رويداً بني الاكداش ، بعض وعيدكم ... وتهديدكم ، اني سأكفيكم وحدي !
فحسب الفتى فيكم اذا قيل شاعر ... بذلك يستغني عن الجد والكد
مثالبه تُمْحي ، وتُمْحى ذنوبه ... ويُحظى به في الخلد ، في جنة الخلد

ومنها :

فشعركم – اذ تشعرون – ونثركم ... وبَعْرُكم ، اشيا سواسية عندي ..!
بكم سلس الاشعار ينفكّ دائماً ... يسيل على الاعقاب منكم بلا رد
فيُكْره شرعاً ان تكونوا أئمة ... بكم يقتدى في الشرع يوماً ولا الضد

ومنها في الفخر بأهل قبيلته :

فطوراً همو أسداً وطوراً ملائك ... ولا شيء يقوى للملائك والأسد
وطوراً هموا أصحاب نبل صوائب ... سهام مواضٍ ، ما تحيد عن القَصْد
هم البطشة الكبرى كما زعموا ، فلا ... تشاقِقْهمُ يوماً ، شِقاقهم مُرْد !
على مثل هذا قد جرى جل شعرهم ... به مفخر الغلمان والشيب والمُرد

وهنا يأتي بيتان مليء فراغ شطريهما الأولين بنقط ، ولم تشر نسخة محمد بابا التي اعتمدناها في النقل الى سبب ذلك ، وقد حصل في القصيدة

---

١ – هذه هي لغة اكلوني البراغيث ..

مثل ذلك في أكثر من مكان ، وها نحن نتابع ، نهاية القصيدة على هذا النحو المتقطع الصلة « بوحدة » الأبيات فاقتضى التنبيه :

وفي كل شكل مفظع قد تشكلوا ولكن مخيض الماء ليس بذي زبد
مساكين ! اني تبت لله منكمْ ومن سبكم ، فيما أسرّ وما أبدي
فلو انـــني لم أتق الله فيكم هجوتكم هجواً يسير بلا رد !
يكون بجيـد الحي فيكم قلادة ويسعى به الملحود منكم الى اللحد
رغبت بنفسي عن هجاكم لأنه غمارة تمرٍ لا بلحم ولا جلْد
بذا فاكتفوا مني ، وإلا ازيدكم على ذاك زيدا ليس (مُجبَر) بالبُعد

وقال يخاطب أولاد أعمر أكداش أيضاً :

هو الدهر ، فيه ما يسر وما يأسُ وليس من المقدور يُنجي التحرّس
لقد سر اولاد اعمر أكداش ان رأوا قُصَيديّة فيها شَعَيرٌ مسوّس . !
أظنوا به ـ لا كان ـ شعراً وطرزوا لشعرهم ، أقلامهم ثم طرّسوا
وحلّت لهم ثم الغرارة فمّها وقلنا لهم هيهات من ذاك فيأسوا
فلا تطمعوا فينا لـكم بمُشاعِرٍ الافاغطسوا يافتيةالشعر ، والْحسوا.. !

وقال فيهم أيضاً :

يا ايها الراكب الغادي او الماشي بلّغ سلامي اولادَ اعمَرِ اكْداشي
ولا تحاشِ به من جمعهم أحدا لا من صبيّ ولا كهل و(فكراش)[1]
وخـــبرنهم بأني لا اشاعرهم (لا شوش) مني فلا غاش ولا راش
اني اشاعر من ضلت عيـــوبهم عني وفي الناس عيبي ذائع فاشي
. . . .

---

١ – الفكراش في الحسانية : الشاب الفتي .

. . . . الله حسبي مما منــه تخواشي

تعذير وتذكير ..

وقال في التعذير والملام والدعوة الى الهدى والكف عن الهجاء بعد معركة طويلة النفَس ، وقد صورنا منها عشرة أبيات على الصفحة ٦ من الكتاب ، وهي فصل الخطاب وخاتمة المطاف في شعره :

أما والله رب العالمينا — يميناً لا اكفّرها يمينا !
لقد قرع المسامع أمرٌ إمرٌ — حكاه الناس ، ظلْتُ له حزينا
ولما ان رددت الفكر فيــه — صبرت رجاءَ ما للصابرينـــا
وذلك من هجـــاء قد أتاني — لبعض الناس بغياً عامدينـا
هجوني ظالمين بغير حق — سيجزى الله جل الظالمينــا
ولمّا أهجهم لا لا وكـــلا — كما كانوا لذلك زاعمينـا
فلم اخدش لهم عرضاً سليماً — ولم أنحِل لهم جسما سمينا
ولم اجدِب لهم مرعى خصيباً — ولم انضب لهم ماء معينـــا
ولم ارزىء لهم أحداً بأمر — يحاوله ، وكان به قمينـــا
ولست مظاهراً أحداً عليهم — ولم انقِصهم ظفراً فدونا !
معاذ الله ان أهجو قبيلاً — تساموا في العلا حسباً ودينا
مصاقع ، جالِبُ الأشعار فيهم — كساقي الماء وسط البحر نونا
تطيعهم القوافي كيف شاؤوا — ففيهـا يرفعون ويخفضونا
« اذا بلغ الفطام لهم صبيٌّ — تخر له المصاقع ساجدينا »
ولكن حين فاض الشعر فيهم — وضاقت عنه صحف الناقلينا
هَراقوا شعرهم في غير شيء — وكانوا فيه أزهد زاهدينا
فصونوا شعركم ، لا تهرقـوه — ستحتاجون للاشعار حينا !
ومـــا الأشعار مجدية فتيلاً — على الانسان اذ يمسي دفينا

فتوبوا ، ثم إلتمسوا جواباً لرب العرش ساعة تسألونا
على أي المذاهب قد وجدتم سبيلاً لأغتياب المسلمينا ؟
بتسويد الصحائف بالقوافي وإتعاب الكرام الكاتبينا
قواف كالجُمان مهذبات طوال قد يزدن على المئينا
فكل قصيدة جعلت رشاء «لبير التّوم[1]» تروي الواردينا
وبحر الشعر لا حجْر عليه لوارده شمالاً أو يمينا
وأيسره الهجا ، اذ كل حي ففيه سلّم للعائبينا !
فسدّ الله ذاك الباب سداً كما عنه نهى المتنابذينا
ولكن حين حرّمه علينا رأيت مكانه الدّدَ والمجونا
أأهجو مسلماً في غير حق ابت نفسي بذلك ان تدينا !

الى أن يقول :

بهذا جئت ممتثلاً فذكّر ففي الذكرى انتفاع المؤمنينا
ولو شئنا زيادته لزدنا وقد خفنا ملال السامعينا
تجاوز ربنا عنا وعنكم واسكننا سبيل الصالحينا
وغِلاً في الصدر أزاح عنا على سُرر الصفا متقابلينا
مع الملأ العلي بحيث نرنو بأعيننا لرب العالمينا
بجاه محمد صلى عليه مع الآل الصحاب الأكرمينا
وسلم ذو الجلال كذا عليهم مع الأتباع قاطبة أمينا !

---

١ – اسم بئر معروفة عندهم .

٢ — المختار الحامد

الشاعر في جلسة تأمل !

اسمه الكامل : المختار بن حامد الديماني ، نسبة الى القبيلة المشهورة بالعلم والادب في موريتانيا . ويلقب المختار الحامد في بلاده بـ « ابن خلدون الثاني » ، تنويهاً بفضله العلمي وعمق تبحره في علم التاريخ العربي والاسلامي بصورة خاصة ، ولشدة اتصافه بصفات العلامة ابن خلدون المؤرخ العربي المغربي المشهور .

والمختار الحامد اليوم صاحب مركز ثقافي اسلامي في الحكومة الحاضرة في نواكشوط ، وكان لثلاث سنوات خلت (١٩٥٩ م) استاذ تدريس التاريخ في المعهد الاسلامي بمدينة بوتليميت المشهورة .

له مؤلفات تاريخية وجغرافية عديدة أهمها « تاريخ جغرافية موريتانيا الحديثة » وهو موسوعة كبيرة شهدتها مخطوطة سنة ١٩٤٢ تملأ جراباً

كبيراً [1] . وقد ألجأته الحاجة في تلك الايام العصيبة – الحرب العالمية الثانية – الى بيعها لدار المعهد الفرنسي لأفريقيا السوداء بسان لويس ، والمعهد المذكور هو الذي سيتولى طبعها بالفرنسية بعد ترجمتها الى لغة أبناء السين بصفته صاحب حقوق نشر الكتاب .

نص رسالة الحامد الى المؤلف

وقد كتبت له أسأله عن تلك المخطوطة ،وعن أحواله العامة وفاوضته على طبع الكتاب في لبنان ، وذلك في رسالة بعثتها اليه من دمشق سنة ١٣٧١ هـ – ١٩٥٢ م ، فأجابني عليها بالرسالة التالية المنشورة صورتها الخطية في أول الكتاب على الصفحة الثامنة ، وهذا نصها الحرفي :

« سان لويس ٣٠ رمضان ١٣٧١ .

« الأخ العزيز الشاعر الخطيب المصقع الأديب النابغة الفذ السيد محمد يوسف مقلد .

عليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، أما بعد فقد وصلني كتابكم الكريم المؤرخ في ٤ رمضان (استشهاد شعري) :

فككت ختامه فتبينَتْ لي ... معانيه عن الخبر الجليّ
وكان النَدّ في عيني ، وأحلى ... على كبدي من الزهر الجنيّ
وضُمِّنَ صدره ما لم تُضَمَّنْ ... صدور الغانيات من الحليّ

(ويستطرد مستشهداً بشعر آخر) :

كتاباً ذكرنا بألفاظه ... عهوداً زكت بالحمى واللوا

---

١ – الجراب عندهم : جلد ماعز أو غنم يقوم مقام محفظة السفر (الشنطة) الكبيرة عندنا ، ويسمونها (التا سفره) .

كأن المباسم « مياته » ولاماته الصدغ لما التوى
و « أعينه » كعيون الحسا ن ، تغازلنا عند ذكر الهوى !

(ويعاود الأستشهاد بشعر آخر) :

قلت اذ أقبلت من الشام كتبٌ والليالي تنيل قرباً وبعدا
مرحباً مرحبا وأهلاً وسهلاً بعيون رأت محاسن سعدى ..!

(وبعد هذه التوشيعات الشعرية التي رصّع بها رسالته ، وبعد هذا الفيض من العواطف والأغراق في الثناء .. يقول) :
« اشكركم على ذلك الكتاب الكريم الذي القي إليّ ، وعلى ذلك الخطاب الحلو العذب ، وتلك العاطفة الحلوة ، وذلك العهد المحفوظ وذلك وذلك .. ولكم مثله والله مني جزاء وفاقاً بل اضعافاً مضاعفة . واني وان لم اكتب اليكم ، فان لمحبتكم والاعجاب بكم نمواً في اعماق قلبي وأوردتي وشراييني كما ينمو النبات في أثر السيل وكمثل حبة انبتت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة :

وان الكثيب الفرد من جانب الحمى إليّ وان لم آته لحبيب
لكم منتهى ودي وصفو مودتي ومحض الهوى مني ، وللناس سائره
وليس بتزويق اللسان وصَوغه ولكنه قد خالط اللحم والدما
سريرتي ودّكم قدما ، وان علمت سريرة المرء فليترك وما عملا

« فمعذرة ، فان عدم كتبي اليكم ليس عن سلوّ ولا نسيان ، اما شأن الكتاب (اي كتابه) وأنا بحاجة الى طبعه ، وقد تركتموني في معيشة ضنك الجأتني الى أن أوجه اعمالي التاريخية والجغرافية لدار المعهد العلمي لأفريقيا السوداء (مركز موريتانيا) فأصبح الكتاب لهم طبعاً !

ولهم حقوق طبعه وترجمته الى أية لغة ، وقد فاوضت المدير ، فوافق على طبعه بالغربية بشروط :

١ – اعلان اسم المؤلف وعنوانه في صدر الكتاب : « المختار بن حامد في دار المعهد العلمي لأفريقيا السوداء » .

٢ – ان لا يترجم الى اللغة الفرنسية أصلاً ، لأن دار المعهد الأفريقي كفيلة بذلك .

٣ دفع مائتين وخمسين الف فرنك – للمعهد – من فضة افريقيا (يسمون العملة فضة) عن كل جزء(٣٠٠ صفحة) .

« وشرط رابع من الكاتب المؤلف وهو خمسون نسخة مجاناً (له) .

« ثم ان شئتم بعد ذلك اشتريت منكم مائة نسخة بألف فرنك للنسخة الواحدة ، فيرجع اليكم مائة ألف فرنك من المبلغ المذكور فوق وتفضلوا بقبول فائق الأحترام » .

***

أوردت هذه الرسالة بنصها ، بقصد ايراد الملاحظات التالية :

١ – اسلوبهم في كتابة الرسائل ، هو اسلوب القرن الرابع الهجري الذي يتميز بحب الاطراء الى درجة الغلوّ ، فهم لا يدعون صفة حسنة ولا نعتاً طيباً إلا ويقرنونه الى اسم مخاطبهم في حالة الرضا عنه ..

٢ – طابع المظاهرة والمجاملة ، التي تستغرق معظم الرسالة او الخطاب .. في حين ان الغاية الأساسية من الموضوع – مُوجب الرسالة – لا تحظى بأكثر من سطور قليلة من التنويه حتى لتكاد تضيع في عباب الكلمات العاطفية ، والتودد ، وامتداح الصفات والمزايا الخ ...

٣ – ايثارهم للتاريخ العربي الاسلامي على التاريخ الغربي في رسائلهم وكتبهم وغيرها ، وذلك يعني حرصهم على تراثهم الديني والقومي ، والمحافظة على هذا التراث ، باستمرار مزاولة التقاليد والعادات ، وجميع المظاهر التي تذكّر به وتحفظه ، وهو حرص يدعو الى القدوة

والتبعية في أجيالهم المتعاقبة !

شعره

المختار الحامد يمثل في الشعر الموريتاني مدرسة الجيل الجديد في بعض شعره من حيث الموضوع[1] والبعض الآخر تقليدي للمدرسة القديمة ، مبنىً ومعنىً ، وانه صاحب قريحة موآتية بنظم الشعر بالسرعة التي يكتب فيها النثر ..!

فاجأته مرة (بسان لويس سنة ١٩٤٢ على ما أذكر) وهو مكب على ورقة وراء (كنتوار) لا يرفع رأسه الا ليمد يده الى تاسُفْره (جراب) يتبلغ منها حبّات من التمر ، قلت :

ــ السلام عليكم يا مختار .. ما تصنع ؟؟

قال : انظم قصيدة الى حاكم موريتانيا أمدح بها فونسا .. واستعطفه لأعطائي تذكرة Bon - D,achat (يسمونها بوها) اشتري بها درّاعة (قفطان) لي ودراعة لعيالي ..!

قلت كان ينبغي ان تكتب له (عرض حال) لا قصيدة .. قال ، ولكن نظم الشعر عندي أسرع من كتابة « عرض حال » ..!

ويمكن القول أيضاً ان شعر المختار الحامد « شعر علماء » اكثر منه شعر شعراء سليقةً وموهبةً ووجداناً : كذلك يمكن القول ان معظم شعر البيضان هو شعر تقليدي ساذج المعنى والموضوع . والواقع انهم لا يشكون ضعف المواهب ، بل على النقيض ، ان عندهم من المواهب ما لو انيح له الصقل والنمو في ظل محيط راقي الفكر والمدنية كبيروت والقاهرة ودمشق وبغداد لأبدعوا أيما ابداع . كذلك يمكن القول انهم

---

١ ــ من ذلك قصيدته « اضاعوني وأي فتى اضاعوا »وقصيدة أخرى سياسية يهاجم بهاحرمةولد يابانا احد زعماء الترارزة . وكلتا القصيدتين غير منشورتين مع اشعاره في هذا الكتاب لعدم الحصول عليهما في الوقت المناسب .

اليوم في مستهل نهضة عامة تشمل جميع ميادين النشاط الثقافي والصناعي ولن يمضي باذن الله وقت طويل حتى نشهد بواكير نهضة أدبية علمية في ذلك القطر العربي النائي .

مثال من نثره

بالاضافة الى الرسالة الشخصية السابقة التي كتبها لي المختار الحامد ، أقدم مقطعاً موجزاً من مقدمة كتابه الآنف الذكر ، كمثال من نثره - وتجدر الاشارة الى ان الكتاب كان في ذلك الحين ما يزال مخطوطاً . وقد نقلت المقطع التالي من مقدمته تحت اشراف المؤلف نفسه عندما التقينا اصيل ذات يوم في بيت أحد كرام السنغاليين في سان لويس ، قال :

« الحمد لله .

« وبعد ، فهذا تاريخ يتضمن ترجمة اجمالية لنبهاء بلاد الترارزة من امراء وعلماء وادباء وشعراء مع ذكر ما وقفت عليه من ذكر وفياتهم ومآثرهم ، ومختصرات مؤلفاتهم،ونبذ من أشعارهم وأمثالهم ونوادرهم ، بقدر الوسع والطاقة . ولا ادعي الاحاطة بجميع النبهاء ، بل ربما قد فاتني جملة منهم هم أحق بالذكر من بعض من ذكرت ، واختصرت في ترجمة من هو أولى بالاطالة منهم من بعض من أطلت فيهم ، أما لأنه لم يصل الي خبر او وصل الي منه اليسير . وتراني أذكر المترجم مجرداً عن الألقاب الا ما يكشف صفته بعبارة وجيزة طلباً للاختصار .

« ولما كان بين التاريخ والجغرافية أشد ارتباط — اذ لا تتم معرفة حوادث الأزمنة الا بالوقوف على ما وقعت فيه من الأمكنة — ناسب ان ألمّ بقليل من جغرافية هذه القطعة من بلاد خط الاستواء « التي يسكنها البيضان » ، بادئاً بجغرافيتها الطبيعية ثم بالسياسية ثم بالاقتصادية .

« ولما كانت بلاد الترارزة إحدى أجزاء تسعة من بلاد المغافرة المسماة في عرف المشارقة ببلاد شنقيط وفي اصطلاح الجغرافية الحديثة بالموريتاني فأقول :

« موريتانيا مجموعة بلاد واقعة عن شمال السنغال ، يسكنها خليط من صنهاجة والعرب . اما صنهاجة ، فدخلها منهم في المائــة الخامسة للهجرة ، وذلك تحت راية ابـي بكر بن عمر اللمتوني ، جيش أكثره من لمتونة وكدالة ومسوفة (وهي ثلاث قبائل وبرية من قبائل صنهاجة وما عداها مدرية [1]). دخلوا على السودان . فأجلوا بعضهم ، وملكوا بعضاً ، وتناسل منهم اكثر من عدا بني حسان من البيضان الموجودين اليوم فيها . وقد قيل قبل ان في ذلك الجيش آحاداً من العرب دخلوا مجاهدين في الفتح الأسلامي . وقد انقسمت صنهاجة في ذلك العهد الى ثلاثة أقسام : قسم قام بالمملكة والجهاد وحماية الأرض ، وقسم قــام بالصنائع والحرف وهم اللُّحمة (سموا بذلك تشبيهاً بلحمة الثوب وهي ما ينسج عرضاً ، وخلافها السدى وهي ما يمد طولاً) وذلك لأنهم كانوا يعطون الصدقات والأعانات للمجاهدين والمعلمين ، فكان الجهاد والتعليم إسداداً والأنفاق إلحاماً . وقسم قام بالتعليم والتعلم ، وهم الزوايا سموا بـذلك لانزوائهم للعبادة .

« واما العرب ، فدخلها منهم بنو حسان ، من عرب المعقل، على لمتونة وهم يومئذ متقلبون على جميع بلاد المغافرة (فيما بـين اطراف الغرب الاقصى (المروك) إلى أطراف السودان الفرنسي ، ثم الى مصب نهر السنغال من جهة الغرب الجنوبي وهذهي موريتانيا بحدودها الطبيعية) فانتصروا عليهم وقتلوا منهم كثيراً وضربوا المغارم « جمع مغرم، وهي الجزية او الاتارة » على أكثرهم. والغارمون هم المسمّون اليوم باللحمة،

---

١ – يعني بالوبرية سكان المضارب المصنوعة من اوبار الحيوانات،والمدرية سكان البيوت المبنية من المدر وهو اللبن (الطين) .

ومن كان زاوياً « اي على حياد » أبقوه على حاله محترماً . فأصبح سكان البلاد ثلاثة أقسام حسان ، وزوايا ولحم ، الخ .. » .

رأيت ان اكتفي بهذا القدر من مقدمة كتاب المختار الحامد ، وهي طويلة وفيما نقلته منها بلاغ .

صورة لقاء ..

كنت في سان لويس سنة ١٩٤٢ . وذات يوم بينما كنت اجتاز شارع هنري لوبرن ، اذ حانت مني التفاتة الى حانوت بيضاني كان لي معه سابق معرفة في بودور ، فأتيته مسلماً . واذا بجماعة من الاخوان الموريتانيين متحلقين على الارض حول عدة الشاي ـ الاتاي كما يسمونها ـ يأكلون التمر والتشتار (لحم مقدد) ويشربون الاتاي ويتناشدون الاشعار ..

في ذاك الحانوت الصغير (الندوة) الذي كانت تفوح منه رائحة السمك المقدد والمُنَيجة (التبغ) وتتراكم فيه النعال على النعال .. واجربة الجلد (المزاود) أجل في ذاك الحانوت الموصوف الذي تختلط فيه الاشياء والحياة اختلاطاً فوضوياً عجيباً جلست .. جلست استمع الى شعرهم وحكاياتهم ، والاحظ حياتهم البادية ـ نسبة الى البادية ـ الانيسة !

في تلك الجلسة ، التقيت لاول مرة بالمختار الحامد ، عالم البيضان وأديبهم المعروف :

بدوي .. هزيل ، ضعيف البنية ، يبدو على وجهه الشحوب من أثر السفر والسهر والاجهاد والانكباب على الكتابة والكتب ، يضاف الى ذلك كله سوء التغذية ، بل الجوع ..!

فالزمان ـ ١٩٤٢ ـ زمان حرب ، وضائقة وغلاء معيشة يوصف بالغلاء.

الاسود ! وقلّ من يجد الحيلة أو السبيل للحصول على الحاجة ، وعلى ما يقوم بأوده من طعام مقنن أشد تقنين !

ذو لحية مستديرة كثّة ، قد تنفشت ونفذ بعضها على بعض في غير رعاية .. عمرها ما عرفت مقصاً ولا مشطاً ولا موسى ..!

ورأس منفوش (مكزبر) الشعر ، ووجه أشعث أغبر ، كأنه هو الذي عناه ابن ابي ربيعة بقوله .. * كان هذا ، هو المختار الحامد الاديب الكبير ، والعالم الشهير في تلك الاصقاع .

جلست اتأمله ، وقد خلع البصارات (النظارات) عن عينيه ، وانصرف اليّ بجماع نفسه ، يحدثني بلسان عربي مبين !

علمت منه في تلك الجلسة « البيضانية » انه معني منذ اربع سنوات بتأليف كتاب جامع عن موريتانيا فسألته ان كان يحمله معه ، اقصد الاطلاع على طريقتهم في الكتابة والتأليف . فنهض ، ومضى غير بعيد وأتى بجراب .. نعم بجراب !

قلت اريد الكتاب ، فما هذا ؟ قال نعم سمعت ذلك ، فانتظر حتى ترى ما في الجراب . !

ما كان أحوجني ساعتئذ الى رسام ماهر يرسم المختار الحامد والجراب ، وما حوى الجراب ..!

ان له قفلاً لا كالاقفال .. طويلاً ذا لسانين يدخل احدهما في ثقوب متجاورة عند فم الجراب فتشده ككيس جندي الحرب ، ومفتاح اصفر طويل لا يفتح إلا به ..

لله ما حوى الجراب ! ذي هي جهود طوال سنوات من الأسفار والاطلاع والكتابة .. مئات من الصفحات المسودة تتضمن كل شاردة وواردة قديمة وحديثة عن بلاد شنقيط .. وذا هو « ياقوت » ثان

---

* البيت هو :

أخا سفر ، جواب ارض تقاذفت به فلوات ، فهو أشعث أغبر

يظهر في أرض المغرب الافريقي ..!

هذا الكتاب كله كان ملخصاً في « المقدمة » التي تقدم نصها تغني عن التعريف به .

لقد مضى على تلك الجلسة الحامدية — البيضانية الآن حوالي ثماني عشرة سنة ونيف ، ولا تزال نفسي حتى اليوم منطبعة بمباهجها وتأثيراتها العربية الافريقية الادبية !

كانت تلك الجلسة سبباً عظيماً لرسوخ فكرة وضع كتاب أدبي كهذا الكتاب عن القوم عندي ..

ومنذ تلك الساعة المسائية « السانلويسية » التاريخية من خريف ١٩٤٢ ، شرعت في تنفيذ الفكرة .. وبدأت بتعميق اتصالاتي وبتوسيعها ما أمكنني الحال بحياة اولئك الاخوان العرب المجهولين عندنا ! كما ان داري في بودور السنغال* أصبحت منذ تلك الأمسية (فندقاً) لجميع طبقات القوم من نخبة وعلية ، ودون ذلك .. ينزلون فيها على الرحب والسعة .. ولا عاش كل بخيل ..!

مسكين صديقي المختار الحامد ، كم كان يتأوّه وهو يتمنى زيارة بيروت والقاهرة ودمشق لكثرة ما حدثته عنها .. لقيته لآخر مرة في روسو سنة ١٩٤٣ وانا في سفر الى السودان . وكان لقاءً مفاجئاً .. رأيته مكباً على الكتابة وراء (كنتوار) خشبي متداع في حانوت لاحد أصحابه ، فلا يرفع رأسه عن الصفحة الا ليمد يده الى (تاسفره) ، يتبلغ منها بضع حبات من التمر ، ثم يعود الى الصفحة ..!

يا صديقي الحامد !

زودني دائماً برسائلك وزدني علماً عنكم وعن ولدي « يوسف

---

* كانت في ملك شركة موريل بروم على ضفة نهر السنغال ، لا يفصلها عن موريتانيا سوى النهر. وكانت زوارق النقل ترسو أمام الدار .. (ملاحظة) : لم يبق في بودور من المهاجرين اللبنانيين الأربعة الذين كانوا بها على زماني سوى الصديق السيد ابراهيم عرمان ، التاجر المعروف في تلك الاصقاع ، فاليه على تقادم الأيام ، وإلى بودور شوقي وتحياتي !

اللبناني » الموريتاني ، ووديعتي الغالية عندكم ..! فأني وقومي جميعهم في الشرق ، الى علمكم وأدبكم واخباركم لمشتاقون !

يا صديقي العزيز !

بتاريخ صدور هذا الكتاب يذرّف عمري على الخمسين ، ويحقق الله لي بما مضى من العمر إحدى امنيتين ، أُولاهما ما كتبت عن موريتانيا التي ابقيت فيها قطعاً من نفسي ، بعضها من دمي ، وبعضها من روحي .. وأما الامنية الثانية التي ارجو ان يحققها لي الله في ما بقي من عمري ، فهي لقاؤك ، إما على ارض موريتانيا ، او على ارض لبنان ، فهل يحقق الله الرجاء ..؟

انه نعم المؤمَّل والمرتجى .

وبعد ، ذرْني من بليغ البيان وساحر القول ، وحدثني عن الشوق ..

فابلغ ما يكون الشوق عندي متى دنت الخيام من الخيام ..!

نصوص من شعره

ملاحظة : ما أوردناه هنا من شعر المختار الحامد هو على غزارته ليس الا غيض من فيض . فما بقي منه اكثر مما نشرنا. وكنا نود الحصول على شعر ثلاثة من فحول شعرائهم المعاصرين هم : محمد ولد ابنو ، ومحمد بن محمود بن احمذي ، ومحمد ابن المختار العلوي وغيرهم . ولكن الرسالة التي طلبنا فيها هذا الطلب المستعجل من السيد محمد عبدالله ولد الحسن ، المستشار السياسي للحكومة ، رجعت بعد شهرين من وصولها إلى نواكشوط وعليها ختم بريد العاصمة بالفرنسية انها ناقصة العنوان !! وفي هذه الأثناء كان الكتاب قد انتهى تبييضه وأصبح في المطبعة ..

تهاني لآل الشيخ

قال يهنيء ابا مدين بن الشيخ احمد بقدوم أخيه الشيخ سيدي :

أحارِ ، ترى سنا برق تراءى　　أضاء فضاءنا لما أضاء
أرقت له ، أراقب منه ، وهناً　　حبياً قد قعدت له احتباء
فبت أشيمه ، والمزن يكسو　　عوارض منه مشرقةً وضاء
يشبرق عنه ثوب المزن طوراً　　وطوراً يكتسي منه كساء

ويبدو مزنه شيئاً فشيئاً تزجيه الجهائم حيث شاء
فلما حام فوق خواء سلمى بماء الدفء ، وارتبأ ارتباء
دنا حتى تدلى قاب قوس وحتى قيل قد مسّ الحباء!
وضاء ، فقلت سيف آل لمعاً ومرّ ، فخلته نبلاً مضاء!
فأسدلت الولائد كل سَجف على الانضاد ، وانتأت انتئاء
وجلجل رعده ، فحسبت قرماً بمزنته ، وزمزمه وآء
وافرغ في معاهد آل سلمى دلاء فيه آدته ملاء
وحل هناك أوكية الروايا روايا منه دافعن الوكاء
وسحّ بها مدامعه ، وكانت مدامعه سروراً لا بكاء
فما قلنا بنَوء كذا مطرنا أبى الايمان ذاك لنا اباء
ولكنا ليمن الغوث قلنا بيمن الغوث ، هذا الغيث جاء
ليهن الغوث ، ان الغيث جاء وأن قد حقق الله الرجاء!
وان في الارض بورك يوم فيها توخى الشيخ سيديَّ الثواء
تضوعت الربى ورداً ورنداً وألويّاً ، ولبنى ، أو كباء
وازهر نبتها ، وزها وازهى ومال وماس حسناً وازدهاء
وعلّت من روى عذبٍ فرات سقى انهارها وسقى النهاء
فاصبح ميتها حياً ، واضحى هنيئاً عيشها لَبناً وماء
وامسى الخير منها قد تدانى وامسى الشر عنها قد تناءى
وامسى الشمل ملتئماً جميعاً وامسى الداء قد وجد الدواء
وجاء النّقب [1] هانئه ، فأمسى وهو محله يضع الهناء
فاقسم بالذي اسدى الينا الـ إله عليه لا احصي ثناء

---

* في القصيدة عدة أوابد لفظية غير مشروحة في الاصل ، لم يسمح لنا الوقت للرجوع إلى القاموس لشرحها للقارئ ، فتركناها كما جاءت ، وهكذا اتفق لنا في أكثر من قصيدة في هذا الكتاب .

١ – النقب : الطريق في الجبل جمع مناقب . ومناقب الرجل : طرائقه الصعبة ولذا كانت المناقب مدحاً لمن تضاف اليه .

وابدلنا اجتماعاً بافتراق ... وعوضنا من البعد اللقاء
واطلع شمس مغربنا فتاه ... تقى ً ونقى ً ، فتاه ذكى ذكاء
يسايرها بمطلعها سعود ... واقمار اضأن لها الفضاء
فاصبح ليلنا الداجي نهاراً ... وظلمته لنا اضحت ضياء ؟

ذكر الازمنة السالفة

وقال في وصف مَقثأة صالحة وذكر ازمنة سالفة :

اجِدَّكَ تسكن الدِّمَنَ اليبابا ... كأن بها خياماً او قبابا
وتصبو للظباء بها العواطي ... كأن لميس فيها والربابا
وتأنس بالذئاب الغُبْس فيها ... فتأبى المونسين خلا الذئابا
وتطمع ان ترد لك المغاني ... جواباً ، كيف يرددن الجوابا
اراك عَراك تهيامٌ وجهلٌ ... اصابا من فؤادك ما اصابا
فخلت الوحش من وله أنيساً ... وخلت الشيب من سَفَه شبابا
حدا بفؤادك الحادي يباري ... حُداة الركب حين حدوا الركابا
وراعك والنعاب يروع قدما ... ومثلك ريع ان سمع النعابا
نعاب محلق في الجو أوفى ... على علياء يرتقب ارتقابا
يحوم على المقاثي كل وقت ... يسوم عذاب قِثّاها العذابا

* * *

رأى متناثر القِثّاء مرأى ... نجوم الصحو قد ملأ الرحابا
فصام نهاره في الجو حتى ... اذا ما حرّ والتهب التهابا
وآنس غفلة الرقباء أهوى ... الى القثاء ، فاقترب اقترابا

دنى متدلياً ، وانقضّ حتى — اذا ما مسّ او كرب الترابا
أكب على العِذاب الخضر منه — وهلهل ينقِف الخضر العِرابا
تقضت في الزمان لنا ليـال — وددنا لو تثوب لنا ايابا
اقام العز فينـا ما أقامت — « وكان ذهابهن له ذهابا »
اقمنا سُنة المختار فيهـا — وكان دليلنا فيها الكتابا
وقام الدين فينا واستقمنا — على التقوى امتثالاً واجتنابا
وقد كنا كشمس اولي حلوم — رواسخ تستخف لها الهضابا
وافهام تضيء لها الدياجي — وأخلاق تذم لها الرضابا !
وكان لنا مقـام كل حول — نقول به فنفعله الصوابا
تقوم به مشائخنا فتدعو — الى الاحسان والعدل الشبابا
(بجر عابر) تنضب، ليت عيشاً — بجرعابر تنضب طاب آبا

***

وكنا نستجيب لكل خـير — فأن دُعي الفتى منا اجابا
وكنا ، لا ترى فينا اختلافا — ولا خللاً تراه ولا اضطرابا
فصاح بنا غراب البين يوما — فغادر دورنا قفراً يبابا
كأن لم نغن فيها في مغان — بها طال الثّواء بنا وطابا
ولم ندرس كتاب الله فيها — ولم نرض الفنون بها الصعابا !
ولا شدنا بها للمجد ركنا — فكنا اذ نُسام الضيم نابى
ولم نغظ الحسود، بها ، فكنا — رؤوساً والحسود هو الذنابى
علي انا وعون الله نرجو — ونرجو ان نتوب له متابا
نأمّل ان نعود الى سجايا — اوائلنا ، وننقلب انقلابا !
عسى عِصَبٌ اولو همم وعزم — الى الخيرات تنتدب انتدابا
تجدد ما عفاه الدهر منها — وتعمر ما غدا منها خرابا !
ستمى تلك المعاهد ذوب حبي — من الدلوى ينسكب انسكابا

ولا زالت بها الرحمات تترى على الاجداث اجداداً وآبا

يمدح الغلاويين

وقال وارسلها جواباً لابن فال وابن عبد العزيز الغلاويين يمدحهما :

قالت تغربت في الاقصين والغربا والكلّ جاورت ذا قرباك والجنبا
فاذكر لنا عجباً مما رأيت فكم رأيت من عجب عنا قد احتجبا
فقلت زرت بشنجيط مقابره ورايت عند امام الوطأة [1] العجبا
قالت لقيت بني الصِّدِّيق، قلت نعم لقيتهم ، واليه حققوا النسبا
قالت فأيهم في المجد تحسبه انبا واربى ، فكلٌّ قد نبا وربا
فقلت ماذا علينا في تفاضلهم ان التفاضل في حق الغريب ربا
فأيهم ما حوى مجداً ، وايهم لم يحو علماً ،واي ما حوى ادبا؟
او لم يحز سبقاً في شأو كل تقىً او في نهىً وارتقاً لم يحرز القصبا؟
او لم يكن في المعالي كلها قطبا او لم يكن وتدا ،اولم يكن سببا؟
الم يكنه بنو يَبْوِي" اذ نجلوا حمى الإله ، واولاداً له نجبا ؟
واذ نموا آل حامين الألى ورعوا وزاحموا في سماء السؤدد الشهبا
ألم يكنه بنو الوافي بطالبهم ايام يهدي طريق الرشد من طلبا؟
واذ نموا كل محمود مقاصده عدل اذا ما قضى ،سمح اذا وهبا
الم يكنه بما اوتوه من شرف آل الأمام ، وعز باذخ وإبا
الم يكنه بما حلوه آل حبت فقد حبتهم حلاهم في العلى رتبا
الم يكنه بنو الحنشى وجاءهم به البشير ، ومن كان البشير ابى

---

[1] – احد أكابر هذه القبيلة نسب إلى وطأة له اثرت في صفاة واثرها باق .

اذ يملؤون من العلم الدّلاء الى ... ان يبلغ الملء في اذليهم الكربا
وان ذكرت لفرد منهم مثلا ... فضلا فكل بسهم فيه قد ضربا
ضرب لواحدهم ، ضرب لسائرهم ... فلنجره مثلا في فضلهم ضربا
وما هنالك مفهوم مخالفة ... لم يقبل الفقها في مثله اللقبا
« من ألقَ منهم اقل لاقيت سيدهم ... مثل النجوم التي يسرى بها الغربا »
وما طويت فلم ارعف به قلمي ... من مدحهم ضعف اضعاف الذي كتبا
وما اعرض في مدحي بغيرهم ... فأجمع الظلم والفحشاء والكذبا
لا من بني عمهم ممن طويتهم ... ولا خئولتهم اهل النقا النقبا
اذ ليس ينقص ما اوتوه من شرف ... فضلا لغيرهم ممن ربا ونبا
لكن لكل مقال موجب ، فمتى ... يحصل لأي مقال موجب وجبا

* * *

لا عذر لي واتاني مدحهم دررا ... ان لا اجيب ، فما صمتي إذاً ذهبا
هذا سلام عليكم من اخي مقة ... قد خالط الحب منه العظم والعصبا
يمت بالودّ والقربى لساحتكم ... يبغي رضاكم ويأبى السخط والغضبا
يقرّ بالفضل ذو فضل ، بكم وبه ... وبالكرامة ذات الله حين حبا
يعمكم من نأى منه المزار ، ومن ... عند القوارب أمسى زوره قربا
كالحاج قضّاء حاج الراغبين اذا ... ما الراغبون اليه وجهوا الرغبا
ومن به هرم ، عاد الشباب له ... وحاتم ، عاد للأحياء وانقلبا
الى عذوبة أخلاق يكاد لها ... (اذ الشمائل يشفي شهدها الوصبا)
من يشتكى وصباً لا يشتكى وصبا ... او يشتكى نصباً لا يشتكى نصبا
وكابن عبد العزيز لذّ مورده ... من العلى والتليد العز اذ وهبا
والخيّرُ البر مولى البرّ فاعله ... والتارك الاثم والعوراء والريبا
الى وقار وعلم زانه عملٌ ... وزانه ادب ، يا حبذا الأدبا
الى قريض قصيدٍ لو به حليت ... قحل العجائز ، فتن الخُرَّد العُرُبا !

وكابن فال الذي فاتت محاسنه وصفي ، فكنت خراشاً حين كن ظبا
الناظم الدر مهما قال قافية والمبرز الدر منثورا اذا خطبا
وواصفي بحلاه ، فافتألت بها وبادثي بحباء منه قد رحبا
ومن علت ونبت منه الحلى ، وحلت فاستنزلت قمراً او اخجلت شهبا
وكالحفيد لعبد الله ارفعه من اوتي اللدنى العلم منذ صبا
فقام للمجد منذ المهد مرتفعا وللهدى منذ ذاك العهد منتصبا

يرثي محمد عبد القادر

وقال يرثي محمد عبد القادر بن حبيب الله :

مضى ابن حبيب الله بيضاً ثيابُه نقيا ، من الخيرات ملأى عيابُه
تقياً وقاه بره ويقينه وتقواه ان يرعى حماه ارتيابُه
ومن كان في تقواه شرواه سره الى الله ان حان الأياب ايابه
الى الله بحر منه غيض عبابه ولله بدر منه حان غيابُه
كثيرٌ نداه ، ما تغيب هباته تهب سراعاً في النوادي صبابه
قؤومٌ اذا ما الصبر قرّ اجتيافه صئوم اذا ما القيظ حر اجتيابه
« بليلة قر يصطلي القوس ربها ويوم من الشعرى يذوب لعابه » !
تسيل على من جاء يسأل ماله وعن علمه ، او داؤهُ وشعابه

***

مسائل علم تستدل صعابها وسائل سيب تُستهل كعابه
فسائله بالعلم سود طروسه وسائله بالمال بيضٌ قعابه
ألا ربّ باكٍ تستهل دموعه عليه وولهانٍ يسيل لعابه
وتلك شكاة ساقطٌ عنه عارها وذاك بكاء ساقطٌ عنه عابُه

فما طار عنا منذ طارت عقولنا غراب غراب قد نعاه نعابه
فلا حبطت اعمـــاله وعلومه وآدابه ، والخير قل هو دابه
وبورك في ابنيه ، لا زال من بني ابيه سريعٌ للمعالى انتدابـــه
وذو هيبة يغضى لها ، وسكينة فكل وقور او مهيب يهاُبه
وعلاّمـــة فهّامـــة متبصّرٌ تفصد علماً نحضه واهابـــه
ولا زال عز الدين فيهم وفخره ولا زال منهم نجمه وشهابه

مساجلة ادبية

وقال في مساجلة ادبية بعث بها لابن فال الغلاوي :

هل عائدٌ لي أوقاتٌ كاوقاتي في الصيف ، في قصر شنجيط القُصيرات
او عائد لي اوقاتي بأعينها فأحر َمنّ لها من عين ميقاتي
ما كان احسن اوقاتي واعذبها في ذلك الصيف ، لو عادت بمشتاتي
ان القرى دون ذاك القر ، تقصر ، والـ أوقات تقصر عن تلك الأويقات
اذ كل شيء تراه العين يعجبها من خلق زيدين او من خلق هندات
ومن عبارة سادات وعـــادتهم في الخير ، خير عبادات وعادات
شنجيط في المجد والعلياء متحد دنيا ، كمثل ابي ابناء علات
زيدوه يدعون والهندات دعوتهم يدعون ضيفا لجار أو لجارات
الى مكللة غُرّ يضاع بها ما شاءه الله من شاه ومن شاة
« الشاة تعلم ان الضيف يأكلها والشاة حينئذ ترعى بمَوْمـــاة » !
والشاه يعلم علم الشاة وهو إذٍ في غصنه ، ثم في كيس ، فكاسات .
والضيف يعلم ان الشاة مطعمه والشاه اذهو في الموماة لم يات
ما اليعملات اللوا شنجيط يعملها الى العـــلى بالمطيات البطيئات
انضى المطي لطيات العلى ذللاً ويا ُمـِّها ذالـــلا تنضى لطيات

يحدو بهن الى العلياء كل فتى صوب التقا والنقا والمجد هيّات
يا من سيايير «لاكمب»[1] تسير به لصوب انقاء شنجيط النقيات
سرّت به غلسامن «روس»[2] صادرة يهوى المسير بها في كل مهواة
تخالها تتبارى في مسارحها تنساب فيهن كالحيات حيات
إقرأ على ارض شنجيط وساكنها اسنى السلام وغراء التحيات
وزر أديب اريب العصر شاعره سليل (فال) تحيــات سنيات
فذالك البحر في جود وفي كرم وفي نبوغ وعلياوات همات
أجد مجدا تليدا ثم شد به أعضاد مجدٍ لاجداد وجدات
ناميه للمجد بكريّون ، ناجله منهم ، ومن علويات عليات
شم نحارير أخبارٌ جهابذةٌ ضموا لعــلم ديانات متمات
وظاهروا ابن علم زانه عملٌ وعز انفس أحرارٍ وحرّات

يمدح الشماسيد

وقال يمدح عبدات بن البينان الشمسدي :

عادات عبدات سادات لعادات سادات ارباب عادات سديدات
من عاده انه للمكرمات اخ وانــه للمساوي ذو معاداة
فتى تعــوّد إسداءً ومدّ يدٍ لسد خلة خل منه مسداة
تنهلّ رائحةً جوداً وغاديةً كفــاه كالاسديات المبدئيّات

---

١ – سيايير جمع سيارة وهو من أغرب الجموع .. وكذلك يفعلون في عدة حالات ، إذ يصوغون من الأسماء المستحدثة جموعاً « كيفية » على سجيتهم حين تخونهم قواعد اللغة .. و « لاكومب » ، هو اسم صاحب شركة سفريات برية فرنسي ، كان يشتغل في موريتانيا بين روسو وبلدة شنقيط .

٢ – روس : يعني روسو ، وهي بلدة موريتانية واقعة على ضفة نهر السنغال ، وقاعدة من قواعده ، قريبة من مدينة سان لويس ، وما أكثر ما كنت احط رحالي بها يوم كنت تاجراً مقيماً في بودور غادياً ورائحاً .. !

لا غرو ان سادت العادات عادته فأنه سيـد وابن لسادات
ان الشماسيد [1] سادات وعادهم مسوّدات وفيها خرق عادات !

الغلاوية

وقال يمدح الأستاذ محمد الأمين بن سيد احمد الغلاوي :

عصيت اللواتي في الهوى جئن نصّحا وقلت لعذالي لحا الله من لحا
ولج فؤادي في الهوى متماديا وظل وامسى في الغرام واصبحا
فأكدَت لواحي اللوا ضلّ كيدها وقد كدن بين العود يدخلن واللحا !
فأقصرن مني عن صريع صبابة اخى كبد حرى وقلب تقرحا
اطاشت سهام البيض اعشار قلبه فغادرنه ، او كدن ، قيسا ملوحا !
سلا وصحا اهل الصبابة والهوى سواه ، ولما يسل هوّ ، ولا صحا
فدع ذا وعد للمدح في الحبر إنه جدير بأن يثنى عليه ويمدحا
على انه تمسي القرائح عن مدى مدائحه حسرى لواغب رزحا
اما والليالي العشر والشفع والضحى ومن صام للمولى وصلى وسبحا
لقد فاز هذا القطر بابن سدْحمد [2] سليل البشير الحبر فوزا وافلحا
على حين ليل الجهل اظلم والهوى وروض الهدى والعلم والبر صوحا
فأما الهدى والعلم فأخضل روضه واما ظلام الجهل فأنزاح وانتحى
غدا يشرح العلم الصحيح ولم تكن علوم الهدى لولاه يوما لتشرحا
يدّرس ما قد كان درس مالك ويحيي الذي احيا ، ويمحو الذي محا
فتبصر نورا من ثناياه خارجا اذا ما ضحى للدرس في رونق الضحى

---

١ – الشماسيد : جمع الشمسيد عندهم أي الممدوح ، وهو جمع كيفي أيضاً كما قدمنا .

٢ – انما استقام وزن البيت بدمج الكلمتين « سد حمد » على النحو المشكول ، وجعلهما كلمة واحدة ، في حين انها كلمتان : السيد ، واحمد . وهو تحايل على اللغة والعروض جميل .. وهكذا يفعلون !

ايا من بك المنّان قد رأب الثئى ويا من بك الله المفاسد أصلحا
تبجح هذا القطر منذ حللته وحق له والله ان يتبجحا
ليهنك أنْك[1] اليوم قطب رحى الهدى تدور بك الطلاب كالقطب للرحى
وكنت بحمد الله فينا محمدا امينا بتقصار الكمال موشحا

الاعراض عن سلب الأعراض

وقال وقد سماها « الإعراض عن ثلب الأعراض »

ألح عليّ بعدكم اللواحي يلمن من الغدوّ الى الرواح
واصبح عهدكم عندي مصوناً وظل ، فراح ادراج الرياح
اطعت نواصحي فصحوت عنكم ومن يطع النواصح فهو صاح
اطعتم انتم الواشين فينا فأنى فيكم نعصي اللواحي
فتلكم يا احبتنا بتلكم قصاصا كالتقاصص في الجراح
سنبقى جيرة للعهد ارعى واوفى بالوعود من الملاح
فما ابقت لنا مقل مراض يصبن بها من أعراض صحاح
ولا كمجلح قرم مشيح غدا من لحمنا ملء الوشاح
ولو تنحلّ من جهل حبانا ابأنا ، ما علينا من جناح
ولا كنا درأنا الجهل عنا بحلم أماجد برءاء ساح

* * *

لعمرك ما اعيب آل عمي بحق ، كيف بالكذب الصراح ؟
ابت لي عفتي ، وأبى نفوري عن العوراء والكلم القباح

---

١ – الأصل أنك بتشديد النون وفتحوها ولكنه خففها وجعلها ساكنة . وهذه من حيلهم أيضاً على اللغة والعروض كما قدمنا ..

وحبي للتوادد والتآخي ... وبغضي للتباغض والتلاحي
وعلمي انما هو لي سلاح ... فأخشى ان افرط في سلاحي
وارجو ان سيخفض لي جناحا ... اذا انا قد خفضت له جناحي
واخشى ان يقبح من الاقي ... علي قبيح عيبي واجتراحي
فما يستحسن الجلساء مني ... اباحة عرضه غير المباح
وقد يسعى بقدحي فيّ واش ... يقص عليه طعني واقتداحي
فأما الطعن في عرضي وعيبي ... فعيبي واضح يا صاح ضاح
واما الصدّ والأعراض عني ... فيا خجلي هنالك وافتضاحي !
فان يك في الحقيقة فيه عيب ... فكم في الخلق من لُسنٍ فصاح
قدُ أوتوا القدح في الأعراض ملكا ... بألسنة احد من القداح
فلو هُم ناطحوا بالقول صخرا ... رايت الصخر يوّهن بالنطاح ! !
اولائك ان يكن عيب كفوني ... اشاعته عليه في النواحي
وان يك ليس فيه العيب اصلا ... فذميه سواء وامتداحي
هبِ اني كنت اقدح من زناد ... واطعن من رديني الرماح
وكان اذاه وردي كل يوم ... دواما في المساء وفي الصباح
امزق عرضه تمزيق كسرى ... وآكل لحمه أكل الأضاحي
فما انا ممرض عرض ابن عمي ... اذا ما كان ذا عرض صحاح

يرثي الشيخ احمد

وقال يرثي احمد بن الشيخ سيدي :

لو يرد القصيد حباً فقيدا ... لملأنا الفضا قصيدا فريدا
ولوِ ان الحبيب يفدى بعلق ... لبذلناه طارفا وتليدا

ولو ان البكاء يوماً على حب ... فقيد يرد حباً فقيدا
لبكينا وكان أمراً خفيفا ... وسريعاً ووافراً ومديدا
نضَّر الله جل ثالثة الشمسين ... في برج عند (تندوج) شيدا
وحرٍ ان تضوع تندوج مسكا ... وتحلى دراً فريداً جيدا
فالكريم ابن ابنه ، فأبنه قد ... حل منها برجاً شريفاً سعيدا
ثالث اثنين قد تيمم من مثوا ... هما طيِّبا تراه صعيدا
يا ليبلات احمد الناس عودي ... ان تعودي يعُد بك الدهر عيدا
ولعمري لو رد مجد فتى خلقاً ... جديدا ، لرد خلقا جديدا
ولعين لم تبك يوم تولّى ... قلت « كوني حجارة أو حديدا »
يا كريماً برّاً رؤوفاً رحيما ... وغفوراً وواسعاً ومجيدا
لَقٍّ ذاك المنصور والهادي المهـ ... ـدي ، والمأمون الأمين الرشيدا
روضةً في جنان عدن وحوراً ... عرباً اترابا ، وقصراً مشيدا (؟)
وسرورا ونُضْرةً وحريرا ... وأنِلْهُ حسنى بها ومزيدا
آجرِ المسلمين فيه ، وحُطْهُ ... في بنيه وليدةً ووليدا

وقال يمدح صالح امبك :

بنو الصالحين الصالحون ومصطفى ... مجيد ذراري المصطفين الأماجد
دعاني سليل المصطفى فقصدته ... الى خمسة منضومة في القصائد
« تفرج هم واكتساب معيشة ... وعلم وآداب وصحبة ماجد »
وما هو الا صالح وابن صالح ... وما أنا الا « حامد » وابن حامد..

يمدح آل الخديم

وقال يمدح آل الشيخ الخديم ويستهلها بوصف القطار :

ما ضلّ من صوب طوبى ظل ذا سفر ... يخذي به كل دبّاب من القُطُر

يحدو به صافرٌ يلوي لوالبــه ... مهما يقل قِـف يقف ،أو قال سِـرْ ، يَسر
يمشي انسيابا على خطين منصلتاً ... مثل انحدار مياه السيل في النَّهَـر
او كأنسياب شجاح ريع من وُكُنٍ ... فاستعجل الخطَّ من خوف ومن حذر
يأوي « لطوبـى » فطوبـى حيث طائفة ... عضوا على سنة المختار من مضر
هم في المساجد قوامون في سحَـرٍ ... وفي المصاحف قرآؤن للسّـوَر
وبالجفـان هم القارون ضيفهم ... مبادرين الى الزوّار بالبُدُر
وحاصل القول ان القول زورهم ... رهن لزائرهم بالنجح والظفر
لا شك في ظفري اذ منتهى سفري ... « آل الخديم » خيار العصر والظُّهُر
قد كنت اظفر ان وافيت في رجب ... «طوبـى» فكيف وقدوافيت في صفر ؟
وما أمُتُّ بامْداحٍ اقدّمهـا ... فحسب ، لكن بعهد كان في العُصُر
فأن لي ذمةً منهم بمعرفـتي ... اولئك السلف الماضين في صِغري
اولاك انشد فيهم ، فهو حالهم ... بيتاً سمعت به في سالف العُمُر
«جهال ذي الارض كانوا في الحياة هم ... بعد الوفاة ، جهال الكتب والسِّيَر»
وما قضى وطري مال الوب به ... بل رؤية القوم عندي اول الوطر
فأن يكن معهـا مال فنافلة ... والواجب الفرض مرأى القوم بالبصر..

القطار

وقال في وصف القطار ، وقد أوردنا المقطـع الأخير منها (١٩ بيتاً) على الصفحة ٣٨٥ — ٣٨٦ :

برق تألق فاستطار (أطارا) ... نومي ، فهيج لي ادكار (دكارا)
فقعدت ارقبه وقد طار السنا ... منه ، فكاد يُخَطِّف الابصارا
تحـدوا الجنائب مزنه ، فكأنه ... عجل القطار اذا جرين قطارا
فأنهلَّ في الآبار منه وادِقٌ ... ترك النهار بأرضها أنهارا

وتيامنت (للعُقْل) منه مزنة ... سقت الديار بهن داراً دارا
ثم انثنى ذات اليسار غدية ... يتتبع الاوكار في (اوكارا)
فبكى بدار عنيزة واميمة ... ونوار فيه ، فأضحك النوارا
فافتر ثغر الاقحوان كأنه ... أفواه لعس في دكار عذارى
ما انس لا أنس دكار واوجهاً ... فيه كمضروب النضار نضارا
مصر ، أقمنا عام الاول أشهراً ... فيه كتقصار اللجين قصارا
فيها خلعنا في اقتطاف جنى مهىً ... فيه عذارى في اذار عذارا
حتّى جنينا الورد من وجناتها ... ايام يجنى الورد في ايارا
وبه شممنا من خلائق فتية ... ثم الخزامى والعرار مرارا
هم مكرمو مثوى الغريب اذا ثوى ... والمحسنو انزاله ان زارا
ساقوه بالغدوات من قهواتهم ... عنَما ، وساقوه النهارا بهارا
والمانعوه بحورهم وبحورهم ... ان يذكر الاوطان والاوطارا
غلبوا الخيار مجادة وسيادة ... حتّى لقد تركوا الخيار حيارى

يمدح محمد المختار

وقال في مدح محمد بن محمد مختار وابنه المختار :

أعليّ ان سفُلَتْ يداي العارُ ... ام عاذري في ذلك العذّار
انيعذلوا في الأخذ من يديّ الورى ... فالعار في سؤل الورى والنار
او يعذروا ان جاءني من ماجد ... من غير مسألة حياً مدرار
فمحمد عم البرايا سَيْبُهُ ... سيان دانٍ والبعيد الدار
ولقد حذرت وما ألوت تعففاً ... لو كان ينجّي من نداه حذار
لكن طبتني نحوه اخلاقه ... فله خلائق قرقفٌ وعُقار
فحضرت مجلسه الكريم أزوره ... فأذا التبشش بي والاستبشار

فحللت في « دار المقامة » عنده ... ودعت لسان الحال تلك الدار
فاسكن وكُلْ رغداً بحيث تشاء ، لا ... نار هناك وما هنالك عار
فوجدت عند محمد ووجدته ... جنات عدن تحتهـا الأنهار
ما تشتهي نفسي وما تختار ... وتلذ عيني ، انها « المختار » ..
يا جنة قد فُتِّحت ابوابها ... سَعُدَت بك الاضياف والزوار
أشكو أياديكم اليكم ، انها ... مِنَنٌ تنأد بشكرها الافكار
كثرت علي ، فلا أقوم بشكرها ... والحر من هو للاولى شكّار
إستعبد الاحسانُ منكم مهجتي ... وبذاك قد تستعبد الاحرار
وحفيد والدكم بكم ، وبه اقتدى ... جوداً ، فبورك ذلك المختار
فالجود مطّرد بكم متسلسلٌ ... فيكم ، فتورثه الصغارَ كبار
بيت الندى المتسلسل المختار ... ومحمد ، ومحمد مختار
بصدورهم وُقر الهدى ، بيديهم ... قرّ الندى ، وعلا الوجوه وقار

في حريق

وقال في حريق دار آل الشيبان بن احمد بن عبد :

ان تأكل النار تلك الدار فالعـار ... لم يأكل الدار ، لا شطت بها الدار
يا نار كوني على دار عثيت بها ... بردا ، وكوني سلاماً ايها النار
لم يحم سورك ذاك العرض منفتحا ... والعرض منكسر تحميه اسوار
وليس في اكل قربان تقبلـه ... رب الورى من سخيٍّ منفق عار
لم تأكلي عُشر ما قد كان يأكله ... في الدار ضيف وجيرانٌ وزوار!
دار بها المجد مرفوع منـائره ... (كأنه علم في رأسه نـار)

بوتليميت

وقال في مقاصد دينية وفيها يصف بلدته بوتايميت ، وهي من أجود شعره :

هل يُتْبع الأمر ، او بالنهي يُرتدع ... او يسمع النصح ، او بالوعظ يُنتفع ؟
يا ايها الناس ان الشرع شاملكم ... كلاً ، ففي شرع طه كلكم شرَع
قد جاءكم رسل من ربكم بهدى ... فبينوا سنة للناس تتبع
يرضى بها كل من كانت سريرته ... تقوى الاله ، وبالامر الذي شرعوا
وجاءكم منه ذكرٌ فيه امركم ... ان تسمعوا وتعوه ، فاسمعوه وعوا
لا تعرضوا عن كتاب الله جل وما ... قد صح عن عبده طه فتبتدعوا
والغيب ، لا تدعوا علماً به أبداً ... فما عليه سوى الخلاّق يطلع

* * *

الله حقٌّ غني لا محل له ... فنزهوه عنَ اينٍ أو هَمتْه مَعُ
والرسل حق من املاكٍ ومن بشرٍ ... وكلهم بالذي قد ارسلوا صدعوا
والانبيا بشر ، في أصلهم عدمٌ ... لاكنهم رتبة فوق الورى رفعوا
والاولياء اولو قدرٍ ومرتبةٍ ... وما لهم في مقام الانبيا طمع
والعالم التابع السنّي أولهمّ ... إن لم يكن تابعياً إنه لُكَع
والشيخ من سنة الهادي طريقته ... ومن تجمَّع فيه العلم والورع
نإلم يكن عالماً للعلم متبعاً ... فأنما همه التمويه والخدع
والسالك الحق [1] فرض العين مطلبه ... قبلاً وبعدُ [2] فما [3] يعملْه يُتَّبع [4]

---

١ — صفة للسالك .

٢ — استئناف .

٣ — شرطية .

٤ — جواب رفع . ورفعه بعد مضارع يعمله .

والعالمون – بفتح اللام – محدثة والشك في ذاك مكروه وممتنع
والجن حق ، ومنهم قد أتى نفرٌ الى نبي الهدى للهدي واستمعوا
فأن سمعتم بقوم ينكرونهم فشنّعنّ عليهم بالذي صنعوا
واليوم الآخر حق آخر ، وبه حق ، فما هو يوم الروح تنتزع
والقبر فيه نعيم والعذاب به في برزخ بعده للهول مطلع
والنار فيها عذاب لا انقطاع له وفي الجنان نعيم ليس ينقطع
والدين يُسرٌ ونهجٌ واضح وضحىً لكن بنيانه الأهواء والبدَع
فحاذروا أن توالوا أهلها وذروا وودعوهم وعدوا ، عنهم ودعوا

* * *

لا ترتعوا في مروج يرتعون بها فأنهم ربما حول الحمى رتعوا
فأن هم نصبوا يوماً لكم شركا فحاذروا في فخوخ القوم ان تقعوا !
لا يخدعنّكمُ في أمر دينكم ليس الكريم الذي في الدين ينخدع
طوبى لمن سنة المختار قد وسعت وحبذا سنة الهادي ومن تسع
عضوا على سنة الهادي بناجذكم اياكم وحديثاً هوَ مخترع
تزاوروا وأذيعوا الود بينكم ان التقاطع ليل دأبه القطع
خذوا بما صح عن طه نبيكم وما اليه ثقاة أسندوا رفعوا
تعلموا واعلموا بالعلم ، وائتمروا بالعرف ، والنكر عنه فانتهوا وزعوا
لا تتركوا الأمر بالمعروف بينكم والنهي عن منكرات فيكم تقع
واخلصوا وانيبوا واخشعوا ، فمَنْ بالفوز ، قوم انابوا ، اخلصوا ، خشعوا
اعمالكم في ذهِ الدنيا زروعكم وفي غد يحصد الزراع ما زرعوا
والعالمون ، وان جاوا بلا عمل مثل الجبال عليها يحمل الودَع
لا تسرقوا ان تصلوا من صلاتكم فالسارقون متى ما يثقفوا قطعوا
والقبض والرفع عن خير الورى ثبتا وصحبه قبضوا قطعاً كما رفعوا
وصح عنهم قُنوتٌ في صلاتهم فيه يطيلون ان قاموا وان ركعوا

ومالكٌ جاء عنه القبض مثلهم ... والرفع فهو لهم في دينكم تبع
اذ مالك نهجه قَفْوَ النبيّ فلا ... تراه عن قفوه ينهي ولا يزع
فلم يخالف رسول الله مالكنا ... حاشاه ، بل لرسول الله يتبع
ولن تكادوا ترون الدهر مجتهداً ... يأبى اقتفاء رسول الله او يدع
هبوه خالفه ، هل كان يعد له ... (لا) ليس بينهما ذو الدين يقترع

***

لا تعدلوا برسول الله مجتهداً ... فذاك أصلٌ ، وهذا فرعه فرعوا
ولا تكونوا (هديتم للهدى ابداً) ... في دينكم شيعاً ، لا حبذا الشيع
وحبذا القوم ، ان في أمر دينهم ... تنازعوا لحديث المصطفى ، نزعوا
وحبذا القوم ان يُخطي مقلدهم ... في ضعف مأخذه عن قوله رجعوا
نفسي أردت بهذا الامر قبلكم ... والنهي لو انها بالنهي ترتدع
وقد تعديت طوري اذ نصحت لكم ... واذ نطقت واسماعيل يستمع
فتى عليه ثياب المجد قد خلعت ... فليس خالعها يا حبذا الخِلَع
عليه درعان من علم ومن عمل ... يا حبذا هو بالدرعين مدَّرِع
في نطقه ومحياه لسامعه ... والناظر الجوهران الشهد والشمع
وكفه (مع كف المعتدين بها) ... كف به ظلمات الجهل تنقشع
(للواردين عليه قد حَفُوا وعروا ... وأسنَتُوا، وبهم قد أودت الضبع)
غوث وغيث وعين ثَرَّة ، وخلا ... غض وروض ، وحوض فيه قد كرعوا
وصدره لبني الغبراء منشرح ... وابن السبيل وذاك الباب متسع!
فلو توسعت في علياه أجمعها ... لم يجتمع ثمن منها ولا تسع
أو كيف انعت اسماعيل ، ان له ... نعتاً يقصّر عنه الحائل الصَّنِع
لم تبلغ البلغاء اللسن أصغره ... ولا براعة من في الشعر قد برعوا
فنضّر الله برجاً ظل منزله ... ففيه للمجد مصطاف ومرتبَع
كأنه فيه بدر قد تكنفه ... سعد السعود ، وسعد قبله تبع

فنحن ندعو لمن حلوا به وله بالسقي والرَّعْي ما ذرّت ذكاً، فرعوا

* * *

قوم بهم سنة المختار قد نهضت وقام منها بحمد الله مضطجع
شبّوا على حلها والاقتفاء لها من جدهم وأبيهم ضرعها رضعوا
يا دار بوتليميت المرتجى افتخري وابأي، ففيك مجال المدح يتسع!
فأنتِ مهوى، كلا وجهيك مُرْتَبَعٌ ومفزّع. إذ يعم الروع والفزع!
الدين في وجهك الشرقيّ منتجع والشمل في وجهك الغربي مجتمع
للسيف والضيف، والجار الجنيب بها أهلٌ، وللظامئين الرِّي والشّبَع
فيك المساجد والعُبّاد تعمرها والكتب ما نسخ الحُذّاق، أو طبعوا
فيك المدارس والمستشفيات بها يدري الجهول، ويشفى المدنف الوجع
فيك الاذاعة والأسلاك، فيك وفيك البرق، فيك الحصون البُلْقُ والقمع
يأوي اليك جموع الناس، يحسبهم من راءهم، لصلاة الجمعة اجتمعوا
من عال[١] منهم، ففيكِ المال مُكْتَسَبٌ او ذلّ منهم، ففيك العز مرتجع
كم مُبضِعٍ لك قد راجت بضاعته وكم له أرخصت في سوقك السلع
فيك الولاة الرضا، فالعدل منتصب والعيش في رونق، والخوف منقَمَع
والعلم مرتفع والجهل منسفل والخير متصل والشر منقطع!

يمدح أبا المعالي

وقال من قصيدة يمدح الشيخ أبي المعالي:

دواعي الشعر يا ام المعالي عليك من الملاحة والجمال
ومن ميَلانِ قدّك في اعتدال وصحة جفن عينك في اعتلال

---

١ – صار ذا عيال.

أبى لي عن اجابتها ، فما ان … ارد لها الجواب ، ولا ابالي
نضوب قريحتي ،وصلود زندي … وشيب الفود مني ، والقذال
على اني عداني عنك زيد … بأمر كان أولى بامتثال
أعن مدح الكمال الى المعالي … (لقد راودت عن أمر محال)
تراودني أزيد الخير مالي … يدان بعد ذرّات الرمال !
محال ان يعبر عن سجايا … كمال الدين شيء من مقالي
وقد أمست بنات الفكر فيها … من البُلَغا لواغبَ من كلال
ونَتْ منهم عبارات تبارات … لعَدٍّ خصال سبّاق الرجال
بما مولاه من عرض مصون … قدَ اولاه ، ومن مال مُذال
فما أغنى — على عي — واني … يتاح — وعيٍّ قومي — عدّها لي
على اني حلالي فيه قول … عساه يُعَدّ في السحر الحلال..

ومنها :

أمشتريَ الثنا والمجد نقدا … يداً بيد ، بأثمان غوال
ورثت المجد تعصيباً وفرضا … تطاعن دون مجـدك بالنوال
نراك أخذت بالوصفين منه … وبالأقوى ورثت من الحبال
وإرثكَهُ وجيهٌ ليس بدعا … فحبلك بالمعالي ذو اتصال
فأنت أب وعم وابن عم … لها ، وأخ وخال وابن خال
وما أدلى فتى منها كريم … بما ادليت من زين الخلال

البريد الجوي

وقال يصف البريد الجوي — الطائرة — ويمدح البيضاوي باشا وقد اخترنا بعضها للمقارنة على الصفحة ٣٨٨ :

خَفَقَانُ قلب العاشق الولهان ما منذ آن تسمع الأذنان !
ام صوت موج البحر يضرب عبره ام صوت سيل مدافع الريان
ام صوت رعد في روايا حُفَّلٍ رهن بوبل دافق هتّان
ام هزم قرم الشول تسمع بينه رزم اللقاح ، وانة الفصلان
ام هول يوم البعث ينفخ صوره فالى الصراط الحشر والميزان

ومنها :

وكفاه فخراً في البواخر انه في رتبة (البيضاو) في البيضان
ملك ، له في المجد رتبة مالك والشافعي في الفقه ، والنعمان
ملأ اسمه الأكوان ، او غصّت به غص السوار بمعصم ريان
وعليه من نظم الفخار قلائد اغلى من الياقوت والمرجان
واذا استمعت الى نتائج فكره تسمع حلاوة منطق وبيان
خطباً كنثر الدر أو نور الربى وقصائداً كقلائد العقيان
حُزْنَ العذوبة وانسجمن مبانيا ورقَقْنَ الفاظاً ، ورقنَ معاني
لم القه لكن رويت تواترا عن كل حي ناطق انسان
طيب الطباع وطول باع في الندى عنه وسحّ البذل والأحسان
ورأيت آثاراً لانعمه على من قد لقوه ، فذان برهانان
والشيء يثبت بالتواتر تارة كثبوته طوراً برأي عيان
فحكمت اذ صح الحديث بفضله فمدحته فكأنه اعطاني !
لكن نظمي قاصر عن وصفه هبني أديب معرة النعمان

يمدح الشيباني

وقال يمدح الشيباني بن محمد بن احمد التجمري :

أعائدةٌ الينا في الزمان مسامرة بدار الترجمان

وأوقات لدى (كيهيد) مرّت — سرقناهن عن ريب الزمان !
فقد كانت عرائس غير زنجٍ — وان حليت قلائد من جمان
(وما كان الفتى العربي فيها — غريب الوجه واليد واللسان)
رأينا الماجدين بها ، وفيها — رعينا في رياض الديدمان
وقد اخذت فُتُوّ ثم شُمٌّ — بأطراف المعاني والبيـان
فهم يتجاذبون الظرف ، كلٌّ — يساقط منه من درر ثمان
فذو خمس يتيمات ، وست — وذو سبع مثانٍ ، أو ثمَـاني
وللشيبان في الميدان خَطوٌ — بعيد كان ليس بذي تدان
اقول ونأيه لم يسلنيـه — ولا حولان حالا ، كاملان
أليس الله يعلم ان قلبي — يحبك ايها الرجل اليماني
بنينا جهدنا مجداً ، وشدنا — ونحن (بنو الأوان) بناءوان
ولكن ما بنى أو شاد مجداً — بناه فشاده الشيبان بان
فنحن عياله في المجد نقفو — خطاه على ونىً وعلى توان
ولم نبلغ مداه في المعالي — ولم نبلغه يوماً في المعاني
فنحن مسلّمون له ، فما ان — لنا بمداه في مجد يدان
ونحن مسلّمون عليه أيضاً — سلاماً كاللئالي كل آن
ونشفعه بعاطرة التحايا — توتر بعد ذلك بالتهاني

المعاهد والاربع

وقال وهي من جيد شعره : ١

نأتكَ المعاهدُ والأربعُ — فقلبك من نأيها موجَع !
تعرّض من دونهن الصفا — ومن دونها الخيب والأجرع

---

١ – هي قصيدته المنشورة المصورة بالزنكوغراف في كتاب « موريتانيا الحديثة » للؤلف .

لعمري لقد شحطت بي النوى غداة من (الفلْح) اذ أطلع
تراني ، فتعجب من مشيتي كأني اسجد أو أركع !
متى أرفع الرِّجْلَ أهوي ، وان أضعها ، يزلَّ بي الموضع
فأكبو ، فانهض متثاقلاً فنخفضُ انا اذ أُرفع !
واهتز كالغصن ، تسطو به شآميـة مرجفٌ زعـزع
فلأياً تخلصت من هوله وقد وجِيَ الكعبُ والأصبع !
الى ثابت أصلها ، فرعها سما في السماء فما تُفْرع
وقد حف قنوانها حولها وقنوانها فوقها ركّـع
وعالت من الأُكل ما آدها فكادت على عرشها تصرع
فأحمر من بُسْرها قانيءٌ وأسودُ من رُطب أسفَع
وان كنت من جوعة اشتكي فيومئذ بريءَ الجُوَّع !
ولكن بي لوعة في الحشا من الجوع لوعتها أوجع !
احاول بالدمـع اطفاءها فتسعر نيرانها الأدمـع !
اذا أضرم الشوق نيرانه فما للفتى في الكرى مطمع !
الا فاصطبر للنوى يا فتى فقد حُمَّ ما تعب الأيفع
وأنّى تطيق اصطباراً لها وأنت ترى البرقَ اذ يلْمَع !

تدل هذه القصيدة على ان الشاعر تعرض في حياته إلى فاجعة إنسانية مريعة ، غير بعيد ان تكون بكاء اولاده من الجوع أيام الحرب !

غزل الشيوخ !

وقال متغزلاً ، وهي من شعر الشيخوخة . وقد أوردنا بصورتهـا الخطية على الصفحة السابعة من الكتاب :

طيف لمريمَ زارني في منزلي ليعلّني منها ولو لم أنهل
بسلافة من ريقها تجري على درٍّ نظيم في اللثاة مُفصّل

وبوردة في خدها ممطورة ... وبزهرة في ثغرها لم تذبل
وبرملة في ردفها ، وببانة ... مالت على ذاك الكثيب الأهيل
وبنرجس ، رد الطفولة والصبا ... في عين هاتيك المهاة المُطفل !
ان كانت الآنَ نظرة عرضا وقد ... « امسيت ممسي راهب متبتل »
فرجعت أصغرَ ، والمشيب مقنّعي ... ومحنّكي « من ذي تمائم منحل »
وظللت كالمدرى بليل مُظلم ... من فرعها « ما الصبح منه بأمثل »
يا قوس حاجب مريم ، يا أسهماً ... في لحظها ؛ لا تُرتسلي ، لا تُرسلي .. ؟
يا صارما في جفنها ، يا عقربا ... في صدغها ، لادرع لي ، لانعل لي .. !
رفقا بمن ضحك المشيب بفوده ... « فبكيت حتى بل دمعي محملي » .. !
رحل الشباب وليته لم يرحل ... يا في سبيل الله من مترحّل !
قل للشباب اذا نزلت بحيه ... ولقيته ، ولقيتهم في منزل
« لو كنت اعلم ان آخر عهدكم ... يوم الرحيل ، فعلت ما لم افعل »
ولقد صرفت على المشيب سويعة ... فوتها في جنح ليل أليـــل
في جنب خود كالجديل خصورها ... « اهوى مخارمها هويّ الأجدل »
أسقى بخمرٍ لذةٍ ، وأعضّ في ... بردٍ ، ولم يُمْسَك ..... (؟)
فكأن ليلى يومٌ دارة جلجل ... وكأنني فيه ابن اخت مهلهل
« هذا ، وان الضيف مخبر اهله ... بمبيت ليلته ، وان لم يُسألِ » !

ثم عقب على القصيدة بالملاحظة التالية لي ، فقال :

« ترى في هذه القصيدة كثيرا من الاقتباس من الشعر القديم واللمح اليه ، من غير نسبته الى قائله لكونه شعرا معروفا . فايراده بمنزلة ايراد المثل . وادباء البيضان لا يعدون مثل هذا سرقة ، بل يعدونها اقتدارا وحسن اقتباس وسعة اطلاع واستحضار ، فهل هذا صحيح ؟ » .

نحن لا نرى ما ترون يا سيدي .. اما انه مثل على « الاقتدار

وحسن الاقتباس وسعة اطلاع واستحضار » فهو صحيح ، وانا أول من يعترف للبيضان بسعة الاطلاع على الادب القديم وقدرتهم على محاكاته.. اما انكم ترونه حسناً ولا ترون في احتيازه بأساً ، فلا ..

ان الأقتباس او التضمين (الاستعارة) ، في مناسبات قليلة نادرة أمر غير منكور، شرط أن يشار الى المقطع المقتبس أو الداخل بنصه على العطاء الشخصي . اما حين تصبح الإستعارة عادة اصيلة، وديدناً متبعاً فأنها حينئذ تكون سرقة وأكثر من سرقة ...

هذا مع العلم انكم حتى بهذا القدر الذي تتسامحون به في شعركم ، فأنكم تقتلون مواهبكم الشخصية بما تعتمدون على محاسن سواكم حين تغارون عليها وتنقلونها الى حيازتكم .. وبالتالي تعيقون مواهبكم عن مجاراة المبدعين، والتطلع الى الابداع ..

اني لا أرى فرقاً بين الغزو القبائلي ، وسلب قطائع الأبل والخيل والماشية ، في ربوع الصحراء، وبين « الغزو الأدبي » في الكتب والدواوين.. ترى .. هل حب الغزو والغارات طبيعة من طبائع العرب منذ فطرتهم الأولى وجاهليتهم حتى أرقى عصور حياتهم واسلامهم ؟!

لشد ما أرجو اقتباس صفات العصر الفكرية الذي تعيشون فيه، والأقلال من الالتفات للوراء ، دون ان يكون ذلك ، ماساً بجوهر وجودكم التاريخي ، والأكثار من التطلع الى الأمام ، ومحاولة اللحاق بركب الحضارة ، حضارة القرن العشرين الرائعة !

وقال وهي من الشعر الوجداني — التقليدي :

شفاء الضنا من مريم لثم مريم ... ومن دونه خرط القتاد على الفم !
لو اني لها كفؤٌ ، اذاً لشفيته ... بوجهٍ صحيح جائز لا محرم
ففي شفتيهـا والثنايا مطامحي ... وفي ريقها برء العليل المتيم !
الا لا تُفُتْنْكَ الخود ان كنت كفأها ... فما كل أهل اليوم كفؤ لمريم

فأن فتى فاتتــه مريم ، فاتهُ   لعمرك شرط من شروط التنعم !
بذكر سليمى والرباب ، وتندم   تسلَّ بها ، لا تسل عنها فتعتـلق

هذا النوع من التصابي – وخصوصاً على الكبَر – لا احبه .. فماذا على الانسان – الشيخ – لكي يحشر نفسه في مثل هذه المآزق، ويتشوق الى « ميادين » لم يعد من فرسانها ..؟

اني على احترامي العظيم للصديق الحميم المختار الحامــد ، أقول ان شعره في معظمه شعر العلماء الفقهاء ، أكثر مما هو شعر شاعر من فحول الشعراء .. ولو أردت ان اعطــي شواهد من شعره على ذلك لمضيت بعيداً .. فحسبي « من القلادة ما أحاط بالجيد » .. حسبي هذه القطعة شاهداً على ما أقول .. لاحظ قوله : « بوجه صحيح جائز لا محرم » كيف هو كلام فقهاء لا شعر شعراء ..

ثم ان « أفكار » القطعة لا توحي الرضا الطيب الذي نبتغيه من شاعرية الشاعر هنا ، وهو من لا ننكر عليه أنه شاعر مجيد في بعض شعره الغزير . فمسألة التغزل بمريم وسلمى والرباب وهند، صارت مسألة متعارفة، وطريقاً سلكها قبله الف شاعر وشاعر .. كما ان « فنون المغازلة » التي وصفها لنا صاحبنا المختار هي « فنون » ساذجة ، يعرفها كـل « رجل » يلتقي بحواء في جو غرام أو وصال ..

وقال :

شيَّبتــني الآمال والآلام   والليــالي تمر ، والأيام
وهموم مُربِّة ، واهتمام   لأمور يسعى لهن الهمام
وغرام شاب الغراب سواه   وهو مثل الغراب بعد غلام
حسَّبْته نفسي مع الشيب حِلاً   وحرام على المشيب الغرام
ففطمت الغرام وهو وليد   وشديد على الوليد الفطام
في سبيل الله الشباب المُولّي   وعليه تحيــة وسلام !

وعليكم السلام يا مختار .. هـــذه سنة الحياة ولن تجد لسنة الحياة تبديلاً .. !

ان العمر «محطات» .. ولا ريب ان « محطة الشباب » من أجملها، وقلما يصل أحدنا اليها ويحب ان يغادرها باختياره الى أخرى .. غير ان قطار الزمن لا بد وان يمشي بنا شئنا أو أبينا .. ويحملنا عـــلى مغادرة المحطة التي يحزننا فراقها أشد الحزن .. ولكن علينا ان لا نكره الانتقال الى « محطة الشيخوخة » ، ففيها من نعم العقل والحكمة ما لو عرفنا كيف ننعم بها ، لوجدنا أنفسنا اسعد حالاً وحياة ، في خاتمة المطاف منا في اوائله ، ولكن اكثر الناس لا يعقلون !

٣ ـ الشيخ سيدي باب

قال يصف الكرة [١] :

قد أبصر الناس قاريها وباديها ورائحها وغاديها وساريهـــا
لما تعاطى المقالي بيننا كُـرَةً اذ شامتْ وهي في اقصى تدهديها
طوراً تسير على الوعساء هاويــة عن الدِّلاء ، وخانتها عراقيها
وتارة مثل ما مر الجَهام ضحىً وعاصفٌ من رياح الصيف حاديها
وراح اكثرنا تيهاً قبيل وغىً أقلنا بعدما كان الوغى تيهـــا !
وملَّ كل فتى مقلاءه ، وقـــلا كل الكماة على عجز مقاليهـــا

---

١ ــ لعبة رياضية مشهورة عندهم تقوم بين فريقين من اللاعبين قوامها كرة خشبية تضرب بالعصي وشرحها مثلما هو موصوف في القصيدة .

٤ – محمد بن الوالد الديماني

قال يصفها أيضاً :

تراهم على ما كان كلّ عشية ... يخُبُّون نحو القاع حول المناهل
بأيديهم بيض الهراوي كأنهم ... اولو الحرب ، الا انها بالمناصل..
لهم كرة فيها التنازع بينهم ... وكل لمولى نصرة غير خاذل
يجالد بعضاً بعضُهم في انتزاعها ... جلاد بني الهيجاء بين القبائل !
اذا ضربوها بالصوالج حلّقت ... كما حلق العصفور خوف الأجادل
ترنّ اذا ما أوجع الضرب جلدها ... دوي الغضا أحناه هز الشمائل !

٥ – محمد ابن الشقروي

قال يصف المقلاء وهي احدى العابهم الرياضية أيضاً :

لعمرك ما مقلاء عُوّد عودها ... جذاب الكرين النور حين تعودها
أقيمت وملت ، واستميل ثقافها ... على وجهة اليمنى ، فساغ عنودها
وبالقشر منها نُمّقت ، غير انها ... يسر الفتى إقبالها وصدودها
تخير من دوح من النبع غصنها ... فكانت كما يهوى ولاحت سعودها
اذا أحرنجم النادي عليها وقسمت ... وناحت نواحيها وشب وقودها
وجالت بها الفتيان شرقاً ومغربا ... وقد خيف فيها ان تجاز حدودها
ترى الكرة انقادت اليها كأنها ... تقاد ، وما إن ثم شيءٌ يقودها
وفي كل مقلاء ملاقية لها ... كوادح ضرب ما تخان عهودها
يود المباري كسرها حسداً لها ... فكل فتى يأتي الكرين حسودها
بمجدية شيئاً يسود به الفتى ... اذا اشتبهت بيض المعاني وسودها
وفي الناس ذُبّان [١] وسدٌ ، ولم تكن ... سواسية ذُبانها وسدودها

---

١ – من ذب يذب عن الشيء : دافع عنه فهو ذاب والجمع ذبان .

٦ – محمد المختار بن محمد فال بن باب العلوي

قال يصف اللعبة نفسها :

فلما اجتمعنا للكرين عشيــة … ودافع شيب الضاربين شبابها
وتاقت لها أيدي الرماة ملاوة … وقد سد من نحو الفريقين بابها
شددت لها بين التدافع ضربة … بعقلاء يحلو في اليدين انجذابها
وزدت لها اخرى ، واخرى كمثلها … فعز عليهم بعدهن انقلابها
فلما رأوا ان لا احتيال اردها … وعوضهم بالبعد منها اقترابها
تداعوا غضاباً بانتداب جموعهم … ولكن غرور ما يريك انتدابها
فلم تغنهم عِيدَانهم وعديدهم … وأوجههم ، لما تبدى اكتئابها

٧ – الشيخ سيد محمد ابن الشيخ سيدي

قال يصف السلاح الناري (بندقية الصيد) :

وكل اخي قَفَيْن أبى اعتدالا … وتقويماً عن الغرض ازورارا
مَسلّ شطيبة في المتن منه … الى تسديد شارته اشارا
حذاه بكالهــلال موشحوه … بكالجوزاء صوغاً وازدهارا
بوشي حبّــروه وأودعوه … تصاويراً ترى فيها اعتبارا
من العدد اللاؤلى إلا سماك … بروح الله عيسى ان تبارى
تلظّى النار في الكانون منه … اذا ما صافَح الزندُ الشفارا
وليس لناره شرر ترامى … به الا الموقّعة الحرارا
فمن يعرر قبالة منخريه … يكن كهشيم من رام احتضارا

٨ ـ الاحول الحسني

قال يصف بندقية الصيد (الجفت) :

وأزهر مصقول الحديدة مُتْئِم ... سخيٍّ، نقي اللون، واري المثاقب
اجادته ارباب الجزبرة ميسماً ... ونقشاً كفى، من رائقات الغرائب
وحلّوه نعلاً من لجين، ودوّروا ... من الدر في أوساطه والجوانب
ومهما مرت خلفيه كف تطايرت ... من الجوف شتى امهات الذوائب
وجلجل رعد ينهمي عند هزمه ... نجيع العدى، لا ماء غر السحائب

٩ ـ محمد عبدالله ابن البخاري ابن الفلالي الشمشوي

قال يصف الآلة نفسها :

لقد رمتني بذي نَفَسين، حشوهما ... كالدّر ململه يوم الحيا البللُ
مُبَصّر الرمي لا تنمي رميّته ... ولم ينل نيله الارماح والاسل
كأنما البرق في زنديه اذ قدحا ... وفي فَمَي جعبتيه الراعد الزجل!

١٠ ـ الشيخ محمد الأمام بن الشيخ ماء العينين

قال يصف المذياع :

هل غادر المذياع من عجب، فقد ... اغناك عن كلف البريد ألواني !
يأتيك بالاخبار ساعتهـا ، فلا ... تحتاج قصد شواسع البلدان
فأذا صغيت (؟) فكل شخص حاضر ... واذا نطقت حللت كل مكان !
ما شئت من فن بمختلف اللغـا ... ان شئت تسمع مُحْكَمِ القرءآن

او شئت من خُطب وشعر رائق ... يسبي القلوب بمطرب الالحان
وانظر لصنع الكهرباء فأنه ... من لطف صنع الله في الأكوان
اذ سهّلت كل الصعاب ، واوهمت ... ان المحال بحيز الأمكان !

١١ – محمد محمود بن الشيخ بن احمذي الحسني

قال يصف السيارة :

ان لم تسر نحو الأحبة فوق ما ... دهماء تبتدر المُيَمَّم أينما
لا تختشي ظمأً بها ان هجّرت ... ترمي الصُّوى مراً بأربعة ظما
في عينها بالليل درة غائص ... تجلو دياجر ليلها ان أظلما
فترد عيناها العيون حواسراً ... يا مقلتين بعيدتين من العمى!
فالعين منهـا والسبيل مذلل ... كالبدر لو سلك المجرّة في السما
ولمرها زجلٌ اجشُّ ، وإزمل ... فكأن اسحم وابلاً متهزما
ان راع ابناء السبيل ازيزها ... تركوا لها وضح السبيل مسلما
هربا ، ورب مدجج لعبت به ... فغدا صريعاً لليـدين محطما
في لحظة تجتاز غفلاً سبسباً ... او سرت فيه لسرت يوماً ايوما
ولها العشي بكل مصر وقعة ... اذ ينزل الغاوي المحلق ريثما ..
أوفى احم موطأ اكتافـه ... يقفو بك الزفر الخضم العيلما
في صدره ضرم ومـاء بارد ... ضدّان فيه ، فحرّه بكابيهما
فالجمر لولا حره لم ينطلق ... والماء لولا برده لتضرمـا !
او تزجرنّ اليهم شدنية ... حرفا أو اعيْسَ قيسرياً اكرما
او نهدة عند الصباح طمرّة ... او سابحا نهْداً اقبَّ مطهّما
فاصبر على مضض الفراق ملاوة ... ان حنظلاً الفيته ، او علقما

١٢ – المختار السالم ابن علي المالكي

قال يصف السيارة أيضاً :

(ووتة[١]) قد جرت تحتي على (مير[٢]) مُشياً تواصل تشميراً بتشمير
كأنها الريح ، الا انها عبر ما بين الواح ساج او مسامير
تدمّر الصخر تدميراً ، وراكبها لم يدر ما بين تدمير وتعمير
كأن اولها يوحي لآخرها في كل خرق ،بسيري خفية سيري !
لا يبلغ الشرح والتفسير ذاك ولو كان «الهلالي» مع « تاج التفاسير » ..
بل لست أبلغ توصيفاً لسرعتها الا اذا ضُم تعبيرٌ لتعبيري
يذكي القريحة زنجي يعالجها الى الميامين يلوي والمياسير ..
له معاناتها الرحمن سخرها شتان ما بين تيسير وتعسير
كالريح تحت سليمان النبي ضحى والطير جافلة من بعد تطير !

١٣ – محمد ابن البوحسني

قال يصف صينية الشاه :

لله سبك صفيحة من جوهر كصفيحة في دور هالة مقمر
زهراء ، راد بها البها فأسفّها من كل نقش مستدير ازور
صبغت لأكواب كواسٍ فوقها قمصاً ،تلون في طرازعبقري !
ما بين ابيض ناصع او احمر قان ،او اصفر فاقع ،او اخضر
ومعندَمٍ ومُنَرْجَسٍ ومُورّسٍ ومُورّدٍ ومُزعفَرٍ ومُعَصفر

---

١ – الوتة : كلمة حسانية تعني السيارة عندهم .

٢ – مير حائط وهي فرنسية الأصل «**Mure** » وقد أخذوها كما هي وكذلك يفعلون في معظم الاسماء المستحدثة..

صورٌ تحاربها النواظر ، أُلبست من كل وشيٍ غير آخر ، أزهر
فكأنها درراً على ابريقها بريقها ورنينها في المسبر
نادٍ تجمع من بني غلب المقا — ول ، احدقت بعظيمها من حمير
متقابلين على دمقس اريكة والقوم بين متوّج ومسوّر
وتزينوا بحليٍ قاموسٍ أتت منه زواهر من «صحاح الجوهر»
متخالفو الالوان والاقدار والتيجان والالحان والمتطور
تلكم اوانٍ للكمال اعدها عال ، فيحمد في اللقا والمخبر
في دارة جعلت مصائد للمكا رم والأكارم ، حيثما هي تعترى
لا زال في عز تزف له الميا سر في موارد أمره والمصدر

١٤ — عبدالله العتيق اليعقوبي

قال يصف عدة الأتاي :

ألاهل ارى الايام (مغراج) فتية يؤج كأجباح تهافت لوبها
يقطّع بالأحماش ابزاغ لقّح من الأدم عيطٌ بارهن رقيبها
تعد لزهر كالنجوم خواليا وكُمتاً اذا ما قاء فيهن كوبها
تصف لابريق تروّى بريقه يسوس به شرب الفتي اريبها
يدوّر رفق الصب فيها فقاقعاً اذا ساوت الاسبار كف طبيبها
تجلّى عن السّفْر الظما ، وتريحه ويجري امذ لالاً في العظام دبيبها
اذا نصبت فوق البنان ورشفت تساوي لديهم حلهن وحوبها!

١٥ — سيدات ابن الشيخ احمد الهيب

قال يصف روضة وجلسة أتاي :

لله روض ، راحةٌ للانفس كالشهب لامعةٌ خلال الحندس

فكأنما نـَور الأزاهر وسطه — دُررٌ نثرن على بساط السندس!
رقَّ النسيم بها ، وراق جماله — والماء ريق نميره للمحتسي..
والشَّرب من راح الفكاهة محتسٍ — والشرب يزهو باختلاف الاكؤس
ما بين ابيض ناصع او احمر — قان ، او اخْضر بالنضارة مكتس
في صفحة كالبدر ليل تمامه — اما الكُّؤس ، فكالجواري الخُنـَّس
كاسات دُرٍّ والطنافس حولها — روضان فيه تقابلا في مجلس
حضر الحبيب ، وغابت الرقباء ، لا — عين ترى الشسوى عيون النرجس!

١٦ ـ الشيخ سيد محمد ابن الشيخ سيدي

قال ملغزاً في المقدح والقداحة :

وزوجين ليسا بالحياة تحليا — وامرهما باد تراه عيون
وكلهما ميتٌ ، وغير مجوف — وكل بحملان الجنين قمين!
لها صلبه والجنب منها متاعه — ومهما التقى الزوجان كان جنين!

وله ايضاً ملغزاً في البكرة * :

وجاريةٍ من امرها يُتعجب — هلموا الى أوصافها فتعجبوا
لها (غرفَّة) في قيد شبر من الهوا — تغرد فيها كالنزيف وتلعب
لسرعتها لا تدرك العين كنههـا — وعنها لأيدي اللامسين تجنب
ومن تحتها الانهار والنار وسطها — فلا النار تظميها ، ولا الماء تشرب!
يقاس بفتر طولها وهي حامـل — جنيناً ، به الأمثال في الطول تضرب!

---

* هي المعروفة قديماً بالمنجنون ، تستعمل لنضح الماء من الآبار . وفيها يقول شاعر قديم:
وما الدهر الا منجنون ، بأهله — وما صاحب الحاجات الا معذبا!

١٧ – المختار بن محمد بن احمد سالم الديماني

قال ملغزاً في مدق الكسكس :

وذات راسين، طول الدهر عاملة قد شاب في طلب الخيرات راساها!
تُسقى وتطعم، من ماء ومن علف ولا يجاوز ما اطعمتها فاها ؟
اذا تأملت اعلاها وأسفلهـا وجدت اسفلها سيأً لاعلاها
عفيفة عن طعام الغير ، وهي الى إطعامهم ذات اسراع بجدواها
تهدي بنغمتها من ضل، ليس له في الاهتداء اذا ما ضل، شرواها![1]

١٨ – محمد بن ابياه الشمشوي

قال ملغزاً في القلم :

وساكن رمسٍ طعمه عند رأسه اذا ذاق من ذاك الطعام تكلما !
يقوم ويمشي صامتاً متكلماً ويرجع للرمس الذي منه قُدِّما
فليس بحيٍ يستحق كرامة وليس بميت يستحق ترحما !

١٩ – محمد المام بن المختار بن محمد سيدي الشمشوي

قال ملغزاً في لفظ كاس :

فما حبيب قلبه معجمٌ شاكٍ ، ولم يعلق به قط باس
باطنه يعلم من ظـاهر وجسمه عارٍ يُرى وهو كاس !

١ – في هذا البيت معنى من أطرف المعاني، لا يعرفه إلا من يعرف تلك البلاد: وخلاصته أن المسافر الضارب في الغابات والمجاهل، يهتدي إلى القرية إذا ضل عنها أحياناً على نغمات المدق الذي لا يتوقف ليل نهار !

٢٠ – محمد سالم بن محمد عال بن عبد الودود

قال ملغزاً في الرحى * :

فما شيء له فكٌ شطيرُ ... على الفكِّ اللسان المستطير
يظل لسانه بيدي مـديـر ... وينشأ من ادارته الفطير
« له زجل كأنه صوت حاد ... اذا طلب الوسيقة[1] ، او زهير»

وله أيضاً :

رأيت نتيجة شرفين حازت ... وفي الشكل اجتماع الحسنيين
غلام من حنيفيٍّ رقيقٍ ... لمحصنةٍ من احدى الملتين .!

٢١ – محنض بابا الديماني

قال ملغزاً في (ماذا) الأستفهامية والتعجبية :

«ماذا» ،رباعية إما انتبهت لها ... تظل من لهوها مستفهما عجبا
فنصفها هو ما يبدو لمنتبهٍ ... في لحن قولي و «ذا» هو الذي ذهبا . !

٢٢ – ولّ ابنـو

هو محمد بن حُمَيدَه المشهور بـ (ولّ ابنو : ولد ابنو) وهو شاعر

---

* الجاروش عند اهل المشرق .

١ – الجماعة من الابل المساقة خطفاً او اقتداراً .

رقيق ظريف مشهور ، لم نوفق بالعثور على شعره الكثير المشتت في اذهان الرواة .

قال يهجو تاجراً لبنانيا (شاميا) [1] يدعى « نجير » وقد شككت في صحة الاسم وكان الشك في موقعه . فبعد التحقيق تبين ان المهجو يدعى نجيبا ولكن الهاجي اخطأ السماع ، بيدان هجوه اصاب مقتلا على كل حال .! وقد تطلبت هذه القصيدة كاملة في محاولات عديدة ، فلم اعثر على من يرويها لي كلها . ثم علمت قبل عودتي الى لبنان سنة ١٩٥٠ ان الشاعر توفي بعد نظم القصيدة المشار اليها بقليل .. رحمه الله !

وهذه هي الابيات السائرة منها :

لحا الله التجارةَ ، كلّفتنا	معـاناةَ المسير الى « نجير »
وإظهارَ الوداد له على مـا	أَجنّ من الخبائث في الضمير !
عليـه من المذلّة سابغات	تجرر في المقام وفي المسير .!
نوافيه ، فيلقانـا بوجهٍ	َعبوسٍ مشمئِزَ قمطـرير ..
واما فاه ، فاح النتْنُ ، حتىً	كانا عند حاشية السعير !
وان رمنا حوائجنا تصدى	الى سعلاء دائمة الهرير ..
يحاول ان تشير له برأي	يجنب كل مكرمة وخير
تردت بالمخـازي والمساوي	وجنبت التردي بالحـرير
فَقُبِح وجهها من (مستشار)	وقبح وجهه من (مستشير) ..!

واقام فرنسي (موظف) في احد الاعوام في بوتليميت ، فاطلق

---

١ – في موريتانيا كل لبناني يدعونه (شامي) .

لحيته ،ولبس لباس اهل البلاد ، وتزوج بيضانية حسناء .. ولكن اضهر ما في أمره كان لحيته التي قال فيها ولّ ابنو هذا البيت المشهور :

الا ليت اللحى صارت حشيشاً   قترعاها حمير المسلمينا !

وقال وقد تلقى رسالة من صديق عزيز وهي من الشعر العصري الراقي .

راق قلبي ومقلتي والطور   ما اتى في كتابك المسطور
جاءني ضحوة تلوح البشارات   على وجهه البهي النضير
فتفرست انه مجتنى شذر الـلآ   ل المنظوم والمنثور
ففضضت الختام عنه ،وقد بُثّ على   جانب السرير سروري !
يا لها أحرفاً كأن اختلافا   ت ائتلافاتها حوالي السطور
صورٌ تدهش الألباء حسناً   نشرها فوق رقّها المنشور
أشربت من خمور صرف المعاني   فارتوت من معين تلك الخمور
وقريض ريضت معانيه حتى   ذلّ منها ، وآض كل نفور !
بارك الله فيك ! احييت ربع القلب   بعدما اغتدى بدثور
فأعِدْ ، فالكريم شيمته العَودُ   وهذا شفاء داء الصدور !

من شعره المفقود

نسجل بالغ أسفنا لتقصير الجهات الأدبية والحكومية بموريتانيا في تقديم العون الأدبي لنا ، وهي العليمة بما نقوم به منذ عقد ونيف من السنين في هذا الصدد المجيد ! ان هذا الكتاب على غزارة مادته هو مجرد مجهود « شخصي » ، كان من الممكن ان يكون أوفى واكثر إحاطة ودقة ، لو أن الجهات الموريتانية المعنية اشتركت معنا فيه نحواً

من الإشتراك .. فكم كنا نود — مثلا — الحصول على معظم شعر هذا الشاعر الهجّاء المجيد ، لأن شعره كان « مرآة مساوىء » ومثالب أخلاقية — مع بعض المحامد — لعصره وامثال عصره .. صحيح ان اخلاق البشر في جميع العصور هي هي ، من حيث الخير والشر والصدق والكذب والنبل والنذالة ، قلما تختلف في الصفات الأساسية ، إلا أن الوضع الإجتماعي لكل أمة ، لا بد وان يختلف شيئاً من الإختلاف بين عصر وعصر ، وانتقاله من حال إلى حال .

و« أبطال » قصائد محمد ولّ ابنو ، هم من ناس جيلنا وعصرنا ، صوّرهم ، أو بالأحرى صور « عللهم النفسية » ، وكأنه يصور طبقة معينة من طبقات المجتمع المرتزقة ، لا تزال تعيش بين ظهرانينا في أفريقيا والشرق ..! إن الهجاء وان كان الدافع اليه نعرة شخصية في الأساس ، ولكنه نوع من « النقد الزاجر » الذي « يحسن » من حيث يسيء ، إذ يعمل على تهذيب المجتمع بترذيل الصفات القبيحة في بعض افراده ..

والشاعر في هذه القصيدة ، وهي من شعـــره المفقود ، يهجو بعض المرتزقة من الفقهاء المتجولين الدجالين الذين يدعون العلم والدين والأدب وهم من ذلك كله براء ..!

وهذه القصيدة التالية ، هي آخر ما حصلنا عليه للشاعر بعد الرائية المتقدمة ، نقدمها على ذمة رواتها البيضان الذين أملوها على صديقنا الأديب الشاعر المهاجر — بكولخ — الاستاذ نجيب صعب ، الذي أنبأنا بأن لديه خمس قصائد أخرى للشاعر ، أرسلها لنا بوقت سابق ولكنها لم تصل ! وقد وصلتنا من الصديق العزيز هذه القصيدة في آخر لحظة ، فالحقناها شاكرين . قال ول أبنو :

ما للشجيّ على برح الغرام يدُ ولا تقوٍّ ، ولا صبرٌ ، ولا جلدُ

تذكي تباريحه الذكرى ، فتوقده ... دور الأحبة بالأاوى ، فينتقد
وان تسلى بطيف ، أو بتذكرة ... أو اتئاد ، شجاه النأي والثأد
من يعذل الصب في ارسال أدمعه ... يوم النوى ، لم يجد بعض الذي يجد
تحجو العواذل ما يلقى العميد ددا ... منه ، وما بالذي يلقى العميد دد !
في صدره نار أشجان مؤججة ... أن ليم حرقه من لذعه الوقد

ويخلص الشاعر إلى هجو مرذوله ، فيقول :

هذا يسميه « قطباً » في مدائحه ... حيناً ، وذا وتداً .. ما القطب والوتد؟
يأتيهم في نواديهم ، ويمدحهم ... مدحاً تعوذ منه الواحد الصمد !
إن امرأً جهل علم الدين ديدنه ... ما في طريقته علم ولا رشد
وعالماً قاده عمرو ببدعتــه ... لم يعتقد فضله من ليس يعتقد
وزاعم أن ذين الزائفين على ... شيء من الدين ، يرجى منهما المدد
قد صار مثلهما عندي ، واني في ... هذا وفي ذين ، كل الغي اعتقد !

* * *

نبئت أن « سلحفاة » يهددني ... وأنه « أسد ضار » له لبد ..
وان بطشته تخشى ، وان له ... زأراً ، يزلزل منه الطود والجدد
اتعبت نفسك .. لا تندى الصفاة اذا ... عض الصفاة امرؤ أودى به الدرد .. !
لا ينزح البحر غرفاً باليدين ، ولا ... يرقى السماء على احقاده النكد
إن الهزبر الذي إن ريء في بلد ... واجتازه ، خيف دهراً ذلك البلد !
تناذرتني ليوث الغاب ، واحتجبت ... عني الحوارد منها وهي ترتعد
ان غاص بحر القوافي من يغوص به ... في موسم الشعر ، والانداد قد شهدوا
أخرجت من قعره مكنون لؤلئه ... هل يستوى اللؤلؤ المكنون ، والزبد ؟

٢٣ — محمد فال ولد عينين

وقال محمد فال ولد عينين (من اداب لحسن) يمدح باب ولد الشيخ سيدي وهي من روائع شعر المدح :

يا من حوى ما حوته الكتبُ أجمعها فصار يطاب ما لم تحوه الكتبُ !
غوث البرايا وغوث المسلمين اذا ما اخلف الناس عام المزنة السحب
وفائق الناس احساناً ومنزلة تقاصرت عن مجاري شهبها الشهب
والواهب الالف ، لا يرضى بهابدلاً وخير ما يكسب الانسان ما يهب
هو الأمان ، اذا ما نابنا وجلٌ وعم كل البرايا الروع والرهب
لا السحبُ منهلةً تحكي جداوله سيل من اليم في الاشراج ١ منسكب
قوم اذا سلموا ، فالناس سالمةٌ ويختشى غضب المولى اذا غضبوا !

ومنها ، هذه الأبيات الثلاثة التى اخترناها ووضعناها على غلاف الكتاب بخط (ابن مقلة) القرن العشرين الاستاذ كامل البابا ، الخطاط اللبناني الشهير :

إنّا بنو حسنٍ ، دلت فصاحتنا أنا الى العرب الاقحاح ننتسب
ان لم تقم بينات ٌ أننا عرب ففي « اللسان » بيانٌ اننا عرب !
فانظر الى مالنا من كل قافية لها تذم شذورُ الزبرجِ القُشب !

وهي طويلة ، لم نعثر على من يرويها لنا كاملة ، وفي هذا القليل منها بلاغ !

٢٤ — محمد بن باكر :

وقال محمد بن باكر بن حجاب الديماني يمدح الشيخ سيدى :

مغان حي ميــة ويلك حي وإلا لا تحي ديار حي

---

١ — اخاديد الماء .

مغان قد اصاب القلب منها مزيلٌ للحياء من الحيـي
«بذات الشول» [1] قد حلت زمانا وقد امست عواطل بعد مي
عفتها الريح ساحبة عليها ذيولا بالغداة وبالعشي
ومرزام [2] العشي وكل غاد من الوسمي أسحمَ والولي [3]
لئن امست معاهدها يبابا دوارس ما تميز كالوحي [4]
فكم كانت مراود كل حورا نفورٍ من مصاحبة الدني
ضروم لا تزار بغير طيف وليست بالصخوب ولا البغي
و ابيض صارم كالسيف ماضٍ سريٍ من سريٍ من سري
ومنحار الشتاء وبحر علم ومختصر المنافع أريحي
حوى المعقول امرد دون شيخ بفهم من توقده سني
تلقى النحو من فصحاء تيم كما الأنهار تنزح بالدلي [5]
قليل نطقه من غير عيٍ فصيح ان تكلم في الندي [6]

٢٥ ــ محمد عبد الله الشنجيطي :

وقال محمد عبد الله بن فال الشنجيطي متغزلا بكاس اللهو وايام حبه لام الخير :

إلي بكاس اللهو أشربها صفوا فكاتب عقبى الذنب قد كتب العفوا
وكن أولاً في الشَّرب بالشُّرب بكرة [7] وخل تخلي القوم يشربها عفوا

---

١ ــ اسم مكان .
٢ ــ الرعد .
٣ ــ الوسمي المطر الاول والولي المطر الثاني .
٤ ــ الوحي قال الراوي انها سطور الكتاب .
٥ ــ الدلي : جمع الدلو .
٦ ــ العادي . وتصح للمقصف أو المقهى . مجتمع القوم .
٧ ــ الشرب : بفتح الشين وتشديده : رفقة الشراب ، والشرب بضم الشين : تعاطيه .

وعبٌّ وغال [1] في اشتراء كؤوسها — ودع لضعيف الحال يشربها حسوا
فاغوى غويٌّ عاذل في ارتشافها — على انه ليس الخلي كمن يهوى
عذيريَ من لاحٍ يرى جد حالنا — اذا ما تعاطينا كؤوس اللغى لغوا
ويأنف عنا مخطئاً ، وهو يدعي — صواباً بذا ، هيهات ماذاك بالدعوى
اذا لم تكن تدري صواباً ولم تُبِنْ — جواباً فبيت الصمت من غيره احوى
فواهاً « لام الخبر » ماذا اصابها — لقد راح نشر العزم من ذكرها يطوى !
كأنْ لم تلك الآفاق يوما نطاقها — ولا بازل امسى على اثرها يضوى
ولم تطرب الشادي بحسن سماعها — ولم تله قلب الصب لا الشادن الاحوى
فلولاك للالباب ما ان تفاضلت — ولا استخرجت معنى مقالاً ولا فحوى
ولولاك ما ازدانت حُلاً فتية العلى — ولا ذكرت اسمى بحسن ، ولا «اروى»
الست كلام الله في ام كتبه — وانت لسان الناس في جنة المأوى ؟
باي لحاف غيرها قد رأيتموا — حديث رسول الله في حسنه يطوى ؟
لعمري لئن ولّيت أيْتمت إلْدَةً — فهل من فتى يرشي مصيبتها رثوا
نعم ، والذي سوّى وصوَّر ، والذي — يرى النور والاظلام والسر والنجوى
مدى الدهر لا انفكّ ما عشت عاشقا — لوجهك لا الوي ذا عاشق الوى !

والشاعر صاحب هذه القصيدة لغوي قدير . وقد قال لي انصحك ان تكتب هذه الابيات فلا يشكل عليك بعدها كتابة الالف الاخيرة وهي :

اذا الفعل يوما غم عنك هجاؤه — فالقِ به تاء الضمير ولا تقفْ
فان يك قبل التاء ياء فكْتبهُ — بباء ، وإلا فهو يكتب بالألفْ

---

١ – من غالى يغالي . والغلو : الإفراط في الشيء .

ولا تحسب الفعل الثلاثي، والذي تعدّاه والمهموز عن ذاك يختلف

٢٦ – محمد بن احمد يوره

وقال محمد بن احمد يوره متغزلاً :

ان لم تجُدْ بمصونٍ طالما احتبسا فقد سلكت طريقاً في الهوى يبَسا
هذا المسيل الذيّ كنا بجانبه نصبو صباحاً الى ما نشتهي ومسا
قد هاج مثل الذي داوى، فأحسن عن وجهٍ الي، ووجه في الغرام أسا

وله ايضاً :

على شط (نهر الخيل) بين الحدائق معاهد اقوت من مشوق وشائق
اربّت بها الانواء تزجي بقائد من الرعد في انف الجنوب وسائق
فاصبح لم تدرك لهن حقيقة ومن عادة الايام قلب الحقائق!

وله ايضاً :

اتمسك دمع العين وهو ذروف وتأمَنُ مكر البين وهو مخوف؟
تكلّم منا البعض، والبعض صامت غداة افترقنا والوداع حتوف
فآلت بنا الاحوال اخر وقفة الى كلمات مالهن حروف!
لئن وقف الدمع الذي كان جارياً لثم امورٌ مالهـــن وقوف!

وله ايضاً هذا البيت :

سقى النخلات اللاء يظهرن من بُعْد الى النهر من ثوبان[1] مرتجز الرعد

١ – اسم موضع .

٢٧ – محمد بن حنبل الحسني

وقال الشيخ محمد بن حنبل الحسني يخاطب شجرة من الدوم وتلقب « بذات الحبال » كانت مقيلا وملهى للشباب :

أذات الحِبال الشمّ ، مالك غضةٌ وفيك نقوش الأقدمين الأوائل ؟
فـكم فتية قالوا بظلك قبلنا لهم نسب في الأكرمين الأفاضل
بأيديهم فضلٌ منَ اذيال خـُرّد نواعم اشباه الظّباء الخواذل
تعاطوك قرناً بعد قرن ، فأصبحوا رفات رميم تحت صم الجنادل !

٢٨ – محمد بن ففّاء

قال محمد عبدالله بن ففاء يمدح احمدو بمْبا من قصيدة (رواها لي المختار بن محمود العلوي) :

هو اليُمن في يمناك، واليسرفي اليسرى وباقي المزايا بين اعضائك الاخرى..
وما الناس الا بين ذين ابتغاؤهم فمن يبتغي يُمنا ، ومن يبتغي يُسرا
إليّ بيمناك التي ان مددتها الى كل من يهواك طاب بها نشرا
ونال بها أمناً ، ونال مؤملا ونال بها عزاً ، ونال بها فخرا
فدولة هذا الدين لا زلت سيفها ودولتك الغراء لا برحت غرا

وقال يمدحه ايضاً وكان نازلاً بقرب نهر الركيز :

كأنك و « الركيز » هنا سوا آ نِ ، ما يُدرى لايكما الورودُ
تشابه منكما فَيضٌ ، ولكن مدى ما بين فَيضِكما بعيدُ
فأجود فيضه ان فاض ، ماءٌ وانت اقل فيضتك النقود ..

٢٩ – عبدالله بن عبد الرحمن

وقال عبدالله بن عبد الرحمن البوتليميتي يمدح المؤلف ، وكان مع لفيف من الشعراء البيضان في سان لويس سنة ١٩٤٥ :

أثار قريحتي ودفين دائي ... وهيّج فكرتي حال التناتي
وانهض همتي شهم ذكي ... بألفاظ اللذّ من الدواء [1]
علقت بأرضه وذويه لما ... بلوت مقاله بعض البلاء
سأصرف نيتي وأقود اهلي ... ان أمر يكون لمن ورائي
محمد يوسف الشامي جدير ... بالاكرام الجزيل وبالثناء
فوفقه ، وسدده إلهي ... زمان غدوه وفي الانتهاء

٣٠ – خطري بن خطري

هو خطري بن الشيخ محمد المجتبي ، وأحد اعلام الشناقطة الاعلام المقيمين في البلاد المقدسة (بين المدينة والرياض) وهو من شعرائهم المعاصرين (المستشرقين) . له شعر كثير جيد لم يصلنا منه سوى ما أرسله لنا الصديق العزيز في الرياض ولّ اب (ولد اب) الموريتاني ، ومنه هذه الابيات الطيبة التي عنانا بها تقديراً منه على ما بذلنا من جهود قلمية في سبيل تعريف بلاده على العالم الخارجي سياسياً وأدبياً . والابيات تنم عن روح نبيلة مفطورة على حب الوفاء وعرفان الجميل .. قال يحيي لبنان ويخصنا بالخطاب :

حُيِّيتَ لبنان ، مهد السادة النُّجُبِ ... الحافظين تُراث العرب للعرب
إني بلبنان تيّاهٌ لمـا نجلت ... من سيدٍ نابـه ينمى الى أرب

---

١ – الدواء عندهم : من اسماء اللبن .

ومن هُمامٍ أديبٍ سيدٍ سنَدٍ ضَمّ الفضائل والامجاد للنسب
اذا تكلم انساك ابن ساعدة وضلّ سُحبانُ ذا عيٍ عن الخُطَب
ان جئت حاضرهم ،أرضاك حاضرهم نعم ،ويرضيك منهم كل مغترب !

تلك عين الرضا يا سيدي .. فحياكم الله عني وعن بلدي وأهله من مقيمين ومغتربين ، ونرجو ان نكون جميعنا عند حسن ظنكم بنا ، فيرضيكم ويرضي غيركم « حاضرنا ومغتربنا » ..

رسالة ول اب

وكتب السيد ول اب الموريتاني رسالة مماثلة بروحها ،مملوءة حمية وغيرة وطنية الى السيد عبد الوهاب بن الشيكر ، وكان هذا الاخير مديراً للانباء والدعاية ، ومديراً مسؤولاً لجريدة « موريتانيا » (سنة ١٩٥٩) .
كتب السيد ول اب للسيد المذكور الرسالة التالية (المصورة في أول الكتاب ص ١٢) وهذا نصها :

حضرة المكرم المدير عبد الوهاب بن الشيكر .

بعد اداء واجب التحية والاحترام ، اخبركم اني تعبت من تعريف بلادنا لدى جرائد الشرق ، وليست لدي معلومات جديدة سوى ما أنقله من مجلة « العلوم » اللبنانية التي يكتب فيها كاتبنا صاحب الفضل الاول السيد محمد يوسف مقلد . وكان لكتابته فضل كبير من عدة مواضع .. وتطالبني جريدة اليمامة والندوة ، وجميع البلاد السعودية بالكتابة عن موريتانيا . وقد قدم علي خطري بن الشيخ محمد المجتبي ورأى عندي ١٥ عدداً من مجلة العلوم اللبنانية ،ورأى كتابة مقلد فيها فجادت قريحته بالأبيات التالية :

أرى لبنان بالعين الرحيمه — ونفسي من مودتها حميمه
اذا ما رمت انقدها ودادي — أجدني عاجزاً نقداً وقيمه
ولكــني اهنيهــا بندب — نشا في أصل عزتها القديمه
ترعرع في المكارم والمعالي — الى ان حاز قمتها العظيمه
فنال مفاخراً جلت منالاً — بأعمال لفكرته السليمــه
فقلدنا (المقلد) طوق فخر — وأولاناً عنايته العميمه
ينادي الكون ، يرشده الينا — بارشاد رويته حكيمــه
فأصبح جهلنا في كل قطر — بفضل جهوده صفة ذميمه !
فشكراً للكمي ، وأي شكر — وحي الله طلعته الوسيمه

شكراً لك يا سيدي على هذه العاطفة النبيلة : وحبذا لو لمسنا مثلها عند سواكم ، وخاصة عند السادة المسؤولين ولو من قبيل التشجيــع المعنوي على الأقل .. اذ ليس اقتل لروح القيام بالواجبات الطوعية من تجاهلها ..!

وللسيد خطري شعر سياسي حديث ، منه هذه القطعة بعنوان « مهم السياسة متروك » :

أهل السياسة بالحروب الباردة — قصروا المهم على امور (بارده) !
واستهلكوا طاق الاثر لتافه — قد آثروه على الامور الفائدة ..
وتصرفوا من دون أية حكمة — بسياسة ما ان تعود بعائدة ..
هذا يكايد ذا ، وذاك يكيده — واحسرتاه لاخوة متكايدة !
هل يرجعون عن الضلال ويهجروا (؟) — هذا السباب .. كأخوة متعاضدة ؟
او يحجبون عن العدو عيوبهم — كيلا يبث سمومه ومكايده
هذا بهم أجدى واجدر ، ان همو — حفظوه ، كسّر ذو العداء مصايده
فخذوا النصيحة من محب ناصح — بذل الرشيدة لا يحاول فائدة

الحبيب بو رقيبة

وقال ، وهي تحية وجهها الى الرئيس الحبيب بو رقيبة :

حي «الحبيب» الحبيب التونسي البطلا
وأولِه منك إجلالاً ، فأن له
وارفع له الشكر ، ان الحق أوجبه
قد ناصر الحقَّ لما قلَّ ناصرُه
ولم يجابه شقيقاً مثل إخوته
فيا له من أخٍ برٍّ ، ومن بطلٍ
ان يحسدوه فلا عار ، فقد حسدت
ودم لتونس فخراً ، واحيم حوزتها

ابا رقيبة ، لا تعبأ بمن عذلا !
حقاً على العرب لا يوفى ثناً وعلا
وواجب المرء ان يجزي بما فعلا
وساند الفضل لما أحجم الفضلا !
بل آثر الحق ، ما حابى وما وجلا ..
كان المجلي أمام السادة النبلا
اخوانه يوسف الصدّيق اذ كملا
وناصر الحقّ ، لا تطلب به بدلا !

٣١ – محمد فال البناني

السيد محمد فال ولد البناني احد كرام الموريتانيين الذين أموا المشرق وأقاموا في لبنان بصفة سياسية بعد قيام الجمهورية الاسلامية الموريتانية برتبة « سكرتير اول » لحكومته داخل السفارة الفرنسيـــة في بيروت (٦٠ – ٦١) وكان لنا شرف التعرف على السيد البناني كعربي طيب الذات ، وكصديق وافر الصفات الانسانية .

ويعتبر السيد البناني « موسوعة ادبية » لادب بني قومه من قدماء ومحدثين بما يروي لهم ويحفظ من آثارهم . الا ان حظنا الادبي من وجوده في لبنان طيلة عام أو اكثر لم يكن موفوراً .. ذلك ان لدى البناني مجموعة مختارات لشعراء موريتانيا على جانب عظيم من الاهمية ، ولكننا عندما جاء وقت الافادة منها كان قد أبردها مع حقائبه للتخفف الى موريتانيا ، فلم يبق لنا سوى شعر ابي بكر الفاضلي الذي وجدناه مع ابن اخته الاستاذ محمد باباه الطالب الجامعي في الجامعة اللبنانية يومئذ (كما

سبقت الاشارة الى ذلك اكثر من مرة) .

والسيد البناني شاعر يهتم بالشعر والادب قبل ان يكون « سياسياً » يهتم بالسياسة .. وقد كانت علاقتنا الاخوية به مقتصرة على المعنى الاول لا الثاني ..

الرئيس اللبناني في شعر البناني ..

كان للبنان، ولرئيسه الأمير فؤاد شهاب ورئيس حكومته السيد صائب سلام (يومئذٍ)، حظ الحصول على قلادة شعرية من قلائد البناني. فحين حدثت أزمة ٢٠ تموز عام ١٩٦٠ التي نتجت عن استقالة الرئيس شهاب، وانتهت بعودته عنها نزولاً على ارادة شعبه ، نظم السيد البناني القصيدة التالية وأهداها لفخامته في زيارة خاصة ، وهذه هي القصيدة :

لقد احرزت لبنان[1] كل فخامة | لدن عاد للامر المهم «شهابُها»
فتى كان في افعاله قبل «صائباً» | وحاز « سلاماً » [2] للبلاد انتخابُها
فصار شهاباً ثاقبا عند أمة | وأبعدها من حيث ناح غرابهـــا
وقد اسندوا طوعاً اليه امورهم | فقام بها ، والغير كان يهابهـــا
هنيئاً وبشرى للوزارة كلهـا | بما أحرزت خيراً كثيراً ترابها
بها افتخرت لبنان، وامتدّ صيتها | الى أن علَت فوق الشعوب كعابها
لها اذعنَت قسراً طوائف شعبها | وحازت فخاراً ترتديه هضابها
وعاش بها في العدل كل مواطن | وساغ لمن يهوى الشراب شرابـها
ونالت بها كل المفاخر صيدها | وزان بنات الشعب منها خضابها *

١ – يؤنثون « لبنان » على اعتبار انه اسم بلاد لا اسم قطر ..

٢ – تورية يراد منها مدح رئيس الحكومة السيد صائب سلام (يومئذ) .

* ان بنات الشعب في موريتانيا يتخذن من الحناء خضاباً لايديهن وارجلهن زينة لهن ، ولذلك جاءت هذه الصورة اللبنانية موريتانية !

فذي «موريتان» الاخت تهدي سلامها إليكم ، ويُهدى بعد ذاكم كتابُها
وتأمل منكم ان يؤوب بحُظْوةٍ اذا بُثَّ في الشعب الكريم خطابها
ليحيي « شهاب » الارض ما دام « صائبا »
لشعبٍ وأرضٍ ، كي تصوب سحابهـــا

لقد تعمدنا أن تكون قصيدتك أيها الصديق العزيز ، مسك الختـــام لهذه المجموعة القيمة من الشعر الموريتاني .. وانت تعلم أننا لا نفرّط أبداً باحترام ذاتك الكريمة ، وانزالك المنزلة اللائقة من قلوبنا ومجتمعنا، ونحييك ونحيي بلادك بأحسن مما حيتنا وحييت بلدنا لبنان أرض المحبة الطيبة للناس عموماً والعرب خصوصاً .. وإلى اللقاء !

Call No...........

Account No........... *Date*...........................

J. & K. UNIVERSITY LIBRARY

This book should be returned on or before the last stamped above. An overdue charges of 6 nP. will be levied for each day. The book is kept beyond that day.

الفصل الثامن

المفردة العربية بين الحسانية والفصحى

(نصوص ودراسة)

Call No...........

Account No...........

Date............................

J. & K. UNIVERSITY LIBRARY

This book should be returned on or before the last stamped above. An overdue charges of 6 nP. will be levied for each day. The book is kept beyond that day.

أمثالهم الحسانية

لكل شعب من شعوب الارض « حكمته » التي تصور فلسفته ومنطقه في الحياة ، كائنة ما كانت تلك الفلسفة . اضف إلى ذلك ان الامثال العامية هي ادب العامة ، والشعر الفصيح هو أدب الخاصة حين نريد التقسيم . ثم هي من ناحية أخرى صورة الحياة العقلية الاقليمية عند كل شعب ، وأبجدية اللغة المحلية السائدة لديه وموطن عبقريته إذا تحققت ... والمفردات العامية ، كالحسانية في موريتانيا مثلا ، لا يمكن العثور عليها عثوراً صحيحاً أصيلا في مكان، كما يعثر عليها في مضامين أمثالها المشهورة السائرة في حياتهم اليومية سيرورة الهواء الذين يتنشقون !

وعند الموريتانيين مادة غزيرة من هذه الامثال والحكم التي يضربونها في حياتهم الاجتماعية ، ويستلهمون منها سداد الرأي ومبررات السلوك ..

ولكن سحر هذه الامثال وروعتها لا ينفذان إلا إلى نفس من يسمعها بلهجتهم نفسها — لهجتهم الاقليمية الخاصة — وهي لهجة يتعذر على عرب المشرق فهمها على جليتها ، لأنها « ظل » بعيد من ظلال الفصحى ، غير فصيحة ..

وإذا كان شيء يمثل البيئة الموريتانية ولهجتها العامية الحسانية ، وحياتها الاجتماعية « البيضانية » فهذا الشيء ليس الشعر الفصيح بقدر ما هو هذه الأمثال المطلوقة في أحاديثهم واسمارهم كانطلاقة الابل والغنم في كل ناحية من نواحي أرضهم ..

إنها أدب وحكمة وذكاء وبيئة ، تتجانس بروحها ، مع كثير من بيئاتنا وحياتنا .. وها نحن نضرب منها للناس في المشرق والمغرب هذه الطائفة اليسيرة ، ونحسب أننا نقدم لهم صورة أخرى من آداب القوم في تلك البلاد :

● الَّ بَكَّاهُ عود لاأسكتْ :

الَّ عندهم بمعنى الذي ، واشتقاقها من العربية غير بعيد ، لان ال التي بمعنى الذي توافقها خطأ ، الا ان تلك ساكنة اللام . وصلتها صفة صريحة في الغالب . وتكتب متصلة بما بعدها . واما هذه ، فأن همزها مكسور ، ولامها مشدد مكسور ايضا ، ولا يشترط في صلتها شيء عندهم . العود : معروف ومن عادة اهل موريتانيا اذا قسموا شيئا ان يقترعوا عليه بالعيدان .. والمعنى ان من غاظهُ ما وقعت قرعته عليه لا اسكته الله !

● الَّ ابلا انْفَعْ يِنْدَفعْ :

معنى الفاظه ظاهرة . يضربونه عند مباعدة من لاخير فيه .

● الىَ انْشكِرْت لَك ابْلادْ رتَعْ ابْلادكْ :

انشكرت بمعنى شكرت ، اي اذا وصفت لك بلاد غير بلادك بانها مخصبة ، فلا يزهدك ذلك في بلادك فانهـــا ، اي بـــلادك ، اليق بك . وفي هذا القول من الروح الوطنية ما فيه !

● الَ اذَهبْ بالخير ما ذهب :

هذا يوافق بيت الحطيئة :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس

المعنى ان فعل الخير لا يضيع ، فاما ان يكافيء عليه من ناله ، والا فان الله يجزي به خيرا . يضربونه في الحث على فعل الجميل .

● الـ اخوتُ في الغزَ ما يبتَطْ افلِخْيام :

اخوت بمعنى اخوته ، والغز بمعنى الجيش الغازي ، وما يبتط بمعنى ما يضرب ، والخيام جمع خيمة ، ومعناه ان من علم ان له انصارا ، ولو كانوا غائبين ، يمنعه ذلك من ظلم الناس له .

● الأمْ مامونة لو كانت كابونة :

الام بتسكين الميم ، بمعنى الام . وكابونه (بكاف معقودة مفتوحة ، وبعدها الف وباء مضمومة بعدها ، واو ونون) وهي : انثى الدببة . ويقال لمذكرها كابون ، ومعناه ان الام مامونة على ابنها ، ولو كانت شريرة في نفسها .

● الـ احنَ منْ لُمْ كهانْ :

احن بمعنى أرأف ، والكهان عندهم ، هو الذي يظهر ودا كاذبا فالكهانة عندهم شعوذة . ومعناه ان من اظهر انه أرق من ام الشخص عليه ، فهو كاذب .

● الـ افكَرْشُ لِعظام ما ايْرادس :

ايْرادس ، اي يرافس برجايه ، لان المرافس له يردسه ، اي يرفسه برجله على كرشه ، فيقتله للعظم الموجود في كرشه . ومعناه :

ان من فيه المعايب ، لا ينبغي له ان يعيب الناس . يقابله من امثال المشارقة قولهم : « اللي بيتو من قزاز (زجاج) ما يراشق بالحجار . »

● الّ افالكَدحْ اتراهُ ليْد :

لكدح بمعنى القدح ، الذي يؤكل فيه . واتراه بمعنى تعلم حقيقته . وليد بمعنى اليد . يضربونه عند المبالغة في ذكر ما ستعلم حقيقته ، وهو من قبيل قولنا : شيء ملموس .

● الّ اخط النّص يبلك يطّمص :

النص هو نص المسألة من المتن ، واخط اي لم يصادف ، ويطمص بمعنى لا يهتدى الى صواب . يضربونه لمن يطلب الشيء من غير معرفة لمظانه .

● الّ ادوّرْ عكُل ما اْيخيب لا ايْدوّرْ الّ ما يَصيب

الى ادور ، بمعنى من اراد ، وعكل بمعنى عقله ، ومعنى ما الخيب : اي لا يخيب قصده ، ومعنى لا ايدور ال ما ايصيب : اي لا يطلب ما يستحيل اعطاؤه له . ويوافق هذا قولهم : اذا اردت ان تطاع ، فسل ما يستطاع .

● اتْماب الذيب عن سْرحيتْ لِغنم :

اتماب الذيب : بمعنى تأبيه . وسرحت لغنم : بمعنى رعيها . يضربونه لمن يظهر التأبي عما هو راغب فيه . وهو مثل على النفاق .!

● البل ما تواس العيبْ الّ ايواسيه صاحبها :

البل بمعنى الابل . وما تواس ما تفعل . ومعناه : ان الابل لا

تفعل عيبا ، وانما يفعله مالكها . وذلك اذا سأل احد من احد جملا يركبه . فقال له انه لا يقدر على السير لهزاله .

● الى جَ لِعيطاط من شُورْ الُكدىَ لِهرُوب منْيَن° ؟ :

لعياط بمعنى الصياح ، وعبارة القاموس : والتعيط الجلبة والصياح ، او صياح الاشر . ومن شور : بمعنى من جهة . والكدي بمعنى الكدية بالهاه . ولهروب : الهرب منين : بمعنى من اي جهة ؟ يضربونه عند مجيء الخوف من الجهة التي يلجأ اليها .

● ال َحدْ َحدْ راصُ يو ِغد الى يغاْبُه° :

معناه : من لا يتجاوز نفع نفسه . يوغد : اي يذهب . والى يغلب بمعنى الى ان يغلبه . ورأص : بمعنى راس . وهم يلفظون السين صادا . يضربونه لمن لا ينفع غير نفسه ، بانه سيعجز عنها .

● ال َسبْكك كبرك وال عـُكبك كثرك :

سبكك بمعنى بدأ بك ، وكبرك : جعلك كبير القدر . وال عكباك بمعنى من اخرك . وكثرك : اعطاك اكثر مما قبلك ، اي من ناولك الشرب انت الاول ، فقد عظمك . ومن اخرك فقد كثرك ، لان الاول لا ينبغي له ان يستوفي حصته ، للمنزلة التي نالها ، فيكثر نصيب الباقي .

● الّ أسرَحْ َلك دوّر له :

اسرح لك : بمعنى رعى لك مواشيك . ودور له : بمعنى اطلب له ضالته . يضربونه في مقابلة الاحسان بالاحسان .

● الّ داير لمِهـّاب يِشريها :

ال داير ، بمعنى من يريد . لمهاب : بمعنى مهابة الناس له . المعنى : ان من اراد ان تهابه الناس ، يشترى المهابة منهم . بان لا يفعل ما يكدرهم ليهابوه .

● اْدَخلْ بين َلحَوت يظايكْ اعليكْ :

لحوت : بمعنى الاخوة . ويظايك : اي يتضافرون عليـك . يضربونه لمن اراد ان ينصر احد الاقارب على الاخر ، فانه ان انتصر لاحدهما وضايقه ، يعنه عليه الذي آرزه على اخيه ، وهذا يقرب منه قولهم : لا يملك مولا لمولى نصرا .

● الى َريت اجْمَـَلْ يِنباع افِلحـْار فاعرف ان لِحارأخـِير منهُ

الى : بمعنى اذا . وريت : لغة في رأيت . قـال عمر بن ابـي ربيعة :

صاحِ هل ريت او سمعت براعٍ ردّ في الضرع ما قرى في الحِلاب ؟

الا انها في البيت مفتوحة ، وفي المثل ساكنة . المعنى : اذا رأيت الشيء الثمين في الاصل ، بباع بالشيء الساقط ، فاعلم ان ذلك الحسيس خير منه ، لعلة جعلت صاحبه يبيعه فيه ..

● إشُوفْ الشيخ المتكِ الماشاف اْفكراشْ الواكِفْ :

اشوف . بمعنى يرى . والشيخ « بكسر الشين » بمعنى الشيخ بفتحها ، وهو الكبير . وافكراش : بمعنى الشاب ، وهي عامية محضة ، والواكف : بمعنى الواقف . والمتك : بمعنى المتكيء .

يضربونه في ان الشيخ يرى في حال ضجعته من حقائق الامور ، ما لا يراه الشاب القائم ، لانه اعقل منه ..

● الْ صاب شوّاي ما تتحرك ايدهُ :

ال : بمعنى الذي . وصاب : لغة في اصابه . وشوّاى : فعال من شوى اللحم . وتنحرك : بمعنى تحرق . وايد : بمعنى يده . المعنى ان من وجد من يباشر عنه الامر المتعب ، لا ينبغي له ان يتعب نفسه . وهو قريب من قولهم : اذا رزقك الله مغرفة لا تحرق يدك ..

● ال عظُ لحنْش يخلعُ لحبْل :

ال بمعنى الذي . وعظ : بمعنى عضه . ويخلع : بمعنى يفزعه . ولحبل : بمعنى الحبل . والمعنى ان من اصابه ما يؤلمه ، يفزع بعده مما يشابهه ، ولو كان لا يضر .. من قبيل ذلك مثل اهل المشرق : « المعقوص يخاف من جرة الحبل » ..

● الْ غلبتُ الدّني اكول الآخرجْات

الدنى : بمعنى الدنيا . والاخر : بمعنى الآخرة . وجات : بمعنى جاءت . والمعنى ان من عجز عن تحصيل الدنيا ، اعتذر بقرب مجيء الآخرة . يضرب للمتلكىء الفاشل .

● ال ما ينافقْ ما ايوافقْ :

معناه ان من لم يداهن الناس ، لا توافق طباعه طباعهم . وهذا يتفق مع المثل المشهور في المشرق : وافقْ ، او نافق ، أو اخرج من من البلد .!

● الْ ما يعرْفكْ اتخصّرَكْ :

معناه من لم يعرفك يخسرك اي يعاملك بغير ما انت له أهل .

● الْ ما شاف اْسمَ لا تنعتْولو :

ال : بمعنى الذي كما تقدم . وما شاف : بمعنى ما رأى . واسم : بمعنى السماء ، مقابل الارض . ومعنى لا تنعتوله في اصطلاحهم : لا تره اياه . يضربونه في ان من لم يعرف الواضح الذي لا يُجهَل ، لا ينبغي ان يُدلّ عليه ، لانه لا يكون الا متجاهلا او غبيا .! وهذا شبيه بقول القائل :

تريد على مكارمنا دليلاً ؟ متى احتاج النهار إلى دليل ؟

● الْ مرْ ليلُ مَرْ كْلبُه :

ال مر : بمعنى الذي ذهب . وليل : معنى شيئه . وكلبه : بمعنى قلبه أي عقله . ومعناه ان من ذهب ماله ، ذهب عقله ايضاً ، فلا يلام على تهمة البريء .

● ال ما خلّ الطلْبَ يجاْبرُ عَل اْلفايتاتْ :

ال ماخل : بمعنى الذي لم يترك . والطاب : تشمل قسماً من قبائل موريتانيا . ويقال لهم الزوايا . وعل : بمعنى التحدث مرة بعد اخرى والفايتات : بمعنى المسائل التى فاتت ، يعنون ما فات من الوقائع ، وهذا المثل صحيح لان الزوايا لا يزول ما وقع بينهم من العداوة ، للتحدث به دائما ، اما حسان : فان الفتنة فيهم متى طفئت ينسونها .

● إلحَكْ مُرْ افلوِذن:

الحك : بمعنى الحق . ومر : ضد حلو . ولوذن : بمعنى الاذن . وهذا يوافق قول عمر رضي الله عنه : ما ترك قول الحق لعمرٍ من صديق !

● ال يِتوَلْ فُم اسْبَع مُولَ التّافكّيتْ :

يتول : بمعنى يتولى . وفم : بضم الفاء لغة في مفتوحها . واسبع : بمعنى السبع . ومول : بضم الميم ، بمعنى مولى بفتحها ، وهو المالك . والتافكيت : بمعنى التبعية من البقر . يضربونه في ان مالك الشيء أحق بالمخاطرة بنفسه من غيره ، ممن يعينه على خلاصه .

● ال ما يِحمِدْ القليل ما يِحمد الكثير :

يحمد : بكسر الياء والميم ، بمعنى يحمد بفتحها ، ومعناه ظاهر . يضربونه في الحث على الاعتراف بالجميل .

● الشيبْ ما يِحمل العيب :

معناه ظاهر ، ويقرب منه قول القائل :

نَزِّهْ مشيبكَ عن شيءٍ يدنّسهُ إنَّ البياضَ قليلُ الحمْلِ للدَّنَسِ!

● الّ فيه وحْدَه ما تمْركَه :

وحده : أي واحدة ، والمراد بها الغريزة . وما تمركه : ما تخرج منه . معناه ان من فطر على سجية ، لا بد ان تعود اليه مرة . يضربونه اذا ظهرت مسألة متأصلة في طبع الشخص ، بعد ان اظهر التخلي عنها.

● الى كذْبَك إيشير ردّْ لخبار :

ايشير عندهم : بمعنى الصبي . ولخبار : بمعنى الخبر . والمعنى :

اذا كذبك الصبي فيما تقول ، فدعه يتكلم بما يعلم . فانه سيصدقك وهذا قريب من قولهم : صدقني سن بكره .

● ال ماهُ في الصُّراك ما تخلعُ الكصَّاصة :

الصراك : بمعنى السراق جمع سارق . وما تخلع : بمعنى ما تفزعه. والكصاصة : ورقة الحكومة (الجلب) مع الذين يقتفون الاثر ، من الشرطة : مأخوذ من قص الاثر : اي اقتفاه . ومعناه : ان من يعلم من نفسه انه غير سارق ، لا يفجعه من ينقّب عن السُّراق ويقتفي أثرهم .

● ال اطْرح دبوس تنكبظ لهُ :

ال : بمعنى الذي . واطرح : بمعنى وضع . والدبوس العصى ؛ وتنكبظ له: بمعنى تقبض له. ويضرب بها . المعنى ان من القى سلاحه، فأنه سيضربه الناس به .

● ال مِدَّرَّك بالأيام عَريان :

اي الذي استتر بالايام عريان — بفتح العين — بمعنى عريان، بضمها. معناه ان من استتر عن غريمه أو عدوه بالايام ، فأنه سيعرى ويؤخذ .

● إمنين راحتْ الكارَّه اتروح اجارَّه :

امنين : بمعنى الى اي محل . والكارة : الرفقة المُجِدَّة في سيرها . واجارة : أي التي تمشي على مهل . يضربونه في ان ما يبلغ بالجد ، يبلغ بالتؤدة ، ويقرب منه قولهم : يبلغ الخضم بالقضم .

● ال ما اصبر نوب ايعود الدهر عليه نوبات :

النوبة بمعنى البرهة من الزمن . وهي على حذف مضاف ، أي ضيق نوبة ، ويعود : بمعنى يصير . وتقدم ان عاد كصار معنىً وعملاً . ونوبات : جمع نوبة . معناه ان من لم يصبر ضيق نوبة ، وجعل يتورط في ازالتها بما لا يقدر عليه يصير الزمن كله ضيقاً عليه .

● ال ما يحلب بيدُ ما يبياظ اخديدُو :

يحلب : من حلب الدابة ، وايد : بمعنى يده . ويبياظ : بمعنى يبيض . واخديدو ، تصغير خده ، وبالتصغير العامي . ومعناه : ان من لم يباشر اموره بنفسه لا يستريح ، وقريب منه قول بعضهم .

ما حك جلدك مثل ظفرك فتولَّ انت جميع امرك

● ال ما يعرف لغرامة اتوحله :

لغرامة عندهم : تقال للمكس المقرر ، وهي عربية . واتوحله : أي توحله (تجعله في الوحل) بيان عن الوقوع في الورطة ... يضربونه في ان من لم يتعود الامور الشاقة ، يتعبه تعاطيها ..

● الّ عظّك ما عظّيتُ كول انّك ابلا سنّين :

ال : بمعنى الذي. وعظك : بمعنى عضك . وعظيت : اي ما عضضته . وكول : بمعنى قل . وانك بمعنى انك . وابلاسنين : اي لا اسنان لك . معناه ان من آذاك ولم تؤذه ، فلا تدع انك صفحت عنه ، بل قل انك عاجز عنه. !

● الّ وصّاك اعل امّك حكرك :

حكرك : بمعنى حقرك . يضربه الشخص اذا وصاه شخص بالاعتناء بمن لا يسعه اهمال امره ...

● ابلّد مانك لاه اتناسب فيه جر اكساتك :

ابلد : بمعنى بلد ، ومانك لاه اتناسب فيه : أي لا تريد ان تصاهر فيه . وجر : اسحب . واكساتك : اي كساءك . معناه اذا كنت في ارض لا يعرفك اهلها ، ولا تريد ان تقيم بينهم ، فلا تبال بما فعلت ، ويقرب من هذا قول الشاعر :

اذا كنت في قوم عدى لست منهم فكل ما اشتهيت من خبيث وطيب..

● جَ ايطب اكلَعْ عين :

ج : بمعنى جاء . وايطب : يداويه . واكلع : بمعنى قلع ، أي نزع عينه . يضرب فيمن تصدى لنفع الشخص فأضر به . وشبيه بهذا المعنى مثل مشرقي يقول : (اجا حتى يكحلها عماها) .!

● حُفْرت الاعمَ :

الحفرة : معروفة : والاعم : اصله الاعمى . يضربونه فيمن لا يضع اموره في مواضعها ، كما ان الاعمى يحفر حفرة ، ويتفل في غيرها ، ويواري غير بصاقه ، وقريب منه قول الشاعر :

اقول له زيداً ، فيسمع خالداً ويكتبه عمرا ويقرأه بكرا ..

● حمْل اجماعَ ريش :

الحمل : ما يحمل . واجماع : بمعنى الجماعة . وريش : بمعنى خفيف ،

لأن الريش يكون كذلك . يضربونه في تهوين الامور المتعاون عليها من الجميع .

● حسّان يدْخِل بالشّور ايمرك ـحتّه :

حسان : اسم قبيلة معروفة في موريتانيا ، ويدخل ، اصله : يدخلون. بالشور : اي برفق . ويمرك حته : أي يخرجون بشدة . ومن عادة حسان ، انهم اذا أرادوا معاملة الزوايا ، ان يلينوا لهم الكلام ، حتى تحكم العقود ، فاذا حان وقت التقاضي ، يعاملونهم بكل صعوبة. يضربونه لكل من يتساهل أولاً ، ثم يشدد أخيراً .

● خُظ المَ ايجيك الطّين :

خظ : اصله خضّ . والم : أصله الماء ، وايجيك : اصله يجيئك ، والطين معروف . يضربونه فيمن ان حادثته بما لا يشتهي تثير كدره ..

● خيْره اذكَر :

يقولون فلان خيره ذكَر ، والذكر لا يولد . يضربون لمن إحسانه لا يولد شكراً ..

● خيل ما اتردْ خيَل ماه احْرار :

معناه : ان الخيل الوضيعة لا يمكن ان تسترد خيلا ليست (ماه) من عتاق الخيل (أحرار). يضربونه لمن لا يفوق احسانه ، احسان من بدأه به قبل .

● الدهـر يولد ابلا أظـرع :

اظرع : أي ضرع . معناه ان حوادث الدهر تطرق من غير مقدمات

تدل عليها ، بخلاف الدابة مثلاً ، فان ولادتها تتقدمها علامة بكبر ضرعها ونحوه . يضربونه في طروق الحادثات بغتة .

● دوّر لِكبيرة باش انصيب اسغيرَه :

دور : بمعنى اطلب . ولكبيره : صفة للمحذوف . أي المسألة الكبيرة . باش بمعنى لاجل . واسغيره : بمعنى الصغيرة، صفة لمحذوف أيضاً . يضربونه فيمن يشتط في تعظيم الشيء المطلوب له ، ليحصل على أقل منه .

● ذِروت الحاشِ وجودت الّ ابلاش :

الذروة بالكسر والضم : السنام . والحاشي : الصغير من الابل . والجودة : مصدر جاد . وال : بمعنى الذي . وابلاش : أي بلا شيء . معناه ان سمن الصغير من الابل ، لا فائدة فيه . وجودة الفقير ، لا فائدة فيها أيضاً لأنها تكون تافهة .

● زهُو الدّنَى اشكاها :

الزهو : بمعنى الحسن . والدنى : بمعنى الدنيا . واشكاها (بكاف معقودة) : بمعنى تعبها . يوافق هذا المعنى قول الشاعر :

لا تجتنى راحة الا على تعب ولا ينال العلى الا على الهون
فصاحب العقل في الدنيا اخو كَدَرٍ وانما الصفوُ منها للمجانين !

● اشرِ يوم اتبيع

اشر : بمعنى اشتر ، ويوم اتبيع : أي لا تشتر شيئاً ، الا اذا اردت بيعه من اشترى منك ، وقد أورد بعض أهل موريتانيا هذا المثل

مورداً ظريفاً ،وذلك ان اللصوص من حسان،قد يتمكنون من عدوهم ، فيوقفونه على الزوايا ليشتروا منه ، ويخلوا سبيله؛فان لم يفعلوا ذلك ، يعادهم أهل الاسير .. فاتفق ان أحد اللصوص أخذ بعض أعدائه ،وكان ذلك الاسير شريراً ، فعرضه للبيع ، فقال بعضهم المثل ، وهذا مأخوذ من قول العرب : اذا اشتريت فاذكر السوق !

● اشهابْ ما يولَد الّ اجْمَر :

اشهاب : بمعنى الشهاب . وما يولد : بمعنى لا يلد . ال أجمر : بمعنى الا الجمر . يضربونه في ان الاب الشرير ، لا يلد الا من هو شرٌ منه .

● الشوف ما يملَ الجوف :

الشوف : بمعنى النظر . وما يمل : بمعنى لا يملأ والجوف معروف، يضربونه ، في ان نظر الانسان الى ما لا يقدر عليه لا فائدة فيه .

● العافيَ ما تنعملْ عاده :

العافي : بمعنى العافية ، وما تنعمل : ما تجعل ، والعادة معروفة . يضربونه في عدم الاغترار بالعافية .

● عبد ماهُ عبدك حرٌ كيفك :

كيفك : بمعنى مثلك . معناه ان الانسان لا ينبغي له ان يتعاظم على خَوَل غيره ، لأنهم لا يحترمونه كما يحترمون سيدهم .

● عظمك من شاتك فوك دَ دْبشَك :

العظم معروف ، وفوك : بمعـنى فوق والدبش : اثاث البيت ، معناه ان من ذبح شاة فأعطى جيرانه منها عظماً . فأنهم يردون اليـه مثله ان ذبحوا . يضربونه في ان الانسان يجازى بما يعامـل به الناس ، وهو موافق لقولهم : ان الايادي قروض .

● عَيْبَ الدار أَعْلَ من ابكَ فيها :

الدار : المنزل ، واعل : بمعنى على ، ومن : بمعـنى الذي ، وبك : بمعنى بقي . ومعناه ان اللوم انما يكون فيمن اخلف الشخص في موضعه ، فقصر عن أفعاله ، مثل ان يخلف رئيس رئيساً . فيقصر عن مداه يقال : ان محمد فال بن عمير الترّوزي ، لما قتله ابراهيم والد ابن اعمر بن المختار ، وابراهيم والد هذا ، اخو محمد لحبيب امـير الترارزة ، قال قبل خروج روحه لشخص : « سلم على اخي فلان ، وقل له : عيب الدار اعل من ابك فيها » . فلما بلغه ذلك ، قال له : قل ذلك لأخي هدّى ، أما انا فاست باقياً ، وسأموت في اول وقعة بيننا وبين قاتليه ، فكان الامر كما قال !

● فحلين ما ينهدّ افدَوْله :

فحلين تثنية فحل ، ومعناه الرفع على الابتداء ، الا انهم أوردوه منصوباً ، وما ينهد : اي لا يتخذان للفحالة . والدولة : بمعنى الابل الكثيرة ، يضربونه في انه لا يصح وجود رئيسين في وقت واحـد ، ويعقبون عليه بقوله تعالى : « ولو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا » ..

● كِلْمِيت كَوري :

كلمت : بمعنى كلمة . وكوري : واحد لكور ، وهم السودان .

يقال : ان الكوري لا يرضى بتبديل قوله. يضربون المثل فيمن لا يغير خطته . ولو الى أحسن منها ..

● إلْسان اْخريف والفعل امصيفْ :

السان : بمعنى اللسان ، ومعناه : القول في هذا الموضع . واخريف: أي مخصب ، وامصيف : بمعنى جدب ، والخريف عندهم ، بمعنى اخضرار الارض ، وكثرة اللبن ، ولذلك يقولون البلد الفلاني امحرّف ، أي مخضّر ، والبلد الفلاني صيف : أي جدب . يضربونه فيمن يعد بالجميل ولا ينجز ، وفيمن يظهر الصداقة ، ويبطن خلاف ذلك . وهو من أطرف الأمثلة . ويقابله عندنا المثل : (اسمع تفرح ، جرب تحزن) ..

● لِمحالِ مَن يتّنكُر حَسبَهْ :

لمحال : بمعنى اللئيم . وينكر ، بفتح المثناة : بمعنى مضمونهـا : وحسبه . بمعنى نسبه . يضربونه فيمن يخفى نسبه أو يتنكر لقومه .

● لمخاْطمة أكثر من لِملاْطمة:

لمخاطمة : بمعنى التي تفوت . يقولون : خطمه ، أي فاته ، ولم يصادفه ، ويعنون بالمخاطمة : القافلة التي تفوت قطاع الطريق . والملاطمه، أي التي تصادف القطاع . وهذا يوافق قولهم : طرق السلامة اكثر .

● لا اتوص اليتيم اعلَ كُبر اللكْمة :

لا اتوص : أي لا توص . واليتيم : من الآدميين : من مات ابوه . والكجى : الذي ماتت امه . واللطيم : الذي مات ابواه . وكبر اللكمه: اي عظم اللقمة . ويقرب من هذا قولهم : ان العوان لا تعلم الخمرة .

يضربونه في عدم تعليم الخبير بالشيء المتصدى له .

● لا عَجَلَه عن اصلاح :

اصلاح : بمعنى الاصلاح ، يضربونه في ان البطء لا يضجر ما دام الحال لا يقتضيه .

● لا ايموتْ لِعجِلْ ألا تيبس التَّاديت :

لا ايموت : اصله لا يمت ، لان لا ناهية ، والفعل مجزوم . والعجل : معروف . وتيبس : بكسر التاء . معناه : تيبس بفتحها . والتاديت : آنية من الخشب يحلبون فيها البقر. يضربونه في التوسط في الامور ، واعطاء كل ذي حق حقه . ونظيره في المشرق (لا يموت الذئب ولا يفنى الغنم) .

● اللحْمه الى خنزتْ ما يحملها الّ صاحبها :

اللحمة معروفة . والى : بمعنى التي . وخنزت : تغيرت رائحتها ، أصله خنزت « بفتح الخاء وسكون النون » . والّ : بمعنى الا . معناه : ان الانسان اذا اصابه مرض أو مصيبة ، لا يشفق عليه الا قريبه. يضربونه في الحث على الاحسان والعطف على القريب ، ولو ان هذا القريب واجد عليه . وكذلك يضرب في الحض على المروءة .

● لحمار الى امشّ مع الحمارا يعلم اشهيك ولّ أنهيك :

لحمار : بمعنى الحمار . والى امش : أي الذي مشى . واشهيك بمعنى الشهيق . وانهيك : بمعنى النهيق وقد عقد النابغة الغلاوي هذا المثل في قوله من نظم له :

اذا الحمار بالحمار سيقا علمه الشهيق والنهيقا !

يضربونه في التحذير من مغاشرة من لا يرضى طبعه ولا دينه، خوفاً من سريانهما ..

● ما يَوْكَل اجيف غير يشرب من ماها :

ما يوكل : أي ما يأكل ، والضمير يرجع على من يحدث عنه ؛ واجيف : بمعنى الجيفة ، أي الميتة . وماها : أي ماؤها الذي تطبخ فيه . يضربونه فيمن يزعم انه لا يفعل الشيء بذاته ، ثم إنــه يفعله بطريقة اخرى ابلغ مما لو فعله مباشرة ..

● أوكَلْ من لَرْظَــه :

اوكل : أصله آكل . أي أكثر أكلاً . والأرظة : بمعنى الارضه، وهي دويبة معروفة . وهو قريب من قولهم : آكل من السوس .

● هينَ عيشت الّ ما ايدوّر أشَحَم :

هين : سهلة . وعيشة الانسان : عيشه . وال : بمعنى الذي . وما ايدور : أي ما يطلب . والشحم : السمن . معناه : ان عيشة من لم يطلب الرفاهية سهلة .

● يحرك ام اسبَع في اكْفاه :

يحرك : بمعنى يحرق . وام اسبع : امه . وهذه كلمة يقولها الذي يريد اغاظة الشخص عندهم . يقول له : يحرق ام البعيد ، كما يقول المشارقة : يا ابن الفاعلة . وفي اكفاه : بمعنى في غيابه . يضربونه في الاستهانة بما يقوله الشخص في غيبة الآخر ، كما ان السبع يقدر كل أحد على شتمه ، ان كان غائباً ..

● إيدْ تسبِّح وايدْ اتذبِّح :

ايد : بمعنى يد . واتسبح : أي تسبــح الله في المسبحة . وايــد اتذبح : أي تذبح . يضربونه فيمن يظهر النسك ، وافعاله الباطنة على خلاف ذلك .. يحكــى عن ابدَّابَ بن بنيوك ، احد ادوعيش ، وهو قريب من عصر صاحب الوسيط . كان يتعرض القوافـل في عصابة من قومه ، وكان لا يتكلم قبـل طلوع الشمس . فاذا لقوا في ذلك الوقت قافلة . يقول سبحان الله ، بمعنى خذوا جميع ما عندهم . ! !

● ايدْ التاجِر ما اتشك لبنتُه :

ايد : بمعنى يد . وما اتشك لبنته : أي لا تشقها . ومعناه : ان يد التاجر لا يؤذيه بسطها بالعطية ، لأنها كالمداراة عنه . يضربونه عند الحث على اعطاء من يخاف شره ، ليسكنه ذلك .

● اليد الَّ ما صبتْ تكطَع حبها :

اليد : معروفة . وال : بمعنى التي . وما صبت : أي ما قدرت . وتكطع : بمعنى تقطع وحبها : أي قبلها وهذا المثل حل لبيت الامام الشافعي رحمه الله :

وكم من يدٍ قبلتها عن ضرورة وكان مرادي قطعها لو أُمكِّنَ !

وهذا يوافق المثل المشهور عند المشارقة : (اليد اللي ما فيك تعضها بوسها وادع عليها بالكسر) ..

● يكَـلعْ من الحَفيان انعَّاياه :

يكلع : اي يغضب . والحفيان : الذي لا نعــال له . وانعايله :

بمعنى نعليه . يضربونه فيمن يطمع في غير مطمع . ومثله عند المشارقة (يجني عن المسن) . ومعلوم ان المسن يجني عن الحديد . !

امثال فصيحه

ونورد في ختام هذه الأمثلة الحسانية بعض الأمثلة الفصيحة عندهم :

- سِرْ إلى الأمام كأنك البعير الأول في القافلة !
- سِر إلى مراعيك ، وان اشادوا أمامك بمراعي الغير !
- الانسان ابن زمانه .
- لا تُكثر من الماء انت يا من يُعدّ الشاي .. إسمع نصيحتي ، فان انت اكثرت من الماء اعرض الناس عنك !
- اتبع أقصر السبل وأقومها ، ولو مرّت بقمم الجبال !
- من أراد ان يخشاه الناس لا يستضعف إلا امام الله !

اشارة :

مصدرنا لهذه الأمثلة الحكَمية الحسانية كتاب الوسيط ، ومحفوظاتنا المدونة يوم كنا عندهم .

من وحي اللهجة الحسانية

(بحث ودراسة)

بالنسبة الى عامل الزمان ، وكذلك عامل المكان ، فكل سكان الأقطار العربية من لبنانيين وسوريين ، ومصريين وعراقيين وحجازيين ، وموريتانيين ، يتكلمون اللغة العربية ويكتبونها ، ولكن ما أشد الفروق بينهم ، فقد عملت بيئة كل قطر عملاً خاصاً في حناجرهم ، وفي الفاظهم التي استقوها من العرب الذين نزلوا بهم ، وطريق ادائهم لهذه الألفاظ ، وغير ذلك من العوامل المكانية .

كل هذا من اختلاف عوامل الزمان والمكان يحتاج الى دراسة دقيقة جداً ... وقد تنبه المحدثون الى أهمية هذه العوامل ، فأنشأوا معاهد للأبحاث اللغوية ، بعضها يسجل اختلاف اللهجات ، وبعضها يتجه الى رسم خرائط تبين كيف تعبر كل بلدة عن المعنى الواحد بألفاظ مختلفة . وحتى ان اتحدت في الألفاظ ، فكيف تعبر عنها مع اختلاف النطق بها ، ونحو ذلك ، كما هي الحال مع اللهجة الحسانية في موريتانيا ؟

ويأتي علماء الأجتماع بعد ، فيستنتجون ، من دلائل هذه الاتفاقات والاختلافات ، القوانين على اتحاد الأصول ان أتحدت ، واختلافها اذا

اختلفت وهكذا ..

كما عني بعض المستشرقين بدراسة بعض اللهجات العربية ، فاتجهوا مثلاً الى قبيلة (هذيل) ودرسوا اشعار الهذليين ، بما يمتازون بألفاظهم وبعض معانيهم عن القبائل الأخرى .

فما كان أحوجنا الى بحث دقيق ، يبين لنا تطور الأساليب في اللغة العربية واللهجات في الأزمنة المختلفة والأمكنة المختلفة ، والعوامل التي عملت في هذا التطور من بيئات طبيعية ، أو بيئات اجتماعية . فهـذا يفيدنا من ناحية في وقوفنا على هذا التغير ، ومن ناحية على العوامل التي تعمل فيه حتى نضع أيدينا عليها فنقويها أو نضعفها .

العربية بين المد والجزر

لم يحدث حدث في تاريخ اللغة العربية أبعد أثراً في تقرير مصيرها من ظهور الاسلام . ففي ذلك العهد – قبل اكثر من ١٣٠٠ عام – عندما رتل محمد صلى الله عليه وسلم القرآن على بني وطنه بلسان عربي مبين ، وتأكدت رابطة وثيقة بين لغتـه والدين الجديـد ، كانت ذات دلالة عظيمة النتائج في مستقبل هذه اللغة . ولا ينحصر هـذا في المقام الذي أخذته العربية منذ ذلك الوقت في العالم الاسلامي كافة ؛ من حيث صارت لغة الدين والحضارة على الاطلاق . بل يتجاوزه بمقدار أعظم الى النتائج التي تركتها غزوات الفتح على أيدي عـرب البوادي تحت راية الاسلام في لغتهم . وبذلك صارت العربية لغة الطبقات السائـدة الموجهة في دولة ، سرعان ما امتدت رقعتها – في اوج اتساعها وانتشارها بعد سنة ٧٠٠ م – من اسبانيا غرباً ، الى أواسط آسيا نحو المشرق . وقد زحفت العربية مع الفاتحين البداة ، فاستقرت في بعض الاقاليم ومنهـا موريتانيا ، واضطرت الى الانسحاب من بعض آخر ، كما كانت هناك

مناطق استعاض سكانها الاصليون من العربية إحياء ما يلي من لهجاتهم – كالحسانية مثلا – واخيراً بقيت فيها العربية لغة العلم المعتمدة فحسب. ولم يقحم سقوط الدولة العربية (الأموية) سنة ٧٥٠ م لغة العرب في الاضمحلال والانحلال ، بل لقد شهد عصر النور في اوائل الدولة العباسية اقصى درجات العناية بالقواعد العربية ، ثم شهد على اثر ذلك مباشرة العصر الذهبي للأدب العربي، كما ان انحلال الدولة العباسية الى دويلات عديدة مستقلة – ذلك الانحلال الذي اخذ نهايته في سنة ٩٣٥م، لم يزعزع من مكانة العربية ، التي ربطت اذ ذاك جميع اقطار المدنية الاسلامية ، على انها اللغة الأصيلة للعلم والأدب برباط جامع وثيق. حقاً لقد رفع العصر السلجوقي بالقطر الاسلامي الشرقي من شأن اللغة الفارسية الحديثة ، فجعلها لسان سدة الملك ، ولغة السياسة الدولية (الديبلوماسية) ، وترجمان الثقافة العالية ، والأدب الرفيع . على حين انه اعترف بالعربية فقط من حيث هي لغة الدين والفلسفة الكلامية ، كما ان الأحداث السياسية قد رفعت مصر الى ان تتبوأ مكانة الرياسة بين البلدان الناطقة بالضاد ، بعد الحروب الصليبية وهجوم المغول ، مكانة عرف وادي النيل كيف يحتفظ بها الى هذا اليوم ، بيد ان مقام العربية باعتبارها اللغة المعتمدة للعلم والادب ، قد بقي حتى هذا العصر الحديث ثابت الاركان ، وطيد الدعائم ، ولم يجرؤ الا بعض دعاة الاصلاح الاسلاميين على توجيه نقدهم اليوم – دون جدوى – الى عقيدة اللغة العربية الفصحى !

هذه العقيدة التي جعلت من العربية الفصحى نموذجاً مفروضاً، ومثلاً أعلى يقتضيه كل كاتب عربي ، جعلت من العسير بمكان ان نحصل على صورة واضحة للنمو والتطور الذي اخذته العربية، ككل لغة حية ، في مدة تربو على ثلاثمائة والف عام . ولقد تكفلت القواعد التي وضعها النحاة العرب في جهد لا يعرف الكلل ، وتضحية جديرة بالاعجاب ،

بعرض اللغة الفصحى، وتصويرها في جميع مظاهرها، من ناحية الاصوات، والصيغ، وتركيب الجمل، ومعاني المفردات على صورة محيطة شاملة، حتى بلغت كتب القواعد الاساسية عندهم مستوى من الكمال لا يسمح بزيادة لمستزيد..

ولما كانت علامات الاعراب هذه قد تلاشت منذ اجيال تفوق الحصر في جميع العالم العربي، سواء على لسان عامة الشعب، في القرى والمدن، أم في شتى اساليب الكلام الجاري على ألسنة الطبقات المثقفة، بل في لهجات البدو انفسهم، فقد صار التصرف بالاعراب هو الفارق الذي يميز عند المثقفين من العرب بين العربية الفصحى، وجميع القوالب والأساليب المولدة، حتى اللهجات الدارجة، واللغات العامية المحلية كالحسانية في موريتانيا.

لقد احتفظت العربية الفصحى، في ظاهرة التصرف الاعرابي بسمة من اقدم السمات اللغوية التي فقدتها جميع اللغات السامية — باستثناء البابلية القديمة — قبل عصر نموها وازدهارها الأدبي. وقد احتدم النزاع حول غاية بقاء هذا التصرف الاعرابي في لغة التخاطب الحي. فأشعار عرب البادية — من قبل العهد الاسلامي ومن بعده — ترينا علامات الاعراب مطردة كاملة السلطان. كما ان الحقيقة الثابتة من ان النحويين واللغويين الاسلاميين كانوا — حتى القرن الرابع الهجري والعاشر الميلادي على الأقل — يختلفون الى عرب البادية ليدرسوا لغتهم. وتدل هذه الحقيقة على ان التصرف الاعرابي كان بالغاً أشده لذلك العهد. بل لا نزال حتى اليوم نجد في بعض البقايا الجامدة من لهجات العرب البداة ظواهر الاعراب.

هجرة اللغة مع غزوات الفتح!

كانت هجرة القبائل العربية، عقب وفاة محمد (صلى الله عليه

وسلم) سنة ١١ هـ ٦٣٢ م ، ايذاناً بشروق عصر جديد للغة العربية . ففي مدة عشرات من السنين حملت قبائل البادية ، في غزوات الفتح ، لهجاتها نحو الشمال الى فلسطين وسوريا وما بين النهرين ، حتى جبل طوروس وجبال أرمينية ونحو الشرق عبر العراق ، الى ايران ، ونحو الغرب ، عبر شبه جزيرة سيناء ، الى مصر وشمال افريقيا ، وغربها ، ولم تكد تمضي مائة عام على وفاة محمد (عليه السلام) حتى امتدت الدولة الى سفوح البرانس في المغرب ، والى أواسط آسيا على شواطىء نهر الهند في المشرق . وهذا النفوذ الذي بلغته اللغة العربية ، الى مناطق كانت تستوطنها لغات اخرى ، لم يكن ليمر عليها دون تأثير أو تغيير ، مهما اختلفت نتائج هذه العلاقات الجديدة ، حسب اختلاف الأحوال ، في مظاهرها وظواهرها . ولقد احتفظ كثير من القبائل البدوية أيضاً في البلدان التي استولت عليها ، بطريقة حياتها البدوية ، وحافظت بذلك على سلامة لهجاتها وخلوصها . ولهذا كان لا يزال ممكناً في اوائل العهد العباسي ، أن يلاقى المرء من جنوب البرتغال في المغرب ، الى خراسان في الشرق ، قبائل عربية ،وان يسمع من افواهها عربية بدوية خالصة ، لا تشوبها هجنة ولا عجمة . ومن جانب آخر ،لقد أدى عهد الفتح الى بث روح من القوة في صميم العربية ، والى توحيد لهجات البدويين أنفسهم . فعلى غرار البدويين من غير العرب ، كقبائل الترك مثلاً ، لم تكن لهجات القبائل البدوية بالجزيرة العربية بعيدة الأختلاف من الوجهة اللغوية بحيث لا يمكن التفاهم ، حتى بين القبائل المتباعدة بعضها عن بعض في السكنى والجوار ، اذ ان اغلب الفروق — فيما يظهر — كانت ترجع الى طبيعة اختلاف الأصوات ، والقوالب والمفردات ، او على الاقل هذه هي الفروق التي لفتت انظار النحاة واللغويين الاسلاميين ، الذين نعتمد على اخبارهم وحدها في معارفنا عن اللهجات البدوية .

ومن تلك الفروق مثلاً : العنعنة ، اي ابدال العين من الهمزة :

والكسكسة ، وشبيهتها الكشكشة ، اي ابدال السين أو الشين من الكاف ، والتلتلة ، أي كسر حرف المضارعة والعجعجة ، أي قلب الياء المشدودة جيماً في النسبة . وأخيراً الأمثلة التي لا حصر لها من استعمال لفظ عند قبيلة في صيغة تخالف صيغته عند أخرى ، أو بمعنى يختلف قليلاً ، كما هي الحال في اللهجة الحسانية عند الموريتانيين . فهذه الخصائص القبلية الراجعة الى اللهجات المحلية ، قد صقلت الى حد بعيد في عهد الفتوحات التي وجدت القادرين على حمل السلاح من مختلف القبائل في سبيل التعاون في الجهاد . يضاف الى ذلك ان السياسة الواسعة الأفق ، التي امتاز بها الخليفة الثاني عمر العبقري مؤسس الدولة العالمية الأسلامية (حكم ١٣ – ٦٣٥ – ٢٣ – ٦٤٤) قامت بقسط لا يستهان به في سبيل توحيد اللغة . وانشاء لسان مشترك بين قبائل البدو جميعا ، كما حفظت العربية من الاضمحلال والانحلال . فلكي يحفظ عمر العرب من التلاشي في جماهير الشعوب المغلوبة ، التي تفوقهم بكثرة العدد ، حرم عليهم ان يمتلكوا الضياع في الأقاليم الجديدة ، او ان يتخذوها لهم وطناً ومقاما ، كما جعلهم بمعزل عن المدن الكبيرة في البـــدان المفتوحة ، ما عدا سوريا التي كانت استعربت الى حد كبير قبـــل الأسلام بوساطة القبائل العربية التي هاجرت اليهـــا . فأسكنهم في معسكرات من الخيام ، كانت نواة للمدن العظمى في العالم الأسلامي ، التي نشأت في بضـــع عشرات من السنين ، كالبصرة والكوفة ، والفسطاط ، وغيرها . وبينما كانت تقيم هنا مختلف القبائل والعشائر في جوار قريب ، اكتسبت ايضا لهجاتهم قوة وفتوة ، ونشأت لغة بدوية مشتركة ، وضعت الأساس لعربية القرون المتأخرة الفصحى .

* * *

استمرت ممارسة العربية للغات العالم المحيط بها بضعة قرون ، خرجت

منها تدريجا بحصولها الحالي . ففي بادىء الأمر ، قدمت العربية لأقاليم دولة الخلافة مجرد خيوط واهية في شبكة تتألف خيوطها الأساسية من التعبيرات المتعارفة لدى السكان الأصليين . وقد كانت قوة تلك الخيوط العربية موقوفة على قوة الجيوش العربية ، والأمدادات اللاحقة بها ، كما كانت تتناقص بوجه عام كلما ازداد البعد عن الوطن القديم . وقد هاجرت مع قبائل البدو ، الذين فتحت لهم غزوات الفتح مراعي جديدة لم تكن سعتها وعظمتها في حسبان ، لهجاتهم ولحونهم حتى حدود الدولة . وازاء هذا تمسك السكان الأصليون في اول الأمر بلهجاتهم البالية ؛ فقد كان الفلاحون ، الذين يسميهم الكتاب المسلمون بالانباط ، والذين كانوا يؤلفون في المنطقة اللغوية الآرامية جمهور السكان الزراع ، ينطقون اللهجات الآرامية . وامثال هؤلاء النبط كانوا يوجدون في سوريا ، على الرغم من ان هذا الأقليم كان قد شهد هجرة عربية قومية قبل الأسلام وفيما بين النهرين ، وفي الأرض الزراعية الخصيبة من سواد العراق . وكذلك في المدن لم تتغير العلاقات اللغوية الا بمقدار الزيادة التي اضافتها العربية الجديدة الى ما فيهـا من تعدد الألسنة . وفي اي صورة من البطء اخذت العلاقات تتغير ؟ يدل على ذلك الحقيقة الثابتة ، من ان اللغة اليونانية في غربي الدولة ، والفارسية في شرقيها ، ظلتا قرنا كاملا لسان الحكم والأدارة . وحتى في المدن الناشئة في مواضع المعسكرات العربية ، كالبصرة والكوفة ، كان سيل العناصر الأيرانية من القوة بحيث كانت اللغة الفارسية تحتل مكان الصدارة في القرن الأول . ففي البصرة كانت اسماء الأمكنة المنسوبة الى الأشخاص تختتم عادة بمقطع ، « آن » . وهكذا كانت تسمى القطائع الكثيرة بأسماء اصحابها ، مثل : مهلبان (نسبة إلى أبي المهلب) اميتان (نسبة الى ابى امية) ، جعفران (نسبة الى ام جعفر) ، عبيد الرحانان . ويوجد بين اسماء القنوات الهامة بالبصرة صيغ ، مثل :

خالدان ، واشهر الأمثلة من هذا النوع اسم : رباط عبادان الخ ..

***

وفي القرون العسكرية السّاسانية التي انضمت الى الغرب ، بقيت الفارسية لغة الخدمة في الجيش ، على حين كـان بعضهم ولا سيما الزُّط ، والسيابجة ، والأندغار ، يحملون اسماء قبائلهم الهندية ، التي انتظموا منها في الجندية . وكان الفارس منهم يحمل اللقب الفارسي لمرتبته ، وهو : أسرار ، الذي جمعه العرب على اساورة ، ونسبوا اليه : اسواري . وفي هذه الأوساط نشأ عبيد الله بن زياد (حوالي ٣٠ — ٦٧ هـ) الذي صار فيما بعد واليا على العراق ، اذ كانت امه مرجانة (مرغريت) — ويدل الاسم عل ان اصلها غير عربي — قد تزوجت الفارس شيرويه (الشير معناه الأسد) وسمح لها ابوه ، زياد بن ابيه ، ان تحتفظ بطفلها معها ، ونشأ من ذلك ان عبيد الله كان ينطق عربية غير فصيحة ، فيقال انه كان ينطق الهاء بدلا من الحاء ، والكاف بدلا من القاف ، والهاء بدل الحاء ، والهمز بدل العين ، وانه (عبيد الله) قال عن الأرض : است الأرض ، وامر الجنود يوما فقال لهم ، افتحوا (اي سلوا) سيوفكم ، مما دعا ابن مفرغ الشاعر ان يسخر منه بقوله :

ويومٌ فتحت سيفك من بعيد أضعت ، وكل امرك للضياع !

في مصر والمدينة .

وفي مصر ، كانت القبطية هي اللغة التي اصطدمت بها العربية . وقد بقيت لغة الفاتحين هناك ايضا — كما في العراق — مقصورة باديء ذى بدء على المعسكرات ، كالفسطاط قبل كل شيء ، وعلى المناطق

التي اختارتها القبائل العربية ، لتكون مراعي لسوامهم . وكان للحقيقة الثابتة ، من ان اغلب المهاجرين العرب قد تجمعوا من قبائل يمنية الأصل ، اثر حاسم في التطور اللغوي بهذا الأقليم . وقد بقيت اللغة اليونانية بادىء الرأي هي اللغة الرسمية . ولم تدخل العربية في دوائر الأدارة الا في سنة ٨٧ هـ . بيد انها لم تستو على سوقها الا في اوائل القرن الثاني . وقد ظل الجمهور الأعظم من السكان متمسكا بالقبطية ، كما ان النسبة المئوية للأقباط في المدن كانت جد كبيرة . ولكن بينما اثرت الفارسية في عربية العراق تأثيرا بعيد المدى ، وكثرت في اللغة العربية الفصحى الألفاظ الفارسية المعربة بصورة ملحوظة ، كان اثر القبطية في اللهجة العربية جد ضئيل . وقد اراد بعض العلماء ان يعزو اسباب ذلك الى الطابع القبطي ، ولكن بقي علينا ان ننظر فيما اذا كان تعذر كشف اثر اللغة القبطية في عربية التفاهم في اثناء القرنين الأولين راجعا الى طبيعة مصادرنا . فلو ان مصر منيت بكاتب مثل الجاحظ الذي اولع بتصوير مستوى الطبقات الدنيا والوسطى بين سكان المدن في القرن الثاني ، ربما كان افادنا ان العلاقات اللغوية في الفسطاط القديمة لم تختلف كثيرا عنها في البصرة والكوفة . حقا لقد تم تعريب مصر (احتلال العرب لها) بصورة اسرع واعمق من العراق . ففي القرن الثاني كانت قبائل عرب الشمال قد هاجرت اليهـا وفق نظام مرسوم ، كما يبدو ان تكاثر الدخول في الأسلام قد ازداد بقوة في نفس الوقت ، بعد ان كان لا يتقدم في القرن الأول الا في حدود معتدلة ، بحيث رجحت كفة العربية في القرن الثالث ، على حين تراجعت القبطية الى سهول الريف حتى تلاشت تماما في القرن السادس .

وفي المدينة برز ابناء الأماء في النصف الثاني من القرن الأول ،

فقد كان علي زين العابدين (٣٦ — ٩٤ هـ) من حفدة علي ، والقاسم بن محمد من حفدة ابي بكر ، وأخيراً الفقيه الضليع سالم بن محمد (المتوفى ١٠٦ هـ) من حفدة عمر . كان هؤلاء جميعاً غير أكفاء في نظر الولاة، بيد انهم لعبوا دوراً رئيسياً في المجتمع . وكما يرى الأصمعي : اسهموا بقسط عظيم — بوساطة مناقبهم الشخصية — في تغيير رأي المجتمع في أبناء الجواري . بل لقد أمكن في ذلك الوقت حتى في اسرة عريقة في الوثنية ، كأسرة « ابن لهب » الملعون في القرآن ، ان يفخر أحد أعقابها من غير الأكفاء : الفضل بن العباس بن عتبة بن ابي لهب — وكانت جدته حبشية — بانتسابه الى عبد مناف . وقد ظل بيت الخلافة الاموية احرص البيوت ، وأطولها أمداً — بصورة نسبية — في الاحتفاظ بمثل الجاهلية الأعلى من نقاء الدماء ..

اللحون اللغوية

كذلك طبيعة الحياة البدوية : لم تبق بعيدة غير متأثرة بالمؤثرات اللغوية الأجنبية . وهذا هو الحجاج يهدي جريراً ، لأول زيارة له بالعراق ، جارية من الريّ ، ولدت للشاعر كثيراً من الاولاد ، كما تغنى بها في أشعاره . وفي وسعنا ان نثق بالرواية التي تحدثنا عن عيوب في تعبيرها ، مهما تكن الجملة التي قيلت على لسانها مخترعة . وهذا ابن ميادة يقدم لنا مثالاً آخر في الجيل التالي لذلك ، ويعدّه بعض النقدة آخر من يحتج به من شعراء البادية ، وقد أهداه الخليفة الوليد بن يزيد (١٢٥ — ١٢٦ هـ) جارية من طبرستان ، كانت كاملة من جميع الوجوه ، ما عدا لهجتها العربية ، فقال ابن ميادة فيها هذين البيتين الرائعين :

بأهلي ، ما الذّك عند نفسي لوّ انك بالكلام تعرّبينا !
كأنك ظبية مضغت اراكاً بوادي الجزع حين تبغّمينا..!

وفي الثلث الأخير من القرن الأول كان قد اخذ نمو العربية المولدة، التي تكونت من العوائد اللغوية الراجعة الى اللهجة الدارجة في مناطق العربية القديمة ، حداً لم تتوقف فيه الاخطاء اللغوية عن الظهور ، حتى في الدوائر الاولى من المجتمع العربي . لقد صار منذ زمن طويل غير مفهوم بطبيعة الحال ان يتعلم أولاد هذه الدوائر الاولى من المحيط الذي هم فيه ، عربية جيدة . وقد كانت هذه التجديدات تعد عند العرب الذين كانوا ذوي احساس دقيق منذ القدم ، بجمال لغتهم خطأً لغوياً (لحناً) . ولهذا قامت بينهم حركة رجعية ضد فساد اللغة ، ونشأ من ذلك في أواخر القرن الاول (السابع الميلادي) مبدأ « تنقية اللغة العربية » الذي حمل راية المحافظة على خلوص اللغة . وهنا أيضاً برهن الأمويون على انهم حماة المبادىء العربية القديمة ! فقد روي ان عبد الملك (حكم ٦٥ — ٨٦ هـ) كان يحذر أبناءه من أن اللحن في منطق الشريف اقبح من آثار الجدري في الوجه ، واقبح من الشق في ثوب نفيس ..! ويروى ان هذا الخليفة لم يكن يستعمل صيغاً ملحونة حتى في المزاح ، وانه كان يقدر الدقائق اللغوية حق قدرها ، فحينما غيّر الشاعر الخارجي ابو المنهال عتبان بن وُصَيْلَةَ بيته : « ومنا اميرُ المؤمنين شبيب » الى : « ومنا أميرَ المؤمنين شبيب » ، نال على هذا التغيير في الجواب استحسان الخليفة حتى اطلق سراحه !

وعلى الرغم من ذلك فقد روى انه أهمل تأديب ابنه الوليد (حكم ٨٦ — ٩٦ هـ) ، ولذلك رويت في اخطائه اللغوية شتى الروايات اللاذعة. وعلى النقيض منه تأدب سليمان بن عبد الملك (حكم ٩٦—٩٩ هـ) أدباً رفيعاً ، وكان يحسن الأشادة بقيمة الجمال اللغوي ، كما روي عنه

عنه انه قال في المغيرة من عبد الرحمن بن الحارث، احد اشراف قريش، ساخراً منه : « المغيرة بن عبد الرحمن بن الحـارث يفخم اللحن كما يفخم نافع بن جبير الأعراب » ..! وكذلك كان أخوه مسيلمة رفيع الثقافة ، وكان يكره عمرو بن مسلم اخا قتيبة بن مسلم لأنه كان يلحن في كلامه .. كما روى انه كان يمقت الساثابن الذين يلحنون في لغتهم، وكان عمر الثاني (ابن عبد العزيز) !

اللغة القدوة :

كان من أثر المقام المسيطر الذي أخذه مبدأ « تنقية العربيـة » في التربية اللغوية للمجتمع العربي . ان صارت عربية البدو تعـد القدوة المثلى والمثل الأعلى من جميع الوجوه ، وان احتذاها المثقفون في الكلام الشفوي ، والتحرير الكتابي جميعاً . حقاً لقد اثر اختلاف الأحوال ، ولا سيما الانتقال الى حضارة المدن . أثراً غير يسير في اللغة أيضاً، كما يبدو في اختلاف لغة الأدب في شعر المحدثين في أوائل العصر العباسي، كشعر بشار وابي العتاهية وابن الأحنف ، اختلافاً كبـيراً من حيث صوغ القوالب وتركيب الجمل ، والمادة اللغوية ، وطرق التعبير ، عن لغةشعراء البادية كموريتانيا. ولكن عربيةالدولة هذه احتفظت بالتصرف الأعرابي بقواعد الاعراب والتصريف احتفاظاً تاماً . ولم تزل من حيث بناؤها الحقيقي ، على الرغم من بعض السمات المولدة ، تعد من اللغة الفصحى. وعلى النقيض من ذلك كانت اللغة الدارجة التي كانت تتفاهم بها الطبقات الوسطى والدنيا من سكان المدن، منذ نشوئها في عصر الفتوحات الأسلامية الاولى ، تعد عربية مولدة في نظر التاريخ اللغوي . وقد أخذت هذه العربية المولدة تكتسب مناطق جديدة بسبب التغيرات السياسية والاقتصادية التي احدثها سقوط الدولة ، وان بقي المجتمع الراقي بعيـداً عن التأثر

بها تأثيراً يؤبه له حتى في القرن الثالث (التاسع الميلادي) ، كما ان الأوساط الادبية كانت أبعد عن نطاق التأثر بها كذلك . اما اليهود والنصارى بالمشرق ، الذين كانوا يعيشون في جو من التراث الأدبي ، يختلف تماماً عن محيط العالم الاسلامي من حولهم ، فقد ظلوا طويلاً دون أن يكون لهم نصيب من الثقافة الاسلامية . ولذلك لم يستخدموا لأول عهدهم بالكتابة العربية ، تلك العربية الفصحى ، بل اللغة الدارجة في عصرهم . ومن هنا كانت لآثار المسيحية – العربية الأولى التي ترجع الى القرن الثاني – الثامن ، ذات قيمة ممتازة أيضاً بالنظر الى تاريخ اللغة العربية ، اذ فيها نجد النصوص الأولى للعربية المولدة في صورة متماسكة .

ولم يكن للنصارى واليهود ، الخاضعين لسلطان الاسلام بالمشرق ، حظ من المثل الثقافي الأعلى للعربية . وقد ألفوا ، من حيث أنهم ذوو أديان نص القرآن على حقها من التسامح والحماية ، جماعات دينية في الدولة الأسلامية ذات استقلال ثقافي ، وادارات خاصة بشؤونهم ، وقوانين مقصورة عليهم . كما كانوا يحيون حياة اجتماعية واقتصادية خاصة بهم ، وعلى عكس ذلك كانوا يشاركون جيرانهم المسلمين في لغتهم الدارجة . وتلك الخصائص القليلة في مادتهم اللغوية ، وطرائق تعبيرهم ، انما نشأت من طبيعة الموضوعات التي يعالجونها ، بحيث لا تقوى على تكوين لهجة يهودية ، او مسيحية – عربية خاصة . نعم كان يهود المدينة على عهد محمد (صلى الله عليه وسلم) ينطقون لهجة تختلف كثيراً عن لغة السكان الآخرين بالمدينة ، بحيث لم تكن مفهومة لهم . فقد روي عن عبدالله بن عتيق انه كان يرطن باليهودية (إبن سعد : ج ٢ قسم ١ ، ص ٦٦) . بيد ان هذه اللهجة التي كانت مقصورة على التفاهم الخاص – كان يهود المدينة يستخدمون في شعورهم دائماً لغة الشعر البدوي – قد اختفت تماماً بطردهم من شبه الجزيرة . وعلى

النقيض من ذلك نصارى البدو من العرب ، فهؤلاء يبدو أنهم لم يتميزوا أصلاً في لهجتهم عن الشعراء الوثنيين من أقاربهم في النسب ، والا لما لقب الاخطل النصراني اعترافاً بأنه شاعر فصيح معتد به . وزيادة على هذا فقد سارعوا بالدخول في الاسلام ، بحيث لم يبق أثر مما ربما كان للهجتهم من خصائص لغوية .

وهذه العربية التي نجدهـا في الأدب اليهودي والنصراني في القرون الوسطى ، انما نشأت من الاستعمال اللغوي عند طوائف اليهود والنصارى خارج الجزيرة العربية ،الذين لا صلة لهم بالبادية وعربيتها ، بل استخدموا منذ البدء العربية المولدة الدارجة ، التي نشأت من حياة العرب ومخالطتهم للشعوب التي اخضعوها ، فصارت لغة التخاطب والتفاهم ، والتي تتميز — رغم اختلافها فيما بينها بسبب الاختلاف المحلي والاجتماعي — تميزاً واضحاً عن العربية الفصحى بطائفة من السمات والخصائص المشتركة بينهـا في المادة الصوتية وصوغ القوالب وتركيب الجمل والقواعد النحوية والمادة اللغوية ، وطرائق التعبير . فمادتها الصوتية تشير الى طابع معين من التيسير والتسهيل ، ويتعلق بهذا حذف الهمز الذي استفاض في العصر العربي الجاهلي في لهجة الحجازيين ، واخذ في العربية المولدة صورة واسعـة ذات أثر واضح في صوغ القوالب . كما يتعلق بهذا أيضاً تغيير حرف الضاد ، وهذا الصوت الذي هو في أصله الحرف المطبق القسيم للدال ، خاص بالعربية بحيث يسمي العرب في احد الاحاديث المشهورة : الناطقين بالضاد ، ويكثر ابداله بغيره من الاصوات على ألسنة غـير العرب ، فيكثر بوجه خاص ابداله بالظاء التي هي حرف المطبق القسيم للطاء ، وهي صعبة النطق كذلك على غير اللسان العربي .

وقد روى الجاحظ قصة البصري الذى سمى جاريته ، ظمياء ، بيد انه كان ينطق ، ضمياء ، وقرن بذلك خبراً يفيد ان نصر بن سيار ، آخر ولاة الامويين في خراسان نصح الموالي ان يسموا خدمهم بأسمـاء

يستطيعون ان يلفظوا بها . وهذه التغييرات الصوتية ازدادت على مر القرون . وكم ذا حاول النحاة ان يعالجوها ، ويساعدوا على التحرر منها ، فها هو ذا الحريري يحشد في المقامة السادسة والأربعين مجموعة من الألفاظ الظائية ، وفي القرن السابع يؤلف ابن مالك قصيدة تعليمية كتب هو شرحها، مبيناً فيها فرق ما بين الضادي والظائي من الكلمات . وعلى هاتين السابقتين يعتمد السيوطي فيما كتبه في هذا الموضوع ، وكما ذكر علي القاري ينطق أكثر السوريين وبعض المغاربة والشناقطة الضاد مثل الظاء . وقد ساق — زيادة على ذلك — الى جانب نطقها الأصلي كالدال المفخمة ، كثيراً من صور الأبدال المختلفة ، فمن الناس من ينطقها كالدال ، وغيرهم كالطاء ، وآخرون يومئون اليها بالظاء، ثم يذكر بعد هذا ان بعض الناس ينطقها دالاً مفخمة وبعضهم ينطقها دالاً عادية، وأخيراً ينطقها بعضهم لاماً مفخمة ، ومن بين جميع هذه الصور يكثر نطقها اليوم دالاً مفخمة .

لهجات البدو وعهد النقاء ..

أعلن مبدأ « تنقية اللغة العربية » ، منذ أول ظهوره في مختتم القرن الاول — السابع ، لغة الاعراب مثلاً اعلى ، يجدر بالمسلم المثقف ان يتخذه قدوة واماماً . وكانت لهجات الاعراب ، حتى أواسط القرن الثالث — التاسع هي النبع القراح الخالد الذي يستقي منه النحاة وعلماء اللغة معارفهم عن العربية الفصحى .

وبنفس المستوى الذي نضحت به طرق التعبير في العربية المولدة بين الطبقات الوسطى والدنيا على لغة المجتمع الرفيع ، تغير نظر المثقفين الى لهجات البدو من الاعراب . فالاحتذاء التام للغة البدو ، الذي كان حتى مختتم القرن الثاني ، أسمى مطامح الحضريين المثقفين ، صار على ممر

القرن الثالث نوعاً من التقعير الذي يختلف باختلاف الاحوال ، بين ان يكون مطلوباً ، او داعياً الى السخرية ، أو غير لائق .

وهكذا صارت العربية الفصحى ، في بداءة القرن الرابع — العاشر ، لغة للكتابة قطعت جميع أشواط نموها وتكوينها ، ولم تعد قابلة لزيادة من النمو الحي . فقد غدت نموذجية مثالية ، وتغلب اشعاع الجمال الفني في قوالبها على الفاقة الخشنـة والعراء المستكره في لهجات الاعراب المعاصرين .

حقاً لقد كانت لغة البدو اذ ذاك أيضاً في مستوى من الخلوص والنصاعة لا تدانيها لغة الزراع والحضريين ، لا سيما اذ كانت ألسنتهم لا تزال محتفظة بمظاهر الاعراب والتصريف القديمة . بيد انه في كل مكان كثر فيه اختلاط البدو بغيرهم من طبقات السكان ، وكذلك عند تحولهم بوجه خاص الى الاقامة والاستقرار ، وبهذا الى الاتصال الذي لا غنى عنـه بالسكان الزراع الذين كانوا يجدونهم اية سلكوا ، فقدت لغتهـم من صفائها وخلوصها فقداناً كبيراً ..

بيد انه لم تكن مراعاة هذا التنوع للحياة اللغوية المتجلي في اللهجات هي العامل الوحيد الذي حمل المثقفين ، منـذ القرن الرابـع — العاشر ، على تغيير نظرهم الى لغة الاعراب ، بل لقد كان ادعى الى ذلك التطور هذه الحقيقة الثابتة ، من انه قد حل في ذلك العهد محـل النشاط في الجمع والوصف الذي كان يقوم به علماء اللغة القدامى ، علمٌ للغة منظم تنظيماً فلسفياً زاد الباحثين قوة وثقة من أنفسهم . فهذه البداهة المطلقة التي كان القرن الثاني — الثامن ، يعتمد بها كل اعرابي فصيـح على انه قاض لغوي غير منازع ، وكان ينحني لحكمه ، ويمتثل لنطقه ، قد تركت مكاناً للروية والنظر العلمي الذي لم يعد — كما كان في القرن الثالث — يكتفي بأن يعترض على صيغ واستعمالات متفرقة من لغـة الاعراب الموريتانيين وأمثالهم في الجزيرة ، بل أخذ يبحث في نقـد

وتمحيص عن وجه معقول للتضادّ بين لغة الاعراب وقواعد النحو .

وقد كان ابن جني (المتوفي ٣٩٢ هـ) يختلط كثيراً في سني شبابه — اذ كان لا يزال يعيش في الموصل — بأعرابي من بني عقيل ، هــو محمد بن العساف الشجري الذي نالت سلامة عربيته موقعاً كبيراً من ابن جني ، وعمل معه دراسات في اللغة (انظر إرشاد ياقوت : ج ٥ ، ص ١٥ — ٢٩) وعلى الرغم من ذلك فقد خصص ابن جني في كتابه « الخصائص » باباً مستقلاً لأغلاط الاعراب ، ذهب فيه بالاتفاق مع استاذه ابي علي الفارسي (٢٨٨ — ٣٣٧ هـ) الى ان الاعراب قــد يقعون في اللحن لانهم ليست لهم اصول يراجعونها ولا قوانين يستعصمون بها ، وانما تهجم بهم طباعهم على ما ينطقون به ، فربمـــا استهواهم الشيء فزاغوا عن القصد ..

وها هوذا مثلاً ينظر الى الكلمات : حلّأت السويق ، بدلاً من : حلّيت ، ورثأت زوجي ، بدلاً من : رثيت ، ولبأت بالحج ، بدلاً من لبّيت ، واستلأمت الحجر ، بدلاً من ، استلمت ، فلا يقــدّر انها لهجات خاصة أو لغات ذات نصيب من الصحة قل أو كــثر ، وقصارى أمرها ان يتساءل : هل يجوز للكاتب البليغ استعمالها ؟ ولكنه يعدّها — ببساطة — من الغلط ، لأنها تتصادم مع اصول الصيغ والقوالب.

وبما ان لفظ ، مصيبة يرجع اصله الى : (ص و ب) ، فمــن الغلط اذاً جمعه على : مصائب ، بدلاً من مصاوب ، وان انتشرت هذه الصيغة المقيسة على الصحائف خطأ في استعمال الاعراب اللغوي .

وعلى عكس ذلك يعد : امسلة — بالسين — جمعاً قياسياً صحيحاً للفظ : مسيل ، أي مجرى الماء ، لأنــه لا يرى انه مشتق من سال (س ي ل) ، بل من : مسل ، بمعنى سال ايضاً .

لذلك يرى الميم في « معين » اي ماء جارٍ ، أصلية لأنــه في نظره ليس من العين ، بل من قولهم : أمعن له بحقه اذا طــاع له به ،

فكذلك الماء اذا جرى من العين فقد أمعن بنفسه وأطاع بها ..

هذا وكون النزاع في هذه الأمثلة راجعاً في الأغلب الى أصل الكلمة واشتقاقها لم يأت من ابن جني عرضاً واتفاقاً ، فقد كان لابن جني في هذا الموضوع بالذات ، من حيث هو مؤسس مبدأ الاشتقاق الكبير ، رأي علمي ثابت ولم يكن يدور بخلده ان يتنازل عنه ضحية لاستعمالات غير المثقفين من الاعراب ..

وعلى النقيض من ذلك ما وصل الينا في ذلك التوجع الشعري الذي قاله عمار الكلبي يشكو من غرور النحاة وجرأتهم :

ماذا لقينا من المستعربين ، ومن قياس نحوهم هذا الذي ابتدعوا ؟
ان قلت قافية بكراً يكون بها بيت* خلاف الذي قاسوه او ذرعوا
قالوا : لحنتَ ، وهذا ليس منتصباً وذاك خفض* ، وهذا ليس يرتفع ..
وحرّضوا بين (عبدالله) من حُمُقٍ وبين (زيدٍ) ، فطال الضرب والوجع !
كم بين قومٍ قد احتالوا لمنطقهم وبين قوم على إعرابهم طُبعوا
ما كان قولي مشروحاً لكم فخذوا ما تعرفون ، وما لم تعرفوا فدعوا !
لأن أرضي أرض لا تُشَبُّ بها نار المجوس ، ولا تُبنى بها البِيَعَ !

مصادر البحث :

* دراسات في اللغة (العربيـة) واللهجات والأساليب ليوهان فك johann Fück ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار بجامعة القاهرة — كلية الآداب (جامعة فؤاد الاول سابقاً) . وعدة مصادر اخرى اجنبيـة (مستشرقون) وعربية منها :
* ابن قتيبة في عيون الاخبار ، والشعر والشعراء .
* الجاحظ في البيان .

* البلاذري في فتوح البلدان .
* ابن خلكان في تاريخه .
* ابن الانباري في نزهة الالباء .
* الأصفهاني في الاغاني .
* ياقوت في المعجم والارشاد .
* الثعالبي في اليتيمة .
* ابن رشيق في العمدة .

اخبار ثقافية عربية مهمة
من موسكو ونواكشوط !
(استدراك)

توطئة ..

لقد شاء الله ان نكون في معركة مع الوقت ، أثناء تأليف هذا الكتاب واثناء طبعه ..! وليس من طبيعة المعارك ، او بالأحرى طبيعة الحياة التي لها مثل هذه الصفة — وخاصة ونحن ابناء عصر مصاب بجنون السرعة ! — اجل ، ليس من طبيعة هذه الحياة أن يستطيع الإنسان فيها امتلاك ذهنه وموضوعه امتلاكاً تاماً كما يأمل ويتمنى ! .. فلا بد وان يفوته ما لا ينبغي ان يفوته ، في المكان اللازم والوقت المناسب ..

وكنا على نية أن نضع هذه الأخبار الثقافية المهمة — المعلومات — في الفصل الثاني من الكتاب (وهي اخبار صحفية نشرت في اواخر العام الماضي) بعد الصفحة ١٥٦ ، والصفحة ١٦٢ ، حيث تكلمنا عن « عالمية » ادبنا العربي ، والمخطوطات العربية في موريتانيا والسنغال ،

كشواهد عصرية جديــدة ، تعزز موضوعية الكتاب واهدافه العربية « العالمية » .. ولكن احداثا سياسية مذهلة حدثت في اواخر السنة الماضية ومطلع السنة الحالية ؛ الأولى على مقربة منا ، والثانية في عقر دارنا !

فاثناء الأحداث الأولى ، كنــا في وقت الشروع بتبويب فصــول الكتاب لتقديمه للمطبعة ، واثناء الأحداث الثانية كنا غارقين حتى انوفنا باعمال الطبع .. لذلك جاء هذا (الاستدراك) هنا ، وكانت هذه « التوطئة » .. فما يأتي — من الخبر — متأخراً ، خيراً من ان لا يأتي أبدا ..

من موسكو ..

أما المعلومات التي تلقيناها من موسكو ، فقد تضمنها مقال نشرته بعض الصحف اللبنانية في حينه ٣ ك ٢ من العام الحالي بقلم « أ . كولستوف » يتحدث فيه عن اكتشاف مخطوطة « سر الأسرار » لأبي بكر الرازي وغير ذلك من المعلومات الثقافية العربية المهمة ، وهذا هو المقال :

« في وسط موسكو مبنى يمكن ان تلتقي فيه ، في كثير من الاحيان ، ضيوف من بلاد الشرق . انه « معهد شعوب آسيــا وافريقيا » لدى اكاديمية العلوم في الاتحاد السوفياتي . وجميع الذين يهتمون يالاداب العربية والشرقية يأتون الى هذا المعهد طلباً للمشورة والمساعدة .

« ويملك المعهد اكثر من ١٢٠ الف مجلد من المخطوطات الشرقية القديمة المكرسة لمسائل التاريخ والفلسفة والرياضيات والطب والشعر . ويقوم علماء المعهــد بدراستها بعناية ، وترجمتها ونشر مجموعات من المؤلفات المختارة لكتاب وشعراء من سوريا ومصر ولبنان والعراق

وغيرها من بلدان اسيا وافريقيا .

* * *

« قبل لنا ، في « مكتب نشر صروح الثقافة العربية » ، ان المعهد قد نشر ، خلال النصف الاول من عام ١٩٦١ ، مئة وتسعين مخطوطة . والعديد منها هي مخطوطات فريدة . وهكذا نشرت تحت عنوان « كاتب مجهول من القرن الحادي عشر » مخطوطة احد كتبة تاريخ العرب المجهولين ، يروي فيها تاريخ الخلفاء العباسيين والحركة العباسية التي ادت الى سقوط خلافة الامويين . وهذه المخطوطة هي الوحيدة في العالم المطبوعة بنصها العربي الاصلي بالزنكوغراف ومقابلها الترجمة الروسية .

« والمؤرخون الذين يهتمون بالحروب الصليبية يستطيعون الاطلاع على طبعة المعهد للتاريخ المنصوري من وضع محمد الحموي ، هذا المؤرخ السوري الذي يروي حياة العالم وبلدانه منذ بدء التاريخ الميلادي حتى ١٢٣٣ .

« ومجموعة المختارات من الشعر العربي ، من القرن السادس حتى الثاني عشر الميلادي ، والتي قام بتصنيفها اسامة بن منقذ ، الشخصية العسكرية والسياسية ، والشاعر والكاتب ؛ هى ذات قيمة ادبية . وهذه المجموعة نشرت باللغة الروسية على اساس مخطوطات كتبها المؤلف نفسه .

« ما هو رأي المستعربين السوفياتيين في « الرسالة الثانية » التي وضعها العالم الجغرافي العربي ابو دلف ؟ هذه المسألة تثير منذ وقت طويل اهتمام العلماء المستعربين المختصين بالشرق الادنى والاوسط . ويورد ابو دلف في مخطوطته معطيات مهمة عن الاتنوغرافية ايران

وجغرافيتها وعن القفقاس . ونص هذه المخطوطة محفوظ في « مشهد » في المكتبة الموجودة قرب ضريح الامام الرضا . وقد طبعت ، في حينه ، في القاهرة ، لكن عدد النسخ المطبوعة قد نفد وها هي دار النشر التابعة لمعهد شعوب اسيا وافريقيا تنشر نصا كاملا للمخطوطة مصحوبا بتعليقات خاصة .

« وستصدر في القريب الطبعة الروسية للقرآن ، وقد ترجمه الاكاديمي اغناطيوس كراتشكوفسكي .

* * *

« طشقند مركز للدراسات العربية في الاتحاد السوفياتي . وقد نشر المستشرقون الاوزبكيون اربعة مجلدات من المخطوطات الشرقية لمجموعة طشقند . وهي تتضمن تحليلاً لاكثر من ٢٧٠٠ مخطوطة في التاريخ والطب والجغرافيا وفقه اللغة ، والزراعة ، والفلسفة والتصوف ، والمؤلفات الادبية .

« وقد ترجم مستعربو طشقند ونشروا باللغتين الروسية والاوزبكية في ستة مجلدات المؤلفات المختارة لعالم العصر الوسيط ابي علي بن سينا وكتابه « القانون في الطب » . كما نشر ايضاً مؤلَّف الكاتب الذي نشأ في خوارزم ، ابي الريحان البيروني وهو « الاثار الباقية من القرون الخالية » ، الذي يحتوي على معطيات ثمينة حول التاريخ والاتنوغرافيا ، وتاريخ ثقافة الشعوب القديمة في آسيا الوسطى والبلدان الاخرى . ومؤلَّفه الشهير « الهند » يجري نشره كذلك . وقد ترجمت الى الروسية والاوزبكية الرسائل المتبادلة بين ابن سينا والبيروني .

« واكتشف المستعرب الاوزبكي الشاب كريموف مخطوطة ، كانت مجهولة حتى الان ، لابي بكر الرازي ، بعنوان « كتاب سر الاسرار » . وهذه المخطوطة يجري نشرها حاليا باللغة الروسية ،

وبالنص الاصلي مطبوعا بالزنكوغراف .

***

« والاهتمام الذي يظهره السوفياتيون بالادب القديم للشرق العربي ليس مرده الى المصادفة . وهذا يفسر ليس فقط بغنى هذه الثقافة لان بعض مصادر الحضارة العربية كانت توجد في الماضي في اراضي اسيا الوسطى والقفقاس اليوم ، بل لقد مارست هذه الثقافة تأثيرا على النهوض الثقافي للشعوب السوفياتية التي تقطن حاليا هذه المناطق من الاتحاد السوفياتي .

وابرز مؤلفات الادب الكلاسيكي العربي التي ترجمت ونشرت خلال السنوات الاخيرة في الاتحاد السوفياتي هي الاتية :

● المؤلف التاريخي والادبي للكاتب والعالم الاسلامي الاندلسي ابن حزم .

● « طوق الحمامة » والدراسة النفسية للفيلسوف والشاعر العربي من القرن الثاني عشر .

● ابن طفيل : « حي بن يقظان » .

« كما نشرت حكايات عن لقمان الحكيم ، وبعد نشر « الف ليلة وليلة » في ثمانية اجزاء ، نشرت حكايات شعبية عربية اخرى تحت عنوان « خليفة لساعة » : كما نشر النص العربي لكتاب « كليلة ودمنة » .

وينبغي ان نذكر كتاب « الايام » ، وهي السيرة الذاتية التي كتبها الدكتور طه حسين ، ورواية توفيق الحكيم « عودة الروح » . ومؤلف المؤرخ العربي الطبري « تاريخ الامم والملوك » . ومذكرات اسفار ابن ماجد ، الملاح العربي الذي قاد سفينة المكتشف الشهير فاسكو

دي غاما . »

من نواكشوط .

أما الأخبار التي وردت مؤخراً من نواكشوط – عن طريق وكالات الأنباء – فهي تفيد أن عالماً انكليزياً رحالة (وزوجته) قطع مئات الأميال عبر الصحراء الافريقية بحثاً عن مخطوطات عربية قيمة يرجع تاريخها إلى القرن الثاني عشر ، بينها شرح قديم للقرآن القديم ومؤلفات دينية أخرى . فاذا كان ذلك الرجل وهو غير عربي وغير مسلم قد بذل من الجهد في سبيل كتابنا وديننا ما بذل ، بدافع الروح العلمي والخير الإنساني ، فلا أقل من ان نبذل نحن – ونحن عرب ومسلمون – عناء نقل هذه المعلومات وتعميمها ، تتميماً للفائدة .!

وهذا هو الخبر :

نواكشوط – موريتانيا : قام عالم انكليزي في الدراسات العربية وزوجته الدانمركية المولد ، بقطع مئات الاميال عبر الصحراء الافريقية في محاولة لايجاد ونسخ مخطوطات عربية قيمة ، يرجع تاريخ بعضها الى القرن الثاني عشر ، بعد أن كاد يدركها التلف بشكل مفزع .

وقد ذرع المستر هاري نوريس ، البالغ من العمر ٣٥ سنة ، والمحاضر في كلية الدراسات الشرقية والافريقية في لندن جميع انحاء موريتانيا بسيارة جيب ، وعلى ظهر الجمل ، سعياً وراء المكتبات المتنقلة على ظهور الجمال ، والتي ينقلها البدو من مضرب الى آخر خلال تنقلاتهم الدائمة عبر الصحراء الغربية .

ويخوض المستر نوريس معركة ضد الوقت ، اذ تقضم الارضة كل عام مزيداً من صحائف المخطوطات التي لا تعوض ، وتتلف السجل الوحيد للاحداث التاريخية ، أو المؤلفات التي تلقي ضوءاً على الحضارة

القديمة في الصحراء الافريقية وتطور الاسلام .

وكان على المستر نوريس كسب ثقة البدو ذوي النظرات الصارمة ، من أجل ان يسمحوا له بأن يصور بآلته التصويرية الخاطفة ، المقاطع المهمة في المخطوطات التي يندر ان يوافق أصحابها على التخلي عنها ولو لأيام قليلة . وبعد ان نسخ مئات الصفحات انتهى ما لديه من افلام ، وعندها بادر الى تدوين ملاحظاته بخط يده .

وهناك معلومات مهمة تتضمنها هذه المخطوطات التي قدر احد العلماء المحليين عددها بحوالي ٢٠٠٠ تتناول جميع المواضيع . ولا يزال من الممكن انقاذها اذا ما اتخذت تدابير عاجلة لتصويرها .

وتتضمن المخطوطات شرحاً للقرآن الكريم ، ومؤلفات دينية اخرى عديدة ، وكتباً فقهية ، وتاريخاً للاحداث ، وتاريخاً للقبائل والمدن ، ومؤلفات تتناول الصوفية والفلسفة ، وكتباً طبية ، واخرى تتناول تاريخ حياة عدد من الزعماء المحليين والاولياء المسلمين . وتتضمن وصفاً لمعجزاتهم ومؤلفات شعرية ، وكتباً سياحية . وقد كتب بعضها مؤلفون موريتانيون ، واستورد بعضها الى البلاد في فترات متباينة من قبل بعض الرحالة من المراكز العظمى للعلوم الاسلامية في الشرق الاوسط .

ومن جملة هذه الاخيرة شرح للقرآن كتبه ابو هلال العسكري العالم اللغوي الشهير في الشرق الادنى خلال القرن الثاني عشر . ويعتقد المستر نوريس ، ان الشرح كتب بخط يد المؤلف .

وقد أصبحت صفحات هذه المخطوطات البنية اللون التي اتت الارضة على جزء منها متيبسة وهشة ، ويخشى المستر نوريس من ان لا يبقى منها بعد بضع سنوات سوى الشيء القليل .

وهذا المخطوط احتفظ به أصحابه البدو بعناية شأن مئات المخطوطات الاخرى داخل مغلفات جلدية . وقد انتقلت هذه المخطوطات عبر

القرون من جيل الى جيل ، وواصل علماء الخطوط المختصون نسخها أو استبدال اجزائها التالفة .

ويعاني علم الخطوط الآن سكرات الموت ، بالنظر الى ان قلة من الشباب يملكون الصبر أو الميل الى تكريس أنفسهم من أجل القيام بمهمة نسخ الكتب القديمة التي لا يستوفون عنها اجراً !

في دُنيا المَرأة ..

ليل وقمر وشاعر ..

اما الليل ، فهو ليل الثامن والعشرين من نوار سنة ١٩٤٢ في الطريق الى الريف السنغالي ، الى بودور جارة النهر التي لن انساها ما حييت !

واما القمر ، فهو القمر المؤنس في تلك الادغال والغابات الموحشة ، والذي كان في تلك الليلة ، بدراً كاملاً طالعاً من وراء « ريول شارتول[١] » وغابتها المخيفة — هل علمت الآن لماذا كان القمر مؤنساً هناك ..؟

واما الشاعر ، فقد كان بدوياً ، بيضانياً عملاقاً ممتلىء الجسم صارم الوجه ، اسمر اللون ، ذا لحية نصفية (سكسوكه) ، جُمِّعت من العارضين ، وتُرِكَت حتى تدفقت بغزارة في أسفل الذقن ، فبدت وكأنها لحية (عتروس) لا لحية أنسان ..!

ما كان أروع منظر الطبيعة الساحر ونحن نعبر النهر على عبارة خشبية — BAG — في وادي السنغال ! لقد شعرت بهزة شعرية وددت

---

١ — شار تول : اسم ناحية في القطر السنغالي على طريق بودور ، فيها قرية صغيرة لحراسة الغابات. وتعبرالسيارات النهر هناك على جسر خشبي ، كما يقوم في تلك البطاح الآجمة قصر تذكاري فخم للجنرال فيدهرب فاتح السنغال ، وصاحب التمثال القائم في ساحة سان لويس العامة أمام الليسيه .

لو طال أمدها في ربوع مشاعري في ذلك الليل الشعري !

ما كان أجمل منظر القمر المكتمل، وأنواره المنسكبة على صفحة الماء المتجعّد من خوض الزوارق وغرف الجرار ومرّ النسيم ..

لم أكن وحدي شاعراً .. بهذا المشهد ، بل كان يشعر به شاعرنا البيضاني صاحب اللحية الآنفة الذكر .. فسمعته يدندن مترنحاً ، مستغرقاً بنشوة شعرية ، وقد دلدل رجليه في الماء في سهوم واسترسال ، فاقتربت حتى حاذيته ، فسمعته ينشد :

أبْصرْتُها تختْال في ريطها ... والريح في اردانها مُرسَلَهْ ..
بينا انا مُسبحتي ذاهلٌ ... والنفس في نهج التقى مُعمَلَهْ
اذ لاح لي في وجهها لائحٌ ... أنسانيَ التسبيحَ والهَيْلَلَه ..!
من أرسل الطرف الى غيرها ... قد ضيّع الأرسال والمرسلَه ..!

.. ترى ، ما هو ذلك « اللائح » الذي أذهله عن السبحة والتسبيح والهيللة ..! أيكون غير جمال تلك البيضانية الشابة ، الفارعة القامة التي « تختال في ريطها » وخلاخلها الفضية الثقيلة ، فبدت تجر قدميها جراً ..؟ أم انها هزت نياط قلبه برنين دمالجها ، وخضبت بدماء قلبه لا بالحناء ، يديها الرخصتين الخضيبتين ..؟ من يدري ..!

شططنا، ودرجت السيارة بنا صعداً حتى استقرت على هضبة منبسطة . ورأيت أخلاطاً من البيضان والتوكلور والسراخوللي ، مطرّحين على رمال الشاطىء كربيضة الغنم ، نساء ورجالاً ..منهم ايقاظ يسمرون ، ومنهم نيام يشخرون ، وحميرهم بينهم تصدر عن النهر وترد اليه من تلقائها ..

أما (بيضانية) صاحبنا الشاعر التي أنسته « التسبيح والهيللة » — كانت من جملة الركاب — فكانت جالسة على الارض ترسم خطوطاً في الرمل ، وتغني بصوت خفيض .. ما بالها ؟ هل تستطلع الرمل

أخبار حبيب غائب، وتغني هواها له ، أم انها تبصر حظ المتيم الصاحب الذي يرنو اليها بعينين رغيبتين حتى ايكاد يلتهمها بهما التهاماً ..!

قلت له تعال ، ما خطبك ؟ هل تعرف هذه الشابة من قبل ؟ قال لا ، ولكنها جميلة كما ترى ! قلت ولكن سمنها علة جمالها ..؟ قال : ذلك ما نؤثر ! واستشهد بهذا البيت المشهور :

والمعصمان فما يرى لهما من نعمة وبضاضة زند !

وفي هذا البيت دليل على ان عرب افريقيا يلتقون مع العرب القدماء في « تذوق الجمال » النسائي . ففي الشعر القديم الف شاهد وشاهد على انهم قديماً كانوا يفضلون المرأة البدينة :

وبَهْكَنَةٍ يضيق الباب عنها وردفٍ قد جننت به جنونا !

حديث الجمال والغزل* ..!

أما الجمال عند المرأة الموريتانية (البيضانية) فهو على العموم : وجه حنطاوي تغلب عليه سمرة الصحراء ، وفي حالات كثيرة تلقي عليه البيئة الافريقية « السوداء » ظلاً قوياً يزيد سمرته زيادة ملحوظة . ولا عجب ، فللجوار المتداخل الملاصق حكمه .. وأحياناً – بنسبة قليلة – يبدو أبيض بياضاً (مغربياً) صافياً .. ويتلألأ في هذا الوجه – النسائي الموريتاني – عينان كحلاوان ، فيهما كثير من السحر ، وأنف مستقيم أبى ان « يتزنّج » ، وظل بعيداً عن (التفنيش) .. وشفتان تقطران حلاوة واشتهاء ؛ تبدوان غليظتين بعض الشيء أحياناً بتأثير الصحة والامتلاء ، وليس على غرار الشفاه ذات (المشافر) .. وفم ضيّق ،

---

* من كتابنا « موريتانيا الحديثة » ص ٣٣٨ – ٣٤٠ .

حسناء موريتانية من حسان آطار بلباسها الوطني . وقد صدق ابن بطوطة حين وصف جمال النساء في موريتانيا بأنه « جمال فائق » !

فيه أسنان لؤلؤية ، يجول فيه (سِواك) رطيب ، حتى لكأن جريراً عناه بقوله :

يجري السواك على أغرّ ، كأنه بَرَدٌ تحدّر من متون غمام .!

ويبدو ان هذه العادة الجمالية قديمة عند العرب ، فقد وصفها أكثر من شاعر ، وكانت موضوعاً حاراً للغزل ، قال الفرزدق وكأنه يصف (بيضانيات) جميلات :

ظباءٌ .. بدّلتهن الليالي مكان قرونهن ذُرى جمام ..
ترى قُضبَ الاراك وهن خُضرٌ يَمِحْنَ بها ؛ وعِيدان البشام ..
بكرن بها على بَرَدٍ عِذابٍ وليس بكورهن على الطعام ..!

أما الشعر الأجعد او المسبول ، فانهن يُعمِلن فيه أمشاطاً مسننة كالمسامير تنتف منه شيئاً غير قليل ...

على ان الحسان منهن ، او اللواتي يحفلن بالحسن ؛ يضفرنه جدائل كالشراشيب ، ويعقدنه في مقدمة الرأس ، ويتجاوزن هذا التقليد الى الزينة في اللباس العديد الألوان فوق (الملافح) الفضفاضة يجررنها تجريراً ، ويتبرجن تبرج الافريقية ، ويصبغن أيديهن وارجلهن بالحناء الغامق حتى السواد ، رغبة منهن في تأكيد ظهوره ...

وما أشد ما تنطبق على (عِلْيَات) البيضان الجميلات (المتحفلات) قول المتنبي :

لبسْنَ الوشيَ ، لا متجمّلاتٍ ولكن كي يصنّ به الجمالا ..
وضفّرن الغدائر ، لا لحسنٍ ولكن خفن في الشعَر الضلالا !

والبيضانية مرهفة الحس بجمالها حتى الخيلاء .. وليس عسيراً على من

يغشى مجتمعاتهم المبتذلة ، ان يدرك بأدنى ملاحظة مظاهر هذا الحس ، وكيف تتلون بالغزل ، حواراً وحركة ومؤآنسة ،لا أطيب ولا أبهج ..؟ فالرجل عندهم يلقى المرأة بحماسة وحيوية روحية ،ويمسكها عن طريقها ، فيقف ويستوقف ، ويذكر الحبيب والمنزل ، غير تارك لامرىء القيس امتياز هذه المعجزة في حسن اللقاء .. ولا تتردد هي — على تزمتها الشديد — في مد أسباب الإغراء له من فتون وسحر وملاطفة .. ولذلك كانت أبرز ملاحظة تراها وتنطبع بها نفسك عن مجتمعهم النسائي ، هي : الحب والغزل !..

خلاصة وختام

نمط «موريتاني» خاص في العيش والتفكير :

من الواضح ، ان كل امة في عصر من العصور لها طابع خاص يطبع ادبها ، وهذا الطابع هو صورة بيئته ونتيجة محيطه . والادب العربي وان اشترك كله في الخضوع لقوانين اللغة العربية من نحو وصرف ، وبحور شعر وقافية ، فأنه يختلف الى درجة كبيرة باختلاف البيئة التي انتجته . فالادب اللبناني – مثلاً – غير الادب الموريتاني ، وكلاهما غير الادب العراقي والحجازي ، وكلها غير الادب الاندلسي والمغربي والمصري والسوري .

والعالم بالبيئة الاجتماعية ، والتطورات الحضارية والعقلية التي طرأت على الامة العربية وتاريخها علماً تاماً ، يستطيع ان يتبين تأثر ذلك كله في أدبها . واذا عرض عليه شعر لم يسمعه من قبل ، أمكنه أن يعرف من أي قلم ، ومن أي عصر ..

من هذا كله ، تظهر لنا قيمة الدراسة التاريخية في فهم الادب ، وقد حدا ذلك بعض الباحثين الى دراسة الادب حسب قانون النشوء والارتقاء .

وليست دراسة الادب التاريخية تعني فقط سرداً زمنياً للرجال الذين كتبوا أو شعروا في هذه اللغة ، والكتب التي ألفوها ، والتغيرات التي

طرأت على اللغة والاذواق . وانما تعني أيضاً المؤثرات الخارجية ، من حضارة وحالات اجتماعية قدر لها الاختلاط بحياة الآخرين .

الادب هو الميزان الصحيح الذي يجب ان نرجع اليه اذا أردنا أن نميز ، او أن نفهم ميزات الامة العقلية والنفسية وعيوبها . وبهـذا ، يكون الادب روح العصر ، ونتاج المجتمع ، وتكـون دراسة الادب المعاصر – مثلاً – تعبيراً عن روحه وخصائصه .

ويتبع دراسة الادب من الناحية التاريخية ، الطريقة المقارنة في دراسة الادباء ، افراداً لما قلناه من العلاقة بين الاديب ، وحياة الجنس والعصر ، فأن كل من ينتقل من ادب أمة الى ادب أمة ، أو عصر آخر ، يدهشه التغير التام في الجو الفكري والخلقي . وقد قدمنا القول في (المقدمة) أن هذا الكتاب ليس دراسة عن الادب الموريتاني وانما هو « مادة » منوعة غنية لمن يريد دراسة هذا الادب .

ولما كانت دراسة الادب ، هي محاولة ربط الظواهر بعضها ببعض ، كان على الدارس ان يلحظ في دقـة الفروق بين الادباء والعصور ، والاختلافات الاساسية التي تظل مبهمة عادة . فيجب ان يدرس الطرق المختلفة عن وسائل التعبـير ، وعن المسائل العظمى للادب من حب وبغض ، وغيرة وأمل وأفراح واحزان ، ومشاكل القدرة الخالدة ، وكيف يكون التعبير عن هذه المسائل ونحوها باختلاف العصور ، وهذا عمل آخر يحتاج الى وضع كتاب برأسه ، نرجو ان يوفقنا الله له كما وفقنا في هذا الكتاب .

هنا ، يأتي دور « النقد الادبي » للأثر الفني : الغرض من النقد الادبي ، تقدير الصفات الاساسية التي يجب توافرها لتكون القطعة أثراً فنياً أدبياً .

فأنت اذا علمت ان آمالي القالي ألفها ابو علي للاندلسيين ، وانه أراد أن ينقل بها علم المشارقة الى المغاربة ، اعطاك ذلك الكتاب لوناً صحيحاً

يعينك على فهم الكتاب . فاذا علمت ان مؤلفاً لم يكن ثقة قدرت الكتاب تقديرا اقرب الى الصواب ، وهكذا .. اذن ، فان الاثر نفسه هو الذي يعطي الفرصة الذهبية للنقد لكي يقول رايه بتجرد وحرية وحق .

ولكن ما هو تعريف النقد الصحيح اولا ؟

ان النقد الادبي يعتمد على صحة الذوق اولاً . والذوق بحكمه على الاشياء لا يستند الى احكام عقلية ، واذ ذاك لا يمكن ان تكون هناك قواعد يصدر عنها الحكم ، وتتخذ مقياسا .. الا ترى ان الناس اذا اختلفوا في قطعة فنية ، لم يستطع احدهم استخراج حجج عقلية يقنع بها الاخرين ؟ وآية ذلك ، ان الادب « فن » وليس « علماً » والفنون اذواق وارواح ، لها مقاييس لا يعلمها الا الراسخون في فهم الاذواق ، والارواح !

ايّاً ما كانت الدراسات الادبية ، يجب على قارىء الادب ان يقرأ القصيدة اولاً قراءة دراسية ، ثم يقرأها قراءة نقدية . ففي القراءة الاولى يحاول ان يتعمق في نفسية الشاعر وان يفهمها ، وان يملأ قلبه بما كان يفعمه من عواطف واحساسات ، وان يحيط نفسه بنفس الجو الشعوري الذي كان الشاعر فيه ينشيء قصيدته . اما في القراءة الثانية ، فعليه ان يقارن بين هذه القصيدة وغيرها من جنسها ، ويزداد تعمقاً في فهم لمحاتها وتبين اشاراتها .

لذلك ، ينبغي لنا عند دراستنا للكتب او البيئات الادبية ، ان نفرق بين ما يسميه كاريل « الاصوات المبتكرة » وبين ما هو مجرد اصداء ، او بعبارة اخرى : بين الرجال الذين يتكلمون كلاما صادرا عن انفسهم ، وبين الذين يتكلمون نقلا عن الاخرين ..

ولسنا نحتقر الاصداء والانعكاسات ، ولا نذمهـا ولا نبالـغ في انتقاصها ، اذ انها ان كانت جيدة في نوعها ، كان لهـا مكانها

وفائدتها .

ولكن لكي نتجنب كل تقدير خاطىء ، يجب ان نميز بين الادب الذي يستمد حياته من شخصية المؤلف ، وتجربته ، وبين الادب الذي يستمد حياتــه عن طريــق غير مباشر ، عن شخصيات الاخرين وتجاربهم ..

لندرس على ضوء ما قدمنا ، هذه القطعة لشاعر موريتاني ، هو محمدّو (بتشديد الدال المضمومة يليها واو) بن محمّدي من قبيلة ايدوعل ، يصف حنينه لحبيبته الظاعنة :

تذكرت حياً قاطنين ، تحملوا وعصراً تولى ، حبذا الحي والعصر !
ليالي ، اسباب الوصال متينة وافياء دوح اللهو ، فينانة خضر
ليالي ! اذ ليل الشبيبة لم يلح من الشيب في ارجاء ظلمته ، هجر
غنينا هوى ، والدهر يسعف بالمنى ولكن غروراً ما يمتعك الدهر !
فما انت واستقبالك اللهو والصبا وقد اقبلت عشرون ، من بعدها عشر ؟

فماذا نرى ؟

نرى فيها شعراً فطرياً وجدانياً صادقاً صادراً عن نفس تتلظى حباً ، وشاعراً بدويا يتكلم على سجيته فينتزع صوره وتأثراته مما يحس ويرى ، وبيئة هي الصحراء ، من عادة اهلها (الحي) ان (يتحملوا) طلبا للنجعة ، فلا يكادون يستقرون في مكان حتى يرتحلوا عنه .. ويتفق احيانا كثيرة ان يكون مع الركب حبيبة ظاعنــة ، حتى اذا جـاء شاعرها المتيم ليلقاها في المكان المعهود ، عاد حزينا لم يجد غير الذكريات !

وترى في القطعة فلسفة ساذجة متشائمة :

غنينا هوى ، والدهر يسعف بالمنى ولكن غروراً ما يمتعك الدهر !
فما انت ، واستقبالك اللهو والصبا وقد اقبلت عشرون ، من بعدها عشر

ذلك ان حياة الصحراء — وهو ربيبها — لا توحي التفاؤل ولا الابتهاج ولا الطموح ، فيستشعر المرء روح الشيخوخة وهو في سن الثلاثين .. ولا عجب ، هكذا هي الصحراء : قسوة صارمة ليس معها لين ولا رأفة في الانسان !

اجمع النقاد ، على ان الادب ، يتكون من عناصر اربعة : العاطفة ، والمعنى ، والاسلوب ، والخيال . ونعني بذلك ان كل نوع من الادب ، لا بد وان يشتمل على هذه العناصر الاربعة ، ولا يخلوا من عنصر منها . وغاية الامر ، ان بعض الانواع الادبية قد يحتاج الى كمية اكبر من بعض العناصر مما يحتاجه من نوع آخر . فاذا كان الموقف عاطفياً كانت نسبة الحاجة الى العاطفة اكثر ، واذا كان منطقياً كانت نسبة الحاجة الى الاسلوب والمعنى اوفر ، وهكذا ..

شيء اخر : هو ان العاطفة اوسع مجالاً لتوضيح الشخصية . لذلك كان الشعر ، وهو مصدر العواطف ، اضبط المقاييس واصدقها لتفهم شخصية الفرد او الامة على السواء . بناء على ذلك كان اهتداء الباحثين السيكولوجيين الى درس نفسيات الشعوب على ضوء انعكاسات الادب وانطباعاته ، اهتداء لافضل السبل والحقائق .

ان شعراء موريتانيا (البيضان) هم شعراء « طبيعة » قبل كل شيء . وشعراء الطبيعة يختلفون — على العموم — اختلافا كبيراً في طريقة التناول : فالطبيعة يمكن ان تتناول بالطريقة الواقعية ، فتوصف المناظر كما هي في الحياة كما يفعل البيضان ، او بالطريقة المثالية الكمالية كما يفعل اللبنانيون والسوريون والمصريون ، وهي طريقة تقتضي

تكميل ما في الطبيعة بواسطة الخيال ، وهذا لا يتأتى الا للشعوب المتحضرة الى حد بعيد .

وشعر الطبيعة ، إما ان يهمل الانسان اهمالاً تاماً ، ويتكلم في مناظر الطبيعة ذاتها ، واما ان يتناول الطبيعة كمسرح للامور الانسانية . فالاول هو شعر الطبيعة الخالص ، والثاني هو شعر الطبيعة المركب . والشاعر الطبيعي الخالص ، اما ان يتناول الطبيعة تناولاً موضوعيا ، او تناولا ذاتيا . ولاقـدم على ذلك مثالين من شعر شعراء الصحراء الموريتانية ، اولها قول الحاج محمد فال العلوي :

نقبت بعمران البلاد ، وبالقفر ... وخضت بحور الآل في سفن البر !
وانضى عتاق الخيل سيري والسُّرى ... وهـدّم بنيان المشافر [1] بالظهر
الا ليت شعري ، هل لي الدهر عودة ... لحيٍ لدى بطحاء ، او ربوة السدر
اقاموا بها ، حتى اذا انسلخ الشتا ... توقوا سموم القيظ في حافة النهر
اذا ما شوت هيف [2] جلود سواهم ... تفوح عليهم من شذى الروض والزهر !

وثانيها قول ابن الطالب :

ان بين العقيق من بطن موج ... وقديس [3] لآل هنـد رسوما
تنكر العين آيهن ، ويأبى ... شغف النفس والدموع سجوما
هاج عرفانها لعشرين عامـا ... لي شجوين ، حادثاً وقديمـا
ظلْت في اي موقف الشوق مني ... يرحم اللائمون فيـه الملومـا

---

١ – المشافر : جمع المشفر ، وهو الشدة والمتعة . القطعة من الارض والرمل ، واستعيرت الشفة البعير .

٢ – الهيف : ريح حارة تيبس النبات وتعطش الحيوان وتنشف المياه . ومن أمثالهم : « ذهبت هيف لاديانها » لعاداتها . يضرب لمن لزم عادته .

٣ – اسماء أماكن معروفة في موريتانيا .

لا تسل ما جرى لخلك لما عاج بين الرسوم يبكي الرسوما
فلئن ظل في الديار ترِيهاً [1] ذكر الحي بالنهـــار النجومـــا !

ارايت كيف تنعكس صور البيئة المور يتانية في هذا الشعر كما تنعكس صور الاشياء المادية في المرآة الصافية ..؟ انه شعر « صحراء » حقا وصدقا .. قف قليلا عند هذا البيت : « نقبت بعمران البلاد الخ » في القطعة الاولى ، ولاحظ تجوال الشاعر في القفر وخوضه « بحور الآل » ، بحور السراب في الصحراء .. اما « سفن البر » فهم يعنون بها : الخيل والبعران .. فتأمل !

واليك هذه الصورة الوجدانية الأخرى للشاعر محمدو بن محمدي صاحب القطعة الرائية « تذكرت حياً » السابقة ، وهي تمثل الوان عواطفهم وطريقتهم الموريتانية في الحب والغزل :

زارت « عُليّ [2] » على شحط النوى ، سحرا فاعتاض جفنك عن طيب الكرى سهرا
زارت ، فبات نظام الهم مجتمعاً شوقاً ، وبات نظام الدمع منتثرا
فالقلب يغلي ، وجفن العين يسعده بمدمع ، كلما كفكفته انحدرا
يا رب مشتبهات لا منار لها من خاضها ، ركب الاهوال والغَرَرا [3]
ضافت الي ، ودوني من هوائلها ما يستتيه عن القصد القطا الكدرا [4]
عهدي بها ، لم تزر جاراتها كسلاً واهاً لها كيف باتت تسلك الوعرا !

---

١ — التريه : الواقع في الترهات . وفي البيت معنى عميق في غاية الجمال لا يخفى على الاديب الحصيف .

٢ — الاسم علية ، بضم العين وفتح اللام ، وحذفت تاء التأنيث للترخيم .

٣ — التعريض للهلاك .

٤ — الكدر بضم الكاف والدال جمع الكدرة : من الالوان ما لم يكن صافياً ومائل إلى السواد والغبرة . وهذا لون قطا بادية موريتانيا .

زارت معرّس [1] سفْرٍ بعدما ارتحلوا شهراً رواحاً وتهجيراً ومبتكرا
تهوي بهم راقصات العيس طاوية اخفافها من عراض البيد ما انتشرا
بزلاً ، سما النيّ في اثباجها [2] وعلى غربانها لبّدت اذنابها الخطرا
باتت تشق ظلام الليل نحوهم يا عظم ما كلفت اوحالها الفطرا [3]
ما انس لا انس ، والايام مولعةٌ بفرقة الشمل ، اذ خالستها النظرا
فأومأت بكحيل الطرف ، باسمة نحوي ، لكيما ارى ، ان الرقيب يرى .. !

انه شعر عربي مبين : اسلوبا ولغة وعروضا لا ريب فيه ! شعر لا غبار عليه .. اللهم الا غبار الصحراء ..! انه شعر الطبيعة المركبة من موات وحياة .. وبعبارة اوضح : شعر الصحراء المأهولة بالانسان والحيوان .. الصحراء التي يسقيها المطر من آن الى آن ، ويرتحل اهلها بين فصل واخر طلبا للنجعة واختيار المرعى .. فيصطحبون معهم (العليات) الجميلات اللواتي يقتفي اثرهن الشعراء المدنفون .. فتبارك الله ..!

* * *

لا ريب ان الحضري ، الناشيء في كبريات المدن العصرية ، المنطبع الذهن بالثقافة العصرية ، وحياتها وتقاليدها الاجتماعية ، سوف يجد شعر هذا الكتاب « غريبا » عليه .. الا اذا كان من ابناء المدرسة العربية القديمة ، فحينئذ لا يكون ثمة اية مفاجأة له ..

انه كما قلت لك في مستهل هذه الخلاصة الختامية : ليس شعراً

---

١ – المكان ينزل فيه للاستراحة ثم يستأنف منه الرحيل .

٢ – جمع بازل : البعير إذا طلع نابه واكتملت أسنانه ، والني بتشديد النون والياء : شحم السنام ، والاثباج جمع الثبج : أعالي السنام .

٣ – صغار الابل . وهنا يتضح جمال المعنى .. ومعظم شعرهم لا ينكشف لك جماله إلا بعد ان تفهم شروحه اللغوية .. وللعربية أسرار هم أسياد من عرفها !

لبنانيا ولا مصريا ولا سوريا ولا عراقيا ولا حجازيا .. انـــه شعر « موريتاني » خالص ، لا عوج فيه ولا أمتا ..

ليس عجيباً ان يكون كذلك ، بل العجيب اذا كان غير ذلك .. فالشعب الموريتاني صاحب نمط خاص من العيش ، ومن كان له نمط من العيش ، كان له نمط من التفكير !

— انتهى —

فهرست

	الصفحة
خطوط موريتانية (مصورة)	٥
وجوه علمية وأدبية (مصورة)	١٣
وجه موريتانيا الحديث (صورة العاصمة نواكشوط)	٢٤
خريطة مفصلة (داخلية) للبلاد الموريتانية	٢٥
الإهداء	٢٦
إقرأ (مقدمة شعرية)	٢٧
المقدمة	٢٩
الفصل الاول	٥٣
في مدار التاريخ :	
من شنقيط الى بوتليميت الى الرواد المسلمين بين المشرق والمغرب	
علماء وشعراء موريتانيا في المشرق	٥٥
حركة الهجرة الموريتانية الجديدة الى المشرق	٥٨

الشعر الحساني واللهجة الحسانية ٦٠
شنقيط واخواتها في لمحة تاريخية : ٦٣
مدينة آطار ٦٨
بلدة وادان ٧٠
مدن اسلامية أثرية ٧٢
قوافل الصحراء من عهد ابن بطوطة إلى اليوم ٧٥
قوافل شنقيط إلى مكة ٧٦
طريق موريتانيا ـ السنغال . عهد الخيول والجمال في أفريقيا ٦٩
بوتليميت مركز الثقافة الإسلامية في أفريقيا الغربية . ٨٢
لمحة عن المعهد الإسلامي في بوتليميت (نظامه الداخلي) ٨٥
عروبة البربر وطابعها القومي والأدبي في موريتانيا ٩٦
ادب الرواد المسلمين بين المشرق والمغرب ١٠٥
أبو القاسم البغدادي ١٠٦
ابن بطوطة ١٠٩
التجاني الرحالة التونسي ١١١
التجاني مع ابن اللحياني ١١٢
مذكرات في اوصاف البلدان (للتجاني) ١١٥
وصف مدارس طرابلس وعلمائها ١١٩

الفصل الثاني ١٢٣
في مدار اللغة وعبقريتها وانتشارها في آسيا وافريقيا وأروبا

عبقرية اللغة العربية ١٢٥
محاولة الكيد للفصحى ١٣١
الفصحى واللهجات الاقليمية ١٣٤

الإسلام فتح ثقافي وسياسي – الإسلام في الهند ١٤٣
مؤثراتنا على الهند ١٤٥
عصر الإزدهار الفكري والإتصال بالهند ١٤٨
« عالمية » أدبنا العربي ١٥٢
المخطوطات العربية بين موريتانيا والسنغال ١٥٧
مكتبات الزوايا والبيوت الكبيرة وشنقيط ١٥٨
مخطوطات نفيسة في دكار ١٥٩
ثلاث مجموعات من المخطوطات (بدكار) ١٦٠
أثر الكتاب في حياة العرب الروحية ١٦٣
المساجد دور تعليم وتثقيف ١٦٤
دور الكتاب في حياة العرب ١٦٦
نهضة الفاطميين – مصير المكتبات الإسلامية الكبرى ١٦٧
إنشاء مكتبات في المدارس (بالعواصم الإسلامية) ١٦٩
عناية الأوروبين بالكتب العربية ١٧٠
دعوة إلى صيانة التراث ١٧١
قصيدة ابن خلدون (اللامية) إلى الملك الظاهر ١٧٣
تقاليد المهاداة بين ملوك المغرب والملك الظاهر ١٧٧
مشكلة الخط العربي بين قاعدتين ١٨٥

الفصل الثالث

في مدار الشعر :

تعريف الشعر ١٩٣
شعر الطبيعة ١٩٨
شعر الانسانية ٢٠٢

الصنعة الشعرية ٢٠٤
عناصر الأدب ٢١٤
عنصر المعاني في الأدب الموريتاني ٢٢٣
« شعراء » لا ادباء ٢٣٠
ملاحظات عامة حول الشعر العربي (نقد ودراسة) ٢٣٣
الشعر الملحمي في القطر الموريتاني والجزائر (مقارنات ومقابسات) ٢٤٢
رسالة حُرمَ بن عبد الجليل وقصيدته ٢٤٤
الشعر الشعبي في موريتانيا والجزائر ٢٥٣
شعر الأراجيز عند الموريتانيين والأندلسيين ٢٦٥
الأرجوزة اليمنية (الدبلوماسية) ٢٦٩
الأراجيز الأندلسية ٢٧٢
قصيدة ابي البقاء الرندي (مقارنة) ٢٧٩

الفصل الرابع ٢٨٣
هجرة الأدب العربي الى اسبانيا – المغرب – موريتانيا :

في بلاد الفردوس المفقود ٢٨٥
تأثير الثقافة العربية بعد الفتح ٢٩٥
الفضل ما شهدت به .. (رسالة شكوى أندلسية من طغيان اللغة العربية وآدابها على عقول الشباب المسيحي الأندلسي !) ٢٩٦
مدرسة الحب والغزل ٣٠١
الموشحات ٣٠٥
مختارات من الموشحات الشهيرة ٣٠٨

الشاعر الشهيد ابن الأبار الأندلسي الموريتاني ٣١٧
نشأته العلمية ٣٢٠
آثار ابن الآبار ٣٢٢
سينية ابن الابار الثورية (لنجدة الأندلس) ٣٢٩
اوليات عن العلم والأدب وانتشارهما في موريتانيا ٣٣٥

الفصل الخامس ٣٤٧

المجتمع القبلي في موريتانيا ـ مجتمع الشاي والشعر :

انعكاسات المجتمع القبلي الجاهلي على البيئة الموريتانية ٣٤٩
الفقر والثراء في المجتمع القبلي (نظرات تحليلية) ٣٥٢
تمرّد الشعراء الصعاليك ٣٥٣
صعاليك .. ولكنهم عظماء ! ٣٥٦
المجتمع الطبقي العائلي (في موريتانيا) ٣٥٩
الشيخ سيديّ (الكبير) وآل الشيخ . ٣٦٠
قصيدة بن احمديّ (في مدح الشيخ عبدالله) ٣٦٢
إقرأ شعرهم تعرفهم ! ٣٦٥
حياتهم الإجتماعية وشرب الأتاي ٣٧٠
مقارنة (شعرية) بين وصفنا ووصفهم لها (قصيدة الصافي النجفي) ثم قصيدة محمد لحبيب ٣٧٢
مقارنة بين الشعر اللبناني والشعر الموريتاني (شواهد من شعر المؤلف وشعر المختار الحامد) ٣٨٤

الفصل السادس ٣٩٥
الشعراء القدماء (أخبار ونصوص) :

كتاب « الوسيط » وصاحبه (ترجمته ومصنفاته) ٣٩٧
نصوص من شعرهم (القديم) — * عبدالله بن محمد العلوي ٤٠٥
* حرم بن عبد الجليل العلوي ٤١٠
* محمد بن سيدي عبدالله العلوي ٤١٥
* باب بن احمد بيبَ ٤١٨
* محمد بن محمد العلوي ٤٢٠
* الهادي بن محمد الشاعر الزجال ٤٢٩
* حرمَ بن عبدالله ٤٣٥
* النابغة الغلاّوي ٤٣٦
* ابن الطلب ٤٣٨
ثورة على عادة التيمم والاستغناء عن الوضوء (للشاعر نفسه) ٤٥٤
* مولود بن احمد الجواد ٤٥٨
* المجيدري بن حبيب الله ٤٦٥
* صلاحي بن المامي ٤٦٧
* الشيخ سيدي ٤٦٨
* سيدي محمد (اللغوي والشاعر الكبير) ٤٧٢
* المختار بن بون الجكني ٤٩٥
* الإمام بن محمد الفغ الجكني ٥٠٠
* سيدي عبدالله ٥٠٢
* ابن السالم البوحسني ٥٠٩

* الأحول البوحسني ٥١٥
* محمد البوحسني ٥٢١
* الشويعر البوحسني ٥٢٧
* محمد محمود التركزي ٥٢٨
* الشيخ ماء العينين ٥٣٩
* اديبج بن عبدالله الكمليلي ٥٤٢
* عبد الودود الألفعي ٥٤٦
* أعمر مولود ٥٤٨
* العم بن احمد ٥٥١
* ابن الشد التندغي (معاوية) ٥٥٤
* احمد التندغي ٥٥٧
* بو فمّين ٥٥٨
* الأحنف المجلسي (متفرقات) ٥٦٠
* محمد عثمان بن اغشمث المجلسي — سيدي احمد بن الصبّار المجلسي ٥٦٣
* محمد بن الهدار — الشيخ سيد المختار الكنتي ٥٦٤

الفصل السابع ٥٦٧

الشعراء المحدثون (نصوص)

شعراء نقدمهم : ٥٦٩
* أبو بكر بن محمد بن ابي بكر (الفاضلي) ٥٧٢
* المختار الحامد (اخباره وشعره في ٣٩ صفحة) ٦١٥

محمد بن الوالد الديماني * محمد بن الشقروي ٦٥٤
* محمد المختار بن محمد فال العلوي * الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي ٦٥٥
* الأحول البوحسني * محمد عبدالله البخاري * الشيخ محمد الامام ٦٥٦
* محمد محمود بن احمذيّ الحسني ٦٥٧
* المختار السالم بن علي المالكي * محمد بن ابي الحسني ٦٥٨
* عبدالله العتيق اليعقوبي * سيدات ابن الشيخ أحمد الهيب ٦٥٩
* الشيخ سيد محمد ابن الشيخ سيدي ٦٦٠
* المختار بن محمد سالم الديماني * محمد بن أبياه الشمشوي ٦٦١
* محمد المام بن المختار الشمشوي
* محمد سالم بن محمد بن عبد الودود * محنّض بابا الديماني ٦٦٢
* ول ابنو (محمد بن حميده)
* محمد فال ولد عينين * محمد بن باكر ٦٦٧
* محمد بن عبدالله الشنجيطي ٦٦٨
* محمد بن أحمد يوره ٦٧٠
* محمد بن حنبل الحسني * محمد بن ففاء ٦٧١
* عبدالله بن عبد الرحمن * خطري بن خطري ٦٧٢
* محمد فال البناني ٦٧٥

الفصل الثامن ٥٧٦
المفردة العربية بين الحسانية والفصحى (نصوص ودراسة)

أمثالهم الحسانية ٦٨١

من وحي اللهجة الحسانية (بحث ودراسة ١٨ صفحة)	٧٠٢
أخبار ثقافية عربية مهمة من موسكو ونواكشوط	٧٢١
دنيا المرأة ـ ليل وقمر وشاعر	٧٢٩
خلاصة وختام	٧٣٥
فهرست	٧٤٤

KASHMIR UNIVERSITY
Iqbal Library
Acc. No 311764
Dated 27-5-91

Date........................

Call No..........

Account No..........

J. & K. UNIVERSITY LIBRARY

This book should be returned on or before the last stamped above. An overdue charges of 6 nP. will be levied for each day. The book is kept beyond that day.

منشورات

مكتبة الوحدة العربية

الدار البيضاء

●

صدر حديثاً :

يوميات صحافي	محمد التازي
نبضات فكرية	عبد الكريم غلاب
القصة المغربية الحديثة	محمد الصادق عفيفي
النصوص الادبية والقراءة	عمر الدسوقي ــ أحمد أقلال
	عثمان جوريو ــ محمد الصادق عفيفي
شعراء موريتانيا	محمد يوسف مقلد

●

تحت الطبع

مقاصد الشريعة الاسلامية	علال الفاسي
المتمردة	محمد التازي

مطابع دار العلم للملايين
بيروت